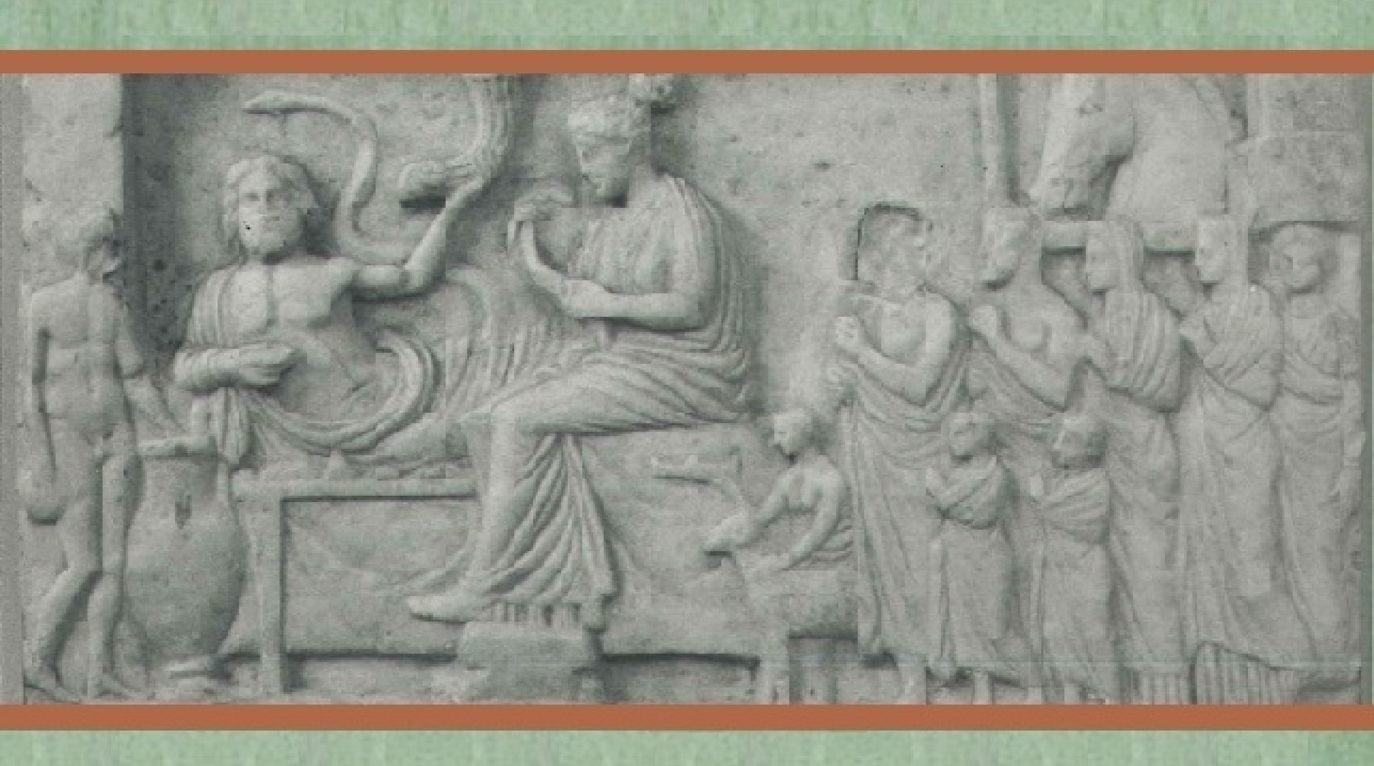
الإغريق

تاريخهم وحضارتهم

من حضارة كريت حتي قيام إمبراطورية الإسكندر الأكبر



تأليف

دكتور : سيد أحمد علي الناصري

أستاذ التاريخ القديم - كلية الآداب - جامعة القاهرة

الإغريق
تاريخهم وحضارتهم

من حضارة كريت حتى قيام
امبراطورية الاسكندر الأكبر

دكتور
سيد أحمد علي الناصري
استاذ التاريخ القديم
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية منقحة ومزودة

دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت
القاهرة

Magistro Meo

Professor Dr. : Abdullatif Ahmed Ali

hoc librum

Dedicatio

MCMLXXVII

Anno Domini

بسم الله الرحمن الرحيم

تصــدير الطبعة الأولى

انه ليسعدنى أن أقدم للمكتبة العربية كتابى هذا عن تاريخ الأغريق وحضارتهم •

أننى لا أدعى لنفسى تجديدا يتميز عما تزخر به المكتبة الأوربية من معلومات غزيرة فى هذا الموضوع ولكنه يحق لى أن اعتز بتقديم عمـل مكتوب بتفكير عربى لأن مؤلفه قرأ وهضم ثم صاغ التاريخ بطريقـة تناسب المفهوم والشكل العربى •

كذلك فانه ليسعدنى أن أبدى اهتماما عنـد كتابة تاريخ الاغريق بالعلاقات الحضارية بين شرقنا الأوسط ومصرنا العزيزة من ناحية وبين هذا الشعب العريق من ناحية أخرى فى حين أن معظم المؤلفات الغربية لا تعطيها سوى القليل أو تسقطها من حسابها لأن لنا رسالة فى تدريس تاريخ الاغريق وهو تعميق المفهوم والاصالة الحضارية لخلفاء الحضارات العريقة قبل أن نطلب المعرفة لذات المعرفة •

كذلك فاننى لم أحاول أن أقدم تاريخا سياسيا بل آثرت أن أقدم تاريخا يعكس العقلية الأغريقية بفكرها وفنها وخيالها • وذلك نابع من ايمانى بأن التاريخ « معرفة » هدفها الأول تعريف الناس بالناس رغم تفاوت الزمان واختلاف المكان •

ان قضية الاختيار من المنجم التاريخى أمر صعب لأن المؤرخ لايقدر على كتابة كل التاريخ فى كتاب واحد يطلب بعده من الطالب استيعابه • ومن ثم كان على مقدم التاريخ للقراء أن يصوغ من منجم المعرفة التاريخية

تاريخا مناسبا فى وسع القارىء العربى استيعابه • ومن ثم كان من حقى أن أختصر وأسقط وأمر مرورا سريعا على ما أراه بذي قيمة محدودة أو ذي اثر فى الأحداث محدود • كما أننى لم أستطع أن أكبح جماح اهتمامي ببعض الموضوعات المعينة لأن للمؤرخ ضمير مثل باقى الناس • ولهذا لم أتردد فى أن أسجل أى فكرة جديدة يشيرها عقلى ولكن فى هوامش الكتاب لكى لا أفرضها على الناس •

انها بداية محاولة وليس نهايتها وأملى أن أدوام مستقبلا على الاضافة والمراجعة حتى يستكين فؤادى ويقتنع عقلى بأن هذا كل ما يمكن أن يقال عن هؤلاء الذين صنعوا هذه الحضارة العريقة •

وقل رب زدنى علما واجعلنى من الصالحين •

كلية الآداب — جامعة القاهرة

ديسمبر ١٩٧٣

تصدير الطبعة الثانية

كان للنجاح الغير متوقع الذى حققته الطبعة الأولى أثره الكبير فى نفسى ، فقد نال الكتاب اعجاب زملائى القائمين على تدريس تاريخ الاغريق وحضارتهم فى الجامعات المصرية وأوصوا طلبتهم بالرجوع اليه من أجل مزيد من المعرفة ، أما أساتذتى الكبار فى هذا الفرع من الدراسات الانسانية فقد أبدوا مشكورين ملاحظاتهم فى اعداد الطبعة الثانية وأود أن أخص بالذكر والشكر الأستاذ العلامة الدكتور ابراهيم نصحى الذى كان مرجعا لى فى كل مشكلة قابلتنى وكذلك الأستاذ الكبير محمد محمود السلامونى الذى قدم لى نصائحه وارشاداته خاصة فيما يختص بتعريب بعض المصطلحات الاغريقية الى العربية •

والله الموفق

كلية الآداب — جامعة القاهرة

يناير سنة ١٩٧٦

الفصل الأول

مدخل الى الموضوع

هيللاس أو اليونان هى ذلك البلد الجميل الذى يرتمى فى أحضان البحر المتوسط والذى اليه يتدفق السائحون من كافة أنحاء العالم وخاصة من القارة الأوربية ، بحثا عن الشمس والهدوء الطبيعى ، ربيعا وصيفا ، شتاء وخريفا . ومن أهم الدوافع التى تشجع الناس على الذهاب الى اليونان هو مكانتها الحضارية القديمة وتراثها الثقافى والفنى الكبير الذى ساهم به شعبها فى حضـارة الانسان على مـدى قرون طويلة اذ ظلت الحضارة الهللينية تثرى الفكر الانسانى منذ أواخر الألف الثانى قبـل الميلاد وحتى القرن السابع الميلادى وعلى ضفاف النيل وحدة ترعرعت هذه الحضارة لألف عام ، فهو البلد الذى قدم للعالم الالياذة والاوديسا وروائـع التراجيـديا المسرحيـة كأعمـال ايسخولوس وسوفوكليس ويوريبيديس وملاهى ارستوفانيس وميناندر الساخرة ، وهو البلد الذى أخرج فلاسفة لا تزال أبحاثهم من المعـالم الكبرى فى طريق البحث عن المعرفة والحقيقة كأمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وهو البلد الذى تزخر متاحفه ومتاحف العالم بأعمال فنانيه الخالدة سواء فى العمارة ، والنحت من أمثال فيدياس وبراكستيليس وسكوباس ليكوبوس ، أو فى الرسم على الأوانى الفخارية ، وغيرها من ذخيرة التراث الفنى الانسانى ولاتزال أطلال المعابد تطل متحدية الدهر بعظمتها وجمالها . كذلك فان الدارس لتاريخ الاغريق سوف يجد فى دراسته منجما غنيا بالتطورات السياسية من كل

جنس ونوع والتى كان لبعضها أكبر الأثر فى سير التاريخ الانسانى (١)، كما ساهم المفكرون الاغريق فى بعض المشاكل السياسية التى لا تزال الشغل الشاغل للمفكرين المعاصرين • واذا كان يحق للأوروبيين أن يولوا دراسة الحضارة الاغريقية (والرومانية) أهمية خاصة باعتبارها أول حضارة أوروبية ولأن تراثهم الثقافى والحضارى ينحدر من جذور اغريقية رومانية فأننا يجب نحن أبناء الشرق الأوسط (٢) وخاصة نحن المصريين أن نلفت انظر الى حقيقة تاريخية هامة وهى أن الحضارة الاغريقية نفسها قد حوت عناصر فكرية حضارية مبعثها مصر ودول الشرق الأوسط •

واذا كان قد قدر للحضارة الأوروبية ــ التى شملت الى جانب تراث الاغريق والرومان حضارة مصر والشرق القديم وحضارة العرب الاسلامية أن تشكل حضارة العالم المعاصر فان دراستنا لها كعرب وكمصريين تعنينا ، لا لأننا جزء من العالم المعاصر بل لأننا ساهمنا فى

---

(١) لقد حدد الاغريق الكثير من خصائص الفكر الانسانى ويكفى ان نشير الى الصيغ التى نزال نستخدمها فى عالمنا المعاصر فى مناهج السياسة والفكر مثل الملكية monarchy والأرستقراطية aritocracy والديمقراطية democracy، والأوليجارخية أو حكام الأقلية Oligarchia والديماجوجية أو الغوغائية demagogia وحكم الطغاة Tyranny فضلا عن اثراء الأداب والعلوم بالألفاظ مثل الملحمة الشعرية Epic والقصيدة الغنائية lyric والرواية التمثيلية drama والمسرح Theatre والمأساة أو التراجيديا tragedy والكوميديا Comedy والشعر Poetry وعلم الفيزياء Phyics والفلك astronomy والرياضة mathematics والتاريخ history والفلسفة Philosophy والمنطق logic وعلم النفس Psychology كلها من صياغ الاغريق أو تطوير من صياغتهم . انظر رمزى عبده جرجس : تاريخ الحضارة الهللينية تاليف ارنولد توينى ــ اكسفورد ١٩٥٩ (سلسلة الالف كتاب القاهرة ١٩٦٣ انظر أيضا : تراث العالم القديم تاليف و. ج. دى بورج ترجمة زكى سوس ومراجعة صقر خفاجة ــ دار الكرنك ــ سلسلة الالف كتاب القاهرة ١٩٦٥ ص ١٤٦ .

(٢) عن تراث الشرق الأوسط والحضارة الهللينية فيه انظر الكتاب الشيق

F.E, Peters: The Harvest of Hellenism. A Historyof the near East from Alexander, the Great to the triumph of Christianity. New York 1970,

الحضارة الاغريقية ذاتها بقدر ما ساهم أجداد الأوروبين • أضف الى ذلك أن جزءا كبيرا من الوطن العربى كمصر وشمال أفريقيا والساحل السورى كانت من أهم منارات الحضارة الاغريقية فى وقت ما وقد حفظت مصر بالذات التراث الاغريقى من خلال مدنها الاغريقية كالاسكندرية ونقراطيس وبطلمية وأكسيرينخوس وانطينوبوليس. ومدن اقليم الفيوم المختلفة • ولولا رمال مصر الدفيئة ماعرف العالم الأوروبى الكثير عن حضارته الاغريقية (١) • والى جانب دور مصر الحضارى فى هذا المجال فان أجدادنا العرب أيضا قد حافظوا على هذا التراث من الاندثار فى فترة كانت أوروبا تمر فيها بمرحلة من أحلك مراحلها ولا يزال الأوروبيون يعترفون بفضل العرب فى هذا المضمار بل ويحتفلون بالمفكرين العرب من أمثال ابن سينا وابن رشد والفارابى وغيرهم من الفلاسفة الذين قاموا بجمع وترجمة أعمال أغريقية كثيرة ومتنوعة الى العربية فحموها بذلك من الاندثار (٢) اذا فدراسة الحضارة الاغريقية تهم العربى فى الحقيقة أكثر ماتهم الأوربى ، لأنه ساهم فيها أصلا ثم تثقف بها وحماها وقدمها للأوربيين عندما بدأت أوروبا تستيقظ من غفوتها ثم استقبلها مرة أخرى مع الحضارة المعاصرة الآتية من أوروبا مع عصر النهضة الحديثة •

---

(١) من الادبيات التى اخرجتها رمال مصر مؤلفات الشاعرين الكايوس وباخيليديس وبعض مسرحيات ميناندروس النادرة ومسرحيات هيرونداس الصامتة (بانتوميم) وكتاب أرسطو عن دستور الاثينيين وكانت هذه الاعمال قد فقدت كلية من المخطوطات الادبية الأغريقية التى كان الرهبان فى العصور الوسطى ينسخونها فى الأديرة .

(٢) انظر عبد الرحمن بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية دراسات لكبار المستشرقين الطبعة الثانية ١٩٤٦ ، كذلك جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الاوربية ـ مكتبة الانجلو القاهرة ١٩٦٠ ، أيضا انظر « ما خلفته اليونان ـ لجنة الترجمة والنشر (مترجم) المطبعة الأميرية ١٩٢٩ (تاليف نخبة من اساتذة جامعة اكسفورد) ، أيضا انظر : تمام حسان مسالك الثقافة الاغريقية عند العرب تاليف أوليرى ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٧ . كذلك انظر محمد مفيد الشوباشى العرب والحضارة الأوربية ـ المكتبة الثقافية ٣١٧ القاهرة ١٩٧٥ ص ٣٢ وما بعدها أيضا انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : المدينة الاسلامية واثرها فى الحضارة الاوربية الطبعة الاولى القاهرة دار النهضة العربية ١٩٦٣ ص ٣١ وما بعدها .

الموقع الجغرافى لبلاد اليونان واثره على تطور حضارتها :

تعرف بلاد اليونان فى اللغة اليونانية القديمة والمعاصرة باسم هيللاس Hellas وهى تشمل شبه جزيرة البلقان والجزر المنتشرة فى بحر ايجه وكذلك المدن اليونانية المنتشرة على ساحل آسيا الصغرى • وأطلق الاغريق على أنفسهم لفظ Hellenes أو « الهللينيين » ولكن الرومان أطلقوا عليها اسم Graeci (١) وهو فى الحقيقة اسم قبيلة هللينية نزحت من اقليم بيوتيا Boeotia فى شمال بلاد اليونان الى جنوب ايطاليا وسرعان ما أصبح الاسم الرومانى هو الذى اشتهر به هذا الشعب فى اللغات المعاصرة •

وتبلغ مساحة بلاد اليونان ما يقرب من خمسين ألف ميلا مربعا (٢)• وهى فى طبيعتها أرض قفرة جبلية ، قليلة الخصب ، ولو ألقينا نظرة على موقع البلاد من خريطة أوروبا ، لراعنا أنها تحتل جزءا حيويا من القارة ذاتها اذ أن شبه جزيرة البلقان بالنسبة لأوروبا هو شبه الجزيرة الشرقى (لأن هناك شبه الجزيرة الأوسط وهو شبه الجزيرة الايطالية وشبه الجزيرة الغربى وهو شبه جزيرة أيبريا) كما أنها تطل على حوض البحر الأبيض المتوسط جنوبا والبحر الادرياتيكى غربا وبحر ايجه شرقا • كما نلاحظ انتشار الجزر اليونانية الصغيرة وخاصة فى بحر ايجه (٣) وعلى طول ساحل آسيا الصغرى ، لقد كانت هذه الجزر بمثابة جسر بحرى

---

(١) ومنه اشتق العرب لفظ « الاغريق » اما لفظ « يونانى » فهو لفظ متوارث من اللغات السامية القديمة ومشتق من لفظ « ياوانيين » الذى اطلقه اهل الشرق الأوسط القديم على الهللينيين وربما أيضا مشتق من لفظ « أيونى » خاصة أن المستوطنات الأيونية انتشرت فى آسيا الصغرى المتاخمة لحدود الشرق الأوسط . لكننى آرت ان استخدام لفظ الاغريق لأنه شائع فضلا على انه يحدد مفهوم الحضارة الهللينية القديمة ولا يخلط بينها وبين اليونان الحديثه .

(٢) للمزيد عن اثر الجغرافيا والتضاريس على الحضارات الاغريقية ارجع الى : عبد اللطيف أحمد على ـ التاريخ اليونانى : العصر الهيللادى دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧١ ص ٧ ـ ٤٨ حيث عالج ذلك بأسهاب ودقة .

(٣) يوجد فى بحر ايجة وحده حاليا ٤٨٣ جزيرة وفى غرب بلاد اليونان ما يقرب من ١١٦ جزيرة : عبد اللطيف احمد على المرجع السابق ص ٢٥ .

يربط آسيا وأوروبا ، كما نلاحظ أيضا أهميـة موقع جزيرتى كريت وقبرص فى البحر الأبيض وقربهما من ساحـل أفريقيا الشمالى وأعنى ليبيا ومصر .

أما من ناحية تضاريس بلاد اليونان فنلاحظ أنها تتميز بوجود الجبال الوعرة التى تحول دون قيام اتصال سهل بين أجزاء البـلاد نفسها اذ قسمت هذه الجبال ـ التى تقف كعوائق طبيعية ـ البلاد الى مجموعة من الوديان والسهول منعزلة بعضها عن بعض ولقد كان لموقع البـلاد وتضاريسها الجغرافية أشد الأثر على تفكير الاغريق وعلى حضارتهم فنلاحظ مثلا :

أولا : قرب بلاد اليونان من الشرق الأسط منبع الحضارات سواء من مصر أو بلاد الهلال الخصيب جعل بلاد اليونان بمثابة البوابة الشرقية لأوروبا والتى منها تدفقت حضارة الشرق القـديم وكما كانت جزيرتا قبرص وكريت بمثابة المعبر الجنوبى للاتصال التجـارى والحضـارى لساحل أفريقيا الشمالى كما كانت الجزر اليونانية فى بحر ايجه وعلى طول ساحل آسـيا الصغرى بمثابة الجسر الشرقى بين أوروبا وآسـيا الصغرى . كما كان ساحل شبه القارة اليونانية الغربى والجزر التى فيه وخاصة جزيرة كوركيرا Korkyra بمثابة البوابة الغربية لبلاد اليونان حيث حمل التجار والمهاجرون الاغريق الحضارة الى شبه الجزيرة الايطالية . وبذلك ساعد الموقع الجغرافى بلاد اليونان على أن تقوم بدور المستورد لحضارات الشرق والموزع لها فى باقى أنحاء القارة الأوروبية .

ومن الجدير بالذكر أن تصور الاغريق للعالم المسكون كان يختلف عن تصورنا الحديث . لأن عالم الاغريق كان أضيق بكثير من حدود عالمنا ، اذ لم تكن أوروبا بالنسبة للاغريق سوى سـواحلها الجنوبية المطلة على البحر المتوسط والمحصورة بين بحر ايجه وبحر الادرياتيك والبحر التيرانى، وكانت قارة آسيا بالنسبة لهم هى آسيا الصغرى (Asia Minor) بشواطئها المطلة على بحر ايجه من مدخل البسفور الدردنيل شمالا حتى الشاطىء السورى والفينيقى بالاضافة الى المنطقة الداخلية الواقعة الى

الشرق داخل صحراء الشام الكبرى حتى بلاد الرافدين Mesopotamia ، حيث مهد العديد من الحضارات التى تعلم منها الاغريق الكثير وآخر آسيا بالنسبة لهم كان هضبة ايران وسهولها الممتدة شرقا حتى بحر قزوين أما الهند فقد بقيت حتى وقت متأخر بالنسبة لهم طلسما غريبا وبلادا خرافية تقع قريب طرف العالم المسكون أما قارة أفريقيا فكانت بالنسبة للاغريق هى المنطقة الوسطى من ساحل أفريقيا الشمالى والتى أطلق عليها الاغريق اسم لوبيا أو ليبيا Libya .

ثانيا : ان التضاريس الوعرة والجبال التى قسمت اليونان الى مجموعة من الوديان الصغيرة المنعزلة لصعوبة الاتصال بينها ، أدت الى اعاقة الاتصال وظهور العزلة الحضارية بين المناطق المختلفة فى بلاد اليونان ومن ثم فقد أدى ذلك الى ظهور العزلة الفكرية والسياسية بين أقاليم البلاد المختلفة ، فقد نشأ نتيجة لذلك نظام دويلات المدن Poleis (٢) وخاصة حول المدن الكبرى والهامة . وأصبح على كل مدينة Polis أن تعتمد على نفسها اعتمادا ذاتيا من الناحية الاقتصادية Autarkia كما تشبثت كل مدينة باستقلالها السياسى Autonomia وتمسكها بالحرية Eleutheria اذ أن العوائق الطبيعية الجغرافية وقفت حائلا دون قيام وحدة سياسية شاملة بل جعلتها مدنا متفرقة متصارعة ومتنافسة والحرب بينها ظاهرة طبيعية على مر التاريخ . وبالطبع كان ذلك على حساب الحضارة الاغريقية نفسها التى دفعت ثمنا باهظا نتيجة للحروب المتعددة.

كذلك كان من نتائج وعورة التضاريس البرية أن اتجه الاغريق الى البحار كوسيلة للاتصال اذا كان من الاسهل على الاغريقى أن يركب

---

(١) انظر عبد اللطيف احمد على المرجع السابق ص ١٠ .

(٢) جدير بالذكر أن نشير الى أن نظام دويلة المدينة Polis أوجده أولا شعوب الشرق القديم خاصة « السومريون » منذ القرن الثلاثين قبل الميلاد وهو نظام لايختلف كثيرا عن النظام الذى ساد بين الاغريق . أيضا جدير بالذكر أن نشير الى أن السومريين كانوا أول من أوجد نظام مجلس الشيوخ ومجلس المحاربين (المجلس الشعبى) وهذا مؤكد على الأقل فى مدينة أوروك (الوركاء) ويذكرنا بالنظام الذى أقام عليه الأثينيون نظام حكمهم المسمى باسم الديموكراسيا (الديمقراطية) وهذا يبين مدى مساهمة حضارة الشرق القديم فى الحضارة الاغريقية .

البحر منطلقا فيما ورائه ، على أن يتحمل مشقة اجتياز المرتفعات والجبال والوديان ومن ثم فقد كانت الحضارة الاغريقية حضارة بحرية تجارية عالمية منذ بدايتها وكان الأسطول وخاصة فى أثينا ــ عاملا هاما من معالم الحضارة والتجارة بل وارتبط اسمه الديموقراطية الاثينية . وهكذا وجد الاغريقى من السهل عليه أن يعمل بالبحر والتجارة ومن ثم سافر الى جهات بعيدة وعاد معه بذور وأفكار من حضارات أخرى طور منها حضارته . بعد أن أضاف اليها كل ما استطاع أن يصل اليه عن طريق قدراته الخاصة .

ثالثا : ان فقر التربة وقلة الأراضى الصالحة للزراعة والتى لم تتناسب مع الازدياد المضطرد فى عدد السكان ، دفع السكان الى الهجرة بحثا عن أرض جديدة ، وقد ساعد ذلك على انتشار المدن المستوطنات الاغريقية فى مناطق شتى من العالم كما دفع السكان الى البحث عن حرف غير زراعية مثل التجارة والصناعات الفنية ومن ثم فان حضارة بلاد الاغريق لم تكن فى جوهرها حضارة زراعية كحضارة مصر أو بلاد الهلال الخصيب بل كانت حضارة تجارية صناعية قبل أن تكون زراعية .

رابعا : كان لعامل المناخ أثره الكبير فى الحضارة الاغريقية ، فطقس البلاد الدفىء المعتدل وشمسها المشرقة طوال العام الى جانب نوع التراكيب الجغرافية من جبال وسهول وأنهار ووديان ساعد على نمو ونضوج العقلية اغريقية وجعلها أكثر تحررا وتنوعا وأقل جمودا من غيرها كما شجع السكان على قضاء وقت أكبر خارج ديارهم ولهذا فقد اهتموا بالرياضة البدنية التى كانت من أهم مميزات مظاهر الحياة الاجتماعية (١) كما أصبح من الضرورى على الفرد أن يلم بشئون مدينته السياسية

---

(١) اشتقت كلمة politics أى « علم السياسة » من لفظ polis لان الحديث فى شئون المدينة خلال الجلوس فى سوق المدينة العام (agora) كان فى نظر الاغريق هو السياسة ولكن بمفهوم مجتمع المدينة واحوال الناس وليس السياسة الخارجية كما ذكر ارسطو أن الانسان حيوان سياسى (اى اجتماعى) انظر : Ernest Parker: Greek Poletical Theory London 1960 Paperbacks) p. 12 ff.

أيضا انظر : الطبيعة الاغريق : تاليف ايرفين شرودنجر وترجمة عزت قرنى ومراجعة محمد صقر خفاجة القاهرة دار النهضة العربية١٩٦٢

والاجتماعية وهذا يبين الدور الهام الذى لعبه سوق المدينة Agora والذى كان من أهم معالم المدينة الاغريقية القديمة • أيضا ساعد التنوع الجغراف وامتداد البحار الشاسعة حول شبه الجزيرة اليونانية على نمو الخيال الفنى الذى تزخر به أساطيرهم • فقد طاب للاغريقى أن يمزج الحقيقة بالخيال ولذا يجب الاشارة دائما الى الأسطورة ومن الأسطورة سوف نحاول البحث عن حقيقة هذه الحضارة الخالدة •

الاسطورة والدين الاغريقى :

سبق أن ذكرنا أن الاغريق أطلقوا على أنفسهم اسم الهللينيين واذا أردنا البحث عن سبب تسميتهم لأنفسهم بهذا الاسم لوجدنا أنفسنا ندخل الى أعماق الأساطير والديانة الاغريقية ، اللتان لا غنى لدارس الحضارة والتاريخ عن الالمام بهما • وسوف نبدأ بمعالجة سريعة وشاملة لآلهة الاغريق الكبرى •

تروى الاساطير الاغريقية أنه فى البدء[1] كانت الفوضى[2] Chaos ثم خلقت الارض Gaea مسطحه وصلبه تخفى من تحتها الجحيم Tartarus ومن الأرض تخلقت السماء Uranus والجبال والانهر والمحيط Oceanus ومن زواج الارض بالسماء جاءت المردة Titanes وهم مخلوقات شيطانية

---

(١) ربما كان من الطريف لو قارنا ذلك بتفسير مدرسة اوون المصرية (هليوبوليس) للوجود والتى تقول انه فى البدء كان النون (المحيط الأزلى) ومن النون برز اتوم الذى ذرأ عن نفسه كلا من « شو » رب الهواء وتفنوت ربة الرطوبة وبزواجهما انجبا الرب جب (الارض) والربه نوت (السماء) واللذان بدورهما انجبا أوزوريس وايزيس وست ونفتيس • مع ملاحظة انه بينما اعتبر الاغريق الأرض انثى والسماء ذكرا اعتقد المصريون عكس ذلك •

(٢) جدير بالذكر ان الاستاذ احمدامين ترجم كلمة Chaos «بالعماء» وشرح ذلك بأنه اللفظ التى يعنى المادة التى هى على حالة اختلال وعدم انتظام قبل ان تخلق ودعم رأية برد الرسول عليه افضل الصلاة والسلام عندما سألوه : « اين كان ربنا قبل ان يخلق السموات والارض ؟ فأجاب صلى الله عليه وسلم فى عماء تحته هواء وفوقه هواء» انظر مبادىء الفلسفة تاليف رانوبرت ترجمة احمد امين الطبعة الثامنة ـ دار النهضة المصرية ١٩٧١ ص ١٩٧ ملحوظة (١) •

غلاظ القلوب محبة للعنف والفوضى مما أقلق أباهم الاورانوس (السماء) فألقى بهم في الجحيم ولكن الارض استاءت لفعله وعز عليها أن ترى أبناءها سجناء في الجحيم فحرضتهم على الثورة ضد أبيهم بل وأمدتهم بمعدن الحديد ليصنعوا منه سلاحا وتزعم المردة كرونوس Kronos، الذى استطاع أن يقتص لاخوته بأن عزل أباه أورانوس عن عرشه وتربع مكانه وظل على ذلك عشر سنين حتى ثارت المردة مرة أخرى واشتبكت في عراك مرير ضد الآلهة عرف باسم صراع المردة Giagantomachia وانتهى هذا الصراع الذى يرمز للصراع بين النظام والفوضى وبين الخير والشر بانتصار الآلهة والزج بهم مرة أخرى الى الجحيم Tartarus وتولى الحكم ابن كرونوس الاكبر وهو زيوس كبير الآلهة،وكان كرونوس قد أنجبه بعد زواجه من أخته ريا Rhea وكذلك أنجب منها بوسيدون Poseidon رب البحار والمحيطات وهاديس Hades رب العالم الاسفل كما أنجب كرونوس بنتا واحدة هي هيرا Hera التي تزوجت من أخيها زيوس وأنجبت منه معظم الآلهة التى كانت تعيش فوق قمة الاولمبوس Olympus(١) الذين سوف نذكرهم فيما بعد . هكذا حكم زيوس من فوق قمة جبل الأولمبوس ونصب من نفسه كبيرا على الآلهة والبشر وقد اعتمد زيوس في حكمه للآلهة على قوته التى كانت تتمثل في أسلحته الشهيرة كالبرق والرعد والصواعق كما تحكم في زمام السماء وما يتصل بها كالمطر والسحب والرياح بينما ترك لأخيه بوسيدون مطلق التصرف في البحار والمحيطات ووهب أخاه الآخر هاديس Hades مملكة العالم الأسفل فبقى فيه يحكمه ويتحكم فيه . كما اتفق زيوس وأخواه أن يوجدوا للبشر حياة بعد الموت يحيونها في مملكة هاديس السفلى .

وقد عرف زيوس بكثرة غرامياته ومغامراته مع (٢) النساء اذ اتخذ

(١) يقع هذا الجبل الشاهق في شمال اقليم تراكيا وعلى حدود مقدونيا حيث تصور الاغريق انه أطراف العالم المتحضر أى الاغريقى .

(٢) للمزيد عن الاساطير : انظر عبد اللطيف احمد على ومحمد صقر خفاجه : أساطير اليونان . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٥٩ . أيضا انظر: H.J. Rose: A Handbook of Greek Mythology Methuen revised edition 1958 ; also John Pinsent : Greek Mythology London 1969.

له العديد من العشيقات مما أثار عليه غضب زوجته وأخته ، هيرا فى كثير من الأحيان وحدث ذات مرة أن ضاق « زيوس » ذرعا لما رآه من فساد فى أخلاق البشر وتزايد فى شروهم فقرر أن يهلك الخلق ثم يعيده فأغرق بلاد اليونان بطوفان لم ينج منه أحد سوى زوجان من البشر هما ديوكاليون Deucalion وبورها Pyrrha اذ سبق لرب الأرباب أن حذرهما وأخبرهما مسبقا بأمر الطوفان . فصنعا سفينة حملتهما عبر جبال المياه حتى رست فوق جبل البارناسوس Parnassus وهناك استقبلهما هرميس رسول زيوس مقدما لهما الهدايا ومهنئا بسلامة الوصول . ولكن ديوكاليون وبورها شكيا لرسول الآلهة من وحدتهما وأنهما لا يقدران على العيش فى عالم خال من البشر فقيل لهم أن يلقوا أحجارا وكلما فعلوا ذلك تحولت الأحجار الى بشر رجالا ونساء . وأقام ديوكاليون وبورها فى رغد من العيش وأنجبا بنينا وبناتا ومن بين أبنائهما « هيللين » جد الهللينيين الأسطورى .

١ - آلهة الاولمبوس :

تصور خيال الاغريق أن الآلهة الكبرى وعددها اثنى عشرة ربا وربة من الناحية الرسمية وأربع عشرة ربا وربة من الناحية العرفية (١) ، كانت تعيش فى مجمع Pantheon فوق جبل الأولمب تحت رياسة زيوس نوجزها على النحو التالى :

زيوس : Zeus يعرفه الرومان باسم جوبتر (Jupiter) هو رب الأرباب وحاكم الكون المطلق من فوق جبل الأولمبوس ، تتصل عبادته بأسماء مناطق كثيرة من بلاد اليونان مثل دودونا Dodona باقليم أبيروس Epirus غرب بلاد اليونان حيث كانت مركز نبوءته ، وكذلك فى أولمبيا Olympia باقليم ايليس Elis فى غرب اقليم البلوبونيز حيث يلتقى

---

(١) وذلك بعد تسلل الربه ديميتر وابنتها « كورى » او برسيفونى الى مجمع الآلهة .

نهرا كلاديوس Kladeus والفايوس Alphaeus الذين خلدتهما الأساطير وأعمال الفنانين وكانت أولمبيا من أشهر الأماكن اتصالا بزيوس اذ كان يجرى فيها أعياد ومهرجانات رياضية (سميت بالأولمبية نسبة لهذا المكان) تكريما له كل أربعة سنوات ٠ كما كانت أولمبيا مقر عبادته حيث تطور معبده من حجر مقدس Altis وسط الأحراش الى معبد من أشهر المعابد الاغريقية فى العصر القديم بنى ما بين عامى ٤٦٨ و ٤٥٦ ق٠م ٠ وقد اشتهر هذا المعبد بالأعمال الفنية الجميلة وخاصة رسوماته الرخامية المحفورة على واجهة المعبد Pediment كما ارتبط هذا المعبد باسم فنان العصر الكلاسيكى الشهير فيدياس Pheidias الذى صنع تمثالا عملاقا لزيوس من العاج والذهب (Chryselephantine) ٠ وقد ظل هذا المعبد باقيا حتى دمره زلزال فى القرن السادس الميلادى ٠ وعلى شمال هذا المعبد كان يقف معبد زوجته هيرا والذى اشتهر باسم الهيرايوم Heraeum ٠ وقد أخرجت الحفائر الاثرية التى أجريت فى هذا المكان منذ عام ١٩٢٦ الكثير من المواد الاثرية الهامة ٠

٢ — هيرا : Hera وقد عرفها الرومان باسم Juno وهى شقيقة زيوس وقرينته الشرعية ، وكانت الربة المختصة بشئون النساء والحامية للزواج وللأسرة والى جانب معبدها فى أولمبيا عبدت فى مدينة Argos فى أسبرطة وكذلك فى جزيرة Samos بالقرب من شاطىء آسيا الصغرى٠

٣ — أثينا : وتعرف عند الرومان باسم مينرفا باللاس (Minerva Pallas) وتروى الأساطير الاغريقية أن زيوس ضاق ذرعا بربة العقل والحكمة ميتس (Metis) وخاصة بعد أن أنذر من خطر الانجاب منها فقرر التخلص منها ولم يجد خيرا من أن يبتلعها فى جوفه ٠ وما أن فعل ذلك حتى أصيب بصداع شديد فى رأسه جعله يصرخ من الألم ووقفت الآلهة حيال ذلك لا حول لها ولا قوة ثم نودى على اله الحدادة هيفايستوس Hephaestus وبعد أن تفحصه زيوس انهال على رأسه بفأسه ففجها وسرعان ما قفزت منها الربة أثينا مدججة بالسلاح وتصرخ صيحات الحرب ٠ وقد ورثت أثينا الحكمة عن أمها كما كانت ربة الحرب والنزال وحامية الصناع وقد

لقيت بأسماء كثيرة أشهرها « ذات الوجه الحسن » Glaucopis « والعذراء Parthenos ذلك لأنها آثرت أن تبقى دون زواج حتى لاتدنس عذريتها ، وقد أقيم لها أكبر معبد عرفته اليونان فى تاريخها وهو معبد البارثينون Parthenon (أى معبد العذراء) فوق الاكربول . وقد قام الفنان فيدياس بصنع تمثال ضخم لها من العاج والذهب حفظ فى هذا المعبد . وكان يرمز لها بطائر البومة ، رمز الحكمة والمعرفة فى اليونان القديمة .

كما كانت اثينا الربة الحامية للمدن وخاصة أثينا وهى فى ذلك شبيهة بحماية الربة المصرية نايت لمدينة سايس Sais (صالحجر) فى غرب دلتا النيل بل ان بعض كتاب الاغريق نسبوا أصول أثينا الى هذه الربة . وقد عثر فى مصر على تماثيل تجميع بين هاتين الربتين فى صورة واحدة وقد نسبت الأساطير الى أثينا أعظم الأعمال وهى الاتيان بأول شجرة زيتون الى بلاد اليونان .

٤ – أبوللون : Apollon وباللاتينية Apollo عرفه الرومان باسم فيبوس Phoebus رب النور أما عند اليونان فكان أيضا رب الشباب والشعر والموسيقى فهو الذى أوجد القيثارة ، وقد ولد مع أخته ارتميس حيث انجبته أمهما ليتو Leto من زيوس ولذا يظهر دائما ممثلا مع أمه وأخته أو فى صحبة أخته Artemis وحدها كما عرف أبوللو بأنه رب النبؤات والطهاره ورد الأذى والاوبئة عن الناس . وقد اشتهرت جزيرة ديلوس مسقط رأسه كمركز لعبادته حيث كان يقام أعياد ومهرجانات كل أربعة أعوام تعرف باسم البيثية Pythian نسبة الى بيثيا مكان معبده القديم ، وكان معبده فى دلفى Delphi كعبة اليونان جميعا ومركز للوحدة الدينية والسياسية فيما بعد . وبلغ من غيره اليونان على قداسة هذا المعبد أن قامت حملة لجمع التبرعات من كافة المدن الاغريقية بما فى ذلك مدينة نقراطيس فى مصر . لاعادة بنائه بعد أن تعرض لحريق مدمر فى القرن السادس قبل الميلاد . وكان هذا المعبد مركزا لتقديم النبوءات حيث كانت تجلس كاهنة المعبد على مقعدها الشهير ذى الثلاث أرجل (Tripodes) وتتمتم بكلمات من وحى الآلهة .

٥ ــ ارتميس : Artemis وقد عرفها الرومان باسم Diana وهى توأم أبوللون وقد اعتبرها المفكرون والفنانون الاغريق رمزا للكمال والجمال العذرى كما كان أخوها بالنسبة للشباب . لقد فضلت ارتميس أن تعيش عذراء على أن يدنسها ذكر ، واهبة حياتها للادغال والمراعى ، فهى ربة الصيد حيث صورت دائما وهى تتمنطق بجعبة السهام كما عرف عنها الانتقام ممن يحاول حتى النظر الى قوامها كما فعل اكتابون الذى كان يصطاد فى احدى الغابات ففوجىء بالربة وهى تستحم فجلس يختلس النظر اليها فما كان من الربه الا أن جعلت كلابه تنهش لحمه . هــكذا أصبحت ارتميس حامية للشرف العذرى كما كانت أثينا ، بل كانت أيضا الربة التى تعاون النساء ساعة الوضــع اذ قيل أنها ســاعدت فى مولد أخيها أبوللون رغم أنها ولدت قبله بدقائق كما ارتبط اسم ارتميس بالقمر مثلما ارتباط اسم أخيها بالشمس .

٦ ــ هرميس : Hermes ويعرف عند الرومان باسم مركوريوس Mercurius وقد ذكرته الأساطير بأنه مبعوث الآلهة ــ لذا كان يصور دائما وهو يحمل عصا الرسول Kerykeion ويرتدى خوذة الاخفاء المجنحة والحذاء الطويل المجنح . وقد قام بعد مولده بسرقة ماشية أخيه أبوللون ولذا اتخذه اللصوص ربا لهم كما عرف بأنه رب التجار وحامى الطرق . وقائد الأرواح عبر سراديب العالم الآخر Psychopompos وقد اعتبره الاغريق أكثر آلهتهم « أغريقية » (١) فكان حامى الحدود ومعاهد الرياضة Gymnasia والمكتبات العامة . وقد ارتبطت صورته بعضو الاخصاب Phallos حيث كانت تقدم اليه القرابين فى هــذا

---

(١) اقام الافريق فى مصر مدينــة نسبوها لهذا الاله وهى مدينــة هرموبوليس الكبرى ومكنها الآن الأشمونين مركز ملوى محافظة المنيــا . ومن الجدير بالذكر ان عبادة هذا الاله انتشرت فى مصر فى العصر اليونانى الرومانى حيث عودل بالرب المصرى أنوبيس . وقد عرفت عبــادته باسم هرميس مثلث العظمات Hermes tresmegistos وقد ظهر مصورا على جبانه كوم الشقافه بالأسكندرية وهو يقود ارواح الموتى الى مملكة هــاديس . أوزوريس الــفلى عون نطور عبادة هذا الاله انظر :

Norman O. Brown : Hermes. the thief : the evolution of a myth, university of wisconsin press 1947.

الشكل . وقد عرف أيضا بأنه رب الطبقات الفقيرة والبروليتاريا الاثينية، فكان رمزا لنظام الحكم الديموقراطي ولما وجدت تماثيله محطمة ذات يوم دق حماة الديمقراطية ناقوس الخطر . وحدثت أزمة فى أثينا هددت بفوضى عارمة . والحقيقة أن هذا الاله ارتبط بالتجارة وبالاستعمار التجارى وبالتالى بالامبراطورية الاثينية .

٧ — ديونيسوس : Dionysus وقد عرفه الرومان باسم باخوس Bacchus رب الحصاد والحدائق والكروم وفوق كل شيء رب الخمر والمرح والشهوة والمتعة . كان لايفيق من سكره أبدا اذ كان يصور ثملا يحيط به جوق من اتباعه من السيلين Sileni وهم مخلوقات بشرية لها ذيول الخيل وآذانها محبة للعربدة والمرح خاصة مع المنيات Maenads وهن نسا ءبريات . ولهذا الاله أهمية فى الأدب الاغريقى والتراجيديا الاغريقية حتى أن كلمة تراجيديا اشتقت من اسم تراجوس أى «الجدى» حيوانه المفضل لما عرف عنه من طاقة وحيوية وخاصة فى الجماع . ويبدو أن ديونيسوس كان الاها وافدا من الشرق ولكن الأساطير الاغريقية ربطته باقليم طيبه شمال غرب بلاد اليونان .

٨ — ٩ ديميتر Demeter وبرسيفونى Persephone :

وقد عرف الرومان ديمتر باسم Ceres كما عرفوا ابنتها بتحريف اسمها الاغريقى الى بروسربينا Proserpina التى كانت تعرف عند الاغريق أيضا باسم الصبية Kore وقد عبدت الأم والابنة كربتين عظيمتين ولما كانت بلاد اليونان تعانى نقصا كبيرا فى انتاج الغلال فقد أولوا هاتين الربتين عناية كبيرة وجعلوهما أساسا لعبادة زراعية سرعان ما أصبحت شعائرها سرية وارتبطت هذه العبادة باسم ضاحية اليوسيس قرب أثينا (١) . كما تروى الأساطير قصة حادث خطف هاديس للابنة كورى وحبسها فى عالمه المظلم . وقصة بحث أمها ونواحها عليها الذى كان

---

(١) ومن الجدير بالذكر أن بطالمةمصر اقاموا ضاحية لمدينة الاسكندرية وسموها أيضا اليوسيس كدليل على اهتمامهم بعبادة ديميتر .

شبيها بنواح ايزيس على أوزيريس (١) حيث جابت الأرض تنادي عليها وهي متوشحة بالسواد وقد أجدبت الأرض وأقفر الزرع حتى وافق هاديس على عودة الابنة الى الأرض لفترة معينة تعود بعدها اليه لأنه كان قد اقترن بها وتوجها ملكة على العالم الأسفل ولعل ارتباط الابنة بالعالم الآخر لدليل واضح على ارتباطها بالنبات وخاصة القمح وكانت الأم تصور دائما وهي تحمل سنابل القمح في يدها .

(١٠) بوسيدون Poseidon :

وقد عرفه الرومان باسم نبتون Neptunus رب البحار والمحيطات والينابيع والأنهار . وكان يمسك بالأرض حتى لا تهتز أو ترتجف فاذا أراد شرا بالناس هز الأرض فتحدث الزلازل وقد عشق بوسيدون الخيل وارتبط بها ، وكان مركز عبادته عند منطقة خليج كورنثا حيث تبدأالسفن رحلاتها الى ما وراء البحار . ومن أشهر معابد هذا الاله معبده فيكالاوريا Calauria حيث كانت تقام له مهرجانات .

(١١) أفروديت Aphrodite :

وتعرف عند الرومان باسم فينوس Venus ربة العشق والجمال والسحر الفتان . صورها الفنانون الاغريق بقد ممشوق وجمال خلاب وجسد يتفجر أنوثة . كانت افروديتي تعنى بأمور النساء من عواطف وعلاقات عاطفية ولها كانت قلوب العشاق تتوجه دائما بالدعاء . تقول الأساطير الاغريقية أن أفروديتي ولدت من زبد البحر (Aphros) قرب شواطىء قبرص (٢) . ومما لاشك أن عبادة أفروديتي تنبع من أصل

---

(١) ادمج الاغريق المتمصرون ايزيس مع ديميتر في صورة واحدة يعرفها الاربون باسم ايزيس ديميتر وقد انتشرت هذه التماثيل الطينية بكثرة في مصر في العصرين الهللينستي والروماني خاصة في اقليم الفيوم .

(٢) من الواضح ان اسم قبرص Cypris « الشهوة » كان احد صفات افروديت وربما اشتق اسم الجزيرة منه حيث كانت مدينة بافوس Paphos في قبرص مركزا لعبادة ربه الجمال كما ان الشاعر يوربيديس ناداها في مسرحيته اندروماخا باسم قبرص .

(٣) انظر : فاضل عبد الواحد علي : عشتار ومأساة تموز سلسلة الكتب الحديثة ـ منشورات وزارة الاعلام العراقية (٦٢) بغداد ١٩٧٣ ص ١٧٢ وما بعدها .

شرقى وربما من الربة السورية عشتار (٢) • وقد يفسر امتزاج الربتين معا فى صورة واحـدة على الأراضى المصرية فى العصر الهللينستى ، هـذه القرابة • وعلى أى حال كانت شخصية أفروديتى الغذاء الروحى والالهام الفنى لكثير من فنانى الاغريق منذ القرن الرابع وأبان العصر الهللينستى واليونانى الرومانى • اذ كان جسدها وجمالها الآخاذ محل دراسة وحقل تجارب من جانب الفنانين للوصول الى سر الجمال الكامل • وقد خلد بعضهم للانسانية روائع نادرة كانت حديث العالم كالتمثال الشهير الذى صنعه الفنان الاغريقى براكستيلس Praxiteles لحساب أهل مدينـة كنيدوس فى القرن الرابع حيث تجرأ هذا الفنان فصـور الربة عـارية لأول مرة وهى فى طريقها الى الحمام وقد تناول الفنانون فى العصور التالية هذا الموضوع بنماذج مختلفة،وقد شغف الاغريق فى الاسكندرية بجمال هذه الربة واحتفظوا برسومات صارخة لها علقوها فى حجـرات نومهم مما أثار غضب القديس كليمنت السكندرى فهاجم مثل هذا « الانحلال الخلقى »(١)•ومن دراسة آثار الاغريق فى مصر يظهر أن هذه الربةكانت من أشهر الربات فى العصور الأخيرة لكثرة تماثيلها وصـورها • وقد ارتبط ظهور الربة فى كثير من الأحيان بابنهـا الطفـل Eros والذى عرفه الرومان باسـم كيوبيدوس Cupidus حيث كان يرمى القلوب بسهام الحب • وكانت أفروديتى تبـدو دائما وهى تسك بالتفـاحة أو ترتدى قلادتها الشهيرة حول عنقها • وأحيانا كانت تحتضن اليمامـة طائرها المفضل •

(١٢) هيفايستوس Hephaestus :

ويعرف عند الرومان باسم ڤولكانوس Vulcanus رب النار سواء التى تصدر من البراكين أو التى يشعلها الانسان كما كان أيضا رب الحدادة وقيل أنه كان يملك مصنعا للحدادة أقامه فى قلب مجموعة من البراكين كانت توجد فى جزر ليبارى Lipari وكان يعاونه فى حدادته الككلوبيس Cyclopes وهم مخلوقات عملاقة لكل منها عين واحدة فى منتصف وجهه •• وكان هيفايستوس يقوم فى مصنعه بعمـل أسـلحة

(1) St. Clement of Alexandria, Protrepticus, IV, 60.

الآلهة المختلفة ، وهو نادر الظهور فى الأعمال الفنية وقد وصفته الأساطير بأنه أعرج وذلك لأن أمه « هيرا » لم تعجبها خلقته المشوهة بعد ولادته فألقت به من السماء فأصيب بكسر فى ساقه ؛ ومن العجيب أن جعلته الأساطير زوجا لأفروديتى وربما كان ذلك من أجل تعليل خيانات الربة المتعددة مع الآلهة والبشر ، وهو مثل بوسيدون اله أندثرت عبادته باندثار العصر الكلاسيكى فى اليونان القديمة .

(١٣) آريس Ares :

ويعرفه الرومان باسم مارس Mars اله الحرب والوباء وعشيق أفروديتى الشهير ، كانت عبادته تتمركز فى منطقة طيبة وثراكيا Thracia وقد لعب دورا كبيرا فى أسطورة الحرب بين الاغريق والطرواديين ولكن الديانة الاغريقية لم توليه أهمية كبرى اذ اعتبره الاغريق ربا دخيلا عليهم وباستثناء ظهوره مع أعضاء مجلس الآلهة ، لم يظهر كثيرا فى أعمال الفنانين ولم نعرف أى معبدا خاصا بعبادته .

(١٤) هستيا Hestia :

وقد عرفها الرومان باسم فستا Vesta، وقد غالت الأساطير الاغريقية فى تمسكها بعذريتها ورد الكثيرين ممن جاءوا يطلبون يدها مثل بوسيدون وابوللون وقد عرفت هستيا بأنها ربة الموقد الذى كان يوجد فى المنزل أو يتوسط ساحات المدن كرمز للحياة ، حيث اعتبر الاغريق الموقد من أهم أجزاء البيت ولذا اعتبرت هستيا ربة الدار وراعية الأسرة والساهرة على سعادتها وراحتها والتى لها تتقدم بالصلاة قبل تناول الطعام وبعده ، كما أعجب الرومان كثيرا بهذه الربة حيث كان يقام لها معبد يقوم فى الخدمة فيه راهبات عذراوات ، كما كان يحفظ فى هذا المعبد الوصايا والوثائق السياسية الخطيرة للدولة حيث السرية فيه مقدسة .

(١) كما كان المهاجرون يحرصون على حمل شعله من موقد مدينتهم الام لا شعال موقد المستوطنة الجديد كرمز الولاء للمدينة الأم .

ثانيا — الآلهة الصغرى :

والى جانب الآلهة الكبرى كان يوجد عدد كبير من الآلهة الصغرى والتى قامت بأدوار متعددة ومختلفة يصعب ذكرها بالتفصيل ولذا نحاول ايجازها بتقسيمها الى المجموعات التالية :

(ا) الرسل والحاشية للآلهة الكبرى :

مثل ايريس Iris رسـولة الآلهة وهيبى Hebe ربة الشبـاب والصحة وجانيمد Ganymede الطفـل الطروادى الذى خطفه زيوس ليجعل منه ساقيا له وربات الخير Charites وربات ساعات النهـار Horae وغيرهما .

(ب) آلهة الريف والمراعى والغابات :

ويجىء على رأسها الرب الاركادى بان Pan وكان قبيح الخلقة ينتهى نصفه الأسفل بجسم ماعز وكان رب الرعاة وحـامى القطعان من الذئاب والى هذه المجموعة تنسب « السيلين » تلك المخـلوقات البرية التى كانت تخرج مـع ديونيسوس رب الخمر ، وعادة يرتبـط الريف بالينابيع وعيون الماء حيث قيل أن الحوريات كن يـسكن هناك Nymphai وكن ينقسمن الى حوريات الينابيع والأنهار (Naiades) وحـوريات الجبل Oreades وحوريات الأدغال والأشجار Hamadrayades .

(ج) آلهة المحيطات والبحار :

وجميعهم كانوا اتباعا لبوسيدون . ويجىء على رأسهم امفتريتى Amphitrite زوجة بوسيدون والوحش تريتون وكان له ثلاث رؤوس بشرية ونصفه الأسفل على شكل ثعبان(١) . ومنها أيضا الأقيانوس Oceanos اله المحيطات وزوجته ثيتس Thetis والنريديات Nereides حوريات البحر والرب بروتيوس Proteus الذي كان فى مقدوره الظهـور فى صور متعددة وفى أشكال متباينة وكذلك رب الماء جلاوكوس Glaucus وليوكيثيا وغيرهم من أرواح البحر .

---

(١) وقد عادله الاغريق برب الشر والحقد عند المصرين وهو ست .

(د) ربات تشخص قوى ورغبات معينة :

وهن كثيرات وكان لبعضهن عباد وكهنة وعباده أما ترجمة لرغبات معينة ومنهن Nike رب النصر المجنحة والتى عرفها الرومان باسم Victoria وتيمس Themis ربة العدالة ونيميس Nemesis ربة الانتقام والعقاب الى جانب أسماء البلاد التى جسدها الاغريق فى صور نساء والواقع أن الاتجاه نحو التجسيد قد ازداد بشكل واضح منذ القرن السادس قبل الميلاد وبلغ أقصاه فى العصور المتأخرة حيث تدهورت الآلهة الكبرى وقامت على أشلائها آله جديدة فى عالم جديد .

(هـ) الابطال :

(Heroes) وكانوا فى الأصل بشرا ثم ألهوا لسبب ما وأصبحوا وسطاً بين البشر (الذين عرفوا باسم الفانين (Brotoi) الآلهة الذين كان يشار اليهم باسم الخالدين (Athanatoi)ويجيء على رأس الأبطال هرقل Heracles وباللاتينية (Hercules) بطل الأبطال وحامى الحضارة الهللينية فى بلاد البرابرة (١) . وقد كان للأبطال أهمية كبيرة فى حياة الاغريق لأن كل قبيلة كان تنسب نفسها الى أحد هؤلاء الأبطال « كجد أول » وكذلك فعلت كثير من أصحاب الطوائف الحرفية فى مدينة أثينا . وكان الأبطال الأجداد يسمون (Heroes Eponymoi) كما اعتاد الاغريق أن ينسبوا مدنهم عند تأسيسها الى أحد من هؤلاء الأبطال .

أصل الاغريق : —

أثبتت الحفائر الأثريةوجود سكان ببلاد اليونان منذ العصر الحجرى القديم (Palaeolthic)ربما هم أول من دخلوا البلاد ومن المؤكد أن هؤلاء كانوا من عنصر البحر المتوسط الذى انتشر فىالمنطقة كلها ومارس الصيد وجنى الثمار .

---

(١) والدليل على ذلك ظهورة على الأوانى الاغريقية فى القرن السادس وهو يفتك بالملك المصرى بوسيريس فى وهو فى محرابه لان هذا الملك لم يكن مضيافا تجاه الأغريق . وقد تحدث هيرودوت عن ذلك فى كتابه الثانى — هيرودوت — الكتاب الثانى ، ٤٥ .

وابان العصر الحجرى الجديد Neolithic والذى يحـدده العلماء بالفترة ما بين ٣٥٠٠ حتى ١٩٠٠ ق٠م ، دخـل بلاد اليونان مهاجـرون لانعرف هويتهم ، أطلق عليهم الاغريق اسم البيلاسجين Pelasgians (١) ، وربما وفد البيلاسجيون من غرب آسيا الصغرى ودخلوا شبه الجزيرة اليونانية من سواحلها الشرقية أو عن طريق مضيق البسفور والدردنيل ثم توغلوا جنوبا وقد لاحظ علماء حضارة بلاد الاغريق فى عصور ماقبل التاريخ أن هذا العصر السكانى يتشابه مع سكان كريت وجـزر بحر ايجه وساحل طروادة ، وأن حضارة البيلاسجين حضارة زراعية ، وأنهم يتكلمون لغة ليست هندوأوروبية وبقيت آثارها الى وقت متـأخر فى أسماء بعض المدن التى انتهت بنهايات غريبة عن اللغة ٠الاغريقية والأصل الهندى الأوروبى لها ، مثل النهاية nthos (Olynthos و Corinthos) والنهاية ، والنهاية enc (Cyllene و Messene) والنهاية ssa (Lorissa و Antissa) ، والنهاية ssos مثل (Halicarnassos و Parnassos)) ومن الواضح أن البيلاسجيين كانوا على قرابة كبيرة بسكان كريت القديمـة وينتمون الى شعوب بحر ايجه ٠ ويذكر هيرودوت أنهم هم السـكان الأصليون لبلاد الأغريق وامتزجوا مع من وجدوهم من شـعوب البحر الأبيض مكونين عنصرا سكن البـلاد قبل وصـول الهجـرات الآرية أو الهندو أوروبية وظل يسيطر عليها خلال العصر الحجـرى الحديث وحتى مطلع عصر النحاس عام ١٩٠٠ ق٠م ٠

---

(١) ربما تعنى هذه الكلمة شعوب البحر وهذا الاسم يعادل الاسم الذى أطلقه المصريون القدماء على سكان بحر ايجه وهو الحاو ـ نيبوت أى شعوب البحر : أنظر : جان فركوتيه قدماء المصريين والاغريق ـ بحث فى العلاقات بين الشعبين من أقدم الأزمنه الى نهاية الدولة الحديثه (ترجمة محمد على كمال الدين وكمال الدسوقى ومراجعة محمد صقر خفاجه) دار النهضة العربيه القاهرة ١٩٦٠ ص ٣٥ـ ٤٢ ٠ ، وكان هوميروس اول من ذكر اسم البيلاسجيون فى الالياذه (الكتاب الثانى ٨٤٠ ، والكتـاب السابع عشر ـ ٣٠١) على أنهم قبيلة فى تراكيا كانوا حلفاء للطرواديين ، كما أطلق هيرودوت (الكتاب الأول ٥٧) اسم Pelasgioti على مدينة لاريسا الواقعة فى تساليا ٠

وبالرغم من أن البيلاسجين لم يكونوا «آريين» أو «هيلينيين» الا أن علماء الحضارة درجوا على سمية الشطر الثانى من العصر الحجرى (٢٥٠٠ — ١٩٠٠ ق٠م) باسم العصر الهيلادى Helladic على اعتبار أنهم سوف يكونون أجداد الأغريق بعد امتزاجهم بالعنصر الآرى أو الهندو أوروبى الذى هبط على البلاد مع مطلع عصر النحاس في نهاية الألف قبل الميلاد ٠

ويعرف العلماء العصر الهيلادى حضاريا بأنه الحضارة الزراعية التى انتشرت من تساليا شمالا الى بلاد اليونان الوسطى (اقليم بوءتيا ، وأتيكا) ثم الى بلاد اليونان الجنوبية (شبه جزيرة البيلوبونيز وجزيرة ايجينا) وجزر بحر ايجه خاصة الككيلاديس Cyclades ٠ (جزر الأرخبيل) ٠

وكانت الحضارة المينوية فى كريت من أهم مراكز هذه الحضارة الهيلادية وعلى ذلك يجب أن ندرك أن الكريتين القدماء — بالرغم من مساهمتهم الكبيرة فى تأسيس الحضارة الأغريقية — كانوا يختلفون تماما عن الأغريق اللاحقين فى السلالة وفى الصفات البدنية وفى اللغة ، كما أن المسؤل عن تدمير الحضارة المينوية هم القبائل التى جاءت من شبه الجزيرة اليونانية قرب نهاية الألف الثانى ق٠م ، مما يؤكد اختلاف العنصرين بالرغم من استمرار الحضارة ٠

أما بعد عام ١٩٠٠ ق٠م فيبدأ عصر النحاس والبرونز حيث هبط على شبه الجزيرة اليونانية موجات متتابعة من الغزاة واستمر ذلك لفترة طويلة ويظهر هؤلاء الغزاة مصورين كقوم طوال القامة ، ذوى بشرة شقراء وينتمون الى العصر الهندو أوروبى وعلى وجه التحديد الفصيلة النوردية الألبانية ، وكان هؤلاء الغزاة يجلبون معهم أسرهم وأمتعتهم ٠ ويعملون بالصيد والقنص ويستخدمون أسلحة مصنوعة من النحاس والبرونز ٠ ويرى العلماء أن هؤلاء الغزاة الجدد قريبو الشبه فى عاداتهم وثقافاتهم بالمقدونيين القدماء أو الألبانيين المعاصرين ٠

ولا يعرف من أن جاء هؤلاء الغزاة ولكن من المؤكد أنهم كانوا

يتكلمون لغة هندو أوروبية (١) ، ويعتقد المؤرخون أنهم جاءوا من أصقاع شمال أوروبا الشرقية أو من منطقة حوض الدانوب أو شرق بحر قزوين وأواسط آسيا الصغرى ، ثم شقوا طريقهم جنوبا الى ثراكيا ومقدونيا وتساليا وابيروس ثم الى بلاد اليونان الوسطى والجنوبية . وبفضل أسلحتهم البرونزية وشخصيتهم العدوانية سيطروا على البلاسجيين وأصبحوا حكاما عليهم بالرغم من أنهم لم يكونوا أرقى منهم حضارة ، ولكنهم فرضوا عليهم لغتهم الجديدة الهندو أوروبية . وبمرور الزمن بدأ العنصران يمتزجان عرقيا وحضاريا وما أن جاء القرن السادس عشر ق.م حتى اكتمل هذا العنصر فى شكل جديد أطلق عليه هوميروس اسم « الآخيون (Achaioi) وربما كان ذلك اسم قبيلة ثم عمم هوميروس الاسم على الشعب كله . وقد تركزت هذه القبائل فى منطقة شمال شرق البيلوبونيسوس حيث ظهرت مدن موكيناى وتيرنز Tiryns وفي غرب البيلوبونيسوس ظهرت مدينة بيلوس Pylos وفى اقليم بوءتيا ظيرت أو أورخومينوس Orchomenos .

أما العلماء المعاصرين فقد فضلوا أن يطلقوا على الشعوب التى شهدت هذه الحضارة بالموكينين Myceneans اذ عمموا اسم أشهر مدينة وهو موكيناى على العصر كله . بعد أن أماط شليمان اللثام عن شطر كبير من حضارتها ونجح ڤنترس Ventris فى حل طلاسم كتابتها حيث أثبت أن الموكينين كانوا يتكلمون لغة اغريقية فى طورها البدائى . وفى بعض الأحيان يسمى العلماء هذه الفترة بحضارة العصر الهيللادى الثانى . لكن من المؤكد أن غزاة عصر البرونز هم أجداد الاغريق . وهم الذين قادوا بلاد اليونان فى حرب مريرة ضد مدينة طروادة وقد وصف

---

(١) الهندو اوربية هى اللغة الام لعدد كبير من اللغات القديمة مثل السنسكريتيه والفارسية القديمة والأرمنية واللغة اللاتينية ومشتقاتها من اللغات الأوربية الحديثة (الايطالية والفرنسية والأسبانية ومجموعة اللغات الكلتيه) واللغة اليونانية القديمه والحديثه ، وعدد من لغات بحر البلطيق السلافيه والالبانية فضلا عن بعض لغات البحر المتوسط التى انقرضت مثل الفريجية والحيثية والالليرية .

حايكل جرانت ذلك بأنه صراع بين شعوب متجولة وليس صراعا قوميا وحضاريا كما صوره الأغريق فيما بعد .

هكذا برزت شخصية الأغريقى من هذا المزيج السكانى والحضارى. وعندما تحقق الوعى القومى أطلق الأغريق على أنفسهم اسم «الهيللينيون» Hellenes نسبة الى جد اسطورى هو هيللين Hellen ، وفى الحق كانت هناك قبيلة تعرف بهذا الاسم وتقطن فى شمال بلاد اليونان وسرعان ما عمم اسمها على العنصر كله ثم ازداد التعميم فأصبح يطلق على المتحدثين باللغة الهيللينية (اليونانية) وسواء كانوا يقطنون بلاد اليونان أو بساحل آسيا الصغرى أو فى جزر بحر ايجه أو حول البحر الأسود أو فى جنوب ايطاليا . وما غيرهم سمى بالأجانب أو الأعاجم Barbaroi (١) . أما شعوب الشرق الأوسط القديم فقد أطلقوا على الأغريق اسم « الياونانيون » Yauna وهو اللفظ الذى تطور فى اللغة العربية الى اليونانيين (٢) .

وجدير بالذكر أن مصر ذاتها قد تعرضت لعدوان هؤلاء الآخيين ؛ اذ ذكرت لوحة سجلت انتصارات رمسيس الثالث (١١٨٤ـ١١٥٣ق.م) وهو أعظم ملوك الأسرة العشرين أن مصر قد تعرضت لمحنة من جراء عدوان شعوب البحر الأخايواشا والدانونا على شواطئها الغربية والشرقية وأن الفرعون رمسيس الثالث قد خاض ضدهم ثلاثة معارك ضارية اثنتان منها على الحدود الغربية والثالثة على الحدود الشمالية الشرقية للدلتا

---

(١) ومعناها الذين يرطنون بلغة اجنبية انظر .

H. D. Kitto,: the Greeks, A study of the character and history of an anicient civilization and of the people who created it, A pelican book 1954, p 7 ff.

كذلك انظر ترجمه هذا الكتاب التى قام بها عبد الرازق يسرى تحت اسم الاغريق ـ القاهرة . دار الفكر العربى ١٩٦٢ ، ص ٥ .

(٢) عبد اللطيف احمد على التاريخ اليونانى ـ العصر الهيللادى ـ بيروت دار النهضة العربية ١٩٧١ ص ٨٥ ـ ٨٨ .

وكانت الأخيرة معركة برية بحرية وهي من المعارك النادرة من هذا النوع في تاريخ العسكرية المصرية القديمة وبفضل هذه الانتصارات أمكن لرمسيس الثالث وقف زحف هؤلاء المغيرين . وكان الانتصار مذهلا لدرجة أن هذا الفرعون خلده على جدران معبده العظيم في مدينة هابو الواقعة في الجزء الغربي من مدينة طيبة (الأقصر) (١) ويفسر العلماء هذه القلاقل والفوضى التي سادت بحر ايجه وشرق البحر المتوسط خلال هذه الفترة الى تدهور الامبراطورية الحثية (الخيثية) (أو الخيتية كما سماها القدماء) في غرب آسيا الصغرى مما أدى الى تدفق الطامعين فيها من شعوب البحر .

وفي مطلع الألف الحادي عشر ق.م وصل الى بلاد اليونان آخر موجات الهجرات وهم الدوريون (Dorians) وهم قبائل هندو أوروبية وتتكلم اللغة اليونانية بلهجة مميزة . وكان مقصدهم شبه جزيرة البيلوبونيسوس حيث دمروا القصور الموكينية وأقاموا على خرائبها قراهم الصغيرة وقد جاء هؤلاء الدوريون معهم بمعدن الحديد ومن ثم انتهى عصر البرونز وبدأ عصر الحديد ، كما جاءوا معهم بالعباءة الأغريقية Himation أما فيما عدا ذلك فلا يذكر لهم تجديد معين في الحضارة ولما كان هؤلاء الدوريون من نفس العنصر فقد أطلق مؤرخو الأغريق على غزوتهم اسم « عودة أحفاد البطل الأسطوري هيراكليس The Return of the Herakleidae) ، حتى يعطلوا لغزوتهم شيئا من الشرعية ، وفر الهاربون شرقا الى أتيكا حيث تبلور العنصر الأيوني في الشرق في مواجهة العنصر الجديد الدوري ، كما هرب بعض المهاجرين الأخيين الى الشمال في بوءتيا حيث امتزجوا بسكانها وظهر العنصر الأيولي وعندما بدأت

---

(١) من هجوم الاخايواشا والدانونا انظر : —

G. A. Wainwright, Journal. of Egyptian Archaeology xxv, p 148-153.

وكذلك جان فركوتيه — المرجع السابق — ص ٦ ، ص ٩٤ وما بعدها .

الهجرة نحو ساحل آسيا الصغرى أسس الأيوليون منطقــة فى الشمال وحول جزيرة لسبوس سموها أيوليس،أما الأيونيون فقد احتلوا الساحل الأوسط وسموه أيونيا وهاجر الدوريون الى جنوب الغربى من ساحل آسيا الصـــغرى وجزيرة رودس وكريت وسموه دوريس Doris أى منطقة الدوريين . ولكن بقى أن نعرف أن الفرق بين هذه العناصر الثلاث كان فى لهجات اللغة الاغريقية التى هى من فعل التأثر الاقليمى للقبائل المحليـــة .

أسطورة البطل القومى الاثينى تيسيوس .

لقد اخترنا الأسطورة كمدخل للدراسة التعلية لأصـــول الحضـــارة الاغريقية لأنها تشير الى فكرة حضارية بالرغم من أنها من نسج الخيـــال الهللينى البحت وبعد عرضنا لهذه الأسطورة سوف ندع . علم الآثـــار المادى يحدد لنا المعالم الحقيقية للتاريخ والحضارة الهللينية لأننا نرى من الواجب اعتبار الفكر المعنوى عنصرا ماديا لا يجب اغفاله وخاصـــة فى دراسة حضارة الأغريق التى لعب الخيال والأسطورة فيها دورا كبـــيرا تردد صداه فى الفلسفة والأدب والفن والسياسة . ويعتقـــد البعض أن موطن هذه الأسطورة هو جزيرة كريت . وتروى أن ملكا طاغيـــا كان يحكم الجزيرة ويدعى مينوس Minos وكان له ولدان وابنة أولهما اسمه اندرجيوس Androgeus . وقد ضرب به المثـــل فى الذكاء وفى اجادة الألعاب الرياضية البدنية حتى عمت شهرته سائر البلاد ، أما الابنة فكانت تدعى اردياني وعرفت بجمالها ورقتها أما الابن الآخـــر فـــكان مخلوقا عجيبا ، لقد كان وحشا يفترس الآدميين ، له جســـم الانســـان ورأس الثور ولذا سمى « بالمينوتوروس » وقد اضـــطر الملك مينوس ازاء الخوف من هذا المخلوق . أن يحبسه فى أروقة قصر التيـــه الذى كان يعيش فيه Labyrinth وهو قصر كبير معقد الوحدات البنائية حتى أن الانسان يضل طريقه بين أروقته وتروى الأساطير أن مهندسا وفنانا اسمه دايدالوس هو الذى بناه للملك في قلب عاصمة كريت القـــديمة كنوسوس Knossus . وتذكر الأسطورة أيضا أن الأمير اندروجيوس عاش حياة سعيدة وهو يمارس الرياضة البدنية بكافة أنواعهـــا اذ كان

يشترك فى مهرجانات الرياضة المختلفة ويفوز بكل جوائزها ، وذات مرة ذهب الى مدينة أثينا ليشترك فى مهرجان رياضى كبير أقامه ملكها أيجيوس Aegeus وبالطبع فاز هذا الأمير الكريتى وهزم المتنافسين جميعا ، فحنق عليه الملك الأثينى ودبر مؤامرة أدت الى قتله ولما علم أبوه الملك مينوس بذلك تأجج غضبا وأعلن الحرب ضد مدينة أثينا انتقاما لمقتل ابنه وتم له بالفعل هزيمة المدينة واخضاعها وتوقيع عقوبة صارمة ضد الاثينيين بأن يرغمهم على ارسال جزية كل تسع سنوات وهى سبع فتيان وسبع فتيات من خيرة الشباب يقدمون وجبة للمينوتور فى كهفه بقصر التيه . وظلت أثينا تدفع هذه الجزية حتى جاء الاختيار على الأمير ثيسيوس Theseus ابن الملك ايجيوس نفسه من بين الفتيان وكان حلما راود خيال هذا الأمير وهو أن يقتل هذا الوحش ويخلص رفاقه من الموت وبلاده من الذل والهوان ، وكما اعتادت مدينة أثينا ودعت شبابها وشاباتها الى رحلتهم الأخير عندما كانوا يبحرون الى كنوسوس حيث تنشر السفينة أقلعتها السوداء رمزا للحداد والحزن . ولما علم الملك بما انتواه ابنه طلب أن تزود السفينة بشراع ثان أبيض اللون وأوصى الربان بأن ينشروا هذا الشراع الأبيض لو تحقق حلم ولده الأمير ثيسيوس بالانتصار على المينوتور الوحش والعودة ومعه بقية رفاقه أحياء وكانت ارادة الآلهة أن ينتصر ثيسيوس فدبرت لقاء بينه وبين الأميرة أريادنى التى هامت حبا بالأمير القادم من أثينا وعطفت عليه وشجعته على تحقيق حلمه بل وساعدته بأن أعطته كرة من الخيط ثبت أولها عند باب القصر وكلما سار الأمير الى داخل أعماق القصر سحب معه الكرة وبذلك عرف الأمير طريقه وتجنب التخبط والضلال حتى لا يجد نفسه فى النهاية وجها لوجه أمام المينوتور وفعلا استطاع ثيسيوس الشجاع أن يذبح المينوتور وأن يقتحم طريقه سالما الى خارج القصر . ولما علم رفاقه بالخبر سروا لنجاتهم من الموت وراحوا يرقصون ويغنون وهم متشابكى الأيدى حول بطلهم ثيسيوس والأميرة أريادنى واقفلوا عائدين « وتضيف الأسطورة أن ربان السفينة نسوا فى غمرة النشوة والفرح أن ينفذوا تعاليم الملك برفع الشراع الأبيض بعد الانتصار .

ولما أبصر الملك السفينة قادمة بشراعها الأسود وكان ينتظر ذلك قرب شاطىء البحر ظن أن ابنه لم ينجح وراح كغيره من الشباب ضحية لهذا الوحش . وأحس بأنه لا يحتمل العيش من بعد فقدان وحيده فألقى بنفسه فى البحر واختطفته الأمواج الى نهايته ومن هنا تقول الأسطورة أن أطلق على هذا البحر اسم بحر ايجه Aegean Sea نسبة الى الملك ايجيوس Aegeus .

ماذا ياترى يقول التاريخ وعلم الآثار في أمر هذه الأسطورة الطريفة ؟ لقد ظل المؤرخون والأثريون حتى نهاية القرن التاسع عشر يؤكدون بأنها خيال خرافى الى أن ظهرت اكتشافات سير أرثر ايفانس Sir Arther Evans الأثرية فى منطقة القصر الملكى بكنوسوس فى كريت . لقد ضرب سير أرثر ايفانس الأثرى الأرض بمعوله فى أحد أيام عام ١٨٩٩ فتكشفت الأرض عن أبهية القصر وغيرها من المواد الأثرية التى ساعدت المؤرخين على أن يخطوا لأول مرة فصلا من تاريخ حضارة لم يعرفوا عنها شيئا من قبل سوى القليل .

الفصل الثانى

العصر الهيللادى

حضارات حوض بحرايجه

(Aegean Civilization)

بالرغم من قدم الحضارة الهللينية فى بلاد اليونان توصل العلماء الى معرفة حضارة أقدم منها ازدهرت بالقرب من شواطئها وكان لهـا أكبر الأثر عليها وقد عرف العلماء هذه الحضارةبالهيللادية أوحضارة بحر ايجه لأنها انبعثت من بعض جزر بحر ايجه خاصة جزيرة [1] ميلوس Melos والى هذ ءالحضارة تنتمى كل حضارات بلاد اليونان فى عصر البرونز والتى تشمل حضارة كريت وحضارة موكيناى وحضارة شمال غـرب آسيا الصغرى أو حضارة طروادة على الجانب الآخر من بحر ايجه .

وكل ما نعرفه عن هذه الحضارة هو أن أهلها كانوا من جنس البحر المتوسط وأنها تمتد قدما الى حضارة العصر الحجرى الحديث ولكنها تصبح مميزة عنها بعد الألف الثالث قبل الميلاد حيث تبدأ كريت فى بلورتها بأسلوبها الخاص . وقد استمرت هذه الحضارات مزدهرة حتى انهارت حضارة كريت فجأة حوالى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد نتيجة لغزو خـارجى أطاح بها واختفت كريت من مسرح هذه الحضارة ثم نجد الأخيين وهم أصحاب الحضارة الموكينية يندفعون فى حرب ضروس ضد مدينة طروادة

---

(١) من الكتب الجيدة والحديثة عن بحر ايجه منذ عام ٣٠٠٠ ق.م (العصر الحجرى الحديث) وحتى ١٠٠٠ ق.م (نهاية عصر البرونز) كتاب .

C. Renfrew : the Emergence Civilization-the Cyclades and the Aegean in the third millenium B. C. (studies in pre-history) London, Methuen Company (1972) Reviewed by S. F Hood in JH.S, xc 111 (1973 p 251-252.

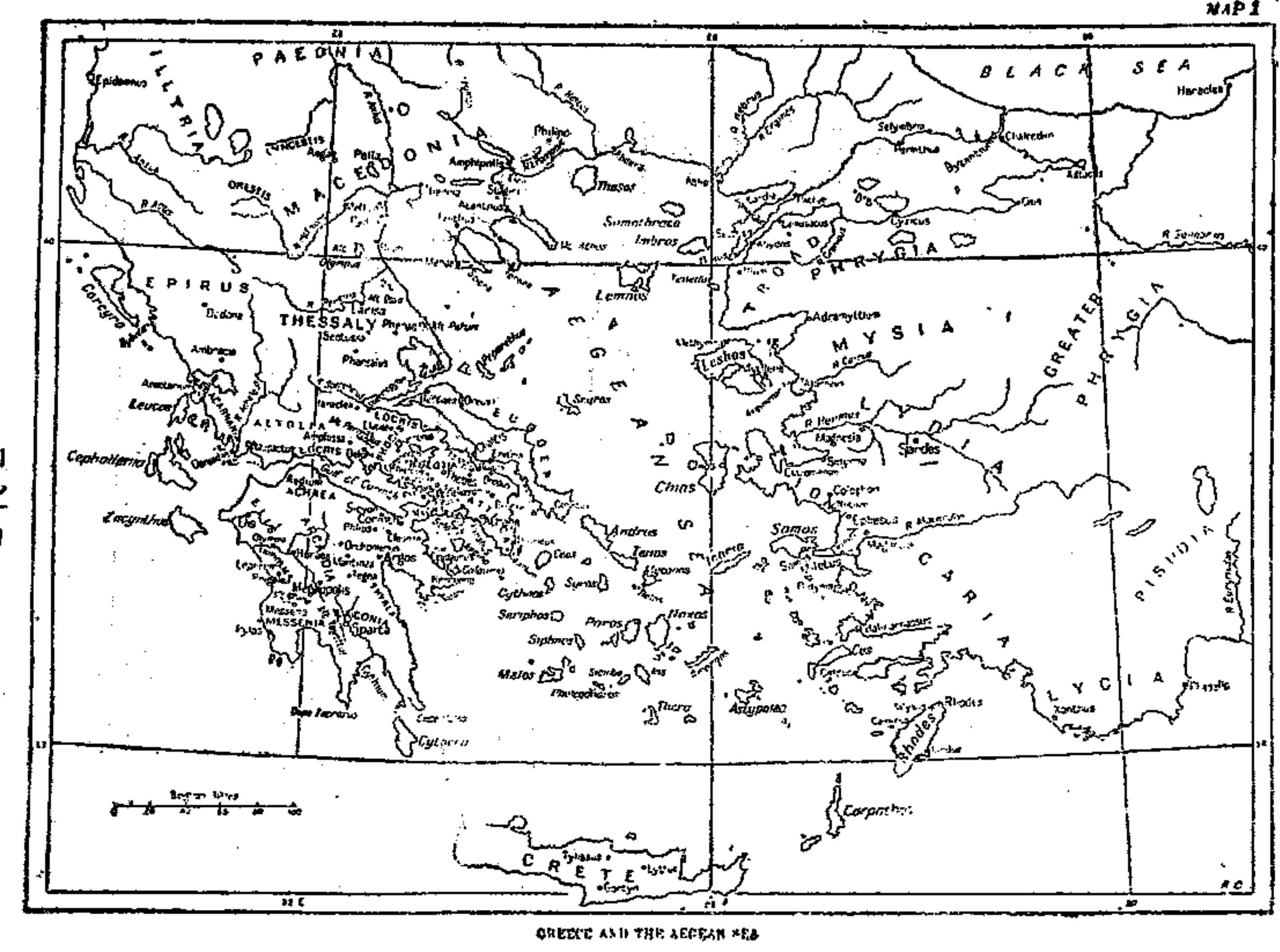
ويدمروها ويدمروا حضارتها فى حوالى منتصف القرن الثالث عشر وأخيراً تعرض الموكينيون أنفسهم لهجوم مدمر من قبائل أيضاً هللينية هبطت من الشمال حوالى عام ٢٠٠٠ ق٠م ٠ وقضت على آخر وريث لحضارات حوض بحر ايجه ٠

ونظراً لقلة معلوماتنا عن أهل طرواده وحضارتهم وعن اللغـة التى كانوا يتحدثونها ونظراً لأهمية حضارة كريت وموكيناي بالنسبة لحضارة بلاد اليونان فسوف نركز على هاتين الحضارتين بشيء من التفصيل ٠

(أ) حضارة كريت ودورها فى الحضارة الاغريقية :

ان الاهتمام بكريت وبدورها الذى لعبته كوريثة لحضارة حـوض بحر ايجه وكجد للحضارة الهللينية فيما بعد ، بدأ يلقى اهتماما معينا من جانب علماء الحضارة بعد النتائج التى توصل اليها العلماء عن طريق جمع النقوش ودراستها عن طريق التنقيب عن الآثار خاصة فى الفـترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ٠ لقد كانت هذه المادة العلمية غزيرة لدرجـة أن العلمـاء لا يزالون يراجعـون هـذه الاكتشافات ويستخرجون منها معلومات قيمة ٠ ومهما يكن من أمر فان المعلومات الأثرية تؤكد أن جزيرة كريت لعبت أبـان العصر البرونزى دوراً حضاريا يفوق حجمها بكثير ، لا بالنسبة للحضارة الانسانية عامة بل أيضا بالنسبة لحضارة أوروبا القديمة ٠

ان نظرة عامة على موقع الجزيرة يبين أهميتها الجغرافية ، فى البحر المتوسط الذى ترتمى فيه كشريط طويل ومتعرج ، مليء بالخلجان التى تجعل منها موانيء طبيعية ممتازة ٠ وبالنسبة للموقع الجغـرافى تواجه كريت شمالا مداخل حوض بحر ايجه فى شرق بلاد اليونان لدرجـة أن أرسطو نفسه ذكر أن الطبيعة أرادت لهذه الجزيرة أن تتحكم فى بـلاد اليونان كما أن الطرف الشرقى من كريت لا يبعد كثيراً عن شـواطيء سوريا وفينيقيا وقد مهد لها هذا الموقع أن تكون علاقة وثيقة بحضارات الشرق الأوسط القديمة ٠ ومن ناحية الجنوب تواجـه كريت سـاحل أفريقيا الشمالى ولذا كانت على علاقة وثيقة بحضارة وادى النيـل بل



GREECE AND THE AEGEAN SEA

خريطة لبلاد اليونان وجزر بحر ايجة وساحل أيونيا

يقال أن كريت قامت بدور الوسيط بين حضارة الشرق الأوسط وحضارة وادى النيـــل •

هكذا حبت الطبيعة كريت لكى تصبح نواة لامبراطورية بحـرية وتجارية واسعة وكانت أولى المنـاطق التى انفتحت على حضـارة مصر والشرق الأوسط القديم وتأثرت بها ، فمثـلا أخـذت كريت عن هذه الحضارة استخدام معدن البرونز وجعلته محور حضارتها • وما أن جاء الألف الثالث قبل الميلاد حتى كان الكريتيون قد بلوروا حضارة مميزة لهم ظلت لوقت طويل خافية عن علماء الحضارة والتاريخ حتى كشفت الحفائر الأثرية النقاب عنها •

ولم يكن علم الآثار وحده هو الذى أبرز شخصية كريت المميزة بل يرجع الفضل أيضاً الى دراسات علماء اللغات وفقه اللغة اليونانية فضلا عما قدمته المعلومات التى استخرجها العلماء من نصوص الالياذةوالأوديسا والتى تشير من قريب أو بعيد الى كريت وحضارتها •

حقا لقد تغيرت الصورة التى كانت معروفة عن الحضارة المينـوية كثيراً منذ المائة سنة الأخيرة نتيجة للدراسات المقـارنة بين آثار كريت المبعثرة فى مدنها من أطلال القصور ومبانى قديمة وأوانى فخارية متنوعة الأشكال والأحجام وبين الحلى والأسلحة المختلفـة من ناحيـة ، وبين المعلومات المتفرقة التى وردت فى الألياذة والأوديسا ، وبين المعلومات التى تستخرج من النقوش اليونانية فى الجزيرة ، ومن مجموع هذه الدراسات خرج علماء الحضارة بآفاق بعيدة للحضارة الاغريقية ذهبت بهم أبعـد من الحدود التى كانوا يتصورونها لهذه الحضارة ومن التاريخ التقليدى الموروث القائل بأن تاريخ بلاد اليونان يبدأ عام ٧٧٦ ق•م (وهو تاريخ أول مهرجان أولمبى أقامه الاغريق) وأن ما قبـل ذلك كان أسـطورة وخرافة لا يمكن الاعتماد عليها • ويرجع الفضل فى هـذا التغيـير الى

عالمين جليلين هما أرثر ايفانز وهينرش شليمان [1] . لقد أعلن الأخـير بأنه قد اكتشف آفاقا جديدة لعلم الآثار بحفائره فى طروادة وموكينای وتيرنز . وظلت المادة الأثرية التى أخرجت من حفائره محل دراسة من جانب علماء كثيرين من أمثال بليجن Blegen وويس wace وتوصلوا فى نهاية دراستهم الى حقيقة واحدة وهى أن هناك جذوراً تاريخية حقيقية وراء الأشعار الهومرية .

أما سير أرثر ايفانز فقد بدأ أبحاثه الأثرية عن قصر اللابيرانت أوقصر الملك مينوس فى كنوسوس واستمرت حفائره ست مواسم امتدت من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٠٥ . وكانت نتائجها هو اكتشاف معالم حضارة عصر النحاس فى كريت والتى سماها ايفانز الحضارة المينويه نسبة الى ملكها الأسطورى مينوس . وسرعان ما تكشفت معالم جديـدة لهذه الحضارة الرائعة التى تشاهدها عين الناظر فى القصور الشاسعة ومحتوياتها النفيسة وفى الفيلات الجميلة والمنازل المتلاصقة وفى الجبانات والقبور وفى المجوهرات وأدوات الزينة والأسلحة والرسومات ذات الذوق الرفيع والذى لا شك فيه أن أكثر منـاطق الجزيرة تحضراً كانت فى الشرق والوسط .

وقد كسب أهل كريت شهرة تاريخية كبحارة مهرة وراحت أساطيلهم تجوب البحار بحثا عن المواد الخـام لصناعاتهم مثـل الذهب والفضة والقصدير والنحاس والعاج وحجر اللازورد Lapis lauzuli كذلك أقام أهل كريت العديد من المحطات البحرية سرعان ما أصبحت أسواقا تجارية للتبادل والمقايضة ، وعلى العموم كان المجتمع فى كريت مجتمعا مسالما ديناميكيا يقدر العمل والصناعة والعمال والمهرة . ان من يشاهد أطـلال

---

(١) عن حياة شليمان واكتشـافاته انظر : ذهب طروادة تاليف روبرت بين ، ترجمة رشدى السيسى ومراجعة مصطفى حبيب سلسلة الالف كتاب (٥٥٠) مع ملاحظة ان المؤلف روائى النظرة والموضوع ولكنه يعطينا معلومات قيمه عن حياة هذا الاثرى الهاوى وانفعالاته ساعة عثورة على بقايا طروادة .

باللابيرانث العظيم ليدرك كيف كان هؤلاء الكريتيون البنائين الأول الذين وضعوا أساس العمارة لحضارة أوروبـا . كذلك تشهد شبكة الطرق المتداخلة والمعبدة والتى تنتشر لتربط بين مدن الجزيرة المختلفة وموانيها بالقدرة الخلاقة للمهندس الكريتى (١) . كذلك تظهر القدرة والابداع فى الجسور العالية التى تحمل المياه aqueducts وفى القناطر والقنوات وترع الرى وفى نظام الصرف والتخلص من المياه المستعملة وفى المرافق العديدة داخل الموانىء القديمة . ولم يكن أهل كريت عمليين فحسب،بل كان لهم ذوق رفيع فهم أول من خلد للبشرية لوحات تصويرية رائعة على الفريسكو . كذلك كان للفنان الكريتى قدرة رائعة (٢) فى تشكيل النحاس وطرقه وصهره ثم صبه فى قوالب . كما كانوا ذوى خبرة عميقة بسبك المعادن المختلفة بنسب معينة . كذلك تشهد الآثار بمهارتهم فى الصناعات الدقيقة خاصة صناعة الحلى وأدوات الزينة وتطعيم المصنوعات الذهبية بالفضة والعاج وحجر اللازورد . ولم يكن الفنان فى كريت أقل قدرة من غيره فى نحت الأحجار بأنواعها سواء من البازلت أو من الحجر الاوبسيدى أو الجيرى .كما فاق أهل كريت غيرهم في صناعة الاوانى الفخارية ورسم المناظر الزخرفية أو القصصية عليها مستخدمين فى ذلك الالوان المبهجة ، وفى صناعة الزجـاج واستخدامة كبديل للأحجـار الكريمة والماسية . كذلك كان أهل كريت أول من صنع تماثيلا من الذهب والعاج فى نفس الوقت Chryselephantine وأول من استخدم الخزف الملون . والنماذج الفنية كثيرة ولكنها من حجم صغير Miniature وبالرغم من ذلك فهى تحمل أسلوبا فنيا مشتركة بينها وبين الرسومات الكبرى على جدران القصور .

ان الزائر لمتحف كريت القومى ليدهش لجمال محتوياته وتنوعها كما أنه سوف يعجب بحركة وحيوية الرسوم والتماثيل الصغيرة ويمكن

---

(1) cf. John Pendlebury : The Archaeology of Crete Methuen, 1939.

(2) S. Hood, the Minoans : Crete in the bronze Age (Ancient people and places 75) London Thames and Hudson, 1971.

والمؤلف يهتم بأوجه الحضارة الكريتية أكثر من المراحل التاريخية للجزيرة. وهو نتاج خمسة وعشرون عاما فى كريت قضاها المؤلف كباحث وأثرى .

أن نقول أن رصد الحركة هى أسلوب الفنان الكريتى الذى يميزه عن غيره من الفنون • فنماذجه الفنية تتحرك برقة وبدلال محببين الى النفس ولا تقتصر الحركة على النماذج الفنية واللوحات التصويرية فحسب ، بل تمتد لتشمل الزخرفة التجريدية نفسها والتى تفيض بالخطوط المتعرجه والملتوية التى تبدو وكأنها تتحرك حتى عناصر الهندسة المعمارية أيضا شملتها فكرة الحركة والتنوع الحى وباختصار يمكن أن نلخص فلسفة الفنان الكريتى فى عبارة هى : أن الحركة الدائبة هى التشخيص السائد لهذا الفن » • Motion is the ruling characteristic of Cretan Art.

كما يتميز الفن الكريتى بعشق الفنان الشديد وولعه بالألوان الزاهية والمتنوعة Polychrome وهو عنصر مكمل للحركة والحيوية •

ما من أحد ينكر أن الفن الكريتى هو وليد الخلق والابداع المطلق ولكنه فى نفس الوقت مرآة للطبيعة وانعكاس لعناصرها •• انه برهان يثبت مدى عشق الانسان للطبيعة بروح يغمرها المرح والبهجة والسرور، أساسه الانطلاق الحر الذى ليس فيه مكان للخوف أو الفزع أو حتى القلق فمثلا نجد الفنان الكريتى على خلاف فنانى الحضارات القديمة سواء فى مصر أو فى بلاد مابين النهرين لايعير فكرة الموت أو تصويره أى اهتمام على الاطلاق •

لقد ظلت حضارة كريت مزدهرة وغنية وقوية على مدى ألف وخمسمائة عام وهى العمر الذى يقدره لها علماء الحضارة بعد أن عكفوا على دراسة كل كبيرة وصغيرة أخرجتها الحفائر الأثرية أو استخرجت من بين نصوص التراث الأدبى القديم • وكان علم دراسة الأوانى الفخارية سواء من ناحية الصناعة أو أسلوب التصوير عليها من أهم العوامل التى ساعدت على وضوح ملامح الحضارة خاصة فى فترات الازدهار من الطفولة حتى النضوج أو من الأسلوب البدائى حتى الأسلوب الفنى الرفيع كما يجب ألا ننسى فضل أساتذة النقوش فى تقديم معلومات قيمة عن هذه الحضارة كذلك فان نجاح علم الدراسات المصرية Egyptology كان له أكبر الأثر فى اكتمال الصورة عن حضارة

كريت لأن الحضارة المصرية بعصورها الكبرى الثلاث تكاد أن تعاصر حضارة كريت كما أن الحفائر المصرية الناجحة التى قام بها الأثريون البريطانيون فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين فى المدن المصرية القديمة أخرجت مصنوعات كريتية أمكن اعطائها تقديرات تاريخية محددة (١) • وبالرغم من أننا لا نجزم بدقة التقديرات الرقمية فى تاريخ الحضارة الا أن الآراء تكاد أن تتفق على تحديد الحضارة الكريتية أو المينوية بفترات ثلاثة هى :

اولا : مرحلة العصر المبكر من حوالى ٣٠٠٠ الى ٢١٠٠ ق٠م، وهى الفترة التى شهدت التطور والانتقال من حضارة العصر الحجرى المتأخر (neolithic) الى الدخول فى عصر استخدام النحاس والبرنز Bronze Age وهذه المرحلة فى تاريخ كريت تقارب زمنا عصر الأسرات أو عصر بناة الأهرام فى مصر • ولقد حاول علماء الحضارات المقارنة اثبات علاقات مباشرة بين مصر وكريت منذ هذه المرحلة معتمدين على الآثار المتبادلة ولكن من المرجح أن الاتصال بين البلدين لم يكن مباشراً فى هذه الفترة بل كان يتم عن طريق طرف ثالث وهم التجار الفينيقيون وذلك لأن السفن التجارية كانت بدائية فى هذا العصر ولا تستطيع أن تقطع رحلة طويلة مباشرة عبر قلب البحر المتوسط من كريت الى مصر بل كان البحارة القدماء يفضلون السير بمحاذاة الشواطىء ضمانا للأمن وللتسوق فى كل مرحلة من مراحل الرحلة وعلى ذلك فان الرحلة كانت تبدأ من كريت الى الساحل السورى ثم تسير السفن جنوبا بمحاذاة هذا الساحل ثم تتجه غربا بمحاذاة الشاطىء المصرى وليس من المستبعد أن تمتد الرحلة حتى شواطىء ليبيا ثم تعود من ليبيا رأسا الى كريت لقرب المسافة بينهما • والذى لاشك فيه أن الاتصال المباشر بين مصر وكريت لم يتم الا بعد أن أصبح

---

(١) انظر : قدماء المصريين والأغريق ـ بحث فى العلاقات بين الشعبين من اقدم الازمنة الى نهاية الدوله الحديثه ـ تأليف جان فركوتيه وترجمة محمد على كمال الدين ودكتور كمال الدسوقى ومراجعة دكتور محمد صقر خفاجه ـ الناشر دار النهضة العربية القاهرة (١٩٦٠) ص ٣٠ وما بعدها وكذلك ص ١٠٤ وما بعدها

الأسطول المصرى قويا ومسيطرا على شرق البحر المتوسـط وذلك فى عصر الدولة الحديثة أو قبلها بقليل .

وأهم ما يميز هذه الفترة حضاريا هى أن كريت كانت تعتمـد على الاستقبال أكثر من الارسال الحضارى لأن كريت خلالها استقبلت الكثير من حضارة مصر والشرق القديم ـ خاصة معدن النحـاس والبرونز ـ وطورته وبالتالى لم يكن للحضارة الكريتية شخصية مميزة ومستقلة . ولما كانت كريت تعتمد على الشرق القديم فى بناء حضارتها ابان هـذه الفترة فان مدنها الهامة قامت فى طرف الجزيرة الشرقى .

ثانيا : مرحلة العصر الوسيط : ويحدده العلماء تقريبا بالفترة ما بين ٢١٠٠ الر حه الر ١٥٥٠ ق.م . وهى فترة تكاد أن تعاصر حكم الدولة الوسطى
ـلها بدأت الحضارة تنتقل رويدا
رقى الى الوسط حيث بدأت المدن الكبرى فى
وسوس العاصمة وفايستوس Phaistos وتوليسـوس
Tylissos وغيرها . كذلك ازدادت سطوة المينوس الحـاكم من قصر التيه فى العاصمة والمعروف بقصر اللابيرانث . كذلك سـاد المجتمـع الكريتى موجه من الرخاء والترف نتيجة لظهور طبقة من التجار الأغنياء الذين بنوا لهم قصورا على نمط قصر التيه .

وفى حوالى عام ١٧٥٠ ق.م . لاحظ العلماء حدوث دمار جزئى فى بعض طبقات القصور التى أعيد بعد ذلك ترميمها وأعزى البعض ذلك الى حدوث سلسلة من الزلازل التى سادت المنطقة كلها وتسببت فى احداث هرج سكانى كما أعزى البعض هذا الدمار الى اضطرابات اجتماعيـة ضـد الطبقة الحاكمة ولكننا نميل الى الرأى الأول .

ثالثا : مرحلة العصر المتاخر : ويحدده العلماء الى الفترة ما بين ١٥٥٠ـ ١٤٠٠ ق.م . وهى تقارب فترة حـكم الأسرة الثامنـة عشرة وبنـاء الامبراطورية المصرية وأهم ملامحها ازدياد الاتصال المباشر بين الفراعنة

فى مصر والمينوسيين (جمع مينوس) (١) فى كريت ، ووصلت سفن التجار الكريتيين أو الكفتيو (٢) كما سماهم المصريون - الى الشواطىء المصرية بل ومن المرجح أن كانت لهم جالية مقيمة فى مصر ، وبازدياد قوة الأسطول المصرى وفرضه السيطرة المصرية على شرق البحرالمتوسط ازدادت التجارة والتبادل الحضارى بين البلدين ووجد التجار الكريتيون فى السلام المصرى Pax Aegyptiana فرصة للعمل فى ظلاله فباركوا هذا السلام واعترفوا بسيطرة مصر وباركوها وقدموا الهدايا للفرعون المصرى رمزاً للسلام حفاظا على تجارتهم سواء فى مصر أو فى مناطق النفوذ المصرى . ولم يكن المينوس فى كريت أقل سطوة من الفرعون فى مصر فبسط نفوذه من قصره الكبير وسيطر أسطوله على بحر ايجه وموانى بلاد اليونان . لقد بلغت الحضارة الكريتية أوج عظمتها ابان هذه الفترة كما تشهد الآثار المستخرجة من القصور ومن المنازل والقبور وكان يمكن أن تذهب الحضارة والتقدم الى أبعد من ذلك لولا أن دماراً شاملا ومفاجئا حل بالجزيرة وأودى بمجدها السياسى . ويظهر هذا التدمير فى شكل حرائق وتخريب متعمد مما يدل على تعرض الجزيرة لهجوم معاد من شعوب بحرية . كما أن الغزو لم يقتصر على كنوسوس وحدها بل تعداها الى كافة المدن الأخرى ، وقد أدى هذا التخريب الى انهيار الحضارة الكريتية الى الأبد . اذا لم تستعد كريت مجدها وسيطرتها التى كانت عليها فى الأيام الخوالى حتى بعد تعمير مدنها المخربة .

ويرى بعض العلماء الحضارةوالتاريخ أن الموكينيينهم المسئولونعن هذا الدمار والتخريب الذى حل بكريت (١) ، وكان الموكينيون قد تسللوا الى شواطىء كريت منذ قرن قبل حدوث الكارثة . ويفترض العلماء أن التنافس التجارى بين كريت ومدن بلاد اليونان مثل موكيناى

---

(١) واحيانا سموهم حاونيبوت اى شعوب البحر ، كذلك لقب المصريون البحر الابيض المتوسط باسم واج - ور (الاخضر الكبير) .

(٢) يتوارى ذكر الكفتيو فى النقوش والآثار المصرية حوالى عام ١٢٥٠ ق.م ويظهر بعد ذلك بقرن ونصف اسم الأخايواشا Akaiusha اى الآخيون دى بودج المرجع السابق ص ٣٢ ملحوظة (١) .

وتيرنس وبيلوس Pylos والتى كانت فى الأصل مناطق نفوذ مينوية ، قد ازداد فى الفترة الأخيرة حتى وصل الى الاصطدام المسلح الدموى والذى انتهى بهزيمة الخصم الأول وانفراد بلاد اليونان بالبحر المتوسط والتجارة فيما وراء البحار . وبالرغم من وجـاهة هـذا الرأى الا أنه لا يزال مجرد افتراض محض .

ولكن الذى لاشك فيه هو انتقال مركز القوة والسيادة من كريت الى بلاد اليونان بعد عام ١٤٠٠ ق.م . تقريبا حيث ازدهرت فى شـبه جزيرة البيلوبونيسوس المدن الكبرى كوريثة للحضارة الكريتية خاصة مدينة موكيناى ولذا آثر العلماء أن يطلقوا اسمها على العصر كله بل وعلى حضارته أيضاً . ومما يؤكد وصول الحضـارة المينوية الى قمتها ما بين ١٥٠٠ ــ ١٤٠٠ هو الثراء الوضح فى الأساطير الاغريقية التى تتحدث عن عظمة كريت وسطوتها ابان هذه الفترة كما أن علم الآثار يكشـف بوضوح انتشار المصالح الموكينية شرقا فيما بين ١٤٠٠ ــ ١٣٥٠ ق.م تقريبا . قد شمل هذا الانتشار جزر رودس (Rhodes) وقبرص Cyprus والمدن الكينيقية مثل أوغاريت (رأس شامرة) وبيلوس (بيت جبيل) ، بل ووصل هذا الانتشار التجارى الى السواحل المصرية . وهذا يؤكد الرأى السابق بأن الموكينيين هم المسئولون عن تدمير الحضارة المينوية وزوال مجد كريت بدافع التنافس التجارى .

وعلى أى حال فان السيطرة الموكينية لم تدم طويلا كما سنرى فيما بعد ، لأنها انهارت هى الأخرى بعد قرنين ونصف قرن من سقوط كريت نتيجة لغزو قبائل جاءت من شمال بلاد البلقان تعرف بالدوريين Dorians ويتميز هؤلاء باستخدام أسلحة حديدية وبذلك وضعوا نهاية لحضارة العصر البرونزى كله ومن بلاد اليونان انتشر الدوريون الى أجـزاء مختلفة من بينها كريت . وما أن جاء القرن الثـامن حتى كان الدوريون يسيطرون على مدن الجزيرة وقراها سيطرة تامة . وبذلك بدأت كريت عهدا جديدا استمر حتى احتلال الرومان لها فى القرن الأول قبل الميلاد ولم تعد كريت ــ منذ سقوط حضارتها ــ تلعب أى دور هـام وفعـال فى الأحداث التاريخية التى سادت أوروبا القديمة حتى العصر الحديث .

والآن لنتساءل ماذا قدمت كريت للحضارة الهللينية (١) ؟ ان أعظم ما قدمت كريت لهذه الحضارة هو التراث الدينى والفنى الذي ظل حيا فى الحضارة الموكينية ثم فى تراث حضارة بلاد اليونان فيما قبل العصر الكلاسيكى وبعده . وهناك الكثير من الأساطير الاغريقية التى يمكن تتبع جذورها الى العصر المينوى فى كريت كأسطورة ثيسيوس والمينوتور واريادنا « ذات الضفائر الطويلة » ، وكأسطورة دايدالوس Daidalus مهندس قصر التيه . كذلك سجل لنا هوميروس ملاحظات عرضية ولكن هامة ـ تضمنتها ملحمتاه الخالدتان الألياذة والأوديسا جمعها العلماء وأضافوها الى تراث المعرفة المتراكم عن حضارة كريت . وفى القرن الخامس قبل الميلاد عالجت كتابات هيرودوت وثوكوديديس من بعيد دور كريت فى الأحداث التى سادت العالم الاغريقى . ولكن اهتمام المؤرخين بكريت لم يكن بالقدر الذى أولاه الفلاسفة الاغريق لها . فقد وجدوا فيها منجما غنيا للمعرفة العامة خاصة فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية والأسس التى تقوم عليها . خاصة أرسطو الذى راح فى كل مناسبة يتحدث عن مكانتها وأهميتها . وكذلك كان أفلاطون أستاذ أرسطو ـ قد فعل قبله .

لقد كانت كريت دائما وأبدا حقل التجارب الاجتماعية(٢) والسياسية والمنجم الغنى بالتراث الذى نهل منه فلاسفة الاغريق فى بحثهم عن المثل العليا وعن جذور الظواهر الاجتماعية وأسسها التى تقوم عليها فهى النموذج الأمثل الذى تقوم عليه فلسفة أرسطو من أن السلوك الاجتماعى (أو السياسى) سلوك انسانى قديم قدم الزمان . وكان لحسن الحظ أن وصلت الينا ملاحظات أفلاطون وأرسطو عن كريت كاملة فى أعمالهم الفلسفية لأن القدر الهائل من كتابات المؤرخين الاغريق عن كريت ابان

(1) cf. Fran es Wilkins : Ancient Crete (A Young Historian Book) Weidenfield and Nicolson, 1966.

وعن فضل كريت على الفلسفة الاغريقية انظر :

Burnet : Early Greek Philosophy, p. 2.

(2) cf. R. F. Willetts : Ancient Crete-A Social History From Early Times Until the Roman Occupation London 1965, p 60 f.

العصر الهللينستى قد فقدت واندثرت الا من قدر ضئيل من الشذرات التى تحوى معلومات متفرقة . حقيقة ، لقد تحدث للمؤرخ العظيم بوليبيوس Polybios الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد — عن كريت ولكنه عندما كتب عنها كانت كريت فى مركز سياسى منهار — ولم تكن تلعب سوى دورا صغيرا ومحدودا فى الصراع بين روما الناشئة وبلاد اليونان المقاومة لاحتلالها وسيطرتها والذى هو بهدف المؤرخ الأول . أما استرابون الجغرافى والذى كتب فى القرن الأول قبل الميلاد بعد أن زار كريت ، فقد ترك لنا معلومات قيمة عن كريت ولكنها كانت تدور فى الدرجة الأولى حول دياناتها القديمة .

كذلك لم تخل كريت من كتابها وشعرائها الذين سجلوا تراثها القومى الخاص . فمثلا نسمع عن موسيقار كريت الشهير ثاليتاس Thaletas والذى عاش فى القرن السابع قبل الميلاد والذى قيل أنه قد سافر الى اسبرطة ليعرض على الناس آخر ما توصل اليه وهو علاج وباء الطاعون عن طريق الموسيقى حيث مكث فى أسبرطة زمناً واستطاع أن يقوم بتطوير الموسيقى الاسبرطية . كذلك نسمع عن شاعر كريت الشهير أبيمينيديس Epimonides الذى زار أثينا ابان حكم المشرع سولون . ولكن للأسف لم يصل الينا شىء من مؤلفات هذا الشاعر . ومن أشهر ما وصل الينا من أدبيات أغانى هوبرياس Hybrias التى يرجع أصلها الى القرن السادس قبل الميلاد وفيها يتغنى مؤلفها على لسان شريف من أشرافها بالحياة الهادئة وهو خال البال هادىء النفس فى وقت كانت فيه الأحداث تعصف بمدن بلاد اليونان وقراها ورياح الصراع الدموى تؤرجحها بين حكم الطغاة Tyrants وبين حكم الديمقراطية الوليدة (١) .

ولقد أضاف العلماء الى رصيد معلوماتنا عن كريت فى العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر معلومات جديدة وغزيرة مصدرها الحفائر

---

(١) عن نهضة كريت خلال الفترة ٦٣٠ — ٥٨٠ ق.م انظر :

H. Hoffmann : Early Cretan Armours (with Collaboration of A. E., Raubtschek) Mainz p. Von Zobern, 1972,

الأثرية ومجهودات علماء النقوش اليونانية بالذات . فقد جمعت كل النقوش فى كريت فى أربع مجلدات كبيرة أشرفت على نشرها العالمة الايطالية مارجريتا جواردوكى Margarita Guarducci معظمها يدور حول الدساتير الخاصة بمدن كريت المختلفة والمتميزة بتراثها الخاص المستقل كل عن الأخرى ولكن من وجهة نظر الأشراف أو الارستقراطيين. وتمتد هذه المعلومات حتى القرن السابع قبل الميلاد . ولقد صفق العلماء طويلا عندما وصلت الى أيديهم نقوش موسوعة جورتينا القانونية Code of Gortyna وجورتينا ثانى مدن كريت بعد كنوسوس . وكانت هذه المدينة هامة لأن هوميروس ذكرها فى ملحمتيه وكانت من الأهمية أن جعلت الرومان يختارونها فيما بعد كعاصمة لاتحاد ولايتى كريت وقورينه بعد الفتح الرومانى لهما عام ٦٧ ق.م . كما كانت تقع على الطريق الاستراتيجى الهام الذى يربط فايستوس Phaistos بهيراكليوس Herakleios ولهذا السبب أولاها الرومان عناية خاصة . ان قصة العثور على نقوش هذه الموسوعة القانونية مثيرة للغاية . فقد عثر على جزء منها منقوشا على حجر مبنى فى جدار طاحونة عام ١٨٥٧ واشتراه مندوب متحف اللوفر ونقله الى باريس حيث أصبح محل دراسة العلماء والمتخصصين الذين وجدوا صعوبة بالغة فى نقل نصوصه وترجمتها لقدم الطريقة التى كتبت بها وأخيرا أدركوا أنها جزءا من قانون عام يدور حول حق الارث وحق التبنى وأنه لابد من العثور على الأجزاء الباقية من هذا النقش وسارع الأثريون الى التنقيب مكان هذه الطاحونة فقام العالم الأثرى هالبهرر Halbherr بعمل حفرة عميقة داخل جدار الطاحونة وتمكن من اخراج أربعة أعمدة منقوشة ولكن آخرها غير مكتمل وهذا دليل على وجود بقية له . وحاول هالبهرر تتبع البقية الباقية منه ولكنه لم يحصل على ترخيص التنقيب فتوقف عن البحث وحمل ما عثر عليه وسافر الى هيرا كليون حيث قابل العالم ارنست فابريكيوس Ernest Fabricius مندوب المعهد الألمانى لجمع الآثار فى كريت وعرض عليه المشكلة وسرعان ما عاد فابريكيوس الى مكان الطاحون حيث تمكن من الحصول على اذن من صاحبها بمواصلة

التنقيب واستطاع فى نهاية الحفر أن يخرج ثمان أعمدة بنقوشها الواضحة فى حالة جيدة فأصبح مجموع الأعمدة الشاملة لهذه الموسوعة القانونية اثنى عشر عموداً تكون نقشا كاملا على جدار واحد دائرى الشكل يبلغ قطره حوالى ماية قدم . ويرجح العلماء أن هذا الجدار الدائرى هو جزء من مسرح كبير قديم منذ القرن الأول قبل الميلاد وهذا المسرح كان بدوره جزءاً من مبنى محكمة قديمة ومجموع هذه الأعمدة ٦٠٠ سطر ويشمل كل عمود على متوسط ٥٣ الى ١٦ سطراً كتابيا .

لقد كان العثور على مثل هذه الموسوعة القانونية انطلاقة جديدة فى حقل تراث كريت وحضارتها ، فهو مكتوب بطريقة قديمة متعرجة أ. من اليمين الى اليسار ثم من اليسار الى اليمين بطريقة أسماها علماء الخطوط طريقة المحراث Boustrophedon كما تشمل حروفها الأبجدية بعض الحروف اليونانية القديمة التى سقطت من الاستخدام بعد تطويرها مثل حروف الديجاما أو الواو وعلى أى حال تمكن العلماء من تحديد عمر النقش الى الفترة ما بين ٤٨٠ الى ٤٥٠ ق.م وهو يسجل مواداً قانونية وتشريعية يرجع تاريخها الى قرون عديدة سابقة . وما أن اكتمل النقش حتى تسابق العلماء الايطاليون والألمان بالذات الى نشره وشرحه وتفسيره ، كل له وجهة نظره الخاصة ، ويجيء على رأس المتنافسـ كمباريتى الايطالى Comparetti وفابريكيوس الألمانى . فظهرت نسخة الألمانية عام ١٨٨٤ والايطالية عام ١٨٥٥ . وتلى ذلك مؤلفات عديدة لعلماء من كل الجنسيات تتفق فى الأصول وتختلف فى الشروح والتفسيرات وتحمل تعليقات مختلفة بل أنه لا يزال هناك نقاط لا تزال موضعا للخلاف والجدل .

ان العثور على موسوعة قوانين جورتينا من أهم الانتصارات العلمية التى حققها العلماء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فهى أول مصادر التشريع الأوروبى القديم وأعظم مجموعة قوانين عرفت منذ حمورابى ، كما أنها معلومات واضحة وأصلية تكشف عن الحياة الاجتماعية وأسس السلوك الاجتماعى فى أعظم وأكبر مدينة فى كريت

ابان النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد ، بل باضافتها الى رصيد المعرفة ، تكتمل الصورة عن حضارة كريت .

وخلاصة القول أن دراسة الحضارة المينوية تشتمل على جانبين هامين هما :

(ا) أهمية الفن فى كريت وفضل الحضارة المينوية على الحضارة الهللينية :

خاصة بعد أن كشفت حفائر سير آرثر ايفانز عن تقدم كبير فى مجال العمارة والتصوير على الحوائط وانتقال هذا الأسلوب الحيوى بألوانه المتعددة الزاهية الى الحضارة الموكينية ثم الى الحضارة الهللينية ما قبل الكلاسكية وما بعدها ، ومن مجال الفن يمكن الدارس أن يخرج الى مجال التراث الدينى والأسطورى واللغوى والتشريعى وبه يمكن ارجاع حضارة بلاد اليونان الى مصادرها الأولى (١) .

(ب) دراسة العلاقات المتبادلة والحضارة المقارنة بين مصر وكريت :

وهو موضوع شيق خاصة بالنسبة للمهتمين بتاريخ العلاقات الكريتية المصرية ، أو المينوية ـ الفرعونية . اذ كشفت الحفائر فى كل من البلدين عن مواد أثرية متبادلة (٢) ، كما أن طريقة الكتابة الأولية فى كريت كانت تصويرية قريبة الشبه بالكتابة الهيروغليفية كل صورة فيها تمثل حرفا كتابيا . ومن أمثلة هذه الحروف رأس الثور أو عين الانسان أو بوابة المنزل هذا الى جانب طريقة الكتابة المقطعية المعروفة بالمجموعة الخطية الأولى Linear A . كذلك صور الفن المصرى أهل كريت الذين عرفوا بأهل كفتيو Keftiu وهم يقدمون الهدايا لفرعون مصر بل ان الفن الكريتى الدقيق أثر فى الفن الفرعونى وأكسبه رشاقة وحركة .

---

(1) H. T. Bossert, The Art of Ancient Crete London (1937), p 1.I.

(٢) انظر جان فيركوتيه : المرجع السابق ص ٣٠ ـ ١٢٠ .

٢ — الحضارة الموكينية :

منذ بداية تراكم المواد والمعلومات الأثرية عن الموكينيين وعلماء الآثار يحاولون الكشف عن عنص هذا الشعب الذى صنع تلك الحضارة ومن الطبيعى أن تتجه أنظار العلماء فى أول الأمر جنوبا الى كريت التى ذكرتها الأساطير والتراث الشعبى ان كان لها علاقة وثيقة ببلاد اليونان أبان العصر البرونزى وكما أن شليمان تطلع ذات يوم للتنقيب عن آثار كريت لولا أن مشيئة القدر عاقته لكى تبقى هذه المهمة الى آثار كريت ايفانس ٠ وهذا لاشك دافعه وجه التشابه الكبير بين حضارة كريت القديمة وحضارة الموكينيين فى العصر البرونزى ووصل من شدة مراعاة هذا التشابه أن اعتقد ايفانس أن كريت لابد وأن تكون قد سيطرت على جزء من جنوب بلاد اليونان فى وقت ما وأن موكيناى لم تكن سوى ميناء كريت البحرى فى شبه القارة اليونانية ٠ وسيظل علم التاريخ والحضارة مدينا لايفانس بالكثير لأنه وضح الفرق ما بين ما هو « مينوى » وما هو « موكينى » بل وأثبت أن كريت هى الأصل ٠ وعلى أى حال فقد أدى ذلك التشابه الى اثارة نوع من الخلط بين الحضارتين وبدأ العلماء والمختصون فى التساؤل من هم الموكينيون ؟

ان الأدلة الأثرية تشير الى أن الموكينيين هم أجداد « الاغريق الأولين » ولكن بقيت المشكلة : الى أى قدر من « الاغرقة » كان الموكينيون ؟ (١)

ان الأدلة القاطعة تشير الى أن بلاد اليونان خلال العصر البرونزى كانت دائما محط العديد من القبائل المتجولة والشعوب الغريبة التى كانت تهاجم سكانها الأول الذين كانوا ينحدرون من جنس البحر

---

(١) سيجد الراغب فى المزيد من المعلومات كل المراجع الخاصة بالحضارة الموكينية فى مقالتى «أضواء على الحضارة الموكينية» — مجلة كلية الآداب — المجلد التاسع والعشرون — ١٩٧٣ ص ٦١ الى ص ١١٦ ٠

الأبيض المتوسط وعن طريق امتزاج هذه الشعوب المتجولة بالسكان الأصليين خرج العنصر الذى سمى فى العصور التالية بالأغريق . أما من الناحية الحضارية فقد شهد معظم العلماء بأن هناك خط حضارى ممتد منذ العصر البرونزى حتى العصر الكلاسيكى ولكن هذا الاستمرار الحضارى تعرض للتلقيح حضاريا وجنسيا بعناصر جديدة فمثلا ما بين ١٩٠٠ و ١٨٠٠ قبل الميلاد أى فى فترة الانتقال ما بين العصر البرونزى المبكر والعصر البرونزى الوسيط يظهر عنصر جديد . هذا العنصر الجديد يعلن عن نفسه بتعبير جديد فى الحضارة أهمه هو نوع جديد من الأوانى الفخارية أطلق عليه شليمان اسم مينائى Minyan (نسبة الى القبيلة التى كانت تسكن مدينة أورخومينوس التى منها انحدر الملك ميناس Minyas) هذا الفخار « المينائى » يكاد يميز نفسه عن باقى أنواع الفخار التى كانت مستعملة قبل ذلك بجودة خامته وصناعته ومن الواضح أن أشكال هذه الأوانى كان محاولة لتقليد أوانى معدنية مثل الفضة . كما كان يتميز بنعومته ولونه الرمادى . وقد أمكن تتبع وجود هذا النوع فى سهل طرواده (على ساحل تركيا) كما أنه خرج بكثرة من الطبقة السادسة من طرواده ، وقد فسر العلماء وجود نوع وجود هذا النوع فى سهل طرواده (على ساحل تراكيا) كما أنه خرج لغزو من قبل عنصر سكانى واحد . والى جانب الأوانى الفخارية قام العلماء بمقارنة أوجه كثيرة للحضارة مثل هندسة القبور والقصور والمنازل وغيرها من العناصر التى تكون الحضارة وخرجوا بنفس النتيجة التى خرجوا بها من دراسة الفخار المينائى ، كما أثبتت الدراسات اللغوية اليونانية دخلت مع هؤلاء الغزاة الذين جاءوا بهذا النوع من الفخار .

لقد سبق أن أشرت الى ملاحظة المهتمين بالدراسات اللغوية الى بقايا أسماء مناطق ومدن فى بلاد اليونان فى العصور الساحقة ممن تنتهى نهايات غريبة مثل Zakynthos وبارناسوس Parnassos وهيميتوس Hymettos هذه الأسماء وغيرها اعتبرها علماء اللغة نوعا أوليا من

اللغة اليونانية وجدت على نطاق واسع فى كريت وحوض البحر الايجى • اذا كانت كل هذه المنطقة ذات حضارة متقاربة ابان العصر البرونزى ولقد ثبت أن هذا النوع من اللغة اليونانية المبكرةكان موجودا أيضا فى شمال غرب هضبة الأناضول حيث يعتقد العلماء الآن أنه مصدر ذلك الغزو وليس منطقة البلقان كما كانوا يظنون سابقا • وقد أيد ذلك التوصل الى أن اللهجة الأركادية القبرصية (Arcado-Cypriot) أحد اللهجات الكبرى الأربعة فى اللغة اليونانية هى أكثر اللهجات اليونانية أصالة ، والمعروف أن منطقة اقليم أركاديا الجبلية الوعرة هو الاقليم الوحيد فى البيلوبونيز الذى لم يتعرض للغزو ، ومن ثم فقد تدفق عليه اللاجئون الموكينيون ومعهم لسانهم وحضارتهم • ومما يؤكد ذلك وجة التشابه الكبير بين اللهجة الأركادية ولهجة أهل قبرص رغم البعد الشاسع بين الاقليمين والذى يفصل بينهما البحر الأبيض ولذا فقد أطلق علماء اللغة على اللهجتين اسما واحدا ومشتركا هو اللجهة « الأركادو — قبرصية » ، والمعروف أن قبرص قد وقعت لفترة طويلة تحت تأثير الحضارة الموكينية وقد ثبت ذلك من خلال الملامح الأثرية لقبرص • اذا أصبح من الواضح أنه منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد بدأت تتدفق على بلاد اليونان قبائل من أصل هندو — أوروبى وتتحدث لغة هندو أوروبية • ويميل العلماء الى الاعتقاد بأن هذه القبائل جاءت من الشرق عبر هضبة الأناضول الى طرواده ، كما تعرف العلماء على نوع مشابه للفخار « الميناثى » فى شمال شرق ايران ، والى جانب شقافات الفخار الميناثى تعرف العلماء لأول مرة على عظام الجياد فى الطبقة السادسة من طروادة كما دفعهم تزايد أهمية الجياد فى الحضارة الموكينية الى الاعتقاد بأن الجواد قد دخل عن طريق هؤلاء الغزاة ، ولهذا يعتقد العلماء أن هؤلاء الغزاة قد جاءوا عن طريق البر عبر منطقة القوقاز وشمال البحر الأسود الى شمال بلاد اليونان ثم جنوبها وليس كما كان يعتقد آنفا بأنهم جاءوا عن طريق البحر نظراً لصعوبة نقل هذه الجياد عن طريق السفن • ولكن كل ذلك يبقى مجرد افتراض لأن ليس لدينا ما هو يقطع بكيفية دخول هؤلاء الاغريق الى بلاد اليونان ولكن آثار طريقهم

تظهر عن طريق تتبع شقافات الفخار الميناثى من بلاد اليونان الى مقدونيا ومنطقة خالكيديكى (Chalcidice) ولكن ينعدم وجود هذا الفخار فى منطقة تراكيا Thracia مما قد يجعل الباحث اذا ما تفحص خريطة بلاد اليونان لا ينفى افتراض نقل الجياد بالبحر من ساحل طروادة على الجانب الشرقى للبحر الايجى الى منطقة خالكيديكى بشعبها الثلاث ثم الى مقدونيا وجنوبا الى بلاد اليونان .

ويؤكد ذلك ما نسمعه عن وجود مثل هذا النوع من الفخار فى بعض جزر بحر ايجه ومن الواضح أن عملية دخول الاغريق الى بلاد اليونان تمت على شكل هجرات وموجات متوالية من الهجرات على فترات متباعدة قضوا خلالها على آثار العصر البرونزى المبكر وأقاموا فوقها حضارتهم الجديدة . وعلى امتداد قرنين من الزمان تفاعل الغزاة الجدد حضاريا وعنصريا مع سكان المناطق الأصلية واستوعبوا حضارتهم وثقافتهم وأدخلوا اللسان الاغريقى عليهم ، وبالتدريج دعموا وجودهم وكان من نتيجة توفر الاستقرار السياسى ازدياد الرخاء الاقتصادى والاطراد الحضارى ، وكان لعامل البحر من تجارة وقرصنة بحرية أثره الكبير فى تشكل هذه الحضارة (وقد سبق أن أشرنا أنهم قد فاقوا الحضارة الكريتية سيطرة على البحار) التى تظير معالمها منذ أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد قريبة الشبه من الحضارة المينوية مما أدى الى افتراض بعض العلماء أنها كانت تقع تحت سيطرة حضارة كريت وتأثيرها . ولكن سرعان ما تكشفت شخصيتها المستقلة مما دعى الى الاتفاق على تسميتها بالحضارة الموكينية .

... يرجع الفضل الى الالياذة فى معرفتنا للممالك الموكينية الكثيرة : منها مملكة يولكوس فى اقليم تساليا Thesalia ومملكة طيبة Thebes وأورخومينوس Orchomenos فى بويوتيا Boeotia ومملكة أثينا فى اقليم اتيكا Attica ولكن مركز الثقل السياسى والحضارى كان يتمركز فى منطقة البيلوبونيز : حيث فرضت مدينة بيلوس Pylos نفسها على أقليم مسينيا Messenia وفرضت مدينة موكيناى Mycenae

سلطانها على منطقة أرجوليس Argolis بما فيها من مراكز ومدن صغيرة مثل تيرنس Tiryns غيرها ولا يزال البحث والتنقيب على قدم وساق فى منطقة لاكونيا التى تطل على البحر وتقع فى الطرف الجنوبى لاقليم البيلوبونيز Peloponnese والتى تفصل بين منطقة الأرجوليس فى الشمال الشرقى ومسينيا فى الجنوب الغربى من أجل الكشف عن حضارتها فى العصر الموكينى وتحديد مكان عاصمتها . وكانت كل مملكة تحتل سهلا أو واديا أو هضبة يطل على واد يتوسطها المدينة الأم Metropolis ونظراً لصعوبة التضاريس الجغرافية فى بلاد اليونان حيث كانت تفصل بين السهول والوديان معوقات جغرافية مثل الجبال فقد عاشت كل مملكة فى معزل عن الأخرى على الأقل من ناحية البر وبقى البحر هو وسيلة الاتصال الوحيدة بينها . وبالرغم من أن الحضارة الموكينية تحمل الكثير من ملامح الحضارة المينوية الا أن الآثار تظهر الموكينيين فى مظهر يختلف عن المينويين اذ يظهر الموكينيون على الرسومات المسجلة على الأوانى الفخارية قوم طوال القامة صفر الشعر ، ذوى بشرة شقراء لهم لحى طويلة ويرتدون سراويل قصيرة وأقمصة ذات أكمام قصيرة ويتمنطقون بأحزمة عريضة وأحيانا يلتفون بعباءة واسعة ، أما النساء فقد ظهرن بنفس طريقة اللباس الكريتى ومن الواضح أنهم جلبوا معهم أسرهم وما لديهم من متاع تماما مثل الغوط والفرنجة .

ومن المظهر العام للحضارة الموكينية نستطيع القول بأن حضارتهم كانت أكثر بساطة وأقل بذخا من الحضارة المينوية وأشد ميلا للنظام والنظافة . ففى قصورهم ومنازلهم كانوا يتخلصون أولا بأول من القمامة وبقايا المستهلكات عن طريق مصارف مياه المطر وكان القصر الملكى هو مقر الدولة ، وعظمة الملك الجالس على العرش وبذخه رمزاً للبذخ والترف لهذه الحضارة ولكن بصورة أكثر تعقلا ، وقد بنى الموكينيون مدنهم فوق قمم التلال والهضبات وحصنوها كما فعل الحيثيون بالقلاع والحصون ومن المدينة المحصنة — كما نشاهد فى

حالة مدينة موكيناى تتشعب شبكة من الطرق الى المناطق الحضارية المختلفة داخل المملكة •

تنعكس عظمة الدويلة الموكينية فى عظمة قصر الملك الحاكم وسلطاته ومن دراسة القصور يتضح وجود نوع من المركزية البيروقراطيـة ربما تعلمها الموكينيون من النظم التى كانت سائدة فى مصر وبابل • وكان الملك يلقب باسم « واناكس » Wanax (١) وهو لقب دينى مما يدل على أن الملك كان كاهنا أعظم وشخصيته مقدسة الى جانب مركزه السياسى ، ويلى الملك من ناحية السلطة قائد الشعب لاواجيتاس Lawagetas وأغلب الظن أنه كان المختص بحماية شعب الدولة من خطر الغزاة • وكان له محرابا (Temenos) وحاشيـة وضـياع تمـاما كالملك • ويلى الملك وقائد الجيش أصحاب الضـياع (Tereta) وكانوا يتمتعون بحصانة دينية • وفى النهـاية يأتى الأتبـاع bequetai وعلى أكتافهم كان يقوم الجيش والدفاع والتوسع التجارى الخارجى •

أما عن ملكية الأراضى فقد كان بعضها خاصاً والآخر عاما • اذ كانت هناك أراضى موقوفة على الصالح العام أو لصالح المعابد والآلهة ، مثلا كشفت لنا الوثائق أن ضريبة كانت تجبى فى مدينة بيلوس Pylos لصالح معبد الآله بوسيدون مرجف الأرض وجـدير بالذكر أيضا أنه قد عثر على قوائم تسجل أسماء بعض العبيد والجهات التى جاؤا منها •

السجلات الكتابية ودورها فى كشف النقاب عن الحضارة الموكينية :

استطاع العالم ايفانس أن يميز نوعين مختلفين من الكتـابة أولهـا بالمجموعة الخطية الأولى (Linear A.) والثانية عـرفت باسـم المجموعة الخطية الثانية (Linear B.) وبالرغـم من أن حفـائر كريت قد كشفت عن كمية كبيرة من هذه الوثائق تفوق ما أخرج من أى مكان آخر فى بلاد اليونان اذ بلغ ما أخرجه ايفانس من كنوسوس وحـدها ما بين ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ وثيقة الا أن هذا النوع من الكتابة ارتبط ارتباطاً

(1) cf Lord William Taylor : The Myceneans (Ancient peoples and places no. 89) Thames and Hudson London 1964, p 185 ff.

كلياً بحضارة بلاد اليونان وأصبح حل رموزه هو مفتاح للدخــول الى متاهات الحضارة الموكينية بل اعتبر الدارسون أن العثور على مثل هذا العدد الكبير من السجلات المخطوطية للحضارة الموكينية ثروة ضخمة منت بها الظروف على علم الآثار لأن الحضارة لا تثبت شخصيتها الا بتــوفر فن الكتابة وغيره من وسائل التسجيل . وقد دعم ذلك وجود هذه الوثائق التي تسجل كتابات المجموعة الخطية الثانية بوفرة في القصور الموكينية في مدن بلاد اليونان المختلفة فأخرج من بيلوس Pylus مايزيد عن ١٣٠٠ لوحة أو شذرات من لوحة وجدت في حجرة واحدة داخل بقــايا القصر الملكي حتى أن علماء الآثار عرفوها باسم حجرة السجلات Archive Room ومن الطريف أن مدينة موكيناى أهم مدن بلاد اليونان في هذا العصر لم تخرج سوى سبعين وثيقة كتابية من هذا النوع مما أثار دهشة المعنيين بدراسة هــذه الحضارة فافترضوا سببين : الأولى أن ظروف البقــاء Circumstances of preservation لم تســاعد على حفــظ الوثــائق الكتابية وثانيهما هو جهل الأثريين الأول وعدم عنايتهم بهذه الوثائق . ولكن هذا السبب الأخير مستبعد اذا قرأنا تسجيلات شليمان الأثرية وحرصه الشديد وعنايته الفائقة بتسجيل كل قطعة أخرجت من الحفائر . ويميل العلماء الى قبول التفسير الأول وهو اندثار هذه الوثائق تحت تأثير عوامل الطبيعة . وهذه الوثائق عبارة عن لوحات طــول كل منها ثلاث بوصات مختلفة الأشكال بعضها مستطيل وبعضها مربع والآخر مخروطي الشكل أشبه بشكل الخنجر ، ونظراً لدقة الكتابة عليها وغرابة أشكالها فانه من الممكن أن تهمل هذه الوثائق ويلقى بها جانباً مع بقايا الشقافات المحطمة وتراب الحفــائر كما أن كون الوثائق مصنوعــة من الطين النى Baked Clay الغير محروق عرضها للاندثــار والتحلل بفعل تعرضها لتأثير الرطوبة . ويرجع الفضل في بقاء عــدد من هــذه اللوحات الى الدمار المفاجىء الذى حل بالقصور فحفظها تحت الأنقاض كما أن بعض هذه الألواح قد تحول بتأثير نيران الحرائق الى مادة صلبة أشبه بالفخار .

وهكذا أمدتنا كريت وبعض بلاد اليونان ـ ويمكن أن نقول ـ وكذلك قبرص بهذه الوثائق التى تعتبر التسجيل الكتابى الوحيد لحضارة بلاد اليونان فى العصر البرونزى خلال الألف الثانية قبل الميلاد ، بل ربما كانت تلك الألواح الطينية هى المادة الوحيدة التى نجت من دمار الزمان وربما كان هناك سجلات أخرى مدونة على الخشب والجلد والرق Parchment أو حتى أوراق البردى التى لم تساعدها عوامل الطبيعة على البقاء فاندثرت .

وجدير بالعلم أن نضع بين يدى القارىء الظروف التى تمكن فيها العلماء من حل رموز المجموعة الخطية الثانية وكيف تم ذلك .

يرجع الفضل الى حل رموز المجموعة الخطية الثانية الى مهندس بريطاني اسمه ميخائيل جورج فنتريس Michael Georges Francis Ventris وشهرته مايكل فنتريس (١٩٢٣ ـ ١٩٥٦) الذى تمكن من حل رموز الكتابة الموكينية فنال شهرة واسعة قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره . وكان أول بداية لفتت نظر مايكل فنتريس الى أهمية هذه الوثائق أثناء حضوره محاضر ألقاها سير ايفانس وكان مايكل وقتئذ لا يزال طالبا فى المدرسة الثانوية وأنصت الفتى وهو مرهف السمع الى حديث العلامة البريطانى عن هذه الألواح وكتاباتها الغريبة والتى كان قد نقلها معه من كريت الى بريطانيا . واستهواه غموض هذه الكتابة وعكف يفكر ثم عبر رأيه فيها وهو لا يزال طالبا بالمدرسة فى مقالة نشرتها له احدى الصحف الأمريكية عام ١٩٤٠ توقع فيها أن تسفر الأبحاث عن وجود صلة قوية بين كتابة الاتروسكيين فى ايطاليا وكتابة [illegible]ة الخطية الثانية . ولما نشبت الحرب العالمية الثانية عمل ضابطا بالبحرية البريطانية ولم يمنعه هذا من متابعة دراسته فى أوقات فراغه . وفى عام ١٩٥٢ وزع ما يكل فنتريس على عشرة من كبار المتخصصين فى هذه الدراسات قائمة تحمل عشرة أسئلة (Questionnaire) ثم علق على اجابتهم ونشرها فى تقرير طبعه تحت عنوان Mid. Gentury Report ووزعه على نفقته الخاصة كما أخذ يصدر دورية مطبوعة

بعنوان Work Note تحمل آخر نتائج البحث وقد بلغ عدد هـذه الدوريات (حتى الأول من يونيو عـام ١٩٥٢ وهو اليوم الذى أعلن فيه عن توصله لحل رموز هذه الكتابة) عشرين عدداً يبلغ عـدد صفحاتها جميعا مائة وسبع وستين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة • وكان العدد الذى صدر فى الأول من يونيو عام ١٩٥٢ يحمـل عنوانا يبشر بتوصله الى سر هذه اللغة اذا كان يحمل عنوانا يقول « هل كانت ألواح كنوسوس وبيلوس مكتوبة باللغة اليونانية ؟ »

Are Knossos and Pylos tablets written in Greek?

ولكن اعلانه الحقيقى عن توصله لحل رموز هذه اللغة كان عن طريق الاذاعةالبريطانيةفىيوليو عام١٩٥٢ومنذ تلكاللحظةتهافتتعليهاستفسارات العلماء وسرعان ما انضم اليه « جون شادويك » John Chadwick أحد المتخصصين فى فقه اللغة اليونانية وقدما فى مقالة نشرت فى مجلة الدراسات الهللينية عام ١٩٥٣ نظريتهما فى اطـارها الأكاديمى • وهلل العلماء لهذه النظرية وبدأوا فى تطبيقها وخاصة عندما طبقوها على وثيقة جديدة أخرجت من بيلوس Pylos أسفرت قراءتها عن لغة يونانيـة بدائية ، ثم طبقت بشكل واسع على مجموعات الوثائق التى عثر عليها فى كنوسوس خلال عام ١٩٥٢ وعلى ستمائة قطعة أخرى عثر عليهـا البروفيسور كارل بليجن Garl, W. Blegen فى أنقـاض القصر الملـكى فى بيلوس • هكذا بدأت ظلال الغموض تتبدد وتظهر ملامح الحضـارة الموكينية واضحة ومميزة بعد هذا الانتصار التاريخى للدراسات اللغوية اليونانية ولعلماء الآثار والتاريخ على السواء • لقد أضاف حل رمـوز هذه اللغة الى تاريخ اليونان سبعة قرون أخرى من الحضارة كانت مهملة وكذلك الى عمر اللغة اليونانية•وبعد تطبيقات هذا المنهج على كميات كبيرة من الوثائق أتم العالمان عملا ضخماً باسم « وثائق باللغـة الموكينيـة اليونانيـة » (١) •

وبينما كان هذا العمل الضخم ماثلا للطبع حملت أسلاك البرق نبأ موت مايكل فنتريس عام ١٩٥٦ على أثر حادث أليم وهو لم يبلغ بعـد

(1) Jhon Chadwick, the Decipherment of Linear B revised edition 1967

الخامسة والثلاثين ربيما بعد أن نال شهرة وتقـديراً عظيمين كتلك التى نالها شامبليون بعد حله لرموز اللغة المصرية القديمة ، فقد منح وسام الامبراطورية البريطانية : (Order of the British Empire) عام ١٩٥٥ كما منحته جامعة أوبسالا بالسويد درجة الدكتوراه الفخرية كما عينته الكلية الجامعية بلندن University College, London باحثاً بها .

يترك المنهج الذى استخدمه مايكل فنتريس عند القارىء انطباعـا بأنه منهج احصائى رياضى يقوم على الاستطلاع عن طـريق المقـابلة والملاحظة والمطابقة ، والحق يقال أن الفضل يرجـع الى زميـله جـون شدويك فى تطبيق المعايير اللغوية وملىء الهيكل الاحصـائى بالمـادة اللغوية وتحويل المعادلات الى مفهوم لغوى ومن ناحية المبدأ فانه يمكن التوصل الى حل رموز أى لغة اذا ما توافرت أمـام العقـل الرياضى الباحث الكثير من الوثائق الكتابية ولكن يمـكن القـول أيضا بأن الظروف التى تعرض لها فنتريس كانت أشـق من تلك التى واجهـت العالم الفرنسى شامبليون Champillon عند حل رموز اللغة المصرية المدونة على حجر رشيد وعن تلك التى واجهت جروتفند Grotefund ورولنسـون Rowlinson عند حل رموز لغة الكتابة المسمارية البابلية Cuneiform اذ توفر بين يدى هؤلاء العلماء نصوص مكتوبة بلغتين فى وقت واحد Bilingual documents مما يسر مهمتهم بينما لم يتوفر ذلك بالنسبة لوثائق المجموعة الخطية الثانية ، أضف الى ذلك وجـود لغـ مساعدة أو مشتقة بالنسبة للحالة الأولى ــ مثل القبطية والعبرية أما بالنسـبة للغة كتابة المجموعة الخطية الثانية فلم يعرف حتى الأصـل الذى يمكن ارجاعها اليه . وعلى أى حال فقد استفاد مايكل فنتريس كثيراً من المجهودات التى بذلها العلماء قبله فى محاولة حل رموز لغـة المجموعة الخطية الثانية .

العوامل المادية والمعنوية للمجتمع الموكينى :

لابد أن نبدأ بدراسة موجزة للدين لما كان له من مؤثرات معنوية فى الثقافة الموكينية .

١ ـ الدين :

لقد سبق أن أشرنا الى أن معظم وثائق الكتابة الموكينية هى قوائم أسماء وسجلات أشياء ورقميات وحسابات ، وبمعنى آخر ليس هناك نصوص تروى لنا أيا من مظاهر هذه الحضارة ولعل القارىء يشفق على الباحث لصعوبة معالجة ركن من أهم أركان الحضارة الموكينية ـ لامن خلال وثائق مباشرة ومترابطة بل عن طريق شذرات مادية أثرية متفرقة هنا وهناك كأماكن العبادة والقرابين المقدمة للآلهة وأدوات الطقوس والشعائر والأختام التى تحمل صوراً أو رموزاً للآلهة وشذرات الفسيفساء Frescoes أو الفخار أو شواهد القبور Stelai التى تروى جوانب من هذه الشعائر الدينية . ومهما بلغنا من دقة الوصف والتحليل فعلى القارىء أن يدرك أن مثل هذا الوصف والتحليل ليس الا انطباعات سطحية لا نستطيع أن نجزم بقطعيتها ما دمنا لا نملك الوثائق الناطقة .

وأول انطباع يتركه تفحص الأدوات الدينية فى نفس الباحث هو وجود ديانة مشتركة بين الحضارة المينوية السالفة الذكر والحضارة الموكينية ، لذا يميل علماء الدين القديم الى اطلاق اسماً مشتركاً على هذه الديانة فى الحضارتين وهو : (Minoan — Mycenean Religion) . فمناظر الشعائر وأدوات العبادة تكاد أن تكون واحدة فى كلتا الحضارتين . فالآله الأكبر فى كلتيهما « أنثى » ويجىء بعدها آله ذكر أقل منها مرتبة . وتكشف المناظر الدينية المصورة عن وجود علاقة دينية خفية وسرية وغامضة (Mystic) بين الخالق والمخلوق . كما تكشف بوضوح عن حاجة المتعبدين الشديدة الى الاخصاب (Fertility) الذى كانوا يحثون بخصوصه ربتهم الكبرى دائما Magna Mater فى صورة القرابين التى كانوا يقدمونها لها . كما يلحظ الدارس وجود نوع من عبادة الأشجار والتنسك للأعمدة وأغلب الظن أن ديانة مشتركة

كانت تجمع بين موكيناى وكريت ودول شرق البحر الأبيض المتوسط عامة حيث كانت تربط بين هذه الأقطار جميعا صلات تجارية وثقافية وطيدة ، ولشدة تأثير الحضارة الموكينية فيها وتأثرها بها نكاد نطلق على هذه الحضارة صفة العالمية Internationalist وكما قلنا فان المينويين والموكينيين عبدوا ربة أنثى أسموها بالربة الأم (Dea Mater) كما عبدوا ربا ذكراً الى جوارها حينا كان يذكر كشقيق لها وحينا كان يذكر كبعل لها . ولا تخلو هذه العبادة — كغيرها من العبادات القديمة من عنصر الدراما العاطفية عندما يموت بعل هذه الربة فى ريعان شبابه مقدما نفسه قربانا من أجل رفاهية شعبه الذى من أجله جاء ، كما تحتوى هذه الديانة على أفكار نابعة من البيئة الزراعية كفكرة القيام أو البعث أو بمعنى آخر « عودة الروح » عن طريق ميلاد جديد ، فهذا الرب — كأوزوريس المصرى وتموز السورى وديونيسيوس الاغريقى يموت فى نهاية الدورة الزراعية ليولد مع بدايتها الجديدة فى « الربيع » حيث يحتفى بعيد ميلاده الذى يجىء مع فاتحة جنى الثمار وحيث تقدم له القرابين وتقام من أجله الشعائر طلباً للأخصاب والخير الوفير ، وغالبا ما تكون هذه الشعائر استعراضا لبعض مظاهر الحياة والطبيعة ، كما اعتاد المصريون أن يحتفلوا بيوم الزواج المقدس (Hieros Gamos) بين الرب حورس(Horus) والربة حتحور (Hathor) اعتاد المينويون والموكينيون الاحتفال بالزواج المقدس بين هذا الاله بعد بعثه وبين الربة الكبرى (الأم) حيث يتم اللقاء ويجتمع الشمل (re-union) وكانت شعائر هذا الزواج التمثيلى من أهم ملامح الديانة المينوية الموكينية(١) .

وقد سبق أن عالجنا الربة الأم عند أهل كريت بما فيه الكفاية وقلنا أنها كانت ربة قادرة على كل شىء (Omnipotent) وجامعة لخصائص شتى ارتأى الموكينيون توزيعها على آلهة أخرى كثيرة ، حقاً ان الدين المينوى كان يعرف زيوس ولكن كان يراه الهاً أقل قدرة وشأناً اذا ما قورن

(١) هذه الفكرة وجدت فى الأصل عند السومريين فى تزاوج الربين اينانا ودموزى وانتقلت الى السوريين فى زواج عشتار وتموز انظر :

فاضل عبد الواحد على : عشتار ومأساة تموز — بغداد مطبعة الجمهورية ١٩٧٣ ، ص ١٢٧ وما بعدها .

بالربة الأم ، بل أنه اعتبر تابعاً لها ويقبع تحت امرتها ، أما فى نظر الدين الموكينى فان زيوس يبدو أكثر أهمية وشأناً ، اذ رددت وثائق المجموعة الخطية الثانية اسمه ، فذكر مرة وثائق بيلوس Pylos ومرات فى وثائق كنوسوس . والى جانب زيوس أشارت الوثائق الى الضرائب المفروضة على الناس عيناً ومالا لصالح آلهة أخرى منها الربة هيرا وأثينا وأرتميس وأبوللون (الذى ذكرته باسم باياون (Paiawon) وبوسيدون وكذلك آريس الذى ذكرته الوثائق باسم انواليوس (Enualios) وبالرغم من أن هذه الوثائق لم تذكر شيئا عن الصورة التى ظهروا بها فى أعين الناس الا أنه يكفى أن نقول أن الموكينيين عرفوا هذه الآلهة التى أصبحت دعائم الديانة الاغريقية فيما بعد . وجدير بالذكر أن الربة الأم عند الموكينيين كانت تجمع صفات وزعت على ثلاثة ربات اغريقيات فيما بعد : هن ديميتر Demeter ربة الزرع والحرث وارتميس ربة الصيد والحيوان وأثينا حامية الدار وربما ليس من قبيل الصدفة أن ترث تلك الربات نفس المواصفات التى كانت تظهر بها الربة الأم فى كل وجه من وجوهها المختلفة الثلاث . فمثلا ديميتر ورثت عن الربة الموكينية قدسية ضاحية اليوسيس فى أثينا وأرتميس ورثت عنها ظهورها فى صحبة الحيوانات المفترسة وكربة البرارى وأثينا ورثت عنها الثعبان واليمامة والدرع الذى كانت تحمى به القلعة والأبطال المغاوير .

لقد سبق أن أشرنا الى أهمية بوسيدون رب البحار فى مدينة Pylos تلك الأهمية التى عبر عنها هوميروس بذكره كيف أن نستور Nestor ملك المدينة وقائد حملتها فى الحرب الطروادية قدم أضاحى تسع مرات لهذا الاله وفى كل مرة كان ينحر له تسع ثيران حتى لا يهز الأرض هزاً يجلب بعدها الدمار والخراب . كان بوسيدون عند الموكينيين يظهر فى صورة جواد (hippos) والجواد كان رمزاً للاخصاب فى مجتمعات القبائل المتنقلة الاغريقية nomads . وهناك من الأدلة ما يكفى أن نقول أن عبادة ديونيسيوس بما احتوته من الانغماس فى العربدة والجنون الانطلاقى فى العصر الاغريقى العتيق Archaic period نبع أساساً من الدين الموكينى حيث عرف هذا الرب الذى جاء أصلا

من فريجيا Phrygia وليديا Lydia فى آسـيا الصغـرى ، وحيث ارتبط اسمه وهو طفل ، (Dionysus infans) بالربة الأم كما ورث عنها الحية ، وتذكر أساطير اليونان فيما بعد بأنه مات ودفن فى دلـفى Delphi التى سكنها أبوللون فيما بعـد والذى سمى بقـاتل الحية (Argeiphontes) ويعتبر أبوللون أكثر الآلهة الذكور أهميـة فى الديانة الموكينية فهو الذكر المناظر للربة الأم ، وهو رب القوس ورسول الموت والشافى من السقم والأوبئة والأمراض .

أما عن أماكن العبادة فجدير بالذكر أن الدين الموكينى مثل الدين المينوى لم يعرف المعابد الفخمة التى تحوى تماثيل العبادة الضخمـة Cult-Statues مثلما كان الحال فى العصـور الكلاسيكية اذ لم يتعد مكان العبادة أن يكون محراباً صغيراً تقـدم فيه القرابين . ومن الجدير بالذكر أن علماء الآثار لاحظوا وجـود آثار دينيـة من العصر الموكينى فى نفس الأماكن التى أصبحت فيما بعد من أشهر مراكز العبادة مثل جزيرة ديلوس (Delas) مركز عبادة أبوللون وأولمبيا (Olympia) حيث عبد زيوس وهيرا ، وهناك من يرى فى العثـور على بقـايا قصر ملكى أسفل قاعة التلستريون (Telesterion) فى ضاحيـة اليوسيس وحيث كانت تجرى الشعائر الدينية الخاصة بديميتر وابنتها برسيفونى دليلا دينياً لأن المحراب كما رأينا فى الحضارة البشرية خرج من ردهات القصر الملكى فى العصر الموكينى .

(٢) الزراعة والتجارة والصناعة :

أما من النـاحية المـادية للحضارة الموكينية فان الزراعة تعتبـر الدعامه الأولى لتلك الحضارة . اذ كان يعمل بها السواد الأعظم للشعب وتدل القوائم التى كانت تسجل مقـدار المحصـول ونوعه ونصـيب القصور والآلهة منه على دقة التنظيم الزراعى ومن أهم الحاصلات التى رددت فى الوثائق القمح والشعـير ــ كما قامت بعض الصناعات التى ارتبطت بالزراعة مثل صناعة زيت الزيتون والمنسوجات الصـوفية . وكانت صناعة المنسوجات الصوفية بالذات من أهم مصـادر الثراء فى

المجتمع الموكينى وكانت تستهلك نسبة منه داخلياً ، أما الفائض فكان يصدر الى بلدان البحر الأبيض التى كانت لها علاقات تجارية مع مدن بلاد اليونان فى ذلك العصر .

وبالرغم من أن « الثور » كان حيواناً مقدساً الا أنه كان « وحدة » التعامل الذى كان يقوم على المقايضة (barter) وليس من المستبعد أن استخدم الموكينيون سبائك النحاس كوحدات للتعامل بدلا من النقود اذ عثر على كمية كبيرة منها فى القصر الصيفى فى هاجيا تريادا بكريت ، كما أخرجت كمية أخرى منها حديثاً فى عام ١٩٦٠ من بقايا سفينة موكينية غرقت جنوب غرب ساحل تركيا بالقرب من رأس جيليدونيا (Gelidonya) . وقد أقام الموكينيون مدنهم على قمم التلال وكانت هذه المدن على نمط مدن الامبراطورية الحيثية محاطة بالتحصينات الدفاعية القريبة حتى أن كاسون (Casson) أرجع سيادة مدينة موكينى الى نجاحها فى تنظيم عناصر القوة تنظيما سليما Mycenae dominates by virtue of the proper organisation of force ومن المدن المحصنة كانت تخرج شبكة من الطرق لتربط بين المدن الكبرى وبين المراكز التجارية أو الثقافية التابعة لها . وقد كشفت الألواح المكتوبة عن عناية بالغة بانشاء وبناء شبكات الطرق من أجل خدمة التجارة والجيوش حيث شقت الطرق وأقيمت الجسور ومن أشهر هذه الطرق الطريق الذى يبدأ من أكروبول موكيناى ويمتد جنوباً الى بلدة بروسيمنا Prosymna حيث يوجد معبد للربة هيرا Heraeum كما استطاع العلماء تتبع آثار طريق جبلى يربط بين موكينى وكورنثا وضماناً لسلامة القوافل التجارية والمسافرين أقام الموكينيون قلاعاً للحراسة على جانبى الطرق الرئيسية وليس ببعيد أنهم فرضوا رسوماً على استخدام الطرق كما هو الحال فى أوروبا اليوم . ومن أشهر قلاع الحراسة قلعة جبل الياس (Mount Elias) [1] الذى يطل على مدينة موكيناى نفسها . وعلى أى حال فان علماء الحضارة الموكينية يرون فى

---

(١) من هذا الجبل ذكر سوفوكليس ان البشير اعلن مقدم الملك اجاممنون من الحرب منتصرا وذلك لزوجته التى دبرت مقتله مع عشيقها انظر اجاممنون ـ لسوفوكليس ـ الافتتاحية .

عناية الموكينيين بشبكات الطرق دليـلا على مظهرين يعتبران من أهـم مظاهر الحضارة الموكينية على الصعيد الدولى ألا وهما التجارة والحرب.

٣ ـ الحرب :

أهم ما يميز الموكينيين عن غيرهم من الشعوب هو أنهم كانوا شعبا يميل بطبيعته الى القتال وذلك واضح من أنواع الاسلحة المختلفة التى عثر عليها مدفونة فى قبور الرجال وكما هو واضح من الرسومات سواء على حوائط القصور أو على أوانى الشراب والتى كانت تسجل جوانبا من معارك حامية الوطيس . وليس ذلك وحده دليلا على ارتفاع الروح العدوانية القتالية عند الموكينيين فحسب ، بل تدعم الوثائق الكتابية أهمية الجيش فى المجتمع الموكينى ، ولقد أشرنا سـالفا الى طبقة « الاتباع » (baquetai) العسكرية وكما يتضح من الاسم فقد كانوا اتباعا للملك وأغلب الظن أنهم كانوا من طبقة الأشراف . وتخبرنا الوثائق أنه كان يتوفر لديهم العربات الحربية وأنهم كانوا أعضاء فى هيئة عسكرية كان ينظمها القصر الملكى من أجل التنسيق بين وحدات الجيش المختلفـة المكلفة بحماية المناطق الساحلية وصد أى عداون قد يقع عليها مثلما كان الحال فى الامبراطورية الرومانية المقدسة (١) .

يجىء سلاح العربات على رأس وحدات الجيش الموكينى وكان لهذا السلاح من الأهمية ما توليها الجيوش الحديثة لسلاح « الفرسان » اذ كان دور « العربة الحربية » فى المعركة حاسما وأساسيا وليس كما كان يظهر دورها فى الالياذة والذى لم يتعد حمل البطل الى ساحة المعركة . لقد كان اختراع العربة الحربية ثورة فى التكتيك العسكرى فى العالم القديم فعن طريقها مثلا استطاع المصريون وهم شعب زراعى مسالم أن يقيموا امبراطورية شاسعة خلال القرن السادس عشر قبل الميلاد وليس هناك من شك فى أن « العربة الحربية » دخلت الى بلاد اليونان من الشرق الأوسط ابان القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ومن أهم الأسلحة التى كان يتسلح بها الجيش الموكينى الدرع الذى يحمى الصـدر (shield)

(١) وهذا هو اصل نظام الاقطاع الاوربى فى العصور الوسطى .

والدروع التى كانت تحمى الساقين (greaves) حتى أن الآخيين عرفوا باسم « الذين يتوشحون جيدا بدرع الساق (Well-greaved Achaeans) ويستطيع الزائر لمتاحف بلاد اليونان وأوربا أن يشاهد مجموعات مختلفة للخوذ الحربية وعلى تشكيلات متنوعة للأسلحة الهجوميـة كالحراب والسيوف والنبال والسهام وناهيك عن الخناجر المطعمة بالعاج والذهب.

ولما كان البحر ذا أهمية خاصة فى حياة الموكينيين فمن الطبيعى أن نعتقد بوجود قوة بحرية ضاربة ، اذ تمدنا وثائق بيلوس (Pylos) بقائمة تتضمن مجموعة من أسماء « مجدفين » فى الأسـطول وأغلب الظن أن السفن التجارية كانت نفس السفن التى استخدمت للأغراض العسكرية أو للقرصنة فى أعالى البحار .

٤ ـ التجارة والعلاقات الدولية :

من الطبيعى أن يتفهم الباحث حب الموكينى للبحر ، فهو انسان يتميز بعشقه للمغامرة وركوب المخاطر والأهوال بل أن فقر الموارد الاقتصادية لبلاده حتمت عليه البحث عن مصادر أخرى فى البلاد التى يخفيها البحر وراء أفقه البعيد فكانوا يذهبون بالفائض من صناعتهم ويعودون بمـا تحتاج اليه بلادهم ، ومن الواضح أنهم كانوا يصدرون الأوانى الفخارية على نطاق واسع فاذا نظرنا غربا وجدنا شذارات الفخار الموكينى فى صقلية وجزر ليبارى شمال هذه الجزيرة وحيث استخرجوا من صخورها البركانية اللامعة الداكنة الحجر الذى يعرف بالاوبسيدى Obsidian والذى كانوا يصنعون منه الأدوات الفنية والمنزلية ، ويتضح من كثرة الأوانى الفخارية الموكينية أن هذه الجزيرة كانت محطة تجارية للأسطول الموكينى فى غرب البحر الأبيض ولما كانت الحضارة الموكينية تقوم جـوهرا على معدن البرونز فانه من الطبيعى أن يسعى الموكينيون بحرا وراء خامات هذا المعدن وهى النحاس والقصدير وقد اشتهر سهل اتروريا Etruria فى شمال ايطاليا بمناجم النحاس الغنية وأغلب الظن أن السفن الموكينية كانت تجىء بهذا المعدن من هذه المنطقة اذ لاحظ العلماء وجود شذرات للأوانى الموكينية فى جزيرة اسكيا المواجهة لساحل اتروريا وليس من[1]

(١) انظر : كتـابى تاريـخ الرومان دار النهضة العربية القـاهرة ١٩٧٦ ص ٤٨ .

المستبعد أن تكون السفن الموكينية قد وصلت الى شواطىء شبة جزيرة ايبيريا Iberia حيث مناجم القصدير والفضة حتى فى غياب الدليل الأثرى . كما أمكن التعرف على العديد من الآثار الموكينية الصغيرة فى شمال وجنوب فرنسا وبريطانيا ومنطقة وسط أوروبا .

العلاقة الحضارية مع الشرق الأوسط وحوض بحر ايجه :

رددت وثائق المجموعة الخطية الثانية التى عثر عليها فى كنوسوس عددا من أسماء الشعوب الشرقية التى عرفوها من خلال التعامل التجارى فذكرت كلمة « مصرى » Misirayo ومرادفها (Aikupitayo) كما ذكرت كلمة « قبرص » (Arasiyo) وارادى (Aradayo) وكذلك لفظ « بيروتى » (Perita) و « صورى » (Turiyo) كما يتردد لفظ (Po-ni-ko) و (Po-ni-ki-ya) وكلاهما له دلالته عن علاقة تجارية ببلاد الفينيقيين . وكذلك فقد تعرف علماء اللغة اليونانية على عدد كبير من الأسماء ذات الأصول السامية خاصة أسماء التوابل (١) .

وكانت الصادرات الموكينية توضع فى جرار ذات حجم وشكل معين وقد عثر على شذرات هذه الجرار فى فينيقيا وفلسطين ومصر . ولتأمين التجارة أقام الموكينيون عددا من المحطات التجارية لتفريغ الصادرات وشحن الواردات وقد أمكن التعرف على هذه المحطات فى ميليتوس (Miletus) ورودس (Rhodes) وقبرص (Cyprus) وأوغاريت (Ugarit) (رأس شامرة) على الساحل السورى حيث تعكس صورة للرخاء التجارى الذى شهدته بلاد اليونان ما بين ١٤٠٠ – ١٢٠٠ ق. م بصورة لم يسبق لها نظير .

كانت مصر من أهم أقطار البحر الأبيض المتوسط التى حرص

(1) cf. Edwin. M. Yamauchi, Greece and Babylon : Early contacts between between the Aegean and Near East, (Michigan 1967) pp 33-34.

للموكينيون على اقامة علاقات طيبة معها والأوانى المرمرية (alabaster) المصرية كثيرة فى القبور الموكينية كما أن رسومات الحوائط فى طيبة المصرية والتى تعود الى الأسرة الثامنة عشر (حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد) تصور رجال كفتيو Keftiu [1] أى أهل كريت وهم يحملون الجزية فى شكل حلقات من الذهب والفضة والجواهر الغالية وأدوات الزينة وسبائك النحاس وكذلك المنسوجات الصوفية وغيرها من الأدوات ولابد أن مصر — التى عرفت بكثرة صادراتها فى العالم القديم لم تكن أقل قدرة منهم على التصدير ولكن طبيعة الجو فى بلاد اليونان لم يساعد الكثير من المواد المصرية على البقاء . أما رمال مصر الدافئة فكانت على العكس من ذلك اذ حفظت لنا كميات كافية من هذه المواد بالرغم مما تعرضت له القبور من نهب واندثار ويستطيع القارىء أن يطلع على نتائج حفائر فلندرز بترى Flinders Petrie فى تل العمارنة (مركز ملوى محافظة المنيا) حيث بنى اخناتون عاصمته الجديدة أخيتاتون والتى هجرت واندثرت بعد عام ١٥٣٠ نتيجة للعودة الى ديانة آمون . لقد أخرجت قبور هذه المدينة ما يزيد على ألف وثلاثمائة وخمسين شذرة فخار بعضها جاء من قبرص ولكن الغالبية من بلاد اليونان . ولعل الباحث يتساءل عن هذا التحول فى حجم التجارة بين مصر وأوروبا لصالح اليونان بدلا من كريت التى أقامت علاقات تجارية مع مصر منذ وقت مبكر ، وربما يقبع الجواب فى تدهور سيطرة كريت البحرية وانتقال مركز الثقل تدريجيا الى بلاد اليونان ، ويلاحظ العلماء أن الموكينيين تحاشوا المرور بسفنهم التجارية على كريت فسلكوا طريقا بحريا الى جزيرة رودس ثم بمحاذاة ساحل آسيا الصغرى مارين بأوغاريت وبيلوس (Byblus) وساحل فلسطين حتى ساحل أفريقيا الشمالى .

يتبين اذن مدى أهمية جزيرة رودس كمحطة بحرية موكينية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ثم يليها فى الأهمية ميليتوس وكلتاهما كانتا فى

---

(١) عن مشكلة الكفتيو انظر فركوتيه المرجع السابق ص ٣٠ وما بعدها كذلك انظر : عبد اللطيف احمد على — المرجع السابق ص

الأصل محطا للتجار الكريتيين ولكن سرعان ما استوعبتهما موكيناى بعد زوال سلطان كريت البحرى . ولما اتسع نطاق الحيز التجارى الموكينى امتدت يد السيطرة والاستيطان فشملت جزيرة Cos والجـزر الاثنى عشر dodecadese وجزيرة قبرص . وتوضح « وحدة نوع » المواد الأثرية مدى التصاق المستعمرات بالوطن الأم فى بلاد اليونان وبمرور الزمن انتشرت فى هذه المستعمرات ظلال الحضـارة الموكينية اذ بدأت هـذه المستعمرات فى تقليد الصناعات الموكينية خاصـة فى رودس وقبرص ، ويستطيع عالم الآثار فى البداية أن يميز بسهولة بين ما هو « موكينى حقيقى » وما هو موكينى مقلد أو بمعنى آخر بين ما هو « موكينى حقيقى » وما هو « موكينى محلى » . لـكن كلما تدهـورت سيطرة بلاد اليونان على مستعمراتها ازداد اعتماد هذه المستعمرات على الانتاج المحلى مما أدى الى زيادة فى الجودة والاتقان حتى أن الأثريين ليجدوا من الصعوبة بمكان أن يفرقوا بين النوعين .

وخلاصة القول أن بلاد اليونان فى خلال السيادة الموكينية كانت تسـوق حضاريا من الشرق الأوسط وتتاجر ماديا مع الغرب الايطالى حيث عبرت سفنهم كما تفعل اليوم البحر الادرياتيكى يسـاعدها على ذلك وجود بعض الجزر المواجهة للساحل الغربى لبلاد اليـونان مثـل كورفو أو كوركيرا (Korkyra) وحيث كان يتمون الأسطول ويتابع بعدها السير الى جنوب ايطاليا وجزيرة صقليـة ، بل أن هنـاك من الدلائل ما يثبت وصول السفن الموكينية الى جزيرة سردينيا Sardinia ذات المناجم الغنية بالنحاس ، هكذا ساهم الموكينيون فى تمهيد الطريق لاستيطان الغرب الأغريقى .

وقد يتساءل الباحث ماذا كانت تقدم موكيناى فى صادراتها غير الأوانى الفخارية ؟ وللاجابة على ذلك يجب أن نعـود الى الجغرافيـا حيث نعرف أن البلاد اليونان غنية بمناجم المعادن كمناجم النحاس فى قبرص ونيميا Nemea شمال موكيناى ومناجم الرصاص والفضة فى لاوريوم Lauriom فى أتيـكا وربما أيضا منـاجم الذهـب لكثرة

استخدامه . ومن الطبيعي أن تصدر موكيناى صناعات هذه المعادن .
كما سبق أن أشرنا الى احتمال تصدير الصوف والمنسوجات الصوفية .
وقد كشفت وثائق بيلوس Pylos عن فائض المنتجات والمصنوعات النحاسية التي ربما كانت من أهم الصادرات المحلية الموكينية الى العالم الخارجي . وقد ارتبطت البحرية دائماً فى التاريخ القديم « بتجارة الرقيق » والتى سبق الحديث عنها أيضاً ، كما تحدثت الوثائق عن صناعة الدهون والمستحضرات الطبية وربما قاموا باستيراد التوابل والعطور من الشرق وتوزيعها على أسواق العالم الأوروبى كما تدل أشكال بعض الأوانى الموكينية فى البلاد الأخرى وخاصة الشرق الأوسط على أنها كانت تحمل النبيذ وربما أيضاً زيت الزيتون والتى كانت تصدرها مقابل استيراد التوابل والعاج من هذه المناطق .

وأخيراً نوجز فنقول أن ممالك الشرق الأوسط القديم كانت تستمتع بالاكتفاء الذاتى اقتصادياً لدرجة جعلتها لا تأبه بالتجارة الدولية على العكس من بلاد اليونان ، وذلك لقلة الموارد الاقتصادية فى الأخيرة مما حتم عليها أن تزيد من حجم تجارتها وأن تدخل فى منافسة مع غيرها ؛ ولعل أقرب الأمثلة التاريخية لموكيناى هى مدينة البندقية (Venezia) التى قام مجدها السياسى والثقافى على التجارة الدولية التى رفعتها من مدينة مغمورة الى مكان الصدارة والشهرة فى العصور الوسطى وغمرتها بالرخاء والبذخ .

الحروب الطروادية :

قبل أن نتطرق الى الحديث عن أشهر حرب خاضها الأخيون [1] يجب أن نذكر القارىء بما سبق أن قلناه من أن الموكينيين كانوا « شعباً عدوانياً » مقاتلا بغريزته وأن آثارهم تدل على أنهم حاصروا أكثر مما حوصروا ، وكذلك يجب أن نذكر القارىء بظروف بلاد اليونان الاقتصادية التى حتمت عليها الدخول فى منافسة مع الدول

(1) Andrew Lang, Tales of Troy and Greece (Faber. reprinted 1962).

التجارية الأخرى من أجل السيطرة على البحار والانفراد بالأسواق التجارية الخارجية ، ولم تكن مدينة طروادة الواقعة على الجانب الآخر من حوض بحر ايجه أقل سطوة فى البحر . فقد خصتها الطبيعة بموقع استراتيجى جعلها تتحكم فى بحر مرمرة Propontis ، وليس من المستبعد أن تكون هذه المدينة قد فرضت اتاوة على السفن الرائحة والغادية فى هذه المنطقة مثلما تفعل الدول الحديثة بممراتها المائية . ومن الطبيعى أن يؤدى التنافس التجارى الى وجود حالة من التوتر العدوانى يتحفز فيها كل من الطرفين المتنازعين متحيناً الفرصة التى ينقض فيها على خصمه وليس من المستبعد أن تكون شرارة الحرب قد اندلعت نتيجة لحادث قرصنة بحرية أو بسبب حادثة اغتصاب وهو السبب الذى أعزته الالياذة لقيام الحرب . ولكن يبقى السبب الفعلى للحرب وهو الاشتباك الذى لامفر منه نتيجة «لصراع المصالح» (conflict of interests وعلى أى حال فان مدينة طروادة لم تعتمد على التجارة اعتماداً أساسياً كما اعتمدت بلاد اليونان لاختلاف تركيبها الجغرافى اذ تقع مدينة طروادة فى وسط سهل غنى هو سهل « طروادة » Troad وهو خال من العوائق الجبلية التى تضيق المساحة المزروعة . كما أن طبيعة الأرض البركانية جعلت هذا السهل غنياً بانتاجه الزراعى بمقادير تزيد عن حاجة السكان المحليين . ومن الطبيعى أن يصدر الفائض الزراعى الى خارج البلاد كما ذكرت الأشعار الهومرية فى أكثر من موضع أن طروادة اشتهرت بتربية الجياد الأصيلة . كما أن الحفائر الأثرية التى أجريت فى مكان طروادة ، كشفت عن كميات ضخمة من أدوات الغزل والنسيج وذلك يثبت بصورة لا تقبل الشك أن المدينة القديمة كانت مركزاً هاماً لصناعة النسيج وربما نافست البلاد الموكينية فى تصدير المنسوجات وليس من المستبعد أن يكون الموكينيون قد اختاروا لحملتهم توقيتاً مناسباً اذ تظهر الدلائل الأثرية أن المدينة قد تعرضت حوالى عام ١٣٠٠ ق.م لسلسلة من الزلازل الحقت بها أضراراً جسيماً وتركتها أقل بأسا وأوهى عظما . عندئذ حشدت بلاد اليونان كل طاقتها العسكرية فى حملة ـ طبقا للالياذة ـ قادها أجاممنون العظيم « ملك

الرجال » وقد سبق أن ذكرنا أن الالياذة استعرضت عضلات الحملة في الجزء المسمى « بسفر السفن » • وقد روت الملحمة أن الحرب قد اندلعت لسبب أخلاقي ودفاعا عن شرف الملك مينالاءوس (Menalaos) شقيق أجاممنون بعد أن خطف أمير طروادي اسمه باريس (Paris) زوجته الجملة هلينا Helena وفر بها عائداً الى طرواده متعديا بفعلته هذه حدود الضيافة المقدسة • والى عهد قريب كان التاريخ التقليدى الذى حدده اراتوثينيس Eratothenes لسقوط طروادة وهو عام ١١٨٤ ق•م مقبولا ولكن الأبحاث الأثرية التى نقضت ما استنتجه. شليمان من حفائر اعتبرت أن هذا التاريخ تاريخا متأخرا اذ قدر بعضهم تاريخ سقوط طروادة الأولى. (فى العصر السابع VII A.) حوالى عام ١١٣٠ ق•م • ويكاد الرأى أن يستقر على الفترة ما بين ١٢٦٠ — ١٢٥٠ ق•م هى التاريخ التقريبى لسقوط هذه المدينة حيث تظهر الآثار أن الموكينيين هاجموا شرق البحر الأبيض المتوسط ، وقد سجلت الآثار المصرية أن « شعوب البحر » هاجمت مصر من الغرب ثم بعد ذلك من الشرق ولكنهم ردوا على أعقابهم خاسرين (١) •

الغزو الدورى ونهاية العصر الموكينى :

اهتزت بلاد اليونان وحوض بحر ايجه خلال القرن الثانى عشر قبل الميلاد لحركة هرج سكانى شملت منطقة البحر الأبيض المتوسط كلها • ومن الواضح أن القبائل الغازية كان مصدرها قارة آسيا الصغرى حيث عزى العلامة شيفر Shaefer أسباب هذا الهرج والهجرة السكانية الى سلسلة من الزلازل تعرضت لها تلك المنطقة أبان هذه الفترة •

ومن الواضح أن امبراطورية الحيثيين قد سقطت تحت جحافل هؤلاء الغزاة كما أن مصر قد تعرضت على أيديهم لهجومين متتاليين أشير اليهما باسم غزوة الأخايواشا Akhaiwasha والدانونا (Danuna)

(١) عثر حديثا على لوحة ضخمة اقامها الفرعون مرنبتاح (١٢٢٤— ١٢٠٤ ق•م) فى معبده بطيبة وهى محفوظة الآن بالمتحف بالقاهرة يروى فيها ويتغنى بانتصاراته على اعداء مصر وشعوب البحر التى هاجمتها من الشرق ومن الغرب وجاء فى النص ان اسرائيل ابيدت ولن تقوم لها بذرة ولهذا اعتقد البعض ان مرنبتاح هو فرعون موسى الشهير .

(الدوريين الاغريق) أما بالنسبة للقبائل التى غزت بلاد اليونان فمن الواضح أنها لم تجىء بحراً بل هبطت عليها من الشمال بدليل أن الحياة الموكينية فى بعض جزر بحر ايجه استمرت فيما هى عليه ، بل ان جزيرة رودس بلغت قمة مجدها التجارى ابان هذا الغزو اذ امتـدت منـاطق نفوذها من تارنتوم (Tarntum) غرباً الى هضبة الأناضول شرقاً . ومن الواضح أن هذه القبائل المهاجمة هندو أوروبية من نفس العنصر الاغريقى، وقد عرفهم التراث الأغريقى باسـم الدوريين Dorians وأنهم هبطوا من الشمال واحتلوا معظم البيلوبونيسوس بعد جيلين من سقوط طروادة، بل ولقبوا هجرتهم باسم عوة آل هيراكليس البطل الأسطورى الاغريقى The Return of the Herakleidae وتطابق بعض المعلومات المستقاة من الأساطير والتراث الشعبى الدلائل المادية التى كشفت عنها الحفائر الأثرية اذ تعرضت القصور الملكية الموكينية خاصة فى بيلوس Pylos ويولكوس Iolkos للحرق والتدمير حـوالى عام ١٢٠٠ ق.م ، وفى نفس الوقت تعرضت المنازل المقامة خارج حوائط قلعة موكيناى لتدمير مماثل أى أن القلعة صمدت للحصار فترة من الزمان قبـل سـقوطها ، ويقرر العلماء هنا مدة هذا الصمود بنصف قرن . كما حـاق الدمـار بتيرنس (Tiryns) وأرجوس Argos واسبرطه الموكينية فى أواخـر القرن الثانى عشر قبل الميلاد .. أما باقى المناطق الأخرى فقد استمرت الحضارة الموكينية فى اضطرادها الحضارى اذ بقيت على حالها ، بل أن بعضها ازدهر ازدهاراً شديداً .

ولما كان الغزاة الدوريون لم يخلفوا وراءهم آثاراً مادية تعـكس شخصيتهم (بخلاف لهجتهم التى نسبت اليهم) مثل الأوانى الفخارية أو أدوات الحلى والزينة والمبانى والآثار المعنـوية ، كتلك التى تختص بالعبادة وشعائر دفن الموتى فقد سبب ذلك صعوبة شـاقة للبـاحثين ، فاعتبروا طريقة حياتهم صورة باهتة من الحضارة الموكينيـة ، ولـكن الحفائر الأثرية كشفت فى بعض المناطق عن طبقة من التدمير والحرائق تفصل بين طبقة من حضارة البذخ والترف الموكينية البرونزية وطبقـة

يظهر فيها معدن الحديد مما جعل العلماء يقررون أن الدوريين أتوا بهذا المعدن معهم •

كما لاحظ العلماء ظهور العباءة الاغريقية الفضفاضة (Himation) (١) والتى أصبحت من أهم ملامح الرداء الأغريقى ظهرت مع مقدم الدوريين • هكذا زالت حضارة البذخ والترف من الوجود المادى لتخلد فى أشعار فاضت بها نفوس الموكينيين المهاجرين حسرة على حضارتهم المنهارة وعلى مجد ملوكهم الراحلين لتبعث بعد أربعة قرون من الزمان على يد هوميروس (Homerus) فى شكل ملحمة هى الالياذة (Iliad) وليس من الصحيح أن نقول أن الحضارة الموكينية قد زالت من بلاد اليونان كلها مع مقدم الدوريين بل ان الصحيح هو أن نقول أن الحضارة الموكينية ببذخها وخيالها وانسانيتها غادرت البيلوبونيسوس متجهة الى أثينا والى ساحل آسيا الصغرى • ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحضارة الاغريقية ذات واجهتين مختلفتين واجهة مادية واقعية قاسية سادت فى غرب بلاد اليونان وخاصة البيلوبونيسوس وواجهة انسانية خيالية ذواقة للفنون والآداب سادت فى أتيكا وعاصمتها أثينا ، وكذلك فى أيونيا Ionia على ساحل آسيا الصغرى حيث هاجر الموكينيون بسبب الغزو الدورى •

دويلة أثينا ترث التراث الموكينى :

يتفق التراث الشعبى مع الأدلة المادية على أن أتيكا وعاصمتها أثينا وقفت فى وجه الغزاة الدوريين وصدتهم ولم تدع لهم الفرصة لكى يدوسوا أرضها ويطردوا شعبها لذا فقد ظل الاثينيون يفخرون بكبرياء على مر العصور التالية بأنهم سكان أصليون (autochtonous) ، وتكشف طبقات الحفائر الأثرية عن حضارة مستمرة دون انقطاع أو تدمير منذ العصر الموكينى حتى العصر الكلاسيكى ، ولهذا أهميته فى

(1) cf V.R. d'A Desborough : Greek dark ages, Ernest Benn, London, 1972, (Revised in J.H.S., xciii, 1973 p. 252-253 by G. Huxley), also cf A.M. Sondgrass, The Dark Age of Greece Edinburgh, 1971, xxx (Revised in AJA, 77, 1973 p. 238).

علما بأن اللفظ غير دقيق لان العصر لم يكن مظلما حضاريا بل راكدا سياسيا بسبب الكارثة الاقتصادية cf. A.M. Sondgrass, op. cit. p. 365.

تتبع عملية التفاعل الحضارى المستمر أو اكتشاف الجـذور الموكينية لحضارة العصر الكلاسيكى ، وغنى عن الذكر أن اسم أثينا قد تردد فى التراث الموكينى وعلى الألواح المكتوبة وربما لعبت دورا فى الدين الموكينى نفسه ، كمـا توالت الأدلة الأثرية على وجـود آثار فوق تل الأكربول لمعبد قديم للاله اريختيوس (Erechtheion) وغيرها من الآدلة التى عززت مركز أثينا ابان الحرب الطروادية والعصر الموكينى وردت على الادعاءات بأن الطاغية بيسستراتوس (Peisistratus) هو الذى أمر بدس الأبيات التى تظهر أن أثينا قد لعبت دورا فى الحرب الطروادية .

وأن المطلع على نتائج الحفريات الأثرية وخـاصة تلك التى أجرتها المدرسة الأمريكية فى منطقة السوق العامة القديمة (agora) لا يتردد لحظة واحدة فى أن يعترف بأن أثينا لم تكن بالمدينة المغمورة وسط عالم تألقت فيه المدن ابان العصر الموكينى . وأكثر من هذا ذهب حفائر البعثة الايطالية . اذ أثبتت وجود آثار سكانية من العصر الحجرى الحديث (Neolithic) عند سفح المنحدر الجنوبى للاكروبول ومن العجيب أن المؤرخ الأثينى توكوديديس (Thucydides) قد أشار عرضا الى هؤلاء السكان الأول . كما أننا لم نعد الآن فى حاجة الى أدلة لأثبات وجود علاقة حضارية بين أثينا وكريت من ناحية ، والمدن الموكينية من ناحية أخرى . والى جانب استمرار الحضارة فى أثينا منذ عصور ما قبل التاريخ تكشف الآثار عن عناية المدينة بالتحصينات الدفاعيـة فوق الاكربول . ومن الواضح أن جحافل الجيوش الدورية وقفت عاجزة أمام هذه التحصينات لقد أوضح تقرير العلامة برونير أن المدينة لم تتعرض لغزو واحد بل لعدة غزوات كان سكان المدينة ينسحبون فى كل مرة ثم لا يلبثون أن يعودوا لديارهم فى عناد وصمود حفاظا على العنصر وتمسكا بالأرض وأن هذه الغزوات حدثت فى أزمنة متقاربة لحوادث التخريب والحرائق التى تعرضت لها المدن الموكينية فى تيرنس (Tiryns) وبيلوس Pylos وموكيناى (Mycenae) .

كمـا اتضح أن آثـار التدمير والتخريب قد حـاقت بالمنطقة الواقعة خارج التحصينات بينما لم تتأثر المنطقة الواقعة داخل الأسوار .

أثينا تفتح ابوابها للمهاجرين الموكينيين وتستوعب حضارتهم :

وكان من الطبيعى أن تتدفق جموع المهاجرين أمام جحافل الغزو الدورى فى اتجاه الشرق . وكانت أتيكا وأثينا هى الملاذ الطبيعى . ولم يفت على ثوكوديدس أن يشير الى استقبال أثينا للمهاجرين وايوائها لهم كما أن باوسانياس Pausanias وضح ذلك بدقة فذكر أن الأخيين الذين طـردهم الدوريون حاولوا بدورهم غزو الأراضى التى يحتلهـا الأيونيون فى شمال البيلوبونيسوس ، وكان من نتيجة ذلك حدوث هجرة أيونية انضمت الى المهاجرين الاخيين وسارت شرقا الى « أتيكا » وقد رحب الأثينيون بالمهاجرين من أجل تكوين جبهة دفاعية مشتركة تقف فى وجه العدوان الدورى . ويذكر أرسطو ومن بعـده بلوتارخوس أن الأثينيين كانوا كرماء مع المهاجرين فمنحوهم الجنسية الأثينية . كما ربط باوسانياس بين تقاليد حق منح اللجوء السياسى فى أثينا لغـير الأثينين والذى كان أحد العناصر الفكرية المقدسة الكبرى فى التراجيديا الأثينية إبان القرن الخامس . ق. م وأكد أن هذه الفكرة كان مبعثها أساسا استقبال الأخيين والأيونيين فى المدينة والتى تركت تقليدا سياسيا دينيا يقدس هذه الفكرة . كما تحدث التراث الشعبى عن هجرة أهـل بيلوس الى أثينا وكيف أنهم التجأوا الى أثينا وأقاموا فيها واختلطوا مع سكانها عرقيا وحضاريا مكونين عنصرا مزدوجـا يطلق عليـه العنصر البيلو أتيكى Pylian-attic وهو الطاقة الخلاقة الرئيسية فى الحضارة الأغريقية خاصة فى آسيا الصغرى . كما يروى التراث الشعبى بأن أحد ملوك أثينا وهو الملك كودروس (Kodros) كان ينحدر من أصل « بيلى » وأنه سقط شهيدا وهو يدافع عن استقلال أثينا .

ومن الأدلة المادية القاطعة على هجرة الاخيين الموكينيين الى أثينا الازدياد الملحوظ المفاجىء فى عدد سـكانها لدرجة تجعلنا نستبعد ارجاع

ذلك الى عوامل أخرى مثل زيادة نسبة الارتفاع فى معدل الولادة — أضف الى ذلك ان الدراسات والتحليلات الطبية التى أجريت على الهياكل العظمية والجماجم التى تكتظ بها القبور أثبتت انى أنها تنتمى الى نفس النوع الذى استخرج من القبور الموكينية ، أى أنها ترجع الى العنصر الآخى الذى ينتمى اليه الموكينيون ؛ كما ثبت أن هذه الهياكل العظمية والجماجم تختلف اختلافا واضحا عن تلك التى أخرجت من القبور الدورية ، كما ثبت أيضا أن العنصر الاثينى السكانى يرجع الى امتزاج هذه العناصر بعضها بالبعض وخاصة عنصر البحر الأبيض المتوسط والعنصر النوردى .

كما لفت الأثريون الأنظار الى استخدام أسلوب الحرق (Cremation) بدلامن الدفن (humation) (١) أثناء هذه الفترة ويشرح بعضهم أن أسلوب الحرق مبعثه تكدس السكان وضيق المكان وبهاظة تكاليف بناء القبور بينما لا يكلف « حرق الجثة » كثيرا ، كما أن الوعاء الذى تحفظ فيه رفات الميت لا يشغل حيزا كبيرا ، كما أنه مناسب عمليا بالنسبة للغرباء أو الذين لا يتركون من ورائهم من يحتمى بموتهم ويشرف على بناء القبر واقامة الشعائر الجنائزية اللازمة .

---

(1) cf D. Kurts and J. Boardman, Greek burial Customs (Aspects of Greek & Roman life), Thames and Hudson, (1971), Reviewd by J. Pollard in J.H.S., XCIII (1973), p. 250-251.

فى هذا المؤلف الشيق ينفى هنا الاثريان الافكار القديمة عن عبادة الموتى عند الموكينيين والاغريق ، بدليل استخدام الحرق والدفن حسب عادة العصر . وان شعائر الجنازة عند الاغريق لم تكن سوى مساعدة الميت فى رحلته الطويلة الى العالم الآخر مثل وضع قطعة من النقود فى فمه أو يده لدفع اجرة خارون الذى ينقله فى قاربه من شاطىء الدنيا الى شاطىء عالم الآخرة . ويخرج الدارسان أن الاغريق دون غيرهم من شعوب العالم القديم (ربما يقصدان المصريين) اهتموا بالحياة أكثر من الموت وان المناظر الفنية الجنائزية تصور الحياة اكثر ما تصور الموت . لكن هذه الدراسة الشيقة ينقصها الدليل المكتوب ولأن كل ما يقال عن ذلك ليس الا مجرد آراء ويناقض هذه الدراسة كتاب :

Richard Lattimore : Themes in Greek and Latin Epitaphs, Urbana (1962).

الذى درس نقوش القبور واكد عبادة الموتى وكذلك الاثرى تمة الذى درس شواهد القبور وأكد عبادة الموتى من الناحية الفنية .

Thimme, Antike Kunst, 1964, p. 16 ff

الرواج الحضارى يعم أثينا :

ومن ناحية ثالثة فان الآثار تكشف بوضوح حركة رواج حضارية وثقافية لم تشهد لها أثينا مثيل من قبل وليست بأقل من حضارة البذخ والترف التى كانت تسود العصر الموكينى . فمثلا تزداد كمية التماثيل الصغيرة سواء من الطين المحروق (Terra Cottas) أو من البرونز Bronze Statuetres كما يزدهر فن الرسم على الأوانى الفخارية Vase-Painting وأخذ يتخذ ملامحا وأسلوب معينا عرف فيما بعد بالأسلوب البرتوجيومترى Protogeometric أو « الأسلوب الهندسى المبكر » وأصبح واضحا الآن بعد دراسة نتائج الحفائر الأثرية التى أجريت فوق الأكروبول (Acropolis) أو فى منطقة السوق العامة (agora) أو فى جبانة أثينا الشهيرة باسم Dipylon أو Kerameikos ان ما كان يسمى بعصر الظلام Dark Ages لم يكن كذلك بالنسبة لحوض البحر الايجى ، بل كان عصر تفاعل وتبلور حضارى تمخضت عنها الملامح الكاملة للحضارة الهللينية ، كما تحقق لأثينا نفوذ سياسى وتجارى وسيطرة بحرية ليس داخل بلاد اليونان فحسب بل تعدتها الى آسيا الصغرى وجزر البحر الأبيض المتوسط . كما غطت الصادرات الأثينية مساحة شاسعة وأسواق كثيرة شملت جزر الكوكلاديس (Cyclades) وكوس (Cos) وليسبوس (Lesbos) شرقا ، وكذلك مناطق كورنثا (Corinth) وأرجوليس (Argolis) غربا وهذا مرجعه دون منازع الى نجاح أثينا فى استيعاب المهاجرين الموكينيين وحضارتهم كما أن تدمير المدن الموكينية فى البيلوبونيز ترك أثينا بلا منافس أو منازع — سيدة « هيلاس » . وكان على الذوريين أنفسهم أن يقضوا قرونا من العمل الشاق قبل أن يستقروا ويتأصل وجودهم لكى يقفوا بالمرصاد للنفوذ الأثينى وبهذا تشكل طرفا الصراع الذى هو جوهر تاريخ الأغريق .

الهجرة الى ساحل آسيا الصغرى :

طبقا للتراث الشعبى الاغريقى ، فان استعمار ساحل آسيا الصغرى يبدأ فى أعقاب سقوط طرواده ، ولكن الدلائل المادية تنفى بشدة مثل

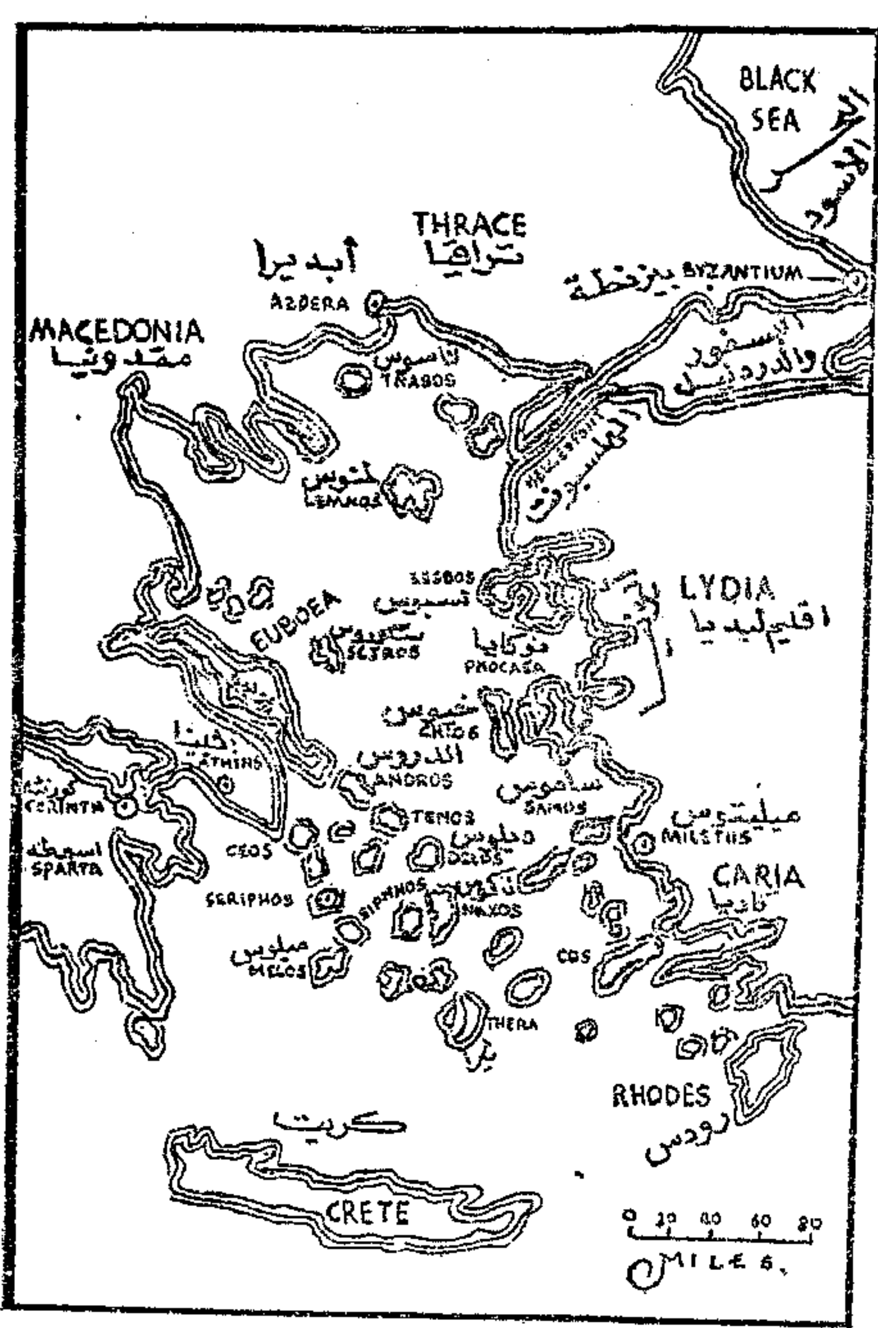
هذا الادعاء فباستثناء جزيرة رودس التى استعمرها الاغريق منذ وقت سابق للحرب الطروادية يعتبر الآخيون وحلفائهم الأيوليون الذين جاءوا من سهل تساليا Thessalia أول من أقاموا مستوطنات على ساحل آسيا الصغرى . كما أنه لا يوجد أى دليل أثرى على استعمار ساحل آسيا يقرب بثلاث قرون أى أن ما بين ١١٠٠ - ٨٥٠ ق.م لا يوجد دليل قاطع على وجود حركة استعمار فى آسيا الصغرى من قبل الاغريق ؛ لأن الحقائق الأثرية لم تظهر ابان هذه الفترة سوى معالم حضارة محلية متأثرة بالحضارة الموكينية كما أن التراث الاغريقى الخالص لم يظهر الا بعد منتصف القرن التاسع قبل الميلاد .

وربما كان التشابه فى التركيب الجغرافى بين ساحل آسيا الصغرى وبلاد اليونان من أحد العوامل التى جذبت المهاجرين الاغريق الى هذه المناطق ، فهى منطقة كثيرة الخلجان الطبيعية التى تناسب الشعوب العاملة بالبحر ، كما أن الجبال تتخلل سهولها وتقسمها الى مناطق منعزلة مثلما الحال فى بلاد اليونان .. وهذا أيضا مناسب لنمو دويلات المدن المستقلة (Poleis) ، كما نأ مناخ هذه المنطقة لا يختلف كثيرا عن مناخ بلاد اليونان ذاتها فهى دفيئة وأمطارها كافية وأنهارها صالحة للملاحة ومشجعة على التجارة ، وأخيرا فان رخاء الموارد الطبيعية فى هذه البلاد كان أيضا عاملا هاما حيث سبق أن أشرنا الى الفقر الاقتصادى الذى كانت تعانيه بلاد اليونان . وذكرنا كيف أن المهاجرين الأيونيين والآخيين تدفقوا على أتيكا فى غداة الغزو الدورى . وبالرغم من مزايا الامتزاج العنصرى والحضارى الذى تمتعت به أثينا الا أن ضيق المساحة وتكدس السكان لدرجة لا تتناسب مع المصادر الاقتصادية لبلاد اليونان أدى الى انفجار سكانى Explosion of population وقدوجد الاغريق دائما الحل فى الاستعمار الاستيطانى عبر البحار ، وكان اول مكان فكروا فيه هو ساحل آسيا الصغرى ويستقر الرأى الآن على أن الانفجار السكانى وصل الى أقصى مداه عام ٩٠٠ قبل الميلاد . ويروى التراث الشعبى الأغريقى أن

كوروس Kodro ابن نيليوس Neleus قاد بنفسه حملة استيطانية الى جزيرة ميليتوس وبصرف النظر عن حقيقة الأسطورة يكفى أن هذا الملك الذى وصل الى عرش مدينة أثينا ينحدر من أسرة آخيه هاجرت من البيلوبونيسوس ، كما أن قيادته لحملة استيطانية تعبير عن الدور الذى لعبه هؤلاء المهاجرون على مسرح الأحداث فى أتيكا .

كما تحدث التراث الشعبى عن الأيوليين الذين هاجروا من اقليم تساليا Thessalia وبؤوتيا Boeotia فى شمال بلاد اليونان حيث تسللوا تدريجيا واستوطنوا المنطقة الشمالية من ساحل آسياالصغرى . فاحتلوا جزيرة لسبوس (Lesbos), ومنطقة سهل طرواده المواجه لهـا (Troad) وأقاموا مستعمرات على ساحل آسيا الصغرى حـول مدن محصنة مثل بيتانى Pitane . مورينـا Myrina وكومى Cyme وآيجاى Aegae وسمرنه Smyrna . كمـا أقاموا مدينـة مجنيزيا Magnesia فى العمق شرقا عند سفح جبل سيبلوس Sipylus وبالرغم من أن العنصر الأيولى يغلب فى هذه المنطقة لدرجة أن أطلق عليها اسم Aeolis وحيث سادت فيه اللهجة الأيولية التى جاءوا بها من تساليا وبوءتيا الا أنه من الصعب فصل هذا العنصر عن العنصر الأيوبى والآخى الـذى استوطن جنوبا) كمـا شملت المستوطنـات الأيونية مستوطنيين آخيين كما هو الحال Cyme التى اتخذت اسمها من جزيرة يوبويا Eubosa الايونية ، كما أن المستوطنات الأيونية شملت مستوطنين جاءوا من تساليا ، كما أنه من الصعب وضع حدود اقليمية فاصلة بين Aeolis وأيونيا ، فمثـلا مستوطنة فوكايـا Phocaea التى كما يتضح من اسمها ترجع سكانيا وجغرافيا الى أيوليس Aeolis الا أنهاعتبرت داخل النفوذ الأيونى وكذلك مستوطنة جزيرة خيوس Chios التى سادت فيها اللهجة الأيولية اعتبرت جزءا من المنطقة الأيونية . وعلى

حوض بحر ايجه
THE ÆGEAN SEA



اى حان نفذ غطى نفوذ الأيونيين على نفوذ الأيوليين تماما ! كما تغطى الولايات المتحدة حاليا على أسلوب الحياة الموجودة فى كندا وقد تركزت المستوطنات الآخية الأثينية على المنطقة الساحلية الواقعة جنوب Aeolis وأسموها Ionia ولما كانت هذه المنطقة متاخمة لدولة Lydia فمن الطبيعى أن يدفع الاغريق أهل البلاد الأصليين شرقا وان اختلطوا بهم وتزاوجوا معهم أحيانا كما فعلوا مع أهل كاريا Caria .

يحدثنا هيرودوت أن المستوطنين فى أيونيا شملوا عناصر سكانية مختلفة من بينها الدوريون ولكنه أكد أن الغالبية جاءت من أتيكا وأشار الى تمسك سكان أيونيا بشعائر الأباتوريا Apaturia وهى شعائر دينية أثينية بحتة . وتمتد أيونيا من مستوطنة فوكايا Phocaea شمالا حتى ميليتوس Miletus جنوبا ومن أهم مستوطناتها Erythrae أريثراى (أى القرمزية) وفى الشرق منها تجىء مستوطنة كلازوميناى Clazomenae ثم تجىء تيوس Teos جنوبا ثم لبيدوس Lepidus وكولوفون على امتداد الساحل الشرقى ، وفى الجنوب وعند مصب نهر كايستر Cayster أقيمت افيسوس Ephesus مدينة الربة أرتيميس المفضلة (١) ثم مستوطنة ماجنيزيا Magnesia على نهر مياندر Meander كما يجب ألا ننسى جزيرة ساموس الشهيرة Samos والتى كانت مركزاً لعبادة الربة هيرا Hera وعلى الشاطىء المواجه لهذه الجزيرة وفى السهل الممتد شمال جبل ميكالى Mycale العظيم كان الأيونيون يتجمعون كل عام فى عيد دينى قومى حول معبد اله البحر « بوسيدون » Poseidon . وتجىء مستوطنة برينى Priene وميوس Myus جنوب جبل ميكالى وعلى ضفاف نهر الماندر العظيم وتعتبر Miletus أهم المدن الجنوبية التى شملتها أيونيا والتى احتلها الاغريق منذ وقت مبكر .

---

(١) كان يوجد بها معبد ارتيميس الشهير الذى اعتبر من بين اعاجيب العالم القديم السبع وهم : الهرم الاكبر وفنار الاسكندرية : وحدائق سميراميس فى بابل وتمثال ابو للون فى رودس ، وتمثال زيوس فى أولمبيا ، ومقبرة الملك موصولوس فى هاليكارناسوس فى آسيا الصغرى .

ومن الطبيعى أن ينقل المهاجرون معهم الحضارة الاتيكية ـ الأيونية من أجل بناء هيللاس جديدة فى آسيا الصغرى . ويتضح من الحفائر الأثرية التى أجريت فى هذه المنطقة أنها لم تكن مزدهرة بأى حال من الأحوال ابان القرنين العاشر والتاسع ق.م لأن المستوطنين الأول شغلوا أنفسهم بالصراع مع سكان آسيا الصغرى الأصليين ودخلوا معهم فى حروب من أجل تثبيت أقدامهم فى هذه المناطق واعتمدوا على الاستيراد الكامل (أو فى أحسن الأحوال تقليد السلع) من الوطن الأم .

وقد ظلت الحضارة فى أيونيا فى حالة تكوين وتفاعل حتى حلول القرن السادس قبل الميلاد . وقد دفعت النعرة القومية المستوطنين الأيونيين الى العمل نحو الوحدة خاصة بين مدن أيونيا الكبرى الاثنى عشر وهى فوكايا وكلازوميناى وساموس وخيوس وأريثراى وتيوس وليبدوس وكولوفون وأفيسوس وبرينى وميوس وميليتوس التى كانت تلتزم بشعائر عيد البانيونيون Panionion عند سفح جبل ميكالى ، وأقامت سوقاً اقتصادياً مما أدى الى حركة من الرواج والازدهار شجعها على اقامة مستوطنات جديدة خاصة حول البحر الأسود Euxene وبالرغم من أن الأيونيين وقعوا فريسة لدول شرقية مثل مملكة ليديائم الإمبراطورية الفارسية فى القرن السادس الا أن ذلك لم يعق الازدهار الحضارى والثقافى بل على العكس اذ لم يتدخل الفرس فى الشئون الداخلية للمدن الاغريقية ومنحوها الاستقرار ووقوها شر الصراعات الداخلية . وفى ظل السلام الفارسى استطاع الفلاسفة الأيونيون أن يمارسوا حريتهم كاملة فى الجدل والتفكير فوضعوا بذلك الأسس الأولى للفلسفة الاغريقية .. كما ترعرع فى أيونيا شعر

الملاحم مثل الياذة هوميروس وأغانى سافو Sappho [1] وألكايوس وأناكريون [2] والى جانب الفلسفة والشعر أخرجت أيونيا مؤرخين نبغوا فى عصرهم مثل هيرودوت Herodotus أبو التاريخ والكثير من علماء الطبيعة .

وقد وصلت الحضارة الاغريقية فى أيونيا الى درجة عالية من التقدم والازدهار [3] حيث ساعدها على ذلك انفتاحها على دول الشرق الأوسط مهد الحضارات الأولى للانسان .. وقد وجدت بلاد اليونان فى أيونيا رصيداً ضخماً لها استفادت منه كثيراً عند الحاجة ، وليس من الغريب أن تهب أثينا دفاعاً عن الاغريق فى آسيا الصغرى لتحريرهم من أيدى الفرس وما تبع ذلك من انتقام الفرس بالقيام بحملتين لاخماد مركز الثورة القومية فى بلاد الاغريق وفى أثينا بالذات [4] .

---

(١) عن الشاعرة سافو انظر المحاولة الطريفة التى قام بها عبد الغفار مكاوى ــ سافو ــ القاهرة ١٩٦٨ .

(٢) عن هذه الفترة من تاريخ الادب اليونانى انظر : محمد غلاب تاريخ الأدب الهلينى ــ القاهرة ١٩٥٢ ، كذلك انظر محمد صقر خفاجه تاريخ الأدب اليونانى ــ القاهرة دار النهضة العربية ١٩٥٦ .

(٣) أود ان أشير الى اقدم المؤلفات بالعربية عن تاريخ اليونان القديمة وهو كتاب : جورج ديمترى سربق تاريخ اليونان ــ بيروت ١٨٧٦ .

(٤) عن تاريخ الحضارة الهللينية انظر أيضا : ارنولد توينبى ــ تاريخ الحضارة الهللينية ــ ترجمة رمزى عبده جرجس ومراجعة محمد صقر خفاجه ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣ .

الفصل الثالث

حضارة عصر الابطال أو العصر الهومرى

(Homeric Age)

وأخيراً وسط الجمود الحضارى الذى خيم على بلاد اليونان بعد الغزو الدورى انبثق من أيونيا أول شعاع لشمس نهضة جديدة الا وهى الأشعار الهومرية . أو بمعنى آخر الملحمتان الرائعتان الألياذة والأودسا اللتان نسبتا الى الشاعر العظيم هوميروس واللتان أثرتا على حياة العصر كله لدرجة أن العلماء سموه باسم هذا الشاعر أو باسم أبطاله العظام الذى روى سيرتهم فعرف باسم عصر الأبطال أو العصر الهومرى .

ويكاد العلماء يتفقون على أن الألياذة قد اتخذت شكلها الملحمى بعد منتصف القرن الثامن بقليل ، سواء على يد مجموعة من المنشدين أو على يد شاعر نابغة استطاع أن يبنى من الأهازيج الشعرية القديمة قالباً درامياً ملحمياً تروى حوادثها فعلا وقائع أحداث وقعت منذ خمسة قرون مضت تقريباً ، ويلاحظ العلماء أنه بالرغم من أن الألياذة تتحدث عن وقائع حدثت ابان العصر الموكينى المنهار الا أن مظاهر الحياة فى الالياذه تطابق فى بعض الأحيان معالم الحياة ابان القرنين العاشر والتاسع ق.م . [1] ويحاولون مقارنة هوميروس بالشاعر الانجليزى وليم شكسبير عندما تمكن هذا الأخير من أن يصوغ مسرحياته من مصادر وأشعار وروايات ومؤلفات قديمة فى صورة جديدة ، والأدلة على أن الألياذة قد صيغت فى عصر غير العصر الذى تتحدث عنه كثيرة ،

---

(1) احسن كتابين عن هوميروس باللغة العربية هما كتاب المرحوم الأستاذ الدكتور صقر خفاجه : هوميروس . (سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب «7») ـ مكتبة نهضة مصر بالفجالة ـ 1956 وهو من وجهة نظر استاذ ادب ، اما الكتاب الآخر فهو من وجهة نظر مؤرخ وهو كتاب الأستاذ الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى : هوميروس تاريخ حياة عصر : الاسكندرية 1968 .

أبرزها أن الآخيين فى الألياذة يحرقون موتاهم بينما يكشف علم الآثار عن حقيقة هامة وهى أن الموكينيين الأصليين كانوا يدفنون موتاهم فى قبور فخمة .

وعلى أية حال فان سيرة هوميروس وشخصيته لا تزال يحوطها الغموض والتقارب حتى معنى الاسم فى اللغة الاغريقية الذى يعنى « بالرهينة » أو الأسير لا يدل عن شىء واضح ، حتى موطنه غير محدد لأن عدداً من المدن الاغريقية سواء فى أيونيا أو بلاد اليونان تنازعت فيما بينها مدعية كل منها أنها موطنه ، ومن هذه المدن سمرنا (أزمير) ورودس وكولوفون وسلاميس القبرصية وخيوس التى كان يعيش فيها قوم احترفوا التغنى بالأشعار الهومرية ابان القرن السادس عرفوا باسم آل هوميروس . (Homeridae) . وقد نسب التراث الاغريقى الى هوميروس تأليف الأودسا مثلما نسبوا اليه الالياذة بالرغم من الفارق الزمنى الشاسع الذى يفصل بين تاريخ تأليف الملحمتين والذى ينعكس فى الاختلاف فى طبيعة المجتمع وفى الأسلوب اللغوى مما يلقى ظلالا من الشك على نسبة الأوديسا الى هوميروس .

ومهما يكن من أمر فقد قامت الألياذة بدور كبير فى تنمية الرابطة المشتركة بين الاغريق اذ أنها ملحمة قومية ، خلقت كبرياء وطنيا بينهم فى كل مكان وعلى فارق العصور عوض التفكك السياسى والصراع التنوفانى بين المدن الاغريقية ، وقد ظلت الألياذة مثلا تدرس لأبناء الاغريق فى قرى مصر حتى القرن الرابع الميلادى كما تبين أوراق البردى المكتشفة فى الفيوم وأوكسيرينخوس (البهنسا) وغيرها من الحواضر الاغريقية فى مصر (١) .

---

(1) The study of Homer in Graeco-Roman Egypt. Akten des VIII International Kongress Fur Papyrologie, Wien 1956.

من الشذرات الأدبية التى وجدت فى مصر والتى نشرت حتى عام ١٩٤٩ تشمل الالياذة والأودسا نصف هذه الشذرات الادبية تقريبا سواء نصوصها أو شروحها ومن الملاحظ ان الالياذة تتفوق على الأوديسا ويلى ذلك الخطيب ديموسثنيس ويأتى المسرحى يوربيديس فى المرتبة الثالثة ويلى ذلك هسيودوس فافلاطون فارسطو أنظر : م. فنلى عالم اوديسيوس — ترجمة حلمى عبد الواحد خضرة ومراجع محمد سليم سالم سلسلة الألف كتاب (٦١٦) ص ١٥ .

والدليل على أن الالياذة من فعل « عقل واحد » أنها تختص بفترة محددة وهى أحداث الواحد والخمسين يوما من السنة العاشرة لحصار الآخيين لطروادة (١)، وتدور أحداثها حول فكرة واحدة هىغضب البطل

---

(٢) اما عن الاحداث الروائية عن حرب طروادة التى كان يعرفها هوميروس ولم يعالجها فى الالياذة فهى على النحو التالى :

تبدا الاحداث بالحفل الكبير الذى اقيم بمناسبة زفاف بيليوس من البشر على ثيتس (Thetis) حورية الماء . وقد دعى الى هذا الحفل كل آلهة الاغريق ما عدا ربة النزاع والخصام ايريس (Eris) التى ارادت الانتقام فصنعت تفاحة كبيرة من الذهب كتبت عليها الى اجمل الحاضرات (To kallisto) ثم القت بها فى الحفل فدب النزاع بين اجمل الحاضرات وهن هيرا زوجة زيوس واثينا ربة الحكمة وافروديت ربة الجمال واحتكمت الربات الثلاث الى زيوس الذى احالهن الى باريس الامير الطروادى ليحكم بينهن .

وكان باريس الابن الثانى لملك طروادة العجوز برياموس وملكتها هيكوبا ، وكان منبوذا لان امه وهى حامل به رات فى نومها ان نارا خرجت من رحمها سرعان ما تحولت الى افعى ودعى ابوه بريام مفسرى الاحلام اليه ونصحوه بقتل المولود لانه سوف يكون شؤما على طروادة ، وبالفعل اعطى باريس وهو طفل رضيع لاحد الخدم ليقتله ولكن الخادم رق قلبه للرضيع فتركه عند جبل ايدا (Ida) ليموت او تاكله الذئاب واخبر برياموس انه قد قتله ، ويقال ان ذئبة كبيرة عثرت على الرضيع وارضعته حتى كبر ووجد احد الرعاة باريس فاتخذه ولدا ورباه راعيا ولكن الطفل باريس اظهر مواهب فنية اذ راح يصنع من الطين اشكالا وصنع ثورا جميلا حمله الراعى الى طروادة وجعله برياموس جائزة لمن يفوز فى المباريات الرياضية، ولكى يستعيد باريس تمثاله دخل طروادة ونازل الرياضيين جميعا حتى هزمهم وعاد بالجائزة وهنا تعرف عليه ابوه وضمه اليه رافضا للقدر وما يخبئه للمملكة .

ولما ظهرت الربات الثلاث للأمير باريس وهو يرعى غنمه عند الجبل حاولت كل منهن ان تغريه بوعودها ، ولكنه استجاب لوعد ربة الجمال افروديتى وهو تمكينه من اجمل امراة فى العالم وغضبت الربتان الاخريتان واقسمتا على تدمير طروادة ، بينما نفذت افروديتى وعدها بان اوحت اليه بالسفر الى اسبرطه والنزول فى ضيافة ملكها مينالاءوس ، وهناك التقى بزوجته هيلينا خلسة وصوب ايروس ابن افروديت سهامه الى قلب الملكة فوقعت فى غرام الزائر الطروادى وهربت معه بعد ان نهبت القصر وهناك روايتان رواية تقول انها ذهبت معه الى طروادة وهى الرواية التى قبلها هوميروس ورواية ثانية تقول ان ملك مصر الفاضل ويدعى بروتيوس قبض على العاشقين عندما رسى قاربهما على الساحل المصرى وطرد الامير الخائن واحتفظ بالزوجة وبالمال الى ان عاد مينالاءوس من حرب طروادة واخذها (Herodotus, II, 112) . اما الاغريق فقد قادوا حملة لمعاقبة الخائن وابحر =

أخيليس وشجاره مع أجاممنون قائد الحملة وانسحابه من القتال هو ورفاقه من فرقة المورميديين • كما انقسمت الآلهة الاغريقية فيما بينها فريق انضم الى الطرواديين وفريق الى الآخيين ووصل الخلاف بين هذه الآلهة الى حد الاقتتال • وأدى غضب أبو للون بسبب انتهاك حـرمة معبده وخطف ابنة كاهنة الى نشر الوباء واندحار الآخيين • وازاء هذه الهزائم أرسل أجاممنون الى أخيليس سـفارة تدعوه الى العودة الى القتال ولكن البطل الغاضب رفض الانصياع لأوامر القائد المتغطرس وهـدد بالعودة الى موطنه • وعندما هدد الطرواديون السفن الأخية وكادوا أن يحرقوها ذهب باتروكلوس الصديق الوفى لأخيليس يرجوه العودة للقتال ولكن الأخير اعتذر عن ذلك ولكنه أعار صـديقه درعه وسلاحه وفرقته العسكرية • ونجـح باتروكلوس فى دحـر الطرواديين ولكنه خر صريعا تحت ضربات بطل الطـرواديين هكتـور ابن الملك برياموس ملك طروادة وشقيق باريس الأمير الطروادى الذى تسبب فى هذه الحرب بخطفه هيلينا زوجة مينالاءوس ملك اسبرطه • ولما سمع أخيليس بمقتل باتروكلوس انتابه الغضب الشـديد وهنا تحدث نقطة التحول فى الأحداث اذ يعود الى القتال بعـد أن صنع له هيفايستوس

= اسطولهم الذى تعطل عند مدينة اوليس (Aulis) حتى ضحى اجاممنون شقيق الملك وقائد الرحلة بابنته « افيجينيا » قربانا بعد ان خدعها بانها سوف تتزوج اخيليس بطل فرقة المورميديين الاغريقية ووصل الاسطول الافريقى الى طروادة وحاصرها عشرة سنوات وكان الحرب اشبه بالنزال والمبارزة بين الابطال المتناظرين ، ولم يتمكن اى الفريقين احراز النصر على الآخر بسبب انقسام الآلهة على انفسهم بالنسبة لهذه الحرب ، واخيرا قدم اوديسيوس فكرة وهى صناعة حصان من الخشب المجوف يختبىء فيه الجنود ويترك عند بوابة طروادة بينما يتظـاهر الجيش الاغريقى بالانسحاب وبالفعل وقع الطرواديون فى الشرك ولما حاول احد حكمائهم لاؤكوون أن يحذرهم من هدايا الاغريق ارسلت عليه اثينا حيتين التفتا حوله وحول ولديه فقتلته ولم ينج سوى ولد واحد . وفى الليل البهيم خرج الجنود من الحصان الخشبى وفتحوا ابواب طروادة فدخلها الاغريق وعاثوا فيها حرقا وقتلا وسبيا . وبعد ذلك عاد ابطال الاغريق الى بلادهم ليعيشوا حياة هادئة .

اله الحدادة درعاً وسلاحا جديداً • ويقسم بالثأر من هكتور وبالفعل يصرع أخيليس هيكتور فى مشـــهد مثير ويمثل بجثته شر تمثيل مما أدى الى ذهاب أبيه بريامـوس الشيخ ليجثوا على ركبتيه أمامه راجيـا ارجاع الجثمان ولا يلقيـه للـكلاب • ويستجيب أخيليس ويعيـد الجثمان الى الملك حيث يلقى جنازة كبيرة فى مدينته • وهكـذا تنتهى الالياذة بهذه النهاية التراجيدية المؤثرة •

والحق يقال أن الألياذة مليئة بمواقف عاطفية كثيرة تشد انتبـاه القارىء وتثير الشفقة والرثاء مثل نواح بريامـوس وزوجته هيكوبا على فقد زهرة شباب أبنائهم أو منظر وداع هكتور لزوجته ولطفله وتنبؤه بموته قبل الذهاب لملاقاة أخيليس أو كمنظر هيليا فوق الأسوار تعرف بريامـوس على زعماء قومها وهى تحس بمرارة الذنب وأنها السبب فى كل الكوارث بل أن الألياذة ذكرت الكثير من الأبطال مثل أجاكس واينياس وأوديسيوس ونستور وتلقى الضوء على عادات المجتمع وسلوك أفراده وتوضح معالم ديانته •

أما الأوديسا ، فقد قسمت مثل الألياذة الى أربعة وعشرين أنشودة أو كتابا تتناول أربعة موضوعات مختلفة • ولكن من الواجب أن نقول أن الأوديسا تلى الألياذة أهمية وزمنا ، فالأوديسا تتحـدث عن عالم يختلف تماما عن عالم الالياذة اذ أنها تبدأ من حيث انتهت الاولى لتروى قصة تجول أوديسيوس أحد أبطال الألياذة وتخبطه فى البحار أثناء عودته الى مملكة ايثاكا بالبيلوبونيسوس• اذاً فهى انعكاس صادر لعصر الكشوفات الجغرافية والتقدم فى العلوم البحرية وتمهيد لعالم جديد واسع الأفق ونهضة كبرى للتجارة والتبادل الحضارى •

والموضوعات الأربعة التى يمكن تقسيم الأوديسا اليها تجىء على النحو التالى : أولها مغامرات ابن اوديسيوس وهو الامير تيليماخوس Telemachos من بينيلوبى بعد أن ضاق درعا باستيلاء بعض الشباب

---

(١) انظر : فنلى ـ عالم أوديسيوس ـ ترجمة حلمى خضرة ومراجعة محمد سليم سالم •

الارستقراطيين على قصر ابيه وأمواله ومحاولتهم اغراء أمه المخلصة بينيلوبى Penelope لتنسى اباه وتختار زوجاً جديدا من بينهم • ولهذا بدأ الابن رحلة شاقة ساعدته فيها فيها الربة اثينا ليسأل الامراء العائدين من حرب طروادة من أمثال الشيخ الوقور وحكيم الاغريق نستور Nestor الذى زاره فى مدينته بيلوس ، كما زار مينالاءوس فى اسبرطة ويعطينا فكرة عن استقرار ابطال طروادة بعد الحرب فى ممالكهم وقد مضى على الحرب عشر سنوات •

أما الموضوع الثانى : يبـدأ برحلـة أوديسيوس نفسه من جزيرة أوجوجيا حيث احتجزته ملكتها الربة كالبسو Calypso سبع سنوات أملا فى اغرائه بالاقامة معها والزواج منها وبعد تدخل زيوس أطلقت الملكة سراحه ليلقى به الموج عند جزيرة صخيرا Scheira حيث تعثر عليه الأميرة ناوسيكا Nausicaa ابنة ملك الجزيرة الملك الكينووس Alkinoos

والموضوع الثالث : موضوع الحفل الذى أقيم فى القصر لهذا الضيف المجهول الهوية وقيام الشعراء والمنشدين بالتغنى بمصير أبطال حرب طرواده فيثير الانشاد مشاعر أوديسيوس فيعلن عن نفسه ويبدأ فى رواية ما حدث له ومغامراته فى البحر مع الكيكيون وآكله اللوتس وصراعه مع العملاق ذى العين الواحدة بوليفيموس (Polyphemos) ورحلته الى العالم الآخر ليلتقى بالموتى ويتحدث مع أمه انتكليا وغيرها من الأحداث الرهيبة حتى وصوله الى جزيرة الملك ألكينوس •

والموضوع الرابع : يتناول التكريم الذى لاقاه بعد الكشف عن هويته والهدايا ، والاعداد للعودة ووصوله الى ايتاكا متخفيا فى ثوب شحاذ واقامته فى كوخ راعيه المخلص يومايوس ثم يتعرف على ولده تليماخوس والاتفاق معه على الانتقام من العشاق ثم المذبحة الكبرى وتطهير القصر من الدماء •

وتنتهى الأوديسا بجمع الشمل بين أوديسيوس وزوجته الوفية بنيلوبى وأبيه المسن لا آرتس Laertes وابنه تليماخوس •

ونظراللاختلاف الكبير بين الألياذة والأودسا فى اللغة والأفكار فان العلماء اليوم يشكون كثيرا عما اذا كان المؤلف هو نفس مؤلف الألياذة بل لابد أن يكون قد جاء متأخرا كثيرا عنه .

وقد تلى الألياذة والأوديسا ظهور مجموعة من شعراء الملاحم والذين راحوا يضفون بعض التفاصيل على الموضوعات التى لم تذكرها الألياذة والأودسا أو التى ذكرتها باختصار وقد عرف هؤلاء الشعراء بشعراء (١) الملاحم الطروادية أو الدوائر الملحمية Epic Cycles . ومن أشهر مؤلفات هؤلاء الشعراء « الألياذة الصغيرة » و « مغامرات السبعة ضد مدينة طيبة » و « معركة الآلهة المطرودة » وغيرها من الموضوعات الاسطورية .

هكذا بظهورهذا التراث الأسطورى الشعبى وضع الأغريق أيديهم على منجم الهام غنى بالأساطير والخرافات التى حولوها الى مادة غنية للشعر والفن والتراجيديات بل وللفلسفة والموسيقى والنحت والرسم ، هى المنطلق الحقيقى لحضارتهم منذ بزوغها الى أفولها وقد حق القول المنسوب الى الشاعر أيسخولوس والذى فيه وصف مسرحياته بأنها « فتات وليمة هوميروس الى العظيم » بل أن الرومان أنفسهم أقاموا خيالهم وأدبهم على أنقاضها فنسج فرجيل ملحمته الخالدة الأنيادة على غرار الألياذة كما استعان بالأوديسا فى وصف مغامرات بطلة اينياس فى البحار . وليس الرومان فحسب بل الشعوب الأوروبية ذاتها فى عصر النهضة الكبير عندما عادوا الى ينابيع الأدب والفن الاغريقى الذى تقبع الأسطورة وراءه، بل أن روح الأشعار الهومرية لا تزال تتنفس من خلال آداب وفنون عالمنا الحديث والمعاصر .

---

(١) لا يفوتنا ان نشير الى الشاعر الملحمى هسيودوس الذى ولد فى اسكرا الواقعة عند سفح الهليكون فى طيبة حيث سلب منه شقيقه ميراث ابيه عن طريق رشوة الحكام مما دفع هسيودوس الى الكتابة عن الوازع الاخلاقى التعليمى فى الملحمة وهبط من عالم الاساطير الى دنيا الواقع المر ومن اهم مؤلفاته الايام والاعمال واصل الالهه . ومن الصعب تحديد العصر الذى عاش فيه لكننا نعلم انه دخل فى مباريات شعرية مع هوميروس نفسه كما يقول هيرودوت ولكن الباحثين المعاصرين يضعونه فى تاريخ متأخر عن هوميروس وهو حوالى عام ٨٠٠ ق.م نظرا للتطور الكبير فى الفكر والظروف العامة بين شعره وشعر هوميروس .

على أى حال انتشرت الألياذة والأوديسا فى العالم الاغريقى انتشار النار فى الهشيم ، وذلك بفضل المنشدين المتجولين (rhapsodoi) بين أيونيا وبلاد اليونان ، حتى لم يكد بجىء المهرجان الألمبى السادس عام ٧٥٣ ق‍م حتى كانت الألياذة والأوديسا تراثاعاما مشتركا بين كل الاغريق•

وكانت مدينة أثينا بالذات من أشد المدن الاغريقية حرصا على حفظ الألياذة وصونها للبشرية وخوفا عليها من الاندثار أو التشويه بفعل الحذف والأفتراء من جانب الشعراء المتجولين • ولهذا فقد أمر طاغية أثينا الشهير بيسستراتوس (٥٣٥ ق•م) بتكوين هيئة رسمية للاشراف على جمع أشعار الألياذة ونسخها فى شكل رسمى وثابت وقد كلف بذلك الشاعر الأثينى أونوماكريتوس Onomacritus وبالفعل ظلت النسخة الأثينية هى المقبولة والمتداولة فى كل أنحاء بلاد اليونان ، حتى العصر الهلينستى الذى ساد بعد موت الاسكندر عندما برزت مدينة الأسكندرية كجامعة شهيرة وتكونت فيها مدرسة عالية لدراسة فن النقد الأدبى [١] وفقه اللغة اليونانية وجعلت هذه المدرسة هوميروس موضع دراستها النقدية على فقهاء ذائعى الصيت من أمثال زينودوتوس Zenodotus من مدينة أفيسوس وتلميذه أرستو فانيس البيزنطى Aristophanes of Byzantium وخاصة الشاعر الناقد أرستارخوس الذى نسب اليه تقسيم الألياذة الى أربع وعشرين أنشودة أو كتابا وذلك بان القرن الثانى قبل الميلاد تحت حكم أسرة البطالمة لمصر •

ومهما يكن من أمر فان الألياذة والاوديسا بالنسبة لنا كمؤرخين تعنى مصدرا هاما يعكس لنا ملامح الحياة والمجتمع ابان هذه الفترة التى ظهرت فيها الألياذة والتى يسميها المتخصصون عصر الأبطال أو عصر هوميروس والتى هى فى الحقيقة ليست الا فترة الانتقال من حضارة العصر البرونزى الى البعث الجديد بعد الغزو الدورى • وعلى أى حال فمن خلال دراستنا

---

(١) عن الألياذه ونظام التعليم الاغريقى فى مصر انظر مقالة :
P. Collart. «A l'ecole avec les petits Grecs d'Egypte, Chronique d'Egypte, vol. II (1936) pp. 489—507.

للألياذة نستطيع أن نلخص الحالة التى كان عليها المجتمع الاغريقى حتى منتصف القرن التاسع ق.م .

اولا : الحالة السياسية :

تصور الألياذة النظام الملكى كأمر طبيعى للحكم بالرغم من آن بعض المؤرخين يعتقدون أن كلمة ملك (Basileus) كلمة ليست أغريقية الأصل بل ربما جاءت من الشرق حيث الملكية المتسلطة . ويدعم هؤلاء المؤرخون قولهم بأن هوميروس يستخدم لفظ ملك عندما يصف أجا ممنون قائد الحملة كما يستخدمها عندما يصف برياموس ملك طروادة دون تفريق .

تصور الألياذة أجا ممنون فى صورة الملك المطلق الذى يتوجب على رعيته طاعته دون اعتراض كما يتضح من الاستهلال الافتتاحى فى الالياذة وفى الفصل الثانى يدعو الملك الجنود الى اجتماع عام كمجلس شعبى ولكنه لا يتقيد برأيه على الاطلاق . كما نلاحظ أن الملك يصر على وجوب طاعته حتى ولو كان على خطأ لأن ذلك من حقوقه الملكية .

والى جانب الملك تظهر الألياذة مجلسا للشيوخ يحيط بالملك ويتكون من رؤساء العشائر كجهاز استشارى أو مجلساً لشورى وسلطة الملك محددة بهذا المجلس بل كان عليه أن يستشيره قبل الأقدام على أية خطوة . ولما كان الجنود هم سكان الدويلة وسكان الدويلة هم (١) جنودها فقد حتمت الضرورة أخذ رأى المواطنين قبل اعلان الحرب أو عقد السلام ومجلس الجنود العسكرى يعادل المجلس الشعبى فى الجهاز المدنى بالرغم أن لم يكن له أى سلطات . فكان المواطنين يجتمعون فى السوق العامة (agora) ليستمعوا الى القرارات التى يتخذها الملك بعد استشارة مجلس الشيوخ ليوافقوا عليها ولم يكن لهم حق الاعتراض . اذ تصور الألياذة الدولة على أنها القبيلة (Phyle) والملك هو زعيم القبيلة وهو الذى

---

(١) الدولة التى تحدث عنها هوميروس كانت دويلة القبيلة Stamm Staat لان فكرة دويلة المدينة القائمة على المجتمع المندمج Stadtsaat لم تكن قد ظهرت بعد انظر المقال الطريف :

Fr. Gschnitzer, Stadt und Stamm bei Homer, Chiron, I (1971) pp. 1—17.

يقوم بمهام الكاهن الأعظم أو القاضى الأكبر والقائد الأعلى للجيش ، وفى الأوديسا تظهر الدولة فى حالة فوضى سياسية واجتماعية فى غياب الملك فاوديسيوس يترك فراغا سياسيا كبيرا لم يستطع أحد ملؤه سواء من الارستقراطيين أو العامة ولا ينصلح الحال الا بعودة الملك الى مملكته ووضع الأمور فى نصابها . فالملك جوهر الدولة وروحها وهو شىء حيوى بالنسبة لها . ولكنه لايستطيع أن يباشر عمله الا بحضور مجلس استشارى من شيوخ العشائر واغنياؤها كما أن جهاز الحكم الملكى لايصبح مكتملا الا اذا دعى المجلس الشعبى للانعقاد بالرغم من من أن هذا الأخير كان صوريا ومسلوب السلطات .

كذلك تصور الأشعار الهومرية وجود نظام دويلة المدينة المستقلة الذى بدأ فى الظهور بعد ركود الغزو الدورى وهو النظام الذى سوف يشكل جوهر الحكم والعلاقات السياسية فى كل بلاد اليونان وعلى طول تاريخها . كما نلاحظ فى نفس الوقت تطور النزعة الوطنية بين الاغريق ووجود رابطة تجمعهم لأول مرة وتراث مشترك بينهم بالرغم من وجود احساس قوى بحب الاستقلال الاقليمى ورفض الاندماج السياسى فى شكل الدولة الواحدة . كما نجد بداية لظهور الخلافات والصراعات التى تؤدى الى قيام حروب طاحنة عجز الملوك فى كثير من الأحيان الاستمرار فيها بسبب سوء الحالة الاقتصادية .

ثانيا ـ الحالة الاقتصادية :

تصور الأشعار الهومرية المجتمع بصورة أرستقراطية اقطاعية اذ لا نسمع سوى اليسير عن عامة الشعب . كما تصور الحالة السيئة التى عانتها بلاد اليونان من جراء المشاكل الاقتصادية بسبب ازدياد عدد السكان بدرجة لا تتماشى مع موارد البلاد المحدودة . والأرض الزراعية لم تعد تكفى الأعداد الغفيرة من الناس ومما زاد الأمر سوءا أن الاغريق كان يتبعون نظاما فريدا فى التوريث وهو توريث الولد الأكبر (Primo-geniture) وترك الأبناء الآخرين بدون ميراث وذلك حفاظا على مساحـــة الأرض المملوكة مما أدى الى ازدياد عدد الذين لايملكون الى جانب عجز الأراضى

عن انتاج الغذاء الكافى للسكان (١) خاصة أن التجارة وأعمال البحر لم

---

(١) للمزيد عن وضع الاقتصاد الاغريقى منذ عصر هوميروس حتى العصور المتاخرة انظر :

M. I. Finley. «The Ancient Economy. 1974

كذلك كتاب :

M. Austin & P. Vidal-Naquet, Economies et Sociétés en Grec ancienne, Paris Colin 1972.

لكن احسن المؤلفات فى المجتمع الهومرى :

W. E Gier, Die Landwirtschaft in Historischeir zeit alter, Archaeologica Homerica H, H. Goettingen, 1968.

ومن الدراسات الدقيقة والوافية :

M. Mele, Società et Lavora nei Foemi Omerici, Naples, 1968 (R. H., cc XLIX. 1973, P. 164—167).

Universita degli Studi di Napoli : Instituto di Storica e antichita greche e, romana, Napoli 1968.

والكتاب دراسة متصلة للمجتمع كما تصوره أشعار هوميروس . وقد فصل الباحث بين مجتمع الالياذة الاقطاعى العسكرى ، وبين مجتمع الأوديسا الذى يقوم على العمل الحر أو الاجراء . وقد بنى المؤلف الجدل حول منظر نزول اوديسيوس الى عالم الموتى (Nekuia) والذى جاء ذكره فى الأوديسا (Odessey, XI, 482 ff.) وفى هذا المنظر يدور حوار بين اوديسيوس وطيف اخيليس البطل الذى قد مات ويطلب اوديسيوس من اخيليس ان يتمد العالم الدنيوى برضاه ولكن أخيليس يجيبه متحسرا ومتمنيا العودة الى الحياة الدنيا حتى ولو عمل أجيرا (thétenein) عند مالك من الدرجة الثانية أى من الذين لم يقطعوا اقطاعيات (akleros) وهم عادة الغرباء الذين يمتلكون ارضا حول أطراف المدينة (Eschatie) من المراعى أو الغابات ويعتبرهم المجتمع القديم هامشيين على عكس الاقطاعيين (Polykleroi) ويردد اخيليس ان هذا أفضل من أن يظل ملكا ميتا ! وهنا يدور الجدل حول التحسن فى وضع الاجراء الاحرار من المواطنين (Thetes) ويبرزهم من ضباب المجتمع الوكينى القديم كطبقة محددة المعالم تنعم بقوانين العدالة (dike) وبحقوق الضيافة (Xeinia) ولا ترتبط بأى التزام سوى عقد العمل مع صاحب العمل (Oikeus) وعادة ما يكون هذا العمل موسمى مثل الحصاد أو بذر الحبوب ومما يميز تقدم تبلور مجتمع العمال الاحرار من المواطنين فى الأوديسا عنه فى الالياذة حيث ساد الاستعباد الطبقى ، شخصية الراعى يومايوس الرذينة والتى استمع لها أوديسيوس وعمل بنصائحها قبل الفتك بالاقطاعيين الذين

تكن فى أيدى الاغريق بعد ، بل كان يسيطر عليها الفينيقيون وسكان دولة فريجيا Phrygia الأسيوية . كما أدى ازدياد العبيد نتيجة للحروب المتتالية الى تضيق الخناق على العمال الأغريق وأصبحوا عاطلين، ومن ثم فقد دفعهم هذا الى الاستدانة من الأغنياء بالربا الفاحش ثم نجدهم يعجزون عن تسديد ديونهم وبالتالى يفقدون حريتهم ويصبحون عبيدا لدائنيهم طبقا للعرف المتبع ويحق للدائن ان يتصرف فى المدين كما يشاء سواء بالبيع كرقيق أو بالقتل . ونلاحظ أن ذلك يحدث فى الوقت الذى كانت فيه بعض الجزر والمناطق فى بلاد اليونان تشهد رواجا تجاريا واقتصاديا خرافيا ومن هذه المناطق بعض جزر بحر ايجه مثل رودس وسفنوس وثاسوس وغيرها .

ثالثا : الحالة الاجتماعية والفكرية :ـ

تصور الألياذة والأدويسا كيف عانت هذه الفترة اضحلالا كبيرا فى مجال المعرفة والتعليم بعد سقوط الحضارة الموكينية واختفاء معالمها . وانتقال مركز الثقل الى شعوب أخرى استفادت من سقوط الحضارة الموكينية مثل الفينيقيين الذين كانوا فى قمة نشاطهم ومثل بعض الدويلات الأسيوية الأخرى مثل أهل ليديا Lydia وفريجيا Phrygia

---

= استولوا على قصره وراحوا يتقدمون للزواج من زوجته. ان تمنى اخيليس ان يعود للدنيا ولو اجيرا وقوة شخصية العامل الراعى يومايوس لدليل على تطور الثورة الاجتماعية فى الاودسا عنها فى الالياذة . ولم يكن كل الاجراء معدمين بل ان بعضهم كان يمتلك ارضا ولكنه يعمل لكى يزيد من دخله وبعضهم كان يعمل اجيرا مع عبيده التى كان يمتلكها (Finly, op. cit, p.) وكان الأجير يختلف عن العبد فى امتلاك الحرية (Eleuthereia) التى يتمتع بها كفرد له حقوق العدالة (dike) والضيافة (Xeinia) وبعد المقارنة ينتهى هذا المؤلف الدقيق بخلاصة الاستنتاج وذلك فى الفصل العاشر وهى ان الالياذة اسبق من الاوديسا لانها تصور مجتمعا لم ينضج سياسيا بعد (Propolitico) يجمع بين الاقطاع المطلق الموكينى والحكم الارستقراطى الهومرى . بينما يتطور الوضع فى الاودسا بظهور طبقة الاجراء الاحرار الذين لابد وأن يكونوا فى حال ميسور جعل اخيليس يفضل ان يعمل كواحد منهم على ان يظل ملكا ميتا فى العالم الاسفل . بالرغم من ان مجتمع الاوديسا يظل يجمع بين الرق (douloi) وبين الاجراء الاحرار (Thetes) لكن الخط بين العبودية والحرية واضح فيها .

ولكن بالرغم من هذا فان الأشعار الهومرية تعكس لنا صورة لابأس بها لمجتمع ليس بدائيا فهناك تقاليد وعلاقات انسانيه ثابتة كالزواج والتعبد ومن موروث كادارة القصور وهندسة المنازل وروح اجتماعية فى الحياة الأسرية ومعرفة بفن الحرب وأنواع الأسلحة المختلفة لاتقل عن المعرفة بفن الزراعة وفلاحة الأرض ومعرفة أخرى بالبحر والأبحار ورصد هبوب الرياح (١) . وقد أيدت الحفائر فى طراوده دقة وصدق الأشعار الهومرية(٢).

وجدير بالذكر أنه بالرغم من نزعة الارستقراطية فى كل شىء الا أننا نشم رائحة الحرية الفردية فلم يكن هناك استبداد مطلق سواء سياسيا أو كهنوتيا . فالنساء يعشن فى مساواة مع الرجال ويشغلن مكانة جليلة الشأن فى الأسرة . كما كان هناك نوع من المساواة البدائية بين الرجال، بل بين الآلهة والبشر حيث يتحدث كل طرف الى الآخر كما يتحدث الرجال الى الرجال ، بل لايتردد البشر فى الشجار مع الآلهة والقتال معها .

---

(1) Cf. Mele Op. cit. chapter, VI, Passim, also cf.
M. I. Finley, «Studies in the

(٢) عن المجتمع الاغريقى ابان القرن الثالث عشر وحتى القرن الثامن ق.م على ضوء الاشعار الهومرية انظر :

J. Bouzek,» Homerisches Griechen land [Acta Universitatis Carolinae Philosophica et historia, Monograph XXIX] Prague 1969, also M. I. Finley, «The Early Greece : The bronze and Archaic period, Cambridge 1970 [= Revue historique CCXLVI (1971) P. 101] : Ancient Economy. Cambridge. 1974.

الفصل الرابع

قيام جمهوريات المدن الحرة
وتوثق روابط التراث الحضارى المشترك

ابان ركود العصر الحديدى لم تكن بلاد اليونان سوى مجموعة من القرى الفقيرة المنتشرة التى تعانى من النقص المادى والركود الحضارى ، وكان يحكم تلك القرى ملوك هم فى الحقيقة رؤساء القبائل ـ يساعدهم مجلس من النبلاء أو الشيوخ وكان عدد سكان تلك القرى محدوداً لدرجة أنه يمكن جمع المواطنين فى سوق القرية العام أو ساحتها الشعبية (agora) لابلاغهم بقرارات الملك التى يتخذها بعد استشارة مجلس النبلاء (١) .

ووسط هذا الركود بدأت الحضارة تبعث من جديد خاصة حول المناطق التى كان لها تاريخ ابان الحضارة المينوية أو الموكينية . سواء فى كريت نفسها أو فى بلاد اليونان ومن أشهر هذه المدن مدينة موكيناى التى بدأت تنفض الركود والصمت عن نفسها وبدأ الناس فى الهجرة اليها وتعميرها . وكان من الطبيعى أن تبعث مدن كريت وموكيناى لأنها مدن عرفت الحياة الحديثة المتحضرة طويلا وقد ساعدها على ذلك ماتبقى لها من تراث وحضارة أستطاع أنيحيا رغم ظروف الركود . كذلك شهدت هذه الفترة انبعاث مدن أخرى قديمة فى ثوب جديد مثل مدينة أورخومينوس فى بؤتيا والتى كانت ذات حضارة متقدمة فى العصر الموكينى وكانت أول التجمعات السكانية التى كونت أول تنظيم سكانى وسياسى فى تاريخ

---

(١) انظر : الاغريق ـ تاليف كتو ترجمة عبد الرازق يسرى ، القاهرة دار الفكر العربى ١٩٦٢ ص ٦ .

بلاد اليونان ، ومن المدن الأخرى التى بدأت فى الظهور مدينة كورنثا الواقعة على البرزخ المعروف باسمها والتى أعيد بناؤها واحتلالها بعد الغزو الدورى ابان الألف الأولى ق٠م٠ ٠

كانت كلمة « مدينة» (Polis) تشمل عدة قبائل (Phylai) مختلفة وعندما تكبر المدينة وتتوسع كانت تضم اليها القرى الزراعية التى تقع من حولها وتدمجها فيها وتعطى سكانها حق المواطنة وقد أطلق الأغريق على هذه المرحلة مرحلة الادماج السكانى (Synoekismos) وفى بعض الأحيان لم يكن هذا الادماج يتعدى الناحية السياسية أى أنـه لم يكن شـوليا بل سياسيا فقط لأنه يترك القرى على حالتها التى كانت عليها قبل الادماج فى المدينة الجديدة وبذلك أصبحت القرى الريف الزراعى للمدينة وأصبحت المدينة العاصمة الاقليمية للمناطق المختلفة ٠ فمثلا تمكنت مدينة أثينا من تكوين اطار زراعى حولها فى اقليم أتيكا بلغ مساحته ألف ميل مربع وأدمجته فيها منذ البداية مما جعلها تولد أكبر مدينة فى بلاد اليونان٠

ومن أشهر القرى التى كبرت وتوسعت لتصبح « أم القرى » ثم مدينة كبيرة أرجوس (Argos) الواقعة شرق البيلوبونيسوس والتى استطاعت أن تجذب اليها المهاجرين من مركيناى وفرضت نفسها على هذا العصر حيث أصبحت من أهم المراكز الحيرية فى شبه جزيرة البيلوبونيسوس الى أن انتزع منها هذا المجد قرية صغيرة تطورت بدورها تدريجيا حتى كبرت وأصبحت مدينة كبيرة ٠ هذه القرية تقع فى الجنوب من البيلوبونيسوس وتسمى أسبرطة ونظرا لأهمية الدور الذى لعبته أرجوس لابد من التوقف قليلا عندها لنعالجها بشىء من التفصيل ٠ —

دويلة المدينة ومفهومها عند الاغريق (Polis)

ما أن اقترب القرن الثامن قبل الميلاد حتى بدأ الاغريق ينظمون أنفسهم — على امتداد بلادهم وفيما عدا بعض القبائل المتخلفه التى تقطن فى الجزر والاطراف الجبلية النائية — فى نظام سياسى هو دويلة المدينة أصبح هو الطابع السياسى السائد لهم ٠ واختفت الممالك التى كنا نسمع عنها فى الأشعار الهومرية حيث كان الملوك هم فيها كل شىء وبدأت سلطات الملوك

تنحسر قليلا قليلا أمام مد حكم الأرستقراطيين النبلاء كما صاحب ذلك تقدم فن التشريع والنظم الدستورية التى بدأت تقنن القيم والحقـوق والواجبات والالتزامات. وسرعان ما انتشر نظام دويلات المدن مع انتشار الحضارة الى أراضى ومناطق مترامية الأطراف سكانها ليسوا من عنصر الأغريق العرقى بل شعوب قبلت طريقة الحياة الأغريقية واللغة اليونانية ولم يعد جوهر الحضارة الأغريقية الجوهر الجغرافى أو القومى العنصرى بل هو طريقة الحياة المميزة بجوانبها الاجتماعية والثقافية الذى يميزها عن سائر الشعوب الأخرى وهو دويلة المدينة (Polis) وفيه أصبحت كل مدينة جمهورية مستقلة تستمتع بالاستقلال السياسى التام وتلزم مواطنيها بنوع معين من الأرتباطات والروابط السياسية والأجتماعية منذ مولدهم ونشأتهم وتربيتهم حتى مشاركتهم فى مسئولية الحكم. هذا الالزام بسنن الحياة وطريقتها من أجل التقدم والذى هو نتاج التربية الفكرية والنفسية داخل دويلة المدينة هو الحضارة الهللينية بعينها. لابد أن ندرك أن الاغريق لم يتحدوا اطلاقا فى دولة سياسية واحدة مثل المصريين أو الرومان . وأن الوثاق القومى بين الأغريق كـان وثاق السلالـه واللغة والتراث المشترك ولم يكن أبدا وثاق الأتحاد السياسى ويجب أن ندرك أن تاريخ الأغريق هو تاريخ مئات من دويلات المدن المستقله التى تناثرت فى أرجاء وجزر بحر ايجه والبحر المتوسط وشواطئه .

ومن الجدير بالذكر أن فكرة دويلة المدينة (Polis) أو جمهورية المدينة لم يكن فى الأصل ابتكارا اغريقيا بالرغم من أن اللفظ (Polis) من صنع الاغريق الذين أورثوه للغات العالم الحديث ، وانما وجد هذا النظام أول ما وجد عند السومريين الذين تظهر حضارتهم منذ عام ٣٠٠٠ ق.م فى الحوض الأدنى لنهرى دجلة والفرات وذلك قبل مولد الوجود الاغريقى بحوالى ألفى سنة وقبل مولد دويلات المدن الاغريقية بما يقرب من اثنا عشرة قرنا أو يزيد ومن بلاد سومر انتشر هذا النظام الى بلاد كنعان (الشام وفلسطين) والى فينيقيا المطله على ساحل الشام . ونسمع فى الشرق الأوسط عن دويلات مدن سومرية مثل بابل (باب الرب) وأور ، وبورسـيا ، وكيش ونيبور ، ولجش . وأوروك (أو الورقاء) كما

نسمع عن دويلات مدن فينيقية مثل صور وصيدون (صيدا) وبيلوس وأرادوس كما نسمع عن قادش وقرطاجه فى شمال افريقيا وهى مستوطنات فينيقية . لكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن مفهوم الأغريق لهذا النظام دويلات المدن (Poleis) كان ذا طريقة مميزة وخاصية تعكس العقلية الأغريقية العمليه التى تؤمن بالأنسان إيمانا مطلقا وكما يقول بروتاجوراس فيلسوف مدينة أبديرا (Abdera) فى القرن الخامس ق.م «الانسان مقياس كل شىء » ، فطبقت صورة الانسان وسلوكه حتى على الآلهة وعلى عناصر الطبيعة وهو ما يعرفه البعض بفرض الصفات الانسانية (Anthropomorphism) ومن ثم كانت الحضارة الاغريقية هى حضارة الانسان (١) .

كانت كل دويلة مدينة تملك رقعة محدودة من الأرض الزراعية أكبرها رقعة دويلة أثينا التى بلغت ألف ميل مربع وهى مساحة لاتزيد عن مساحة مقاطعة انجليزية متواضعة ، وفى عصر بيريكليس قمه ازدهار أثينا وسيطرتها كان عدد المواطنين الذين يمكن تجنيدهم يبلغ ٣٠,٠٠٠ مواطنا يمثلون ٢٥٠,٠٠٠ من تعداد المدينة بما فيهم النساء والأطفال ويضاف الى ذلك عدد كبير من الرقيق والحرفيين الأجانب والغرباء المستوطنين . وعلى غرار الجمهوريات الأيطالية فى العصور الوسطى (٢) كان هذه المدن شديدة الحرص على استقلالها وسيادتها (Autonomia) وقلما تطغى قوة احداها فتخضع ما حولها من المدن الأخرى لسيادتها وتنشأ الأمبراطوريات مثل الأمبراطورية الآثينية والأمبراطورية الأسبرطية وأمبراطورية طيبة ، وسرعان ما تقاوم المدن هذا التدخل والتعدى الغاشم على استقلالها وتقاوم ثم تحدث الحروب وتنهار الامبراطوريات بعد أن تكون قد أثارت الجفاء بين مواطنى المدن الأخرى .

اذا كان الوجود الحضارى الأغريقى هو بمثابه الوجود السياسى التى يترجم عادة بالدول المتحدة سياسيا وكان الأغريق يحسون بهذا

---

(١) انظر عبد اللطيف احمد على ـ المرجع السابق ص ١١١ ـ ١١٢ ؛ also cf. Fowler, The Polis

(٢) و . ج . دى بورج ـ تراث العالم القديم ـ ترجمة زكى سوس ومراجعة يحيى الخشاب ومحمد صقر خفاجه : سلسلة الألف كتاب رقم ٥٥٧ دار الكرنك ـ القاهرة ١٩٦٥ . ص ١١٢ وما بعدها .

التراث المشترك وأواصر القرابة الحضارية بينهم رغم تشتتهم سياسيا لأنها هى التى تميزهم عن غيرهم من الأجانب (Barbaroi) (١) •
ومن أهم مظاهر هذا التراث المشترك الملاحم الهومرية ودورات الألعاب الرياضية والديانة الاغريقية خاصة ، دلفى الىجانب عشق الفن والفلسفة والجمال (٢) ولقد لعبت عبادة الرب ابو للون بالذات خاصة فى دلفى حيث معبده ومكان اعطاء نبوءته دورا هاما عندما راح الاغريق ينتشرون فى عصر التوسع التجارى وتحولت دلفى كما سنرى الى جامعة اغريقية دينية قومية لكل الاغريق فى كل مكان •

تتضح اذا أن طبيعة العلاقة بين الفرد ودويلة المدينة من خلق العقلية الأغريقية أملتها ظروف بلادهم الجغرافية واملتها أيضا ظروف التشتت والأنتشار • ولأن هذا النظام هو جوهر مدينتهم وحياتهم وتاريخهم ، والبؤرة التى عكست مشاكلهم الفكرية والأقتصادية والاجتماعية وحددت علاقة الفرد الأغريقى بدويلته كعضو عامل متواضع فيها بل وراح فلاسفتهم يدعمون هذا النظام ببحثه وباضافة ما استقوه من تجارب الشعوب الأخرى اليه : فضلا عن أنهم راحوا من منطلق قبول نظام دويلة المدينة يعالجون مشاكلهم الأجتماعية داخل هذا الأطارالتنظيمى الذى ظلقائما منذ قيامه حتىتدهورد وسقوطه حتى وعندما اكتسحت مقدونيا بلاد اليونان وضمتها اليها بالقوة ابان القرن الرابع قبل الميلاد فقد ظلت المدن الاغريقية فى صقلية وجنوب ايطاليا تنعم باستقلالها وحريتها حتى قضت روما عليها وشملتها فى دولتها • ولا يمكن أن نفهم نظرية الأغريق فى التفكير السياسى الا من منطلق دويلة المدينة • لأنكل أبحاثهم فى هذا

---

(١) من الخطأ ان نترجم هذه الكلمة بالبرابرة لان معناها الاصلى الأعاجم الذين لا يتحدثون اللغة اليونانية : انظر كتو ـ الاغريق ـ ترجمة عبد الرازق يسرى ص ٥ وما بعدها •

(٢) يرى جلبرت مورى ان الاغريق الأيونيين فى ايونيا هم اول من ادركوا قيمة الوعى الحضارى نظرا لتواجدهم مع الاجانب الشرقيين وأن لفظ هيلينى معناه شبيه بالهللينيين وليس من سلالة الهيللينيين انظر :
Gilbert Murry. Five Stages of Greek Religion, London 1940.
انظر دى بورج المرجع السابق ص ١١٢ ملحوظة (١) .

المجال لم تكن سوى تأملات فى أصل هذا النظام والبحث عن تدعيمه ومعالجةعيوبه ولانجد مفكرا واحدا باستثناء ايسوقراط يتحدث عن الوحدة السياسية لكل الاغريق . ولقد حققت دويلة المدينة لمواطنيها الطابـع الحضارى والفكرى جنبا الى جنب مع الحرية السياسيه وهذا غير موجود فى الممالك والمدن الشرقية .

لقدكان الفكرالاغريقى يجمع بين العملية والواقعية وبين التأمل المثالى وقد تحقق ذلك فى مجتمع دويلة المدينة حيث وجدوا الحلول لمسألة الجمع بين الثقافة والحرية السياسية ، وذلك عن طريقة المساواة والأخاء بين كل المواطنين فى المدينة لا فرق بين الغنى أو الفقير أو الحاكم أو المحكوم . ففى الأودسا (الكتاب السادس ١ — ١٠٩) نجد الأميرة ناوسيكا ابنة الملك تغسل ملابسها مع خدمها ، بل ويحدثنا هيرودوت كيف ان طاغية مدينة ساموس الشهير بوليكراتيس ينادى على احد صائدى الأسماك ليجلس ويشاركه غداءه (١) .

وقد يكون أصل المدينة هو القلعة التى يمكن أن يأوى اليها السكان بقطعانهم من عدوان المغيرين ، لأننا نجد لكل مدينة أكروبول Acropolis أى ربوة مرتفعة هو قلب المدينة الاغريقية القديمة (٢) . ومن داخل القلعة نشأ المعبد التى يجمع الناس حول محراب مقدس للدفاع عن النفس وممارسة شعائر واحدة . ثم عندما تحقق السلام ووثقت الدولة فى نفسها أصبح المعبد يتوسط السوق العامة (Agora) مركز النشاط التجارى والأجتماعى ولكن على ربوة عالية (٣) .

بدأ الأغريق كغيرهم من الشعوب القديمة تفكيرهم الأجتماعى بالأيمان بوجود قرابة تربط بين الآلهة والبشر وفى عصر التوسع والهجرة تطور

---

(١) هيرودوت الكتاب الثالث فقرة ٤٢ .

(٢) الالياذة الكتاب الاول . ٣٦٦ .

(٣) بقيت هذه السمة الى وقت متاخر وحملها الاغريق معهم الى كل مكان حتى فى مصر . فمثلا فى معبد سوخوس فى كرانيس (كوم أوشيم بالفيوم) صنعوا ربوة (اكروبول) من الاحجار بنوا عليها المعبـد فى قلب السوق العامة لهذه المدينة البطلمية .

هذا الالتزام للآلهة الى الوثاق الجماعى الذى يقوم بين عدد من الأفراد لذاتهم ولصالحهم ، ومن ثم بدأت أواصر القبيلة (Phyle) وأصبحت القبيلة هى أصل دويلة المدينة وبالتالى أصبحت أحياء المدينة هى فروع القبيلة مثل البطون Phratriae والعشيرة (Genos) ونشأت العشيرة من مجموعة من الناس اعتقدوا أنهم ينحدرون من جد واحد ويشتركون فى عبادة واحدة وكان لهذه العبادة مقر هو مقر زعيم العشيره . وكان كل فرد يرتبط بالولاء لعشيرته وأصبحت دويلة المدينة هى رمز هذا الولاء ويحس الفرد بهذا الأرتباط وهو فى الحقل أو فى السوق العامة أو فى المعبد . هكذا كان فى مجتمع دويلة المدينة الصغير المحدود يجتمع المواطنون فى اسرات وعشائر يربط بين افرادها والأحساس بقرابة الدم والمساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات ومن أجل الصالح المشترك (To Koinon)

وبعكس ماكان موجودا فى المجتمعات الشرقية الطبقية ، عاش الاغريقى حرا فى الخلاء يتمتع بالشمس المشرقة ويتجول فى السوق العامة (Agora) أو يتفرج على الرياضيين وهم يتمرنون فى ساحة الألعاب الرياضية Palaestra يثرثر بحرية مع الآخرين دون أن يعبأ بالوقت ، بل كان الاغريق يزهو بجسارته فى الحديث (Parrhesia) وهو متحرر من كل تحفظ أو خجل وكان وقت الفراغ (Schole) (١) بالنسبة لهم هو وقت التعلم والبحث وراء المعرفه (٢) وفرصة لاستعراض العقل والموهبة ويقول افلاطون فى الجمهورية أن الجسارة فى الحديث دليل على الديموقراطية فى أرقى وأسمى معانيها (٣) . ولعل المناخ الصحو والعمل بالزراعة فى الهواء الطلق وممارسة الرياضة أو التسكع فى السوق العامة جعل الأغريق

---

(١) انظر : الفريد تزمرن : الحياة العامة اليونانية — السياسة والاقتصاد فى اثينا فى القرن الخامس ، ترجمة عبد المحسن الخشاب مراجعة الأستاذ امين مرسى قنديل سلسلة الالف كتاب (٤٦) لجنة البيان العربى — القاهرة ١٩٥٨ ص ٦٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٧ تعريف البطالة او الفراغ فى اليونانية هو Schole والعمل عندهم هو عدم الفراغ Ascholia ومن الجدير بالذكر ان من Schole اشتقت كلمة مدرسة School .

(٣) الجمهورية ٨ فقرة ٥٥٧ .

يقضون معظم وقتهم خارج المنازل مما خلق حياة اجتماعية قوية بعكس المدن الصناعية فى مجتمعاتنا الحديثة .

لكن بالرغم من هذا فقد كان الاغريقى رجل عمل عملى ، فالفضيلة (Arete) عنده هى الموهبة العقلية والنجاح والكفاءة فى العمل قبل السمو الخلقى وصورة الرجل القوى الناجح هو النموذج الذى يستهويه . ولهذا قام التنافس العقلى والبدنى بين المواطنين خالقا بذلك المعاناة والقلق من أجل الفوز والانتصار والنجاح . وكما يقول بيريكليس كان المواطن يخدم «كما لو كان بدنه ملكا للدولة»؛لأن الاغريقى اعتقد أنه يعيش من أجل خدمة الوطن . وكانت الأسرة الأغريقية أقل تماسكا بكثير من الاسرة الرومانية فالزوجة الأثينية حبيسة البيت كالمرأة الشرقية ولا وزن لها ولا تتمتع حتى بالجنسية ، والأبناء كانوا متحررين من سلطة آبائهم ويتركون البيت عندما يصلون الى سن الرشد .

كانت دويلة المدينة هى دولة السوق العامة (Agora) ، تلك الساحة التى كانت بمثابة قلب الحياة الاجتماعية والتجارية وتحيط بها أروقة Stoa [1] ذات بواكى وأعمدة مسقوفة تظل الناس من حرارة الشمس ، هى عالم وحياة المواطن الاغريقى العزيز الى نفسه ، مما ساعد على خلق قانون خلقى جماعى (Ethos) بين الرجال يدعو الفرد للقيام بدور ذى قيمة فى حياة مجتمع دويلة المدينة الذى كان يحدد واجبات الفرد الخلقية والدينية دون أن يعيق ذلك واعز التقدم العقلى عنده . وكانت حرية التخاطب والنقد صفة ذاتية للمواطن ليس لها أى علاقة بالنظم السياسية ولهذا قيل أن الديمقراطية الأثينية كانت نتيجة لهذا النقاش الحر وليس سببا له . ولهذا احتقر الرومان — الذين يفضلون العمل فى صمت — الأغريق ووصفوهم بالشعب الثرثار . لقد كان الاغريقى يثرثر فى أى شىء سواء كان أمرا تافها صبيانيا أم أمرا فى غاية الخطورة مثل القانون والحق والحرية ومشكلة الحكم ، والواجب الخلقى

---

(١) كثيرا ما استخدمت هذه الأروقة بواسطة الفلاسفة والخطباء وأصحاب النظريات لممارسة رسالتهم حتى أن احدى المدارس الفلسفية فى اثينا اطلقت على نفسها اسم الرواقية نسبة الى الرواق .

أو الفضيلة وفى طبيعة الأشياء وفى الفن والشعر والأدب بعمق وجدية ، ولهذا استوعبوا جيدا عالم الطبيعة .

كانت دويلة المدينة بالنسبة للاغريق هى المثل الأعلى الذى يجب أن تكون عليها حياة الشعب المتحضر . وكان مفهوم السعادة والصلاح والتقوى (Eudaimonia) عند المفكرين جميعا هو التفانى فى أداء الواجب من أجل المدينة وقد عبر هيرودوت عن ذلك صراحة فى روايته عن كريسوس كما عبر عنه كذلك شعراء المأساة الآثينيين ابان القرن الخامس ق.م. ولم يتزعزع ايمان الفلاسفة الاغريق أبدا بقيمة دويلة المدينة وبأن الحياة فيها هى الحياة التى تستحق العيش . ويروى لنا أفلاطون فى محاورة كريتون (Krito) كيف رفض سقراط الهرب من السجن قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه بشدة موضحا أن الهرب من قانون دويلة المدينة حتى وان كان جائرا جرم أخلاقى لا يغتفر شبيه بتعدى الابن الشاب على أبيه الهرم ، وبالرغم من أن افلاطون قد أقر واعترف بفساد نظم دويلات المدن فسادا لا يمكن تقويمه الا أنه جعل تصوره للمجتمع الفاضل يقوم فى مدينة فاضلة (Polis) (١) أما أرسطو فيعترف فى كتابه السياسية أن دويلة المدينة وحدها هى التى تحقق العيش الطيب وأن الانسان حيوان اجتماعى بطبيعته (٢) . وأن وظيفة المشرع الحق هى وضع أسس الصلاح الخلقى للمواطن وتعليمه من أجل النهوض بواجباته تجاه دويلة مدينته (٣) .

لقد كانت دويلة المدينة هى المصباح الذى يشع كل عناصر المعرفة (٤) الأغريقية من فن ومعمار وأناشيد ومسرحيات مأسوية أوكوميدية وابحاث علمية وفلسفية ، وفنون وصناعات مهنية ، وعواطف دينية وأخلاقية ،

---

(١) افلاطون الجمهورية ٥ : ٤٧٠ .

(٢) ارسطو السياسة ١٢٨٠ ب ، ١٢٥٢ ب .

(٣) السياسة ١٢٥٣ ا .

cf. E. Barker. Greek Political Thought, London Paperbacks 1960, P. 12 ff.

كذلك الناصرى : المرجع السابق ص ٣٤ .

(٤) وقد طور الرواقيون فيما بعد فكرة دويلة المدينة الى الجمهورية العالمية وطورها كتاب المسيحية الى مدينة الله

وهى الملهم للدساتير والقوانين ومن أجلهـا خاضوا الحروب وصنعوا السلام •

ومن ناحية أخرى قد يأخذ البعض عى الحريه اللامحدودة للمواطن أنها أعطت فرصة للطموح الشخصى والانهازية السياسية والأنانية الذاتية مما خلق عوامل التفكك والحزبية وقد ذكر لنا هيرودوت ملحوظة ساخرة قالها أحد ملوك الفرس عن الاغريق « هؤلاء الذين يتقابلون فى السوق العامة يراوغ بعضهم البعض بالوعود الجوفاء والخاوية » (١) • وقد أدت الحزبية الى الصراع الداخـلى المرير والفوضى الداخليـة (Stasis) التى جعلت الحروب ظـاهرة عادية بين المدن على طول تاريخ الاغريق ، وبالطبـع دفعت الحضارة الاغريقيـة ثمن هـذه الحروب باهظا كما أن نظـام دويلات المدن وقف عائقا مانعا دون وحدة بلاد الاغريق • ولما أدرك الاغريق أن قدرات دويلات المدن محدودة بعد أن فات الوقت لجأوا الى الأحلاف الدينية مثل الحلف الأمفكتيونى فى القرن السابع ق•م أو أحلاف سياسية مثل الأحلاف الآخية أوالأيتولية فى القرنين الرابع والثالث ق•م ولكن حتى هذه الأحلاف فشلت ودفع الاغريق الثمن عندما وجدوا أنفسهم يقعون فى حوزة الامبراطورية الرومانية • نعم لقد استيقظوا ولكن كان الوقت متأخرا •

ارجوس ودورها المبكر وافولها السريع :

تقع أرجوس تقريباً وسط جنوب السهل الذى يعرف باسمها والمعروف بالسهل الأرجوسى (Argolis) والذى يشمل المنطقة الشمالية الشرقية من شبه جزيرة البيلوبونيسوس • حيث كانت هذه القرية الصغيرة تقع على مسافة ثلاثة أميال من خليجها وعلى سفح جبل لاريسا (Larissa) الخالد والذى ذاع صيته منذ أيام الحضارة الموكينية بل وابان العصور الكلاسيكية كما ضمت هذه القرية داخل أسوارها مرتفعا آخر هو تل أسبيس (Aspis) وفوق هذين المرتفعين اللذان يكونان المدينة أمكن تتبع حضارة قديمة منذ

(١) انظر كتابى : الحرب والمجتمع القديم ـ سلسلة المكتبة الثقافية (٢٨٧) ١٩٧٢ ص ٦٨ •

العصر الموكينى ، كما تذكر الألياذة اسم مدينة أرجوس كمملكة للبطل ديوميـــديس (Diomedes) أحـــد قادة الآخيـــين فى الحـــرب ضـــد طروادة . وقد لعبت أرجوس دوراً كبيراً فى هذه الحرب مما يدل على أنها كانت فى ذلك الوقت مدينة كبيرة وقوية وغنية .

ولما هبط على شبه جزيرة البيلوبونيسوس جحافل الدوريين سقطت أرجوس مثل غيرها من مدن الحضارة الموكينية . وتروى الأساطير أن تيمينوس (Temenos) أكبر أحفاد هيراكليس جعلها مقراً له . واتخذ الدوريون من أرجوس قلعة متقدمة اهاجمة شمال شرق البيلوبونيسوس وتدمير المدن الموكينية فيها ، وبعد دمار المدن الأخرى بقيت أرجوس أكبر القرى فى هذه المنطقة وتطورت حتى أصبحت مدينة وظلت كذلك حتى نهاية القرن الثامن وأوائل القرن السابع ق . م عندما بدأت أسبرطة فى الظهور والتطور ثم انتزعت منها السيطرة والنفوذ فى البيلوبونيسوس وربما كان هذا سر العداوة بين المدينتين . ومهما يكن من أمر فان أرجوس شهدت أعظم أيامها بعد عام ٦٧٥ ق . م عندما تولى حكمها ملك قوى أسمه فيـــدون (Pheidon) أستطاع أن يعيد لأرجوس مجدها وقوتها بل أستطاع أن يسحق أسبرطة وانتزع منها ممتلكاتها وما سلبته من أرجوس ونحاها عن زعامة البيلوبونيسوس . وذلك بعـــد معركة هوسياى (Hysiai) فى عام ٦٦٩ (١) .

ويقال أن الملك فيدون هو الذى نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى أرجوس فهو الذى وضع أساساً للمعايير والموازين التى ظل معمولا بها فى المدينة حتى القرن الرابع ق . م كما يروى أن الملك فيدون هو أول من سك عملة من فضة حسب النظام الذى كان سائدا فى جزيرة ايجينا (٢) .

---

(١) ولكن بعض المؤرخين يشكون فى حقيقة هذه المعركة انظر: —
Theodore Kelly, «Did The Argives defeat the Spartans at Hysiai in 669 B.C. ?» American Journal of Philology, Xci (1970), p. 31-42.

(٢) cf Huxley in Bulletin des Correspondence Hellenique, (1958), p. P. 568 ff.

من الواضح أن الملك فيدون قد نجح فى تنحيــة أسبرطة عن زعامة البيلوبونيسوس فعلا وهزمها هزيمة ساحقة بعد عام٦٦٩ق٠م لأنه سار بعد ذلك بجيشه مخترقا البيلوبونيسوس غربا حتى مدينة أولمبيا المقدسة حيث استولى عليها بعد أن انتزعها من مدينة ايليس Elis وترأس الألعاب الأولمبية فى ذلك العام • ويفسر بعض المؤرخين هــذه القفزة الجديدة لمدينــة أرجوس بأنها جاءت نتيجة تطويرها لنظام الجيش وتكتيكها العسكرى ويقولون أن الملك فيدون هو أول من أوجد نظام الجنود المشاة المسلحين بالدروع والحراب أو ما يعرف بالهوبليتيس (hoplites) بدلا من نظام الفرسان الذى كان يسيطر عليه النبلاء ويقولون أن فيدون هو أول دكتاتور ظهر فى بلاد اليونان (١) وأســقط حكم الارستقراطيين وأحيــا الدولة وجعل لها ديناميكية هى التى حققت لها هذا التوسع السريع وأن أرجوس قد ضربت المثل الذى اتبعته مــدن اليونان فيما بعــد • ويدعم هؤلاء المؤرخون رأيهم هذا بأن نهضة أرجوس جاءت سريعة كما أن مجدها قد مات بموت ملكها فيدون ، حيث ورثت اســبرطة عنها كل الخبرة العسكرية وفنها القتالى الذى جعل من الأخيرة الأسطورة الخالدة والمدينة التى لا تقهر ردحا من الزمن •

كذلك فان ظهور مدينة كورنثا فى الشمال حد من قوة أرجوس بل فت فى عضدها وعلى أى حال اكتنف الغموض والعزلة أرجوس بعد أن أصبحت مدينة محدودة مقلمــة الأظافر ، تعزى نفسها بالاشراف على الأماكن القديسة ذات المجد الموكينى مثل موكيناى وناوبليا (Nauplia) وتيرنز (Tiryns) وغيرها من القلاع والحصون المنتشرة فى السهل الأرجوسى •

ومن الجدير بالملاحظة أن أهل أرجوس لم ينسوا أبدا هزيمتهم على يد أسبرطة ولهذا ظلوا يكرهونها فى قلوبهم ويتعاطفون مع أثينا عدوة أسبرطه التقليدية فيما بعد ومن أجل ذلك قلدوا أثينا فى نظامها السياسى المعروف باسم الديمقراطية الأثينية بل تحالفوا معها ووقفوا الى جانبها

---

(1) cf. A. Andrews . The Greek Tyrants, Hutchinson (University Libravy, Reprinted 1966,) p. 39 ff,

فى عدة مناسبات ضد أسبرطه . ولما وصلت جحافل الملك فيليب المقدونى الى البيلوبونيسوس خرجت أرجوس لتستقبله وترحب لمقدمه ، أملا فى سحق اسبرطة التى وقفت موقف العداء من الملك المقدونى .

لقد قامت أرجوس بدور سريع ولكنه حيوى فى تطور تاريخ وحضارة بلاد اليونان فقد كانت المدينة معروفة بأنها مركز عبادة الربة هيرا زوجة رب الأرباب زيوس . ومن ثم أقام أهلها معبدا كبيرا عرف بمعبد هيرا (Heraeum) على بعد ستة أميال شمالا من المدينة .

كذلك فان فنانى أرجوس قد ساهموا بدور كبير فى وضع اللبنات الأولى للفن الاغريقى خاصة فى النحت فى عصره المبكر فى أوائل القرن السابع ق. م ولكن تدهورت هذه المدرسة الفنية عقب الانهيار السياسى الذى حاق بها بعد موت فيدون . ولكن بالرغم من هذا نسمع فى القرن الرابع ق. م أن أرجوس كانت الموطن الذى أخرج أكبر نحاتى الفنون الاغريقية من أمثال بوليكليتوس (Polycleitus).

حركة الادماج السياسى وقيام المدن :

وفى نفس الوقت التى كانت أرجوس تزدهر فيه كان يسود بلاد اليونان حركة الأدماج السياسى Synoekismos . فقد كان يتم فى ذلك الوقت ادماج بعض القرى ادماجا كاملا من أجل تكوين مدينة جديدة أو نجد قرية صغيرة تصبح أما للقرى التى حولها حيث تقدم الحماية لفلاحيها ساعة الخطر للهرب والاحتماء داخل أسوارها . وفى حالات أخرى نجد بسكان عدد من القرى الصغيرة يهجرون قراهم ويخرجون معا فى وقت واحد أو متلاحق ليؤسسوا مدينة واحدة ومشتركة . كما نسمع عن حالات أقام فيها سكان بعض القرى سورا كبيرا حولهم ، وأعلنوا عن قيام مدينة جديدة وبتأسيس هذه المدن (Poleis) خبرت بلاد اليونان حياة جديدة حياة المدن ومجتمعاتها . وأصبحت المدينة (Polis) النواة الأساسية والاجتماعية والاقتصادية للحياة فى بلاد اليونان التى خبرت حياة المدن ومجتمعاتها والتغيرات التى طرأت على الحياة نتيجة لقيام دويلة ومجتمع المدينة (Polis) . أن هناك من يرى أن التاريخ الفعلى للحضارة لم يبدأ الا بعد قيام المدن وما تلا ذلك من ثورات

اجتماعية متتالية ومترابطة وأن تلك الثورات بدأت بالتحول التدريجي للقرية كوحدة سكنية وكمجتمع صغير الى مدينـة ذات نظم اجتماعي أكثر تعقيدا من مجتمع القرية البسيط ثم قيام المدن بدور منارات الثقافة والحضارة ونشرها فى أجزاء متفرقة من العالم .

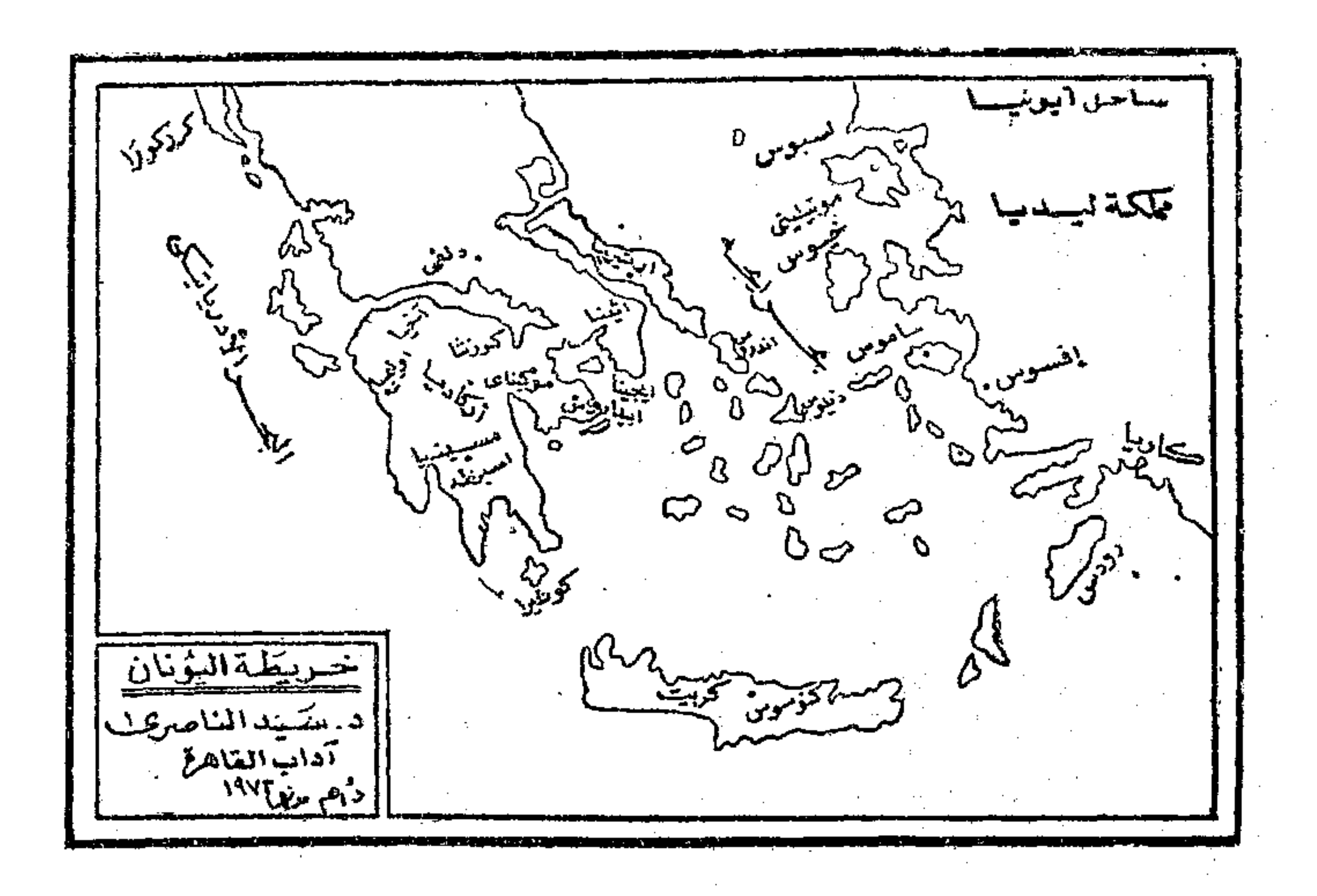
أن فكرة انشاء المدن فكرة ضاربة فى القدم ترجع الى أواخر الألف الرابع ق. م . وابان الألف الثالث ق. م. بعد أن تغلب الانسان على مشكلة الغذاء وتحول من مستهلك الى منتج له . بل أصبح يعرف كيف يحصل على معدن البرونز بخلط النحاس بنسبة معينة من القصدير لتجعله أكثر صلابة . وقد بدأت هذه الثورة الانسانية فى الشرق الأوسط . فى بابل وأشور ومصر وسوريا وليس هناك من يشك فى أن فكرة المدينة جاءت الى بلاد اليونان من الشرق الأوسط .

ويعرف تشايلد ثورة المدينة بأنها النجاح فى أرغام الفلاحين والعاملين بالزراعة على انتاج كميات تفيض عن الحاجة الاستهلاكية اليومية فظهرت بالتالى مشكلة العرض والطلب والبيع والشراء وتلى ذلك ظهور مئات المهنيين والاداريين وغير ذلك من التصنيف التلقائى للمجتمع (١) .

كان من أهم النتائج التى أحدثها قيام مجتمع المدينة هو التحام الناس بعضهم ببعض وقد أدى الالتحام الى التعامل والتصاهر والتفاعل وقيام المعاملات . وقد أدى ذلك الى رواج التجارة ومن ثم أصبح هناك حاجة ملحة لايجاد نوع من الكتابة خدمة للتجارة ولا يغيب عن أذهاننا أن أقدم الوثائق الكتابية الموكينية كانت سجلات حسابية ومعاملات وهكذا فتح تأسيس المدن الباب أمام الحضارة والخلق والابداع .

على أى تميزت فترة البعث الجديد فى بلاد اليونان بظاهرة قيام المدن وانتشارها عبر الوديان والجبال وأصبحت بلاد اليونان مجموعة من المدن المستقلة . وقد أدى وعورة التضاريس الى صعوبة الاتصال بين هذه المدن مما أدى الى انعزالها واعتمادها على نفسها . بل أن الانعزال أدى الى التنافس والتقاتل . لقد اعتبرت كل مدينة نفسها دويلة مستقلة ذات سيادة

(1) V. G. Childe . Man Makes Himself, London 1936.



ساحل أيونيا
مملكة ليديا
لسبوس
كركورا
دلفي
أثينا
كورنثا
إفسوس
ساموس
كاريا
رودس
كنوسوس
كريت
كوثيرا
خريطة اليونان
د. سعيد الناصري
آداب القاهرة

مستقلة وتعتمد على اقتصادها اعتمادا ذاتيا لأنها لا تريد التعامل مع جيرانها • كما أن تجمع المواطنين أدى الى قيام الوعى السياسى وأصبح هذا المجتمع ينقد سلوك الملك ، كذلك أدت زيادة كثافة السكان ونشاط التجارة الى تشجيع المواطنين على الهجرة والبحث عن أرض جديدة • أن قيام المدن المستقلة بعد بعث بلاد اليونان فى عصرها الجديد كان ثورة كبرى •

بروز مدينة دلفى كمركز روحى لكل الاغريق :

تقول الأساطير الاغريقية ، أنه بعد مولد الاله أبوللون فى جزيرة ديلوس سافر هذا الآله الى بلاد اليونان ليبحث عن بقعة مقدسة يقيم عليها معبده الكبير ، وراح الآله يتجول الى أن وصل الى سفح جبل برناسوس وهناك صاح الاله قائلا « هنا سيرتفع معبدى وستزينه مهارة الفن من كل جانب وستملؤه بالجمال ، وسيصبح مركزا لاعطاء العرافة وسوف يأتى الناس الى دلفى طلبا للمشورة الربانية من كافة بلاد اليونان ومن الجزر التى تغسلها أمواج البحر وتنتشر فيه » •

كذلك تروى الأساطير أنه كان يعيش فى هذا الوادى تنين ضخم اسمه بيثون Python كان يسكن أحد كهوف الجبل المظلمة • وتقول ان هذا التنين لم يكن الا ابن الأرض ، ولما كان قاسيا وشريرا فقد رماه أبوللون بوابل من سهامه الذهبية وبذلك طهر الأرض من خطره ، ولكى يعمر أبوللون هذا الوادى تشكل فى هيئة درفيل (dolphin) (١) وقاد سفينة قادمة من كنوسوس فى كريت فى طريقها الى بيبوس فى البيلوبونيسوس وجعل السفينة تسير فى أثره وتدور حول شبه الجزيرة ثم عبر خليج كورنثا لتستقر فى دلفى فى شمال هذا الخليج ويصبح ركابها أول كهنة لمعبده • وربما تدل هذه الأسطورة الشعبية على أن عبادة أبوللون جاءت من كريت ابان العصر الموكينى ودخلت بلاد اليونان بعد أن طردت عبادة بدائية كانت موجودة هناك •

---

(١) ومن الدرفيل delphinis اخذت المدينة اسمها « دلفى » .

cf. John Pollard, Seers, Shrines and Sirens - The Greek Religious Revolution in the Sixth Century B.C., Unwin University books, London 1965, pp. 22-28.

وقام معبد أبوللون الجديد فوق عين كبريتية ساخنة . وسرعان ما أصبح للمعبد عرافة أخذت اسمها من اسم التنين وسميت بيثيا Pythia ومهما كان مصدر الأسطورة فانه ما كادت بلاد اليونان تستيقظ من ركود العصر الذى سادها بعد الغزو الدورى حتى أصبحت دلفى مقصد الزوار والحجاج من طالبى المشورة الآلهية من كافة أنحاء العالم الاغريقى.

وفى العصور الأولى كان يسيطر على المدينة شعب مدينة كريسا (Krisa) الذين كانوا يعيشون فى ذلك السهل الغنى الواقع بين دلفى والبحر . وقد جنى أهل هذا السهل أموالا طائلة لدرجة جعلت المدن الاغريقية الأخرى تحقد عليهم وتزعمت أسبرطه حلفا دينيا هاجم أهل كريسا ودمر مدينتهم وقرر أن يصادر أراضى سهلهم للاله أبوللون ويصبح هذا السهل بورا حرام زراعته . وبعد عام ٥٩٠ ق. م اكتسبت دلفى مركزا دينيا مستقلا وحظيت باحترام مقدس عند كل الاغريق . وامتلأت المدينة بالمعابد المقدسة والتماثيل وخزائن النذور والكنوز ويتوسطها جميعا معبد أبوللون العظيم الذى لم يتبق منه سوى بضع أعمدة . وأعلى المعبد لاتزال أطلال المسرح الكبير تطل على الوادى ويعلوه ملعب السباق (Stadium).

كانت العرافة بيثيا عادة امرأة فى الخمسينيات من عمرها ، تلبس بأردية غريبة وتجلس فوق قائم ذى ثلاثة أرجل (Tripod) ، وعندما يتقدم طالب المشورة يقدم الأضاحى والقرابين ويتلو الصلوات للرب ثم يقوده الكهنة الى حجرة الانتظار . وفى الوقت المناسب يدعى للمثول أمام كاهنة أبولون التى لا تكاد تبدو من أبخرة مياه العين الساخنة ، ويضع طالب المشورة سؤاله أو أسئلته أمامها وتهذى الكاهنة وهى تمضغ أوراق الغار وتثمل من غاز غريب يتصاعد من شقوق فى الصخر وتحتسى المياه الكبريتية وتتمتم بكلمات غريبة يترجمها أحد الكهنة الى أبيات من الشعر السداسى الموزون ويعطيها للسائل . وكانت الاجابات عادة غامضة بحيث يمكن تفسيرها تحت أى ظروف بحيث تبدو الكاهنة صادقة فى كل ما تقول . وكانت المشورات تتنوع من أسئلة شخصية الى أسئلة سياسية وعسكرية خاصة بالدول مثل اقامة المستوطنات أو اعلان الحروب .

ولقد كسبت دلفى مكانة عالية بين الاغريق وتمتع كهنتها بتبجيل ووقار وأحس الكهنة بمدى مسئوليتهم ولهذا كانوا غاية فى الدبلوماسية عند اعطاء أى مشورة ربانية تتعلق بأمور سياسية . وكان لدلفى عيد يحج اليه الاغريق من كافة أنحاء العالم لأن دلفى كانت فى نظرهم مركزالعالم. وقيل أن زيوس كان يطلق نسرين من كل جانب من أطراف الأرض ليلتقيا فوق دلفى وعند « صرة » العالم (Omphalos).

كان مهرجان دلفى يقام كل أربعة سنوات ويبدأ بموكب دينى كبير يسير عبر الطريق المقدس ليصعد حتى معبد أبوللون . وينشد فى هذا الموكب الترانيم المقدسة التى تبتهل الى أبوللون بالرجاء والثناء . كما كان يؤدى خلاله بعض المشاهد الدرامية لصراع أبوللون مع التنين . ولما كان أبوللون رب الموسيقى والقيثار فكان المهرجان يشتمل على مباريات فى العزف والموسيقى والانشاد والرقص تؤدى عادة فى المسرح الكبير . وبعد عام ٥٨٥ ق.م. بدأت دلفى تنافس أولمبيا فى مجال الرياضة البدنية خاصة بعد بناء الاستاد الكبير .

وبازدياد أهميتها أصبحت دلفى مكتظة بالتماثيل المقامة لابوللون ولغيره من آلهة الاغريق تعبيرا عن التقوى من جانب الأفراد والدويلات ويقال أن فى سنة ٦٧ ميلادية نقل الامبراطور الرومانى نيرون خمسمائة من أجمل التماثيل من دلفى الى روما ، وبالرغم من هذا يحدثنا الأديب بلينيوس الذى زار دلفى بعد بضع سنوات من نهب نيرون للمدينة بأنه شاهد مالا يقل عن ثلاثة آلاف تمثال مقامة فى دلفى .

لقد تدهورت أهمية دلفى عندما وقعت بلاد اليونان فريسة فى براثن الاستعمار الرومانى ولم يعد يتردد عليها سوى عدد قليل من الناس هم من بقوا على عقيدتهم القديمة . ولما حاول الامبراطور الرومانى يوليانوس عام ٣٦٠ ميلادية اعادة العقيدة الوثنية بالرغم من انتشار المسيحية فى بلاد اليونان وايطاليا أرسل رسالة الى دلفى يطالب شعبها بأحياء عبادة أبوللون وجاءت نبوءة الوداع التى ترجمها لنا أندرو لانج والتى تقول فى عبارات مؤثرة « قولوا للملك أن المعبد الجميل قد شطر الى نصفين ولم يعد

لابوللون لاسقف يظلل معبــده ولا قدس أقداس يأويه لقد تكسرت أشجار الغار المقدسة وضاعت وأصبحت هشيما وضاع جمال الماء الذى كان يكاد أن ينطق عندما يتفجر من ينبوع دلفى » (١) .

هكذا اختفت دلفى بعد أن لعبت دورا حيويا فى نهضة جديدةلليونان بفعل التجمع الكبير الذى كان يفد الى المدينة المقدسة كل عيد فتصبح ملتقى الاغريق من كل حدب وصوب ، وكأنهم يعقــدون مؤتمرا عالميا لدو لاتهم حيث تحدث العلاقات والصفقات وتتناقل الخبرة والمعرفة وهم يحسون بأنهم أمة واحدة بالرغم من الاندثار والتفكك السياسى الذى فرضـه عليهم نظام دويلات المدن المستقلة . كما يجب ألا ننسى الدور الذى لعبه كهنة معبد الآله أبوللون عندما كان يبعث اليهم بالمشورة قبل ارسال جماعة لاستيطان مكان معين أو اقامة مدينة فيه . وكان يتوجب موافقة الكهنة ومباركة المكان . كما لعبت دلفى دورا سياسيا ســوف يأتى الحديث عنه فى حينه .

الالعاب الأولمبية واثرها على نمو روح القومية الهللينية :

يجد الدارسون للتاريخ والحضارة الاغريقية (الهللينية) فى ظاهرة المهرجانات الرياضية الأولمبية بما تشـمله من مهرجانات ثقافية ومؤتمرات سياسية ظاهرة بديله لفشل وجود عنصر الدولة المتحدة التى تربط بين كل الاغريق وذلك لأن هذه المهرجانات التى كانت مفتــوحة أمام كل الاغريق كانت تربط بين عواطفهم وأفكارهم وعلاقاتهم الفردية والجماعية، خاصة أن الدافع الأول لهذه المهرجانات كان دينيا فى المقام الأول والاشتراك فى مبارياتها كان كظاهرة الحج تماما ولهذا كان للدورات الرياضيــة قدسية ملزمة . اذ كانت تفرض على الاغريق المتحاربين وقف القتال ونسيان الخلاف احتراما لهــذه المهرجانات حتى وان كانت الأطراف المتقاتلة فى أحلك وأعنف مراحل العداوة والبغضاء .

---

(1) cf. Andrew Lang : The last Oracle from Delphi, London (1887).

كان للاغريق أربع مهرجانات كبرى أطلق عليها نظرا لروعتهاوشمولها واستيعابها لأرقى المستويات الرياضـية (Pan-Hellenic) أى « لكل الأغريق وهذه المهرجانات هى :

١ ــ الدورة الأولمبية (Olympian games) نسبة الى مدينة أولمبيا المقدسة .

٢ ــ الدورة الأثمية نسبة الى خليج كورنثا (Isthmos).

٣ ــ الدورة البيثية Pythian games فى مدينة دلفى المقدسة .

٤ ــ الدورة النيمية Nemean games نسبة الى مدينة نميا المقدسة.

وكان يفصل ما بين كل دورة ودورة أربعة أعوام بحيث يكون فى كل عام مهرجان يذهب اليه الناس ولتتناول كل مهرجان على حدة .

اولا (١) الدورة الاولمبية :

كانت تقوم أساسا احتفاء وتكريما لرب الأرباب زيوس Zeus فى قرية أولمبيا Olympia الواقعة فى أقصى الجانب الغربى من شبه جزيرة البيلوبونيسوس . وكانت أولمبيا جزءا من الاقليم الذى تسيطر عليه مدينة بيسا (Pisa). وكان المهرجان يقام فى بقعة مقـدسة عند متلقى نهرى كلاديوس Cladeus والفايوس (Alphaeus) . وكان ينازع مدينة بيسا على أحقية الاشراف على المهرجان الأولمبى مدينة صغيرة أخرى هى مدينة ايليس (Elis) بل أن الأخيرة تمكنت فى بعض الأحيان انتزاع هذا الحق من المدينة الأولى مما أشعل حربا مقدسة بين الأغريق .

لما كانت هذه الألعاب تستمد قداستها من عبادة زيوس فقد اتفق الاغريق على اعتبار فترة بدء المهرجان أياما حرما (eccheira) أى لايجوز فيها القتال أو الحروب وكانت الرسل تخرج من القرية الأولمبية لتعلن بداية الهدنة المقدسة . وذلك لتمكين الرياضين ووفود الحجاج من السفر

---

(1) F. Gardiner : Athletics of the Ancient World, Oxford, 1930, p. 25 ff and pp. 32-33.

برا وبحرا دون أن يتعرض لهم أحد أو يمسهم بسوء ويتلو الاعلان عن بدء المهرجان تدفق جموع الرياضيين والحجاج والخطباء والشعراء وغيرهم من طالبى الشهرة الواسعة أو المصلحة السياسية وسرعان ما تتحول هذه القرية المقدسة الى مدينة تعج بالزوار وتكتظ بالأكواخ والخيام وتسمع فى أزقتها الضيقة كافة لهجات اللغة الأغريقية ولكناتها . وقد ظل هذا المهرجان عوض الأغريق عن فشل الوحدة السياسية بينهم ابان مجدبلادهم حتى بعد تدهورها وسقوطها بين براثن الاستعمار الرومانى والى أن ظهرت المسيحية كديانة رافضة لكل مظاهر الوثنية فأعلن الامبراطور ثيودسيوس Theodosius تحريمها عام ٣٩٤ ميلادية .

كان المهرجان الأولمبى عادة يقام كل أربع سنوات فى القمر الثانى أو الثالث من فصل الصيف إى ما بين شهرى يوليو وأغسطس ، ويوليو هو بداية السنة الاغريقية وأغسطس هو نهايتها . وقد قبل المؤرخون الاغريق فيما بعد التاريخ الذى وضعه تيمايوس Timaeus وهو ٧٧٦ ق. م كتاريخ لأول دورة أولمبية . ولقد استخدم المؤرخون الأغريق هذا التاريخ لتأريخ أعمالهم فيقولون وقع هذا الحدث فى المهرجان رقم كذا . وبذلك أمكن وضع نظام دقيق لتاريخ حوادثهم .

كان المهرجان الأولمبى يستغرق عادة خمسة أيام زيدت ابان العصر الكلاسيكى الى سبعة . تجرى فيها الألعاب الرياضية فى الملاعب المقامة حول المنطقة الحرام . وكان المهرجان ينقسم الى جزئين رئيسيين هما :

(أ) الطقوس والشعائر الدينية :

وفيها يقيم المشتركون فى المباريات وذويهم وممثلو الوفود صلوات الشكر وتقديم الأضاحى بأسمهم وباسم الدولة المضيفة . كما كانوا يؤدون قسما أمام محراب الآله زيوس « حامى العهود » وفوقه خنزير مذبوح وكان القسم يحتوى على صيغة يتعهد فيها المشترك بأنه قضى فترة كافية للتدريب لاتقل عن عشرة أشهر وأنه لم يرتكب أى فعل أو سلوك مناف لقواعد الرياضة والشرف والأخلاق أما القاصرون فكان

أولياء أمورهم يقسمون نيابة عنهم . كما كان يقام فى مدينة ايليس معسكر اعداد لتدريب الذين يشتركون لأول مرة فى هذه المباريات ولتعويدهم على السلوك والروح الرياضية .

(ب) المبـاريات :

بعد أداء القسم ينفخ فى الأبواق ويصيح المنادون ببداية الألعاب ثم يجرى استعراض شامل لكافة المتسابقين فى الاستاد العام (Stadion) حيث ينادي على اسم كل مشترك والمدينة التى يمثلها وكان أصل المباريات هو سباق الجرى ولكن فى عام ٧٠٨ ق. م أدخلت مباريات الألعاب الخمسة (Pentathlon) وهى تشمل الوثب العالى ورمى القرص ورمى الرمح والمصارعة ثم الملاكمة وفى عام ٦٨٠ ق. م أدخل سباق العربات التى تجرها الخيول وصمم المهندسون الاغريق لهذه اللعبة ملعب سباق الخيل hippodrome الذى ما زال قائما فى المعمار الحديث حتى الآن . كما أدخلت مباريات سباق الخيول . وفى عام ٥٢٠ ق. م أدخلت المبارزة كلعبة أساسية .

وكان يشترط لدخول المباريات أن يكون الرياضى رجلا بالغا ولم يسمح باشتراك الصبيان ما دون الرجال الابعد عام ٦٣٢ ق. م بشرط أن يتعهد أولياء أمورهم بأنهم اغريق أحرار ذوى سيرة حسنة وسلوك نظيف . وأنهم ينتمون الى مدينة اغريقية . وقد حرمت اللوائح اشتراك الأجانب فيها . ويذكر لنا هيرودوت حادثة طريفة وهى أن أهل مدينة ايليس المشرفة على الألعاب الأولمبية أرسلوا وفدا الى مصر ابان عصر الملك بسماتيخوس لسماع وجهة نظر المصريين فى تعديل الألعاب الأولمبية فطالب المصريون باشراكهم فى هذه الألعاب ولكن أهل ايليس ردوا على ذلك باعلان أحقية كل الاغريق فى الاشتراك فى هذه المباريات لأنها تتعلق بالديانة الهللينية وردوا على اقتراح المصريين بأنه ليس من العدل أن تحرم هذه الألعاب على بعض الاغريق بينما يسمح للمصريين بالاشتراك فيها (١) كذلك فقد حرمت اللوائح اشراك العبيد فى هذه المباريات ولكن

---

(١) (L) Herodotus, II, 106, cf. F. Gardiner, op. cit., p. 37.

سمحت لهم بحضورها بقصد التفرج عليها بعد استئذان السلطات • أما النساء فقد حرمت اللوائح الدينية عليهن دخول المحراب المقدس وبالتالى حضور ومشاهدة المباريات ولم يستثن من النساء سوى كاهنة معبد الربة ديميتر •

وكان يقوم بالتحكيم لجنة مختارة من القضاة بلغ عددهم اثنا عشرة وكان أعضاء لجنة التحكيم يتميزون بعباءاتهم الارجوانية وبأكاليل أغصان الزيتون التى تتوج هاماتهم كما كان يخصص لهم مقاعد أمامية تطل على الاستاد مباشرة • وكان مهمة لجنة التحكيم الأساسية هى الاشراف على المهرجان وتطبيق القانون والنظام ومنع أى انفعال قديؤدى الى قيام الفوضى والاضطرابات وقبل هذا وذاك التحكيم بين المتبارين دون تحيز •

واذا ثبت لدى قضاة التحكيم أن لاعبا قد فاز بوسائل الغش أو الخداع أو خالف القوانين واللوائح فانه يعتبر خاسرا ويحرم من الاشتراك مدى الحياة فى المباريات الأولمبية بالاضافة الى غرامة مالية كبيرة يدفعها للمشرفين الماليين لمعبد الاله زيوس •

كانت المباريات تجرى على أنغام المزامير تشجيعا للمتنافسين حتى يتم تصفيات المشتركين لتنتهى المباراة بالفائز الأول ويحوز الفوز بانسحاب المتبارين ثم يعلن عن الفائز النهائى وعن اسم المدينة التى جاء منها وسط التهليل والموسيقى • هكذا كان الحال طوال الأيام الخمسة وفى اليوم الأخير يتم توزيع الجوائز فى حفل كبير يشهده جموع النظارة والوفود التى يستقبلون الفائزين بالهتاف والتصفيق ويلقبونهم بأبطال المباريات الأولمبية (Olympianikoi) ثم ينادى على كل فائز فيتقدم لتسلم جائزته وهى أكليل متواضع من شجرة الزيتون المقدسة • ثم يختتم المهرجان بحفل كبير يقدم فيه الفائزون الأضاحى والقرابين فوق مذبح زيوس وقد وضعوا فوق رؤسهم الأكاليل ثم يتلو ذلك وليمة كبرى تقام على شرفهم فى قصر الرئاسة (Prytaneum).

وعندما يعود الفائز الى مدينته يخرج الناس عن بكرة أبيهم لاستقباله لأنه رفع رأسهم وكرامتهم بين باقى المدن ، وكان البطل يدخل المدينةوهو ملتف بعباءته الأرجوانية تحيط به جموع الناس وهم يرقصون وينشدون الأناشيد التى كان كبار الشعراء من أمثال بندار ينظمونها خصيصا لهذه المناسـبة •

ثم يتوجه الركب بعد ذلك الى معبد المدينة الكبير حيث يخلع البطل آكليل الزيتون من فوق رأسه ويقدمه قربانا لهذا الاله ثم يذهب بعد ذلك لتسلم جائزته من سلطات المدينة وكانت عادة مبلغا ماليا كبيرا الى جانب عدة امتيازات شرفية أخرى كالجلوس فى المقاعد الأمامية فى المسارح والمباريات وفى مدينة أسبرطة كان يسمح للبطل الأولمبى بشرف القتال بجوار الملك فى الحرب •

ثانيا : الدورة البيثية فى دلفى Pythian games (١) :

وهى تلى الألعاب الأولمبية فى الأهمية وكانت تقام فى مدينـة دلفى Delphi موطن الاله أبوللون رب الشباب والرياضة والموسيقىوالشعر والعرافة • ويقال أنها بدأت بعد عام ٥٨٦ ق• م بعد الحروب الدينيـة الطاحنة وقد نشأ هذا المهرجان أساسا من الاحتفالات الدينية التى كانت تقام لأبوللون حيث يتبارى الشعراء والمنشدون فى مديح الاله على أنغام القيثارة • وبعد انشاء المجمع الامفكتيونى المقدس عدل هذا المهرجان فأصبح يشمل مباريات رياضية مثل المباريات الأولمبية تماما الى جانب مباريات الموسيقى والغناء والشعر • وقد أخذ المهرجان اسمه من أسطورة تتحدث عن الصراع بين أبوللون والتنين المسمى بيثون Python رمز الشر وهوو يعادل الاله ست عند المصريين القدماء • وانتصار أبوللون على رمز الشر وقتله بوابل من سهامه • وكان هذا المهرجان يقام كل أربعة سنوات فى شهر بوكاتيوس Bucatius (شهر أغسطس تقريبا) • من

---

(١) ربما سميت بذلك الاسم نسبه الى لفظ بيثو Python وهو اسم قديم لمعبد ابوللون لان ابوللون صرع تنينا ضخما كان يسكن تلك المنطقة يسمي بيثون واصبحت كاهنته تعرف باسم بيثيا « اي البيثية » .

السنة الاغريقية • وكان يتبع نفس الاجراءات الذى كان تتبع فى المهرجان الأولمبى الذى سبق الحديث عنه • الا أن لجنة التحكيم كانت تنتخب من أعضاء المجمع الأمفكتيونى المقدس • وكانت الجائزة اكليل بسيط من شجرة الغار وهى الشجرة المقدسة عند أبوللون يؤتى بها من وادى تمبى الشهير فى أقصى اقليم تساليا ، وكان يشارك فى هذا المهرجان جموع غفيرة من الاغريق تذهب بقصد انتهاز الفرصة وطلب العرافة من كاهنته الشهيرة بيثيا Pythia ويعتقد العلماء أن هذا المهرجان قد توقف بعد عام ٣٦٤ ميلادية •

ثالثا : المهرجانات الاسمية (Isthmian games) :

وكان يقوم على شرف اله البحر بوسيدون Poseidon فى ساحته الشهيرة عند خليج كورنثا (isthmos) • وكانت مدينة كورنثا تشرف على هذا المهرجان ولكنها كانت تعطى مدينة أثينا منزلة خاصة فى ادارته • أما موعده فكان نهاية فصل الربيع (بين أبريل ومايو) كل أربعة أعوام وقد اتبع فى اجرائه نفس الخطوات فى المهرجانات السابقة الذكر •ويروى لنا المؤرخ الاغريقى توكوديديس أن الحروب البيلوبونيزية اضطرت للتوقف عام ٤١٣ احتراما لهذا المهرجان المقدس بالرغم من أن الحرب كانت فى أشد مراحلها وكان ترتيب المهرجانات الاسثمية يلى الدورة الأولمبية مباشرة من ناحية الترتيب الزمنى • وكانت الجائزة التى توزع على الفائزين هو اكليل من شجرة البلوط •

رابعا : المهرجانات النيمية :

وكانت تقام فى سهل نيميا الذى يشرف عليه مدينة كليوناى احدى مدن اقليم أرجوس حيث يوجد غابة مقدسة يتوسطها معبد صغير لزيوس • وكان هذا المهرجان فى الأصل العابا جنائزية Funeral games كان تقام على شرف صبى روت الأساطير أنه قتل ابان حملة السبعة ضد طيبة • ثم طورت بعد عام ٥٠٠ ق• م• لتصبح على نمط المهرجان

الأولمبى . وكان الفائز يعطى اكليلا من شجرة الصفصاف التى تكثر فى هذ ه المنطقة وكان لها قداستها عند زيوس .

تعليق على اهمية المهرجانات الرياضية فى تطور الحضارة والعلاقات بين المدن الاغريقية :

هكذا يتضح أنه لا يمر عام حتى كان الاغريق (١) يحتفلون بمهرجان رياضى وكان رياضيو الدويلات الاغريقية يتعطشون للفوز فيها طمعا فى التكريم المعنوى والمادى والذى قد يصل الى مرتبة القداسة فى بعض الأحيان حيث تقام للفائز التماثيل وتنظم فى سيرته الأشعار . مثل الرياضى الأسطورى ثياجنيس بطل جزيرة ثاسوس Thasos والذى نسبت بنوته الى الآله أبوللون نفسه .

لقد ساعدت ظاهرة التجمع سنويا عملية الاتصال والتفاعل الحضارى بل أن هذه المهرجانات أخذت شكلا وأهمية خاصة كوسيلة من وسائل الاعلام والاتصال بل ونشر الدعاية وتعريف الناس بموضوعات معينة ولهذا حرص الأدباء والشعراء الناشئون على حضورها أملا فى الحصول على الشهرة بين كل الدويلات الاغريقية . كما أن جموع النظارة كانت تتحمل مشقة السفر لا من أجل مشاهدة أبطالهم الرياضيين فحسب ، بل لمشاهدة مشاهير رجالات الفكر والفن والسياسة والأدب . فمثلا نسمع أن الخطيبين الشهيرين لوسياس وايسوقراط استعرضا بلاغتهما الخطابية فى هذه المهرجانات . كما أن هناك أدلة واضحة على أن بعض مشاهير الرجال الاغريق من أمثال الجنرال ثمستوكليس والفيلسوف أفلاطون قد زارا القرية الأولمبية ويقول لوكيان أن هيرودوت قرأ على الناس باكورة مؤلفاته فى التاريخ ابان المهرجان الأولمبى . كما يروى الكاتب الرحالة باوسانياس أنه شاهد فى القرية الأولمبية تمثالا برونزيا للفيلسوف السوفسطائى جورجياس (وموطنه الأصلى مدينة ليونتينى (Leontini) فى صقلية أقيم تكريما له لا متاعة الناس ابان المهرجان ببلاغته ومقدرته على الجدل .

---

(١) أنظر : د . سيد احمد على الناصرى : الالعاب الاولمبية القديمة مجلة الجمعيـــة التاريخية ــ المجلد الحادى والعشرون ١٩٧٤ ص ٣٠ وما بعدها .

كانت تجمعات الاغريق من كل حدب وصوب ولأيام عديدة كثيرا ما تؤدى الى المصاهرات والمعاملات والتآلف بعد أن يتناسوا الخلافات الفتاكة بين مدنهم . ولقد كانت هذه الجماهير المتحابة المتآلفة تجسيما للقوميـــة الهللينية بكل صورها وقد نشر الخطيب ايسوقراط — نبى الوحدة الاغريقية — خطبة سياسية بمناسبة العيد المئوى للالعاب الأولمبية وضح فيه أهمية هذه المهرجانات يقول فيها « يتوجب علينا أن نثنى على هؤلاء الذين أوجدوا لنا هذه المهرجانات (أو أعياد الثناء كما سماها (Paneg ric) وخلفوا لنا هذا التراث فبفضلهم أصبحنا نجتمع فى مكان واحد بعد أن نعلن هدفه ونتوقف عن القتال ونتلو الصلوات ونقدم الأضاحى للآلهة ونحن نحس فى نفوسنا أننا من أصل واحد . هناك يحسن كل منا معاملة الآخر من أجل المستقبل ونعيد ممارسة عاداتنا المضيافة القديمة بل ونكون علاقات جديدة . وليست هذه اللقاءات مضيعة للوقت لا لجماهير النظارة ولا لشخص الرياضى ذاته ، فهذا الأخير يستعرض أمام الاغريق المجتمعين مواهبه الطبيعية أما الجمهور فيجد لذة وسرورا فى مشاهدة هذه المواهب وليس هناك ما يهدد بأن أحدالمتسابقين سوف يضيق ذرعا بمنافسة لأن كل فريق سوف يجد ما يرضى كبرياؤه (الرياضية) عندما يشاهده الجمهور وهو يبذل أقصى طاقته لادخال السرور عليه وعندما يدرك الرياضيون أن كل هذه الجموع المجمعة قد جاءت لمشاهدته والتعبير عن اعجابها له (١) .

حقا لقد كانت جوائز المتسابقين بسيطة ولكنها كانت حلم كل رياضى أن يتوج منتصرا كالآلهة أمام جماهير غفيرة ممثلة لكل بلاد اليونان وفى محراب رب الأرباب وبحضور كبار رجال السياسة والفن والأدب .

لقد كانت كل أسرة اغريقية تفتخر بانتصارات أبنائها فى المباريات الرياضية ويحدثنا الأديب والسياسى الرومانى الشهير شيشيرون (Cicero) بأن رياضيا من جزيرة رودس اسمه دياجوراس Diagoras قد اشتهر بفوزه فى كل مباريات الملاكمة لدرجة أن الشاعر بندار نظم له شعرا

(1) Isocrates : Panegyric.

يتغنى بانتصاراته ابان الدورة الأولمبية ، ويستطرد شيشيرون فيروى أن هذا الملاكم طال به العمر حتى سمع بفوز أحد أحفاده فى مباريات الملاكمة فى أولمبيا . وذات يوم دخل عليه رجل من منطقة لا كونيا ليهنئه على فوز حفيديه قائلا « تستطيع الآن أن تموت يادياجوراس وأنت مرتاح البال لأنك لن تبتهج ببهجة ربانية أخرى مثل هذه البهجة » (١) .

والواضح أن شيشيرون أراد أن يعنى أن هذا الرجل (الذى هو من منطقة لاكونيا الشهيرة بحب رجالها فى التعبير بما قل ودل) أراد أن يحذر الشيخ الرياضى من حقد الآلهة وغيرتها منه اذا ما عاش فترة أطول ليشاهد انتصارات أخرى يحرزها أبناؤه وأحفاده فى المهرجانات الأولمبيـــة .

قيام وسقوط الحكم الارستقراطى (من منتصف إلى منتصف القرن السابع ق.م) :

فى عهد ملوكهم تمكن الاغريق من غزو شواطىء آسـيا ا_ __ والجزر المتاخمة له وتمكنوا من اقامة نظام دويلات المدن (Polis) الفريد فى نوعه . فقد أوجد هذا النظام _ رغم عيوبه _ نوعا من الوعى السياسى واشراف الجماعة على مصالح المدينة . ومن ثم وجد ملك المدينة (Basileus) نفسه تحت رقابة شعبية . بل وأصبح لا يخلو موقفه من النقد والحساب ولم يعد الملك كما لقبه هوميروس « راعى شعبه » بل أصبح تحت رحمة رضاء شعبه وبالذات الأغنياء الارستقراطيين منهم . وشهد القرن الثامن ق.م تدهور نظام الملكيات المستبدة وقيام الجمهوريات التى يحكمها الارستقراطيون وانتشرت هذه الثورة الصامتة فى كل أنحاء بلاد اليونان لقد حددت سلطات المـلوك وقلمت أظافرهم وتحـول « الملك » الى « موظف كبير » ليس فى يده كل السلطات مثلما كان الحال فى أسبرطة . فمثلا ترك للملك السلطة الدينية ومنصب كبير القضاة دون أن يحتكر لا القضاء ولا الشئون الدينية لنفسه .

وعلى أى حال نسمع بعد سقوط الملوك عن أسماء أسر استقراطية

(١) Cicero : Disputations Tusculanae, I, 46, iii.

حكمت بعض المدن الاغريقية مثل أسرة آل باخياس Bacciads في كورنثا وبالتالي فان هذا الحكم الجديد لم يكن جمهوريا بمعنى الكلمة بل كان أوليجارخيا « فقد كان الأرستقراطيون في هذه الفترة عضد الدولة وعصبها فهم كانوا يولدون ليحكموا بظروف المولد والتعليم والاعداد والحق يقال كان حكم الأرستقراطية الأوليجارخية أكثر كفاءة وقدرة في ادارة شئون الدويلة من النظام الملكي . ولهذا فقد كان عهدهم عهد ازدهار في العمران والفنون والتجارة والصناعة . فهم الذين أنشأوا المدن والمستوطنات فيما وراء البحار نشرا لسلطان دويلاتهم السياسي. ولهذا فهم الطاقة الديناميكية وراء حركة الاستيطان والانتشار الكبرى. الى جانب ذلك فان الأرستقراطيين هم الذين وضعوا أسس الدولة وشروط الوظائف ومدة صلاحيتها وتوزيع السلطة وتحديدها حسب كل وظيفة . لقد وضع الأرستقراطيون أساس التشريع والقانون الثابت عن طريق تقنين العرف والتقاليد ولم يعد مصير الانسان رهنا بمزاج الحاكم أو القاضي. بل أصبح القاضي والحاكم مقيدين بقواعد تشريعية يحكمان على أساسها. ومن ثم أدى حكم الأرستقراطيين الى ظهور طبقة من المشرعين والقانونيين الذين مهد لهم الارستقراطيون الطريق .

لقد كان الانتقال من الحكم الملكي الانفرادي الى حكم الصفوة الارستقراطية تدريجيا ، فقد سلبت سلطات الملك العسكرية والادارية والقضائية حتى أصبح موظفا كبيرا محدود السلطة ولمدة معينة ، وأصبحت السلطة الفعلية في يد الارستقراطيين . وعلى أي حال لم يكن حكم الأرستقراطيين حكما اقطاعيا احتكاريا لمصادر الدولة بل كان في المقام الأول يقوم على احتكار الحكم والسياسة لهذه الطبقة المميزة والمستنيرة بحكم النسب والمولد . والتي كان أفرادها يشغلون مكانه متميزة في البناء الاجتماعي والديني في المدن الاغريقية بل ومنهم خرج المشرعون وواضعو النظم والقوانين .

واذا كنا لا نعرف على وجه الدقة كيف كان هؤلاء الارستقراطيون يسيرون دفة الأمور في مدنهم الا أن لدينا دلائل واضحة في الأدب الاغريقي عن فشل هذا النظام . فمثلا سجل لنا الشاعر الملحمي التعليمي

هسيودوس (فى أوائل القرن الثامن ق.م) شكواه وسخطه لظلم الأرستقراطيين فى تسيير شئون العدالة فى بلدته اسكرا Ascra الواقعة على سفح جبل الهلليكون Hellicon فى اقليم بوءتيا عندما كتب ملحمته الخالدة الأيام والأعمال (Erga kai hemerai).

ولقد شهدت الفترة ما بين أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع قبل الميلاد ثورة وتغير فى الفكر والحضارة الاغريقيــة وبدأت ملامح حضارة المرحــلة العتيقــة (Archaic period) والتى وصلت قمتها فى حوالى عام ٦٥٠ ق.م . لقد أصبحت أشعار هوميروس المنعزلة عن دنيا الواقع شيئا قديما وتراثا من الماضى يروى البطولة ومعجزات مشاهير الرجال والالهة . وظهر نوع جديد من الشعر يتغنى بنغمة ذاتية جديدة ومبتكرة ويعبر عن مشاعر الناس ويركز اهتمامه فى الحاضر ويتخصص فى الحياة بحلوها ومرها هذا الشعر الذى سماه المتخصصون بالشعر الغنائى (Lyrics) لاختلافه عن الشعر الملحمى فى صــيغة الموضوعات بل فى الأوزان والقوافى ، ويحوى قصائد حب وغزل وحزن ورثاء وأناشيد حرب وهجاء وأغانى الزفاف ونواح الجناز ، كان بمثابة كسر للجمود والعزلة القديمة .

لقد جاء هذا التغير فى الذوق الأدبى ضمن تغــير شامل فى الفكر والحضارة وكنتيجة للثورة فى صناعة السفن والتوسع فى الكشوفات الجغرافية التى شملت فترة من ٧٥٠ ق.م – ٦٥٠ ق.م حيث اكتشف الاغريق أو اعادوا اكتشاف الاتصال بالشرق الأوسط ومصر وآسـيا الصغرى ووصلت تجارتهم الى البحر الأسود وجنوب ايطاليا وصقلية . وكان الانفتاح على الشرق مهبط الحضارة بداية تغير شامل فى الفن والفكر الاغريقى سماها الأثريون باسم عصر التشرق Orientalizing Period خاصة فى فن الرسم ومن الجدير بالذكر أن كورنثا المدينة البحرية الأولى كان رائدة هذه الثورة الفكرية .

ومن أعلام شعراء هذه الفترة الشاعرة ســافو Sappho شاعرة

جزيرة لسبوس الأولى وزميلها الكايوس (Alcaeus) ، وثيوجنيس Theogenis اللذان استنكرا سلوك الحكم الارستقراطى فى بلادهم ابان القرن السابع ؛وكان هذا نذير بتدهور الحكم الارستقراطى وتجمع سحب الصراع منبئة بتغير ثورى وعنيف .

الفينيقيون ودورهم فى تنمية الحضارة الهللينية :

سبق أن ذكرنا كيف أن أهل كريت والموكينيين كانوا قوة بحرية عظيمة فى شرق البحر المتوسط . وقد مكنهم هذا الاتصال بحضارات الشرق الأوسط ومصر ونقل بذخها وفنونها الى بلاد اليونان خاصة فى قصور الملوك والأمراء .

ولما سقطت الحضارة الموكينية تحت وطأة غزو الدوريين فقدت بلاد اليونان السيطرة على شرق البحر المتوسط وورث الفينيقيون السيطرة البحرية وملأوا الفراغ الذى تركه الموكينيون ابان القرنين العاشر والتاسع .

كان الفينيقيون يعيشون على امتداد الساحل السورى وهو ساحل ضيق تحده الجبال من الشرق ولما كان الفينيقيون محصورين بين الجبل والبحر فقد اضطروا الى استغلال الظروف وأصبحوا دولة بحريةوتجارية من الطراز الأول .

وينتمى الفنيقيون الى العنصر السامى [١] الذى يشمل العرب والعبرانيين والأشوريين والأراميين والكنعانيين) ويتحدثون لغة ليست بعيدة كل البعد عن اللغة العبرية والعربية القديمة والآرامية). وكان الاغريق أول من سموا سكان الساحل السورى بالفنيقيين (Phoenikes) واللفظ يعنى فى اللغة اليونانية بالاراجوانيين أى الشديدى الحمرة ويقال أن هذا اللفظ اشتق من طبيعة بلادهم التى اشتهرت بالاصباغ خاصة الحمراء منها . وقد صورهم الآثار المصرية كقوم ذوى أنوف معقوقة (أو أرمينية) .

Sabatino Mas,ati : The world of the Phoenicians (English Edition) weidenfeld of Nicolson 1968, p. 3 ff.

ومن أشهر المدن الفينيقية التى قادت الحركة البحرية والتجارية بين شرق البحر المتوسط وغربه مدينتا صور (Tyre) وصيدا (Sidon) .لقد أقامت هاتان المدينتان محطات تجارية لهما فى جزيرة قبرص ورودوس وكوس وغيرها من جزر بحر ايجة كما يقال أن الفينيقيين وصلوا الى مناجم الذهب فى جزيرة سيفنوس Sipnnos وثاسوس Thasos ومناجم الفضة فى شمال أتيكا . كذلك من المرجح أن يكون التجار الفينيقيون قد كونوا لهم جاليات فى المدن البحرية الهامة مثل كورنثا وأثينا وطيبه . ومن الغريب أن الاغريق تسالموا مع الفينيفيين لحاجتهم اليهم فكانت السفن الفينيقية تغذو وتروح من والى بحر أيجه حاملة البضائع المختلفة وعلى مدى قرنين من الزمان نقل الفينيقيون أشياء أخرى غير المواد التجارية مثل الأفكار الحضارية والدين . وقد سبق أن أشرنا الى مدى القرابة بين الربة عشتار السورية الفينيقية والربة أفروديت ربه الجمال مثلا . وظل الفينيقيون مسيطرين على البحار وحدهم حتى بدأ الاغريق يستردون عرش أجدادهم الموكينيين فى السيطرة على البحار وذلك منذ نهاية القرن الثامن قبل الميلاد . بل بدأوا فى انشاء محطة تجارية لهم على الساحل السورى فى أوغاريت أو رأس شامرة ومحطة أخرى عند مصب نهر العاص تعرف الآن بالمينا وربما كانت قديما تعرف باسم بوسيدونيا Poseidonia

هكذا أصبح الساحل السورى نقطة حياة وحركة منذ منتصف الألف الثانى حتى أوائل الألف الأول ق.م. وحيث ازدهرت مدنه مثل بيلوس (بيت جبيل) وأرادوس وأوغاريت (١) وقد كشفت الحفائر الأثرية عن مواد كثيرة أعطت صورة حية للمدى الذى وصلت اليه الحضارة ولكن يبدو أن حضارة الفينيقيين لاقت صعوبات قصرت من عمرها بسبب وقوعهم فى شرك الصراع بين مصر والحيثيين ، كذلك بين الكنعانيين (الفلسطينيين القدماء) وبين الغزاة العبرانيين . كما لاقت الحضارة

---

(١) انظر انيس فريحه (مترجم) ، لبنان فى التاريخ منذ اقدم العصور التاريخية الى عصرنا الحاضر — تاليف فيليب حتى ، بيروت وزارة الثقافة ١٩٥٩ .

الفينيقية دمارا من جراء البراكين والزلازل التى عصفت بآسيا الصغرى وهضبة أرمينيا ابان نهاية الألف الثانى ق. م.

لقد عرف الفينيقيون الحضارة الكريتية والموكينية وتشربوا بها بل وساعدوا على تلقيحها بالحضارات الشرقية كما أنهم أقاموا مستعمرات هامة لعبت فيما بعد دورا سياسيا هاما فى علاقات البحر المتوسط . ومن هذه المستعمرات الشهيرة أوتيكا فى تونس ثم فى حوالى عام ٨٢٤ ق.م أسسوا مستوطنة أخرى مجاورة للأولى سموها بقرطاجنة (Carthago) [١]. قدر لها أن تلعب دورا هاما خاصة بعد تدهور المدن الفينيقية الأم وسقوطها فى حوزة الامبراطورية الأشورية ثم الفارسية .

ان نقطة الضعف فى الحضارة الفينيقية هى انعدام عامل الوحدة السياسية الذى هو جوهر الدولة . فكانت فينيقيا تبدو كما لو كانت دولة يجمعها اتحاد مدن تجارية. فلم يكونوا مثل المصريين الذين جمعتهم وحدة سياسية وحكومة مركزية منذ عام ٣١٨٠ ق.م ولما حاول الملك حيرام ملك صور توحيد المدن المتناثرة مع الولايات المجاورة له والتى كانت لها علاقات تجارية ببلاده وذلك ابان القرن العاشر ق . م وقف الأراميون (السوريون) بالمرصاد ضد هذه الوحدة . ففشلت كما فشلت الوحدة التى أقامها الفينيقيون من قبل مع الدويلات السورية وتحطمت على يد تحتمس الثالث بعد معركة ماجيدو الشهيرة فى القرن الخامس عشر ق.م.

الفينيقيون والأبجدية اليونانية :

ان أثمن ماساهم به الفينيقيون فى الحضارة الانسانية هو ابتكار أبجدية مبسطة لتسجيل الصوتيات التى ينطقون بها الكلمات . ومن المعروف أن الفينيقيين أخذوا فكرة الأبجدية عن السومريين والذين كانت طريقتهم تعرف باسم الكتابة المسمارية (Cuneiform) وجعلوا من مقاطع المسمارية حروفا ويفترض العلماء أن هذا التطور حدث فى أوغاريت

(١) هذا هو التاريخ التقليدى اما الاثريون فيقدرون تاريخ تاسيس قرطاجه ما بين ٦٧٣ - ٦٦٣ ق.م .

ابان القرن الرابع عشر ق • م • بعد ذلك قامت مدينة ببلوس باختصار هذه الأبجدية الجديدة لتصبح اثنين وعشرين حرفا بدلا من ثلاثين وهى الحروف الأساسية التى تقوم عليها الأبجدية الفينيقية • وهناك من يعزو الفضل أساساً الى المصريين القدماء باعتبارهم أول من اخترع فن الكتابة ويجادلون بأن هناك تأثير واضح من جانب اللغة المصرية على الحروف الفينيقية ولكن هذا لا يزال محل جدال •

لقد أحدث ابتكار أبجدية محددة ثورة فى الحضارة • لأن ذلك أدى الى تبسيط القراءة والكتابة ونشرها بين الناس وازدياد عدد المتعلمين مما خلق نشاطاً ثقافيا دفع الحضارة دفعاً الى الأمام •

ولم يكن هذا التأثير وقفا على الفينيقيين وحدهم بل تعداهم الى غيرهم وخاصة الاغريق، حيث يذكر هيرودوت ذلك صراحة (Herodot, V. 56) ومن العدل أن نشير الى حقيقة هامة وهى أن كانت هناك أمام الاغريق عدة كتابات شرقية قديمة مثل الهيروغليفية والمسمارية بل وطريقة الكتابة المقطعية التى ورثوها عن أجدادهم الموكينيين : ولكن هذه الكتابات كانت معقدة وصعبة وأشبه بالطلاسم وفضلوا عليها جميعاً الطريقة الفينيقية ذات الاثنين والعشرين حرفا ليسجل بها كل الصوتيات التى ينطق بها كلمات اللغة اليونانية وكما يحدث عادة فى تاريخ الحضارة فقد نقل الأغريقى فى أول الأمر الأبجدية الفينيقية بكاملها ثم راح يعدل فيها ليجعلها تتناسب وحنجرته • بل وعقليته • فمثلا أسقط فيما بعد الحروف التى لا تستطيع حنجرته نطقها مثل الصاد والواو وأضاف الى الأبجدية الفينيقية التى تتكون أساسا من حروف ساكنة (Consonants) عددا من الحروف المتحركة (Vowels) ولكى يكون أمينا ظل يسمى هذه الأبجدية بعد تطويرها بالفينيقية Ta Phoinicia أو بالأبجدية الفينيقية Phoinicia grammata

وتقترح الأستاذ ل (١) • هـ جيفرى (L.H. Jeffery) فى رسالة الدكتوراه التى خصصتها لبحث تاريخ الأبجدية اليونانية فى مراحل الاقتباس والتكوين أنه لا يستبعد أن يكون الاقتباس من فعل عالم اغريقى مجهول كان يلم باللغة الفينيقية وأبجديتها واقترحت الباحثة عدة أماكن لنشأة هذه الاقتباس منها كريت أو رودس أو جزيرة يوبوياحيث كانت هناك علاقات مباشرة بين الاغريق والفينيقيين • ولكنها عادت فآثرت أن يكون هذا المكان هو مستوطنة بوسيدونيا Poseidonia التى أقامها الاغريق عند مصب نهر العاصى فى الأراضى السورية والتى تعرف الآن باسم الميناء (Al Mina) وترجح أن يكون ذلك قد تم بعد منتصف القرن الثامن ق•م• (٢) •

ومن الطريف أن الكتابات والنقوش الاغريقية المبكرة قلدت الكتابة الفينيقية فى اتجاه الخط فكانت تكتب من اليمين الى اليسار (retrograde) ثم تطورت لتأخذ شكلا جديداً وهو الاتجاه المتعرج مثل خطوط المحراث Boustrophedon (أى من اليمين الى اليسار ثم يبدأ السطر الثانى من اليسار الىاليمين وهلم جراً) •وأخيراً وصلوا الى المرحلة العادية

---

(١) cf. L.H. Jeffery : The local Scripts of Archaic Greece : A study of the Origin of the Greek Alphabet and its development from the Eigth to the Fifith Centuries B. C. Oxford, The Clarendon Press. 1961, pp. 11-12; p 16 and p. 21.

(٢) R.M. Cook and A.G. Woodhead, «The diffusion of Greek Alphabet, A.J.A, 63 (1959) p. 175-178 ; 13. Einarson,» Notes on the Develapment of Greek Alphabet, CP, 62 (1967).

أما جوزيف نافيه المتخصص فى النقوش السامية فيعرض رايا جديدا وغريبا فى تطور الحروف الابجدية الاغريقية من الأصل الفينيقى ويقترح أن العملية استغرقت وقتا طويلا بدأ منذ أواخر القرن الثانى عشر أو فى مطلع القرن الحادى عشر ق.م وان ذلك تم فى أرض على معرفة بالكتابة السامية واللغة الاغريقية وان النتائج لم تظهر قبل نهاية القرن التاسع ق.م ويقترح أن الاغريق تعلموا فكرة الكتابة من التجار الكنعانيين الذين كانوا يترددون على جزر بحر ايجه مثل كريت أو ثيرا ومنها انتشرت الى باقى أجزاء بلاد اليونان وبداو فى تطويرها فمثلا « الواو » الفينيقية تحولت الى اليوبسيلون ، والكاف الى الكابا انظر :

Joseph Naveh : Some Semitic Epigraphical Considerations on the Antiquity of Greek Alphabet, AJA, 77 (1973) p 1-8.

وهى من اليسار الى اليمين • ومن حسن الحظ أن عثر فى مصر على أقدم نقش يسجل توصل الاغريق الى الكتابة من اليسار الى اليمين وذلك فى خمسة سطور تجرى من اليسار الى اليمين سجلها كاتبان أغريقيان من الجنود المرتزقة فى بداية القرن السادس ق•م• يتحدثان لهجة دورية • وربما من مواليد مصر وكانا ضمن فرقة اصطحبها الملك المصرى بسماتيخوس الثانى Psammatichus (٥٩٤ — ٥٨٩ ق • م) فى حملته ضد أثيوبيا (بلاد النوبة) والتى يتحدث عنها هيرودوت (الكتاب الثانى — ١٦٢) والتى سارت من جزيرة ألفانتين جنوب أسوان حتى الشلال الثانى • وقد سجل الكاتبان عبارات مقتضبة عن الرحلة جنوب الشلال ذيلاها بتوقيعاتهم وزملائهم فى شكل حفر بسيط (Graffiti) سجلوه على قدم أحد تماثيل رمسيس الثانى التى تقف عند واجهة معبد أبو سنبل العظيم (١) وليس هذا النقش هاما فى تحديد تاريخ لظهور الكتابة المستقرة فى بلاد اليونان بل يلقى الضوء على الجاليات الاغريقية فى مصر ابان عصر الأسرة الصاوية مايزيد على قرنين ونصف قبل غزو الاسكندر لهذا البلد الأمين •

هكذا أدى التوسع والانفتاح المشترك بين الاغريق من ناحية وبين غيرهم من شعوب الشرق الأوسط الى تكوين الملامح المحددة للعقلية وللتفكير الاغريقى والذى أصبح ملازما لهم منذ بداية ازدهار حضارتهم حتى أفولها • لقد بدأ الخيال الاغريقى يتقمص الحقائق والفكر العلمى المنطقى كما تتقمص الروح الجسد • وأصبح الاغريقى ينشد الجمال والحكمة معا • وما الفن فى مفهومه سوى أحد أشكال الحكمة• كما كان يتملك المفكر والفنان الاغريقى احساس شديد بالحق المطلق مما جعلهم يفرقون بدقة بين ماهو مثالى وبين ماهو واقعى وأن يعطو لكل حقه •

ان نظرة فاحصة مثلا للعمارة الأغريقية بما تحتويه من توازن هندسى و « سيمتريه » رياضية تحدد وظيفة كل جزء بدقة تبين مدى الصدق

---

(١) cf. L.H. Jeffery, op. cit pp. 354-355, also p. 358 Plate 69 no. 48.

والصراحة اللذان يتسم بها العقل الاغريقى ، فهو ميروس عندما يتحدث عن هيلينا فهو يعنى هيلينا بينما يختلف هذا الوضع عندما يتحدث فرجيل الرومانى فى انيادته عن بطلة أنياس فقد يعنى الامبراطور أغسطس سيده ومولاه ، أو عندما يتحدث فرجيل فى الانيادة عن الملكة الشريرة ديدو فقد يعنى الملكة المصرية كليوبترا همزاً ولمزاً (١) .

ان هناك صفات مشتركة تميز كل جوانب الفكر الاغريقى سواء فى التاريخ أوالسياسة أو أدب الشعر والمسرح أو حتى الفكر العلمى المنطقى. وقد يحدد ذلك ملاحظات الفلاسفة الأيونيين التى ترى أن لاشىء يستقر على حال بل لابد من التنوع . لأن التغيير دائم وأبدى . وهو يسير على هدى قانون منطقى . وأن هذا التوالد المنطقى للأشياء هو الذى يخلق الحضارة ان الاغريق ببصيرتهم الصافية ونظرهم الثاقب وعقليتهم الواضحة المحددة هم الذين رسموا لنا بكل دقة وحرص تعريفات العلوم المختلفة وحقائق المعرفة والتى عليها يقوم العلم والفكر الحديث .

---

(١) انظر تراث العالم القديم ـ الجزء الأول ـ تأليف و . ج دى بورج ترجمة زكى سوس ومراجعة د . صقر خفاجه سلسلة الالف كتاب ـ رقم ٥٥٧ . ١٤٥ ـ ١٤٦ .

الفصل الخامس

عصر الانتشار والاستيطان

لقد رأينا كيف أن حركة البحث والاحياء ثم قيام دويلات المدن المستقلة فى شبه الجزيرة اليونانية وفى جزر بحر ايجه وعلى ساحل آسيا الصغرى ادى الى تحقيق الوعى القومى للاغريق كأمه واحدة مميزة عن غيرها من شعوب الشرق الأوسط الأجانب (Barbaroi) أمة لها تراث فكرى ودينى وأخلاقى وسلوكى مشترك قام بفضل الألياذه الاودسا وبفضل اشعار هسيودوس التعليمية الأخلاقية . ولقد دعم هذا التراث الحضارى الاغريقى بمرور الزمن وأصبح وجودا يفرض نفسه على عوامل الأنفصال الجغرافى والبحرى وعلى اللهجات المحلية للغة اليونانية بل وعلى العبادات المحليه والاقليمية وقد رأينا كيف لعبت مدينة دلفى المقدسة دوراً أساسيا فى وحدة هذا التراث كما جعلت الدورات والمهرجانات الرياضية هذا التراث حقيقة يمارسها الأغريق فى لقاءاتهم السنوية والذى لا شك فيه لعبت الاسر الارستقراطية الدور الاكبر فى هذا الدعم بين دويلات المدن لما كان بينها من مصاهرات ومعاملات حققت اللقاء والترابط.

وبفضل ذلك أصبحت الحضارة الاغريقية قوة طاردة وديناميكية وراحت تبحث عن مناطق للانتشار فى ربوع العالم المسكون (Oikoumene) وجدير بالذكر أن الانتشار والاستيطان كانا صفة أساسية للحضارة الاغريقية لان ذلك هو الذى اعطاها الروح العالية وميزها عن الحضارة المصرية القديمة أو حضارات الشرق القديم التى فضلت أن تبقى داخل مواطنها ومن أجل مواطنيها . ولهذا فحركة الانتشار والاستيطان ترجع منذ أيام الحضارة الموكينية وظلت قائمة حتى العصر الهللينستى والرومانى

لكن المؤرخين يرون أن فترة الاستيطان المبكرة لساحل أيونيا كانت ذات صفة خاصة وذلك لان نظام المدينة الدويلة (Polis) صاحبة فلسفة الاستيطان الذى ساد فى الفترة من بين منصف القرن الثامن وحتى منتصف القرن الخامس ق.م لم يكن قد ظهر واكتمل ، كما أن استيطان أيونيا كان ارغاما وليس خيارا (١) أمام الغزو الدورى لأنه كان عفويا وتلقائيا ويختلف عن الاستيطان المنظم . أما الاستيطان الذى حدث ابان العصر الهللينبستي فقد وضعه المؤرخون جانبا لانه برغم الثراء فى المصادر نتيجة لتكدس النقوش والوثائق فى العصر الهللينستى الا أن العلاقة بين دويله المدينة Polis وبين المستوطنة (Oikeia) كان قد تغير نتيجة المتغير الذى طرأ على «البوليس» ذاتها بعد عصر الاسكندر وهذا التغير يخرج مثل هذا الاستيطان من المفهوم السياسى والكلاسيكى والفكرى للحركة (٢) . وعلى هـذا فقد استقر رأى المتخصصين على تخصيص الفترة ما بين ٧٥٠ ـ ٥٥٠ ق.م للعصر الذى نسميه بحركة الانتشار والاستيطان .

اسباب ودوافع هذه الحركة :

يرجح البعض أن هذه الحركة جاءت كنتيجـة حتميـة لتدهـور امبراطوريات الشرق القديم وبالذات تدهـور السيطرة الفينيقيـة على

---

(١) يرى . ج . م كوك ان الحضارة الاغريقية ولدت فى أيونيـا أى بفضل هذه المستوطنات حيث خلقت الغربة والشتات الاحساس بالحاجة الى القومية حفاظا على الوجود الحضارى فى مواجهة الشرقيين انظر :

I. M. Cook ; «The Greeks in Ionia and the East, London 1962.

كما قام بوردمان بدراسة الانتشار الاغريقى على ضوء الوثائق الأثرية انظر :

J. Boardman,» The Greeks Overseas, Penguin edition 1964.

(٢) A.J. Graham, Colony and Mother-City in Ancient Greece, Manchester, University Press, 1964, p. 2 p. 25 ff., also cf..

V. Ehrenberg ; From Solon to Socrates - Greek History and Civilization during the Sixth and Fifth Centuries B.C., Methuen and Company, London 1967 p. 13 ff.

مياه شرق البحر المتوسط والتى كانت تحد من نشاط الاغريق وكانت الامبراطورية الأشورية خاصـة ابان الفترة التى يشـار اليها بالأسرة الرابعة (٩٣٤ ـ ٧٤٥ ق٠م) قد قضت على القوة السياسية للشعوب الآرامية فى سوريا وفلسطين وفينيقيا وباسقاط هذه القوة أصبح هناك فراغ كبير فى المنطقة ولم يعد ينافس الاغريق كقوة بحرية أحد سوى قرطاجه تلك المستوطنة التى أنشأتها صور (Tyre) على ساحل أفريقيا • حتى مصر التى كانت قوة كبيرة لها كيانها فى المنطقـة أصبحت فى ذلك الوقت تعانى انهياراً مستمراً أفقدها نفوذها وقيـادتها • أما فى آسـيا الصغرى فلم يكن هناك سوى دولتا فريجيا وليديا ، وقد دمرت القبائل الكيبرية القادمة من مناطق الأستبس فريجيا • وبقيت ليديا وهى دولة شرقية ولكن أقامت جسوراً من الصداقة والتعاون مع الاغريق • أمـا الفرس فلم يكونوا قد نهضوا كقوة ذات نفوذ فى مياه البحر المتوسط • وخلاصة القول وضعت الظروف السياسية أمام الاغريق فرصـة نادرة للانتشار ، فالبحر المتوسط مفتـوح أمامهم بلا عـوائق ولا معـارض وعندما زحفت الامبراطورية الفارسية نحو البحر الابيض ابان القرن السـادس ق٠م٠كان الاستيطان الاغريقى قد ثبت أقدامه وأصبحت المستوطنات الاغريقية قوة واقعة وحقيقية وقادرة على الدفاع عن نفسها وعلى استعداد لاثارة الغرب الاغريقى للدفاع عنها •

لقد أدى تكدس دويلات المدن فى المـساحات الضيقة وتمسك كل منها باستقلالها كقوة مستقلة ذات سيادة الى الاحتكاك وقيـام المنـازعات بسبب الحدود أو المصالح والتنافس على السيطرة التجارية فيما بينها من أجل فرض نفوذها على أكبر رقعة من العالم المسكون • وقد ساعد على ذلك تزايد عدد السكان بدرجة لا تتناسب مع المساحة الزراعيـة ومن ثم دفعت مشكلة « البحث عن الغذاء » (١) السكان الى الهجـرة

---

(١) راجع مقاله :

J. Gwynn, Journal of Hellenic Studies, 38 (1918) :
Graham op. at p. 25.

بينما يرى جراهـام ان الدوافع كانت تجارية ولكن العلماء يردون بأن المستوطنات كانت مستقلة اقتصاديا من المدن الام .

ومن ثم كان الانتشار تنفيثا حتميا للضائقة الاقتصادية والغذائية للسكان. وقد ساعد البحر وقيام الأساطيل الصغيرة للمدن على هذا الانتشار. ولما كان وضع المواطن الاغريقي السياسي والاجتماعي مرتبطا بما يملك من أرض زراعية ابان تلك الفترة فقد أدى ذلك الى انتشار السخط من السكان الفقراء وكثيرا ما أدى اليأس السياسي للطبقات المعدمة الى ترك الوطن والبحث عن وطن جديد يحققون فيه ذاتهم ، بل ان الصراع الاجتماعي دفع الطبقات المندحرة الى الهجرة ولهذا نجد أن بعض المستوطنات دخلت فى صراع سياسي واجتماعي مع المدينة الأم التى أنشأتها كما حدث بين كورنثا ومستوطنتها كوركيرا حيث جر هذا الصراع مدن الاغريق كلها فى حرب شاملة هى الحروب البيلوبونيزية . كما وجد المواطنون المثقلون بالديون فى الهجرة منفذاً للهرب تخلصا من أعبائهم المالية وبداية لمرحلة جديدة من الحرية بدلاً من البقاء تحت نير « عبودية الدين » اذ لم يكن هناك تشريع ينظم العلاقة بين الدائن والمدين فى تلك المرحلة وكان من الممكن أن يتحول العاجز عن سداد دينه الى « عبد » يتصرف فيه الدائن كما يشاء سواء بالبيع أو الحبس بل تعدى ذلك الى أولاد المدين وأسرته .

غير أن حركة الانتشار والاستيطان لم تكن وقفا على الباحثين عن الطعام من المعدمين أو أولئك الهاربين من الديون وفقد حريتهم بل شملت بعضا من النبلاء الذين حرموا بحق قانون الارث الاغريقى الذى يورث الضياع الى أكبر الأبناء فقط (Primogeniture) حفاظا على حجم الملكية . ومن ثم وجد الأبناء الآخرون أنفسهم مضطرين للبحث عن ضياع جديدة فى أرض جديدة .

أيضا يجب الا نغفل عشق الاغريقى للمغامرات وركوب المخاطر والجرى وراء الثروة لارضاء الطموح والغرور خاصة الشباب منهم كعامل له وزنه فى تشجيع الهجرة الى بلاد غريبة وبعيدة كما أن غريزة حب الاستطلاع والفضولية كانتا عاملا مؤثرا للهجرة .

وبالرغم من هذا كله يبقى العامل الأساسى وهو الثورة البحرية والتجارية الكبرى نتيجة للتطور فى فن صناعة السفن ذات الطوابق العديدة من المجدفين خاصة السفن ذات الثلاثة طوابق من المجدفين (triremes) أو ذوات الخمسين مجدافا (Pentakosia) وبذلك لم يعد الابحار مرهونا بهبوب رياح معينة فى مواسم معينة مثلما كان الحال أيام الشاعر هسيودوس بل أن سرعة السفن تضاعفت ، كما ساعدت الكشوفات الجغرافية لأسرار البحر المتوسط والتى نرى بدايتها فى مغامرات أوديسيوس ابان عودته الى وطنه فى جزيرة ايثاكا — على ركوب البحر حيث أصبح الانتقال سهلا وميسرا وبالتالى فتحت مناطق جديدة للتجارة وكان القمح عاملا أساسيا لأن كثير من الدويلات الاغريقية كانت تعتمد عليه فى غذائها الأساسى فقد كانت التجارة حتمية اقتصادية للدويلات الاغريقية بعكس دول الشرق الأوسط التى كانت مكتفية ذاتيا من الناحية الاقتصادية (Self sufficient) ومن ثم لم تعبأ بالتجارة بل كانت مصدرة أكثر منها مستوردة وكانت تجارتها مقتصرة على الرفاهيات وليس الضروريات بعكس الاغريق تماما .

شعائر واجراءات المستوطنة : —

كان لانشاء المستوطنة خطوات معروفة ومدروسة وتقاليد معينة وشعائر دينية . تبدأ باختيار مؤسس أو قائد (oikistes) وهو مواطن من المدينة الأم (Metropolis) يقود عددا من مواطنيها أو ممن يريدون الانضمام اليه من المدن الأخرى . ومن الملاحظ أن قيادة المستوطنات كانت عادة فى أيدى الارستقراطيين بينما جمهور المستوطنين كانوا من كافة طبقات المجتمع . وكانت المستوطنة تختار المكان لشروط خاصة مثل ثراء المنطقة وغناها كوقوعها فى سهل غنى أو عند منفذ تجارى أو على رأس ميناء هام وكثيرا ما كانت المستوطنات تجمع بين الميزتين : السهل والميناء . اذ من الملاحظ أن جميع المستوطنات الاغريقية تحتل المنافذ البحرية الهامة المطلة على البحار أو عند التقاء نهر داخلى يصب عند بحر خارجى للاتصال بالتجارة من الداخل وتصديرها الى الخارج . ويقول

هيرودوت (١) أنه كان يتحتم استشارة كهنة الإله أبوللون فى دلفى قبل اختيار المكان وليس من المستبعد أن كهنة دلفى كانوا على علم دقيق بالمناطق الاستراتيجية ذات الأهمية التجارية والتى لم تكن قد استوطنت بعد (٢) ولهذا كان أبوللون أكثر الآلهة ارتباطاً بالمستوطنات الاغريقية وكثيرا ما اتخذته المستوطنات كمؤسس (oikist) اسطورى لها . وبالتالى كان قادة الاستيطان يصبحون زعماء فى المستوطنات الجديدة وبعد موتهم يتحولون الى أبطال يعبدون فيها ويدفنون فى أضرحة للعبادة فى قلب السوق العامة . واذا حدث خلاف بين المستوطنات كان كهنة دلفى يقومون بدور المحكمين والقضاة . ويقول ثوكوديديس اذ حاولت مستوطنة انشاء مستوطنة فرعية منها كان يستوجب عليها استدعاء قائد مستوطنة من المدينة الأم (٣) . .

وفى العادة كان المهاجرون يلتقون قبل الهجرة ويؤدون قسماً يؤكد التزامهم بعهود الوفاء للمدينة الأم واذا حاد أحدهم عنها تنزل عليه اللعنة وقد عثرنا على القسم الذى أخذه أهل ثيرا على أنفسهم عندما أسسوا مستوطنة قورينى Cyrene فى ليبيا (٤) ثم يتفق المهاجرون على صيغ الدساتير والقوانين التى سوف يختارونها لمدينتهم الجديدة وكثيرا ما كانت تؤخذ من دساتير المدينة الأم وعادة كان زعيم المستوطنة ينتخب زعيما سياسيا وقبل الهجرة كان يشترط أن يشعل المهاجرون شعلة من موقد المدينة الأم لحملها معهم يشعلون بها موقد مدينتهم الجديدة كرمز للارتباط النفسى والروحى بين المستوطنة (oikeia) والمدينة الأم (Metropolis). . وجدير بالذكر فى عصر الطغاة الاغريق انتشر انشاء المستوطنات رغبة من هؤلاء الطغاة فى التوسع والسيطرة ونشر نفوذهم

---

(١) Herodatus, XI, 42, 2.

(٢) J. Park and Wormell, «A. History of the Delphic oracle, I, p. 71
Graham op. cit. p. 25.

(٣) Thucydides I, 24, 2.

(٤) يرجع هذا النقش الى القرن الرابع ولكنه كان صورة طبق الأصل للقسم القديم انظر : —
S.E.G., IX, 3.

وكثيرا ماقاد أبناء الطغاة أنفسهم المستوطنين ، حيث تظل المستوطنة جزءا من ممتلكات الطاغي حتى سقوطه أو موته . وفى الغالب كانت المستوطنة تابعة عنصريا للمدينة الأم المؤسسة، فالدوريون يؤسسون مستوطنات دورية والأيونيون يؤسسون مستوطنات أيونية الخ . بالرغم من أن المستوطنة كانت تعتبر دويلة ذات سيادة ومستقلة عن المدن الأم (١) .

لقد كان فكرة انشاء المدن ظاهرة عامة فى تاريخ الاغريق نشأت فى أيونيا وانتقلت الى بلاد اليونان . وقد رأينا كيف كانت المدينة دويلة مستقلة ذات سيادة برغم ضيق مساحتها التى كانت لا تزيد فى أكثر الأحيان عن ٤٠٠ ميل مربع ولم يزد عن هذه المساحة سوى أثينا واسبرطه وذلك لظروف خاصة . وكالمدينة الأم كان السوق العامة (agora) هو أهم ملامح المستوطنة ثم تتكدس الشوارع والأحياء حول موقد هستيا المقدس فى قلب المدينة ثم بضرب سور حول المدينة . وخارج هذا السور يقع الاطار الريفى الذى يمد المدينة بحاجتها من الغذاء الزراعى والحيوانى وقد وصف أرسطو ريف المدينة الزراعى بأنه « الجوهر الحيوى للمدينة » (٢) وبداخل المدينة تقوم المرافق الأساسية التى تؤكد شخصيتها (٣) كان مجتمع المواطنين (Polity) هو دولة المواطنين والدليل على ذلك أن أسماء المدن كان ينسب الى المواطنين وليس العكس فأثينا تسمى مدينة الأثينين وبلاتيا تسمى مدينة البلاتيين وهلم جرا .

وقد سارت المستوطنات على هذا النظام . وكان شعب المدنية يلتقى دينيا تحت عبادة رب أو ربة معينة ويحرص على التمسك بفكرة الحرية - العدالة (eunomia) المستمدة من صفات هذا الاله . وكان هذا المجتمع الصغير يفرض على أعضائه سلوكا معينا وأفكارا معينة يتعلمها أفراده من تلقاء أنفسهم . وكانت العلاقات الاجتماعية والاحتفالات فى

(١) J. Siebert, Metropolis und Apoikie (wuerzburk) 1963, p. 15 ff.

(٢) كتاب السياسة ١٢٦٠ (ب) .

(٣) عن المرافق الأساسية للمدينة الدولة انظر :
R. E. Wycherley, «How The Greeks built Cities, 2nd edition Mac Millan and Company, London 1962.

المناسبات العامة صفة أساسية للمدينة • وفى البداية كانت حقوق المواطنة مقصورة على النبلاء ثم توسعت دائرتها لتشمل المواطنين الأحرار ولكن بقيت النساء والأجانب والعبيد خارج المجتمع • وجدير بالذكر أن الاغريق عاملوا العبيد بنظرة أكثر انسانية من الرومان ولم يكن ملكية العبد دليل على الغنى بل ظاهرة نفسية ، اذ أحيانا كان مالك العبد يعمل بنفسه مع عبيده فى الحقول (١) وفى كثير من الأحيان برز العبيد الى الصفوف الأمامية فى الدولة وتمتعوا بحقوق قانونية •

أما بالنسبة لعلاقة المستوطنين الاغريق بسكان المناطق الأصلية • فقد دفعوا بهم الى الداخل بينما احتلوا هم الشواطىء وفى البداية استخدموا معهم القوة ولكن بمرور الزمن حققوا تعايشا سلميا معهم لأن الاغريق المهاجرين كانوا يحرضون على انعاش السكان الأصليين اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا واشراكهم فى الرخاء المشترك ، بل حدث تزاوج بينهم ، ويكفى أن نشير الى أن هيرودت جاء نتيجة لزواج امرأة أسيوية من كاريا برجل اغريقى فى هاليكارناسوس • والآن وبعد أن تعرضنا لظاهرة الاستيطان وظروفه لنحاول رصد المناطق التى نشأت فيها هذه المستوطنات •

اولا : آسيا الصغرى :

لما كان الشرق الأوسط تحت سيطرة دولة قوية هى آشور فقد ابتعد الاغريق عنه ولم يؤسسوا فيه سوى مستوطنة واحدة هى بوسيدونيا (١) Poseidonia على نهر العاصى ومكانها الآن مدينة المينا (Almina) فى شمال سوريا والتى منها يعتقد العلماء أن فكرة الكتابة انتقلت من الفينيقيين الى الاغريق • ويقترح العلماء أن هذه المستوطنة انشأت حوالى عام ٨٠٠ ق• م وعلى يد مستوطنين من جزيرة يوبويا Euboea وساهم فيها اغريق جزيرة قبرص •

---

(١) cf. Finley : The Ancient Economy, London 1974.

(٢) لا يزال الخلاف قائما حول اسم المستوطنة التى كانت قائمة مكان « المينا » انظر :

Wolly, J.H.S., (1938), also Boadman; op. cit,

لكن يكاد أن يكون الاتفاق الآن قائما على تسميتها ببوسيدونيا •

ثانيا : صقلية وجنوب ايطاليا :

ساعد عدم وجود عوائق جبلية فى جنوب ايطاليا وصقلية الاغريق على الأبحار اليها منذ زمن قديم ، فقد عثر الأثريون على أوانى فخارية فى كل من صقلية وسهل اتروريا ترجع الى القرن الثامن قبل الميلاد (١) • ولماكانت منطقةجنوب ايطاليا وصقلية توأجه بلاد الاغريقفقدكانت منطقة هامة للتنفيث عن التكدس السكانى فى الوطن الأم • وقد تزعم سكان مدينة خالكيس Chalkis الواقعة فى جزيرة يوبويا Euboea فى شرق ساحل أتيكا — حركة الهجرة والاستيطان فى جنوب ايطاليا وذلك عندما أسسوا مستوطنة كوماى Cumae على مسافة بضع مئات من جنوب روما وسهل اتروريا • ويقال أن الفضل يرجع الى هذه المستوطنة فى توصيل طريقة الكتابة بالحروف الفينيقية بعد أن اقتبسها الاغريق الى كل من الاتروسكيين والرومان • وقد توسعت كوماى ، وازدهرت لدرجةأنها قامتبانشاء مستوطنةلها هىنيابوليس (neapolis) والتى تعرف الآن باسم نابولى والواقعة على الخليج الذى يعرف باسمها كذلك أنشأت خالكيس عدد من المستوطنات فى صقلية أهمها مستوطنة كاتانا Catana قرب منتصف الساحل الشرقى لصقلية •

سيراكوزة :

أما كورنثا فقد قدر لها أن تؤسس سيراكوزه Syracusae فى الجزء الأدنى من ساحل صقلية الشرقى وهى أكبر المستوطنات فى جنوب صقلية والتى أصبحت فى القرن الرابع ق•م• عاصمة للمدن الاغريقية المتحدة فى صقلية • ويقول ثوكوديديس أنها أسست حوالى عام ٧٣٤ ق•م• (٢) • وسرعان ما أصبحت من أكثر مدن جنوب ايطاليا ازدهارا لكثرة خيراتها الزراعية وصادراتها التجارية فقامت بانشاء مستوطنة متفرعة عنها هى كامارينا Camarina على الساحل الجنوبى الغربى لصقلية •

(1) cf. Dunbabin : The Western Greeks, Oxford 1948 ; AG. Woodhead. The Greeks in the West, London 1962.

(2) Thucydides, 6, 3.

وقد حكم سيراكوزه عند بداية تأسيسها حكومة أوليجارخية أرستقراطية من ملاك الأراضى عرفوا باسم (gamoroi) انتزعوا الأراضى من سكان صقلية الأصليين وحوارهم الى طبقة من المستعبدين (Kyllyrioi) مما شجع على قيام الثورة الاجتماعية حوالى عام ٤٨٥ حيث اتخذ فقراء الاغريق وسكان صقلية الأصليون معا وطردوا الطبقة الأرستقراطية الحاكمة .

وقد استعان هؤلاء الثوار بزعيم هو جيلون Gelon ساعدهم على طرد هؤلاء الاقطاعيين ونصب نفسه طاغية على سيراكوزه حوالى عام ٤٩١ ق.م. بعد أن تنازل عن حكم مدينته الأصلية جيلا Gela لشقيقه هيرون Hieron . وفى عهد جيلون بلغت سيراكوزه أوج عظمتها وازدهارها وأصبحت تملك أكبر أسطول بحرى بين الاغريق جميعا . ولما زحف كسيركسيس على بلاد اليونان فى حملته المشهورة اضطرت أثينا واسبرطه أن يطلبا من جيلون المعونة الحربية ولكنه اشترط أن يعين قائدا عاما لأسطول كل الاغريق فى الحرب ضد الفرس ولما لم يجاب الى طلبه انسحب بأسطوله عائدا الى صقلية حيث وجد خطرا جديدا يماثل الخطر الذى كان يهدد بلاد اليونان ذاتها اذ فتح القرطاجيون جبهة جديدة عندما غزى الملك هاميلكار صقلية بجيش كبير ولكن جيلون وحليفه ثيرون Theron طاغية مدينة اكراجاس Acragas تمكنا من هزيمته قرب هيميرا Himera وذلك فى عام ٤٨٠ ق. م وأنقذت صقلية كلها من خطر القرطاجيين وأصبح جيلون بطلا قوميا وقائدا على كل المدن الاغريقية فى صقلية . بل وكسب شهرة كحاكم شعبى محبوب ومثالى حتى موته عام ٤٧٨ ق. م . ويرجع الفضل فى توسيع رقعة سيراكوزا الى جيلون اذ أنه شجع سكان المدن الاغريقية الأخرى الى الهجرة الى سيراكوزا حيث أقام أحياء جديدة لتستوعب السكان الجدد . وأصبحت سيراكوزه أكبر مدينة فى غرب البحر المتوسط ، ولا ينافسها فى ذلك سوى قرطاجة .

وبعد موت جيلون حكم هيرون الأول Hieron الذى مد نفوذه الى جنوب ايطاليا وجعل من صقلية عاصمة للثقافة والفنون الاغريقية تنافس أثينا نفسها . وأصبحت لسيراكوزه امبراطورية . ولكن هذه الامبراطورية لم تستمر طويلا اذ أنها تدهورت بعد موت هيرون عام ٤٦٧ ق.م . ودخلت الديموقراطية كنظام جديد وأصبح للمدينة مجلس شيوخ (Boule) ومجلس شعبى ومجلس تنفيذى (مجلس الجنرالات) ونقيب للعامة . ورغم المصاعب التى واجهتها سيراكوزه خلال أيام الديموقراطية الأولى الا أنها نجحت فى صد عدوان جيرانها ضد مدينة آكراجاس Acragas. . وقد حاولت أثينا مرتين التدخل فى شئون سيراكوزه (٤٢٧ — ٤٢٤ ، ٤١٥ — ٤١٣ق.م) ولكن سيراكوزه نجحت فى صد الآثينيين واعادتهم فاشلين.كما حاولت سيراكوزه بدورها التدخل فى شئون بلاد الاغريق مما أدى الى طرد حاكم صقلية هيرموكراتيس Hermocrates والغاء مجلس الجنرالات والعودة الى النظام العتيق وهو نظام انتخاب آراخنة عن طريق القرعة .

ونظرا لتهديد القرطاجيين لسيراكوزه ابطلت طريقة الاقتراع وعادت البلاد الى نظام حكم الطغاة . ونصب ديونيسيوس Dionysius الأول طاغية أو قائدا منفردا بعد عام ٤٠٦ ق.م ولكنه هزم على يد القرطاجيين وفقد تأييد الطبقات الغنية له بل وحاولت اسقاطه مما جعله يسرع بعقد هدنة مهينة مع القرطاجيين ليبدأ فى صراع مرير مع الأغنياء حيث أمم أراضيهم ووزعها على العبيد والمعدمين . وقام بعدة حملات ضد المدن الاغريقية فى صقلية لاخضاعها له . وراح يستعد لطرد القرطاجيين ببناء الأسطول والتحصينات والقلاع حتى أصبح أقوى حاكم فى صقلية بعد تعيين نفسه أرخونا عاما عليها. بل تطلع الى السيطرة على جنوب ايطاليا وأقام عددا من المستوطنات على ساحل الادرياتيك وساعد اسبرطة ضد أثينا وطيبة كما أقام علاقات مع مدينة روما الناشئة وقد عرف ديونيسيوس بأنه أديب ومؤلف وشاعر مسرحى وعرضت مسرحياته فى أثينا وأولمبيا وصقلية وكسب عنها جوائز فى المهرجانات الأدبية .

ولما مات ديونيسيوس الأب تولى ابنه ديونيسيوس الابن الحكم فى عام ٣٦٧ ق٠م وهو فى الثلاثين من عمره • وكان أول عمل قام به هو وقف الحرب مع القرطاجيين • وكان ديونيسيوس الثانى ضعيفا ، ولكنه كان شغوفا بالأدب والفكر والثقافة الاغريقية ، فقد كان شاعرا وفيلسوفا وأديبا • وكان دائما يدعو مشاهير الفلاسفة الى سيراكوزه وقد أعجب بأفلاطون بالذات فدعاه ليقيم مدينته الفاضلة فى سيراكوزه ويحاول أن يجعل منه الحاكم الأمثل الذى يتحدث عنه افلاطون ولكن التجربة فشلت واضطر الى طرد أفلاطون ووزيره المؤرخ فيليستوس Philistus عام ٣٦٦ ق٠م٠ ولـكنه عاد ودعاه مرة أخرى فى عام ٣٦١ ق٠ م وللمرة الثانية فشل أفلاطون واضطر للهرب عائدا الى أثينا عام ٣٦١ ق٠م • فى عام ٣٥٧ ق٠م وقع انقلاب قادة ديون وكالليبوس Callippus وذهب ديونيسيوس الى المنفى وظل فيه حتى عام ٣٤٧ ق٠م٠ و فى هذه الأثناء حاول تيموليون Timoleon أن ينقذ سيراكوزه من التدهور فجلب مستوطنين جدد الى صقلية ووضع أساس دستور ديمو قراطى جديد وأكمل هذه الثورة الديموقراطية أجاثوكليس Agathocles وأصبح ارخونا منفرداً عام ٣١٧ ق٠م ثم تحول الى ملك ٣٠٤ ق٠م وعند موته عام ٢٨٩ ق٠م أسدل الستار على أعظم أيام سيراكوزه • لأن الحاكم الذى تولى من بعده وهو هيكيتاس (٢٨٨ — ٢٧٨ ق٠م) كان ضعيفا فهزمه القرطاجيون وحاصروا سيراكوزه لولا طلبه النجدة من أبيروس حيث حضر الملك بيرهوس Pyrrhus من بلاد بلاد اليونان لنجدة سيراكوزه وانقاذها من القرطاجيين ونجح بيرهوس فى فك الحصار • ولكنه فشل فى اعادة سيراكوزه الى أيام مجدها الذى شهدته فى عصرى ديونيسيوس وأجاثوكليس • أما هيرون الثانى فقد أصبح عميلا للرومان ولما حاول خليفته هيروليموس Hieronymus (٢١٥ — ٢١٤ ق٠م) الخروج على هذه السياسة نشب صراع داخلى بين أنصار الرومان وأنصار القرطاجيين أدى الى تدخل الرومان وحصارهم لسيراكوزه • وقد حاول أهل سيراكوزه مقاومة الحصار الرومانى وقد ساهم فى هذه المقاومة العالم الرياضى ارشيميديس

Archimedes ولكن القائد الرومانى ماركيللوس Marcellus دخلها عنوة بعد استسلامها فى عام ٢١١ ق.م وأصبحت سيراكوزه مقر الحاكم الرومانى لولاية صقلية. وفى عام ٢١ ق.م أرسل الأمبراطور أغسطس مستوطنين من الرومان اليها حيث أنشأ فيها مستعمرة رومانية . وظلت سيراكوزه تتضائل بسبب الاستغلال الرومانى لصقلية حتى هاجمتها قبائل الفرنجة (Franks) عام ٢٨٠ ميلادية ونهبتها ودمرتها ، عندئذ بدأت المسيحية فى الانتشار فيها . هذا هو تاريخ المستوطنة من القيام حتى التدهور .

ومن المستوطنات الأخرى الهامة مستوطنة ميجارا هوبلايا Megara Hyblaea التى أنشأتها مدينة ميجارا على الساحل الشرقى للجزيرة وذلك ابان نهاية القرن الثامن ق.م ، كما قامت خالكيس بانشاء مستوطنة زانكلى (ميسانا) Zancle فى الركن الشمالى الشرقى من الجزيرة . وعند طرف كعب الحذاء الايطالى وفى مواجهة هذه المدينة أقامت خالكيس بانشاء مستوطنة ريجيوم Rhegium على الأرض الايطالية وبذلك سيطرت على المضيق المائى الذى يفصل بين مياه ايطاليا وصقلية ويعرف بمضيق ميسانا .

ومن المستوطنات الاغريقية الهامة فى صقلية مستوطنة هيميرا Himera على الساحل الشمالى لصقلية . كما أنشأ المهاجرون من كريت مستوطنة جيلا Gela على الساحل الجنوبى للجزيرة وقامت جيلا بدورها بانشاء مستوطنة أكراجاس Acragas كما قامت مستوطنة ميجارا هوبلايا بانشاء مستوطنة سيلينوس فى غرب صقلية .

هكذا انتشرت المستوطنات الاغريقية فى شتى أنحاء الجزيرة دون أى خطة محددة أو سياسة معينة ولكن حيثما اتفق . ولكن يجب أن نقول أن غرب صقلية بقى فى أيدى الفينيقيين بينما الصقليون الأصليون محصورين فى وسط الجزيرة . وانتشر الاغريق فى جنوب وشمال وشرق الجزيرة .

ولقد كانت المستوطنات الاغريقية فى جنوب ايطاليا وشمال صقلية مستوطنات مزدهرة وغنية لوقوعها فى مناطق سهول بركانية ولسيطرتها

على المنافذ التجارية حتى أضحت منافساً كبيرا للقرطاجيين والفينيقيين • ولكن هذه المستوطنات نقلت معها الخلاف والشقاق من بلاد اليونان •

ولقد كان جنوب ايطاليا بالذات بسهوله الشاسعة مطمعا للمستوطنين الاغريق خاصة من سكان شمال البيلوبونيسوس الذين أقاموا فيها عدداً من المستوطنات منها سيباريس Sybaris (١) وكروتون Croton وميتابونتوم Metapontum كما قامت اسبرطة بانشاء تاراس Taras (أو تارنتوم Tarentum) وقامت لوكريس بانشاء مستوطنة لوكرى Locri • كما أقامت سيباريس بانشاء مستوطنة بوسيدونيا (بايستوم) ، وبمرور الزمن ازدهرت المستوطنات المختلفة وأصبح جنوب ايطاليا يعج بالمدن الاغريقية لدرجة أن الرومان أطلقوا عليها اسم اليونان العظمى Magna Graecia • ومن الطريف أن الرومان اتصلوا بالاغريق وأطلقوا عليهم الاسم الذى عرفوا به وهو الاغريق Graeci

ثالثا : جنوب اوروبا :

وبازدياد النشاط الاستيطانى بدأ الاغرق فى استكشاف أوروبا خاصة أسبانيا ذات السهول الخصبة والمناجم الغنية بالفضة والقصدير فقام تجار فوكايا Phocaea بانشاء ماسيليا Massilia (مارسيليا الحالية) عند مصب نهر الرون وذلك حوالى عام ٦٠٠ ق•م والتى أصبحت قاعدة للنفوذ التجارى والحضارى للاغريق فى شمال أوروبا ومنها خرجت مستوطنات الى شبه جزيرة ايبيريا •

هكذا انتشرت المستوطنات الاغريقية فى غرب أوروبا بسرعة وبسهولة وذلك لخلو هذه المنطقة من الشعوب ذات الحضارة القوية والنفوذ السياسى القادر على مقاومة الاستيطان الاغريقى بعكس الحال فى الشرق الأوسط ولهذا السبب أيضا انتشرت الحضارة الاغريقية فى هذه المناطق بسرعة مذهلة وبدرجة تفوق الخيال وسرعان ما علم الاغريق شعوب أوروبا الغربية من أمثال الغاليين والرومان والأتروسكيين •

---

(١) وقد ضرب المثل بثراء سيباريس ولا يزال التعبير الانجليزى Sybarite Wealth يعنى الثراء الذى لا حد له .

وهذا أكبر قدر من المساهمة شارك فيه الاغريق من أجل تقدم شعوب القارة الأوروبية (١) .

رابعا : شمال افريقيا ووادى النيل :

وابان القرن السابع اقترب اغريق ساحل أيونيا الى مناطق النفوذ فى شمال افريقيا . وقام مواطنوا جزيرة ثيرا Thera بانشاء مستوطنة قورينى Cyrene لتكون حصنا للحضارة الاغريقية فى شمال افريقيا وكرأس جسر للنفوذ الاغريقى بين مصر وقرطاجه . كما قامت ميليتوس بدعم المحطة التجارية الاغريقية المقامة على الفرع الكانوبى للنيل والمعروفة باسم نقراطيس Naucratis حيث تحولت الى مدينة أيونية بعد أن ازدهرت الأحياء الاغريقية حول الهيللينيون Hellenion الاغريقى وهو مجمع كل آلهة الاغريق . ولما كانت مدينتا قورينى ونقراطيس ذات تأثير خاص فى تاريخ الحضارة الهللينية فى شمال افريقيا ومصر فمن الواجب علينا أن نعالج كلا منهما بشىء من التفصيل .

قورينه أو قورينى (شحات الحالية بمقاطعة برقه) ، هى تلك المستوطنة الجميلة التى وصفها الشاعر بندار بأنها « حدائق الربة افروديت » . وقد أسس هذه المستوطنة مجموعة من مهاجرى جزيرة ثيرا (وهى الآن جزيرة سانتورين الحالية) بناءً على نصيحة من كهنة الآله أبوللون بأن يبحثوا لهم عن مستوطنة على ساحل أفريقيا الشمالى فى الغرب من حدود مصر . وذلك ابان القرن السابع ق.م . وبعد أن ذهبوا يئسوا من الاقامة فيها فعادوا من حيث أتو بل وتجولوا فى البحر سنين عدداً ثم اضطروا للعودة الى قورينى مرة أخرى وذلك فى عام ٦٣١ ق.م حسبما تروى الأساطير .

---

(1) «In the west, the Greeks had nothing to learn but much to teach» Boardman, op. cit, p. 203.

كانت قورينى هى المستوطنة الأولى للاغريق فى شمال أفريقيا (١) ، محصورة بين ساحل البحر المتوسط وحافة الصحراء الليبية . وتروى الأساطير اسم قورينى مشتق من اسم ينبوع ماء هناك اسمه كورى Cyre ، وتقول أسطورة أخرى أن قورينى كانت فى الأصل حورية من حوريات البرارى والأدغال وصديقة لربة الصيد ارتيميس Artemis ، وكانت تعيش فى أدغال جبل بليون المقدس Pelion وذات يوم رآها أبوللون تقاتل أسداً فأعجب بها وهام بها حباً ثم حملها الى ليبيا حيث تزوج بها وجعلها أميرة على المنطقة بل وأنجب منها ابناً اسمه أرستايوس Aristaeus أصبح ربا للمزارع والمراعى . وقالت أسطورة ثالثة أن أحد ملوك ليبيا القدماء قطع على نفسه عهدا بأن يهب مملكته لمن يقتل أحد الأسود التى كانت تزعج السكان وتفتك بالماشية فلما فعلت قورينى ربة الأدغال ذلك وهب لها عرشه . على أى حال أقام المستوطنون الدوريون من قورينى ربة حامية على البلاد جنبا الى جنب مع أبوللون رب الاستيطان الذى انتقلت عبادته مع المهاجرين من اسبرطه وثيرا حيث عبد تحت اسم أبوللون كارنايوس (Apollon Karnaeios) (٢) .

من الواضح أن المستوطنين الاغريق اختاروا مكانهم لموقعه الاستراتيجى ولتضاريسه ولثراء تربته وجمال جباله التى تتخللها الينابيع وتنمو فيها المراعى الخصبة . وأقاموا أساس مدينتهم فى مكان يبعد عشرة أميال من البحر على ربوة تتدرج من الجنوب صوب الشمال ثم تنحدر بانكسار شديد صوب البحر لتصبح « أكروبولا » مناسبا للمدينة يرتمى البحر تحت قدميها . وتتكون المدينة من هضبتين يجرى بينهما طريق يربط بين قلب المدينة وشاطىء البحر . وكانت الهضبة الأولى تقع فى الجنوب الغربى والثانية فى الشمال الشرقى وتطل على البحر ، وبينما كانت الهضبة الأخيرة جرداء قاحلة كانت الهضبة

---

(١) اخطأ اميل البستانى فى دائرة معارفه عندما ظن ان قورينى هى القيروان الاسلامية والتى انشأها العرب فى تونس بالقرب من قرطاج وكان القفطى فى كتابه « أخبار الحكماء » اكثر صوابا اذ سماها بقورينا وسمى اهلها بالقورينائيين .

(2) cf. R. Goodchild : Cyrene and Apollonia, London. 1954, p. 8 ff.

الجنوبية الغربية خضراء وارفة تكسوها الشجيرات والأعشاب ويرويها ينبوع قورى (Cyre) الشهير المقدس عند أبوللون ولذا بنى لهذا الرب الأخير معبدا فيه كذلك للمؤسس الأسطورى للمستوطنة وهو رجل يدعى ارسطوطاليس • وقد عرف هذا التل الجنوبى الغربى « بجبل الريحان » (١) • وأصبح مركز الحياة الحقيقية للمدينة ولما توسع العمران فيها امتدت المبانى الى الجبل الشمالى الشرقى حيث بنوا فوقه معبدا للربة أرتيميس Artemis شقيقة أبوللون وصديقة كورى وكذلك بنوا عليه معبدا للربة المصرية أيزيس التى دخلت عبادتها الى ليبيا تحت تأثير الحضارة المصرية •

ومن المحتمل أن يكون هذا المكان معروفا للاغريق من أماكن متفرقة منذ وقت ضارب فى القدم (٢) ويقال أن بعضهم جاء من آسيا الصغرى ومن تساليا ومن البيلوبونيسوس منذ أيام الحضارة الموكينية أو بعد الغزوالدورى • والىجانب هؤلاء الوافدين الاغريق عاشت القبائل الليبية التى كانت تنتمى الى البربر وكما حدث فى كثير من المناطق التى ذهب اليها الاغريق حدث تزاوج بين القوميتين •

أطلقت الأساطير على زعيم المستوطنة اسم أرسطوطاليس ولقب باسم باتوس Battus التى يرى البعض أنها تعنى لقب الملك بلهجة السكان الأصليين بينما يقول آخرون أنها تعنى « المتلعثم » لأن أرسطوطاليس كان يعانى من مرض يجعله ينطق الحروف بصعوبة ونصحه كهنة أبوللون بالذهاب الى أفريقيا وهناك شاهد الأسد الرهيب فصرخ مرعوبا وحلت العقدة من لسانه • فبقى فى المكان وأسس المستوطنة •

---

(1) S. Stucchi : Dieci Anni di Missione Tripoli (1967) p 51 ff.

(٢) مصطفى كمال عبد العليم دراسات فى تاريخ ليبيا القديم ـ منشورات الجامعة الليبية ـ بنغازى ١٩٦٦ •

وقد استمر حكم أسرة باتوس حوالى قرنين من الزمـان والى أن سقطت الملكيات فى المدن الاغريقية وبدأ قيام الحكومات الأرستقراطية الأوليجارخية لتحل محلها ، عندئذ سقط حكم هذه الأسرة أيضا مثلما الحال فى باقى بلاد اليونان وذلك ابان منتصف القرن السادس ق٠م ، وقد عبد باتوس كبطل قومى وأقيم له ضريح فى السوق العامة للمدينة بينما دفن باقى ملوك الأسرة فى جبانة ملكية مجاورة للقصر ، وخلفه على العرش ابنه أركيسيلاس Arcesilas ومن بعد هذا الأخير تولى باتوس الثانى الملقب بالسعيد والذى فى عهده تدفق الاغريق على المستوطنـة ذرافات ووحدانا لدرجة أزعجت القبائل الليبية ، فطلب ملكهم النجدة من الملك المصرى ابريس Apries فأرسل الملك المصرى جيشـه الذى كان يتكون من المرتزقة الاغريق الذين رفضوا أن يقـاتلوا أشـقائهم الاغريق وانهزم المصريون أمام اغريق قوربنائية ، وقد أدت هذه الهزيمة الى عزل الملك المصرى ابريس وتعيين أماسيس (أحموسى الثانى) قائد الحملة المصرية ملكا على مصر ، وكان مجىء أماسيس فى صالح الاغريق لأنه كان مولعا بالثقافة الاغريقية بل أنه أقام دعائم حكمه على الاغريق الأيونيين ولهذا منحهم فى مصر حق تأسيس مدينة هى مدينة نقراطيس والتى سوف نتعرض لها بعد قليل ، بل ويقال أن هذا الفرعون تزوج من اغريقية من قورينى اسمها لاديكى وعامل القورينائيين معاملة خاصة وأغدق عليهم بالهدايا من بينها تمثال من الذهب للربة أثينـا وآخـر لأماسيس نفسه كما أرسلت لاديكى تمثالا لأفروديت صنع فى مصر وبقى فى قورينى حتى وقت زيارة هيرودوت لهذه المدينة بعد قرن من هـذا التاريخ ٠

وقد توطدت العلاقة بين فراعنة الأسرة الصاوية ومـلوك قورينه والتى بدأها أماسيس (أحموسى الثانى) وباتوس الثانى الذى مات عام ٥٦٠ وتولى من بعدها ابنه أركيسيلاس القاسى وسرعـان ما دب الشجار بين هذا الملك وبين شقيقه الأصغر اضطر هذا الأخير الى الهجرة من المدينة وتأسيس مستوطنة مستقلة هى برقه (Barca) ، ثم سـقط

أركيسيلاس الثانى صريعا وانتقمت أرملته اريكسو (Eryxo) من القتلة وساعدت ابنها باتوس الثالث فى الجلوس على العرش وكان ضعيفا وأعرجا ولذا لقب بالأعرج وسرعان ما ثار شعب المدينة ضده وطلبوا النجدة مّن اغريق شبه جزيرة البيلوبونيسوس فأرسلوا لهم مشرعا اسمه ديموناكس Demonax لوضع دستور جديد لهم ويقال أن ديموناكس قسم شعب المدينة الاغريقى الى قبائل (Phylai) على غرار ما فعله سولون وكليستنيس Cleisthenes مؤسسا الديموقراطية الأثينية • وكان من بين القبائل قبيلة لأهل ثيرا وأخرى لأهل كريت وقبيلة لليبيين • وبعد هذا التشريع الجديد لم يبق للملك سوى سلطات اسمية مثل السلطة الدينية وبعض الضياع • وبعد وفاة باتوس الثالث تولى اركيسيلاس الثالث الذى حاول بمساعدة أمه فيريتيمى Pheretime أن يستعيد سلطات الملك مرة أخرى وأن يبطل التعديلات الدستورية وذلك عن طريق جيش خاص جند من اغريق ساموس وقبرص •

ولما دخل قمبيز مصر فى عام ٥٢٥ ق٠م بايعت قورينه ومستوطنتها برقه الملك الفارسى وقدمت الهدايا اعترافا بخضوعها للأمبراطورية الفارسية ، ويقال أن الملك الفارسى أدمجهما فى ولاية مصر تسهيلا لادارتها • واستمر الصراع الاجتماعى يعصف بقورينى وبرقه خلال حكم الملوك الفرس قمبيز ودارا وكسيركسيس وقام النزاع بين قورينى وبرقه وسقط فى الصراع الملك أركيسيلاس الثالث وتولى باتوس الرابع الذى كسب لقب العادل ومن بعده حكم الملك اركيسيلاس الرابع آخر ملوك الأسرة الثمانية ويقول هيرودوت أنه بذلك تحققت نبوءة دلفى بأن يتولى عرش قورينى ثمانية ملوك أربعة يحملون اسم باتوس وأربعة يحملون اسم أركيسيلاس [١] •

---

(١) لمناقشة ذلك انظر ابراهيم نصحى : تأسيس قورينى وشقيقاتها ـ مطبوعات الجامعة الليبية بيروت ١٩٧٠ .

A. Rowe, A history of Ancient Cyrenaica, Cairo 1948.

كانت قورينة مستوطنة غنية ومركزا للتجارة بين افريقيا السوداء وبين بلاد الاغريق (١) ، وقد تغنى بنـــداز بثرائها وبوفرة محاصيلها خاصة القمح وأسهب هيرودوت فى وصف خيراتها خاصة بساتين الفاكهة فيها وأشجار الزيتون وأشجار السرو ونبات السلفيوم الذى كان يكســو روابيها • ونبات السلفيوم كان من أهم منتجاتها وهو نبــات طبى من أسرة الاسافيتيدا (asafoetida) قريب الشبه من الأعشـــاب الهنـــدية الطبية • وكان هذا النبات بعد عصره يخرج سائلا لزجـا يستخـــدم فى صناعة العقاقير • وكان يدر على المدينة دخلا كبيراً كما كان نبات البردى يدر على مصر • ولهذا احتكرت الدولة زراعته وتصديره • ولأهميــة هذا النبات صور على عمله المدينة بل وأصبح شعاراً لها • لكن هـــذا النبات انقرض ابان عصر الامبراطورية الرومانية لشدة الطلب عليه ولعدم العناية بزراعته ونتيجة للفوضى الاقتصادية التى حاقت بالمدينة فى العصر الرومانى كما اشتهرت المدينة بعسل النحل وبالزهور وبنبات الزعفران حتى تخيلها الاغريق بأنها حديقة افريقيــا • وتصـــوروا أن حـــدائق الهيسبيريدس Hesberides الأسطورية موجودة فيها • كما اشـــتهرت المدينة بالمراعى الشاسعة التى تربى عليها قطعان الماشية والأغنام خاصة الخيول الأصيلة ولهذا اشتهر ملوكها بحبهم لسباق العربات فى المباريات الرياضية الأولمبية التى كانت تقـــام بين الاغـــريق حيث تغنى بنـــدار بانتصاراتهم •

وبالرغم من ثرائها ورخاء الحال فيها الا أن قورينه كانت من أكثر المستوطنات الاغريقية تعرضا للصراع الاجتماعى والسياسى • لقد بقيت قورينة ردحا من الزمن بعيـــدة عن تيارات التغيرات السياســـية التى عصفت بأثينا وتوابعها فى شرق بلاد اليونان ابتداءً من صراع النبـــلاء ضد الملك فقيام الانقلابات التى أسقطت الحكم الأوليجـــارخى وأتت

---

(١) رجب عبد الحميد الاثرم « حالة قورينائية (برقه) منذ القرن السابع ق.م وحتى عام ٩٦ ق.م رسالة ماجستير غير منشورة (١٩٧٥) ص ٥٨ » .

بالطغاة ثم سقوط الطغاة وظهور نوع جديد من الحكم سماه الآثينيون بحكم الشعب أو الديموكراسيا •

بدأ تسلل الصراع السياسى الى المجتمع القورينى فى المرحلة التى راحت أثينا فيها تبشر بنظامها الجديد وتعمل على نشره فى أيونيا لاسقاط الطغاه الذين عينهم الفرس هناك واحلال الأحزاب الديموقراطية الموالية لأثينا محلها وقد أدى ذلك الى حدوث الصراع المباشر بين الفرس من ناحية وبين الأثينيين وأنصارهم من الاغريق من ناحية أخرى • وخرجت أثينا منتصرة ثم قامت بتأسيس حلف ديلوس الدفاعى وانطلقت فى طريق الديموقراطيــة والأمبراطورية • وفى ملحمــة صراع أثينــا مع الفرس وجدت الأولى نفسها تسارع لدعم حــركة تمــرد قامت فى مصر عــام ٤٥٤ ق•م بزعامة ايناروس ضد الحكم الفارسى وأرسلت أثينا أسطولا من مائتين من السفن لدعم الثوار ولكن الفرس دمروه تماما مثلما فعل نلسون مع الأسطول الفرنسى فى أبو قير بعد ذلك باثنين وعشرين قرنا واثنين وخمسين عاما • دمر قائد الأسطول الفارسى السفن الآثينية عن آخرها فى كارثة قومية كبرى وتشتتت الحملة الأثينية وذعر الجند هائمين على رءوسهم حتى وصــل بعضهم الى قورينه • وهنــا بدأ عصر الصراع الاجتماعى لأن هؤلاء الجند العائدين من القتال هو جنود الديموقراطية الأثينية ومن ثم بدأوا فى العمل على اثارة أهل قورينه من أجل اسقاط النظام الملكى واقامة نظام حكم ديموقراطى على غرار نظــام الحــكم الأثينى (١) •

لكن علاقة قورينه كانت تميل ناحية اسبرطه وذلك لأن نسبة كبيرة من سكان قورينة تنخرط من أصل دورى ثم أن شبه جزيرة البيلوبونيسوس يواجه قورينة ، وقد ظهر تعاطف قورينه مع اســبرطه عنــدما اندلعت الحروب البيلوبونيزية بين أثينا واسبرطه عام ٤٣١ ق•م • بل أن قورينه ساهمت فى مساعدة سيراكوزه الصقلية لصد الحملة الأثينيــة عليها ،

---

(1) F. Chammoux : Cyrene Sous la monarchio dés Battiades, Paris 1953.

وكان يمكن لقورينة أن تتورط أكثر فى هذه الحروب لولا ازدياد حدة الصراع الاجتماعى فيهـا (١) • وقد انفجر بركان هـذا الصراع عام ٤٠١ ق•م حيث فتك الفقراء بألف وخمسماية من الأغنيـاء ووجهـاء المدينة وهرب كثيرون وتولى الحزب الديموقراطى وراح يدعم سياسته واصـلاحاته مقتفيا أثر كليثنيس • فألغيت القبـائل القديمة وأقيمت قبائل جديدة تقوم على السلالات القومية ، ووضعوا قـوائم جـديدة للأعياد من أجل مزج المستوطنين فى جبهة واحدة ذات نظم واحـدة فى الادارة والقضاء وأصبحت المدينة بذلك أمم قبلية يجمعها اطـار دولة واحدة ويمثلها حكومة شعبية وديموقراطية •

ولما اجتاح بلاد اليونان مجاعة وقحط بسبب انتشـار وباء الملاريا ساهمت قورينى ببيع ما يقرب من ٨٠٥ ميديمنى (مكيال اغريقى) من القمح الى ما لا يقل عن أربعين مدينة اغريقية (٢) •

وفيما عدا ذلك لا نسمع عن المدينة شيئا حتى فتح الاسكندر لمصر عام ٣٣٢ ق•م واعلان قورينة ولاءها للقاهر المقدونى • ثم ارتبـاط مصيرها بعد موته بحكم البطالمة فى مصر •

كشفت أعمال التنقيب عن الآثار عن مدينة مزدهرة متسعة لها ميناء كبير على البحر الأبيض المتوسط هو ميناء أبوللونيا Apollonia بل وخرجت من المدينة عدة حملات استيطانية على ساحل افريقيا الشمالى، فالى جانب برقه Barca التى سبق ذكرها أسست مدينـة هسبيرس Hysperis فى عهد الملك اركيسيلاس Arcesilas الرابع وقد ارتبـط اسم هذه المستوطنة بأسطورة الجنة ذات الحدائق وأشجار التفاح ، ولكن اسم المدينة عدل الى اسم برنيكى Berenike زوجة بطليموس الثالث (ومكانها الآن بنى غازى) ومن المستوطنات الجديدة توخيرا Tauchira

cf. A. Laronde «Sur quelques grandes familles de Cyrene au IV eme Siecle, Actes du Colloque d, Histoire Sociale, 1970, Annales litt. de l'Université de Besancon, Paris les Belles lettres, 1972, pp. 63-74.

(2) cf. Marcus Tod ; «A Selection of Greek Historical inscriptions, vol II, no 196. OXford 1962, p 23 7 ff.

(مكانها الآن توكرة) والتى أعيد تسميتها الى أرسينوى (Arsinoe) كما أسست برقة بدورها مستوطنة فرعية هى بطلمية Ptolemais (مكانها الآن طلميثة) وذلك فى الشمال الشرقى منها وقد زادت بطلمية فى الأهمية حتى غطت على برقة ذاتها . وأخيرا حدث اتحاد بين كورينى وفروعها ميناء أبوللينا ، وبرقة وبطلميـة وتوخيرا وبرنيكى عرف باتحاد المدن الخمسة (Pentapolis) وبقيت قورينى رغم كل المصاعب السياسـية والاجتماعية التى عصفت بها المدينة الرئيسية لهذا الاتحاد .

لقد كانت الحياة الاجتماعية فى قورينى مبهجـة ومرحه فالأرض ثرية والمناخ جميل والرخاء متوفر وحب المتعة والحياة سائدة بين الناس وهو صفه من صفات الشعوب الاغريقية . وقد لعبت المرأة القورينائية دوراً بارزاً فى المجتمع تماما مثل المرأة الاسبرطية ، وأسست المعـابد الضخمة ، وعلى طول الطريق الصاعد الى أبوللونيا وحول الجبـل الشمالى الشرقى برزت مقابر المدينة منحوته فى الصخر كخلايا النحل ولها بوابات من الأعمدة ذات الطراز الدورى شبيهة بمقابر مدينة الاسكندرية فى العصر البطلمى . ويرى البعض أن فى بناء القبور على التل بحيث تظل على الأحياء كان شيئا مقصودا به أن يتعلم الأحياء من الأموات أن على الانسان أن يستمتع بعمره القصير قبل أن ينتهى . هكذا وعظ فيلسوف قورينى الأول ارستيبوس Aristippus ، وبعد موت الاسكندر حاول ثيبرون Thibron غزو المدينة من كريت مستغلا أموال الاسكندر التى سرقها وزير ماليته هاربالوس Harpalus وقاوم سكان المدينة حتى انتصروا ولكن سرعان ما دب الصراع بين الديمقراطيين والأوليجارخيين انتهى بطرد الأوليجارخيين واستنجادهم ببطليموس الأول الذى أرسل لهم أوفيللاس Ophellas الذى سحق بقايا ثيبرون وضم برقة لمملكة مصر البطلمية ولكن المدينة ثارت ضد هذا الاجراء واضطر بطليموس الأول الى ارسال حملة أخرى بقيادة أجيس أخضعتها تماما لمصر عام ٣١٣ ق.م .

وابان هذا الصراع الأخير ولد شاعر قورينى الأول وهو كاليماخوس ابن باتوس القوريني ولهذا ادعى هذا الشاعر أنه من نسل باتوس المؤسس الأول للمدينـــة . وقد تلقى كاليماخوس تعليمـــه فى أثينا ثم عاد الى الاسكندرية ليعمل مدرسا فى احدى مدارسها بضاحية اليوسيس ولمـا ذاعت شهرته رحب به بطليموس الثانى فيلادلفوس فعينه مسئولا عن مكتبة الاسكندرية الخالدة . وقد ترك هذا الشاعر من ورائه مالا يقل عن ثمانين مؤلفا شعرا ونثرا وهذا جعله من أشهر علماء عصره وأرقاهم فكرا وأقواهم أسلوبا وبلاغة . وكان كاليماخوس يفضل الأشــعار القصيرة وهو القائل : « أن الكتاب الكبير هم ثقيل » وفضل الاشعار القصيرة عن الملاحم والقصائد الطويلة بالرغم من أنه كتب قصيدة طويلة فى مــديح أبوللــون . ومن تلاميــذ كاليماخوس عالم الرياضــيات ايراتوستنيس Eratosthenes وصاحب الأبحاث الشهيرة فى الفلك وفى الجغرافيا ، ومن تلاميذه أيضا أبوللونيوس السكندرى الشهــير بأبوللونيوس الرودوسى Apollonios of Rhodes والذى خالف أستاذه فى الرأى وكتب ملاحم طويلة . أشهرها ملحمة رحلة بحاره السفينة أرجو (Argonautes) والتى قادها البطل ياسون الاسطورى (١) .

لم يشغل الثراء ورغد العيش أهل قورينى عن البحث فى العــلم والمعرفة فقامت بها مدرسة للطب والعقاقير منذ القرن السادس ق.م كسبت شهرة كبيرة واعتبرها الاغريق فى المرتبــة الثانية بعــد مدرسة بيثاجوراس (فيثاغورس ؟) التى كانت موجودة فى مدينة كروتون فى صقلية . أما فى مجال الفلسفة فقد نبغ فى قورينى الفيلسوف أرستيبوس Aristippos أحد تلامذة سقراط الحكيم الذى غادر أثينا بعــد موت معلمه ليعود الى قورينى حيث أسس مدرسة متميزة فى الفلسفة هى مدرسة اللذة (hedonism) وهى مدرسة تناقض المدرســة الكلبية التى تدعو الى التقشف وكبح جماح الرغبات ، بينما تدعــو

(1) H. Kraeling : The Ptolematic City of the Libyan Pentapolis, Chicago 1962-1 p. 1

وعن كاليماخوس انظر : عبد الله المسلمى : كاليماخوس القورينى — منشورات الجامعة الليبية — بيروت ١٩٧٣ .

مدرسة اللذة الى العكس من ذلك تماما . لأنها ترى أن اللذة والمتعة هى الغاية الوحيدة الصححة فى الحياة وأن الألم وتعذيب الذات ليس من رسالة الانسان وليس العاقل من يميت شهوته بل من يطلق لهـا العنان فينفث عما هو مكبوت منها بشرط الا يتبع ذلك ألم أو ندم على هذا الفعل ومن مدرسة اللذة والألم خرجت المدرسة الأبيقورية فيما بعد . وفى القرن الثانى ق.م ظهر فى قورينى مدرسة فلسفية ثانية على يد الفيلسوف كاريناديس Carneades الذى نادى بمذهب الشك المطلق قبل المعرفة Sceptisim وهو مذهب يناقض الرواقية التى تنـادى بالمعرفة والتصديق والفضيلة والايمان . وكا كاريناديس فيلسوفا مفوها بهر الرومان ببلاغته ومنطقة فى الجدل وذلك عندما زار وفد من رجال السناتو مدينة أثينا عام ١٥٥ ق. م حيث كان يترأس الأكاديمية الثالثة فى العاصمة الاغريقيـة أنذاك . وطالب كارنياديس الرومان بالتغير وتغير فكرتهم عن جوهر العدالة وأنها ليست «الفضيلة» (arete) بل الضرورة (ananke) وبلغ تأثير هذا الفيلسوف درجة جعلت كاتو الرقيب يقطع المهمة ويطالب بالعودة الى روما قبل أن يؤثر هذا الفيلسوف فيبلبل أفكار الوفد ويشككهم فى مبادئهم الرومانية

وقبل أن ننهى الحديث عن قورينى نود أن نشـير الى الأمـيرة القورينائية برنيـكى Berenike زوجة بطليموس الثالث الشهير بالرحيم Euergete لقد خلدت هذه الأميرة ذكراها بتقديم احدى ضفائر شعرها قربانا لمعبد أفروديت بمدينة الاسكندرية كنذر عليها بعد عودة زوجها من حروبه فى سوريا ، وقد خلد كاليماخوس هذا الوفاء فى قصيدة لم يتبق لنا منها سوى بعض آبيات نقلها لنا الشاعر الرومانى كاتللوس Catullus وقد ادعى المنجمون أن هـذه الخصلة طارت فى السماء لتصبح برجا من الأبراج السماوية هو برج برنيكى Coma Berenikes.

لقد ساءت أحوال قوريني فى أواخر عصر البطالمة بسبب الصراع على العرش حتى كتب بطليموس أبيون (وهو أحد أبناء بطليموس الثامن الشهير بالمترهل أو فيسكون Physkon من احدى محظياته) وصيته التى بمقتضاها آلت قوريني وأراضيها الى الرومان عام ٩٦ ق.م ولكن عادت الاضطرابات الى المدينة مما دعى سوللا الدكتاتور الرومانى الى ارسال حملة لقمع الثورة فيهـا عام ٨٦ ق. م بقيـادة لوكللوس Lucullus أحد كبار ضباطه (١) ولم يمضى على ذلك كثير حتى تحولت قوريني الى ولاية رومانية ضمت الى جزيرة كريت وهكذا ينتهى تاريخ هذه المدينـة الحافل بالأحـداث لتصبح جزءا فى الامبراطورية الرومانيـة .

وكما كان الحال فى مصر كانت بداية الحكم الرومانى طيبة ولكن سرعان ما تدهور الحـال بسبب الصراع بين اليهـود والاغريق وبين الاغريق والليبيين الوطنيين ، ثم نشبت الأوبئة وأحدثت الزلازل كوارث مميتة بها ودمر بدو الصحراء الكثير من معالمها وتحولت قوريني الى قرية صغيرة منسية تعيش على ذكراها . وعندما زارها الكاتب الرومانى أميانوس ماركللوس فى القرن الرابع وجدها قرية شبه مهجورة . ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية الى شرقية وغربية لم يعد للمدينة ذكر اذ طغت عليها رمال الصحراء ونهبها بدو الصحراء ولما غزاها كسرى ملك الفرس فى مطلع القرن السابع الميلادى لم يجد أحدا يسكنها .

وبقيت قوريني أطلالا غارقة فى الرمال تندب الحاضر وتبكى على الماضى الى أن لفت القنصل الفرنسى فى طرابلس واسمه ليميير Lemaire

---

(١) عن قوريناية فى العصر الرومانى : انظر : عبد الكريم الميار : قوريناية فى العهد الرومانى رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٣ .

نظر سلطات بلاده فى أوائل القرن الثامن عشر ونشر كتابا عنها وعن آثارها ، ومنذ ذلك التاريخ توالى الدارسون والعلماء خلال النصف الثامن من القرن التاسع عشر يرسمون ويسجلون ويجمعون ما يقدرون عليه من آثارها • بل أجرى العالمان سميث Smith وبوشر (١) حفائر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر • ولكن الحكومة العثمانية التى آلت اليها مصر وبلاد المغرب العربى كانت تعارض عمليات التنقيب خوفا من النهب والسلب الأوروبى لآثار ولاياتها • ولم تبدأ عمليات التنقيب والنهب الأوروبى بشكل واضح الا بعـد عام ١٩١١ م عنـدما انتزع الايطاليون ليبيا من بين براثن العثمانيين ونقلوا ما استطاعوا أن ينقلوه الى متاحف ايطاليا وفرنسا وانجلترا لكن الكثير لا يزال تحت التراب فى انتظار معاول الأثريين •

٢ — نقراطيس :

على خلاف المستوطنات الاغريقية الأخـرى قامت نقراطيس على ضفاف الفرع الغربى من النيل وبالقرب من سايس (Sais) صالحجر عاصمة الأسرة الصاوية • ولم تعرف المدينة مؤسسا ولا أقيم لها طقوس ولا أشعل لها موقد أخذت ناره من موقد فى مدينة أم ولا تدخل كهنة أبوللون فى اختيار (٢) مكانها ، انما يرجع الفضل فى تأسيسها الى ملوك الأسرة الصاوية أنفسهم وهو رغبتهم فى تجميع الجنود والتجار الاغريق فى مدينة قريبة من عاصمتهم حتى يكونوا تحت بصرهم واحتراما لمشاعر المصريين الذين أثارهم اعتماد هذه الأسرة على الأجانب خاصة فى الجيش •وكان الفرعون بسماتيك (٦٦٣ — ٦١٠ ق•م•) هو الذى فكر جديا فى تنفيذ ذلك ولكن أماسيس (أحموسى الثانى) الذى اشتهر بصداقته للاغريق (٥٦٩ — ٥٢٨ ق• م) هو الذى وضع قرار بسماتيك موضع التنفيذ ومنح الاغريق المقيمين أو العابرين أرضا ليبنوا عليها معابدهم ومحاريبهم وساحاتهم المقدسة • ويرى البعض أن السبب الدافع لذلك ليس حب

---

(1) cf. Smith p. Porcher : Discoveries at Cyrene 1861-2.

(2) A.J. Graham, op. cit, p. 25 ff.

الاغريق بقدر ما هو الخوف (١) والرعب من تزايد خطر الامبراطورية الفارسية واتجاهها نحو مصر ، تلك المنطقة الحيوية بالنسبة لمصالح الاغريق التجارية خاصة القمح (٢) الذى كانوا يجمعونه بالفضة أو بالعملات الفضية من قرى الدلتا ثم يصدرونه عبر الفرع الغربى للنيل الى الجزر الاغريقية فى بحر ايجه والى مدن أيونيا وأثينا وكورنثا أيضا ولهذا يرتبط تأسيس نقراطيس بتزايد النفود (٣) الفضية للمدن الاغريقية المختلفة . لكن الرعب من خطر الفرس هو الذى دفع بسماتيك الى الاعتماد على الجنود الاغريق (٤) وتوطيد علاقته بالمدن الاغريقية فى أيونيا والتى باتت هى الأخرى مهددة من قبل الفرس . كما لوحظ أن خبراء فى بناء الأساطيل من كورنثا استدعوا الى مصر ليبنوا سفناحربية (triremes) للملوك هذه الاسرة من أجل تحقيق أحياء المجد المصرى المنهار (٥) . وهكذا عندما جاء الفرعون أماسيس الى العرش وجد تجارة مصر الخارجية فى أيدى الاغريق وهو خطر لابد من احتوائه خاصة أنه جاء الى العرش بعد ثورة وطنية قادها الجيش المصرى ضد سلفةأبريس لاعتماده هو الأخر على الجنود المرتزقة الاغريق الذين رفضوا القتال ضد اغريق قورينة بنى جلدتهم مما أدى الى هزيمة الجيش المصرى هنا ك، ومن ناحية أخرى رأى أن أحلام الأسرة فى استعادة نفوذ مصر فى الشرق الأوسط قد أصبحت عسيرة بل ان استقلال مصر ذاته بات مهددا بسبب التوسع الفارسى وكان عليه أن يتذود بالجيوش المرتزقة لخبرتهم بالقتال وللخوف من ثورة المصريين ضدهم ولهذا رأى، أن الحل السليم هو جمع الاغريق فى مكان واحد قريب من العاصمة ومن ثم

---

(1) cf. K. Roebuck, «The Organisation of Naukratis,» Classical Philology, 46 (1946) pp. 212., also ct R.M. Cook,» Amasis and the Greeks in Egypt, J.H.S., LVII (1937) 236 ff.

(2) Karl Roebuck, «The Grain Trade between Greece F. Egypt,» Classical Philology, XLV (1950), p. 241 ff. also. Milne, J.E.A, XXV (1939) p. 64 ff.

(3) K. Roebuck, loc. cit, p. 236 mate 5.

(4) Parker Greek Merccnary ., p 126.

(5) cf. Alan. B. Lloyd, «*Triremes and The Saite Nary* » J.A.E, 58 (172) pp. 268-279 ; cf. also. Austin, Greece and Egypt in the Archie period, (1970) p. 55.

تستطيع أن نقول أن تأسيس نقراطيس يبدأ بعهد بسماتيك الأول وهو ما تؤكده الظواهر الأثرية (١) حيث بدأ الاغريق فى اقامة المحاريب والمعابد والأسواق (emporion) وبدأوا يشرفون على ادارة الميناء ويكونون مجتمعا مختلطا وممثلا لكل الاغريق وخاصة تسع مدن مؤسسة جميعها ساحة مقدسة كبرى هى الهيللينيون Hellenion وهى خيوس وتيوس وفوكايا وكلازوميناى (وكلها مدن أيونية فى آسيا الصغرى) بالاضافة الى رودس وهاليكارناسوس وكنيدوس وفاسيليس (وهى مدن دورية أسيوية) ثم مدينة واحدة أيولية هى موتيلينى (فى جزيرة لسبوس) ، وقد عينت كل مدينة من هذه المدن مختارا أو مندوبا (Prostates) عنها لتشيلهم فى الهيللينيون وخارج الهيللينيون أقامت جزيرة ايجينا محرابا خاصا لزيوس وأقامت جزيرة ساموس محرابا لهيرا . أما ميليتوس فقد أقامت محرابا لأبوللون .

لكن النصوص التاريخية ـ خاصة كتابات هيرودوت واسترابون تذكر أن تجار ميليتوس هم أول من أسسوا نقراطيس (٢) وقد يكون صحيحا أن التجار الأول جاءوا من ميليتوس حيث تخلف تقويمها الذى ظل مستخدما فى المدينة حتى القرن الثانى الميلادى رغم اختفائه فى ميليتوس نفسها، ولكن يبدو أن ميليتوس شغلت نفسها بعد ذلك فى استيطان الغرب الايطالى ومنطقة البحر الأسود فتدهورت مصالحها فى نقراطيس وحلت محلها خيوس وتابعتها جزيرة تيوس لأنهما كانا فى أشد الحاجة الى القمح المصرى ثم دخلت رودس كمنافس لهما حيث عينت ممثلا تجاريا وسياسيا لها Proxenos فى نقراطيس وحذت أثينا حذوها فى القرن الرابع ق.م الى أن نهضت كورنثا واتجهت للتجارة مع مصر وأخيرا ترك المجال بأكمله لمدينة أثينا . ومن ثم يتضح أن نقراطيس كانت مستوطنة جماعية أيونية

(1) Prinz, Funde Aus Naukratis, Klio, VII (1903) pp. 115-116.
(2) Herodotus, II, 178 ; Strabo. XVII, 18 (801)

وفى البدء كانت كل مدينة اغريقية تدير سوقها emporion وتستقل بمعبدها أو ساحتها المقدسة Temenos وكان يدير ذلك ممثل Prostates للجالية تعينه المدينة الأصلية التى جاء منها أفراد الجالية . ولأن التجارة الاغريقية كانت عادة فى أيدى الاجانب وليس فى أيدى المواطنين فقد جاء قرار أماسيس بوضع ادارة المدينة فى أيدى المواطنين الاغريق المقيمين فى نقراطيس والذين لم يكن لهم أسواق ومن ثم فان ادارةالأسواق كانت مستقلة عن ادارة المدينة تماما مثلما كانت ادارة ميناء بيرية فى أيدى المواطنين الآثينيين بينما كانت الأسواق فى الميناء فى أيدى التجار الغرباء .

لكن ظروف الاغريق فى بلد بعيد ، له شخصية قوية وحضارةعريقه ووسط محيط من المواطنين المعادين لهم ، دفعهم الى التماسك والارتفاع عن الخلافات الفكرية التى كانت سائدة فى مدنهم التى جاءوا منها وانصهروا فى مجتمع متحد لكل الاغريق وجعلوا ربتهم « أفروديتى لكل الناس Aphrodite Pandemos » هى الربة الجامعة وجعلوا الهيللينيون هو سوقهم العامة (agora) والمركز الاجتماعى والهيئة المديرة للمدينة بمثابة الجمنازيوم ابان عصر البطالمة والرومان . فمثلا داخل الهيللينيون تلك الساحة ذات الحجرات المتعددة حرصت مدينة كنيدوس على نصب قرار تعيين مندوب لها (proxenos) فى المدينة . وبمرور الزمن حدث الادماج بين الطوائف والجاليات واكتملت شخصية المواطن النقراطيسى الاغريقى وأصبحت المدينة جديرة بلقب « البوليس » (Polis) مثل أى مدينة اغريقية أخرى ، بل على العكس كسبت سمعه عالية وعالمية فى العالم الاغريقى كمركز للهو والمتعة مشهور بالخليلات الجميلات (hetairai) ، وتردد ذكرها فى الكتب والروايات الاغريقية . وعندما حرق معبد أبوللون فى دلفى كانت نقراطيس على قائمة المدن

التى سارعت بالتبرع لاعادة بناء هذا المركز الدينى الهام . ولما فتح الاسكندر مصر اختار نائبه لحكم مصر من بين أبنائها ، وفى عصر البطالمة احتفظت بمكانتها بل وسكت عملتها الخاصة فى مطلع حكم هذه الأسرة كاصرار على الاستقلال بمدينتهم رغم اتجاه ملوك العصر الهيللينستى لبناء الممالك وليس لدويلات المدن .

أيضا تتميز نقراطيس بالقوانين الاغريقية الصارمة والمحافظة التى حظرت على مواطنيها التزاوج من غير الاغريقيات (epigameia) حفاظا على العنصر الخالص ، والجدير بالذكر أن الامبراطور هادريانوس عندما أسس مدينته فى مصر الوسطى وهى أنتينوبوليس (الشيخ عبادة) لم يجد دستورا اغريقيا خالصا ونقيا سوى دستور نقراطيس لينسج على منواله دستور حاضرته مع تغيير بسيط وهو التغاضى عن فكرة تحريم التزاوج من المصريات لأن أغلب الاغريق فى ذلك الوقت كانوا قد امتزجوا بالمصريين بالزواج أو المولد . ومن الملاحظ أيضا أن دستور نقراطيس لم يتأثر بالتطورات السياسية والتنظيمية التى خبرتها المدن الاغريقية على يد سولون وكليثنيس وبيريكليس فمثلا لم تعرف نقراطيس نظام تقسيم المدينة الى قبائل (phylai) أو احياء (demes) الذى أصبح طابع المدن الاغريقية فيما بعد وشرطاً من الشروط الأساسية للحصول على حق المواطنة فى المدينة الاغريقية .ويبدو أن سكان نقراطيس فضلوا البقاء محايدين ازاء الصراع الفكرى والسياسى بين أثينا واسبرطة لأن وضعهم فى مصر يقتضى التماسك كما أن الفرس لم يسمحوا بادخال الديموقراطية الأثينية فيها خوفا من انتقال عدواها الى المصريين مما يؤدى الى الثورة والمطالبة بالتحرر : ومن المعروف أن مصر سقطت فى براثن الفرس عام ٥٢٥ ق.م. وظلت هكذا - باستثناء فترات قصيرة من الاستقلال - حتى دخل الاسكندر مصر عام ٣٣٢ ق.م.

وبالرغم من أن سكان نقراطيس بذلوا كل ما فى وسعهم لمنع الاختلاط بالمصريين والتشبث بحضارتهم الاغريقية الا أن هذا الحرص لم يمنع من تأثير مصر الحضارى على الاغريق فى نقراطيس ، فمثلا لاحظ

الأثريون تأثير الهندسة المصرية وفن الرسم الفرعونى فى مقابر المدينة الاغريقية ، بل أن بعض الاغريق فى نقراطيس رسموا « الباب الوهمى » (الذى كان الفراعنة يحرصون على وجوده فى مقابرهم حتى تتردد الروح على الجسد) وهم لا يدرون معناه . وحديثا تمكن علماء النقوش من رصد بعض أسماء يدل أصحابها على أنهم اغريق متمصرين .

ويتضح من الآثار أن نقراطيس مرت بحركة رواج وازدهار ابان العصر البطلمى خاصة ابان عصر فيلادلفوس (١) وأصبحت مركزا تجاريا دوليا وذلك واضح من كثرة المواد والآثار المستوردة من كافة أنحاء العالم الهللينستى كما أخرجت المدينة فريقا من رجال الفكر والفن والعلم من أمثال فيليستون Philistus وعالم وأبوللونيوس Apollonius الاجتماع بوليخارموس Polycharmos وخارون Charon وليكياس Lykeas فى العصر الرومانى كما أخرجت المدينة خايريمون Chairemon والكاتب الشهير أثينايوس Athenaeus والمؤرخ يوليوس بر!كس Julius Pollux

ولكن كغيرها من مدن مصر بدأ التدهور يلحق بنقراطيس فى نهاية القرن الثانى الميلادى عندما حاق التدهور بالامبراطورية الرومانية ، فتدمر المعبد الكبير وهجرت منازلها المتجاورة والمتلاصقة والتى كانت مقامة فوق روابى المدينة واختفت مرافقها ومدرستها . حتى اضطر بروكلوس Proklos آخر أساتذتها الى الهجرة الى أثينا حوالى عام ١٩٠ ميلادية ، كما أن ثورة فلاحى الدلتا والمعروفة بثورة الرعاة (Bucolic) استهدفت المدينة وألحقت بها أضرارا بالغة فى عام ١٧٥ ميلادية . ونستطيع أن نقول أن المدينة تضاءلت ما بين ١٥٠ — ٢٥٠ ميلادية لكن أغلب الظن أنها لقيت ضربة قاضية ابان ثورة رعاة الدلتا الوطنيين. وبقيت بعد منتصف القرن الثالث الميلادى ذكرى لأن استيفان البيزنطى أشار

(1) Flinders Petine Naulcatis I, London 1898, p 11.

الى وجودها فى نهاية القرن الخامس الميلادى . ويدل على ذلك وجـود الموازين البيزنطية ثم وجود بقايا كنيسة (١) وبعض الرسوم المسـيحية الأخرى . ولكنها ظلت تتضاءل حتى اختفت ابان القرن الثامن الميلادى ثم زحف الاصلاح الزراعى فى العصر الحديث عليها حتى بقيت أطلالا تطل على الحاضر فى حسرة الى أن بدأ سير فلندرز بترى وارنست هوجارث فى التنقيب فى تلالها خلال الثمانينات من القرن التاسع عشر حيث نشرا أبحاثها فى مجلدين كبيرين احتوى على ما عثرا عليه من كميات كثيرة من الاوانى الاغريقية المصورة والتى تعتبر مصـدرا أساسيا لتـاريخ الفن الاغريقى وهى موزعة الآن على متاحف العالم خاصة المتحف الاشمولى بأكسفورد وفيتزوليام فى كامبردج والمتحف البريطـانى بلندن ويوجد قليل منها فى متحف القاهرة .

هكذا تدهورت نقراطيس الى عدة قرى صغير تغطى الآن قرى كيمان كوم جعيف ونبيرة وتل نقرش التابعة لمركز بسيون غربية .

خامسا : منطقة البحر الأسود :

كانت منطقة البحر الاسود منطقة حيوية للاغريق كمصدر غـذائى خاصة بالنسبة لانتاج القمح الذى اشتهرت به حقول هذه المنطقة الخصبة ولهذا شجع الارخون سولون استيراد القمح من هذه المنطقة . وفى عصر الطاغية بيـسستراتوس شجع على ارسـال حمـلات استيطانية فى هذه المنطقة خاصة وأن الشرق الاوسط أصبح مهددا من قبل الفرس وأصبح الاعتماد على قمح النيل أمرا غير مضمون ولما سقطت مصر فى حـوزة الفرس أصبحت منطقة البحر الاسود وجنوب روسيا هى المنطقة البديلة لجلب القمح الى بلاد اليونان ولذا ارتبـط ضـمها الى أثينـا بقيـام الامبراطورية الآثينية سواء الأولى أو الثانية .

كانت ميليتوس هى رائدة المدن الاغريقيـة فى حـركة الانتشـار والاستيطان فى البحر الأسود منذ منتصف القرن السابع ق.م تقريبا وبدأ بحارتها فى استكشاف مجاهل البحر الاسود الذى كانوا يعتبرونه بحرا

(1) Cf. Von Bissing, Naukratis, B. S.A. al.,1951) p. 33ff.

بحرا مضيافا لأنهم عرفوا مجاهله (axeinos) حتى عرفوا مجاهله وأصبح بحرا مضيافا لأنهم عرفوا مجاهله (Euxeinos) وهو ما اشتهر به اسم هذا البحر حتى مطلع العصر الحديث •

ومن الجدير بالذكر أن الحاجة الى الغذاء والتجارة هى التى شجعت على انشاء المستوطنات فى هذه المنطقة التى لم تتدخل فيها كهنة أبوللون لا بالنصح أو الايحاء • ففى شمال البحر الأسود أسست مستوطنة أولبيا olbia (أوديسا الحالية) وفاسيس Phasis فى شرق البحر الاسود وترابيزوس Trapezus فى الجنوب • وسرعان ما دخلت مدينة ميجارا كمنافس فى انشاء المستوطنات فى هذه المنطقة فأنشأت هيراكليا Herklea فى الخرسونيس chersonese (القرم) وراحت هيراكليا تقيم بدورها العديد من المستوطنات الصغرى فى هذه المنطقة • كذلك أقامت عددا من المستوطنات على جانبى مضيق الهيلليسبونت المؤدية الى البحر الاسود وعلى شواطىء بحر مرمرة (Propontis) • وعند مدخل البحر الاسود أقامت ميجارا أيضا مستوطنتان للتحكم فى هذا المضيق وهما خالكيدون Chalcedon وبيزنطيوم Byzanticn من أجل احكام القبضة على البحر الأسود ونظرا لأهمية بيزنطه حيث قدر لهذه المستوطنة الصغيرة أن تصبح عاصمة لامبراطورية ووريثة للحضارة الأغريقية والرومانية فى الشرق يتوجب علينا معالجتها بشىء من التفصيل •

بيزنطة :

قدر لهذه المستوطنة الصغيرة التى أقامها أهل ميجارا على الجانب الأوروبى من مضيق البسفور أن تصبح وريثه لتراث الحضارة الاغريقية بل وللامبراطورية الرومانية بعد زوالها فى الغرب مكونة حضارة متميزة سياسة ودينا وفنا عرفت بالحضارة البيزنطية •

أقام المستوطنون الاغريق مستوطنتهم فوق المرتفع الشرقى من مرتفعات المدينة السبع التى تحتويها الآن مدينة اسطنبول ، وكان البحر يحيط بها من ضلعيها ولها ميناء طويل مقوس فى الشمال الغربى عرف باسم القرن الذهبى وفى الجنوب الغربى من المستوطنة يقع بحر مرمرة وبين بحر مرمرة

والقرن الذهبى يقع بوغاز البسفور • وبمرور الزمن اتسعت المستوطنة غربا وضمت لها مرتفعين آخرين من تلال المدينة ثم أحاطت نفسها بأسوار ضخمة ومنيعة ومبنية من كتل ضخمة من الحجر أكسبها شهرة بأنها مدينة لن تسقط أبدا ولا يزال بقايا هذا السور العظيم شاهدا على ضخامة البناء الذى كان يحيط بالمدينة كالهلال من ناحية البحر ويتخلله سبعة أبراج دفاعية بنيت بطريقة هندسية تكبر الصوت حتى يمكن للحراس التخاطب وهم على مسافات بعيدة ، وكان للمدينة ميناءان محصنان يمكن اغلاقهما بسلاسل حديدية ضخمة وتعطيل الملاحة • أما مناخها فهو معتدل فليس هو بالشديد الحرارة صيفا ولا شديد البرودة شتاءا •

جاء المستوطنون الأول الى هذا المكان الحصين فى منتصف القرن السابع ق• م• وكان مستوطنو خالكيدون المواجهة لها على الجانب الآسيوى الشرقى قد سبقوهم بقليل (١) والذين جاءوا أيضا من ميجارا • ومن مفارقات التاريخ أننا لا نعرف على وجه الدقة هوية المستوطنين الأول الذين أسسوا بيزنطة لكن نسبة كبيرة منهم جاءت من ميجارا والباقى خليط من جاليات تتحدث الاغريقية بلهجة دورية كذلك لا نعرف الكثير عن تاريخ المستوطنة المبكر لأن مستوطنوها انشغلوا فى مقاومة القبائل التراكية المعادية وفى تحصينها برا وبحرا • ومن الغريب أن بيزنطة أيدت الفرس أثناء حملتهم ضد بلاد الاغريق وقدمت للملك الفارسى بعض السفن ولكنها عادت وتمردت على الفرس فاستولى عليها القائد الفارسى أوتانيس Otanes وادخلها فى حوزة الامبراطورية الفارسية •

كان موقع بيزنطه مسببا للكثير من المشاكل لها • اذ تنازع عليها المدن الأيونية من ناحية والفرس من ناحية أخرى وتناوب الطرفان احتلالها مما ألحق الأذى الكثير بسكانها • وبعد هزيمة الفرس بقيادة كسيركسيس عام ٤٨٧ حرر الملك الأسبرطى باوسانياس بيزنطه من

(١) فيما بعد سخر الاغريق من غباء المستوطنين الميجاريين لعدم ادراكهم اهمية بيزنطه وآثروا الهروب من خطر القبائل التراكية والنزول على الجانب الاسيوى الشرقى حيث اسسوا خالكيدون التى سماها الاغريق سخرية « بمدينة العميان » لان موقع بيزنطه كان على مرمى البصر منهم ولم يدركوا همیته •

قبضة الفرس ثم حكموها بقبضة حديدية لا تقل عن تسلط الفرس حتى حررها الأثينيون مرة أخرى من الأسبرطيين عام ٤٧٠ ق٠م ٠ ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصيرها بمصير أثينا وأصبحت عضوا بارزا فى حلف ديلوس ومن أكبر توابع آثينا عندما تحول هذا الحلف الى امبراطورية ٠ وفى أثناء الحرب البيلوبونيزية ظلت بيزنطة وفيه لأثينا حتى هزيمة أثينا فى صقلية حيث تأكد أهل صقلية من عدم جدوى تأييد أثينا فحدث انقلاب أطاح بالحزب الديمقراطى المتعاطف مع أثينا وحل محله الحزب الموالى لأسبرطه وهو الحزب الأوليجارخى وذلك فى عام ٤١١ ق٠م٠ وانفصلت عن الامبراطورية الأثينية٠ ولم تكن أثينا لترضى بذلك وهى التى تعتمد اعتماداً حيويا عليها فى الغذاء والتجارة ، فقام الكبياديس بحملة ضدها اسقط فيها الحزب الأوليجارخى وأعاد الحلف الديموقراطى الى الحكم وأعيدت بيزنطة الى حوزة الامبراطورية ٠ ولكنها وقعت فى حوزة الاسبرطيين بعد هزيمة أثينا النهائية عام ٤٠٤ ق٠م ٠ وأقام الاسبرطيون فيها حامية ٠ هكذا كان تاريخ أسبرطه محل صراع عليها بين الفرس والاغريق من ناحية وبين الآثينين والاسبرطيين من ناحية أخرى ٠

كان ميناء بيزنطه مركزا تجاريا هاماً وحيويا سواء للقمح أو الأسماك المملحة أو عسل النحل البرى كله يتجه الى أثينا مركز الاستهلاك وكانت أثينا تصدر لها زيت الزيتون والمنسوجات الصوفية والنبيد بينما كانت بيزنطه تقوم بتوزيع هذه المنتجات على بقية المستوطنات فى البحر الأسود وبذلك أصبحت تجنى أرباحاً طائلة من وراء ذلك ومن المكوس التى كانت تفرضها على السفن التى تمر عبر البحر الأسود الذى سيطرت على مداخله داماً ٠

ولما كانت المدينة مقامة على تربة صخرية جافة قليلة المياه ، فقد اعتمدت فى رى حقولها فى السهول المحيطة بها على تخزين مياه المطر وبفضل هذه الخزانات الجوفية زرعت المدينة السهول بالقمح الجيد وبالكروم الممتاز ولذا صورت على عملتها ديميتر ربة القمح وديونيسيوس رب الكروم والخمور ٠ بالاضافة الى ذلك اشتهرت المدينة بأشجار

التين ، فضلا على شهرتها بأسماكها المصنعة والتى كانت تشكل دخـلا كبيراً للمدينة من تصديرها . كما اشتهرت بيزنطة بأنها مدينة العقـاقير والسحرة والعرافين . ولقـد ألهى الرخـاء مواطنيها عن الصراعـات والحزازيات السياسية فوضعت قوانين عادلة ساوت بين كل المواطنـين فلا تفرقة فى الفقر أو الثراء أو الوضع الاجتماعى . وكان معظم سكانها يتمتعون بحقوق المواطنة فى المدينة .

وفى أبان الامبراطورية الأثينية الثانية أعيدت بيزنطه الى أثينا على يد ثراسيبولوس Thrasybulus بالرغـم من أن العلاقة مع أثينا لم تعـد قوية كما كانت .ولما حاول فيليب المقدونى احتـلالها بالقـوة قاومت بيزنطه وحصنت نفسها بقيادة ليون أحد تلامذة أفلاطون وسارعت أثينا لنجدتها بكل ما تملك حتى أن ديموسثنيس جهز سفينـة من أمـواله الخاصة لمساعدتها ، وازاء المقاومة العنيفة انسحب فيليب وهللت بيزنطه لهذا النصر ووجهت الشكر لأثينا وأمرت بانشاء نصب تذكارى اعترافا بهذا الفضل ومنحت الآثينيين حقوقا شرفية أعلنتها خلال الألعاب الأولمبية وفى دلفى ونيميا وكورنثا . ولما سقطت بلاد اليونان الوسطى فى حوزة مقدونيا أثرت بيزنطه الانزواء والاهتمام بالربـح والتجـارة حتى بعـد موت الاسكندر وقيام الصراع بين ورثته من القادة بقيت بعيـدة عن هـذا الصراع ولم تتعرض للخطر الا فى عام ٢٧٨ ق.م عندما هاجمها الغاليون واستولوا على أراضيها وبقوا فيها حتى نزحوا الى آسيا الصغرى . كما دخلت بيزنطه فى حرب مع رودس بسبب السفن المـارة عبر البسفـور وانتهت هذه الحرب بتنازل بيزنطه عن هذا الحق .

وفى ابان القرن الثانى ق.م بدأت علاقة بيزنطه بروما حيث عقدت بينهما معاهدة صداقة وتعاون وأصبحت بيزنطه قاعدة روما العسكرية فى آسيا الصغرى ونعمت المدينة بالسلام والرخاء الرومانى ابان القرن الثانى الميلادى الا أن أصبحت مداراً للقتال بين الجنرالين نيجر ومنافسه سبتيميوس سيفيروس عام ١٩٣ ق.م بسبب التصارع على العرش، ولما كانت المدينة من مؤيدى القائد الأول فقد فتك سبتيميوس سيفيروس بها حتى بعد

استسلامها عام ١٩٦ بقسوة أذهلت العالم المتحضر حيث سلبها امتيازاتها وحولها الى قرية تابعة لمدينة بيرنثوس (Perinthous) المجاورة لها ، وبالرغم من أن سيفيروس حاول بعد ذلك اصلاحها وتعميرها بكافة وسائل الترفيه من مسارح وحمامات ومعابد .

وفى القرن الثالث تعرضت لخطر القوط المهاجمين الذين لم يستطع الرومان صدهم . ولما قرر دقلديانوس اعادة تقسيم الامبراطورية اختار بيزنطه لتكون عاصمة الجزء الشرقى وبعد انتصار قسطنطينوس على خصمه ليكينيوس وطارده شرقا حتى بيزنطه أعجب بالمدينة وقرر أن يجعل منها روما الجديدة ، وذلك فى عام ٣٢٣ م ، وبذلك بدأ العهد البيزنطى والذى أصبحت المدينة مركزه وعاصمته .

ومن أعظم العبقريات التى أخرجتها المدينة فى مجال العلوم والفنون والثقافة والأدب الناقد الأدبى آرسطوفانيس البيزنطى والمتخصص فى دراساته الأدبية للألياذة والذى جاء الى الاسكندرية أبان عصر بطليموس الثانى أو الثالث . وخرج من هذه المدينة أبطال فى الألعاب الرياضية كسبوا جوائز فى المهرجانات الرياضية . ومن أشهر الآلهه الاغريقية التى عبدت فيها أفروديت ربة الجمال ودبيتر وابنتها برسيفونى ربتا القمح وهيرا زوجة زيوس وبوسيدون رب البحار وبنوا لها المعابد فوق اكروبول المدينة ولم تتعرض للتيارات الدينية الآسيوية باستثناء سيرابيس وكوبيلى . وقد عرف عن أهل بيزنطه حبهم للخرافات والأساطير وأعمال الشعوذة وغرامهم بالجدل والنقاش العقيم وأصبح ذلك فيهم غريزة وصفة من صفاتهم وقد ظهرت قدرتهم وولعهم بالنقاش أثناء الجدل الذى قام بين الكنيستين الشرقية والغربية وبذلك عرفت بأنها مدينة الهرطقة والتحدى .

وجدير بالذكر بالرغم من أن المدينة كونت حضارتها المتميزة بها الا أنها ظلت مرتبطة بأثينا روحانيا وثقافيا . وكان البيزنطيون يذهبون للدراسة فى جامعات هيللاس لكن المدينة عانت من النقص فى مجال المدارس الفلسفية مما شجع على ازدهار الدجالين والمشعوزين والسحرة

أشهرهم أبوللونيوس التيانى (Apollonius of Tayana) صاحب الكرامات والمعجزات السحرية . ومن العجيب أن حكومة بيزنطه كانت تقوم بفرض ضرائب على المشعوزين والسحرة منذ القرن الثالث ق.م .

ولا نعرف بالضبط تاريخ وصول المسيحية الى بيزنطه التى قدر لها أن تصبح مقرا للكنيسة الشرقية ويقال أن قسطنطين عندما وصل الى بيزنطه علم أن كنيستها شهدت اثنين وعشرين أسقفا من قبل .

تلك هى المستوطنة الصغيرة التى قدر لها أن تشهد حضارتين مختلفين وقدر لاسمها أن يرتبط لألف عام بحضارة عظيمه حافظت على كل التراث القديم ، وبقيت صامدة فى وجه الغزاة والطامعين ولكن الذى لا شك فيه أن الفضل يرجع فى الأصل الى مجموعة المستوطنين الاغريق الذين أسسوها .

سادسا : ـ منطقة تراكيا وشمال غرب حوض بحر ايجه :

فى مطلع حركة الاستيطان أقامت بعض المدن الاغريقية التجارية بعض محطات لها على شاطىء تراقيا لتقفل الدائرة الاستيطانية الاغريقية حول حوض بحر ايجه؛ حيث بدأوا فى استغلال خيرات منطقة غنية بمناجمها الفضية والذهبية وبغاباتها ومراعيها . وكان كورنثا من أولى المستوطنات التى زرعت نفوذها فى هذه المنطقة بانشاء بواتيدايا (Potidaea) فى خليج خالكيديكى .

سابعا : الساحل الغربى لبلاد اليونان والبحر الأدرياتيكى :

كذلك أحكمت كورنثا قبضتها على الطريق المتجه غربا الى ايطاليا وصقلية فأنشأت مستوطنات فى جزيرة كوركيرا (كورفو الحالية) وأخرى على طول الساحل الادرياتيكى منها ايبدامنوس Epidamnos التى أقامتها بالاشتراك مع سكان كوركيرا ذاتها كمحطة نهائية فى أقاصى عالم النفوذ الاغريقى ومن الجدير بالذكر أن نزاعا قام بين كورنثا وكوركيرا حول ايبدامنوس أدى الى حرب مريرة جرت اليها العالم الاغريقى كله وهو ما يعرف بالحروب البيلوبونيسية .

نتائج عصر الانتشار والاستيطان : ـ

لقد أحدث هذا الاستيطان والتحكم فى منافذ العالم المسكون تجاريا واقتصاديا رواجا تجاريا أغرق الكثير من المدن الاغريقية بالثراء الخرافى وتكدست الثروة عند بعض الطبقات مما زاد الهوة بين الأغنياء والفقراء من ناحية ، وبين الأغنياء الجدد والنبلاء الارستقراطيين من ناحية أخرى وراح هؤلاء الأثرياء الجدد يطالبون بحقوق مساوية مثل النبلاء مما أدى الى عملية التحول من الحكم الارستقراطى الى الحكم الأوليجارخى أى حكم الصفوة الغنية بصرف النظر عن عراقة الأصـول . ومن ثم نستطيع أن نقول أن الاستيطان أدى الى ازدياد لهيب الصراع الاجتماعى والطبقى وبدت المدن الاغريقية على وشك من حافة بركان ثورى رهيب حطم النظام الاجتماعى والطبقى القديم .

لكن يجب ألا ننسى أنه بفضل هذا الانتشار أوصل الاغريق حضارتهم الى كل ركن من أرجاء المعمورة وانتشرت هذه الحضارة بين كثير من الشعوب الغير اغريقية وبهذا حققت حضارتهم الروح العالمية التى هى صفة أساسية من صفات هذه الحضارة . ولم تعد حضارة الاغريق وقفا على العنصر الاغريقى وحده ، وفى نفس الوقت تفاعلت هذه الحضارة مع حضارات العالم الأخرى فاستفادت منها وأخذت وأعطت وكان لهـذا أثره فى ازدياد حيويتها وتطورها . كذلك فان وجود الاغـريق فى بلاد بعيدة عن بلادهم وبين شعوب غريبة الوجه واليد واللسان الى تماسك الاغريق معنويا من أجل البقاء حضاريا ومن ثم تبلورت فكرة الهللينية لتصبح عاملا هاما فى تاريخ الاغريق .

الفصل السادس

الدولة الاسبرطية

عندما هبطت جحافل الدوريين على شبه جزيرة البيلوبونيسوس فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ووضعوا نهاية مفجعة للحضارة الموكينية، حاولوا التوغل الى قلب سهل لاكونيا فاستولوا على معظم أجزائه ولكن قرية آخية محصنة هى أموكلاى (Amyclae) ردت المعتدين الدوريين ومن ثم قرروا أن يبنوا مدينة على مقربة منها سموها اسبرطه وربما كان هناك قرية ترجع الى ما قبل الغزو الدورى فى هذا المكان وربما أيضا أن هذه القرية كانت تسمى لاكيدايمون Lacedaemon وهو اسم تردد فى الألياذة ، وكان يطلق أيضا على سهل لاكونيا بأكملة لقد أسس الدوريون مدينة أسبرطة الجديدة بعد ادماج أربعة قرى صغيرة كانت قائمة على ضفاف نهر يوريتاس ثم سرعان ما أضافوا اليها أموكلاى بعد استسلامها لتقوم المدينة الجديدة . وسرعان ما تمكنت المدينة من أن يضم اليها مساحة كبيرة من البيلوبونيسوس بل وتفرض على الجزء الباقى نفوذها كاملا وتدخله فى حلف تابع لها ولتصبح مركز الزعامة الاغريقية المنافسة لأثينا فى غرب بلاد اليونان .

لم تكن مدينة أسبرطة مدينة ذات طراز معمارى معين ــ كما يقول ثوكوديديس فى مطلع مؤلفه ــ ولا يزينها المعابد الفخمة والمنشآت العامة ــ بل كانت مدينة لا تزيد عن قرى صغيرة مقامة على النسق الاغريقى العتيق مما يجعل من الصعب على الانسان أن يربط بين حالتها وشهرتها التاريخية . ولهذا لم يتبق من آثارها سوى جدران حتى معظمه يرجع الى منشآت وترميمات قام بها الرومان . ولم يعثر الأثريون على شىء من معابدها سوى بقايا معبد أرتيميس الربه المفضلة فى اسبرطه .

وبالرغم من هذا فقد كانت اسبرطه أولى المدن الدورية التى نهضت من ظلام الركود لتبعث الحياة والحركة فى شبه جزيرة البيلوبونيسوس ولتضع نواميس غريبة على العادات الهيللينية الأصيلة ومجاحفة للطبيعة ذاتها ولتكرس نفسها للحرب وللعسكرية مما جعل منها أسطورة تروى عبر التاريخ ولتضع نظاما جماعيا تتحكم فيه السلطة المركزية فى جميع حياة المواطنين الذين كان عليهم أن يدينوا للدولة ــ جهاز الحرب ــ بالطاعة العمياء ويلتزموا بالنظام الصارم . مما جعلها نموذجا لنظم الحكم « الجماعى » وللعسكرية الصارمة .

اذا فالاسبرطيون هم سلالة الدوريين الغزاة الذين أخضعوا لسلطانهم الآخيين الذين كانوا موجودين قبل غزوهم ــ وحولوهم الى رعايا تابعين (Perioeki) والكلمة الاغريقية تعنى الرعايا الذين يقيمون على هامش المدينة . أى بمعنى آخر مواطنين من الدرجة الثانية . وكان هؤلاء الرعايا التابعين يقومون بالأعمال غير العسكرية والذى يعافها السادة الاسبرطيون ويعرضون عنها مثل التجارة والصناعة . كما كان لهم شرف الخدمة العسكرية فى ساحة الحرب حيث يخدمون فى فرق المشاة الثقيلة السلاح (Hoplites) . وبالطبع لم يعتبرهم القانون الاسبرطى مواطنين لأنهم كانوا محرومين من حق الترشيح للمناصب العامة أو الأدلاء بصوتهم فى الانتخابات العامة .

أما السكان الأول الذين ينخرطون من جنس البحر الأبيض المتوسط والذين كان الأخيون قد أخضعوهم لسلطانهم وحولوهم الى رعايا لهم فقد حولهم الدوريون الى طبقة من المستعبدين (Helots) أو المسخرين وكانوا فقراء معدمين غرباء فى بلادهم لا عمل لهم سواء فلاحة الأرض التى كانت موزعة على السادة الاسبرطين بالتساوى وكانوا يفلحونها نظير جزء صغير من المحصول أما الباقى فكان يذهب الى السادة الاسبرطين . وكان الهيلوت أيضا يخدمون فى الجيش كجنود مشاة ثقيلى السلاح وكحمله الأسلحة الخفيفة Psilastes وكانوا يلقون معاملة قاسية اذ كانوا أشبه بالشعب المقهور الذى يمتلىء قلبه بالسخط والحقد وكانوا دائما مستعدين للتمرد والثورة كلما سمحت لهم الظروف

بذلك . وكثيرا ماثاروا ضد الأسبرطين الأسياد الذين كانوا أقليةضئيلة بالنسبة للغالبية المقهورة . ومن ثم كان على السادة الأسبرطين وضع نظام حكم صارم وعنيف للسيطرة على هذه الغالبية الساخطة بقوة السلاح ومن ثم أملت ظروف مواجهة حركات التمرد والثورة على المواطنين نظاما معينا فى التربية العسكرية سوف نتعرض له فيما بعد كما أجبرت الظروف الأسبرطين على انشاء نظام سرى للتجسس على الرعايا والهيلوت يعرف باسم الجهاز السرى (Krypteia) لاكتشاف حركات التمرد والثورة والقضاء عليها قبل اندلاعها وأحيانا كان هذا الجهاز يختلق ظروف الثورة كلما أحس بأن العبيد أو الاتباع فى وضع أقوى .

أما المواطنون الأسبرطيون (Spartiates) فكانوا يتمتعون بكامل الحقوق والدولة ملك لهم بالتساو دون تمييز بين شخص وآخر(١) وكان لهم وحدهم حق الترشيح فى الانتخابات والتقدم لشغل الوظائف العامة فى الدولة ، وهم جميعا أعضاء فى الجمعية العامة اذا ما بلغ الفرد منهم سن الثلاثين وكانوا لا يقومون بأى عمل سوى العسكرية (٢) وشغل وظائف الدولة . وكانوا ينقسمون الى ثلاثة قبائل دورية هى :

(ا) قبيلة الهيلليين Hyleis

(ب) قبيلة البامفوليين Pamphyleis

(جـ) قبيلة الدوناميينيين Dynamenes

ومن هذه القبائل الثلاث يتكون طبقة المواطنين والجنود والموظفين

---

(١) ذكر شنرزون مثلا — اسبراطيا مترجما عن الاغريقية وهو Spartam nauctus es, hanc exorna ! واصله بالافريقية كما ذكره يوربيديس Spartan elaches, tautan kosmei
هو ومعناه انت تملك اسبرطة فزينها بنفسك
Sparta is your Country, make the most of it (cicero Attic, 4, 6, 2).

(٢) كان لدى اسبرطة بالرغم من هذا حوالى ٨٠٠٠ مواطن قادر على حمل السلاح ابان الحروب الفارسية ثم هبط هذا العدد الى ما بين ١٢٠٠ — ١٥٠٠ قبيل معركة ليوكترا عام ٣٧١ وفى ايام ارسطو هبط هذا العدد الى اقل من ١٠٠٠ مواطن وهذا يبين مدى انحسار طبقة المواطنين وانقراضها مما ادى الى المطالبة فى اعادة النظر فى تضييق حدود المواطنة .

وكانوا يمرون بسلسلة طويلة من التربية العسكرية من سن السابعة حتى سن الستين .

دستور اسبرطة :

يتكون الدستور الاسبرطى من أربعة هيئات تنظيمية رئيسية :

(ا) الملكية المزدوجة

(ب) مجلس الشيوخ أو الجيروسيا Gerousia

(جـ) الجمعية العامة أو الابيللا Apella

(د) نقباء الشعب أو الايفورات Ephors

ولنتناول هذه الهيئات الأربعة بالتفصيل :

(ا) الملكان : يجى على رأس الحكومة الملكان وكانا ينحدران من أسرتين نبيلتين « أحدهما من آل آجيس Agis والأخرى من آل يوروبونتيس Eurypontids وكان الملكان يقومان بمهمة القيادة العليا فى الجيوش وكان لهم حق الجلوس فى أماكن الشرف المخصصة لهم فى الحفلات العامة والمهراجانات الرياضية والدينية وعند موتهما كانا يلقيان من الدولة جنازة رسمية ومراسيمخاصة . وكان الملكان ينتخبان من الأسرتين السابقتين بحيث ينتخب ملك واحد من كل منهما . وكان الملكان عضوين فى مجلس الشيوخ أو الجيروسيا بحكم منصبيهما . وكان لوجود ملكان لا ملك واحد ميزة الرقابة حيث كان كل ملك يراقب الآخر فى عمله .

(ب) مجلس الشيوخ أو الجيروسيا Gerousia : كان مجلس الشيوخ يتكون من ثمان وعشرين عضوا يمثلون أنبل الأسر وكان يشترط ألا يقل عمر العضو عن ستين عاما . وكان الملكان بحكم منصبيهما عضوين فى هذا المجلس وكانت تنحصر مهمة المجلس فى اعداد المشروعات الدستورية والقرارات العامة لكى تعرض على الجمعية العامة وكان المجلس يتحول الى محكمة جنائية للنظر فى القضايا التى يروح ضحيتها

مواطنــون أسبرطيون كما كان لهم حــق الأشراف الادارى على أجهزة الدولة المختلفة .

(جـ) الجمعية العامة Apella : وكانت عضويتها مفتوحة لكل المواطنين الأسبرطيين الذين تزيد أعمارهم عن ثلاثين عاما ويمثلون مجلس المحاربين وكانت الجمعية تعقد جلساتها مرة كل ثلاثين يوما وكان نقباء الشعب يترأسون جلساتها وكانت سلطة الجمعية العامة محدودة فلم يكن من حقها اقتراح القرارات أو مناقشتها بل الموافقة عليها أما بالاجماع قبولا أو رفضا وبالرغم من أن الجمعية العامة كانت تمثل الشعب الا أنها كانت مسلوبة السلطات لأن السلطة الفعلية كانت فى أيد الشيوخ والايفورات (نقباء الشعب) .

(د) الايفورات Ephors : وهم نقباء الشعب وكان عددهم خمسة وينتخبهم الشعب ومدة شغلهم للوظيفة عام واحد . وكان الايفورات يمثلون الشعب ويشرفون على الشعب ويستمدون سا[illegible]
أشبه « بترابنة العامة » عند الرومان . وكانوا ال[illegible]
المشرفون على الأخلاق والآداب والسلوك العام للمواطنين وهم المسئولون عن حفظ النظام العام . وهم الذين يراقبون سلوك الموظفين بما فى ذلك الملكين . وعندما يذهب الملك الى ميدان الحرب يصطحب معه اثنين من الايفورات ليراقبا سلوكه فى الميدان وليتأكدا من شجاعته واقدامه دون أن يتدخلا فى سير المعارك أو القرارات العسكرية وكان الايفورت يشرفون على شئون الدولة الخارجية فكانوا يعقدون المعاهدات ويقابلون ممثلى الدول المختلفة والسفارات الأجنبية وكانوا يسافرون للتفاوض باسم الدولة مع المدن الأخرى كما كانوا يتمتعون بسلطات قضائية واسعة وخاصة ما يخص المشاكل المدنية والادارية . كما كان الضباط مسئولين عن السيطرة على الهيلوت ومنعهم من التمرد على الدولة .

قوانين لوكرجوس والتربية الاسبرطية :

كانت الدولة جهاز حرب وحياة المواطنين العامة كحياة الجنود فى الثكنات والجيش هو الشعب والقوانين صــارمة ، وعن طريق التفوق

العسكرى نجحت اسبرطة فى فرض سيادتها على البيلوبونيسوس كله وادمجت فيها أراضيه . ولكن اهتمام اسبرطة بالجيش والادارة العسكرية جاء على حساب تراثها الحضارى والفكرى اذ لم تساهم سوى بالقليل فى مجالها . فهناك شذرات لأوانى فخارية مصورة صنعت فى أسبرطة وبقايا أشعار الكمان Alcman شاعر اسبرطة الكبير الذى كتب أشعارا رقيقة تغنى فيها بالحب وبالطبيعة لكن لما دارت رحى الحروب لم تخرج أسبرطة شعراء بل على العكس حرم الاسبرطيون قراءة الألياذة على المواطنين ربما لأنها قد تشجع الرعايا التابعين على الثورة لأنها تمجد أيامهم قبل الغزو الدورى . وفى أثناء الحروب المسينية لجأت اسبرطة الى الارسال فى طلب شاعر من أثينا فجاءهم تورتايوس Tyrtaeus ذلك الشاعر الأعرج الذى ألف للاسبرطيين أناشيد حماسية تحضهم على القتال لأنه لم يكن للاسبرطيين وقت للحب أو الغزل كما كانوا يرفضون الميوعة فى الفن أو الشعر . كما لم يكن هناك مسرح أو روايات مثل التى كانت تعرض فى أثينا ولا أعمال النحت والفنون ولم يكن أمام مواطنيها أى تسلية سوى حلبة الرياضة وملعب السباق ومشاهدة الشباب وهم يتدربون أو يتسابقون فى مبارياتهم فى تحمل الألم والعذاب .

وتروى الأساطير أن النظام الذى خلقته اسبرطة لنفسها وجعل منها أسطورة الاغريق فى العسكرية من صنع مشرع اسمه ليكرجوس Lucyrgus الذى جاب بلدان العالم المتحضر قبل أن يكتب قوانين أسبرطة التى سارت عليها وتشبثت بها حتى النهاية . ويعتقد البعض أن ليكرجوس شخصية أسطورية ولكن أخرين يعتقدون أنه ظهر فعلا عام ٧٥٠ ق.م وأنه لم ضع قوانين من صنعه وانما قنن ما كان قائما وأعطى له الصيغة القانونية وحول السلوك الى قوانين لها صفة الالزام والدوام .

وجوهر القانون الأسبرطى هو أن الدولة ملك لجميع المواطنين دون تمييز وبما أنها جهاز حرب فان مهمة الدولة هى اخراج وتربية الجنود الأقوياء والأصحاء وتربية البنات بحيث يصبحن أمهات لأبطال

ولهذا وضعوا أسسا لنظام التربية العسكرية (Agoge) ، ومن ثم فقد كانت الدولة تهتم باختيار الزوجات للازواج من أجل تفريخ نسل قوى وسلالة أفضـــل .

فعندما يولد الطفل يغسل بالنبيذ . ثم يفحص الأطباء الوليد فاذا وجدوة هزيلا أو مشوها تخلصوا منه بتركه فى العراء عند سفح جبل تاوجيتوس Taugetos أما الأصحاء فكانوا يتركون فى كنف والديهم حتى سن السابعة ، ثم ينتزع الولد من أسرته ليتلقى تعليمه العسكرى التربوى تحت رعاية معلمين ومدربين ، وكان أساس التربية هو تحمـــل المشاق والصبر واطاعة الأوامر طاعة عمياء والالتزام بالنظام الحـــازم ، وتناسى الذات لأن الدولة ملك لجميع رجالها الأبطال . وكان الصبيان يقســمون الى مجموعات يترأس كل مجموعة نقيب وهو أكثر المجموعة شجاعة والتزاما بالقوانين وتحملا للمشاق . وكان على الجماعة طاعتـــه طاعة عمياء ويتحملون أى عقاب ينزله بهم .

وعندما يصل الفتى الى سن الثانية عشرة يمنح جلبابا واحدا كل عام ليقيه برد الشتاء وقيظ الصيف ، وكان لا يسمح لهم بالاستحمام الا نادرا وكان يحرم عليهم تدليك أجسامهم بالزيوت حتى تبقى أجسادهم خشنة . أما الأسرة التى كانوا ينامون عليها فلم تكن تبعد عن الاعشاب التى يجمعونها من شواطىء نهر يوروتاس Eurotas . وكان رئيس كل جماعة يكلف الصبية بجمع الحطب والثمار والخضراوات من أجل الطعام وكان يسمح بالسرقة ولكن بشرط ألا يكتشف أمره فاذا ضبط متلبسا فأنه يجلد بلا رحمة بالسياط ليس بسبب السرقة ولكن لأنه لم يكن ذكيا حتى أن أمره قد كشف . ويقــول بلوتارخوس كان الأطفال الاسبرطيون يأخذون السرقة مأخذ الجد حتى أن صبيا سرق ثعلبا صغيرا وأخفاه تحت جلبابه ولكن الثعلب راح ينهش أحشاءه بأنيابه وأظافره والطفل يتحمل فى صبر العذاب حتى سـقط ميتا مفضلا ذلك على أن يكتشف أمره (١) .

---

(1) Plutarclus, Lucyrgus.

كان الفتيان يربون على تعلم النظام الصارم الحازم واذا خرجوا عنه لأقل درجة جلدوا بالسياط ، واذا ظهر عليهم الارهاق أثناء التمرينات أو فى ملاعب الرياضة جلدوا أيضا بالسياط ، ومن أشهر الألعاب الترفيهية المسابقة التى كانت تقام فى معبد الربة أرتيميس على ضفاف نهر يوروتاس بين الشباب وهى أن يضرب كل منهم الآخر بالسوط دون أن ينطق أحدهم ببنت شفة فاذا صرخ أحدهم من الألم نال عقابا صارما وكان بعضهم يسقط ميتا فى صمت ويروى لنا بلوتارخوس أنه شاهد هذه المباراة عندما زار أسبرطة فى نهاية القرن الأول بعد الميلاد أى بعد سقوطها فى حوزة الرومان .

كان الفتيان أيضا يدربون على فن الايجاز فى القول وعند الاجابة حتى أن كلمة لاكونى (Laconic) أصبحت تعنى فى اللغات الحديثة « الايجاز فى القول » ، وكان ممنوعا على السادة الأسبرطيين العمل فى غير الجيش أما العمل فى التجارة والصناعة فكان من اختصاص الرعايا المجاورين Pericaki ، أما زراعة الأرض فهو من عمل الهيلوت (عبيد الأرض) .

واعتقد الأسبرطيون أنه مادامت الملكيـة الفردية ممنوعة والالتزام بالقوانين ملزم فليس هناك حاجة الى المحاكم والمحامين ويقول المثـل : « الرجال الذين لا يتحدثون الا قليلا لا يحتاجون الا لقوانين قليلة » .

وفى سن الواحـد والعشرين يبـدأ الاسبرطى خـدمته العسكرية الكاملة ، وكان يسمح له بالزواج حيث يختار واحدة من رفيقاته الفتيات اللائى يظهرن معه فى ساحة الألعاب الرياضية وفى ملعب سباق الجـرى وهن عرايا كالرجال تماما لأن التربية الأسبرطية كانت تؤهـل الفتاة فى السيطرة الكاملة على غرائزها على النحو الذى كانت الفتاة اليابانيـة تفعله حتى وقت قريب . وبعد اختيار « الزوجة » تحجب عن خطيبها حتى يبلغ سن الثلاثين وهو سن الرجولة الكاملة والتى عندها يسمح بالزواج.

وفى هذه السن يعتبر الاسبرطى مواطنا كامل الحقوق ولكنه يظل « تحت الطلب » ويخضع للنظم العسكرية والنظامية حتى سن الستين .

وكان على المواطن الاسبرطى أن ينضم الى أسرة عسكرية يجتمع بأقرانه فيها ويتناول معهم الغداء وتسمى هذه الأسر بأسماء مختلفة منها مجتمع الرجولة Andreia أو باسم الميز (وهو نفس الاسم الذى لا يزال يطلق على المكان الذى يتناول فيه الجنود الطعام حتى يومنا هذا) أو باسم السوسيتيا Syssitia أو الفيتيديا Phitidia (أى المآدب الجماعية) • وكانت كل مجموعة تتكون من خمس عشرة عضو يتناولون غداءهم البسيط معا يوميا • وكان المجتمع الاسبرطى يطبق مبدأ المساواة بين جميع الأسبرطيين فكان استخدام المعادن الثمينة والنقود محرما وكانت الدولة توزع الأراضى الصالحة للزراعة على المواطنين بالتساو حيث يقوم الهيلوت بفلاحتها نظير نصيب قليل أما الباقى فيحمل الى بيت السيد الاسبرطى ليعيش هو وأسرته منه وبذلك يكرس كل طاقاته لخدمة الدولة للعسكرية والدفاع عن الدولة والتفنن فى ممارسة أصول الحرب • وكان الاسبرطيون يلقبون أنفسهم بالرفاق (hetairoi) أو الأقران ، وكانت قوانين ليكرجوس تحرم على المواطنين حياة البذخ والترف ولم يكن هناك أى استثناءات ، وكانت الفتيات يتلقين نفس التمرينات الرياضية التى يتلقاها الفتيان ويظهرن مثلهم عرايا فى الملاعب دون أى خجل من الفتيات أو فضول من الفتيان لأن قتل الشهوة كان جزءا من تربية الفتاة التى كانت تعد تربويا ومعنويا لتكون اما قادرة على انجاب الأبطال وعندما كانت الأم الأسبرطيةتودع ابنها الى ميدان القتال كانت تقول له « عد الى حاملا درعك أو محمولا عليه ! » •

لم يعرف الاسبرطيون « الديموقراطية » وحرية الكلام (Isegoria) أو الثرثرة التى لا حد لها (Parrhesia) كما كان شائعا فى أثينا ، ولأن نظامهم مقدس ووسط بين الدكتاتورية والديموقراطية الشعبيةونظرا لخطورة المستقبل اذ ما دب أى نزاع داخلى خوفا من اندلاع ثورات المجاورين أو الهيلوت فلم تتعرض اسبرطة لأى تطورات سياسة كما حدث فى سائر مدن اليونان القديمة • بل على العكس قاوم الأسبرطيون الديموقراطية الأثينية خوفا من اثارتها للهيلوت والعبيد تحت اسم

الحرية فى « التعبير » أو « المساواة أمام القانون » بالرغم من أن النظام الأثينى كان لا يختلف فى جوهره عن النظام الاسبرطى خاصة فى « ديموقراطية الأقلية » ولهذا نجد الأسبرطيين يساندون النظم الأوليجارخية المحافظة ويعادون الأحزاب الديموقراطية وهذا سبب العداء بين أثينا واسبرطة بل يفسر ذلك سبب التعاطف الخفى بين الفرس والأسبرطيين لأن الفرس أيضا كانوا يؤيدون النظم الأوليجارخية وحكم الصفوة الموالية لهم .

ويقول لوكرجوس « لقد كانت اسبرطة مدينة محصنة بالرجال وليس بأسوار من الأحجار » وبالفعل بقيت أسبرطة بغير أسوار حتى عام ٢٠٠ ق.م . بالرغم من عدم مناعتها الطبيعية لأى هجوم برى .

وقد يتساءل البعض لماذا اتبع الأسبرطيون مثل هذا السلوك العسكرى القاسى وحرموا أنفسهم من مزايا عديدة والرد على ذلك يجىء من المؤرخ الكبير ارنولد توينبى فى كتابه « دراسة فى التاريخ » عندما يقول : « كان على الاسبرطيين أن يواجهوا تحديا عاما وقف فى وجه كل الاغريق خلال القرن التاسع قبل الميلاد . عندما كان عدد السكان فى ازدياد مضطرد الى أن بلغ عدد السكان قدرا لا يساير طاقة البلاد المادية والذى أدى الى ما يعرف « بالانفجار السكانى » وقد وجد الاغريق عامة حلا لمشكلة الانفجار السكانى فى حركة الاستعمار عن طريق اكتشاف أراضى جديدة فيما وراء البحار ثم انتزاع هذه الأراضى من السكان الأصليين الذين كانوا « برابرة » فى نظر الاغريق ولم يجد الاغريق صعوبة فى تحقيق ذلك لأنهم وجدوا أصحاب البلاد الأصلية ضعفاء مفككين . هذا بالنسبة للاغريق الذين تطل بلادهم على البحر أما بالنسبة للاسبرطيين فان الأمر يختلف لأن بلادهم تقع بعيدا عن البحر ولم يكن أمامهم سوى التوسع أرضا فى البيلوبونيسوس على حساب الشعوب المجاورة لهم وخاصة فى منطقة مسينيا Messenia لأنها كانت منطقة خصبة وطبقا للتراث الشعبى الاسبرطى فان اسبرطة قد خاضت حربا من أعنف الحروب مع سكان منطقة مسينيا ويقال أن الحرب الأولى (٧٣٦ - ٧٢٠ ق.م تقريبا) والتى ذكر التراث الشعبى بعض أبطالها مثل أريستوديموس واريستومينيس

ــ لم تكن سوى نزاع بسيط بالنسبة للحرب الثانية (٦٥٠ ــ ٦٢٥ ق٠م تقريبا) والتى أشعل حماها ترتايوس ذلك الشاعر الأعرج الذى جاء من أثينا لكى يساعد الاسبرطيين على الانتصار والذى يرجع الفضل فى انتصار الاسبرطيين الى أناشيده الحماسية التى حفظت أوراق البردى لنا بعضها ٠

وبعد أن أخضع الاسبرطيون أهل مسينيا حولوهم الى مستعبدين « هيلوت » Helots ولكن بالرغم من هزيمة المسينيين الا أنهم ظلوا على استعداد للثورة والتمرد اذا ما سمحت لهم الظروف بذلك بل وقاوموا السيطرة الاسبرطية ووجد الاسبرطيون أنفسهم سجناء لحرب المقاومة المسينية ولأن الأسبرطيين كانوا أقلية بالنسبة لغالبية السكان المستبعدين والمجاورين فقد كان عليهم عمل شاق وهو أن يكرسوا أنفسهم للعسكرية القاسية والتضحية من أجل كبح جماح الشعوب المقهورة [١] ٠ ولم يستطع المجتمع الاسبرطى أن يهدأ أو يستقر بل ظل متوترا ومتيقظا خائفا من حركات التمرد والثورة ٠

ولهذا كرست الدولة الاسبرطية كل طاقاتها من أجل غرض واحد فقط هو السيطرة والاحتفاظ بممتلكات الدولة ٠ ويقول ارنولد توينبى « لقد أصبح الاسبرطيون بعد غزوهم « لمسينيا » سجناء حرب تماما كما أصبح أهل الاسكيمو بعد غزوهم للقطب الشمالى سجناء لظروف مناخية كان عليهم أن يتعودوا عليها [٢] » وظلت اسبرطة على هذا النظام القاسى (حتى بعد فقدانها ممتلكاتها بعد هزيمتها فى معركة ليوكترا على أيدى أهل طيبة عام ٣٧١ ق٠م بل وحتى عام ١٨٨/١٨٩ ق٠م عندما خضعت بلاد اليونان لروما وأصبح سكان البيلوبونيسوس متساوين تحت سلطة الحاكم الرومانى لا فرق بين اسبرطى وغير اسبرطى ٠

---

(1) P. Olivia, «Sparta and her Social problems, Prague's» Akademia. 1971. p. 205 ff.

(2) Cf. Arnold, J. Toynbee : A Study of History. (Abridged by D.C. Somervell) Oxford University Press (1960) pp. 178—182.

ومن الجدير بالذكر أن توينبى ذكر اسبرطة كمثال لنظريته فى التحدى والاستجابة (Challenge and response)

على أى حال قدمت اسبرطة نموذجا بديلا فى غرب بلاد اليونان للدولة التى قامت فى الشرق وهى أثينا وتوابعها ، وفى رأى البعض أن أسبرطة كانت ثكنة للجيش لادولة أو بمعنى آخر أنها كانت آلة حرب كبيرة المواطنون تروس فيها ، وكانت تحتقر التجارة لأنها كانت ترهب التعامل مع غير الاسبرطيين خوفا من تدخلهم فى شئونها . وتمسكت بنظامها القديم رافضة أى تجديد أو تطوير ومن ثم فلم تضف الا القليل فى بناء صرح الحضارة الاغريقية لكنها احتفظت بوجودها بسبب شجاعة جنودها وعزلتها ، ومن الملاحظ أن مواطنيها البارزين كانوا مثالا للانضباط فى بلادهم فاذا ما خرجوا عنها يصبحون فريسة سهلة للفساد والعبث والرشوة نتيجة للكبت التربوى القاسى والحرمان المادى الشديد .

لكن تمسك الاسبرطيين بنظمهم نال اعجاب أفلاطون عندما يئس من مساوىء الديموقراطية الأثينية بالرغم من ادراكه لتعسف الحكم الاسبرطى وضيق أفقه ووصف هذا النظام بأنه أقل أنواع الحكم فسادا [1] .

---

(١) أفلاطون الجمهورية الكتاب الثامن ٥٤٧ - ٨ وكذلك انظر القوانين ، اما ارسطو فقد نقد النظام الاسبرطى نقدا لاذعا فى كتابة السياسة الكتاب الثانى ٩ ، والسابع ١٤ - ١٥ اما المؤرخ العالمى بوليبيوس (٦ - ٤٨ ، ٥٠ - ٥٠) فقد وصف النظام الاسبرطى بانه لا يوجد له مثيل فى الاحتفاظ بالوجود وبالاكتفاء الذاتى لكن هذا النظام غير مؤهل للنجاح فى اقامة علاقات خارجية وفى بناء الامبراطورية . انظر : دى . بورج المرجع السابق ص ١٥٢ هامش (١) .

الفصل السابع

الدولة الأثينية

نجحت مدينة أثينا فى فرض زعامتها على اقليم أتيكا تدريجيا وذلك منذ العصر الموكينى . وأصبحت أتيكا ذلك الاقليم الذى يقع فى الركن الجنوبى الشرقى من وسط بلاد اليونان ويكاد أن يكون هضبة مثلثة وحدة سياسية متماسكة ومتحدة (١) تبلغ مساحتها حوالى ألف ميل مربع مما جعلها أكبر دويلة فى بلاد اليونان جميعا وهذا أكسبها وضعا خاصا (٢) .

كان اقليم أتيكا يشبه المثلث قاعدته الكبرى فى الشمال والشمال الغربى حيث يفصله جبل كيتاريون Cithareon عن اقليم بوءتيا ويفصله مرتفعات ميجارا عن خليج كورنثا . أما طرفه فهو فى الجنوب فكان عند رأس سونيون (Sunion) حيث توجد جبال لاوريوم الغنية بمناجم الفضة وقد حبته الطبيعة بموقع استراتيجى ممتاز ، فمن الشرق تطل على خليج الماراثون Marathon وبحر يوبويا، ومن الغرب على ساحل فاليرون (Phaleron) حيث يوجد الخليج السارونيكى الدائرى (Sinus Saronicus) والذى تتوسطه جزيرة ايجينا Aegina فى مواجهة جزيرة سلاميس Salamis المواجهة لميناء أثينا الهام ، بيرايوس (Piraeus) وعن طريق ساحلها

---

(1) R.A. Padung, Eleusis and the Union of Attika, G.R.B.S., XIII, 1972, p. 135-150.

(٢) نستطيع ان نعرف مدى هذه المساحة لو قارناها بمساحة مدن جزيرة كوس الصغيرة والتى لم تكن مساحتها تزيد عن ٦٥ ميلا مربعا ومقسمة الى ثلاث مدن مستقلة لكل منها سيادتها .

الطويل المتعرج فى الشرق والجنوب أصبحت أثينا منفتحة بحريا وتجاريا على جزر بحر ايجه وأهمها أندروس (Andros) وتينوس (Tenos) وكوس (Kos) وكينثوس (Kynthos) وسوروس (Syros) وسيريفوس (Scriphos) وسيفنوس (Siphnos) وباروس (Paros) وميلوس (Melos) وناكسوس (Naxos) وغير ذلك من الجزر الصغيرة وقد اعتمدت أثينا فى ضم هذه الجزر اليها عندما أقامت امبراطوريتها عقب انتصارها على الفرس . كما جعل هذا الموقع الاستراتيجى أثينا على مقربة من الأحداث فى أيونيا والجزر المتاخمة لشاطئها خاصة أن المهاجرين الى هذه المنطقة كانوا من نفس العنصر الأيونى الذى كان تنتمى اليه أثينا بل وتتزعمه .

ولم تكن أثينا منفصلة تماما عن اقليم بوءتيا الذى يجاورها فى الشمال . بل كان هناك عدد من الممرات الجبلية الضيقة التى تخترق الجبال منها ممر فولى (Phyle) وممر بلاتيا Platea الذى يبدأ من طيبة عاصمة بوءتيا ويسير صوب الغرب مخترقا جبال كيثاريون حتى يصل الى سهل اليوسيس Eleusis فى غرب أتيكا ؛ثم ممر ديكيليا (Decelea) الذى يبدأ من أوروبوس (Oropus) المطلة على بحر يوبويا فى الشرق ويخترق جبال بارنيس Parnes حتى يصل الى أثينا ولهذا تمسكت أثينا بمدينة أوروبوس بالرغم من أنها كانت تنتمى جغرافيا وسكانيا الى اقليم بوءتيا الذى يجاورها فى الشمال .

كان اقليم أتيكا فى مجموعة اقليما جبليا تتخلله شعاب جبلية تقسمه الى أربعة سهول محصورة بين الجبال هى سهل اليوسيس Eleusis (ثريا) فى الغرب ويواجه جزيرة سلاميس Salamis ؛ ثم سهل كيفيسوس Kephisus الذى تقع فيه مدينة أثينا ذاتها حيث يرويه نهران هما نهر كيفيسوس ونهر الليسوس Illyssos وهو أكبر السهول الأربعة مساحة ؛ ثم سهل ميسوجيا Mesogaea ومعناه الأراضى المتوسطة

لأنها تقع بين جبلى هيميتوس وبنتليكوس ، ثم يأتى أخيراً سهل الماراثون الذى يقع فى الشرق بحذاء الشمال ويطل على بحر يوبويا وهو أصغر السهول مساحة .

هكذا قسمت الطبيعة تضاريس أتيكا الى جبال وسهول وسواحل . وبفعل الظروف الاقتصادية لكل منطقة فقد نشأ ثلاثة أحزاب سياسية واقتصادية أثرت تأثيرا كبيرا على مجرى الصراع الاجتماعى فى الدويلة الأثينية وهى حزب السهل (Pediakoi) ويتكون من أصحاب الضياع الشاسعة وكبار ملاك الأراضى وهم الذين احتكروا الحكم والسلطة وكانوا نواة التجمع الارستقراطى فى الدولة ، والحزب الثانى هو حزب الشاطىء أو الساحل Paralioi ويقوم على أكتاف التجار وأصحاب السفن وذوى المصالح والنفوذ الاقتصادى ولم يكن هؤلاء نبلاء بحق المولد مثل حزب السهل ولكن كانوا طبقات مكافحة عصامية ولهذا اتخذت موقفا وسطا بين الارستقراطيين وبين أصحاب الحزب الثالث وهو حزب الجبل Diakrioi والذى كان يتكون من سكان المناطق الداخلية الفقيرة ولا يقومون بعمل سوى الرعى ولما كانوا لا يملكون شيئا يخافون عليه فكانوا أقرب الى الثورة والتمرد على الأوضاع وعلى النقيض من أصحاب حزب السهل الذى كان يمثل وجهه نظر الارستقراطية المحافظة .

وجدير بالذكر أيضا أنه بقدر ما تمسكت أثينا بمدينة أوروبوس بالرغم من أنها كانت تنتمى سكانيا وجغرافيا الى بوءتيا ، تمسكت كورنثا الدورية بمدينة ميجارا الأيونية (ذات العنصر الأثينى) ، وكانت ميجارا تسيطر على السهل الضيق الذى يقع بين سهل اليوسيس وخليج كورنثا والخليج السارونى لأنها المنطقة المانعة لنفوذ أو تسرب النفوذ الأثينى فى خليج كورنثا والبيلوبونيسوس ـ خاصة أن المنافسة البحرية والتجارية كانت قائمة على أشدها بين كورنثا وأثينا وأن سياسة كورنثا كانت ازالة أثينا من الوجود حتى تنفرد هى وحدها بعالم البحر والتجارة . وانتهى الأمر بضم ميجارا (رغم قرابة عنصرها مع العنصر الأثينى) الى حلف البيلوبونيسوس لكن حياة ميجارا ظلت تعتمد على الموانى الأثينية وقد

سمحت أثينا لميجارا باستخدام موانئها بعد حل النزاع بينهما حول جزيرة سلاميس التى تمكن المشرع سولون من ضمها الى أثينا .

ومن أسباب تمسك كورنثا بمدينة ميجارا هو أن الأخيرة كانت تتحكم فى ممرات جبال كيرانيا التى تفصل بين أتيكا وكورنثا ومن ثم حرصت كورنثا على تأمين خطوطها الأولى لمنع أثينا من التسرب الى البيلوبونيسوس . هكذا كادت منطقة أتيكا أن تنفصل انفصالا تاما عن البيلوبونيسوس وقد ساعد ذلك على أن تنقسم بلاد اليونان الى جبهتين متنافستين ومتصارعتين ومختلفتين ثقافيا وعنصريا الأولى الجبهة الشمالية . وهى جبهة أيونية وتتزعمها أثينا والجبهة الثانية فى الجنوب ويتزعمها أسبرطة وتنتمى الى الدوريين وهما القوتان اللتان حددت علاقتهما مسار تاريخ الاغريق .

ولو تركنا أثر الموقع على تحديد علاقة أثينا بسائر الاغريق واتجهنا الى أثر البيئة والمناخ والمصادر الطبيعية على تكوين الدويلة الأثينية ذاتها ، لوجدنا أن مناخ أثينا كان من أكثر مناطق بلاد اليونان جفافا ، فهى قليلة المطر معظم أيام السنة وعموما كانت منطقة جبلية وسهولها المنحصرة بين الجبال ضيقة وتربتها فقيرة نسبيا ولا يناسب مناخها زراعة القمح بوفرة وبمساحات تكفى غذاء سائر السكان ولما كان الاغريق كسائر شعوب البحر الأبيض المتوسط يعتمدون فى غذائهم على الخبز حتى أن علماء السكان لقبوهم بفئة آكلة الخبز (artophagi) فقد كان النقص فى انتاج القمح هو المشكلة الأساسية بالنسبة الى الآثينيين ، وهذه المشكلة هى العامل المحرك للسياسة الأثينية ولعلاقتها بالاغريق الآخرين وبسائر دول العالم . ولهذا لجأت أثينا الى اقامة علاقات تجارية مع مصر أشهر صومعة للغلال فى العالم القديم وشراء القمح المصرى عن طريق الفضة التى كانت معدنا نادرا فى مصر بينما توجد بوفرة فى مناجم اللاوريون Laurion ، ولما سقطت مصر فى حوزة الفرس وأصبح الاعتماد على قمحها ضربا من ضروب المقامرة لجأت أثينا الى توسيع مستوطناتها فى منطقة البحر الأسود أغنى مناطق العالم بانتاج القمح

وأصبحت هذه المنطقة جوهرة الامبراطورية الأثينية وعلى استعداد لأن تقاتل من أجلها حتى الموت ، كما لجأت أثينا الى تحسين علاقتها بمستوطنة قورينة بالرغم من أنها كانت منطقة نفوذ دورى تابع لأسبرطة .

لكن الطبيعة عوضت أثينا عن ضعف انتاج القمح بوفرة أشجار الزيتون والكروم ، وكانت شجرة الزيتون هي حياة الاغريقي حيث استخدم زيتها بل وجعلها رمزا للحضارة والسلام فصور على واجهة معبد البارثينون الغربية الربة أثينا وهي تنتصر على بوسيدون لأنها ضربت الأرض بحربتها فأخرجت شجرة الزيتون ، بينما أخرج رب البحر عين ماء مالحة ! ! أما الكروم الذى كان ينبت بكثرة فقد صنع منه الأثينيون النبيذ الذى كانوا يحتفلون بعيدين له عيد فى الربيع وعيد فى الخريف حيث كانت تقام المهرجانات الثقافية والتى فيها ظهرت الدراما والتراجيديا احتفاء برب النبيذ ديونيسوس Dionysos ، بل كان الأثينيون يصدرون النبيذ وزيت الزيتون فى أوانى فخارية جيدة الصنع ومصقولة وذات رسوم متنوعة من أساطيرهم ومن حياتهم اليومية وقد وجدت هذا الأوانى منتشرة فى مساحة كبيرة من حوض البحر المتوسط ومنطقة البحر الأسود وجنوب ايطاليا وبذلك عرفنا مدى انتشار النشاط التجارى وعن طريق تحديد عصور صناعة هذه الأوانى المتنوع أمكننا تحديد هذا النشاط زمنيا ، بل اننا أيضا عرفنا الكثير عن الأساطير الاغريقية ومظاهر الحياة اليومية من المناظر المصورة على هذه الأوانى الجميلة والتى تنتشر فى متاحف العالم كله . والى جانب الكروم وزيت الزيتون كانت أتيكا تشتهر بتربية النحل التى تخرج العسل الجيد وبالأسماك التى كانت تصنع وتملح فضلا عن وجود مساحات كبرى من المراعى التى عاشت عليها قطعان كبيرة من الماشية والاغنام ، مما زود البلاد بثروة حيوانية كبيرة استفادت منها وصدرت أصوافها .

الى جانب ذلك فقد كان يوجد فى أتيكا العديد من المحاجر التى ساعدت الأثينيين على البناء والعمران ، ومناجم الرخام الجميل التى شجعت فنانيها على نحتها وتشكيلها الى تماثيل حية تكاد أن تنطق بالحياة بل كانت أثينا تصدر الرخام الى البلاد التى لا يوجد بها رخام كمصر ،

وشمال أفريقيا وحوض البحر الأسود ، كما اشتهرت شواطىء أنهار أتيكا بالطمي الجيد الذى شجع الأثينيين على صناعة الفخار منه وصناعة الخزف والتماثيل الصغيرة بعد حرقها عند درجة حرارة معينة فى أفران خاصة وتصدير ذلك الى خارج البلاد . أما مناجم الفضة فى لأوريون فقد كانت عاملا من عوامل الثراء التى ساعدت أثينا على صك عملة من الفضة الخالصة فرضت احترامها فى عالم التجارة والتعامل . كما كان يوجد فى اتيكا مناجم الرصاص والنحاس والحديد وقد استغلها الاثينيون فى صناعة المطروقات والأسلحة التى صدروها أيضا الى مناطق مختلفة من العالم وكانت مصدرا كبيرا من مصادر الدخل . لكننا لا نستطيع أن نعتبر الحضارة الاغريقية فى أثينا حضارة صناعية أبدا لأن الزراعة بقيت هى الجوهر الأول فيها .

غير أن البحر الذى يحيط بأتيكا ذات الشواطىء المتعرجة الطويلة هيأ لها خلجاناً وموانىء طبيعية جعلها تطل على جهات متعددة على بحر ايجه وعلى أيونيا وعلى البحر المتوسط جنوبا وشمالا على بحر مرمرة ، فضلا عن وجود الجبال التى تفصلها عن بوءتيا وعن البيلوبونيسوس جعل أتيكا تتجه الى البحر لحل مشاكلها الغذائية والبحث عن حضارات الشعوب وخبراتها ولهذا كان الأثينيون بشهادة ثوكوديديس مجددون بعكس الاسبرطيين الذين كانوا محافظين متحجرين .

وكانت أثينا ـ عاصمة أقليم أتيكا ـ تتوسط سهل كيفيسوس أغنى سهول أتيكا ذات تاريخ حضارى قديم وقد أمكن العثور على آثار ترجع الى العصر الحجرى الحديث فيها . وقد ذكرت الأساطير قصة ثيسيوس ابن ملك أثينا الذى نجح فى ذبح المينوتور الكريتى وتخليص عبودية الأثينيين للملك مينوس ملك كريت ويعتقد بعض العلماء أن هذه الأسطورة ترمز الى وجود نوع من العلاقة مع كريت منذ الألف الثالث ق. م ؛ كما أن الحفائر الأثرية كشفت عن وجود نوع من التحصينات حول الاكروبول شبيهة بتحصينات الموكينيين خاصة فى مدينة تيرنس ، وكان قلب أثينا هو الاكربول (Acropolis) تلك الصخرة البيضاوية

الشكل التي يبلغ ارتفاعها حوالى ٢٠٠ قدما وعرضها من الشرق الى الغرب حوالى ١٠٠٠ قدم ومن الشمال الى الجنوب حوالى ٤٨٠ قدم ولا يمكن الوصول اليها الا من ناحية الغرب حيث تنحدر الصخرة تدريجيا وقد أحيطت باقى الجهات بالحوائط الضخمة المحصنة مما جعلها مركز الحماية لسكان السهل من العدوان ومركز الحكومة والمكان المقدس للمعابد وللتجمع فى المناسبات العامة أو للعروض والمهرجانات . هكذا أصبح الاكروبول هو مركز ادارة المدينة وقلعتها ، وقلب الدولة المتحدة .

هكذا نستطيع أن نقول أن الطبيعة وهبت أثينا ظروفا جعلتها تتحكم فى اقليم أتيكا وتدمجه فيها وتلعب بالنسبة له دور العاصمة ومركز القيادة الدفاعية والفكرية والروحية كما أن اقليم أتيكا أمدها بالمصادر الطبيعةمما جعلها قدرة على صناعة الحضارة وأن تقوم بدور كبير فى حياة وقدر الاغريق .

لكن جدير بالذكر أيضا أن نقول أن أثينا لم تكن مشهورة أيام الحروب الطروادية التى دارت رحاها فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد لأن دورها كان صغيرا وربما كانت قرية صغيرة يحكمها ملك على طريقة الملوك الموكينيين ويساعده مجلس من الشيوخ ورؤساء العشائر ؛ بينما كان يلعب مجلس المحاربين أو العامة دورا رمزيا . لكن بعد تدمير الدوريين لمدن الحضارة الموكينية فى البيلوبونيسوس وهجرة هؤلاء السكان الى أتيكا التى فتحت أبوابها لهم وامتزجت بهم خاصة سكان مدينة بيلوس Pylos ونشأ العنصر الاتيكى البيلى Pylo-Attic الذى ورث الحضارة والثقافة الموكينية وحماها من الدمار الدورى وأصبحت بذلك محط أمال الاغريق الايونيين .

وجدير بالذكر أيضا أن العنصر الجديد الذى أثرى سكان أتيكا بالتراث والتاريخ والخبرة والثقافة هو الذى سبب تضخم عدد السكان فى أتيكا كنتيجة للغزو الدورى لدرجة أصبح عندها يهدد بانفجار سكانى نتيجة أن مصادر الاقليم كانت لا تسمح باطعام عدد كبير من السكان

ومن ثم فقد قام العنصر الاتيكى ـ الموكينى بتشجيع الهجرة الى ساحل آسيا الصغرى الغربى حيث قامت مدن أيونيا التى انتقلت اليها الحضارة الاغريقية لتمتزج بحضارات الشرق القديم وتتزود من خبراتها وتجارب شعوبها ، ولهذا من أيونيا بزغت شمس الحضارة الاغريقية الجديدة ممثلة فى الاشعار الهومرية وفى الفلسفة الايونية الطبيعية العلمية ، لتنتقل بعد ذلك الى أتيكا ولتجعل منها مركزا للحضارة الاغريقية •

غير أن انفتاح أثينا على الشرق وعلى تجارب الشعوب فيه سبب صراعا اجتماعيا جعل السكان يمرون بسلسلة طويلة من الصراع الطبقى والاجتماعى بحثا عن نظام حكم عادل يرضى جميع الطبقات والذى انتهى بنظام الحكم الاثينى الذى يعرف بالديموقراطية •

بذور الديمقراطية الأثينية :

أهم ما خلفته أثينا للحضارة الانسانية كلمة «الديمقراطية» وهى تعنى حكم الشعب مجتمعا حتى وان اختلف مفهومها فى عصرنا الحاضر •

كانت الديمقراطية الاثينية مرحلة منطقية بعد الانتقال من الملكية الارستقراطية (١) لقد كان ظهور هذا النظام الجديد نتيجة لعوامل اجتماعية واقتصادية كثيرة أهمها اختراع النقود • وأغلب الظن أن فكرة النقود جاءت الى بلاد الاغريق من آسيا الصغرى وعلى وجه الدقة من مملكة ليديا بعد عام ٧٠٠ ق• م بقليل وسرعان ما تلقفت المدن الاغريقية هذه الفكرة وتبارت فى صك نقودها واضعة عليها شعارها فيما عدا اسبرطة التى التزمت بالنظام الجماعى الذى حرم الملكية الخاصة ولم تستخدم النقود كباقى مدن بلاد اليونان بل لجأت الى استخدام القضبان الحديدية لتحديد القيمة المالية اذا لزم الامر • ومما لاشك فيه فان صك النقود ساعد على الثورة التجارية الكبرى وقد يكون احدى نتائجها وقد عرفنا أن الثورة التجارية الكبرى وتطور صناعة السفن من القوارب

(1) Donlan, «A note on «aristos» as a Class term, Philologus, CXIII, 1969, p. 268.

الشراعية الى السفن ذات الثلاث طوبق من المجدفين Triremes أدى فى النهاية الى حركة الاستيطان الكبرى والتى سبق لحديث عنها ٠

واذا كان صك النقـود قد سـاعد على انعـاش التجارة والهجرة الاستيطانية فقد كان بداية لثورة اجتماعية كبرى عصفت بالنظام الاثينى طويلا ـ والنقود سهلة الجمع والتخزين أكثر من مواد الملكية الزراعية والحيوانية والطبيعية الأخـرى ٠ ومعنى ذلك أن بعض النـاس أثروا اثراءاً فاحشا بتخزين هذه النقود وبمرور الزمن ازداد الغنى غنا والفقير فقرا ٠ وأصبح هناك هوة كبيرة تفصل بين الأغنياء والفقراء ٠ ووجد الفقير نفسه يلجأ الى الاستدانة من المرابين الأغنياء وعندما يعجزون عن تسديد الديون ذات الفوائد الباهظة كانوا يصبحون عبيدا لدائنيهم ، يعملون فى مزارعهم ويباعون فى أسواق النخاسة ولم يستطع الفقـراء أن يحركوا ساكنا لأن السلطة كانت مركزة فى أيدى الارستقراطيـين بالرغم من أن الملك كان موجودا الا أنه كان يملك ولا يحكم ومجـرد موظف كبير بعد أن سلبت سلطاته فمثلا سلبت منه السلطة العسـكرية عندما أنشأت وظيفة قائد الجيش Polemarch ثم انتزعت منه السلطة الادارية بانشاء وظيفة الأرخون Archon وهكـذا وضـحت خطوط الحـكم فى أثينـا فى أيدى ثالوث يتكون من الملك Basileus وقائد الجيش والأرخون ، وفى بادىء الأمر كان شغل هـذه الوظائف الثلاث مدى الحياة ثم عدلت الى عشر سنوات فى منتصف القرن الثامن قبـل الميلاد ثم الى سنة واحدة وكان ذلك فى أوائل القرن السابع (٦٨٠ ق٠م) وبعد مرور فترة من الزمن أضيف الى هذا الثالوث مجـلس العـدالة Thesmothetae وهو يتكون من سـت من الفقهـاء مهمتهم التشريـع وتسجيل ومراقبة تطبيق القوانين ٠ وهكـذا صبحت شـئون الدولة الاثينية تدار عن طريق مجلس التسعة والذى يتكون من الثالوث الأول بالاضافة الى المجلس السداسى الثانى ٠

والى جانب مجلس التسعة كانت توجـد محكمـة الاريوباجوس

Areopagus وكان أعضاؤها من الموظفين السابقين والذين أقاموا من أنفسهم حماة وأوصياء على القوانين وعلى اجراء الانتخابات للمجلس السابق فهى هيئة دائمة عضويتها مدى الحياة وكانت تجتمع فوق صخرة عاليـة على مقربة من الاكروبول حيث يلقـون بالذين يحكمون عليهم بالاعـدام .

أما من ناحية التركيب القبـلى للدولة الاثينية فى أتيـكا فنجـد السكان ينقسمون الى أربعة قبائل تتخذ كل منها اسما مميزا قد يمتد عبر الحدود ويشترك مع أسماء القبائل الأيونية الأخـرى . بينما انقسم السكان الى طبقات اجتماعية هى :

(ا) النبلاء Eupatridas وعملهم تولى الوظائف العليـا فى الدولة وفى الجيش .

(ب) المزارعون Georgoi

(جـ) الحـرفيون وأصـحاب الأعمـال الحرة Demiurgoi وكانوا يحتكرون التجارة والبيع والشراء .

وفى نهاية هذا الهرم الاجتماعى يجىء طبقة معدمة لا تملك أرضا تزرعها أو مالا تتجر فيه رجالها يعيشـون من العمـل فى مزارع الملاك نظير جزء صغير من المحصـول ولذا أطلق عليهم اسم أصحاب السدس .

وعلى أى حال ظلت طبقة النبلاء تحتكر الوظائف الكبرى السابقـة وكانت عضوية محكمة الأريوباجوس وقفـا عليهم وكانوا يمتـلكون اقطاعيات زراعية يقوم المدمون والرقيق بزراعتها .

محاولة كولون Kylon الفاشلة لاقامة دكتاتورية :

حقيقة ظلت دويلة مدينة أثينا تقوم على حكم الارستقراطية حتى أوائل القرن السابع، ولكن منذ حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد حدث تطور فى نظام الجيش وفى التكتيك الحربى كانت له نتائج خطيرة على المفهوم الاجتماعى السابق فقد كان نظام الدفاع فى عصر الجمهورية الاثينية الارستقراطية يقوم أساساً على الأشرف الذين يقودون أتباعهم الى الحرب.

وكان هؤلاء الأشراف يكونون سلاح الفرسان ولكن منذ القرن السابع نجد ثورة فى التنظيم والتكتيك العسكرى تنسب أحيانا الى الملك فيدون ملك أرجوس وهو قيام نظام المشاه المسلحين تسليحا ثقيلا ويعرفون باسم Hoplites وبذلك كسر احتكار الارستقراطيين للجيش الذى أصبح يتطلب أعدادا غفيرة من الطبقات المتوسطة والتى سارعت بالانضمام اليه ، ولما أحس جنود الجيش بأهميتهم فى الحروب والمعارك طالبوا بامتيازات جديدة لأن الظروف العسكرية غيرت الأحوال الاجتماعية وساعد على ذلك ظهور النقود التى خلقت طبقات جديدة ثرية وقوية النفوذ وكانت أول دولة صكت النقود هى جزيرة أيجينا الصغيرة Aegina القريبة من ساحل أتيكا ثم تبارت المدن الاغريقية فى صك عملتها الخاصة ، وبلغ من تفاقم الأمة الاجتماعية فى أتيكا أن حاول أحد النبلاء الأثينيين وهو كولون Kylon الاستيلاء على مقر الحكم فوق الأكروبول بالقوة وذلك حوالى عام ٦٣٠ ق.م ولكن هذه المؤامرة اكتشفت والتجأ أعوان كولون وأنصاره الى احدى المعابد الاغريقية معتصمين بالحماية الآلهية المقدسة asylum ولكن أرخون هذا العام وكان اسمه ميجاكليس Megacles . طلب منهم مغادرة ملجئهم مقابل العفو التام عنهم وما أن غادروه حتى ألقى القبض عليهم ونفذ فيهم حكم الاعدام مما آثار امتعاض الناس ضده وضد أسرته الحاكمة من آل الكمايون Alcameonidae لأنهم تعدوا قوانين الآلهة ضد اللاجئين بأراقة دمائهم باردا مما أدى الى نفى أسرة آل الكمايون كلها من أثينا . ولكن أفراد هذه الأسرة بقوا يتآمرون ويتملقون كهنة دلفى لكى يعودوا الى الحكم فى أثينا .

قوانين دراكون : Draconic laws

أحس الارستقراطيون بأنهم نجحوا فى كشف مؤامرة كانت تهدف الى القضاء عليهم وعلى نظام حكمهم ولكنهم شعروا أنه لابد من وضع تعديل فى القانون ليمنع من مثل هذه المؤامرات مستقبلا . فعينوا أرخونا اسمه دراكون عام ٦٢١ وأعطوه سلطات استثنائية لمراجعة القوانين والدستور . فوضع قوانينا اشتهرت بقسوتها وصرامتها حتى أن كلمة

دراكونى أصبحت مضرب الأمثال للقسوة واليأس وكما ذكر أحد الخطباء أنقوانين دراكون لم تكتب بالحبر بل بالدم، ويبدو أن دراكون جعل الاعدام عقوبة لأقل خطأ يرتكب وقد اعتبر دراكون جريمة القتل من كبريات الجرائم Homicide (١) وهو الشيء الذى بقى حيا فى قوانيننا المعاصرة لكننا لا نعرف الى أى مدى حاول دراكون اصلاح الدستور الاثينى ، ولكن المصادر المتأخرة وصفته بأنه هو الذى منح الجنسية لكل مواطن يقدر على تسليح نفسه للحرب . وربما استمد المشرع سولون الكثير من اصلاحات دراكون وأصبحت تنتسب اليه . ومهما يقال عن قسوة قوانين دراكون الا أنها أعطت الطبقات الدنيا حقوقا أمام القانون بدلا من الحرمان والتجاهل فى العهود السابقة . وهذه خطوة نحو الاعتراف بهم .

سولون الارخون المشرع Solon :

لم تخفف اصلاحات دراكون من خطورة الموقف على الاطلاق اذ أخذت أعداد المعدمين تزداد وبدأوا يفقدون حريتهم ويصبحون عبيدا لدائنيهم وبدت أثينا وكأنها مقبلة على ثورة اجتماعية كبرى لولا أن ظهر فى الأفق ارستقراطى معتدل ووطنى متطرف اسمه سولون ، وقد أصبح هذا الارستقراطى أرخونا عاما ٥٩٤ ق.م وسمى بالارخون الموفق لأنه استطاع عن طريق ارضاء كل الأطراف المتنازعة وعن طريق اللجوء الى أنصاف الحلول من تهدئة الموقف وتمييع قضية الطبقات المحرومة .

كان سولون ينحدر من أسرة أثينية وقد قيل أن أباه كان مسرفا أضاع الكثير من ثروته فأرسل ابنه ليعمل بالتجارة فى البلاد البعيدة لكى يستعيض ثروته . ولكن سولون انتهز هذه الفرصة وتعلم من البلاد التى زارها كما درس تشريعات دراكون وتفهمها وصمم على أن يوفق بين طرفى النزاع فى المجتمع ، وهم الذين يملكون The haves والذين لا يملكون The have-not قبل أن يوجه البلاد الى طريق الديمقراطية المعتدلة ويحقق الوئام بين الطبقات .

---

(١) هل جاءت قوانين دراكون القائمة على الثار من القاتل نتيجة لمؤامرة كولون وقتل المشتركين فيها هذا ما يناقشه :

R. S. Straud : Drakon's law on homicide, Univ. of California Publications in Classical Studies, III, 1968.

تتحدث الأقاصيص عن سولون الشاعر والوطنى الغيور والجندى الشجاع فتروى الأقاصيص أن نزاعا شب بين مدينة أثينا ومدينة ميجارا القريبة منها حول امتلاك جزيرة سلاميس وحدث أن أعلن أهل أثينا تنازلهم عن حقهم فى المطالبة بجزيرة سلاميس ، ولكن سولون رفض أن يقبل ذلك وانطلق الى سوق المدينة العامة Agora وألقى قصيدة من الشعر الحماسى وضح فيها أهمية موقع هذه الجزيرة لأمن أثينا وهتف الناس به قائدا واستطاع أن يعيد سلاميس لأثينا وأصبحت منذ ذلك الوقت جزءا لا يتجزأ منها . وقد ثبت أهمية هذه الجزيرة عندما هاجم الأسطول والجيش الفارسى بلاد اليونان حيث حقق الأثينيون نصرا حاسما فى موقعة بحرية فى المضيق البحرى بين الجزيرة وشاطىء بلاد اليونان .

أدرك سولون خطورة الديون وخطر الدائنين على المدينين وأن الخطر يتحتم عليه اتخاذ خطوة حاسمة وجريئة . وساعد على ذلك أن كافة الطوائف وثقت به فانتخبته أرخونا عام ٥٩٤ ق. م وبدأ على الفور فى تعديل الاحوال الاجتماعية عن طريق برنامج اصلاحى شمل النقاط الآتيـة :

(ا) الغاء الديون ورهن الحرية :

بدأ سولون اصلاحه بالغاء الديون Seisachtheia (وهى كلمة يونانية تعنى هز ما يثقل ظهور الناس) كما حرم رهن الانسان الحر لنفسه لقاء دين حتى لا يصبح المدين عبدا لدائنه .

(ب) الحد من البذخ والاسراف :

راع سولون أن الأغنياء ينفقون بترف فى مناسباتهم مثل الشعائر الجنائزية وفى حفلات الزواج وغيرها من المناسبات وحدد مبلغا معينا كحد أقصى ينفق على هذه المظاهر الاجتماعية حتى لا يثير بذخ الأغنياء حقد الفقراء الذى قد يدفعهم الى الثورة .

(ج) تحذير تصدير القمح :

أدرك سولون أن انتاج اقليم أتيكا من القمح لا يكاد يكفى سكانه وبالرغم من ذلك فقد كان التجار الآثينيين يتاجرون فيه ويصدرونه للمدن المجاورة الأخرى وغيرها من البلدان ثم يستوردونه مرة أخرى الى أثينا

لتباع بأسعار باهظة وهكذا وجدوا فى ذلك موردا للكسب السريع وعلى ذلك حرم سولون تصدير القمح خارج أتيكا وجعل التصدير وقفا على زيت الزيتون والمصنعات حتى يهبط ثمنه ويضمن للفقراء خبزهم .

(د) تشجيع الصناعة وتصديرها :

شجع سولون الصناع وألزم كل والد أن يعلم ابنه حرفة أو تجارة حتى لا يشب عاطلا كما شجع الحرفيين الأجانب على العيش فى أثينا بالرغم أنه لم يعتبرهم مواطنين بل عرف وضعهم الاجتماعى «بأصحاب المهن» Metikoi . وكان هدف سولون هو أن يشجع الصناعة الأثينية لأن الأوانى والصناعات الكورنثية كانت تحتكر الاسواق وقتئذ وبالفعل بدأت صناعة الأوانى الاثينية تأخذ طريقها الى الأسواق الخارجية . وكانت هذه بداية لصناعة اشتهرت بها أثينا فيما بعد . ومن الرسوم التى كانت تزينها نستقى مصادرنا عن الحياة الاجتماعية واليومية بل والدينية أيضا . كما غير سولون النظام النقدى فاستخدم للمعاملة المالية وحدة جزيرة يوبويا النقدية Euboea لأنها كانت أكثر شيوعا من وحدة جزيرة ايجينا المالية Aegina والتى كانت مستخدمة فى أثينا قبل مجىء سولون كما نسب اليه اعادة تنظيم الموازين والمكاييل والمقاييس (١).

(هـ) الغاء قوانين دراكون الارهابية :

أدرك سولون أيضا أن قوانين دراكون قاسية أكثر مما ينبغى فألغاها كلية الا فيما يختص بجرائم قتل المواطنين homicide لاتفاقه معه فى شناعة هذا الجرم .وبالتالى فرض عقوبة الاعدام على من يرتكب هذه الجريمة .

---

(1) E. Levy ; La reforme Solonienne des mesures, poids et monnaies. Apropos d'une Controvers, recente, Gazette Numismatique Suisse, XXIII, 1973, Cahier 89, p 1-6; (R H CCXLVI, 1971, p 109).

حيث يؤكد ما ذكره كراى من قبل من ارتباط اعادة تنظيم النقد باعادة تنظيم المقاييس والموازين والمعايير لكن آخرين يفصلون بين اصلاح النقد ويرون لا علاقة له بالموازين انظر :

M.H. Crawford : «Solon's alleged reform of weights of measures, Eirene, X, 1972, p. 5—8.

(و) اعادة تنظيم الوضع الاجتماعى :

وبعد أن وضع سولون أساس الصناعة الأثينية ارتأى اعادة تحديد الامتيازات الطبقية لارضاء كافة الطبقات ، فمثلا منح بروليتاريا المجتمع الأتيكى الحق فى أن يصبحوا أعضاء فى تنظيم شعبى هو الجمعية العامة Ecclesia كما منحهم حق العمل كمحلفين فى القضايا العامة ، ولذا أعاد تقسيم طبقات المجتمع حسب ما تملكه كل طبقة من أموال أو حسب النظام التيموقراطى (Timocracy) [1] وعلى ذلك قسم الآثينيين الى الطبقات الاجتماعية التالية :

الأغنياء : وعرفهم بالذين لا تقل ملكيتهم عن خمسمائة مكيال من الحبوب Pentacosiomedimni وجعلهم يتربعون على رأس الهرم الاجتماعي ويتمتعون دون غيرهم بشغل الوظائف الكبرى مثل منصب الأرخون ومناصب الجيش والادارة .

الفرسان : Hippeis وهم الطبقة المتوسطة ومنحهم حق شغل الوظائف الصغرى التى تلى الوظائف الكبرى فى الأهمية .

الحرفيون : Zeugitae وتمتعوا بالعمل بالتجارة وزراعة الارض وبعض المناصب الصغرى والحرف .

المعدمون : أو الذين « لا يملكون » Thetes وهم يشملون بروليتاريا المجتمع الاثينى وحرم عليهم الوظائف الرسمية تماما مقابل عضوية الجمعية العامة والعمل كمحلفين فى المحاكم بلا أجر وقد أعطى سولون لهذا المجلس سلطات هامة مثل السلطة القانونية ومراقبة سير العمل وحق استدعاء الموظفين والاستماع الى تقاريرهم فى نهاية مدد وظائفهم وعلى ذلك يمكن القول بأن سولون وضع بين يدى الطبقات الدنيا سلطات كبرى وجعلهم هم المسيطرون على الدولة وهذا بداية الطريق الفعلى الى الديموقراطية .

---

(١) وفى اللاتينية Plutocracy

(ز) توزيع الوظائف حسب القبائل :

وحتى لا يعطى سولون الفرصة لفئة معينة لكى تحتكر وتسيطر على الدولة ابتدع نظام ترشيح الموظفين حسب قبائلهم • فكانت كل قبيلة ترشح عشرة من أبنائها لشغل وظيفة الأرخون ثم تجرى القرعة بين المرشحين لاختيار العدد المطلوب •

(ح) انشاء مجلس الاربعماية :

وعن طريق النظام القبلى السابق ذكره كون سولون مجلسا تشريعيا من الطبقات الثلاث الأولى للاشراف على ادارة شئون الدولة واجراء الانتخابات وجعله هيئة تنظمية لها وزنها فى ادارة شئون البلاد • وكان هذا المجلس هو نواة مجلس الشيوخ الذى عرف بمجلس « البولى » فيما بعد •

(ط) تعزيز سلطة المحكمة الدستورية : Areopagus

وأخيرا عزز سولون من مركز محكمة الاريوباجوس والتى كان مركزها قد تزعزع نتيجة للصراع الطبقى الاجتماعى وجعلها حامية للقوانين وللدستور وأعلى سلطة دستورية والرقيب العام على الأخلاق والسلوك العام • وكانت هذه المحكمة تمثل نفوذ الارستقراطيين •

ان نظرة عامة على اصلاحات سولون تجعلنا نحس بأنه لم يقم بثورة اجتماعية هدمت النظام القديم وقضت على الظلم الاجتماعى تماماً (١) وعلى الارستقراطيين مصدر هذه القلاقل لأنه كان أرستقراطيا نفسه ، وان كان قد حد من نفوذ الطبقة الارستقراطية الا أنه تركها قوية كما كانت، ونستنتج من هذا أن سولون بنى نظامه الجديد على الملكية أو ما يعرف بالنظام التيموقراطى Timocracia حيث ترتبط فيه الامتيازات السياسية بالوضع الاجتماعى هيئة فقد خطى سولون خطوة كبيرة بالمجتمع الاثينى نحو الديمقراطية

---

(١) من الجدير بالذكر ان الشاعر والسياسى ثيوجنيس الميجارى Theognis of Megara قلد فى نهاية القرن السادس اعمال سولون منعا لحدوث ثورة ضد اسرته الارستقراطية ويعتبر من الشعراء القلائل الذين خلدوا اراءهم الايديولوجية فى قصائد الشعر انظر :

Al, Dovatur Theognis von Megara und zein soziales ideal, klio, LIV, 1972 p. 77 ff.

وعن تاثير اصلاحات سولون فى التشريع الرومانى انظر المقال التالى :

J. H. Oliver" The Solonian Constitution and a Roman Consul of 149 A.D., G.R.B.S, XIII, 1972. pp. 99-101.

المعين ونظرا لوجود أغنياء باهظى الثراء فى المجتمع الاثينى ، فقد وضع ذلك الكثير من الامتيازات السياسية فى أيدى الذين يملكون الكثير . ولكن باعطائه سلطات للذين لا يملكون وهى سلطات كما رأينا ليست هينة فقد خطى سولون خطوة كبيرة بالمجتمع الاثينى نحو الديمقراطية حتى أن الأثينيين لم ينسوا له ذلك عندما حققوا نظامهم الذين عرفوه باسم الديمقراطية وذلك ابان القرن الخامس قبل الميلاد فوصفوه بأنه أبو الديموقراطية ومؤسسها الاول .

تقول الروايات أن سولون بعد أن وضع تشريعه غادر أثينا ليتجول فى بلاد عديدة لمدة عشرة سنوات حتى يعطى لنظامه الفرصة فى أن يختبر نفسه وهو بعيد عنه، وزار سولون ابان رحلته هذه مصر وقبرص ومملكة ليديا Lydia فى آسيا الصغرى . وقد ابتكرت الروايات قصة لقائه مع كرويسوس Croesus ملك ليديا الذى اشتهر بثرائه الاسطورى الفاحش وكيف أن كرويسوس تجول فى صحبته ليريه خزائن ذاهبة ثم سأله عرضا عما اذا كان (سولون) يعرف من هو أسعد منه حظا .فروى له سولون حياة مواطن أثينى متوسط الحال ورب لأسرة مات وهو يقاتل من أجل وطنه ثم كرر كرويسوس السؤال عليه مرة أخرى فروى له سولون قصة شابين ماتا من الارهاق بعد أن جرا عربة أمهما العجوز الى مهرجان دينى أقيم فى دلفى (١) عندئذ غضب كرويسوس لأنه لا يجد لنفسه مكانا فى قوائم السعداء عند الاغريق ثم شرح له سولون أن الاغريق لا يهنئون الانسان على نجاح أو فى مناسبة سعيدة لأنهم يعلمون أن القدر يخبىء له ما هو سعيد أيضا وأنهم لا يعترفون بالانسان السعيد الا اذا مات سعيدا وأن الحياة فى نظر الاغريق صراع لم ينته بعد فكيف يهنئون الانسان على الفوز فى جولة بينما لم تنته المباراة بعد (٢) ؟

وتستطرد الرواية فتروى أن الأحداث خبأت لكرويسوس ما تنبأ به

---

(١) هذان الفتيان هما كليوبيس Kleobis وبيتون Biton اللذان خلدا فى تماثيل ضخمة Colossal) ابان القرن السابع قبل الميلاد فيما يعرف بالكوروى (koroi)

(٢) هيرودوت الكتاب الاول . فقرة ٣٠ وما بعدها .

سولون فقد زحف ملك الفرس قورش واستولى على مملكة ليديا وقبض على كرويسوس وأوثقه ووضعه فوق كومة من الأخشاب أشعل فيهـا النار ولما أحس كرويسوس بأن النار قد أوشكت أن تلحق به تذكر سولون الحكيم وقوله له : « نحن ننتظر حتى نهـاية الصراع » فهتف باسمـه ثلاث مرات وسمعه قورش وأمر بحل وثاقه ليسأله عن سولون هذا ولمـا روى له القصة أمر بالعفو عنه واتخذه صديقا له .

تلك هي الاقصوصة التى رواها لنا هيرودوت بالرغم من أن هناك فارقا زمنيا بين سولون وبين حكم كرويسوس يبلغ أربعة وثلاثين عاما الا أنها تلفت النظر الى تفاقم خطر الفرس فى آسيا الصغرى واحتلالهم مملكة ليديا وتهديدهم للمدن الاغريقية الموجودة على سـاحل آسـيا الصغرى .

وعاد سولون من رحلته التى امتدت الى عشر سنين ولدهشته وجد أن اصـلاحاته لم تقض على الخطر بل أخرت فى انفجـاره . لأنه ترك المتطرفين من كلا الأطراف المتنازعة يعملون لمنـازلة كبرى من أجـل الاستيلاء على الحكم ووجد المجتمع الاثينى منقسما على نفسه الى ثلاثة أحزاب متقاتلة هى حزب الجبل وحزب السهل وحزب الشاطىء حيث كان يتزعـم كل منهم زعيـم . كما وجـد أن أحـد أقـربائه ويدعى بيـستراتوس Peisistratus يتزعم حـزب الجبـل ويكون عصـابة لتحتل الاكروبول ثم ينصب نفسه حاكما مطلقا أو طاغيـا على البـلاد وهو نظام حكم جديد لم تعرفه البلاد من قبل .

(١) عن صراع الاحزاب الثلاثة بعد سولون انظر :

(1) E. Klume," «BemerKungen zu den Diskussionen uber der drei «Parteien» in Attika zur zeit der Machtergreifung des Peisistratos», Klio LIV, 1972, p. 101-124.

الفصل الثاني

عصر الطغاة الاغريق
أو
قيام دكتاتورية الفرد الواحد

(Greek Tyrants)

أطلق الاغريق على كل من ينتزع الحكم بالقـوة ليقيـم من نفسه حاكما على أشلاء الدستور لفظ «الطاغي» Tyrannos ولقد مرت بلاد اليونان

يرى البعض ان فكرة حكم الطغاة جاءت الى بلاد اليونان من آسـيا الصغرى وعلى وجه التحديد من ليديا حيث قلدوا حكم ملكها جوجيس Gyges انظر :

J. Labarbè," L' apparition de la notion de tyrannie dans la Grece antique, 'Acta Classica, XL (1972). p. 471-504.

ويرى بعض آخر أن ظاهرة قيام حكم الطغاة تطور طبيعي لظهور فئة من العسكريين الطموحين استخدموا الجنود المشاة الثقيلي التسليح hoplites والمحترفين لقلب نظم الحكم الارستقراطية وتنصيب انفسهم بقوة السلاح حكاما منفردين مقلدين ملوك الشرق من أمثال جوجيس ملك ليديا وفراعنة الاسرة الصاوية خاصة بسماتيك انظر :

R. Drews : The first Tyrants of Greece. Historia XXI, 1972, p. 129—144.

وهذه هي الآراء الحديثة بدلا من الاراء القديمة والتي يمثلها اور Ure الذي يربط هذه الظاهرة بالتطور الاجتماعي مثل ظهور الطبقـة البرجوازية الجديدة ويشبه الموقف بأسرة المديتشي في فلورنسا ابان عصر النهضة حيث كانوا طغاة لأنهم كانوا اغنياء قادرين على الانفاق على الانقلابات العسكرية انظر :

P.N. Ure, The Origins of Tyranny (1922).

وقد انتقد اندروز هذا الراى بأنه يقحم مفهومات سياسية معاصرة على هذه الظاهرة

Cf. A. Andrews, The Greek Tyants, Hutchinson University library, 1966, p. 154.

كذلك راى نيلسون الذى يرجع ظاهرة الطغاة الى ظهور طبقة رجال الصناعة وازدهارها انظر :

M.P. Nilsson, The Age of Early Greek Tyrants (Dill Memorial Lecture Belfast 1936).

بهذا النوع الجديد من الحكم ابان القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ولذا يطلق عليه بعصر الطغاة وهو نظام نشأ عندما انتزعت طائفة معينة من الشعب ــ عادة الطبقة الوسطى ــ الحكم عن طريق السلاح من الارستقراطيين الذين كان حكمهم يترنح فى هذه الآونة . والحق يقال كان هذا الحكم أكفأ بكثير من حكم الارستقراطيين الذين فشلوا فى معالجة المشاكل الاجتماعية بالسياسة والكياسة بل لجأوا الى القوة والعنف مثلما فعلت أسرة آل الكيمايون فى أثينا ، بعد محاولة كولون الفاشلة .

لقد كان الطاغى الاغريقى يقيم من نفسه وصيا على الفقراء والمعوزين لكى يكسبهم الى جواره وكثيراً ما كان الطغاة عقلاء ومستنيرين بالرغم من أن بعضهم كان دمويا وعنيفا وارتكب أفعالا تقشعر لها الأبدان حتى أصبحت الكلمة تعنى طاغية بمفهومنا الحديث .

لقد ارتبط ظهور الطغاة بتدهور الأحوال الاجتماعية القديمة نتيجة للثورة التجارية الكبرى وما تلا ذلك من تقدم صناعى و [illegible] طبقات غنية جديدة نافست طبقة النبلاء وطالبتها بالمزيد من الحقوق بل [illegible] حنقت عليها لاحتكارها السلطة والحكم وحدها . كما أن التطور فى نظام الجيش الذى أصبح يعتمد على جنود الطبقة المتوسطة أثر تأثيراً كبيراً اذ أدركت هذه الطبقة التى ملأت صفوف الجيش أن بيدها وحدها يتحقق سلام الأمة حتى أنها أصبحت تلقب نفسها بالشعب Demos وبرز من بين صفوفها زعماء ، خاصة عندما اندلعت الصراعات عند الأزمات [1] الداخلية الناتجة من الصراع والتخلخل الاجتماعى أو من وجود خطر خارجى ، وكان قائد الجيش بعد عودته من ميدان المعركة ظافراً حيث تستقبله الجماهير بالهتاف والتصفيق يجد الطريق مفتوحا أمامه لانتزاع السلطة بقوة السلاح مخالفا الدساتير والعرف والقوانين ليجعل من

---

(١) عن تطور معنى كلمة Demos الى مفهوم اجتماعى وسياسى انظر :

W. Donlon, «Changes and Shifts in the meaning of «Demos», in the Archaic, Period, Pars. del Pass CXXXV, 1970. p. 381-395.

نفسه حاكما منفردا غير شرعي وهذا ما تعنيه كلمة تورانوس Tyrannos (التى ترجمت خطأ الى « طاغية » [١] فى اللغة العربية) والمثل على ذلك واضح فى حالة جيلون طاغية سيراكوزه Gelon Tyrant of Syracuse الذى بعد انتصاره على أهل قرطاجنة الذين غزوا جزيرة صقلية عام ٤٨٠ ق.م نصب نفسه طاغية عليها . وفى بعض الأحيـان كان قائد الجيش يقوم بانقلابه بحجة أنه ذاهب للدفاع عن الوطن فى وجه خطر خارجى والمثل فى ذلك واضح من حالة الطاغية ديونيسيوس Dionysius الأول الذى قام بانقلابه قبل ذهابه لانقاذ الأمة من الخطر الخارجى الذى كان يحيق بها وفى بعض الأحيان نجـد « الطغـاة » ينحـدرون من أسر أرستقراطية ناقمة على الحكم الارستقراطى نفسه . كمـا أن بعض الطغاة كانوا من أسرة قادرة [٢] على تمويل الانقـلاب أو أسر جمعت لنفسها رأس مال من التجارة وأثرت أن تتزعم الطبقات الدنيا واستخدامها وتجنيد عواطفها للوصول الى الحكم . بالاضافة الى ذلك كان هناك طبقة من الطغاة العملاء كالذين أقامهم الفرس على مدن سـاحل آسـيا الصغرى فى ظلال حاميات عسكرية ليحكموا باسمهم فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد .

وبالرغم من أن الطغاة الاغريق وجدوا فى كافة المدن الاغريقية على كافة عصورها (منذ القرن السابع قبـل الميـلاد عنـدما بدأ حـكم الارستقراطيين يترنح حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد قبيل سقوط بلاد اليونان فى « حوزة » روما) الا أن العرف جرى على جعل عصر الطغاة فى بلاد اليونان يبـدأ من عـام ٦٥٠ ق.م (عنـدما استطاع كوبسيلوس Cypselus فى كورنثا من أن يسقط حكم أسرة آل باخيس Bacciades ويقيم من نفسه طاغيا على المدينة) وينتهى فى عام ٥١٠ ق.م (عندما تمكن الأثينيـون من طـرد هيبيـاس Hippias ابن الطاغيـة

(١) اشتق اللفظ العربى من الفعل طغى يطغى اى جار وزاد على الحد او بمعنى يثور ويجور ، لكن المعنى فى اللغة العربيـة مثل اللغات الاوربية الحديثة يتضمن الشر والأذى فى السلوك ، لكن الكلمة الاغريقية لا تنظر الى ذلك الجانب بتاتا وانما تعنى الوصول الى والانفراد بالحكم بدون القانون ورغما عن القانون . بصرف النظر عما اذا كان « الطاغى » خيرا او شريرا .

(2) cf. P.N. Ure, op. cit., Chapter VII

بيستراتوس من أثينا واعلان الحكم الديمقراطى) ومن أشهر الطغاة فى هذا العصر طغاة مدينة كورنثا مثل كوبسيلوس وابنه برياندر Periander وبسماتيخوس Psammatichus وكذلك طغاة مدينة سيكيون من آل أورثاجوراس Orthagoras (١) وعلى رأسهم كليسثنيس Cleisthenes وأيضاً طغاة مدينة ميجارا Megara وعلى رأسهم ثياجينيس Theagenes وبالنسبة لنا فان آل كوبسيلوس فى كورنثا وآل بيسستراتوس Peisistratus فى أثينا يعتبرون من أهم الطغاة الذين أثروا فى تاريخ الاغريق . وفى بعض الأحيان كان الطغاة يساندون بعضهم البعض ويقيمون بينهم أواصر الصداقة والقرابة والمصاهرة . وكانوا حلفاء لبعضهم البعض . هكذا على امتداد المائة والأربعين عاما خبرت المدن الاغريقية هذا النوع من الحكم الجديد والغريب أنه هو الذى وضع حد النهاية للاستبداد الارستقراطى ورعونته وعدم قدرته على مسايرة التطورات الجديدة التى طرأت على المجتمع ، كما أن نظام الطغاة نفسه كان مقدمة للنظام الديمقراطى الذى تلاه، اذ يمكن أن نقول باختصار أن عصر الطغاة كان فترة انتقال بين الحكم الارستقراطى القديم والحكم الديمقراطى الجديد .

كورنثا تقيم نظام حكم الطغاة والمدن اليونانية تحذو حذوها :

قبل أن نتحدث عن ثورة كورنثا ضد الارستقراطيين وأثر هذه الثورة على باقى المدن الاغريقية لابد لنا من أن نتحدث عن كورنثا ومكانتها بين مدن اليونان .

---

(١) عن دراسة أسرة آل اورثاجوراس وتفسير انقلاب كليثنيس على انه صراع بين اسرتين احدهما دورية الاصل والثانية ترجع الى سكان المدينة ما قبل وصول الدوريين مما ادى الى قيام الاخيرة بالانقلاب ضد الاولى انظر :

H. Rudolf, " Die alter Tyrannis in Sikyon, Chiron, I, 1971, p. 75-83.

كانت كورنثا تحتل المركز الثالث بعد أثينا واسبرطة من الناحية السياسية والحضارية . وهي تدين بنر عظمتها الى موقعها الجغرافى الهام ، اذ تقع على البرزخ "......" المعروف باسمها وعلى الخليج الواقع شمال البيلوبونيسوس كما أنها سيطرت على الطريق البرى الشمالى الذى يبدأ من هذا البرزخ سواء المتجه منه الى الشرق - أعنى الى بحر ايجه عبر المضيق أو الى الغرب على الساحل الشمالى لاقليم البيلوبونيسوس، وهكذا حتم الموقع الجغرافى على هذه المدينة أن تكون مركزا بحريا وتجاريا وميناء بلاد اليونان الأول ترسو فيه السفن القادمة من أعالى البحار محملة بالواردات ، والمواد الأولية وتخرج منه السفن المحملة بالمصنعات الكورنثية. ولذا نهضت الصناعة الكورنثية فى أعقاب ازدهار التجارة لتسد حاجتها ، وكان من الطبيعى أن تنظر قوانين المدينة الى الصانع نظرة احترام وتقدير تفوق نظرتها الى الجندى بعكس الحال فى اسبرطة ولهذا لم تنجب مثل أثينا فحول الشعراء والأدباء والفلاسفة بل كانت كورنثا ترسانة الصناعات ومحط أهل الفنون العملية الذين كانت تشجعهم على النزوح اليها وتغريهم بالوضع الاجتماعى اللائق والفريد من بين سائر صناع بلاد اليونان . وسرعان ما ازدهرت المدينة وكبر حجمها حتى بلغ سكانها ما بين ٤٠ ألفا الى خمسين ألفا وهو عدد يفوق سكان أثينا التى كانت تفاخر بأنها المدينة الأولى لبلاد اليونان . كذلك كانت كورنثا تستوعب عدداً كبيرا من القوى العاملة والعمال خاصة من الرقيق حيث راجت تجارتهم فى أسواقها بسبب السفن القادمة من آسيا الصغرى .

وكان من الطبيعى اذاً أن ينشأ التنافس والعداء المرير بين أثينا عندما ازدهرت وقوى أسطولها وبين كورنثا لأن الأخيرة رأت فى ازدهار الأولى خطرا يهدد مصالحها التجارية والبحرية ولذا كانت سياسة كورنثا دائماً هى تدمير أثينا وازالتها من الوجود فكانت تؤلب عليها اسبرطة وسائر أعضاء حلف البيلوبونيسوس ولكن آمال كورنثا لم تتحقق، بل من سخرية القدر أن منافسا سياسيا وبحريا جديداً برز من الجانب الآخر

للبحر الإدرياتيكي ليدمر كورنثا عن آخرها لأنه وجد فيها خطراً عليه سياسياً وتجارياً ، هذا المنافس الجديد هو روما (١) .

إن الزائر لكورنثا الحديثة ليدهش عندما يجد أطلال المدينة القديمة تقع على بعد ثلاثة أميال ونصف الميل فقط من البحر . ومن أهم أطلال كورنثا سوقها العامة agora وبعض مبان قديمة من عصور مختلفة وقد كشفت البعثات الأثرية الأجنبية عن بقايا معبد أبوللون الشهير والذى بناه طاغيتها برياندر Periander وهو عبارة عن سبع أعمدة من الطراز الدورى Doric Style كل منها منحوت من قطعة واحدة من الحجر Monolithic ومغطاة بالجص الأحمر يرجع تاريخها الى القرن السادس قبل الميلاد .

وعلى مسافة قليلة من المعبد جنوبا يقف تل المدينة الشهير بالأكرو كورنث Acrocorinth والذى ترتمى المدينة بل اقليم البيلوبونيسوس كله تحت سفوحه اذ يستطيع الواقف على قمته أن يشاهد أشهر وأجمل بقاع البيلوبونيسوس مثل جبال أركاديا وقممها التى تغطيها الثلوج البيضاء وقمة جبل بارناسوس المقدس Parnassos والهليكون Helicon بل ان المشاهد يستطيع أن يلمح أكروبول أثينا وأطلال البارثينون اذا ما كان الجو صافياً والسماء خالية من الغيوم . ومن أجل هذا الموقع الهام للأكروكورنث Acrocorinth فقد دارت معارك عديدة من أجل الاحتفاظ به ورد الطامعين فى احتلاله .

ان نظرة موجزة عن تاريخ المدينة المبكر تجعلنا ندرك أنها لم تختلف عن أى مدينة أخرى فى بلاد اليونان فتاريخها يبدأ بالأساطير الخرافية التى تفسر الفترات الغامضة من تاريخها والدارس لا يجد مهرباً من أن يتعرض لهذه الأساطير وتحليلها وذلك لغياب الدليل المادى .

ويقول أهل كورنثا أن اسم مدينتهم راجع الى اسم « أحد ابناء زيوس — رب الأرباب وكان اسمه Corinthus ولكن الاغريق سخروا من هذا الادعاء واعتبروا افتراء من جانب الكورنثيين » .

(١) وكان ذلك فى عام ١٤٦ ق.م. فى نفس العام الذى دمرت فيه روما قرطاجة وازالتها من الوجود انظر كتابى : تاريخ الرومان — القاهرة ١٩٧٦ ص ١٨٢ .

كذلك تتحدث أساطير المدينة عن أسرات حكمت ، أولها أسرة قديمة ساعدها هليوس Helios رب الشمس على الجلوس فوق العرش ولما مات آخر ملوكها دون أن ينجب وريثا فقد أرسل أهل المدينة شابا مغامراً اسمه ياسون Jason ليستكشف منطقة البحر الأسود وليأتي منها بملك وبعد رحلة أسطورية بحرية شاقة عاد البطل ياسون ومعه أميرة اسمها ميديا Medea من أهل هذه المنطقة وأجلست على العرش وتزوجت من ياسون الذي أصبح يحكم المدينة باسمها ولكن سرعان ما دب الخلاف بينهما بسبب رغبة ياسون فى الزواج من أخرى فهجر ياسون زوجته الشرقية فاضطرت الى تسليم العرش لحاكم وطني جديد هو سيسيفوس وبهذا بدأت أسرة جديدة من الأسرات التى حكمت المدينة . وجدير بالذكر أن وجهة نظر الكورنثيين تختلف عن رواية الاثينيين لهذه الاسطورة . فمثلا روى الشاعر يوريبيديس فى مسرحيته المعروفة باسم « ميديا » أن هذه الأميرة كانت شرقية بربرية ذات سلوك متوحش وتمارس السحر الأسود ضد من لا يعجبونها ولهذا هجرها زوجها فحنقت عليه لدرجة أنها ذبحت بيديها ولديها منه ثم تقتل عروس زوجها الجديدة وتعود الى بلادها . كذلك روى أهل مدينة كورنثا أن ولدى ميديا من ياسون رجما حتى الموت لأنهما حملا السم الى زوجة أبيهما كذلك يروى لنا الكتاب الاغريق أن قبرى هذين الولدين كانا من أهم الأماكن السياحية التى يذهب الزوار لمشاهدتها حتى القرن الثانى الميلادى .

وخلاصة القول أنه بينما نظر الاغريق ــ وخاصة أهل أثينا ــ الى ميديا نظرة تحقير اعتبرها أهل كورنثا ملكة عظيمة حكمت المدينة ومن الواضح أن العداء السياسى بين البلدين كان وراء هذا الاختلاف ونحن لا نملك أن نؤيد احدى الروايات على الأخرى نظراً لغياب الدليل المادى .

أما الحاكم الجديد سيسيفوس Sisyphos فيبدو أنه كان شخصية تاريخية بالفعل ولقد أصبح اسم هذا الملك فيما بعد مضرب الأمثال

للمكر والخداع وانعكاساً لشخصيــة الكورنثى التــاجر ولكن نجــد الخلاف يظهر بين الروايات الاثينية والروايات الكورنثية بخصــوصه فبينما يصوره هوميروس فى الأوديسا وهو يقضى عقوبة شاقة فى الجحيم عند هاديس Hades يصوره الكورنثيون كبطل من أشجع الأبطــال وملك لا يقل عن الآلهة قوة وعظمة .

وأيضا من أشهر الأساطير التى سادت بين الكورنثيين قبل حــرب طروادة أسطــورة البطل الكورنثى بللروفون Bellerophon حفيــد سيسيفوس ـ والذى استطاع أن يأسر الجواد الأســطورى المجنــح بيجاسوس Pegasus وهو يشرب من ينبوع ماء فوق الاكروكورنث وكان ذلك بمساعدة الربة أثينا التى أعطت بللروفون لجاما وشكيمة من ذهب ليأسر بها هذا الحصان الأسطورى ويستخدمه فى مغامراته البعيدة وربما يفسر ذلك تسمية معبد الربة أثينا بالمدينة باسم « معبد الربة أثينا صاحبة اللجام » .

ولما حدثت حرب طروادة تحدثت الأساطير عن عجز كورنثا فى ارسال حملة مثلما فعلت موكيناى وبيلوس لمساعدة الآخيــين وتتحــدث عن ارسال المدينة لفرقة واحدة عملت تحت قيادة أجاممنون ملك موكيناى . ومن المواقف الطريفة التى روتها الأسطورة أن أحد أحفاد بللروفون كان يحارب مع الطرواديين وبينما كان يتبارز مع ديوميديس Diomedes أحد أبطال الاغريق وفى أثناء الحوار الذى دار بينهما تبين لهما أنهما أهل وأقارب ومن ثم تصافحا . وأعــجب بللروفون بدرع ديوميديس النحاسى فتبادله بدرعه الذى كان من الذهب الخالص وسخر الاغريق فيما بعد لهذه الصفقة واعتبروا الحفيد الطروادى غشيما غبيا حتى أن هوميروس يعقب على هذه الصفقة بأن « زيوس ذهب بذكائه » فأقدم على المبادلة .

وعندما تلى حرب طروادة الغزو الدورى الذى غــير من وجه بلاد اليونان سياسة وثقافة وتاريخا وهاجر المطرودون من بلادهم الى آسيا الصغرى حيث أســسوا أيونيا لا نسمع شيئاً عن مهاجرين من كورنثــا

ولكن نسمع أن كورنثا بعثت من جـديد كمدينـة دورية لحما ودما بصورة غير التى كانت عليها قبل الغـزو الدورى • ونسمع عن نظـام جديد لحكم المدينة عن طريق طبقة أوليجارخية من النبـلاء من أسرة آل باخياس . Bacciadae والتى طردت الأسرة النبيلة السابقة ودفعت بهم الى الهجرة خارج البلاد فهاجروا حيث أسسوا مستوطنتين أحداهما كوركيرا (جزيرة كورفو المواجهة للساحل الغربى لبلاد اليونان والأخرى مستوطنة ايبدامنوس Epidamnus دورازو الحالية على ساحل البحر الادرياتيكى) كما هاجر بعضهم الى صقلية وأسسوا مستوطنة قدر لها أن تكون سيدة المستوطنات الاغريقية جميعها فى هذه الجـزيرة وهى مدينة سيراكوزه Syracusae.

اسرة باخياس تضع اساس نهضة كورنثا :

يروى لنا التراث القديم أن أسرة آل باخياس Bacciades حكمت مدينة كورنثا قرابةماية وأربعين سنة من ٧٥٠ الى ٦١٠ ق٠م واستطاعت خلالها هذه الأسرة أن تضع نواة أسطول المدينة العظيم الذى أصبح فيما بعد سر قوتها وسلطانها فيما وراء البحار لأنهم بنوا الترمانات البحرية ويقال أن الكورنثيين أول من ابتـكروا السفن ذات الثـلاث طـوابق Triremes وأن أول معركة بحرية فى تاريخ الاغريق هى تلك التى حدثت عام ٦٤٠ ق٠م ما بين مدينة كورنثا ومستوطنتها المتمردة عليها كوركيرا Korkyra • وهكذا دفع حـكام أسرة آل باخيـاس قوة الدولة الى الأمام فنشروا سلطان كورنثا فيما وراء البحار وعلى الطرق والممرات المائية الحيوية كما طهروا البحار من خطر قراصنة البحر وفرضوا مقابل ذلك اتاوة على السفن فضمنـوا لهـم بذلك دخـلا زاد من ثرائهـم واقتصادهم • وفى ظلال ازدهار التجـارة ازدهرت الصنـاعة وتعـلم الكورنثيون الكثير من خبرة شعوب الشرق الأوسط فكانوا أول من

اقتبس من فنون الشرق (١) خاصة فن الرسم الطبيعى المتحـرك والحى والنماذج المليئة بصور النباتات والحيوانات ذات الألوان الزاهية ممـا يعرفه علماء الآثار بأسلوب الاستشراق Orientalizing Style خاصة فى معالجة الرسم على الاوانى Vase Painting كما أن كثرة الأسلوب الاستشراقى على (٢) الأوانى الكورنثية التى انتشرت انتشارا كبيرا يدل على صناعة ناجحة ظلت تكتسح الاسواق حتى طورت أثينا صناعتهـا وقليلا قليلا انتزعت من كورنثا هذا النجاح ولا نسمع بعد ذلك الا عن الصناعة الاثينية ومدارس الرسم الاثينية فوق الأوانى المتعددة حـتى العصر الهللينستى .

ولكن من الواضح أن المدينة لم تسلم من الصراع الاجتماعى نتيجة لظهور طبقات ثرية جديدة ونتيجة لضعف الأسرة الارستقراطية الحاكمة وعدم قدرتها على مواجهة التحديات والظروف الجديدة حتى تمكن أحد أنصاف النبلاء الساخطين واسمه كوبسيلوس Cypselus عام ٦١٠ق.م من أن يستخدم القوة ويجمد القوانين ويحكم منفردا ويبطش بأعـدائه وهو ما يعرف عند الاغريق بحكم الطاغية Tyrannos.

عصر الطغاة فى كورنثا :

اذا كانت عظمة كورنثة تدين لأسرة باخياس فانها تدين بدرجة أكبر لنشاط وديناميكية الطغاة . حقيقة أننا لا نعرف الكثير عن الطاغى الأول

---

(١) من المعروف ان اول معبد اغريقى بنى على الطراز الدورى الذى هو صورة مطورة من المعبد المصرى (خاصة معبد زوسر فى سقارة الذى بنى حوالى عام ٢٦٠٠ ق.م) هو معبد الربة ديميتر فى جـزيرة كوركيرا والذى بنى حوالى عام ٦٠٠ ق.م . وعن علاقة الاغريق بمصر فى هذه الفترة انظر :

M.M. Austin, Greece and Egypt in the Archaic Age, (Proceedings of the Cambridge Phiological Soceity, Suplement no. 2). 1970. p. 15 ff.

(٢) اندريه ايمارد وجانين او بوايه : تاريخ الحضارات العام الشرق واليونان القديمة ـ ترجمة فريد واعز وفؤاد ابو يرحان بيروت ـ منشورات عويدات ١٩٦٤ .

كوبسيلوس لأن المعلومات التى وصلت الينا متناقضة فقد وصفه بعض الكتاب بأنه كان قاسيا ، عنيفا ومتسلطا ، كبح حرية الناس بالقمع وطرد النبلاء بالقوة وصادر أموالهم ودفعهم للهجرة خارج البلاد حيث أسسوا المستوطنات (وهذا يفسر العداء السافر بين المدينة ومستوطناتها والذى وصل الى حد الحرب بل وجر بلاد اليونان كلها الى ساحة الحرب معها) ويرى آخرون أنه كان حاكما عادلا أحبه الناس ووثقوا فيه ووثق هو بدوره فيهم ، فكان يسير فى الطرقات والأسواق دون حراس حوله وأنه كان مسالما لا يميل الى الحرب (وبالفعل لم تشغل كورنثا أى حرب أثناء حكمه لها) بل كرس همه فى اقامة المستوطنات جنوب ايطاليا وصقلية وأقام علاقات طيبة مع سلطات العبادة الكهونية فى دلفى حيث معبد أبوللون الشهير بأن بنى هناك دارا لخزن النفائس التى ترسل كقرابين لهذا الآله Treasury وأغدق على كهنة دلفى بالهدايا كذلك أقام كوبسيلوس علاقات طيبة مع دول غير هيللينية مثل مملكة ليديا فى غرب آسيا الصغرى .

ولما مات كوبسيلوس حكم من بعده ابنه برياندر Periander الذى فاق أباه نجاحا فى الوصول بكورنثا الى قمة العظمة والازدهار ولكن التراث القديم لايترك لنا صورة واضحة عن شخصيته بل يظهره متناقضا بين الخير والشر ولكن أغلب الظن أنه بدأ حياته معتدلا ومحبوبا ولكن مالبث أن تغير فتسلط على الناس وارتكب جرائم بشعه من أجل تأمين العرش لنفسه وذكر أرسطو أنه كان أول من ابتدع قطف الرؤس اذا نمت أكثر من اللازم ، وروى التراث الاغريقى فيما بعد أنه حرم على الناس العلم وأغلق النوادى والمجتمعات حتى لا تشجع الناس على التمرد والثورة وكانت سياسته الابقاء على الشعب جاهلا ومعدما حتى لا يكون له حول ولا قوة كما بث بين الناس العيون والجواسيس ومنع التجمهر والاجتماعات وعلى العكس من أبيه قام بعدد من الحروب فغزى مستوطنة كوركيرا المتمردة كذلك دخل فى صراع مسلح مع مدينة ميليتوس Miletus

كذلك أقام برياندر علاقات قوية مع فراعنة مصر حتى أن ابن شـقيقه أعطى اسم بسماتيخوس Psammatichus (١) تيمنا باسم الفرعون سماتيك أحد فراعنة الأسرة الصاوية • وعموما تمتع برياندر باحترام كبير على مستوى العالم الهللينى كله لدرجة أنه كان يدعى للتحكيم فى المنازعات بين المدن المتصارعة ، ومن أهم المستوطنات التى أسسها برياندر مستوطنة بوتيدايا فى الشمال الغربى من حوض بحر ايجه وكانت هـذه المستعرة الدورية شوكة فى حلق المصالح الاثينية والتى كانت تسيطر تماما على هذه المنطقة (كان مهاجمة أثينا لهذه المدينة أحـد أسباب قيـام الحرب البيلوبونيزية التى اشتعلت رحاها بين أثينا وأسبرطة فيما بعـد •

كذلك روى التراث القديم أن برياندر كان أول من أوجد المهرجان الرياضى لخليج كورنثة المعروف باسم المباريات الاسثمية Isthmian games والتى كانت تقام كل عامين تكريما لرب البحار بوسيدون Poseidon ,كان هذا المهرجان من أنجح المهرجانات الرياضية لكثرة زواره وجماهـيره وقد جنت كورنثا دخلا كبيرا منه ولذا بقيت ادارة هذا المهرجان فى يدها حتى النهاية • كذلك شـمل نشاط برياندر الديانة اذ أعجب برب الخمر ديونيسوس وسحره الرمز الذى يتضمنه موته ثم بعثه فى الربيع عندما ينضج النبيذ الجديد ولهذا أنشأ برياندر جوقة لانشاد ترانيم مقدسـة لهذا الاله عرفت باسم الديثورامب Dithyramb والذى منه تبلورت المسرحية الاغريقية فيما بعد •

كذلك كان عصر برياندر عصر بناء وتعمير اذ بنى معبد أبوللون الكبير والذى سبق ذكره ويقال أن المهندسين الكورنثيين هم أول من أوجدوا قواعد البناء المعمارى مثل بناء الواجهة المثلثة pediment التى توجد فى المعابد والمبانى الكبرى وهم أول من بتدعوا تزيينها بالرخام المنحوت

---

(١) من المعروف أن ملوك الاسرة الصـاوية ٦٦٣ — ٥٢٥ ق.م فى محاولتهم لاحياء الامبراطورية المصرية المنهارة حاولوا بناء أسطول مصرى حربى من السفن الافريقية ذات الثلاثة طوابق من المجدفين triremes. والتى تعرف فى الهيروغليفية باسم Kbnt وليس من المستبعـد ان يكونوا قد جندوا خبراء من كورنثا لهذا الفرض أنظر المقالة الطريفة :

Alan. B. Lloyd. «Triercmes and The Saite Navy», Journal of Egyptian Archaeology, 58 (1972). p. 2 68. 279.

وقد لمعت أسماء مهندسين كورنثيين أثناء هذه النهضة المعمارية ولكن للأسف لم يصل الينا كثير من هذه المبانى حتى معبد أبوللون فقد دمره حريق كبير عام ٥٤٨ ق٠ م كما أن عجز كورنثا على أن تكون خلاقة فى مجال الشعر والأدب جعلها تعوض ذلك بدعوة مشاهير الشعراء والأدباء خاصة من أثينا واغرائهم بالاقامة وحسن الاستقبال ولهذا مدحهاالكثيرون فى أشعارهم ومؤلفاتهم •

نهاية حكم الطغاة فى كورنثا :

حكم برياندر أربعين عاما حتى دهمته الشيخوخة وبدأ الصراعحول العرش •واختار برياندر ابن شقيقه بسماتيخوس • ولكن هذا الاخير كان ضعيفا ولم يستطع حماية الحكم من ثورة النبلاء الذين عادوا من المنفى ومعهم قوات من أسبرطة • واستولوا على كورنثا وقتلوه • ومنذ ذلك الوقت انضمت كورنثا الى حلف البيلوبونيسوس وأصبحت من أبرز أعضائه • كذلك أقام الارستقراطيون حكما أوليجارخيا على نمط النظام الذى شجعته أسبرطة فى مدن البيلوبونيسوس •

ومهما يكن من أمر فان فضل الطغاة فى بناء كورنثا عظيم لأنهم هم الذينجعلوها تنتزع السيادة علىالبيلوبونيسوس منمدينة أرجوسالمجاورة وهم أصحابالتوسع الاستيطانى(١) والانتشار التجارىوبناء القوةالبحرية وهم أول من أوجدوا نواة لحياة ثقافية واجتماعية من أجل الترفيه على قلوب الشعب العامل الكادح • وقد بلغ اقتصاد كورنثا فى عهدهم درجة عالية من القوة فهم أول من سكوا عملة فضية باسم مدينتهم بدلا من التعامل بعملة أرجوس • وكانت العملة الجديدة تحمل على احدى وجهيها صورة للجواد الاسطورى بيجاسوس وعلى الوجه الآخر شعار الصليب المعقوف Swastika (٢) ولقد عثرت البعثات الأثرية علىكميات كبيرة من هذه العملة فى صقلية وايطاليا مما يدل على النفوذ والرخاء ، وليس من الغريب أن نعثر على بعضها فى مصر وربما فى ممفيس أو

(١) وهو نفس الشعار الذى اتخذته ألمانيا النازية فى النصف الاول من القرن العشرين •

(1) cf. Carl Roebuck," Some Aspects of the urbanization of Corinth, Hesperia XLI (1972). p. 96-127.

(٢) وهو نفس الشعار الذى اتخذته ألمانيا الهتلرية شعارا لها •

نقراطيس أو سائر الأماكن التي وفد اليها التجار الاغريق قبل فتح الاسكندر لمصر وعموما فان منطقة صقلية وجنوب ايطاليا كانت منطقة حيوية للمصالح الكورنثية كما كانت منطقة البحر الأسود بالنسبة لأثينا

هكذا بسقوط حكم الطغاة سقطت الامبراطورية الكورنثيةواعتكفت كورنثا على التجارة فقط وحاولت أن تكون على علاقة طيبة مع كثير من الدول من أجل مصالحها . أما من ناحية نظام الحكم الداخلى فقد اقتبس الأوليجارخيون نظام أرجوس القديم وأقاموا مجلسا تشريعيا عدد أعضائه ثمانين عضوا يختارون على أساس عشرة أعضاء من كل قبيلة ووزعت الاختصاصات الادارية عليهم . حقيقة أن الأوليجارخية خنقت كورنثا وحرمتها من التطور والانطلاق التى تمتعت به أثينا ، وقيدت يداها وربطتها بالحلف البلوبونيزى ولكن بالرغم من هذا كله فقد كانت كورنثا مثالا يحتذى به سائر المدن الاغريقية فى الادارة والنظام وتطبيق القوانين . كما أنها لعبت دورها التاريخى فى الحروب ضد الفرس وأكبر من هذا وذاك فهى التى حرضت حلف البيلوبونيسوس على اعلان الحرب على أثينا منافستها وطالب مندوبوها بتدميرها ومحوها من الوجود . واختارها فيليب المقدونى فى عام ٣٣٨ ق.م مقرا للحلف الدفاعى الجديد ضد الفرس بل ان الاسكندر الأكبر زارها فيما بعد وأقام فيها حامية مقدونية كموقع استراتيجى بحجة حراسة اليونان ، كما لعبت دورها فى حروب ورثة الاسكندر وظلت تابعة لمقدونيا حتى هزيمة فيليب الخامس عام ١٩٧ ق. م على يد القنصل الرومانى فلامينيوس Flaminius والذى أعلن حرية كورنثا باسم روما ولكن الكورنثيين شكوا فى نواياه فانضموا للحلف الآخى لمقاومة التوسع الرومانى وحاول الرومان ابعاد كورنثا عن نشاط هذا الحلف ولكن الكورنثيين رفضوا ذلك بشدة لدرجة أنهم ألقوا بالطين فى وجه السفراء الرومان عند مرورهم فى المدينة ، عندئذ أدركت روما أن سياسة القوة واجبة فأرسلت القنصل لوكيوس موميوس Mur[illegible]mius حيث سحق قوات الحلف الآخى ودخل كورنثا وهرب ال[illegible] بتدمير المدينة وحرقها وضم أراضيها لمدينة سيكيون المجاورة [illegible] وذلك فى عام ١٤٦ ق.م .

وظلت كورنثا أطلالا مهجورة حتى جاء يوليوس قيصر وأصدر قراره باعادة بناء كورنثا واقامة مستوطنة رومانية فيها مثلما فعل مع قرطاجة ويبدو أن قرار قيصر لم ينفذ الا بعد اغتياله عام ٤٤ ق. م .

بيسستراتوس Peisistratos طاغية اثينا :

كان بيسستراتوس زعيم حزب الجبل وأحد أقرباء المشرع سولون لأن اسمه تردد أثناء عمليتين حربيتين قام بها سولون وهما احتلال نيسايا Nisaea ميناء مدينة ميجارا واستعادة جزيرة سلاميس Salamis ،استطاع بيسستراتوس أن يستغل سخط الفقراء الاجتماعي وأن يتعظ من أمر كيلون ويحتاط بتجنيد حراس حوله واستطاع عن طريقهم احتلال الاكربول ويمكن أن نصف طريقة حكم بيسستراتوس بأنها كانت أكثر عدلا وانسانية من حكم الأرستقراطيين ولقد وضع بيسستراتوس المشرع سولون موضع الاحترام وأنزله منزلة التكريم ولم يحتج سولون على الطاغي لأنه كان وقتئذ فى الثمانين من عمره ولأنه لم يعش طويلا اذ مات عام ٥٥٩ ق.م ان قضية الطغاة دائما هى كيف يستولون على الحكم، وكذلك كانت مشكلة بيسستراتوس لأنه قام بثلاث انقلابات قبل أن ينجح فى أن يصبح طاغية وذلك عندما قام بحيلة ظريفة اذا قدم لمجلس الشعب وقد تمزقت ملابسه وتنزف جراحه مدعيا أن أعداءه السياسيين تعرضوا له بالاعتداء . عندئذ تحمس له قطاع كبير من المجلس واتخذوا قرارا يسمح له بأن يتسلح بعدد من الحراس لحمايته . وسرعان ما هاجم الاكروبول بهؤلاء الحراس واحتله .ولكن أعداءه استطاعوا طرده فاضطر للهرب . فلجأ الى حيلة أخرى وهى أنه دخل المدينة وهو يركب عربة وبجواره امرأة فارعة القوام ارتدت زيا شبيها بالزى الذى كانت تصور به الربة أثينا وادعى أن الربة جاءت معه لتنصره على أعدائه وبالفعل استطاع بيسستراتوس عن طريق هذه الخدعة أن يكسب تأييد الطبقات الساذجة والأمية وأقام نفسه طاغية لفترة وجيزة ثم طرد مرة أخرى وظل فى النفى المدة عشر سنوات حتى عاد عام ٥٤٦ ق.م بقوة من الرجال وتمكن من اقامة حكمه بالقوة والذى استمر حتى عام ٥٢٧ ق. م .

حكم بيسستراتوس بمهارة فائقة . اذ حاول كسب العطف العام

الشعبى بتنظيم المهرجانات الدينية مثل مهرجان الاله ديونيسوس Dionysus ابان الربيع حيث كانت تقام العروض المسرحية من تراجيديا وكوميديا وكان بداية لقيام مدرسة من شعراء المسرح الاثيني ذاع صيتها فيما بعد . كما كرم الربة أثينا الحامية للمدينة فنظم عيدها الشهير بالباناثينيا Panatheneia والذى فيه كانت تلقى مقطوعات الشعر وتجرى المباريات الرياضية بين كل الاغريق كلهم وليس بين الأثينيين وحدهم لأن بيسستراتوس كان يهدف من وراء ذلك الى فرض مركز أثينا على كافة مدن اليونان . ودعم ذلك بالاهتمام بتزيين العاصمة حتى تبدو بجمالها وروعتها وكأنها عاصمة لبلاد اليونان اذا ما توحدت . وعلى ذلك فقد شجع الفنانين من مهندسى العمارة والنحاتين للقيام بعدد من المشروعات العمرانية . وكان ذلك بداية سياسة سار حكام أثينا عليها حتى نهاية القرن الخامس ق. م (١) .

لقد بدأ بيسستراتوس العمل نحو بناء الامبراطورية الاثينية فشجع المغامرين من الشباب والباحثين عن الذهب على انشاء المستعمرات الاستيطانية فى اقليم تراكا Thracia شمال اليونان حيث توجد مناجم الفضة وحول منطقة البسفور والدرنيل Hellespont حتى يضمن سلامة مرور السفن الاثينية المحملة بالقمح من منطقة البحر الأسود واقليم أوكرانيا الشهير بقمحه لأن الدولة الأثينية كانت تعتمد على القمح المستورد أكثر من اعتمادها على القمح المنتج من أرضها كما عمل بيسستراتوس على تنظيم الزراعة المحلية بتوزيع الاقطاعيات الزراعية المصادرة والتى تركها النبلاء الهاربون ووزعها على الفلاحين المعدمين وأمدهم بالمال اللازم لزراعتها كما شجع زراعة أشجار الزيتون لوفرة انتاجها ورخص تكاليفها ولأنها كانت عماد الغذاء والصناعة والزراعة فى البلاد . كما حرص هذا الطاغية على تشجيع التجارة الخارجية وجعل سياسته الخارجية تقوم على هذا الاساس . فاستولى على ميناء سيجيوم Sigeum على ساحل آسيا الصغرى وأرسل الجنرال الاثينى الماهر ملتياديس Militiades ليؤمن له منطقة شبه جزيرة القرم والشاطىء التراكى المقابل لها كما تبنى

(1) J.S. Boersma, Athenian building Policy from 561-405 B.C., Gronigen, 1970.

بيسستراتوس الشعراء الفنانين وحباهم بعطفه وبماله وقام بتعيين لجنـة منهم لتنقيح الالياذة والأوديسا بعد تسجيـل أشـعارها . هكذا كان بيسـتراتوس طاغية مستنيراً واستمرت هذه السياسة حتى بعد موته عام ٥٢٨ ق.م عندما حكم ولداه هيبياس Hippias وهيبارخوس Hipparchos حكما ثنائيا أظهر فيه كل منهما حبه لأخيه .

اغتيال هيبارخوس :

حدث أن كان الأخوان هيبياس وهيبارخوس على صداقة بشابين من النبلاء هما هـارموديوس Harmodius وأرسـتوجيتون Aristogeiton وحدث أن اختلف هذان النبيلان معهما فقـررا اغتيالهما فانتهزا عيـد الباناثينيا الكبير عام ٥١٤ ق. م حيث كان يسمح فيه بحمل السـلاح دون تشكك أو خطر لأن الحياة فى أثينـا فى عصر أسرة بيسستراتوس كانت مؤمنة وهادئة ولم يتمكن هذان النبيلان الا من قتل هيبارخوس الأخ الأصغر وقد قتل الحراس هارموديوس عقب اغتياله لهيبارخوس أما زميله أرستوجيتون فقد قبض عليه ومات من التعذيب . كانت تلك نقطة التحول من الحكم الانفرادى المستنير الى الحـكم الانفرادى الدموى والذى يتمثل فيه بحق الطغيان لأن هيبياس انتقم من مقتل أخيه بقسوة وعمل الخوف عمله فى تشدده وشكوكه وبطشه . فكان حكمه عنيفـا وكابتا للحريات الشخصية . أما النبيلان هارموريوس وأريستوجيتون فقد اعتبرا بطلين مخلصين وقتاه الطغاة Tyrannophonoi كرما فيما بعد فأقيم تمثالان لهما فوق الاكروبول . ولقد حاول هيبياس خطب ود أسبرطة لتأييده فى البقاء فوق مقعد الحكم واستغل الارستقراطيون المنفيون [1] استياء الناس من حكم هيبياس فقاموا بعرض قضيتهم على كهنة الآله أبوللون فى دلفى وكسبوا عن طريق الرشاوى والوعود تأييدهم ومن ثم أراد الاسبرطيون اظهار حسن نواياهم فى تحرير أثينـا فقـام ملـكهم

---

(١) خاصة أسرة الكمايون التى شتت بيسستراتوس شملها انظر :

P.J. Biknell, The Exile of the Alkmeonidai during the Peisistratids tyranny, Historia, XIX, 1970. p. 129-131.

كليومينس Cleomenes بقيادة جيش سار الى أثينا وطرد الطاغيـة فى عام ٥١٠ ق٠م ٠ ففر الى مستعمرة سيجيوم Sigeum ثم التجأ الى قصر ملك الفرس دارا Darius أملا فى حثه على اعـادته الى الحـكم مرة أخرى ٠

والآن نجد سؤالا يفرض نفسه ما الذى كان يهم الاسبرطيون من تحرير أثينا من حكم الطغاة مع أنهم كانوا على خلاف مع أثينا ؟ لقد فعل الاسبرطيون ذلك خوفا من نظام الطغاة لأن الطغاة كانوا يحلمون ببناء امبراطوريات توسعية على حساب الآخرين ويهمهم وجود حكم ضعيف وليس قويا ولذا عملوا على اسقاط الدكتاتورية الاثينية ٠ أيضا أدرك الاسبرطيون أن حكم الطغاة يعتمد على الذين لا يملكون وعلى الطبقات الكادحة والفقيرة مما قد يدفع المستعبدين فى بلادهم الى الثورة مقلدين فقراء أثينا وفى ذلك خطر عليهم لأن سياسة أسبرطه كانت دائما تتركز فى اقامة حكومات أوليجارخية رجعية ويمينية بالمفهوم المعاصر ٠

ولكن ظن أسبرطة خاب اذ لم تستطيع الارستقراطية ارجاع ساعة التقدم الى الوراء الى أكثر من مائة سنة ليعودوا بأثينا الى أيام سولون ٠ ومن باب سخرية التاريخ أن الذين وضعوا أسـاس التفسـير الآثينى للديمقراطية هم الأرستقراطيون فقد وضع كليثنيس Cleisthenes حلولا أولية لمشكلة الحكم أذهلت العالم فيما بعد ٠ اذ أوجد حـكم الشعب للشعب democracy ٠ بينما أطلقت أبواق الدعـاية الآثينيـة مـرددة التضحية الكبرى التى قدمها هارموديوس Harmodius وأرستوجيتون Aristogetion للبلاد وللحرية ومن ثم أصبحا أسطورة وجـدت مكانها بين أساطيرهم الغنية بالخيال ٠

(١) وعن سقوط هيبياس وعلاقة ذلك بحملة الفرس على ثراكيا عام ٥١٣ انظر :

Castritius," Die okkupation Tharkiens durch die Perser und der Sturz der athenische Tyrannen Hippias *Chiron, II*, 1972, p. 1-15.

وبعد أن سقط هيبيـاس انسحبت قوات الفرس من تراقيـا التى لم تضم نهائيا لحوزة الامبراطورية الفارسية الا فى عام ٤٩٢ ق٠م ٠ ومن ثم يربط المؤلف بين غزو الفرس السريع لثراكيا وسقوط الطاغيـة هيبياس ولكن ذلك مجرد رأى ٠

محاولات كليثنيس لايجاد نظام ديموقراطى :

يستطيع الدارس أن يشعر بمدى ادراك الاثينين لأهمية نظامهم الجديد فى غيرتهم عليه ابان حروبهم ضد الفرس ثم ضد الاسبرطيين (١)، وكما يتضح من خطبة التأبين التى ألقاها أحد ساستهم الكبار وهو بيركليس Pericles والتى سجلها لنا المؤرخ الاثينى ثوكوديدس Thucydides اذ تحدث بيركليس عن مدى دفاع الاثينيين عن نظامهم السياسى فى هذه الحروب لأنهم كانوا يدركون الأسبرطيين جاءوا ليسلبوهم اياه فماذا يا ترى كان هذا النظام ؟

كان كليثنيس أحد المحركين لفكرة طرد هيبياس واسقاط نظامه وكان الأول من أسرة الكمايون التى طردت منذ وقت طويل الى خارج البلاد وبعد قدوم الجيش الاسبرطى وانهائه مهمته دخل كليثنيس فى منافسة مع نبيل آخر اسمه ايساجوراس Isagoras كان الملك الاسبرطى كليومينيس يحابيه . وهب الأثينيون فى وجه الملك الاسبرطى فانسحب تاركا كليثنيس يكسب الجولة . وبدأ هذا الزعيم فى تحقيق نظامه الجديد الذى نوجزه على النحو التالى :

١ ـ ألغى كليثنيس نظام تقسيم الأثينيين الى أربعة قبائل تقوم على المولد والأصل وأحل محله تقسيمهم الى عشرة قبائل تقوم على محل الاقامة وحسب التقسيمات الاقليمية، كما قسم أتيكا اقليمياً الى ثلاث أقسام : المدينة والشاطىء والمناطق الداخلية وقسم كل جزء الى عشرة مراكز محلية Trittyes وبالتالى قسم كل مركز الى عدد من الأحياء السكنية demes ، واختار من كل اقليم مركزاً ، أى من كل ثلاثة مراكز مختلفة تتكون القبيلة الجديدة . وبذلك قضى على النعرة الاقليمية لنظام الحكم القبلى وأبعد الخطر عن ثورات القبائل . لأن القبيلة بذلك أصبحت موزعة على عدد من المراكز الجغرافية المتباعدة .

Cl. Mossé," Histoire d'une democracie : Athénes, des originés à la Conquête macedoniénne, [Coll. Points Serie Histoire] Paris Ed. du Seuil, 1971 'p 9 'd '

٢ — وعلى ضوء هذا التقسيم العشرى الجديد للقبائل اختار كليثنيس مجلسا وطنيا تعداده خمسمائة عضو أى اختار من كل قبيلة خمسين عضواً وقد أعطى هذا المجلس أهمية خاصة كهيئة دستورية وتشريعية وقضائية تنفذ القوانين وترعى الأمن والنظام (١) .

٣ — وامعانا فى الديموقراطية جعل كليثنيس الأراخنة ينتخبون بالاقتراع بواسطة أعضاء هذا المجلس . وبالاضافة الى ذلك أوجد مجلساً من الجنرالات strategoi عدده عشرة أعضاء يختار واحد من كل قبيلة ويرأسه قائد الجيش Polemarch ومن الجدير بالذكر أن هذا المجلس تطور فيما بعد ليصبح أعضاؤه بمثابة الوزراء ورئيسه بمثابة رئيس الوزراء تماماً كما كان بيركليس الشهير .

---

(١) وقد تطور هذا المجلس فيما بعد ليصبح مجلس الشيوخ او الشورى (Boule) حيث اصبح من حق اى مواطن مقيد فى حى (deme) وفى قبيلة أن يرشح نفسه لعضوية المجلس بشرط ان يزيد سنه على الثلاثين. وكان الاختيار يتم عن طريق القرعة ويشغل العضوية لمدة سنة ويجوز اعادة الترشيح بشرط مرور فترة فاصلة وكانت مهمة « البولى » ادارة الدولة بالاشتراك مع كبار الموظفين واعداد القضايا للجمعية العامة الاكليسيا Ecclesia . ومقابله الوفود الاجانب والعناية بالاسطول وادارة اموال الدولة ورعاية المعابد والعبادات وبمرور الزمن اصبح لهذا المجلس سلطات قانونية دون التدخل فى سير المحاكم او التعرض لحقوق الاكليسيا ، خاصة فى قضايا الخيانة العظمى وبالرغم من اهمية البولى الا ان القوة الفعلية بقيت فى يد الاكليسيا . وقد قدم الأستاذ رودس دراسة جديدة للبولى الاثينه على ضوء النقوش التى عثر عليها حديثا فى الاجورا الاثينية . وبين كيف قويت شوكته مع ازدهار الديمقراطية خاصة ابان القرنين الخامس والرابع ق.م وتدهور مركزها مع تدهور سلطة المدينة (polis) فى العصر الهللينستى حيث اختفى مجلس الاكليسيا وترك امر القرارات الصغرى للبولى وخلاصة القول كان للبولى يد فى كل شيء فى ادارة الدولة انظر :

« The boule had its Finger in every Pie ! ».

انظر :

P.J. Rhodes, The Athenian boule, Oxford Clarendon Press 1972 (= R.E. Wycherley, JHS, XCIII (1973) pp. 255-256).

٤ ــ كما أوجد كليثنيس نظام النفى عن طريق الاستفتاء ostracism (والكلمة الاغريقية مشتقة من اللفظ ostraka أى شقافة) (١) حيث كان من حق الجمعية العامة ــ أى سكان المدينة أن يقترعوا عن طريق كتابة اسم شخص معين على قطع الشقافات ــ بأغلبية لا تقل عن ١٠٠ صوت وأن يطلبوا منه مغادرة البلاد لمدة عشر سنوات دون التعرض لمصادرة ممتلكاته والغرض من ذلك تجنب الخطر الناتج عن سوء سلوك شخص معين حتى لا تحدث الصراعات ولكى لا تعطى فرصة لقيام طاغ جديد على البلاد .

٥ ــ وأخيرا أعطى كليثنيس سلطات قوية للمواطن العادى الذى أصبح من حقه أن يكون محلفا dikastes فى المحاكم ولكن بدون أجر وأعطاه الحق فى المطالبة بمحاكمة الأراخنة أمام المجلس عند نهاية السنة الوظيفية كما حول كليثنيس قوة الأمن الى قوة تخدم المواطن وتحمى ممتلكاته .

ان اصلاحات كليثنيس والتى تقوم فى جوهرها على الهندسة الطبقية وعلى التوازن بين طبقات المجتمع وعلى وضع حدود لآمال كل طبقة لم تكن فى الحقيقة سوى تطوير للافكار التى وضع أساسها سولون ؛ فمثلا مجلس الـ ٤٠٠ لم يكن سوى مجلس الـ ٥٠٠ الذى أنشأه سولون، أما عن فكرة تقسيم المواطنين الى أحياء demes وقبائل Phylai فهى تطوير لفكرة العشيرة genos والبطون Phratries

وجدير بالذكر أن هذه الامتيازات التى أوجدها كليثنيس لم تكن متاحة لكل سكان أتيكا بل كانت وقفا على من سماهم «بالمواطنين الآثينيين

(١) ومن الكلمة اشتق الفعل بشقف Ostraw أى ينفى وعن نظام الحى فى اصلاحات كليسثنيس انظر :

(2) Cf. W.E. Thompson, The deme in Kleisthenes' reforms, Symbolae Osloenses, XXVI, 1971, p. 72-79, also cf. W.E. Thompson : Notes on Attic demes, Hesperia, XXCIX, 1970, p. 64-67.

وعن نظام « التشقيف » او النفى انظر الابحاث الآتية :

J.J. Kaeny," The texts of Androtion F6 and the origin of Ostracism, Historia, XIX, 1970 p. 1-11 ; G.R. Stanton," The Introdu,tion of Ostracism and Alcmaeonid Propaganda, J.H.S., XC, 1970, p. 180-183 ; D.W. Knight," Some Studies in Athenian Politics in the 5th Century B.C. p. 22-23 (Hist. Einzelschr. 13., 1970; ; kl. Meister : zur zeitpunkt der Ein fuehrung des ostrakismos, Chiron, I, 1971, p. 85-88.

فقط » وأصبح هناك فرقا فى الامتيازات بين مواطن وقاطن أى كان هناك من بين سكان أتيكا وأثينا أغلبية لم يعترف بها كمواطنين وبالتالى حرمت من الامتيازات الديمقراطية الجديدة • فمثلا لم يعترف الدستور الاثينى بأن النساء مواطنات Politai بل وصفهن بأنهن astai أى قاطنات فى المدينة• وكذلك العبيد douloi والصناع والحرفيين ذوى الأصول الأجنبية حتى ولو كان هؤلاء من أصل أغريقى metikoi هكذا فان الديمقراطية الاثينية كانت دمقراطية الأقلية وديمقراطية مغلقة غير عادلة حيث لم يكن هناك نظام تمثيلى انتخابى برلمانى مثلما تعنى الكلمة الحديثة للديمقراطية بالرغم من الادعاء بالمساواة التامة بين المواطنين أمام القانون (Isonomia) (١) •

لقد أبدى الاثينيون لنظامهم تحمسا شديدا واعتبروه انتصارا لحقوق المواطن وتجسيما لاسمى الحلول لمشكلة الحكم بالرغم من أنه لم يكن نظاما ديمقراطيا ينتخب فيه الشعب ممثليه بطريقة مباشرة بل كان يقوم على فكرة منح أى أثينى يتمتع بحقوق المواطنة الحق فى عضوية المجلس الشعبى الذى كان يتكون من كافة سكان المدينة واطارها الريفى حيث كان يتمتع المواطن فيه بحرية الكلمة (Isegoria) (٢) وكان لهذا المجلس سيادته القانونية والادارية كجهاز لمراقبة ومحاسبة الموظفين ولكننا نجد المواطنين الآثينيين يتخاذلون فى حضور جلسات المجلس حتى أدخل بيركليس نظام الأجر على حضور هذه الجلسات ضمن برنامج لتدعيم النظام الديمقراطى فى

---

(١) لا يزال المؤرخون يختلفون فى تفسير معنى الايسونوميا isonomia هل هى المساواة امام القانون ام تساوى الطبقات بفعل القانون ، ام هى نظام حكم يعنى مشاركة جميع الطبقات فى الحكم وعلى اساس الحدود المسموحة لكل طبقة بحيث لا تجاوز غيرها وهى نفس الفكرة التى دعى اليها كليثنيس عام ٥٠٩ مع التوسع فى مفهومها انظر :

H.W. Pleket, Isonomia and Cleisthenes : a note Talanta, IV, 1972, p. 63-81.

وهناك من يرى أن فكرة المساواة المطلقة بين الطبقات غير واردة فى قوانين كليثنيس ومن ثم فان الايسونوميا ليست سوى نظام حكم وليست مبدا دستورى انظر :

B. Borecky," Die Politische Isonomie, Eirene, IX, 1971, p. 5-24.

(٢) اما عن حرية الكلام او الايسيجوريا انظر : •

A. Momigliano," La liberta di parola nel mondo antico, Revista della Societa groliana, LXXXIII, 1971 p. 515-516 (... R.H. CCXLVI, 1971, p. 111-112) ; also.
J.D. Lewis," Isegoria at Athens : When did it begin ? , Historia, XX, 1972, p. 129-140.

الربع الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد عندئذ حرص عدد كبير من المواطنين على حضور هذه الجلسات من أجل هذه المنحة .

والحق يقال أن النظام الأثينى للحكم لم يختلف كثيرا عن النظام الأسبرطى بالرغم من الدعاية السياسية الواسعة لهذا النظام ويذهب بعض الدارسين الى أن الأثينيين أنفسهم اشتقوا نظامهم من فلسفة الحكم الأسبرطى ذاته ففى كلا النظامين نجد أقلية من السكان تتمتع بمرتبة المواطنة . فى أثينا نجد طبقة المواطنين الأحرار Athenaioi politai وفى أسبرطة نجد طبقة السادة الأسبرطيين (Lecedaemonaioi (Spartiates لقد غالطت الدعاية الأثينية الحقيقة عندما أدعت بأنها رمز للعدالة الاجتماعية متهمة أسبرطة ونظامها بالرجعية والحكم الظالم لأنها حرمت الهيلوت Helots أصحاب البلاد الأصليين من كافة الحقوق . لأن الديمقراطية الاثينية فعلت نفس الشيء مع النساء والعبيد والصناع وهم غالبية سكان اقليم اتيكا . وبقيت الامتيازات وقفا على الأقلية التى سيطرت على مجلس الشورى Boule وعلى الجمعية الشعبية ecclesia وعلى أى حال كان هؤلاء المواطنين الأحرار ، هم جسد الدولة الاثينية فهم الذين كانت قلوبهم تشتعل بالغيرة والقومية والوطنية ويرحبون بالموت دفاعا عن دويلتهم وهم الذين دفعوا الثمن غاليا .

وقد انتقد بعض المؤرخين الديمقراطية الأثينية بأنها تقوم على جمهرة غوغائية تجعل من الصعب السيطرة عليها وتمرير القرارات الصالحة على أعضائها مما جعل السياسى الصالح ييأس منها . كما أورد أفلاطون الديمقراطية الأثينية فى نهاية قائمته عن نظم الحكم لأنه أشار الى خطورة الانحراف فيها خاصة اذا أسيء استخدامها لأنه من السهل جدا اثارة الغوغاء بالخطب النارية الرنانة والحماسية المليئة بالدراما الوطنية والعاطفية كالتى نشاهدها فى التراجيديات المسرحية . وبالرغم من وجود مجلس الشورى الذى كان يناقش الأمور قبل عرضها على الجمعية العامة الا أن القوة الفعلية ظلت متمركزة فى المجلس الشعبى لكثرة عدد أعضائه اذ اعتبر هو الشعب يحكم الشعب democracia ويقرر مصيره . وخلاصة القول أن جوهر التفسير الاثينى للديمقراطية كان يقوم على التجمهر ، وفى التجمهر

منطلق للعواطف المجنونة ، مما أدي الى ظهور الغوغائية أو الديماجوجية ومن ثم دفعت أثينا ثمن هذا الجنون الجماهيري الذى كان يتمثل فى قرارات عمياء اتخذت فى لحظة انفعال هستيري وطنى ثم دفعت الأمة ثمنها غالياً فضلا عن الضغائن والأحقاد الشخصية بين السياسيين حيث أدى نظام « النفى بعد الاقتراع » الى تدمير كفاءات كانت أثينا فى أشد الحاجـة اليهـا •

وعلى أى حال فقد أحب الأثينيون نظامهم ومن الصعب علينا أن نفرق بين الحماس والولاء للدولة والولاء لنظام الحكم فيها • فقد كان هـذا النظام جديرا بالقتال والدفاع عنه وحمايته لأنه مكاسب خاصة بالاثينيين الذين زكبتهم نعرة الاستعلاء ليس على باقى الشعوب الأجنبية فحسب بل حتى على المدن الاغريقية الأخرى •

النظام الديمقراطى يثبت نفسه :

هـكذا نجحت اصـلاحات كليثنيس فى القضـاء على الانقسـامات والتعصبات (١) التى سادت أتيكا ردحا من الزمن وخلقت دولة لأول مرة على أساس الجوهر الدستورى وليس القبلى ، ولقد شاءت الظروف لهذا النظام الجديد أن يثبت صلابته ونجاحه فى مواجهة الخطر عنـدما أزعج أسبرطة قيام مثل هـذا النظام فى أثينـا فكلفت ملكها وهو كليومينيس بالقضاء عليه فسار بحملة عسكرية مشتركة من أعضاء الحلف البلوبونيزى الذى كانت أسبرطة تسيطر عليه ومعه جيش من بؤوتيا Boeotia (فى شمال أتيكا) ومن مدينة خالكيس فى جزيرة يوبويا ولكن حدث خلاف بين الحلفاء البيلوبونيزيين بسبب اعتراض مدينة كورنثا على شرعية هـذا العمـل العسكرى • فانتهزت أثينا هذا الظرف وهاجمت أعداءها فى الشمال وهزمت أهل بؤوتيا وأهل خالكيس ولأول مرة أجبرت أثينا أعداءها على قبول مستوطنين منها (Cleruchoi) عندما أجبرت مدينـة خالكيس على قبول ٤٠٠٠ مستوطنا فى أراضيها •

---

(١) عن التعاون بين بقايا انصار القبلية والنظام الديموقراطى الجديد بعد انتهاء التطاحن الذى ساد قبل عصر كليثينيس انظر :

Davario-Rocchi," Politica di famiglia et politica di tribi nella polis aténiese (Vsiécle), Acme, XXIV, 1971, p. 13-44.

وبينما كان هذا يحدث فى شمال بلاد اليونان كانت أسبرطة مشغولة فى عملية التوسع على حساب جيرانها وأعدائها مثل مدن تيجيا Tegea وأرجوس Argos ابان النصف الأخير من القرن السادس قبل الميلاد، حتى اذا ما انتهى هذا القرن نجد أسبرطة وقوتها العسكرية تنجح فى فرض سيطرتها على شبه جزيرة المورة وتقيم حكومات أوليجارخية يمينية وتحارب النظم الديمقراطية الأثينية للقضاء عليها لأنها رأت أن فى ذلك خطرا على حلفائها وعلى امبراطوريتها . ومن هنا نشب العداء بين المدينتين الذى أدى الى حرب ضروس فيما بعد . وعلى أى حال نجحت أسبرطة فى جمع مدن شبه جزيرة المورة فى تحالف عسكرى وضعته فى خدمتها ويعرف هذا بالحلف البيلوبونيزى .

هكذا نجحت أثينا فى بناء نظام شعبى حقق العدالة أمام القانون
لكل مواطنيها (momia)
مجتمعها (Isegoria) ،
للدولة ، بل وأخضع هذا النظام العداله و
حيث وصل علم الاختصاص القضائى الى مستوى من الكمال لا يضارعها فيه أحد لا فى العالم الغير اغريقى ، بل فى كافة أنحاء العالم الهللينى وبتحقيق رقابة الشعب على السلطة التنفيذية ، استطاعت أثينا أن تواجه الأزمات الخارجية وتدخل مرحلة الصراع الدولى وهى مليئة بالثقة والأمل والتفاؤل، وذلك بمكانتها الجديدة بين المدن الاغريقية ، بل كان هذا النظام هو سر قوتها وقدرتها على التقدم السياسى وقبول التحدى الخارجى ، والنبوغ الفكرى والفنى والانطلاق الحضارى مقدمة بذلك نموذجا سياسيا مغايرا ومنافساً للنظام الأسبرطى .

الفصل التاسع

الصراع بين الفرس والاغريق

لو أردنا أن نرصد حركة التاريخ القديم فى منطقة الشرق الأوسط والبلدان الواقعة على البحر المتوسط ، لقلنا أن جوهره هو الصراع حول فرض النفوذ البحرى فى ذلك البحر الذى أضحى كالبحيرة لكثرة الحضارات التى قامت على سواحله ولشدة الروابط والاتصالات بين شعوبه وأن حركة تاريخ دويلاته تتجه دائما الى ازدياد نفوذ احداها فتملأ فراغ القوة فيه ثم تفرض نوعا من السلام يحيا فى ظلاله جميع الدويلات ، واذ انهارت هذه القوة العظمى أو سمحت لقوة أخرى غيرها لتكبر وتنافسها فان هذا التنافس ينتهى عادة بحرب ضروس مثل قتال الديكة حتى تنتصر واحدة على الأخرى لتفرض نفوذها فيه وبناء السلام الذى ترتئيه . فمثلا ساد السلام المصرى ابان الامبراطورية المصرية وعاش فى كنفه كل من اكريت وفينيقنيا ، ولما انهارت الامبرطورية المصرية فى الالف الاخير ق. الميلاد حاول الفينيقيون بما لهم من خبرة فى الملاحة وبناء السفن ملأ ذلك الفراغ ولكن ظهور آشور كدولة قوية حرم الفينيقيين من تحقيق حلمهم فى وراثة السيادة المصرية على البحر المتوسط ومن الجدير بالذكر أن السيادة المصرية تعرضت للتحدى من قبل هجوم الأخايواشا والدانونا من شعوب البحر على السواحل المصرية والتى صدها الفرعون المصرى مرنبتاح وكذلك رمسيس الثالث ، وقد ذكرنا أن الاخايواشا والدانونا هم الأخيون الذين سيطروا على شبه جزيرة البيلوبونيسوس بعد تدمير القوة الكريتية ، وهو

العصر الذى درسناه تحت اسم الحضارة الموكينية ، بل أن الاخيين أنفسهم خاضوا حربا ضد طروادة احدى الدويلات التى كانت تسيطر على احدى المنافذ المؤدية الى البحر المتوسط وهو البسفور والدردنيل وتعرف هذه الحرب بالحروب الطروادية ، وذلك بعد فشلهم فى السيطرة على الساحل المصرى والليبى ابان القرن الثالث عشر ق. م.

كانت فينيقيا لا تعدو أن تكون اتحادا بين مدن تجارية وليس لها الشخصية السياسية والعسكرية التى تتطلبها الدولة ، ولهذا بزغ نجم الفرس كقوة بحرية، ووجد الفينيقيون أنهم يستطيعون الاستفادة من هذه القوة بالعيش فى كنفها والاستفادة من حمايتها لهم خاصة أنه كان ينافس الفينيقيين فى تلك الفترة عدد كبير من الدويلات الاغريقية التى نشرت مستوطناتها فى صقلية وجنوب ايطاليا وشمال أفريقيا ، ومن ثم دخل الفرس حلبة الصراع على السيادة البحرية فى البحر المتوسط .

قيام الامبراطورية الفارسية :

منذ عصور ضاربة فى القدم تحركت بعض القبائل الهندو أوروبية من مواطنها الأصلية فى سهول شمال شرق بحر قزوين ميممة وجوهها غرباً صوب جنوب غرب آسيا بحثا عن الكلأ والمرعى . ومن بين هذه القبائل فصيلة أطلقت على نفسها اسم الايرانيين نسبة الى أصلهم الآرى استوطنت هضبة ايران والمرتفعات التى تشرف على الخليج العربى من ناحية الشمال الشرقى . ثم راحوا يتسللون الى سهول ما بين النهرين وممالكها حتى أصبح نفوذهم يمتد من بحر قزوين الى بحر العرب ، بينما سكنت القبائل الآرية الأخرى مناطق مختلفة ، فسكن الميديون جنوب بحر قزوين والبارثيون فى خراسان والبكتريون فى هضاب الهندوكوش الشمالية ، ونظراً للتوسع والانقسام فقد قسمت هذه المنطقة الشاسعة الى أقاليم كبرى مثل اقليم ميديا وبارثوماش

وفارسا ثم قسمت هذه الأقاليم الكبرى الى مقاطعات صغرى . وقد حدث هذا الاستقرار حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م .

ولقد كان من نتائج استقرار الفرس تطور كبير فى الأوضاع فى الشرق الأوسط ، فلقد دخلت الخيول التى لم يعرفها البابليون أيام حمورابى وسرعان ما انتشرت حتى أصبح الجيش الأشورى يعتمد عليها ، كذلك أحضر الفرس معهم دينا جديداً مخالفاً لفكرة الأديان السامية الوثنية ، لأن لا يقوم على الوحدانية بل يقوم على الأثنينية التى تتحكم فى العالم ، أحداها قوة ايجابية وهى الخير والحق والنور والحياة وقد رومزوا لها بالرب « أهورا مزدا » ؛ أما الأخرى فهى الشر والظلم والظلام والموت وقد جسدوها فى الرب « أهريمن » وجعلوا الصراع أبديا بين أهورا مازدا و « اهريمن » تماما مثل الصراع بين أوزيريس وست عند المصريين .

أما الانسان فيقف وسطاً بين القوتين وله مطلق الاختيار فى أن ينساق الى احداها ؛ ورغم هذا فقد كانت الديانة الفارسية تدعو الانسان الى الحق والتزام آداب السلوك والأخلاق . لأن فكرة « خلاص النفس » عند الفرس هى خلاص فردى وليس خلاصا قومياً . كما كان الفرس يتسامحون مع الديانات الأخرى ما دامت لا تناصبهم العداء وقد توسعت الديانة الفارسية وانتشرت مع انتشار الامبراطورية . خاصة بعد أن ظهر نبيهم الأول « زرادشت » حوالى عام ٦٥٠ ق.م . ووضع أساس عقيدة تكاد أن تكون توحيدية وهى عبادة النار لأنها أنقى مظهر يظهر فيه رب النور والخير « أهورا مزدا » وكان يمكن لهذا المذهب أن يلقى انتشاراً كبيرا لولا أن طبقة من الكهنة احتكرت أسرار العقيدة الزرداشتية وهم طبقة « المجوس » (Magi) وعزلتها عن الناس وحولتها الى طلاسم وأسرار ، وتركت الناس تعيش فى أفكار الديانة الفارسية ما قبل الزرادشتية .

كان يتحكم فى الفرس عقدة الاستعلاء العنصرى بأنهم ولدوا

ليحكموا غيرهم من الشعوب ، وكانوا يتيهون حبا بحياة الابهة والعظمة والغرور ، ويعشقون الصيد واقامة الولائم الصاخبة لكنهم كانوا متسامحين مع أعدائهم فى الحروب ويفتحون قلوبهم لأى أفكار أجنبية وعلى استعداد لاستحواذ هذه الأفكار . ولهذا لم يظهروا فى الفن أو العمارة الكثير من الابتكار ؛ بل نقلوا عن البابليين والأشوريين . وكان الفرس يعملون بالفلاحة والجندية ويعلمون أولادهم التفانى فى الحق والواجب ، أما التجارة فقد احتقروها لأنها فى نظرهم غير خليقة بالرجل الحر ولانها سرقة بالاكراه ، وكان الرجل الفارسى يذوب فى الدولة ولقد لاحظ هيرودوت ذلك عندما ذكر أن « الرجل الفارسى كان يصلى من أجل الملك وجميع الفرس الآخرين ولم يكن يصلى لنفسه أبداً » (١) .

وكان الميديون أسبق من الفرس ادراكا لفكرة الدولة أو المجتمع السياسى ، فأقاموا نظام الدويلات أو الامارات والمشيخيات الصغيرة وذلك منذ الألف الأول ق.م . لكن دولة أشور لم تسمح لهذه الامارات لكى تزدهر لأنها استوعبتها خلال فترة سيادتها ما بين عام ٧٠٥ – ٦٢٦ ق.م ، لكن الحق يقال خلال عصر التوسع الأشورى برزت ميديا كمملكة قوية متماسكة تحالفت مع البابليين ومع أهل ليديا والمصريين ليهزموا الأمبراطورية الأشورية ويدمروا نينوى عاصمتها وذلك فى عام ٦١٢ ق.م .

بعد ذلك انسحب الميديون الى مرتفعاتهم محاولين توحيد القبائل الهندو أوروبية فى دولة واحدة ، كما قاموا بتأسيس عاصمة واحدة لهم هى اكباتانا Ecbatana (٢) وخلال الفترة ما بين ٥٩٣ وحتى عام ٥٥٠ ق.م نجح الفرس فى توحيد رقعتهم ثم آل عرش البلاد الى أمير

---

(1) Herodotus I, 136. ; I, 132.

(٢) وهى همدان الحالية فى شمال اقليم ميديا على الهضبة الايرانية ويقول هيرودوت (I, 98) ان مؤسسها هو ديوقيس Deioces وسرعان ما اصبحت مقر الحكم الصيفى لحكم الاسرة الاكمينية التى اسسها قورش الاكبر.

cf. Strabo, II, 522-4 ; Xenophon, Cyr., 8-6-22.

فارسى قوى اسمه قورش Cyrus أول ملوك الأسرة الأكمينية (الهخمانشية) والذى قاد عدة حملات توسعية أخضع بها ليديا واستولى على عاصمتها ساردیس Sardis وذلك فى عام ٥٥٦ ق٠م ورغم مساعدة ملوك الأسرة الصاوية المصرية ومدن الاغريق وملوك الكلدانيين لكرويوسوس ملك ليديا الا أن هجوم قورش كان مباغتا وحاسماً ، بل استدار قورش واستولى على بابل عام ٥٣٨ ق٠م ٠ ولم يتوقف قورش عن الفتح والتوسع الا عند سقوطه فى ميدان القتال فى شمال ايران وذلك فى عام ٥٢٩ ق٠م ٠.

يعتبر قورش الأكبر بحق مؤسس الامبراطورية (*) الفارسية وأحد بناة الامبراطوريات القلائل فى تاريخ الشرق القديم اذ مد حدود امبراطوريته حتى أصبحت تمتد من بحر ايجه فى الغرب الى جبال الهندوكوش فى الشرق ومن بحر قزوين فى الشمال حتى صحراء العرب فى الجنوب. وكان قورش جنديا محبوبا بين جنوده يقاتل وسطهم ولا يركب العربات الحربية وكان يحف به حرسه الخاص الذى يعرف باسم « الخالدين » وقد خلع على نفسه لقب « الشاهنشاه » أى ملك الملوك ، وهذا يدل على آماله فى خلق امبراطورية عالمية فدرالية متحدة تحت قيادته ٠

وبعد موت قورش تولى ابنه قمبيز Cambyses (٥٢٩ — ٥٢١ ق٠م) وقد حقق قمبيز انتصارات كبيرة فى آسيا وسار الى أفريقيا بهدف تأمين سيطرة الفرس على مركز الصراع فى العالم القديم وهو حوض البحر الأبيض المتوسط ، وأدرك قمبيز أن أكبر وأخطر المنافسين للامبراطورية فى امتلاك السيطرة على البحر المتوسط هو المدن الاغريقية التى كانت قد انتشرت فى حركة استيطان واسعة حول منافذ وسواحل هذا البحر العظيم ، فقرر أن يأخذ المبادرة الأولى بالمسارعة باحتلال مصر وقورينة ، وذلك لحرمان المدن الاغريقية من خيرات مصر

(1) Cf Percy Sykes, A. History of Persia, Poutledge and kegan Paul London (1969), p. 160-165.

(*) وقد اتخذ الايرانيون حديثا تاريخ تأسيس قورش للامبراطورية الاكمينية عام ٥٥٨ ق٠ م بداية للتقويم الايرانى الاعتبارى ٠

وليبيا ، فقد كانت مصر صومعة القمح التى تطعم الأغـريق ، كما كان لهم فيها مصالح هامة وتجارة وعمل وكانت لهم رءوس أمـوال كبـيرة مستثمرة فى مشروعات تجارية فى سـوقهم الدوليـة فى نقراطيس التى كانت بمثابة سوق مصر الحرة فى العصر القديم The Ancient Free Zone of Egypt كما كان الاغريق يجنون ثروات كبيرة من خيرات قورينة خاصة من نبات السلفيوم الطبى والجياد الأصيلة . ومن ثم فان حملة قمبيز على مصر وقورينة ليست سوى الخطوة الأولى فى المعركة الكبرى ضد المدن الاغريقية من أجل السيطرة على البحـر المتوسط .

وبعـد موت قمبـيز تولى ابنه دارا (٥٢١ — ٤٨٦ ق٠م) الذى يعتبر بحق النموذج الأمثل للحاكم الشرقى المتعقـل والذى نجـح فى ادارة امبراطورية مترامية الأطراف تضم شعوبا وأجناسـا وقوميـات متعددة لا يجمع بينها لا وحدة العنصر أو اللغـة أو العقيـدة ومن ثم قسمها الى عشرين سترابية جعل على رأس كل منها سـتراب بدرجـة وكيل الملك يساعده مجلس من أعيان وشيوخ الاقليم ، وفى كل سترابية كان يضع زمام السلطات الادارية والعسكرية والماليـة فى أيد متعـددة ومتنافسـة حتى لا يفكر أى ستراب فى الاستقلال ، بالاضافة الى ذلك أقام « جهاز عملاء الملك » الذين انتشروا فى كافة أنحاء الولايات لمراقبة الحكام والشعوب على السواء وابلاغ رئيسهم « عين الملك » والذى بدوره يقوم باطلاع الملك على أحوال الولايات ، كما سـاعد على ربط الامبراطورية شبكة الطرق الكبرى التى ربطت بين أطراف الامبراطورية فمثلا كان هناك لأول مرة فى التاريخ طريق يمتد من سوسـا عاصمـة الامبراطورية حتى ساردیس عاصمة ليديا فى آسيا الصغرى ، ويقـول المؤرخون أنه لولا هذا الطريق ما أمكن للاسكندر غزو فارس والوصول الى عاصمتها فيما بعد ، كما كان هناك طـريق أخر يمتـد من بابل الى اقليم البلخ (١) فى جنوب العراق ثم يتجه الى فينيقيا وسوريا ويتجه جنوبا الى سيناء ثم عبر ممراتها يتجه الى مصر . وكان لهـذا الطـريق أهمية

---

(١) هو نفسه اقليم بكتريا فى الجنوب الشرقى من ايران .

حيوية فى التجارة الدولية اذ أصبحت القوافل تسير من الخليج الفارسى الى مصر أى ربط بين تجارة الشرق والغرب ، كما أوجد الفرس نظام البريد المتنقل عن طريق محطات بريدية تمر بها الجياد لنقل المراسلات وبذلك أصبح الملك يعرف أنباء الامبراطورية فى أيام بدلا من شهور ، ولكى يوحد الامبراطورية اقتصاديا سك عملة رسمية من الذهب سماها الداريكوس Dareikos نسبة اليه وفى نفس الوقت سمح للسترابات بسك عملة فضية محلية فى البلاد التى يحكمونها (١) ثم ربط بين العملتين بنسبة ثابتة بين الذهب والفضة هى نسبة ١ الى ١٣ ، هكذا أعطى دارا ولايات الامبراطورية استقلالا ذاتيا شبه كامل لأنه لم يكن يريد منها سوى الاعتراف والاذعان لسلطته ودفع الجزية ومساعدته فى الحروب التى يقوم بها من أجل الصالح العام للامبراطورية • ولم يتدخل فى عقائد شعوب الامبراطورية أو عاداتها أو تقاليدها بل ألقى لها الحبل على الغارب ، بل أنه لجأ الى احترام وتملق ديانة هذه الشعوب بتقديم القرابين والأضحيات والنذور وقد استخدم هذه السياسة حتى مع الشعوب التى لم تكن تابعة للامبراطورية مثل مع كهنة دلفى مهبط وحى وعبادة أبوللون لدرجة أن كهنة دلفى أيدت دارا فى مشروع غزوه لبلاد اليونان فى أول الأمر •

ولقد ترك لنا دارا نقشا تاريخيا هو سجل لأعماله نقش بهستون الشهير Behistun ، وكان فى الأصل قوس نصر سجل عليه دارا أعماله وفتوحاته واصلاحاته وكشف فيه عن نفسه كقاهر وفاتح وبناء عظيم ، عامل الشعوب التى فتحها بالرحمة والعفو والانسانية واحترم عقائدها وتقاليدها ما دامت لا تتعارض مع سلامة الامبراطورية (٢) • وبذلك كسب حب رعايا الامبراطورية ، وشهدت البلاد فى عهده استقرارا ورخاء لم تشهده من قبل ، لقد حاول دارا أن يستفيد من تجارب وخبرات شعوب الشرق الأوسط خاصة بلاد الرافدين ووادى النيل ،

(1) cf. Charles Seltman," Greek Coins. A History of Metallic Currency, and Coinage down to the Fall of the Hellenistic Kingdoms, Methuen and Comany, London, Second Edition 1955, p. 63.

(2) Pierrs Lévéque ; The Greeks, (L'translated by M. Kochan) Weidenfeld and Nicolson, 1968, p. 241.

فمثلا اعاد تنظيم التقويم الرسمى للامبراطورية على أساس التقويم المصرى القديم ويقال أنه أمر بفك أسر أحد الكهنة المصريين واعادته الى مصر مكرما معززا بعد أن علم بأنه عالم فى الطب يريد فتح مدرسة للطب والتشريح فى بلده .

ولهذا كله أصبح النظام الذى أوجده دارا هو النموذج الأمثل لطراز الحكم الشرقى الذى حاول الغرب تقليده ، فقد حاول الاسكندر بناء امبراطوريته على غرار الامبراطورية الفارسية ، بل أن روما نفسها فى عصر يوليوس قيصر وأغسطس استفادت من تجارب هذه الامبراطورية فى وضع سياسة السلام الرومانى .

لكن بالرغم من هذا لم تتوقف أثينا عن بث الدعاية ضد نظام الحكم الشرقى وعن وصف الفرس بأنهم برابرة لا يعرفون الحرية الاغريقية ويخنعون للتسلط الملكى وكان يقوم بهذه الدعاية أنصار الحزب الديموقراطى ،أما أنصار الحزب الأوليجارخى فلم يكن يحقدون على نظام الفرس بنفس القدر بل كانوا يكنون اعجابا خفيا لثبات النظام الفارسى وقوة شخصيته وكتبوا عن قورش المؤسس واعجبوا بشخصيته ولهذا كان الأوليجارخيون يهربون الى فارس ، بل أن بعض أعضاء الحزب الديموقراطى نفسه كانوا يلجأون الى ملك الفرس عندما يختلفون مع زملائهم . فضلا على أن شطرا كبيرا من الجنود المرتزقة الاغريق كانت تحارب فى صفوف الجيش الفارسى ففى بعض المعارك التى قامت بين الفرس والاغريق وجد الاغريق أنهم يحاربون أشقائهم الاغريق ، بل أن الاسكندر الأكبر أصدر قرارا دعى فيه المرتزقة الاغريق فى الجيش الفارسى بالعودة لأنهم هم الذين حاربوه وقاوموه بعنف دفاعا عن الامبراطورية الفارسية ثم عاد وأصدر حكم النفى والأشغال الأبدية فى المزارع لمن يقبض عليه منهم . ولم يكن الأوليجارخيون الأثينيون هم الذين وحدهم يعجبون بالحكم الفارسى . بل كان يشاركهم فى ذلك الاسبرطيون ولهذا فقد كان هناك نوع من الاعجاب الخفى المتبادل بين الأوليجارخيين الأثينيين والأسبرطيين من ناحية ، وبين الفرس من ناحية أخرى . وقد سبق أن ذكرت أن كهنة دلفى ايدت فى أول الأمر دارا فى

مشروع غزو أثينا لأنه كان ينوى اسقاط النظام الديموقراطى الذى أحدث صراعاً فى مدن بلاد اليونان واحلال نظام أوليجارخى هادىء محله ، وربما لهذا السبب وحدة امتنع الاسبرطيون عن مساعدة الآثينيين عندما غزى دارا بلاد اليونان فى حملته الأولى ، وقد استغل الحزب الديموقراطى اعجاب الاسبرطيين بالفرس لاظهارهم بمظهر الخونة لقضية وحرية الاغريق خاصة فى أيونيا التى ضمها الفرس الى امبراطوريتهم .

اذاً لم يكن الاختلاف فى نظام الحكم هو السبب فى العداء الذى استعر بين الفرس والاغريق ، بل كان السبب هو الصراع حول السيطرة على مياه البحر المتوسط وامتلاك السيادة البحرية فيه لأن فكرة الامبراطورية العالمية فى العصور القديمة ارتبطت دائما بالسيادة البحرية Thalassocracy على البحر المتوسط . وكان الفرس قد أدركوا ذلك مؤخراً مثلما أدرك الأشوريون والبابليون من قبل فاندفع قمبيز من عاصمته البعيدة فى وسط آسيا صوب البحر ليظهر بمظهر المطالب بعرش السيادة البحرية فى البحر المتوسط ، ومنافسة المدن الاغريقية فى ذلك سواء فرادى أم متحدين . ونظراً لأن دولة فارس كانت تسعى لربط تجارة الخليج الذى كانت تسيطر عليه بالبحر المتوسط ، فقد تحالفوا مع الفينيقيين الذين كانت لهم خبرة واسعة بالتجارة وبناء الأساطيل وقدم الفينيقيون سواحلهم لتكون قواعد للأسطول الفارسى فى شرق البحر المتوسط ووجد الفينيقيون فى الامبراطورية الفارسية قوة شرقية يمكن أن تحقق لهم مظلة دفاعية حتى يتفرغوا للتجارة والانتشار ومنافسة المدن الاغريقية فى نشر المستوطنات التجارية خاصة فى صقلية وشمال أفريقيا[1] وكان الفينيقيون يعتقدون أنهم يستطيعون ردع الاغريق عن طريق الأسطول الفارسى الذى بنوه ودعموه وقدموا له سواحلهم لكى يحميهم حتى أصبح الأسطول الوحيد القادر على منازلة أساطيل المدن الاغريقية ، بل كان الفينيقيون يحرضون الفرس ضد الاغريق ؛

(١) عن هذا التنافس فى المستوطنات بين الاغريق والقرطاجيين فى صقلية انظر : محمد كامل عياد ـ تاريخ اليونان ـ الطبعة الأولى دمشق ١٩٦٩ ص ٣٤٦ مع مراعاة عدم دقة المؤلف فى نقل الأسماء الاغريقية الى العربية .

وربما كانوا هم الذين أوعزوا الى الملوك الفرس بغزو الشام ومصر لطرد النفوذ الاغريقى ومنع انتشار المستوطنات الاغريقية فى هذه المنـاطق ، فقد كانوا يعلمون مدى الخسارة التى ستنزل بالاغريق اذا فقدوا مصر ومصالحهم فيها ، وأنهم سوف يحرمون من المصدر الأول للقمح الجيد والرخيص ، كما أن فقدان الاغريق لقورينة سوف يحرمهم من الجياد الأصيلة ومن دخل نبات السلفيوم ، خاصة أن قورينة كانت منافساً عنيدا لمستوطنة قرطاجة الفينيقية .

حقيقة لقد أدرك قمبيز أهمية وجوب السيطرة على القوة البحرية فى حوض البحر المتوسط ، لكن دارا كان أكثر ادراكا واقتنـاعاً بآراء الفينيقيين ، فزاد من استعداده البحرى ولهذا حفر قنـالا ربطت بين النيل والبحر الأحمر « حتى تبحـر السفن من مصر الى فارس حسـب رغبتى » كما يقول فى سجل أعماله المنقوش على بوابة « بهستون » (١) ، وربما اقتنع دارا بتحريض الفينيقيين فى وجوب تدمير المدن التجـارية المنافسة لهم .

وفى نفس الوقت بدأت الجمهورية الأثينية الوليدة بعد طرد الطاغى هيبياس واعلان النظام الديموقراطى أن تتزعـم حـركة تدعـو المدن الاغريقية فى أيونيا الى الثورة ضد الطغاة الذين يحكمونهم باسم الملك الفارسى ، وقبول النموذج الأثينى للديموقراطية ، مستغلين الكراهية الطبيعية التى كان يشعر بها الاغريق ازاء نظام دكتاتورية الطغاة لتنافيها مع الاحساس الطبيعى للاغريق لمعنى « الحرية » واحـترام القـوانين والالتزام بها حكاماً ومحكومين ، استغل الأثينيون ذلك لطرد النفـوذ الفارسى من أيونيا ومدن البحر الأسود واحلاله بالأحزاب الديموقراطية التى تقام على غرار الحزب الديموقراطى الأثينى الذى يصبح الحزب الأم ومن ثم يكون ذلك الخطوة الأولى نحو قيام قوة بحرية متحـدة من كافة المدن الاغريقية للسيطرة على السيادة البحرية فى البحر المتوسط

(١) ومكانها الآن مدينـة بستيون باقليم كرمنشاه وتقـع على طريق القوافل من بغداد الى طهران وعن النقش وتفسيره انظر :
A.T. Olmstead. «Darius and his Behistun Inscription,» *AJSL*, vol. 55, 1938, pp. 392-416.

وطرد النفوذ الفارسي والفينيقي منه ، وبالتالي يمكن بناء الامبراطورية الأثينية ، ومن ثم عمل الأثينيون على اذكاء نار الثورة فى أيونيا ضد الفرس بل وفى مصر أيضا وقد كانت الثورة الأيونية هى الشرارة التى أشعلت الصراع بين الفرس والاغريق للسيطرة على البحر المتوسط ، وكان الفينيقيون بلا شك هم المحرضون عليها •

ثورة المدن الأيونية ضد الفرس ٤٩٩ ق•م :

كانت أثينا تمر برحلة تهور سياسى نتيجة لتعصبها لنظامها الديموقراطى ورغبتها فى نشره بين كافة المدن الاغريقية وخاصة تلك التى كان الطغاة لا يزالون يحكمونها وثار الأيونيون ضد طغاتهم الموالين للفرس وارسلت أثينا قوات لمساعدتهم حيث أحرقت مدينة ساردیس تماما مما أدى الى اشتعال النيران فى قلب الملك دارا الذى لم ينس ذلك وقد قيل أنه أوصى أحد عبيده لكى يهمس فى أذنيه كل مساء « مولاى لا تنسى الأثينيين ! » (١) •

لقد عاش الأيونيون مع الفرس فى سلام لمدة طويلة وتقدمت حضارتهم المادية والمعنوية فقدموا للحضارة الاغريقية عباقرة مثل الفيلسوف طاليس Thales أحد مواطنى مدينة ميليتوس (٦٤٠ — ٥٤٦ ق•م) والذى سجل مواعيد خسوف الشمس ووضع أسس علم الأجرام السماوية للاغريق ، ومثل العلامة فيثاغورس Pythagoras مواطن جزيرة ساموس (Samos) وكان أحد كبار علماء الرياضيات •

كان طاليس عالما وسياسيا فنادى بقيام اتحاد بين مدن أيونيا واقترح أن ترسل كل مدينة ممثليها لمجلس يتكون من كافة المدن ويقرر شئونها بينما تبقى كل مدينة مستقلة تماما ولكن هذا المشروع فشل وسقطت المدن الأيونية فى حوزة الامبراطوريات الآسيوية لمملكة ليديا ثم للفرس •

وأدرك الأيونيون أن دارا قد شدد قبضته فقد أعاد هذا الملك الذى حكم بلاد الفرس حتى عام ٤٨٥ تقسيم الامبراطورية الى عشرين ستراپية (أى مقاطعة) يحكم كل منها ستراب Satrap وأقام نظام المراسلات البريدية بينها ليلم بأخبارها يوماً بعد يوم •

---

(1) Herodotus, IV, I.

وبذلك أصبح دارا يعرف أخبار سارديس مثلا بعد أسبوع بدلا من ثلاثة شهور وهى المدة التى تستغرقها الرحلة من عاصمة بلاد الفرس سوسا (Susa) الى ساردیس عاصمة ليديا كما ساد الأيونيين الذعر من نظام اقامة الطغاة الاغريق الموالين للفرس ومن الضرائب التى كانوا يدفعونها مما دعاهم الى الثورة (١) بتحريض وبمساعدة أثينا وتكلف الفرس كثيرا فى احباطها والقضاء عليها فى عام ٤٩٤ ق. م . عندما دمروا مدينة ميليتوس وتداعت المدن الثائرة بعد ذلك . ولم ينس دارا ذلك فحاول معاقبة الاثينيين عام ٤٩٢ ق. م عن طريق ارسال حملة بقيادة ماردونيوس (٢) ولكن هياج البحر وقيام العواصف أعاقت استمرار الحملة فعادت من حيث أتت ولكن فى عام ٤٩٠ ق. م. نجح أثنان من قواده فى انزال الجنود فى سهل المارثون الذى يبعد ست وعشرين ميلا عن أثينا وكان من بين القادمين مع الفرس هيبياس العجوز .

موقعة سهل المارثون :

هكذا نزلت القوات الفارسية بسهل المارثون عام ٤٩٠ بقيادة الجنرالين داتيس Datis وارتافرنيس Artaphernes وكانت هذه الحملة قد أبحرت من جزيرة ساموس بعد أن دمرت جزيرتى ناكسوس واريتريا فى طريقها . وصمم الأثينيون والاسبرطيون على تناسى خلافاتهم والدفاع عن بلاد اليونان . فلما ذهب رسول ملك الفرس الى أثينا مطالبا أن يسلم الاثينيون أرضهم ومياههم للفرس ألقى به الاثينيون من فوق صخرة الأريوباجوس حيث كانوا يلقى بالمجرمين قائلين «هذه هى الأرض» ولماذا ذهب رسول آخر الى أسبرطة يحمل نفس المطالب القى به الاسبرطيون فى بئر عميقة قائلين « هذه هى المياه » . وكان التعدى على الرسل تعد على قداسة التقاليد التى تحميهم ولو كان الاثينيون والاسبرطيون قد هزموا فى المعارك التى تلت ذلك لنسبوا هزيمتهم لغضب الآلهة نظير قتلهم الرسل ، لأنه تعد على حدود الآلهة .

ولما سمع الآثينيون بوصول الفرس أعدوا جيشا سريعا بلغ تعداده

(1) G.A.H. Chapman, « Herodotus and Hisitaeus, rôle in the Ionian revolt, Historia XXI, 1972, P. 546-568.

(2) J.M. Balcer, «The date of Herodotus, IV, I, Darius Scythian expedition, Harv. Stud. Class. Phil, LXXVI, 1972, p. 99.

ما بين تسعة آلاف وعشرة آلاف مقاتل بقيادة القائد كاليماخوس Callimachus يساعده جنرال اسمه مليتياديس Miltiades والذى كان يقود فرقة تتكون من ألف متطوع جاءوا من بؤتيا . كما أرسل الاثينيون عداء اسمه فيديبيديس Pheidippides ليقطع رحلة طولها مائة وأربعين ميلا عبر مناطق وعرة وهى المسافة بين أثينا واسبرطة . وتقول الروايات الشعبية أن هذا العداء قطع الرحلة فى يومين أى سبعين ميلا فى اليوم الواحد ولكنه عاد بخفى حنين لأن الاسبرطيين كانوا يحتفلون بأعياد دينية تحرم القتال وتسيير الجيوش .وقبل الاثينيون التحدى والمقامرة بمواجهة الجيوش الفارسية وحدهم معتمدين على أنفسهم وبعض حلفائهم وقاتلوا بشراسة منقطعة النظير وأنزلوا بالفرس خسائر فادحة بلغت ٦٤٠٠ قتيل بينما خسروا هم ١٩٢ قتيلا فقط حسب ادعائهم لقد كان انتصار الاثينيين ناتجا من ارتفاع روحهم المعنوية اذ أنهم كانوا يخوضون حربا دفاعية عن نسائهم وأولادهم وبيوتهم وبالقرب من موطنهم [١] . كما كانوا يحاربون وهم يدافعون عن نظامهم « الديمقراطى » الذين التفوا حوله لحمايته لأنهم أدركوا أن الفرس اذا ما انتصروا سوف يقيمون هيبياس طاغية عليهم وبذلك يفقدون حريتهم ونظامهم الديموقراطى .

وبالرغم من هزيمة الفرس فى البر الا أن أسطولهم كان لا يزال متأهبا بالقرب من الشواطىء الاثينية وكان هيبياس على ظهر احدى سفنه ينتظر اشارة للنزول وجاءت اشارة من أحد عملاء هيبياس الى الاسطول الفارسى أن « اهجموا على أثينا فورا ! » وأبحر الأسطول الفارسى ولكن الاثينيين كانوا فى انتظاره وأدرك الفرس أن القوات الاثينية قد انتقلت بسرعة من سهل الماراثون الى العاصمة وحصنتها . فتردد الفرس فى النزول واستدار أسطولهم عائدا وهكذا ضاعت أحلام هيبياس فى العودة الى الحكم مرة أخرى وأعلن الاثينيون « النصر » وهتفوا ببطل المعارك

---

(١) لقيت معركة ماراثون ذكرى لا تنسى فى وجدان الشعب الاثينى الى زمن طويل حتى ان ديموستنيس فى القرن الرابع ذكر مواطنيه بشجاعة أسلافهم الذين سقطوا فى سهل الماراثون انظر ديموستنيس خطبه التاج فقرة ٢٠٨ .

ميلتياديس ولكن هذا البطل تهور وأسرع فى حملة ضد جزيرة باروس(1) فشلت تماما وعند عودته حوكم بسبب ذلك ولكنه لم يعش طويلا بعد محاكمته وهكذا فقدت أثينا أحد أبطالها العظام .

الصراع والمنافسة بين أرستيديس Aristides Dikaios وبين ثيمستوكليس Themistocles :

كان الأثينيون قد تركوا قوة فى جزيرة سالاميس بقيادة ضابط اسمه أرستيديس الذى عرف بنزاهته وعدله حتى أنه لقب بالعادل dikaios وكان هذا الضابط يطمع فى أن يقود الحكم فى أثينا فى نفس الطريق الذى بدأه كليثنيس . وخاصة أن أرستيديس كان معجبا بكليثينيس ويتمنى أن يكون مثله ولكن الأثينيين حقدوا عليه ونفوه ويروى أن مواطنا أثينيا أميا لا يعرف أرستيديس طلب منه أثناء عملية الاقتراع على نفيه أن يكتب له اسم أرستيديس على قطعة الشقافة الخاصة به فسأله أرستيديس متعجبا « هل الحق بك أرستيديس أذى فى شىء » . فأجاب « لا ولكنى سئمت من تلقيبه بالعادل ! » فتعجب أرستيديس وكتب على الشقافة اسمه مطيعا . وكان فى استطاعته أن يكتب اسم غريمه ولكنه أبى وهكذا نفى أرستيديس عام ٤٨٣ ق.م .

كان ثيميستوكليس زعيما مغرورا متباهيا وقد روى عنه أنه قال للناس « عفوا أننى لا أعرف كيف أعزف أى آلة موسيقية ولكنى أعرف كيف أحول مدينة صغيرة الى مدينة عظيمة » . ولما عنفه أحد سكان جزر بحر ايجه مذكرا الأثينيين أن ثيمستوكليس اكتسب شهرته من شهرة أثينا أجابه قائلا « نعم أن ذلك حقيقى ولو أننى أعيش فى جزيرتك لما اشتهرت تماما كحالتك لو أنك عشت فى أثينا ! » (2) .

وقد عرف عن ثمستوكليس مرحه وميله للمداعبة والسخرية فقد قيل عنه أنه لقب ابنه « بأقوى أبناء اليونان » وشرح ذلك قائلا « لأن أثينا يا ولدى تتحكم فى مدن بلاد اليونان وأنا أقوى أبناء أثينا وأمك تتحكم فى وأنت تتحكم فى أمك ! » ولكنه اكتسب شعبية كبيرة بين الاثينيين لأنه

(1) cf. cf.. p. Bicknell «The date of Militiades Parian expedition, A.C., XLI, 1972, p. 225-227.
(2) Plutarchus, Themistolkles.

كان يعرف كيف يتملق من يتحدث اليهم بعكس أرستيديس العادل الذى كان صريحا وجافا ، كما كان ثمستوكليس سياسيا بعيد النظر لأنه بعد نفى منافسه وجد فائضا من الفضة فى خزانة المدينة وطلب الأثينيون أن توزع عليهم . ولكنه أقنعهم بأن يدخروها لبناء عشرين سفينة حربية ذات ثلاث طوابق triremes لأن الفرس سوف يعاودون الهجوم على اليونان وقد ثبت حدثه فيما بعد .

الحرب ضد ايجينا Aegina وبناء الاسطول والقلاع :

كانت سياسة ثمستوكليس هى انشاء أسطول بحرى قوى فى أثينا وتحصين ميناءها ، ومن ثم دخلت أثينا حربا سريعة ضد جزيرة ايجيناوالتى كانت منافسا بحاريا وتجاريا خطيرا لها وخرج ثمستوكليس من هذهالحرب وهو يدعو لانشاء قوة بحرية وأن أثينا خلقت لتكون أمة بحرية . وكان ثمستوكليس قد أشرف على برنامج تحصين العاصمة وميناءها بعد معركة الماراثون واهتم بالذات بميناء بيرايوس Piraeus (١) وربما كان سبب نفى منافسه أرستيديس هو معارضه الأخير لسياسته البحرية . هكذا ما أن قدم عام ٤٨٠ ق.م حتى كان لدى أثينا بفضل ثمستوكليس أسطولا يتكون من ٢٠٠ سفينة على الأقل ومحصنة تماما .

الحملة الفارسية الثانية ضد بلاد اليونان :

مات دارا الأول عام ٤٨٦ وهو لم يشف غله من الأثينيين بعد وكان قبل موته قد بدأ الاعداد لحملة حربية ثانية تفوق الأولى عدداً وعدة وبعد موته أشرف ابنه كسيركسيس Xerxes والذى يعرف بالفارسية باسم خشيارشاى — على هذه الحملة التى شملت جيشا وأسطولا جمع من كافة الأجزاء التى تتكون منها الامبراطورية الفارسية بما(٢) فى ذلك

(1) Thucydides, I, 93, 3.

وجدير بالذكر انه عندما أوكل اليه ذلك لم يكن أرخونا بل تفرغ للشئون الفنية الدفاعية والعسكرية : انظر :

C.H. W. Fonara," Themistocles' Archonship, Historia, XX, 1971, p. 534-540.

(2) Herodotus, VII, 61—46.

وربما كان هدف الملك الفارسى تقليد ما حدث عام ٦١٢ ق.م عندما تعاونت شعوب الشرق الأوسط ومصر لتدمير السطوة الآشورية وهدم نينوى عاصمتهم .

قوات من اغريق أيونيا الموالين للفرس . كما شملت أثيوبيين فى زيهم الوطنى الذى يتكون من جلد الفهود وهنود من أقصى حدود الامبراطورية بزيهم القطنى الأبيض الخفيف ومن الشمال جاء أهل سكيثيا بجواربهم الطويلة وخوذاتهم المدببة ونبالهم الشهيرة وسار كسيركسيس فى المقدمة ممتطيا عربة حربية تحيط به كوكبة من الفرسان المعروفين باسم « الخالدين » ، وكان كسيركسيس واثقا من نفسه فقد أعد لكل شيء عدته حتى المؤن والعتاد فقد أمن وصولها لقواته وأقام جسرا من السفن عبر مضيق الدردنيل ولكن العواصف دمرته أثار غضب الملك الفارسى فلم يستطيع السيطرة على عواطفه الشرقية فأمر بجلد البحر ثلاثمائة جلدة وأن تصب عليه لعنات كهنة الفرس . أما الذين أشرفوا على بنائه فقد أمر الملك بقطع رقابهم جزاء فشلهم (١) .

وأخيراً فى ربيع عام ٤٨٠ تمكن الجيش الفارسى من عبور البسفور والدردنيل واخترق اقليم تراقيا وعند وصوله الى ثرما Therma فى مقدونيا انضم اليه الأسطول وكانت ذلك فى أوائل شهر أغسطس من العام نفسه .

تبالغ الروايات والأقاصيص الاغريقية فى تعداد الجيش الفارسى وتتحدث عن الملايين التى تكون منها ولكن المؤرخين المعاصرين يعتقدون أن هذا الجيش لم يزد عن ٣٠٠٫٠٠٠ مقاتل وأن أسطوله لم يزد بأى حال من الأحوال عن ٨٠٠ قطعة حربية .

وعندما أدرك الاغريق أن الخطر محدق بهم جميعا . عقدوا اجتماعا عاما قرب خليج كورنثا عام ٤٨١ ق.م تصالحوا فيه ، وسمحت أثينا بعودة المنفيين السياسيين وعلى رأسهم أريستيديس العادل وانتخبت أسبرطة لما لها من قوة عسكرية رئيسا للحلف الدفاعى الجديد وحاولوا ادخال اغريق صقلية فى هذا الحلف أيضا ولكن جيلون طاغية سيراكوزه أصر على أن يكون هو على رأس هذا الحلف الدفاعى وهذا لم يعجب لا الاثينيين ولا الاسبرطيين ، وعلى أى حال يبدو أن جيلون فتح جبهة

---

(1) Herodotus, VII, 35.

جديدة ضد الفرس فى صقلية باعلانه الحرب ضد الفينيقيين والقرطاجيين فى صقلية ، وكان الفينيقيون حلفاء مخلصين للفرس ويمتون بصلة قرابة وثيقة للقرطاجيين[1] ، وقد أقام الفينيقيون مستوطناتهم فى صقلية منذ وقت سابق على المستوطنات الاغريقية فى هذه الجزيرة ، ومن الغريب أننا لا نسمع عن مبادرة من جانب اغريق أيونيا لمساعدة وطنهم الأم بل تسمع عن مساعداتهم للجيش الفارسى الغازى لبلاد اليونان .

أدرك الاغريق أن المضايق والممرات الجبلية التى تمتلأ بها بلادهم سلاح دفاعى فعال اذا ما استخدم جيداً فبدأوا فى تحصينها . فحصنوا ممر تمبى Tempe الشهير الذى يربط بين تساليا ومقدونيا ، وعند مضيق ثرموبيلاى Thermopylae الذى ينحصر بين الجبل والبحر عسكر الملك الاسبرطى ليونيداس Leonidas ومعه قوة مكونة من ٧٠٠٠ رجل منهم ٤٠٠٠ من البيلوبونيسوس فى انتظار الفرس بينما وقف الأسطول الاغريقى الذى كان يتكون من ٣٠٠ قطعة حربية متاهبا عند رأس ارتيميسيوم Artemisium فى شمال جزيرة يوبويا Euboea لحراسة الممر المائى بين القارة والجزيرة .

معركة مضيق الثرموبيلاى :

حاول الاغريق منع الفرس من اختراق المضايق الجبلية التى تربط بين تساليا شمالا وبلاد اليونان جنوباً . وبدأ الالتحام بمعارك بحرية بين الطرفين لم يعرف نتائجها ولكن العواصف فتكت بجزء كبير من أسطول الفرس عند خليج مجنيزيا .

ثم حاول الفرس احتلال مضيق ثرموبيلاى الجبلى بالتسلل عن طريق ممر آخر حيث فاجأوا القوة الأسبرطية هناك التى قاتلت حتى آخر رجل فيها ومن الواضح أن الخيانة لعبت دوراً كبيراً فى هذه الهزيمة لأن الفرس استعانوا بعدد كبير من المرشدين الأغريق هكذا

(1) cf. Kl. Meister," Das. Persisch-Karthagische Buednis von 481-v chr. Historia, 1970, p. 607-612.

سقط هذا الممر الحصين فى أيد الفرس ومجدت الروايات فيما بعد بطولة الملك الأسبرطى ليونيداس وتضحيته بنفسه وبرجاله من أجل الواجب (١) • وبعد سقوط هذا الممر أصبح وسط بلاد اليونان تحت رحمة الفرس وتقدم كسيركسيس وجحافله جنوبا ، وقرر الأثينيون اخلاء عاصمتهم ونقلوا النساء والشيوخ والأطفال الى الجزر المجاورة مثل سلاميس وايجينا حتى لا يسبيهم الفرس • وتقدم الفرس جنوبا محاولين احتلال دلفى ونهب خزائن معبد الاله أبوللون ، ولكن كهنة هذه المنطقة المقدسة نظموا مقاومة عنيفة ساعدهم عليها هبوب عواصف شديدة مما جعل الفرس يولون الأدبار • أما أهل منطقة بيوتيا فقد سلموا عاصمتهم طية للفرس دون مقاومة بينما هجر الأثينيون عاصمتهم وانتظروا ماذا سيفعل بهم تميستوكليس وأسطوله الذى وضعوا فيه كل آمالهم •

معركة سلاميس :

وبينما كان أسطول الفرس راسيا عند رأس فاليروم Phalerum قرب أثينا كان الأسطول الاغريقى المتحد يراقب المضيق المائى بين جزيرة سلاميس وشواطىء أتيكا •

وتقدمت جحافل الفرس واستولت على اقليم أتيكا ودخلت أثينا وأحرقتها بينما كان ثمستوكليس يحاول عبثاً اقناع قائد الأسطول الأسبرطى بالهجوم على أسطول الفرس ولكن الحلفاء الاسبرطيين كانوا مهتمين بالدفاع عن البيلوبونيسوس بالرغم من أن أثينا ساهمت بمائة وثمانين سفينة من مجموع الأسطول المتحد البالغ عدده ٣٧٨ سفينة ، وكان على تمستوكليس أن يفعل شيئا (٢) ، فأرسل رسولا الى ملك الفرس ليبلغه أن أسطول الاغريق واقع فى مصيدة وأنه سوف يفلت منها بالهروب وأسرع ملك الفرس وأرسل قوة من فرقة مصرية كانت مع

(1) cf. R. Hopp Simpson, Leonidas' decision, Phoenix, XXVI, 1972, p. 1-11.

(٢) عرض بيتر جرين فى دراسة حديثة قضية الحرب الفارسية اليونانية وسياسة ثمستوكليس فى الاعتماد على الأسطول وما تلى ذلك من انتصار اثينا وتراجع الفرس ثم حلل نتائج النصر وأسبابه أنظر :

Peter Green : The Year of Salamis-480-479, B.C. Weiden Field and Nicholson, London 1970.



ثمستوكليس بطل سلاميس

جيشه لتسد المضيق بين سلاميس وسواحل أتيكا لكى لا يخــرج منها أحد ودخل الجيش الفارسى المصيدة وهو لا يدرى ، فبالرغم من كثرة عدده الا أن ضيق المكان وخفة حركة السفن التجــارية حقق للاغريق نصرا كاملا فى سبتمبر عام ٤٨٠ ق٠م ٠ لقــد كان انتصــار الاغريق فى سلاميس عظيما ، واندفع المنفيون عائدين وعلى رأسهم أرستيذيس العادل وتغنى الشاعر ايسخولوس Aeschylus بهذا الانتصار فى رواية سماها « الفرس » تحدث فيها عن عنــاية زيوس رب الأرباب وانتصــاره على الفرس ولم يذكر شيئا عن ثمستوكليس على الاطلاق ٠

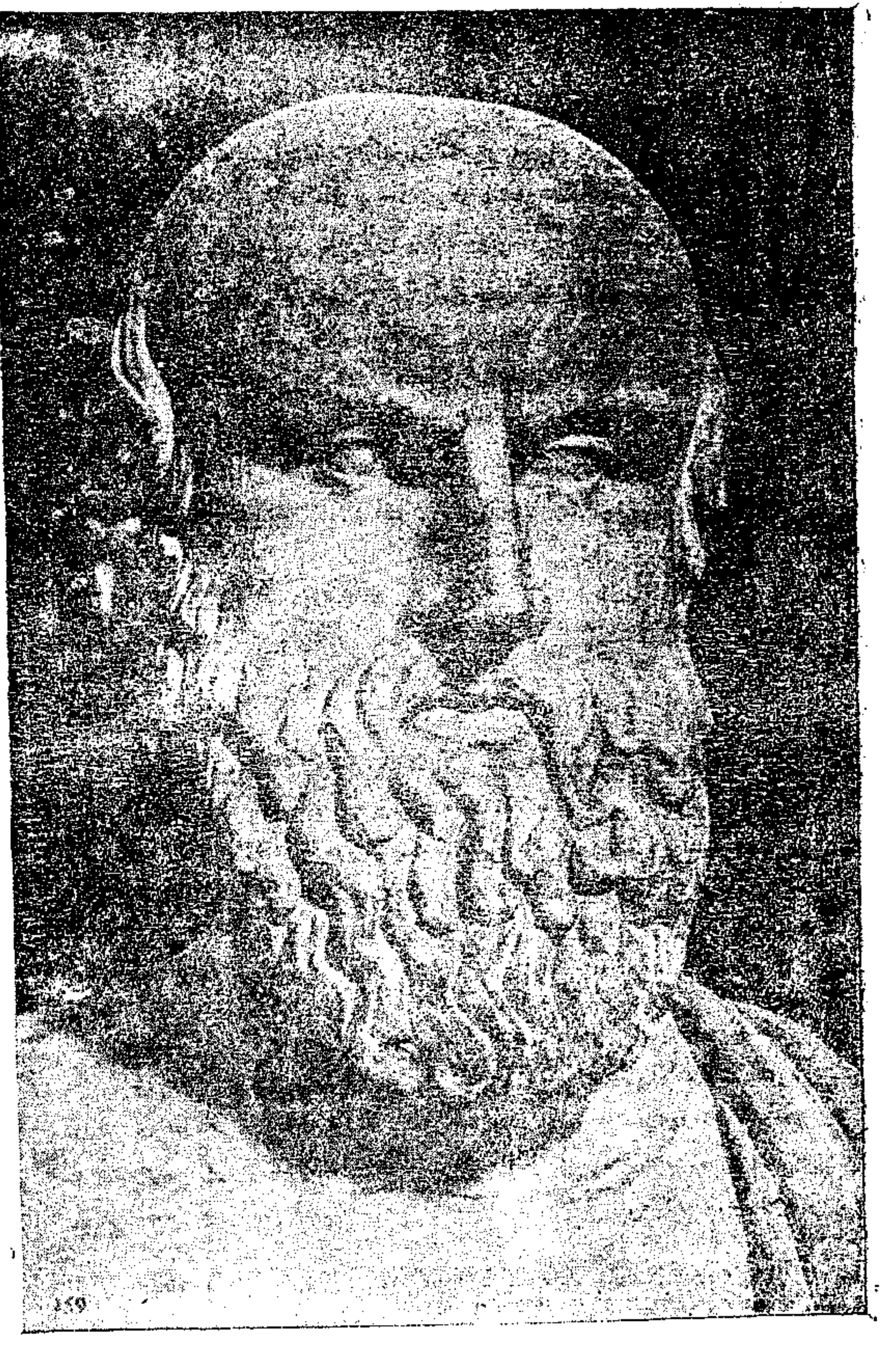
وكان كسيركسيس يرقب المعركة من ربوة عالية ولما عرف نتائجها قرر العودة فوراً الى بلاد الفرس تاركا نائبه ماردونيوس ليشرف على الحملة نيابة عنه ٠ وفى نفس الوقت نجح الاغريق فى صقلية فى الانتصار على القرطاجيين فى معركة هيمرا Himera فكان انتصاراً للاغريق على جبهتين (١) ٠

معركة بلاتيا Plataea البرية وموكالى البحرية :

انسحب ماردونيوس شمالا الى طيبــة عاصمــة بيوتيا ولاحقتــه القوات الاغريقية المتحالفة وقرب مدينة بلاتيا تمكنت القوات الأسبرطية بالذات من الحاق هزيمة ساحقة بالفرس عام ٤٧٩ قتل فيها ماردونيوس وانسحب الجيش والحاميات الفارسية من بلاد اليونان كلها وكانت المرة الثانية والأخيرة التى حاول فيها الفرس وان شئت فقل بلاد الشرق المتحد غزو أوروبا ٠

وتقول الروايات التاريخية أن الاغريق حاربوا معركة بحرية ضارية فى عام ٤٧٨ ق٠م عندما انقض الأسطول الاغريقى على الأسطول الفارسى فى موكالى Mykale بالقرب من ميليتوس بآسيا الصغرى وفتك به وتحرر غربى أيونيا نتيجة لذلك وكانت هذه المعركة بقيادة ادمــيرال أسبرطى اسمه توخيلاس ٠ ثم انسحب الأسبرطيون عائدين الى بلادهم بينما أكمل

(1) Y. Garlon, Etudes d'histoire. militaire, VIII : à Propos du Parallèle Himère-Salamine, B.C.H., XCIV, 1970. p. 630-635.



ايسخولوس

الاثينيون والأيونيون المعارك شمالا عند مضيق البسفور والدردنيل حيث استولوا على مدينة ستوس المحصنة Sestus بقيادة كسانثبوس Xanthippus ، وتفاخر الأثينيون بأنهم قادوا أشرف المعارك دفاعا عن حرية هيللاس الغالية ووضعوا أقدامهم على الطريق الموصل الى الامبراطورية الكبرى فى الوقت الذى انسحب فيه الأسبرطيون الى معقلهم فى البيلوبونيسوس، اذ لم تكن لديهم نية فى التوسع أو فرض سياسة القوة (Machtpolitik) وانما كان كل هدفهم هو دعم حلفهم ومن أجل ذلك عزلوا الملك الأسبرطى باوساناياس الذى يمثل القوة الدافعة التوسعية (١) •

الشاعر المأسوى ايسخولوس :

لا يمكن ذكر انتصار الاغريق على الفرس دون الاشارة الى الشاعر التقى الورع ايسخولوس ، كان بيسستراتوس قد وضع اللبنة الأولى لحركة تطور المسرح الأغريقى بايجاده الأعياد الثقافية والدينية مثل عيد الديونيسيا الذى كان يقام احتفاء برب الخمر ديونيسوس وعيد الباناثينيا الخاص بأثينا ، وكان يقام فى هذه الأعياد عرض غنائى أشبه بفصول الأوبرا الدينية تقام فى الهواء الطلق ومتاحة لكل المتفرجين • وكانت الجوقه أو الكورس Chorus هى نواة المسرح الأغريقى وكانت تتكون عادة من خمسين رجلا يغنون ويرقصون بطريقة دينية مبجلة وبين الفينة والفينة كان يقطع غناءهم وانشادهم راويا يحاورهم ويحاورونه • وهكذا كان حال المسرحية الاغريقية قبل مجيء الشاعر ايسخولوس الذى أضاف ممثلا آخر الى الراوى وجعله يدخل فى حوار معه ويدخل الممثلان بدورهما فى حوار مع الجوقة أو مع قائدها بينما يرتدى الجميع أروابا واسعة وأقنعة وأحذية طويلة تضفى عليهم قداسة الشخصيات المؤلفة أو الأبطال التى كانوا يحاكونها (٢) •

---

(1) cf. D. Lotze, Selbsthe wusstsein und Macht Politik. Bemerkungen zen Machtpolitischen Interpretation Spartanischen Verhaltens in der Jahren 479-477., V. Chr. Klio, LII, 1970, p. 255-257.

(2) T.A. Sinclair, A. History of Classical Greek literature, from Homer to Aristotle, P. 224 ff.

وكانت الأعياد الدينية تشتمل على أكثر من عرض مسرحي ومأسوى يستمر طوال اليوم وقد أضيف الى الممثلين شخصية ثالثة بينما حدد عدد الجوقة فأصبح خمس عشرة وكان الرجال يقومون بدور النساء بواسطة الأقنعة والثياب . وأغلب الظن أن العرض المسرحي كان يتم على أنغام المزامير تماما كما كان الحال فى المباريات الرياضية .

وبالنسبة لتاريخ الأدب الأغريقى يعتبر ايسخولوس أول أثينى يفرض نفسه على عالم الشعر . لأن كل من سبقوه من أعلام الأدب كانوا من جنسيات غير أثينية فهوميروس ناظم الألياذة والأوديسا كان أيونيا وكان هيسيودوس ناظم ملحمة الأيام والأعمال من اقليم بيوتيا تماما مثل الشاعر الغنائى بندار الذى تخصص فى أغانى انتصارات الأبطال الرياضيين ، كما كانت سافو الشاعرة الغنائية العاطفية الاباحية من جزيرة لسبوس الأيونية قرب ساحل آسيا الصغرى .كما كان سيمونيدس Semonides من جزيرة كيوس . وغير ذلك كثيرون ممن أتوا من جزر بحر ايجه ولم نسمع عن شاعر أثينى مشهور قبل ايسخولوس .

ومن أشهر مؤلفات أيسخولوس التراجيدية المأساة المعروفة باسم « الفرس » Persae التى سجل فيها حقبة من الأحداث التى عاصرها واشترك فيها خاصة هزيمة الفرس فى معركة بلاتيا وهذا تقليد جديد لم يعرف مثله (١) من قبل أو من بعد لأن معظم موضوعات المآسى الاغريقية كانت أسطورية أو مأخوذة من الماضى البعيد بينما أراد ايسخولوس أن يضرب مثلا من التاريخ على غرور البشر وتعاليهم وصلفهم ثم عقاب الآلهة لهؤلاء الناس ووجد فى سيرة كسيركسيس وحملته ضالته المنشودة لموضوع هذه المأساة ، ولكن هذا النوع من التجديد لم يعجب الاثينيين ولهذا فضلوا عليه شاعرا جديدا أكثر منه تحررا واسمه سوفوكليس Sophocles وكان ذلك ابان أعياد الديونيسيا فى شهر

(1) cf. George Thompson," Aeschylus and Athens-Astudy in the Social origins of Drama., London 1950.

وقد ترجم هذا الكتاب الدكتور صالح جواد القاسم — تحت عنوان « اسخيلوس واثينا » — بغداد — المطبعة الجمهورية ١٩٧٥ .

مارس عام ٤٦٨ ق.م وكان سوفوكليس أصغر سنا من ايسخولوس لأنه وقت هجوم الفرس كان عمره خمس عشرة عاما ، وغادر ايسخولوس أثينا الى صقلية ولكن لم يكن فى ذلك نهايته لأن أعظم أعماله وهى مسرحية « أجاممنون » كتبت بعد ذلك التاريخ .

تحصين اثينا :

أثارت دعاية أثينا وتفاخرها حقد أسبرطة الدفين فانتهى الوئام والتحالف بينهما وبدأ فصل جديد من العداء والصراع انتهى بحرب طاحنة بينهما . وخاصة ان الاسبرطيين راحو ينظرون بعين الشك الى مشروعات أثينا الدفاعية الخاصة ببناء أسوار تربط ميناء بيرايوس Piraeus بالمدينة وكان الفرس قد دمروا هذه التحصينات أثناء احتلالهم لأثينا ويرجع الفضل فى اقامة هذه التحصينات الى ثمستوكليس وكذلك اليه يرجع فضل انشاء قوة بحرية فرضت زعامة أثينا على مدن هيللاس كما بينا من قبل (١) .

تآمر الملك الاسبرطي باوسانياس Pausanias مع الفرس ضد اثينا :

فى عام ٤٧٨ ق.م سار أسطول الحلفاء الاغريق بزعامة أريستيديس الاثينى والملك باوسانياس الأسبرطى ليحرر جزيرة قبرص من نير الاستعمار الفارسى وبعد أن تم لهما ذلك أبحرا شمالا وحررا مدينة بيزنطة . ولكن حقد الملك الاسبرطى على الاثينيين وتشككه فى نواياهم (٢) جعله يتآمر مع الفرس ضدهم ولما اكتشف الاثينيون وحلفاؤهم ذلك فضحوا أمره واعتبروا ذلك خيانة لقضية الأغريق مما أثار سخط باقى المدن الأغريقية على أسبرطة وازاء ذلك اضطر الاسبرطيون الى استدعاء ملكهم وتقديمه للمحاكمة وتركت أسبرطة مضطرة ميدان الصراع لأثينا المنتصرة التى ألتف

---

(1) F.J. Frost, Themistocles and Mnesiphilus, Hist. XX, 1971, p. 20-25. ;
(2) cf. A. Blaimaire," Pausanias and Persia, G.R.B.S., XI, 1970. P. 295-305.

حولها الاغريق جميعا وانفضوا من حول أسبرطة التى آثرت أن تسترك البحر كله وما فيه لأثينا وأن تعود أدراجها الى البيلوبونيسوس حيث مكانها الأساسى [١] .

وهكذا خرجت أثينا من معارك الفرس منتصرةوأصبحتسيدة على مياه بحر ايجه بلا منازع وجنت ثمار الصراع الطويل وحدها دون أسبرطة التى كلفها خيانة وغباء ملكها دماء رجالها بل واحترامها بين سائر الدويلات الاغريقية وسلطت الأضواء على أثينا كزعيمة لحرية بلاد الاغريق ضد الاستعباد الشرقى الفارسى (٢) . كما أن تحصين المدينة وميناءها جعلها تنافس أسبرطة فى القوة البرية ، فى نفس الوقت الذى راحت فيه أساطيلها تحرس بحر ايجه وتحتكر التجارة فيه .

ولقد دفع هذا النصر الاثينيين الى التفكير فى الجمع بين الدفاع عن حرية الاغريق والمصلحة الخاصة لأثينا بعد أن جنت ثمار النصر متمثلا فى العظمة السياسية وفى التوسع التجارى وفى تحقيق السيطرة البحرية جزئيا على حوض البحر المتوسط ، بل وفى حركة الانطلاق الحضارى والفكرى الراقى الذى جعلها بحق مدرسة هيللاس ، كما كان لزاماً على مواطنيها أن يعيشوا حياة تليق بالعهد الجديد ، فضلاً على أن حلم توحيد كل المدن والجزر الاغريقية فى دولة واحدة بزعامة أثينا بدأ يداعب خيال السياسيين الأثينيين لأول مرة .

---

(1) M. Amit, Athens and the Sea, Coll. Latomus 74, Brussels 1965 (Reviewed in Phoenix, 19 (1965) p. 251-2 ; Athenaeum 43 1965 p. H 65-6.

(2) W.C. West, Saviours of Greece, G.R.B.S., XI, 1970, p. 271-282.

الفصل العاشر

قيام الامبراطورية الأثينية

نعرة الاستعلاء والغرور تظهر فى السياسة الأثينية :

عندما لمع نجم الشاعر الماسوى سوفوكليس ابن السابعة والعشرين ربيعا وفاز على منافسه ايسخولوس فى أعياد الديونيسيا فى مارس عام ٤٦٨ ق. م (وكان ايسخولوس وقتئذ يقترب من الستين من عمره) حدث حادث هام . اذ فاجأ كيمون Cimon وهو ادميرال وسياسى أثينى ينحدر من سلالة ارستقراطية الناس فى المسرح ومعه تسعة من ضباطه ومساعديه وكانوا قد عادوا لتوهم من حملة بحرية ضد جزيرة سكورس Scyros التى اعتقد الآثينيون أن ثيسيوس البطل الأثينى مدفون بأرضها ــ وقدم كيمون للناس عظاما نخرة وقال أنه عاد بعظام ثيسيوس استجابة لنبوءة الكهنة وأصبح كيمون بطل الساعة وتردد اسمه على كل لسان . ويبدو أن مثل هذا الادعاء كان مقصودا به اشعار الاثينيين بأنهم منقذون للأمة الاغريقية من أخطار الفرس تماما كما أنقذ بطلهم فتيان اليونان وفتياتهم من شر المينوتور وحش كريت الأسطورى ، كذلك أرادت أثينا أن تبلغ هذه الرسالة الى كافة المدن والجزر الاغريقية بدورها التاريخى بينهم . وباختصار كان ذلك بداية سياسة الغرور والطموح اللذان حققا الامبراطورية الاثينية بسرعة وقضيا عليها بسرعة (١) .

---

(1) cf. R. Meiges :" The Athenian Empire, Oxford The Clarendon Press, Press., (1972) p. 14 f.

قيام حلف ديلوس الدفاعي :

بذل الاسبرطيون جهدا كبيرا فى رد الفرس عن بلاد الاغريق وكان فى استطاعتهم أن يجنوا ثمار ذلك ويطالبوا بزعامتهم لليونان ولكنهم لم يفكروا فى ذلك على الاطلاق لأن عقولهم وقلوبهم فى ميدان المعارك كانت أولا وقبل كل شيء مع المشاكل التى تهدد بلادهم وهى خطر الثورات الداخلية التى كان يقوم بها الهيلوت Helots كلما تاحت لهم الفرصة وخشى الاسبرطيون أن يستغل الهيلوت غياب الجيش الأسبرطى بعيدا عن البلاد فيهبون فى ثورة قد يفتكون فيها بطبقة الاسبرطيين وهم أقلية بالنسبة لهم كما نعرف •

وأدرك الاثينيون ذلك فانتهزوا هذه الفرصة وراحوا يدعون الى انشاء حلف دفاعى تحت زعامتهم لكى يكمل الحرب ضد بلاد الفرس وبالفعل تكون حلف من المدن الأيونية والأيولية الواقعة على ساحل آسيا الصغرى وانضم اليهم عدد كبير من مدن بحر مرمرة Propontis واقليم تراقيا Thracia وجسزيرة لسبوس Lesbos وخيوس Chios وساموس Samos ومعظم جزر بحر ايجه • كما انضم اليهم مدن جزيرة يوبويا Euboea الواقعة شرق الشاطىء الاثينى باستثناء مدينة كاريستوس Carystus الواقعة فى أقصى طرف الجزيرة الجنوبى التى آثرت الحياد •

وثق الجميع باريستيديس العادل — بالرغم من تقدم السن به وقتئذ لكى يقرر نوعية المشاركة من قبل الأعضاء • فاتفق أن نساهم كبريات الجزر الاغريقية بعدد من السفن بينما يدفع باقى المدن والجزر الصغرى اتاوة Phoros (١) قدرها أريستيديس حسب امكانية كل منها على أن تكون فى مجموعها ٤٦٠ تالنت (حوالى أحد عشر ألفا وخمسمائة جنيه

---

(1) cf. A. French, «The Tribute of the allies Hist, XXI, 1972, p. 1-20 = Meiggs, op. cit., p. 63. also cf. R. Sealey,» Votes on tribute quota lists in the Athenian Empire, Phoenix, XXIV, 1970, p. 13-25.

استرلينى) وتقرر أن يحفظ هذا المبلغ فى جرار توضع داخل محراب الآله أبوللون فى دلفى Delphi حيث يجتمع الأعضاء المشتركون دورياً تحت رئاسة مندوب الدولة الاثينية • كما احتفظت أثينا بحق جمع هذه الأتاوات عن طريق موظفين أثينيين عرفوا باسم مندوبى الاغريق Hellenotamiae وكان هذا دليلا على سيطرة أثينا على الحلف منذ نشأته وبالرغم من أنها كانت تعلن دائما أنها شريك ولكن كبير ، لكن لا يوجد أى دليل على أنها كانت تحكم حكماً عادلاً •

نفى ثمستوكليس وتولى الحزب المحافظ بزعامة كيمون :

وبينما كانت أثينا تمضى قدما الى الأمام فى توكيد سيادتها وشخصيتها على سائر المدن والجزر الاغريقية مضت أسبرطة فى فرض سيطرتها على جيرانها فى البيلوبونيسوس فحققت انتصارات على أرجوس Argos وتيجيا Tegea وعلى أركاديا ، واستدعت ملكها باوسانياس للمرة الثانية لتآمره مع الفرس وسجنته فى المعبد الذى التجأ اليه حتى مات جوعا وعطشا • وفى أثينا واجه ثمستوكليس تهما مماثلة وجهها اليه الحزب المحافظ الذى كان يتزعمه أرستيديس العادل كيمون ابن ميلتياديس، فهرب ثمستوكليس من أثينا الى جزيرة كوركورا Corcyra ومنها الى آسيا الصغرى حيث أحسن ملك الفرس استقباله عام ٤٦٥ ق•م وكان هدف القائد الاثينى أن يقنع الفرس باعادته الى منصبه ، وعينه الفرس طاغية على ماجنيسيا Magnesia ولكنه مات بعد عام من حكمه ميتة غير مشرفة لبطل سلاميس وبطل الاثينيين ضد الفرس • وتولى أريستيديس الحكم ولكنه هو الآخر مات بعد أربعة سنوات فقط من طرد ثمستوكليس البطل الخائن (١) •

---

(1) G.L. Cawkwell," The Fall of Themistocles, Aucland Classical, Essays Presented, to E.M. Blaclock Aukland (date ?) p. 39-58.

وعن آراء توكوديديس فيه وفى باوسانياس انظر :

P.J. Rhodes," Thucydides on Pausanias and Themistockles, Historia XIX, 1970, p. 387-400.

زعامة كيمون :

كان كيمون زعيما للحزب المحافظ وكان صديقا للاسبرطيين . وكان ثريا وكريما اذ فتح بيته وحدائقه للناس وحاول كسب سمعة حسنة بانفاق أمواله فى أعمال الخير . وكانت سياسة كيمون وحزبه هو اقامة علاقات طيبة مع أسبرطة وملاحقة الفرس . وكان قبل توليه زعامة الحزب المحافظ قائدا للأسطول الأثينى ولعب دورا هاما فى تحرير بيزنطة وسستوس ، وملاحقة باوسانياس ملك الأسبرطيين الخائن عام ٤٧٦ ق.م وفى عام ٤٧٥ استولى على أيون Eion فى قلب آسيا الصغرى وفى ٤٧٣ استولى على جزيرة سكوروس Scyrus وأتى بعظام ثيسيوس البطل الأسطورى ، وفى عام ٤٦٨ حقق انتصارين على الفرس فى آسيا الصغرى عند نهر يوريميدون Eurymedon فى بامفوليا Pamphylia فى آسيا الصغرى وقد كان لهذا النصر أثره العظيم اذ جلب أعضاء جدد للحلف الدفاعى الجديد الذى تزعمته أثينا ضد الفرس بهدف الانتقام منهم على ما فعلوه بالاغريق وانتزاع السيطرة على البحر المتوسط منهم .

حلف ديلوس Delian League يتحول الى امبراطورية لاثينا :

وبعد أن أثبت كيمون للاغريق أن حلف ديلوس قادر على تنفيذ هدفه وهو الانتقام من الفرس ، بدأ الحلف يتحول من سياسة اغراء المدن والجزر الاغريقية للانضمام اليه الى سياسة الارغام بالقوة لقبول ذلك وقد سلك الحلف ــ وأعنى أثينا ــ مسلكا قاسيا تجاه المدن الأعضاء التى كانت تحاول الانسحاب من عضويته فمثلا أرغمت أثينا مدينة كاريستوس فى أقصى جنوب جزيرة يوبويا على دخول الحلف بالقوة وكانت هذه المدينة قد آثرت البقاء بعيدا عنه ولما حاولت جزيرتا ناكسوس وثاسوس Naxos and Thasos الانفصال عن الحلف وتمردتا عليه فى أعوام ٤٦٩ و٤٦٣ ق.م حوصرتا حتى الاستسلام ثم حرمتا من حق الاستقلال وأصبحتا مستعمرتين تابعتين رأسا لأثينا . وكان هذا بداية اعلان أثينا لرغبتها فى تحويل الحلف الى امبراطورية تابعة لها . وخاصة عندما بدأت تطالب الحلفاء بدفع أموال بدلا من المساهمة بعدد من السفن وبدأت تدس أنفها وتفرض نفوذها فى الشئون الداخلية للمدن الحليفة حتى فى

حق التشريع والتحكيم داخل المدن وبين المدن والمدن خاصة فيما يتعلق بالقضايا الجنائية وأصبح المتهمون يرسلون الى أثينا ليلقوا محاكمتهم فيها أمام محاكمها وهذا تدخل سافر أثار امتعاض وشكوك المتحالفين .

وحدث فى عام ٤٥٤ ق. م أن فقدت أثينا مائتين سفينة كانت قد أرسلتها للعمل فى عدة جبهات خارجية كانت مصر (١) أحداها . وادعت أثينا أن هذه الكارثة البحرية سوف تترك جزيرة ديلوس - حيث توجد خزائن الحلف معرضة لعدوان السفن الفينيقية والفارسية وعلى ذلك قررت نقل خزائن الحلف الى العاصمة . وأخيرا أعلنت أثينا شروطا جديدة فى وجه الحلفاء الراغبين فى الحصول على حق المواطنة فيها وهو أن يكون الفرد من أبوين مولودين فى أثينا كان ذلك بمثابة اعلان الامبراطورية الأثينية حيث سادت سلطة أثينا (Arche) قولا وعملا ، برا وبحرا . ونمت المدينة فى الثراء والسكان كنتيجة طبيعية لهذه المزايا بينما راح شعور من الكراهية ينتشر نحوها بين رعاياها .

كيمون يهب لمساعدة الاسبرطيين ضد الهيلوت :

كان أهل جزيرة ثاسوس Thasos أثناء تمردهم على الحلف الديلى قد طلبوا النجدة من أسبرطة ولكنها كانت غارقة فى قمع حركة التمرد الكبرى التى قام بها الهيلوت فى مسينيا Messenia حول معقلهم فى جبل قلعة ايثومى Ithome وقد هددت هذه الثورة الوجود الاسبرطى ذاته . لأنها حدثت فى أعقاب الزلزال العنيف الذى حدث فى أسبرطة والحق بها خرابا ودمارا كبيرا . عندئذ طلب الأسبرطيون النجدة من أثينا مثلما طلبت الأخيرة النجدة منهم عندما هاجمها الفرس . ووجد كيمون الفرصة مواتية لتطبيق سياسة الصداقة مع أسبرطة فسار على رأس حملة قوامها ٤٠٠٠ جندى من جنود المشاة المسلحين hoplites ولكن القوة الأثينية وجدت نفسها عاجزة أمام متاهات جبل أيثومى العالى حيث لم يسبق لهم خوض أى حرب فى الجبال من قبل . ولما أدرك

---

(١) وذلك لمساعدة الثائر ايناروس احد ملوك مصر ضد الفرس وقد هزم الاثينيون فى ممفيس واحرق اسطولهم وتفرقت جنودهم . وساروا مشيا على الاقدام حتى وصلوا الى قورينة .

الاسبرطيون ذلك رأوا أنه لا داع من وجود كيمون وقواته فرجوهم أن يعودوا من حيث أتوا واعتبر الأثينيون ذلك اهانة لهم أما الاسبرطيون فقد أكملوا بعد ذلك القتال وحدهم حتى سقط معقل الثوار عام ٤٥٠ ق٠م ولكن الأثينيين بعد ذلك ارتكبوا حماقة كبرى عندما قبلوا الفارين من ميسينيا ووطنوهم فى ناوباكتوس Naupactus على خليج كورنثا كرد عملى على هذه الأهانة مما ضايق الاسبرطيين كثيرا ٠

نفى كيمون وظهور ايفيالتيس :

انتهز أعداء كيمون من الحزب الديموقراطى فشل الحملة الاثينية فى أسبرطة والاهانة التى حاقت بهم وهاجموا كيمون وسياسته — وقاد الهجوم محام شاب عنيف وغيور اسمه ايفيالتيس وكان يساعده زميل له اسمه بيريكليس Pericles وكان الاثنان قد بدأ الهجوم على كيمون عقب عودته من الحملة ضد ثاسوس وتمكن الزعيمان الناشئان من ازكاء نار العداء ضد أسبرطة بالخطب السياسية النارية ، ونتيجة لذلك صوت الأثينيون بنفى كيمون عام ٤٦١ ق٠م ونادوا بعقد معاهدة صداقة مع أرجوس Argos العدوة التقليدية لأسبرطة وكان ذلك ردا آخر على اهانة أسبرطة لشرف الجنود الأثينيين ٠ ولكن ايفيالتيس أغتيل ابان حوادث الشغب التى تلت نفى كيمون وتولى رفيقه بيريكليس الذى قاد البلاد لفترة تقرب من ثلاثين عاما ٠

بيريكليس يدفع ببرنامج اصلاحى ديموقراطى :

أكمل بيريكليس رسالة رفيقه الراحل وقدم برنامجا يعطى المزيد من الديموقراطية للاثينيين يشتمل على النقاط التالية :

١ — تحديد سلطات محكمة الأريوباجوس المحافظة وزيادة سلطات مجلس الخمسمائة الشعبى واقامة المحاكم الشعبية وأصبحت سلطات محكمة الأريوباجوس قاصرة على القضايا الجنائية التى يذهب ضحيتها مواطنون أثينيون وكذلك على التخصصات القانونية والتشريعية الرفيعة (١) ٠

---

(1) A.R.W. Harrison," The Law of Athens, Vol I, Property and Family 1968, Vol II, Procedure, Oxford 1971.
وهو يهم المتخصص فى القانون أكثر من المتخصص فى التاريخ .

٢ — فى عام ٤٥٧ ق٠ م أدخل بيريكليس نظام الأجور لكل الوظائف التى تشغل بالانتخاب وكانت الحكمة من ذلك هو اعطاء صفة الجدية العمل فى هذه المناصب والقاء المسئولية على كل من يشغل منصبا والحد من الابتزاز والارتزاق من الوظائف وبذلك شجع الفقراء وغيرهم من الطبقات الدنيا فسعوا لترشيح أنفسهم لوظائف الأزاخنة لأنها لم تعد شرفية يتهافت عليها الأغنياء ٠ ونتيجة لذلك فتح باب الترشيح لهذه الوظائف لكل المواطنين دون النظر الى وضعهم الاجتماعى مادام هناك أجر يدفع لشاغريها ٠

٣ — ألغى بيريكليس نظام الترشيح بالاختيار ثم القرعة لوظائف الأراخنة ومجلس الخمسمائة وأصبح الترشيح يتم عن طريق القرعة مباشرة من بين المتقدمين ومن بين من تتوفر فيهم شروط الوظيفة ٠ وكان قبل ذلك يطلب من كل قبيلة ترشيح عدد من أبنائها ثم يجرى الاقتراع بينهم ٠

٤ — ذهب بيريكليس أبعد من سولون وكليثنيس فى دفع البرنامج الديموقراطى الذى خطط له ايفيالتيس وأدخل نظام الأجور لمن يحضرون جلسات المحاكم ويعملون كمحلفين dicastes ووجد الفقراء فى ذلك عملا يتقاضون عليه أجرا وبذلك أصبحت الطبقة الفقيرة فى وضع تسيطر فيه على مقاعد الجمعية العامة وعلى جلسات المحاكم ٠ وأصبحوا يسيطرون فعلا على الجهاز التشريعى والادارى ٠

بينما جاء بيريكليس بهذه الامتيازات لمواطنيه ضيق الحزام على أعضاء حلف ديلوس وأصبح سلوك أثينا تجاه حلفائها بيروقراطيا وكانت سياسته تجسيدا لسياسة الأنانية الأثينية وتحقيق الرخاء والحرية للأثينيين على حساب المدن الاغريقية الأخرى ٠ فمثلا أرسل حملة عسكرية للاستيطان فى منطقة البحر الأسود لتأمين وصول القمح الجيد والرخيص لمواطنى أثينا ٠ وأصبحت الجنسية الأثينية تعنى الكثير لحامليها مثلما كانت الجنسية الانجليزية يوما ما ٠

كانت سلطة الدولة التنفيذية متمركزة فى يد مجلس الجنرالات العشرة Strategoi الذى أصبح بمثابة مجلس الوزراء وكان هذا المجلس يفرض سيطرته على الأراخنة وكان الجنرالات أو الوزراء ينتخبون من قبل الشعب مباشرة وكان رئيسهم بمثابة رئيس الوزراء • وجدير بالذكر أن بيريكليس حكم بصفته رئيسا لهذا المجلس • وتكرر انتخابه لهذا المنصب كل عام حتى موته فى خريف عام ٤٢٩ ق• م•

ويرى بعض الدارسين أن نظام الحكم الذى أوجده بيريكليس كان ديموقراطيا شكلا ولكنه كان من الناحية الفعلية حكم رئيس مسيطر أو بلغة الرومان السياسية حكم مواطن أول (Princeps) (١) •

بداية التحرش والمناورات بين اثينا واسبرطة وحلفائهما :

بالرغم من أن الأثينيين والأسبرطيين حاربوا جنبا الى جنب لطرد الفرس من بلاد اليونان ، وامتزجت دماء شهدائهم فى ساحات القتال وفى مضايق الممرات الجبلية ، الا أن قلوبهم لم تكن صافية ، لقدكان خوف كل منهم على مصيره هو الذى دفعهم الى تناسى خلافاتهم والقتال ضد الفرس تحت راية واحدة • وما أن فرغوا من طرد الفرس حتى بدأت ظواهر العداء القديم تظهر وبدأ كل من المدينتين ترقب الأخرى بعين الشك وترصد حركاتها وتصرفاتها ، فمثلا عندما بدأ الجنرال ثمستوكليس فى تحصين ميناء بيرايوس (بيريه) وربطه بالعاصمة عن طريق حوائط ضخمة طولها أربعة أميال عام ٤٧٨ ق• م اعترضت أسبرطة على ذلك ولكن ثمستوكليس زاوغها عن طريق مفاوضات طويلة الأمد حتى أتم بناء الحوائط • ثم ترك الاسبرطيون المعركة قبل نهايتها فبدلا من أن تقود أسبرطة حركة تحرير المدن الأيونية من نير الفرس تآمر ملكها باوسانياس مع الأعداء ولما فضح أمره انسحبت أسبرطة من المعارك وأكمل الاثينيون تحرير المدن الأيونية تحت قيادة كيمون وبذلك جنت أثينا ثمار

(1) Paul Cloche, La démocracie athénienne, Paris 1951. P. 26 ff.

انظر : لطفى عبد الوهاب يحيى : مقدمة تاريخية للتفكير السياسى عند الاثينيين ، مطبعة مصر ١٩٥٨ .

الحروب الفارسية وحدها ، وبنت منها امبراطورية كبرى . ولم يقابل ذلك أيضا بالارتياح من جانب الاسبرطيين .

ولما هب هيلوت أسبرطة فى حركة تمرد عنيفة عام ٤٦٤ ق. م على أثر حدوث مأساة الزلازل بأسبرطة كان الحزب المحافظ وعلى رأسه كيمون ــ الذى عرف بميله لأسبرطة ــ فى الحكم . وبالفعل ذهب على رأس قوة لانقاذ أسبرطة من هذا الخطر وسواء ردت هذه القوة مكرمة أو غير مكرمة فان الأثينيين بعد ذلك أضاعوا ما فعلوه . وكما عرفنا فان كيمون نفى بسبب سياسته المسالمة تجاه أسبرطة . وتولى الحكم الحزب الديموقراطى بزعامة ايفيالتيس ولكن اختفاءه مبكرا من مسرح الأحداث ترك بيريكليس وحيدا لا ينافس .

وتمشيا مع المزاج العام للمواطنين فقد هجرت أثينا سياسة مصادقة الأسبرطيين وبدأت فى مصادقة أعداء الأسبرطيين وتحالفت مع أرجوس وثساليا Thessalia وكان هذا التحالف بداية التحرش الفعلى بين الدولتين أو على وجه الدقة بين أثينا وحلفاء أسبرطة خاصة مدينة كورنثا وجزيرة أيجينا . فعندما احتلت أثينا مدينة ناوباكتوس Naupactus على خليج كورنثا استاءت كورنثا من ذلك وشاركها فى ذلك كافة أعضاء حلف البيلوبونيسوس ولكن الأمور تفاقمت عندما انسحبت مدينة ميجارا من حلف البيلوبونيسوس وطلبت الانضمام الى حلف ديلوس وكان هذا أكثر مما تتحمله كورنثا التى أوغرت صدرها حليفتها جزيرة ايجينا فاندلعت المعارك عام ٤٥٩ ق. م وتمكن الأسطول الأثينى القوى من هزيمة أساطيل ايجينا وكورنثا مجتمعين ونزل جنود الأسطول الاثينى وحاصروا جزيرة ايجينا . وحاولت كورنثا فتح جبهة أخرى لتخفيف الحصار على ايجينا فهاجمت مدينة ميجارا نفسها ولكن القائد الأثينى ميرونيديس

Myronides: رد هذا الهجوم عام ٤٥٨ ق. م وفى أثناء ذلك كانت أسبرطة تستعرض قوتها شمالا فى بيوتيا عند مدينة فوكيس وعندما تعرضت لهم قوة أثينية عند تاناجرا Tanagra عام ٤٥٧ ألحقوا بها خسائر فادحة ولكن الأسبرطيين انسحبوا بعد ذلك . أما الأثينيين فواصلوا تقدمهم شمالا وهزموا أهل اقليم بيوتيا قرب مدينة أينوفوتا Oenophyta عام ٤٥٧ ق. م بعد أن اخضعوا معظم هذا الأقليم وتلى ذلك استسلام جزيرة ايجينا عام ٤٥٦ ق. م .

بيريكليس يزيد من تحصين العاصمة :

أدرك بيريكليس أن الحرب ضد أسبرطة وحليفتها كورنثا آتية لا محالة ولذا استمر هذا القائد فى تحصين العاصمة وربط بينها وبين موانيها بيرايوس وفاليروم Phalerum وذلك ببناء أسوار على جانبى الطريق المؤدى اليها وتبلغ المساحة بين كل حائط ٤٠٠ ياردة على طول مسافة قدرها أربعة أميال والى جانب ذلك زاد بيريكليس من دعم الأسطول الأثينى لأنه كان ثروة اقتصادية وسلاحا دفاعيا وكلما قوى الأسطول الاثينى قوى مركز أثينا الاقتصادى والسياسى والعسكرى مما أدى الى زيادة حقد المدن البحرية عليها وخاصة كورنثا التى أدركت أن أثينا قد سلبتها سر قوتها وهو التوسع التجارى والبحرى والصناعى . وكانت كورنثا تتمنى لو تهزم أثينا وتزال من الوجود حتى تنفرد بالسيادة على بحر ايجه وغرب البحر المتوسط .

بيريكليس يتوسع شرقا فى بلاد اليونان :

عمل بيريكليس بطاقة ديناميكية وسياسية شديدة Machtpolitik من أجل تحقيق امبراطورية برية تتماشى مع الامبراطورية البحرية ولكن الأثينيين أدركوا أنهم قد توسعوا برا أكثر من اللازم على حساب قوتهم البحرية وذلك بعد تجربة حملتهم لتحرير مصر من الفرس كعمل عسكرى ضد

لامبراطورية الفارسية ومن أجل استعادة مصالحهم التجارية القديمة (١) مع المصريين ، وكان بداية تدخلهم فى مصر عندما ثار أحـد ملوك مصر الليبيين واسمه أيناروس Inarus • على الحكم الفارسى فى مصر وطلب العون العسكرى من الأثينيين وبالفعل أرسل الأثينيون قوة بحرية نجحت فى بداية الأمر ولكنها انتهت بالفشل بعد تحطيم سفنها بل وقضى عليها تماما (٢) • عام ٤٥٤ ق• م • وعلى أثر ذلك توقفت أثينا عن سياسة التوسع شرقا فى بلاد اليونان وعملت على استعادة مركزها فى شرق البحر الأبيض المتوسط • وتعبيرا عن رغبتها فى المسالمة مع أسبرطة أعاد الأثينيون كيمون من المنفى حيث عقد معاهدة سلام لمدة خمس سنوات مع الأسبرطيين وتلى ذلك معاهدة سلام بين أسبرطة وأرجوس لمدة ثلاثين عاما • ولكن كيمون لم يعش طويلا اذ أرسل على رأس قوة بحريةطويلة لطرد الفرس من قبرص عام ٤٥٠ ق• م • وتمكنت القـوة من تحقيق انتصارات بمساعدة الثوار من أهل قبرص • ولكن كيمون سقط قتيلا أثناء حصار مدينة كيتيوم Citium • وتحت تهديد الأسطول الأثينى وخطر الاضطرابات الداخلية اضطر ملك الفرس هو الآخر الى عقد معاهدة مع الأثينيين عام ٤٤٩/٤٤٨ ق• م • وبمقتضاها أعلن الفرس اعترافهم بسيطرة أثينا على بحر ايجه ووعدوا بعدم التدخل فى هذه المنطقة مقابل أن تتوقف أثينا عن مضايقة الفرس أو التحرش (٣) بهم أو ممتلكاتهم ، وانسحبت القوات الأثينية من قبرص وشرق البحر الأبيض المتوسط ، ويعرف هذا السلام بسلام كالياس Calias (٤) •

---

(١) خاصة تجارة القمح الذى كانت تنتجه مصر بوفرة وتصدره الى اثينا مباشرة او عن طريق المدن التجارية الايونية نظير معدن الفضة الذى كان نادر الوجود فى مصر •

(٢) عن تفاصيل هذه الحملة وخسائرها الفادحة انظر :

J.B. Bury : History of Greece, pp. 354-358. also cf. E. Luppino : l'intervento ateniese in Egitto nelle tragedie eschilee Aegyptus, XLVII, 1967 (1969) p. 197-212. also cf. J.M. Libourel," «The Athenians» disaster in Egypt, A.J. Phil X CII (1971).

(3) Samuel. K. Eddy," The Cold war between Athens and Persia CA 448-412 BC., Classical Philology, LXIII, 4 (1973), p. 241-258.

(4) cf. S.K. Eddy," On the Peace of Calias, Class philology LXV 1970, p. 8-14, also cf. C.L. Maurison," The Peace of Calias : its historical Contexts Phoenix, XXV, 1971, p. 12-31.

أثينا تقبل سلاما لمدة ثلاثين عاما مع اسبرطة :

أحسن الأثينيون صنعا بعقدهم السلام مع الفرس لأن الخطر بدأ يهدد وجودهم ولأن ممتلكاتهم التي حصلوا عليها بسرعة بدأت تنفصل عنها نتيجة لحركات التمرد ونتيجة لنشاط أسبرطة المعادي فمثلا في عام ٤٤٧ حدثت حركة تمرد في بيوتيا هزم على أثرها الأثينيون واستعادت مدينة طيبة سيطرتها على اقليمها ، وفي نفس الوقت ثارت جزيرة يوبويا وكذلك مدينة ميجارا وأعلنت استقلالهما . وحاق الخطر عندما توغل جيش بيلوبونيزي شرقا في أراضي أتيكا تحت قيادة الملك بليستوناكس Pleistonax ووصل الى أسوار مدينة أثينا ويقال أن بيريكليس اشترى ذمة هذا الملك بدفع رشوة كبيرة له مقابل عقد معاهدة سلام صورية معه حتى يتفرغ لتأديب جزيرة يوبويا الثائرة ويعيدها الى حظيرة الامبراطورية الاثينية . وتضمنت هذه المعاهدة تنازلات من جانب أثينا فاعترفت بالوجود وبالسيادة الاسبرطية وكذلك سيادة حلفائها (١) بعد أن تنازلت أثينا عن كافة ممتلكاتها خارج أراضيها فيما عدا جزيرة ايجينا وناوباكتوس وقبلت أثينا وأسبرطة وحلفائهم السلام لمدة ثلاثين عاما ابتداء من عام ٤٤٥ ق. م .

من الواضح أن هذه المعاهدة لم تكن سلاما بل كانت هدنة لكى يستجمع كل طرف قواه ولم يكن من المعقول أن ترضخ أثينا بهذه السهولة وهي في أوج عظمتها وفي قمة مجدها ومواطنوها مدركون للدور العظيم الذى يجب أن تلعبه بلادهم في لحظه غرور (Selbsbewusstsein) . لقد كانت أثينا وأسبرطة تستعدان لحرب طويلة وشاملة اندلعت عام ٤٣١ وظلت حتى عام ٤٠٤ هزمت فيها أثينا وأنهارت بعدها امبراطوريتها . وقبل أن نسترسل في تفاصيل هذه الحرب البيلوبونيزية لنتوقف ولنلق نظرة شاملة على الحياة والثقافة في أثينا في القرن الخامس أو مايعرف بالحضارة الكلاسيكية في عصر بيريكليس .

---

(١) وعن توسع أثينا في شرق بلاد اليونان انظر :

(1) R.J. Buck," The Athenian domination of Boeotia Class. Phil. LXV (1970). p. 217-227.

الفصل الحادي عشر

أثينا في عصر بيريكليس

برز بيريكليس كرجل الدولة الأثينية الأول خاصة في الفترة التي ساد فيها السلام ما بين ٤٤٥ - ٤٣١ ق٠ م ، وكان بيريكليس ينحدر من أسرة ثرية توارث أعضاؤها العمل بالسياسة ، فأبوه كسانتبوس الرجل الذي تسبب في نفي ملتياديس ، وكانت أمه ابنة شقيق كليستنيس Cleisthenes واضع أساس الحكم الديموقراطي ، والذي كان ينحدر من أسرة آل الكمايون النبلاء ٠ وكان بيريكليس قد تلقى تعليمه لكي يصبح فيلسوفا ولكنه أجاد فن الخطابةحتى أصبح من أشهر خطباء عصره فيالالقاء والبلاغة اذ كان حلو الحديث قوى التأثير ٠ كانت سياسة بيريكليس سياسة استعمارية مكشوفة تهدف الى جعل أثينا صاحبة السيادة على كافة أجزاء امبراطوريتها هذا من الناحية السياسية أما من الناحية الحضارية فقد بذل بيريكليس جل جهده لجعلها « جامعة بلاد اليونان » ومنارا للثقافة والفنون الاغريقية (١) ٠

وأصبح عصره هو قمة الحضارة الاغريقية في العصر الكلاسيكي (Hochklassik) ، وعلى أفكاره قامت فكرة الديموقراطية بمفهوم حسي جديد وهو تحويل مجتمع المواطنين الى مجتمع راق ثقافيا وسياسيا (Elite-Volk) وكما يرى بعض المؤرخين الألمان فان هذا التفكير الراديكالي الراقي Elite radikale Gedanke هو الذي حقق على يديه

(1) Fitz Schachermeyer, ; Perikles, Stuttgart, Kohlhammer 1969 (= R.H., 505 1973, p. 175-181 by Edouard Will).



بيريكليس

ذلك الازدهار الحضارى فى أثينا ، ويجب ألا نغفل فضل معلمه السياسى ايفيالتيس Ephialtes والذى خطط لهـذه السياسـة ولكنه لم يعش لكى ينفذها فنفذها بيريكليس العظيم ، حينا بروح التسامح المتساهل وحينا بروح الوطنية الغيورة المتطرفة (Staatfanatismus)

لكن يجب أن ندرك أن سـياسة رفـع مستوى الشعب الأثينى فى الحضارة والسياسة والاقتصاد كان يقابلها تحويل حلفاء أثينا الى ضعاف متخلفين حتى يظهرون أقل مرتبة من الأثينيين وبالتالى يتحولون الى خدم لهذا الشعب الراقى (١) . ومن أجل القضـاء على الفقر فى أثينا انتزع أراضى الحلفاء وهجر اليها الفقراء الأثينيين ووزع الأراضى الزراعيةعليهم .

ولما أدرك بيريكليس أنه لا يمكن فرض القوة السياسـية لأثينا فى نفس الوقت الذى يرفع فيه الثقافة والوعى ويحارب فيه الفقر وأن الحرب على جبهتين لا يمكن أن تحقق خلق المجتمع الراقى بدأ يتجه الى سياسة السلام والمسالمة خاصة أنه كان يدرك أنه يمكن تحقيق السيادة الأثينية ليس عن طريق السلاح ولكن عن طريق النهوض بالآداب والفنـون والعظمة المعنوية أو ما يعـرفه الألمـان بسياسـة النفوذ الحضـارى Kulturpolitik كبديل عن سياسة التوسع العسكرى (٢) .

لقد تأثر بيريكليس بروح الفلاسفة الطبعيين والفيزيائيـين الذين عاشوا ابان القرن السـادس والخـامس _ أمثـال بروتاجـوراس وأناكساجوراس من أجل القيام بحركته التى تغير مفهوم سيادة دويلة المدينة السياسى الى مفهوم جمالى وفكرى يحقق الاحساس بالوجود والتفوق لدى المواطن تجاه الدولة Staatsgesittung أو كما يقول ادوارد فيـل (٤)
(transfiguartion spirtuelle et esthetique de la puissance de la polis).

لكن فئة قليلة من المثقفين الاثينيين هى التى فهمت رسـالة هـذا الزعيم عن اقتناع أما الغالبيـة العظمى من الشعب الأثينى فقـد وافقته

(1) R.H. loc. cit., p. 176.
(2) op. cit. p. 47.
(3) op. cit. 142.
(4) R.H., 505, 1973, p. 176.

بسبب قوة شخصيته وانعزلوا عن التجارب معه من أجل الهدف الاسمى لسياسته وشغلوا أنفسهم بأحــلام الثراء والاستعــلاء فتحــولوا الى مواطنين ضيقي الأفق قصيري النظرة (Spiesburger) وعلى أيدى هؤلاء برزت المعارضة لهذا القائد عندما تقدم به السن عندما اتهموا صديقه فيدياس بتبديد أموال الشعب فى مشروع معبد البارثينون وبأنه تجرأ ورسم نفسه على درع تمثال أثينا فى هذا المعبد ولما أدرك بيريكليس فشــل سياسته الحضارية عاد الى سياسة الحرب بهدف انقاذ الروح الوطنيــة من التسيب ، وعلى ذلك يدافع البعض عن حروبه بأنها حرب من أجــل الأحياء القومى guerre regeneratrice • وبناء شخصيــة المواطن وليس حربا بهدف شغل الجبهة الداخلية عن مشــاكلها • ولكن هــذا الرأى يتعارض مع رأى ثوكوديديس فى مسئولية بيريكليس كصاحب فكرة التوسع الاستعمارى والتى دعى الى التمسك بها لأنها مصدر القوة أما الفكرة الحديثة فهى ليست سوى وجهة نظر شخصية(١) • كما أن بيريكليس لم يهمل سياسة التفوق الاقتصادى لأثينا أبداً ومن أجل ذلك دخــل فى تنــاحر تجارى مع كورنثا (Konkurenskamf). •

نعم لقد كان بيريكليس قائدا نابغا ولكنه لم يسبق عصره بل كان نتاج ظروف ازدهار فكرى وثقافى Geistige Umwell ومن ثم لم يكن الرجل النادر أو رجل العناية الآلهية وهبة السماء homme providentiel بل لا يمكن فصله عن الواقع الذى برز منه الذى تأثر به وأثر فيه ومنه خلق ايديولوجيتــه من أجــل بداية الطريق نحــو الدولة الجــديدة • der weg zum neuen staat • ان دراسة شخصية بيريكليس لا يمكن فهمها بدون المناخ الفكرى العام فى أثينا ابان القرن الخامس ، كما أنه من الصعب تذوق هذا الفكرة دون تفهم شخصية هذا القائد والزعيم وباختصار يمكن أن نقول أن عظمــة أثينا مرتبطة بعقليــة مواطنيهــا ، ومرتبطة بأفــكار وايديولوجيــة بيريكليس ، وبسياسة فرض النفــوذ البحرى والتجارى والتفوق الحضارى ، وبحركة التعمير والبنــاء فى المعابد ونبوغ الفن على أيدى ميرون وفيــدياس وبوليكليتــوس وفى

(1) R.H., loc. cit p. 176.

تراجيديات سوفوكليس ويوريبيديس وفى كتابات هيرودوت وثوكوديديس وفى تفكير الفلاسفة العلميين من أمثال بروتاجوراس وأناكساجوراس ، وفى عقلانية الفكر السوفسطائى ، وفى الاحساس بالتقوى بمناجاة الآلهة والاتجاه نحو تفسير نبوءاتها حسب مصلحة الدولة السياسية . ومن ثم كان لزاما علينا أن نتوقف لنلقى نظرة شاملة على المناخ الحضارى والفكرى فى أثينا ابان القرن الخامس ق.م .

اولا : الادارة والحكم الداخلى :

لقد وصلت الديموقراطية الى أقصى درجة وصلت اليها فى اليونان أبان عصر هذا الزعيم وخاصة فى النصف الأخير من القرن الخامس ق.م لأنه زاد من سلطات الجمعية الشعبية ecclesia وحدد من نفوذ قدماء السياسيين والحكام السابقين وأصبحت الجمعية الشعبية هى التى تشرف وتناقش وتصوت على كل ما يخص الدفاع والنظم المالية والسياسة الخارجية والتموين والغلال والدين والشعائر الخاصة به واعلان الحرب وتحقيق السلم . وأصبحت الجمعية الشعبية تجتمع أربعين مرة فى العام (أى مرة كل تسعة أيام) وهو جوهر النظام الديموقراطى الأثينى لأنه عضويتها كانت من حق أى مواطن بالغ . وأصبح هو الجهاز الذى يرسم السياسة الخارجية للدولة ويشرف على ماليتها ويعين حكامها ويحاسبهم عند انتهاء خدمتهم . أما مجلس الشورى Boule فكان يختص بتحضير اللوائح التشريعية للجمعية العامة ، ويجتمع عشر أعضائه شهرا فى كل سنة كمجلس دائم وذلك فى مقر الرئاسة (prytaneia) لادارة أعمال الدولة .

لقد دعم بيريكليس حرية القضاء وحق المواطن فى الاستئناف ونقض الأحكام الصادرة ضده بشرط أن يعاقب اذا ثبت بطلان نقضه . وهكذا لعب مجلس الخمسماية دورا أكثر ايجابية مما كان عليه فى عهد كليسثينيس وأصبحت وظيفة الأراخنة مجردة من السلطة التى

تجمعت فى مجلس القـادة Strategoi (١) والذى كانت القبـائل تنتخب أعضاءه كل عام (٢) .

أما عن القضاء والمحاكم فقد أدخل نظام الأجور لكل مواطن يعمل محلفا فى الجلسات وتظهر حرية الدفاع من المناقشات والشتائم والاتهامات التى كانت تتبادل أثناء المحاكمات والتى صـورها لنـا شـاعر المسرح الكوميدى الأول أرسطوفانيس Aristophanes فى روايتـه الزنابـير Wasps . وغيرها من روايات المسرح السياسى الذى تعرض لحيـاة السياسيين بالنقد والتقريع (٣) .

ونستطيع أن نقول أن نظام الحكم الذى كان سـائدا فى أثينا كان ديموقراطيا الى درجة كبيرة اذا ما قارناه ينظم الحكم الأخـرى والتى كانت سائدة فى بلاد اليونان وفى خارج بلاد اليونان وبالرغم من أن ما يقرب من نصف المواطنين كانوا محرومين من حقوق المواطنة وبالتـالى من حق الاقتراع ويشمل ذلك النساء والعبيد والصناع الأجانب (٤) . أما البقية فقد أحست بأنها تمتلك الدولة وتسير أمورها .

---

(١) عن مجلس الجنرالات العشرة انظر :

Ch. Fornara," The Athenian board of generals from 501-404 [Hist. Einzelschr. 16] Wiesbaden 1971.

الذى يرى انه اسس عام ٥١٠ ق. م ليحل محـل مجلس رؤسـاء القبائل (Phylarchoi) الذى كانت عضويته بالوراثة وليس بالانتخاب . اما عن تطوره الى مجلس الجنرالات فربما تبلور فى شكل مجلس القادة الذين واجهوا غزوة الفرس انظر :

P. Bicknell," The Command Structure and the generals of Marathon's Campaign, Acta Classica, XXXIX, 1970, p. 427-442 ; also cf. B. Jordan," A note on the Athenian Strategeia, T.A.P.A., CI., 1970.

(٢) عن نظام انتخاب هذا المجلس . انظر :

B. D. Meritt," The election of the Athenian generals, Klio, LIII (1970) p. 277-282.

(٣) cf. V. Ehrenberg," The Peoples of Aristophanes, New York 1962.

وقد وصف شاشر ماير تهـكم ارسطوفانيس على الوضع السياسى بأنه صـادر من أوليجارخى ضيق الافق .

«engstirniger Oligarch !» cf. Schacher meyer, op. cit p. 182.

(٤) عن نظام الاقتراع انظر :

J.D. Mosley," Voting procedure and the elections of Athenion envovs, wiener Studien N.F. VI, 1972. p. 140-144 ; also E.S. Staveley" Greek and Roman Voting and elections, London 1972.

ثانيا : الحالة الاقتصادية :

كانت أثينا فى حالة رواج منقطع النظير ورخاء لم تشهده البلاد من قبل (١) • وكان من أهم مصادر الدخل ضريبة الحلف الديلى والتى حددت أصلا بـ ٤٦٠ تالنا (حوالى أحد عشر ألفا وربعمائة جنيه استرلينى) ثم زيدت بعد اضافة خلفاء جدد الى ٦٠٠ تالنت (حوالى ١٤٤ ألف جنيه استرلينى) وكان هذا الدخل يعادل ثلاث أخماس الدخل العام للدولة الأثينية الذى يبلغ ألف تالنت (حوالى ٣٤٠ ألف جنيه استرلينى) وفى عصر بيريكليس انفق هذا المبلغ الضخم على تجميل العاصمة وتزيينها لكى تبدو جديرة بمكان الصدارة وكعاصمة فعليه لامبراطورية توحد شمل الاغريق •

أما الخمسان الآخران من الدخل العام فكانا يجبيان من الضرائب المفروضة على الصادرات والواردات ومن ريع أراضى الدولة ومن ضريبة العمل المفروضة على الصناع والحرفيين metikoi • وكذلك من دخل المحاكم العامة نظير البت فى الدعاوى ومن الغرامات والالزامات التى كانت تفرضها الدولة على الأغنياء Liturgies وفى حالات الخطر والحروب كانت الدولة تفرض ضريبة اضافية على كل المواطنين •

ومن مظاهر مجتمع الترف الأثينى أن الدولة كانت تستورد أكثر مما تصدر ، من أهم الواردات القمح ومن أهم صادراتها زيت الزيتون والأوانى الفخارية المزينة بالرسوم والرخام والأسلحة وبعض المصنوعات المعدنية •

ويمكن أن نقول أن حضارة أثينا كانت الى حد كبير زراعية لأن فلاحة الأراضى كانت من أهم الحرف بالرغم من أن الدولة شهدت نهضة فى الصناعات اليدوية الفنية على أيدى الحرفيين الأجانب وعلى

---

(١) انظر عبد المحسن الخشاب (مترجم) : الحياة العامة اليونانية السياسة والاقتصاد فى اثينا فى القرن الخامس ، لجنة البيان العربى — الالف كتاب (٤٦) القاهرة ١٩٥٨ ص ٤٩١ وما بعدها .

أيدى العبيد المهرة لأن المواطن الأثينى كان يرفض أن يعمل لحساب شخص آخر بل كان يعمل لنفسه أو لحساب الدولة فقط (١) .

وبفضل قوة الأسطول الأثينى الذى اتجه الى التجارة أيام السلام ازدهرت التجارة الخارجية كما أمن الطرق المائية وأعالى البحار وجعلها مفتوحة ومؤمنة للسفن الاغريقية التى راجت تجوب البحار محملة بالبضائع من شرق البحر الأبيض المتوسط حتى سردينيا غرباً . بازدهار التجارة وثبات الحكم وبازدياد النفوذ الأثينى تمتعت العملة الأثينية باحترام كبير وقبلت كوحدة للتعامل الدولى (٢) . وتتيجة لذلك فقد نشأت طبقة رجال المال والأعمال وذوى رؤوس الأموال والذين أصبحت مصالحهم عاملا حيويا فى الاقتصاد داخل أثينا وفى المدن الاغريقية الأخرى الموالية لها وهذه الطبقة هى التى حثت الدولة على التوسع وفرض الانضمام الى الامبراطورية الاثينية بالقوة على المدن والجزر الاغريقية (٣) .

ثالثا : مظاهر الحياة الاجتماعية :

يتضح من الدراسات والاستنتاجات التاريخية أن تعداد أتيكا العام فى عصر الامبراطورية بلغ ما يقرب من ٣٠٠٠٠٠ نسمة منهم ٥٠ ٪ مواطنون ، ١٥٪ صناع أجانب (metikoi) و٣٥٪ كانوا عبيدا . وجدير

(1) S.C. Humphreys : Economy and Society in Classical Athens, Annali della Scuola Normale Superiore di Pisa Ser 2 XXXIX, 1970, p. 1-26.

وفيه يقارن بين الأيديولوجية الديموقراطية والواقع الاقتصادي لتحديد الوضع للمواطن الاثينى وأن العوائق الاقتصادية خلقت فجوة بين النظريات المثالية والواقع اذ تمتعت الطبقات الدنيا بالديموقراطية لكن بقيت معدمة ، وبقى الأغنياء يتحكمون لأنهم كانوا يملكون .

(٢) عثر على بعض من هذه العملة فى مدن مصر مثل ممفيس ونقراطيس وتانيس وتل دفنه وسايس وهى المناطق التى تدفق اليها الاغريق قبل الفتح المقدونى لمصر .

Cf. J.G. Milne : Trade between Greece and Egypt before the time of Alexander, J.E.A., XXV, (1939) pp. 177-183.

(3) J.K., Davies ; Athenian Propertied Families 600-300 B.C., Oxford The Clarendon Press, 1971, p. 20 ff.

بالذكر أن معظم الحرفيين الأجانب كانوا يسكنون أثينا وخاصة حى كيراميكوس Keraxeikes بالقرب من بوابتها الشرقية ويكاد أن نقول آن ٣٣٪ من التعداد العام لسكان أتيكا كانوا من الحرفيين الأجانب . أما العبيد فقد كانوا عنصرا هاما فى الحياة الأثينية أشبه بالآلة فى المجتمعات الحديثة ولكن يمكن أن نقول أن تعداد العبيد فى أثينا كانوا أقل بكثير من تعدادهم فى المدن الاثينية الأخرى .

أما عن مستوى الحياة فى العاصمة فان الآثار تظهره بسيطا ومتواضعاً لأن الناس كانوا متواضعين وبسطاء فى ثيابهم وفى طعامهم وفى أثاث منازلهم التى كانت تبنى من الطوب اللبن . حتى الأغنياء كانوا أيضاً بسطاء فى حياتهم وفى سلوكهم ولكن بالرغم من هذا أحب هذا الشعب المناسبات العامة والأعياد حيث يجد فيها التسلية والرياضة ومباريات الشعر والأدب وبلاغة الخطباء ولذا فان الأعياد والمهرجانات الدينية كانت كثيرة أهمها الديونيسيا (أعياد رب الخمر) والباناثينيا (أعياد تغيير ثياب الربة أثينا) الى جانب المهرجانات الأولمبية الأربعة والتى كان يشترك فيها الاغريق فى أوليمبيا ودلفى ونيميا واسثميا (Isthmian) ولهذه الأعياد يرجع الفضل فى تطور ونضوج الحضارة والفكر الاغريقى ولم تدخر الدولة وسعا ولا مالا فى الانفاق ببذخ على هذه المهرجانات واحتضان الشعراء والخطباء والفنانين والرياضيين نجوم هذه المناسبات العامة .

وكان المجتمع الأثينى مجتمع الرجل لأن المرأة الأثينية — بعكس زميلتها الأسبرطية — عاشت وراء الجدران مثل نساء المجتمعات الشرقية وكن — فى نظر القانون الاثينى — غير مواطنات بل قاطنات astai . بالرغم من هذا فقد لمعت أسماء بعض السيدات فى التاريخ الاثينى مثل أسباسيا Aspasia عشيقة بيريكليس العظيم ومصدر الهامه وتفكيره .

كان الاثينيون يقدسون العلم والمعرفة ويرسلون أولادهم فيما بين السادسة وحتى الرابعة عشرة ليتلقون تعليمهم عند معلم محترف لأن الدولة لم تكن تنفق على التعليم . وفى دور « التعليم الخاصة » كان

الصبية يتعلمون القراءة والكتابة وأصول الحساب والموسيقى وقرض الشعر وبحوره • وكانت الرياضة البدنية من أساس التعليم حيث يدرب الأطفال رياضي محترف أيضاً • ويشمل التعليم أيضاً التمرن على أصول المعاملة والبيع والشراء لمن يرغبون فى اتخاذ التجارة حرفة لهم (١) •

أما أغنياء الاثينيين فكانوا يرسلون أبناءهم ليتعلموا عند الأساتذة السوفسطائيين (Sophists) (٢) الذين كونو طبقة ذاع سيطها ابان حكم بيريكليس وقدموا من جميع أصقاع العالم الهلليني وكما يتضح من اللفظ اللغوى فقد كانوا فلاسفة عمليين ومعلمين لها لأنهم أجادوا فن التعليم بل هم طلائع التربية والتعليم على أسس علمية فكانوا يحاضرون فى علم الفلك astronomy وعلم الأخلاق ethics وعلم قياس الأرض geometry والقانون والسياسة والبلاغة rhetorie وفن الشعر وكان الأساتذة السوفسطائيون يتجولون من مدينة لأخرى وهم يلقون دروسهم بهدف تعليم الانسان كيف ينجح فى شق طريقه فى الحياة ويحقق السعادة والراحة لنفسه وكانوا يتخصصون فى تدريب الشباب على فن السياسة (Politike Techne) ليصبحوا من الطبقة الراقية (agathoi) بصرف النظر عن أصولهم الاجتماعية (١) ومن أشهر السوفسطائيين بروتاجوراس Protagoras الذى أعلن أنه يعلم الفضيلة وهو الذى وضع أسس النظريات السياسية والاجتماعية وكذلك جورجياس

---

(١) عن علاقة الآباء بالابناء انظر :

(1) S.C. Humphreys : Economy and Society in Classical Athens, Annali della l'epoque Classique, A.C., Xρ, 1971, p. 589-606.

(٢) انظر : فتحية سليمان : التربية فى المجتمعين اليونانى والرومانى كلية البنات جامعة عين شمس ١٩٥٨ ، ص ٤٨ والكلمة معناها معلموا الحكمة .

(٣) ولهذا يرى الاستاذ أدكنز أنهم ساعدوا على تعميق الممارسة الديموقراطية واذابة الفوارق الطبقية بين الفقراء (Kakoi) وأبناء الطبقة الراقية (Kaloi Kaga:hoi) برفع مستوى الطبقة الأولى ثقافيا الى مستوى الطبقة الاخيرة انظر :

A.H.W. Adkins : Democracy and The Sophists, London 1972 (Reviewed in JHS, rae XCIII (1973) p. 3-12.

Georgias الذى عكف على تعليم البلاغة والخطابة وقوة التأثير فى الجماهير وهى الأسس الأولى والسلاح الأول لكل من يريد العمل فى السياسة . وكان من بين الدارسين فريق ممن كانوا يريدون تدريباً أرقى وارفع لكى يزيدوا من قدراتهم ، فمثلا عرف عن السوفسطائى هيبياس Hippias أنه كان يحاضر فى كيفية تحقيق القدرة على التذكر (mnemonics) ووصف نفسه بأن أستاذ كل فن كما حاضر فى الرياضة والفلك وفى التقويم وعلم الأصوات ودراسة الايقاع وفى النحت والتصوير والموسيقى والحرف وقد روى أن ظهر فى الألعاب الأولمبية يرتدى ملابس كلها من صنعه .

هكذا لم ينادى السوفسطائيون بفلسفة معينة ولم يتقيدوا بنظرية محددة بل كانوا عمليين متنوعين محترفين والنواة الأولى للجامعات ولكنهم كانوا سطحيين ويمكن القول بأن جوهر التعليم السوفسطائى كان تحقيق القدرة على الجدل عن طريق الاقناع ولو كان ذلك على حساب الحقيقة . وأساس جدلهم هو الشك فى كل شيء موجود ، كبداية للتفكير السليم ولكنهم فى نفس الوقت سلموا بتقاليد المجتمعات العقائدية أو الأخلاقية ولم يحاولوا التشكيك فيها . وبالرغم من هذا هاجمهم أفلاطون ووصفهم بأنهم تجار لبضائع ليست من صنعهم لكن الذى لا شك فيه كان بعضهم موهوبا وأحدثوا ثورة فى التعليم القديم (١) .

الفنون والآداب والفلسفة والعلوم :

(أ) الفنون والعمار :

بدأ الأثينيون بعد طرد الفرس فى اعادة بناء مدينتهم التى دمر الفرس معظم معالمها . وفى عصر بيريكليس اشتد هذا الاتجاه بل ودعى هذا القائد أشهر مهندسى المعمار وهو هيبوداموس Hippodamus من موطنه ميليتوس Miletus ليشرف على تخطيط المدينة من جديد . وقد خطط هذا المهندس شوارع المدينة الواسعة وميادينها المربعة ومسرحها وموانيها وقد استخدم القائد الأثينى ميزانية الحلف الديلى لهذا الغرض .

(١) من الكتب الجيدة عن السوفسطائيين ، انظر :

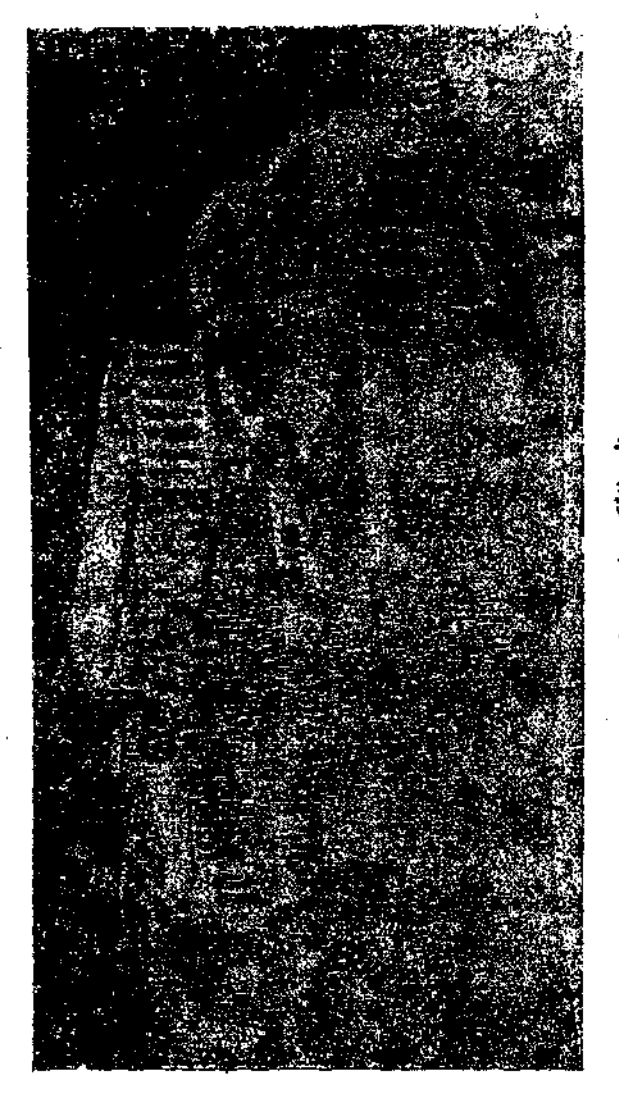
M. Untersteiner The Sophists (translated by K. Freeman) Oxford 1954., K. R. Popper, The Open Society and its Enemies, London 1945.

E.A. Havelock, The liberal Temper in Greek Politics, London 1957.

كان تل الاكروبول ــ قلب أثينا ــ الدينى والتاريخى والسياسى محط عناية خاصة من بيريكليس خاصة لأن الفرس كانوا قد دمروا المعابد والتماثيل التى كانت مقامة فوقه . والاكروبول عبارة عن صخرة بيضاوية الشكل يبلغ قطرها ٢٧٥ مترا طولا وعرضها ١٥٥٫٤ مترا وترتفع عن سطح السهل الذى يبلغ فيه المدينة بحوالى ٣٠٠ قدما .

والصخرة ذات سفوح وعرة أو منحدرة انحدارا شديدا مما يجعل الصعود اليها صعبا الا من الناحية الغربية حيث يبدو السفح شبه متدرج فى الانحدار وعلى مقربة من الاكروبول تقف صخرة مرتفعة تعرف بتل آريس حيث كانت تجتمع محكمة الأريوباجوس ويلقى منها بالذين يحكم عليهم بالموت وعلى مقربة من صخرة الاريوباجوس تقف صخرة الحوريات Nymphs وصخرة ربات الشعر والأدب والموسيقى والفنون ــ التسع Musae.

وكما رأينا أن الأثريين وجدوا فوق الأكروبول ملامح حضارية وأبنية واستحكامات دفاعية شبيهة بتلك التى عثر عليها فى مدن الحضارة الموكينية وخاصة الاسوار الضخمة التى أطلق عليها أسوار الككلوبس Cyclopean Walls والتى كانت تحيط به فتجعله قلعة محصنة كقلاع موكيناى وبيلوس وتيرنس . وقد قام بيريكليس ببناء حائط فى أقصى المنحدر الجنوبى لتلك الصخرة ثم قام بردمها لكى يوسع من المساحة المسطحة فى أعلى الأكروبول ثم أحاطه بالأسوار فيما عدا الجانب الغربى. وفى الفجوة المطلة على هذا الجانب ألقى ببقايا الابنية القديمة وبحطام التماثيل التى حطمها الفرس عند احتلالهم لأثينا ثم غطيت بالتراب تلك هى الفجوة المعروفة باسم The debris of the Acropolis وقد توصل علماء الآثار الى هذا المكان وأزاحوا التراب عن آثاره وخرجت مجموعات التماثيل الرخامية لسيدات أطلق عليهن علماء الآثار اسم Korai أى «السيدات». ويدهش المشاهد لهن لقدرة الفنان فى العناية بأناقتهن كما يرتسم على شفاه بعضهن ابتسامة شاحبة حتى أن أحد العلماء الفرنسيين لم يتمالك نفسه وهو يتفحص تلك التماثيل الموجودة الآن فى متحف الاكربول وصاح مداعبا « أنها مثل خالتى » (Ha ! C'est ma tante !).



منظر للاكربول ومعابده

ومن أهم المنشآت من ناحية النحت والعمارة معبد « البارثينون » (١) أو معبد « الربه العذراء » أى أثينا ، لقد أقيم هذا المعبد مكان المعبد الخشبى القديم والذى كان مقاما أيضا للربة أثينا حامية العاصمة (٢) . وبالرغم مما لاقاه هذا البناء العظيم ـ درة الحضارة والعمارة الاغريقية ـ الا أن ما تبقى منه وما نقله الانجليز الى المتحف البريطانى بلندن قادر على أن يعطينا صورة لما كان عليه؛ والبارثينون عبارة عن قاعدة مستطيلة (Cella) مقسمة الى حجرتين واحدة كبرى تشغل حوالى ثلثى مساحة المستطيل والأخرى تحتل الثلث الباقى منه، وجعل الأثينيون الحجرة الكبرى لقدس الأقداس Shrine حيث كان يوجد فيها تمثال أثينا العظيم والذى صنعه فيدياس خصيصا واستجابة لرغبة من صديقه بريكليس ـ من الذهب والعاج Chryselephantine ووضع فى المعبد عام ٤٢٧ ق.م أى بعد عشر سنوات من بدء العمل فى بناء المعابد وقد فقد هذا التمثال أيام الضيق الاقتصادى نتيجة للحروب المتعاقبة ابان القرن الرابع ق.م .

أما الحجرة الصغرى فقد جعلت خزانة Treasury وجعل لها بوابتان من صفائح النحاس المطروق . وحول الحجرات « أقيم رواق من أعمدة مزدوجة سبع عشر فى كل جانب طولى وثمان فى كل واجهة عرضية ويبلغ جميعها خمس وأربعين عمودا طول كل واحد منها أربع وثلاثين قدما . وفى أعلى الأعمدة الداخلية يجرى أفريز من الرخام يصور الاستعراض الرسمى لمهرجان الباناثينيا Panathencia والذى كان يقام ليلا وعلى ضوء المشاعل ويبدأ من المدينة الى أعلى الاكروبول من أجل تغيير كسوة تمثال قديم للربة مصنوع من الخشب . وفى الركن الشرقى من الافريز يظهر مجلس آلهة الأولمب مجتمعا يراقب هذه المسيرة كما يقف قضاة المدينة وسياسيوها لاستقبالها .وقد نقل هذا الأفريز بأكمله الى المتحف البريطانى وقد أعيد وضعه فى حجرة خاصة بنفس الترتيب الذى كانت عليه فى المعبد.

أما عن الواجهة الخارجية فكانت مصممة على الطراز الدورى أى أن الأفريز كان مقسما الى مربعات منحوتة Metopes ويفصل ما بين

(1) B. Ashmole : Architect and Sculptor in Classical, Greece Phaidon 1972
(2) I.T., Hill, The Ancient City of Athens, London 1953, Chapter XIV,



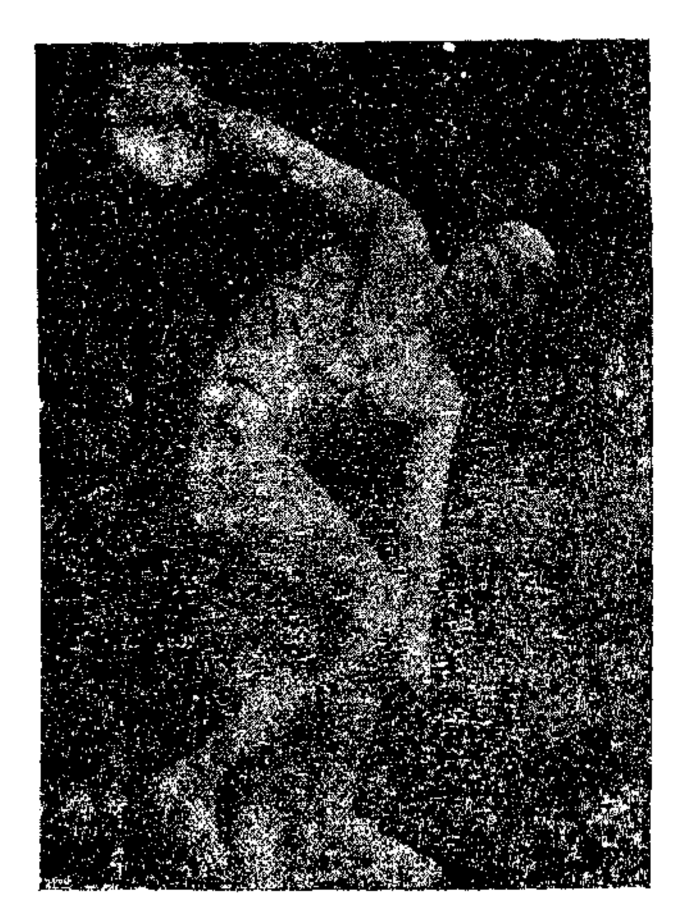
أحد اعمدة معبد الأرخثيون ممثلا فى شكل عذراء

كل مربع ثلاث فواصل طولية triglyphs ويبلغ عدد المربعات اثنتين وتسعين مربعا مساحة كل منها أربعة أقدام مربعة ولا يزال بعضها قائما فى مكانه ولكن معظمها نقل أيضا الى المتحف البريطانى (١)، وتصور هذه المربعات قصة الصراع بين أهل لابث Lapiths والقناطرة Kentauri والقناطرة مخلوقات أسطورية نصفها الأعلى بشرى ونصفها الأسفل فى شكل جواد ، وتروى الأساطير الأغريقية أن الملك بيرثوس Perinthous ملك اللابيثيين دعى القناطرة الى حفل زفافه ولكنهم أكثروا من الشراب وحاولوا خطف العروس بالقوة عندئذ هب الملك وقومه واشتبكوا فى صراع عنيف وحشى وانضم الآله أبوللون مع أهل لابث حتى طردوا القناطرة ، هذه الرواية الطريفة ترمز الى حقيقة الصراع بين الحضارة والبربرية وربما رمزت الى الصراع بين أثينا ولفرس الذين كانوا يعتبرون فى نظر الاغريق برابرة ، وفى أعلى البوابتين يوجد الواجهة المثلثة المعروفة باسم الفرنتونة Pediment ويبلغ مساحة كل واجهة ما يقرب من تسعين قدما طولا وأحد عشر قدما عرضا وثلاث أقدام عمقا ، وكانت هذه المساحة مملوءة بتماثيل منحوتة ومثبتة فى كل واجهة نقلت كلها الى المتحف البريطانى ، ويصور تماثيل الواجهة الشرقية قصة مولد أثينا من رأس أبيها زيوس بعد أن انهال هيفايستوس اله الحدادة على رأسه بفأسه ، أما الواجهة الغربية فتصور حادثة بناء المدينة عندما دخلت الربة أثينا فى صراع مع بوسيدون رب البحار وأتى بوسيدون بمعجزة اذ أنه ضرب الأرض فتفجر ماء البحر المالح ومعه أول حصان عرفه الأغريق ، أما أثينا فقد ضربت الأرض بحربتها المشهورة فخرجت أول شجرة زيتون ونظرا لأهمية هذا النبات فى الحضارة والحياة اليومية الاغريقية فقد نصبت أثينا ربة على العاصمة .

ومن أهم ردهات المتحف البريطانى قاعة لورد الجن Lord Elgin's Room حيث توجد آثار البارثينون ، وكان لورد الجن سفيرا لبريطانيا

(١) ويوجد واحد فقط منها معروض فى متحف اللوفر بباريس وآخر فى متحف أوليمبيا فى اليونان .

D.S. Robertson, A Hand book of Greek and Roman Architecture Cambridge 1943 p. 11. ff.



تمثال ميرون رامى القرص

فى اليونان ابان حكم الأتراك لها واستطاع أن يشترى من الحكومة التركية آثار (١) البارثنون ما بين أعوام ١٨٠٢ ـ ١٨٠٤ ونقلها الى آثينا ولا يزال اليونانيون يطالبون بعودة آثارهم اليهم لأن الذى لا يملك باع لمن لا يستحق آثارا غالية عليهم .

ويجىء على رأس النحاتين الذين قادوا هذا العمل الكبير الفنان فيدياس Pheidias (٥٠٠ ـ ٤٣٠ ق.م) والذى خلد اسمه عملان عظيمان أولهما تمثال أثينا العذراء Athena Parthenon وتمثال زيوس الأولمبى Olympian Zeus وكلاهما مصنوعان من الذهب والعاج ويعتبر الأخير من عجائب الدنيا السبع . ومن بين فنانى عصر بيريكليس أيضا ميرون Myron الذى صنع تمثال رامى القرص Discobolos والذى تزين صورته حتى الآن الشعارات الأولمبية والرياضية فى كثير من بلدان العالم كما عرف عصر بيريكليس الفنان بوليكليتوس Polycleitus والذى خلده لنا تمثاله الشهير حامل الحربة Doryphoros والذى كان تجسيدا كاملا لجسم الرياضى لأن هذا الفنان تخصص فى وضع الصورة الكاملة لكمال أجسام الرياضيين .

ولم يكن فن التصوير أقل كمالا من فن النحت فى هذا العصر اذ شهد أعظم الرسامين وهو بوليجنوتوس Polygnotos الذى ينسب اليه الصورة الكبرى التى كانت تزين بوابة أثينا Propylaea وأعمدتها والتى كانت تمثل قصة سقوط طروادة وعودة أبطال الاغريق . ولحسن الحظ أن الرحالة الاغريقى الشهير باوسانياس Pausanias شاهد بنفسه هذه الصورة وسجلها لنا عندما زار بلاد اليونان عام ١٦٠ ميلادية ومن الطبيعى أن تعصف الظروف الطبيعية والبشرية بهذه اللوحة الخالدة ولكن نستطيع أن نرى انعكاسات من التصوير على الأوانى الفخارية ، والتى كانت تطلى باللون الأحمر ثم يرسم عليه باللون الأسود black-figure

(١) وفى سنة ١٦٨٧ م بينما كان جيش امارة البندقية يحاصر الاتراك فى البارثينون الذى كان قد تحول على ايديهم الى مسجد واقيمت له منارة حدث يوم ٢٦ سبتمبر من ذلك العام ان اصابت قذيفة مخزن البارود فى البارثنون فانفجر ولا يزال منذ ذلك الوقت مهدما .



نموذج لاحدى الأوانى المصورة

أو يطلى الاناء باللون الأسود ثم يرسم عليه باللون الاحمر (Red-figure) وبالرغم من أن ألوانا أخرى قد استخدمت مثـل الأبيض والأصـفر والأرجوانى ولكن الأسود والأحمر بقيا من أهم الالوان المستخدمة فى الرسم على الاوانى الفخارية .

(ب) الآداب :

عاش فى هذه الفترة أيضا عدد كبير من الشعراء الغنائيين Lyricists فقدت أعمالهم ولم يتبق لنا منها سوى الترجمة اللاتينية التى خلفها لنا الرومان أو بعض شذرات باليونانية . ويجىء على رأس هؤلاء الشعراء الغنائيين بنداروس Pindar (٥٣٢ — ٤٤٣ ق. م) وهو من أهل طيبة وظم شعرا غنته الجوقات وخاصة فى مديح الأبطال العائدين من الألعاب الرياضية والأولمبية .

أما معظم الشعراء فقد اتجهوا نحو المسرح (١) لأن المسرحية تبلورت فى هذه الآونة من مجرد حوار بين جوقة ومنشد ورئيس الجوقة ، الى حوار بين شخصيات وصل عددها الى أربعة وأصبح هناك عقدة درامية وبداية وقمة ونهاية يظهر فيها الاله المنقذ deux ex machina هابطا من سقف المسرح ليضع نهاية ويحل العقدة وكانت المسرحيات تتجه عموما نحو التراجيديا اعتقادا بأنها تحقق الاشفاق والرهبة عند المواطن وهو ما عرفه أرسطو بأنها عملية التطهير Catharsis لأنها تطهر نفسية المواطن من كل الانفعالات المكبوتة وينصرف ويغمره السلام والعزاء وسكينة القلب كما اعتادوا أن يعرضوا أكثر من رواية مأسوية فى يوم واحد كلها تدور حول موضوع واحد أو فكرة متشابهة .

---

(١) انظر : عبد المحسن الخشاب : التياترو القديم ـ القاهرة ١٩٧١ وهو كتاب طريف يحاول مؤلفه تتبع جذور المسرح الاثينى وعـلاقة ذلك بالمسرحية المصرية القديمة ولكن الجزء الايجابى من كتابه هو الدراسة الاثرية للمسرح القديم . كذلك انظر الكتاب القيم

P. Videl — Naquet," Mythe et tragedie en Grece ancienne, Paris, Maspero 1972, P. 23 ff. also cf.

والمعروف أيضا أن فن « الفاجعة » أو المأساة وطد تفسه فى المسرح الاغريقى منذ ما قبل هجوم الفرس على بلاد الاغريق لـكن النشاط فى الحياة العامة ، والازدهار الثقافى الكبير وارتفاع مستوى الفرد الفكرى هو الذى أوجد الحافز الحقيقى لتقدم هذا الفن • وقد وهب المسرح الأثينى بثلاثة من الشعراء العظام كل واحد منهم يمثل مرحلة مختلفـة ويعكس مرحلة من مراحل الفكر الأثينى وهؤلاء الشعراء العظام هم :

١ — ايسخولوس Aeschylus ٥٢٤ — ٤٥٦ :

كان أيسخولوس أول الثلاثة ظهورا فى أثينا • وحارب فى ماراثون ضد الفرس كما أشرنا اليه خلال حديثنا عن هذه الحرب وكان محافظا شديد التدين وشديد التمسك بالتقاليد ، محبا للالفاظ القديمة والعتيقة فى اللغة • وكان ينسب كل حدث الى ارادة الاله التى شاءت للاثينيين أن يهزموا الفرس ونال المعتدون جزاءهم لأن عين زيوس لا تنام • وبعد حياة حافلة بالمناصب الشرفية فى أثينا وقضاء وقت فى قصر هيرون Hiero طاغية صقلية عاد لينافس عبقرية جديدة هى سوفوكليس وفى عام ٤٤٥ق•م اعتزل ايسخولوس وهاجر الى سيراكوزه محتجا على تورط الديموقراطية الغوغائية التى باتت تهدد التراث والنظم القديمة ومات فى مستوطنةجيلا بجزيرة صقلية فى حادث غامض حيث أقام أهل المدينة له ضريحا هناك • وقد نسب لايسخولوس تسعون رواية ولكن لا نعرف سوى أسمـاء اثنين وثمانين منها • أما ما وصل الينا كاملا فسبعة فقط أهمها «الفرس» والتى عرضت عام ٤٧٣ ق• م ويلعب الكورس الدور الاول فيها وتدور حول هزيمة كسيركسيس فى موقعة سلاميس • أما الثانية فهى « ثلاثية سبعة ضد طيبة » تتحدث عن أسطورة أوديب فى ثلاثة مسرحيات ، أما الثالثة فهىالمستجيرات وتدورحولهروب ملك مصر وبناته الخمسين الى أرجوس رفضا للزواج وهىجزء أخيرمن ثلاثية منأحدىمؤلفاته المبكرة ، أما الرابعة فهى بروميثيوس فى الأغلال وهى أيضا ثلاثية تروى شهيد الانسـانية الذى تمكن من خداع الالهه وسرقة النار لتوصيلها الى البشر فعرفوا أول طاقة من طاقات الطبيعة من أجل صنع الحضارة • ونال البطل جزاءه عندما ربطته الالهه فى صخرة وجعلت نسرا ينهش أحشاءه وكلما

نهش جزءا لما أخر عقابا له على تحديه وانتصاره فى الذكاء على الالهه وتنتهى الرواية بقدوم هيراكليس فى النهاية ليقتل النسر وينك وثاق بروميثيوس من الأغلال ولكى يوفق بين التقوى ازاء الاله ، وحب الانسانية جعل ايسخولوس بروميثيوس ابنا لربة العدالة وأنه سرق النار من براكين هيفايستوس رب الحدادة ليعين البشر المساكين فى الحيلة والتحدى وليرقى بهم الى مرتبة أعلى فى التقدم والمعرفة • ثم أعلن عن أصله بعد أن أنقذه هيراكليس البطل وعاد الى جبل الأولمب ليصبح عرافا فى مجمع الالهة •

أما الرواية السادسة فهى « حاملات القرابين » وهى تروى الأسيرات الطرواديات وهن يقدمن القرابين على روح أجاممنون ثم ينتقم أورستيس ابنه من أمه كلوتغنسترا وعشيقها ، وأخيرا مسرحية Euméindés الى تروى محاكمة أورستيس القاتل أمام محكمة الأريوباجوس حيث تساعده ربات الانتقام على اقناع المحكمة ببراءته • وهذه الرواية الأخيرة التى ألفت حوالى عام ٤٥٨ تعتبر أكثر الأعمال الفنية نضجا سواء فى فن بناء الرواية أو الأسلوب [١] •

٢ - سوفوكليس Sophoclés ٤٩٦ - ٤٠٦ ق.م :

يعتبر سوفوكليس تجسيدا للكمال والمثالية التى اكتملت فى عصر بيريكليس [٢] وهوشاعرمحافظ لكنه أكثر اعتدالا من ايسخولوس• ولد حوالى ٤٩٦ من أسرة ثرية تعمل فى صناعة الأسلحة والدروع باحدى ضواحى مدينة أثينا وتلقى تعليما راقيا وفى سن الخامسة عشرة قاد كورال الأطفال ليغنى أناشيد الانتصار فى سلاميس • ولهذا لعبت الموسيقى دورا كبيرا فى مسرحياته مثلا قدم رواية عن الموسيقار الأعمى تاموريس

---

(١) للمزيد عن المأساة اليونانية ودورها انظر : د . محمد صقر خفاجه : تاريخ الأدب اليونانى مكتبة دار النهضة العربية ١٩٥٦ ، نفس المؤلف مع د . عبد المعطى شعراوى : المأساة اليونانية ١٩٥٨ وأخيرا أنظر الدراسة المبسطة : د . ابراهيم سكر - الدراما الاغريقية - المكتبة الثقافية ١٩٦٩ .

(2) V. Ehrenberg ; Sophocles and Pericles. Oxford 1954. Passim.



سوفوكليس

حيث قام هو بالدور الأول وعزف فيه بمهارة على القيثارة ، كما لعب دور البطلة ناوسيكا فى مسرحية حملت نفس الاسم. وفى عام ٤٦٨ ق.م وفى السابعة والعشرين من عمره نجح فى الفوز على منافسه ايسخولوس الذى كان يكبره بثلاثين سنة وهزمه وتربع على عرش المسرح التراجيدى ويتميز سوفوكليس عن سابقه ، وعن خلفه يوريبيديس أنه رفض دعوات الملوك الآخرين لزيارتهم والاقامة عندهم للكتابة عن بلادهم وأنسابهم لأنه كان آثينيا غيورا لعب دورة فى السياسة ففى عام ٤٤٠ ق.م كان أحد القادة العشرة الذين ساعدوا بيريكليس فى غزو ساموس (١) . كما كان أحد كبار الضباط فى أثناء الحروب البيلوبونيزية وكان زميلا لنكياس . كما تولى عام ٤٣٥ وظيفة الرقيب المالى «Héllénotamias» للامبراطورية الاثينية . وعندما أثير عام ٤١٣ مسألة تولى الأوليجارخيين الحكم كان سوفوكليس أحد أعضاء اللجنة التى أوكل لها تقصى الحقيقة (٢) وكان عضوا فى مجلس الأربعماية فيما بعد . كان سوفوكليس محبوبا له أصدقاء كثيرون منهم هيرودوت المؤرخ وكان يعتبر نفسه محظوظا عند الآلهة لأن أسكيليبيوس عد أعطاه عمرا مديدا وعقلا شابا عبقريا . ويقال أنه مات من شدة الفرح بعد نجاحه فى القاء دوره فى مسرحيته أنتيجونى وذلك فى عام ٤٠٦ ق.م كما نسب اليه تأليف مايقرب من ١٣٠ رواية لايعرف أسماء سوى ماية منها ، أما ما يصل الينا كاملا منها سبعة فقط أهمها أنتيجونى — احدى بطلات الاغريق وتعالج أزمة الصراع بين ولاء البطل للوطن وولائه لصديقه المخلص خاصة اذا تعارضت مصلحة كل منهما مع الآخر ثم راوغ الشاعر فى تقديم اجابة لهذه القضية عندما أعلن أن ولاء الجندى يجب أن يكون لشىء واحد فقط هو الأوامر الصادرة اليه من قائده . ومن مسرحياته الشهيرة أوديب ملكا Oedipus rex وأوديب فى كولون ، والبطل أجاكس Ajax و « واليكترا » شقيقة أورستيس ومسرحيته التراخينيات Trachiniaé وهى تعالج موت هيراكليس ، ثم فيلوكتيتيس Philoctétés التى مثلت عام

(1) L. Woodbury, Sophocles among the generals, Phœnix, XXIV, 1970, p. 200—224.

(2) M.H. Janes," Sophocles and the Four Hundreds, Historia, XXI, 1971, p. 541—568.

٤١٠ وكانت آخر مسرحية ، مثلت على المسرح هى مسرحية أوديب فى كولون والتى ظهرت على المسرح عام ٤٠١ ق٠م ٠

كما طرق سوفوكليس باب الشعر الغنائى والابجراما ولهذا يعتبر المثل الواضح للنضوج الدرامى المعقول ٠ واذا كان ايسخولوس هو الذى وضع أساس التراجيديا الاغريقية فان سوفوكليس هو الذى أكملها ٠ ولقب « بتلميذ هوميروس » ٠ ويعزى الى سوفوكليس بأنه طور وظيفة الكورس وزاد عدد جوقته من اثنا عشر الى خمسة عشر وادخل الممثل الثالث بل وأضاف الرابع ، فضلا عن تطويره للملابس والمناظر المسرحية أما لغته فكانت ساحرة امتدحها النقاد القدماء كثيراً لأنها لم تكن عتيقة مثل لغة ايسخولوس ولا متهورة مثل لغة يوريبيديس بل سهلة ولكن ممتعة وممتنعة ٠

٣ - يوريبيديس Euripidés (٤٥٤ - ٤٠٦ ق٠م) :

كان على النقيض من سابقيه ، ثائرا ومجددا ، واقعيا وملحدا ، حيث عبر عن القلق الفكرى الذى بسط رواقة فى أثينا بسبب الحروب ، عرفه الأثينيون كشاعر مسرح عام ٤٤١ ق٠م عند ما فازت احدى مسرحياته ٠ وقد كان يوريبيديس محل النقد والتقريع من جانب كتاب الكوميديا لآرائه التقدمية وخاصة من جانب زعيم المسرح الكوميدى أرسطوفانيس، ويبدو أن الأثينيين لم يتقبلوا آرائه الجديدة بصدر رحب بالرغم من أنهم وضعوه فى منزلة رفيعة بعد موته ويقال أنه ترك العاصمة عام ٤٠٨ (أو ٤٠٧) تحت تأثير الهجوم الشديد عليه وانتهى به المقام ببلاط ملك مقدونيا حيث كتب مسرحية مجد فيها ملكها أرخيلاؤس Archelaus كما كتب هناك أشهر مسرحياته وهى « الباخيات » Bacchae وأغلب الظن أنه مات هناك ، ويقال أن يوريبيديس كتب روايات كثيرة تقرب من التسعين رواية لقيت رواجا من الجمهور بعد موت الشاعر بالرغم

من انصرافهم عنها ابان حياته ونظراً لذلك فقد وصل الى أيدينا تسع عشرة رواية من أعماله يختلف كل منها حسب أهميتها الأدبية . ويلاحظ أن يوريبيديس حذا حذو السلف فى رجوعه الى مناجم الفكر الأسطورى وأولى ظهره للطريقة التقليدية فى استخدام أسلوب قديم سقيم ومتقعر كما أنزل بطلاته من علياء الماضى وجعلهن يتحدثن ويسلكن سلوك النساء العاديات ، كما بلغ من حبه للواقعية أن أظهر على المسرح نماذج من الحياة اليومية كالشحاذين ورجال البروليتاريا الأثينية (١) . وقد اتخذ أرسطوفانيس من ذلك مادة للسخرية ، ومن أحب رواياته الى قلوب متذوقى الأدب الأغريقى رواية افيجينيا فى أوليس Iphigénéia in Aulis وتروى كيف قدم أجاممنون ابنته كقربان للربة أرتيميس بعد أن أرسل اليها ليأتى بها خادعا اياها أنها سوف تزف الى أخيليس بطل الاغريق ولكنه بدلا من الذهاب بها الى مكان الحفل اقتيدت الى مذبح المعبد عندئذ يعلن الشاعر استنكاره على لسان الجوقة التى ترتفع عقيرتها بالغناء الحزين على قدر العذراء التى تذبح لكى تدخل الرضا والسرور على قلب ربه ، وتقول لها الجوقة « ان دماءك سوف تخلدك كقاهرة لطروادة » . كما كان يوريبيديس اول من بدأ الطريق لنوع جديد لروايات الحب والدراما والرومانسية الطريفة والتى حولت الى كوميديا من نوع جديد فى الأدب الأغريقى . وهذا النوع من الروايات مليء بالمفارقات ومظاهر الاكتشاف للحقيقة . لكن شعر يوريبيديس هو تعبير عن القلق العقلى والنفسى الذى خيم على الناس ابان الحروب البيلوبونيزية .

الكوميديا الاتيكية :

كانت الكوميديا تجمع بين الحياة العامة فى مدينة أثينا وبين فن التراجيديا . ولفظ كوميديا لفظ مركب من كلمتين اغريقيتين هما (كومى) (Komé) و « أودى » Ode أى أغانى الريف بما فيها من

(١) انظر : جلبرت مورى : يوريبيديس وعصره ترجمة عبد المعطى شعراوى ــ القاهرة ١٩٥٦ ، كذلك أنظر :

G. Zuntz : The Political Plays of Euripides, Manchester, 1955.

وهى محاولة لمطابقة المسرحيات بتاريخ الاحداث السياسية .

عربدة وصخب ونكات متبادلة بين الجوق والجمهور ، ومن مظاهر الكوميديا القديمة التي أتاحت فرصة للتهكم والنقد ما يعرف بـ البارابا سيس parabasis وفيها تخلفت أغاني الريف القديمة الصاخبة والتي كانت فيها الجوقة تظهر وسط الرواية لتخاطب النظارة بأزجال تسخر من شخصيات بارزة أو من موضوعات الأحداث التي تهم الناس . والذي لا شك فيه كان لمناخ الأمن الذي عاش فيه الأثيني في ظلال الديموقراطية أكبر الأثر في نجاح هذا النوع من المسرحيات ، اذ كان لكل مواطن الحق في أن يقول ما يريد في أي انسان أو موضوع Parrhesia والفضل يرجع لبيريكليس الذي لدهشتنا لم يجعله أرسطوفانيس محل سخريته كغيره من السياسيين ، ولما هزمت أثينا في الحروب البيلوبونيزية وسقطت الديموقراطية وتغيرت النظرة الى فكرة المدينة الدولة المستقلة واتجهت نحو التحالفات ، اختفى هذا النوع من الكوميديا الذي لقب بالكوميديا الآتيكية القديمة (Old Attic) وبدأ ظهور نوع جديد يضحك ولا يسخر من أحد أو يعتمد على كوميديا المواقف ، وتصور نماذج من الناس وتظهر التناقض بين سلوكهم . مثل السيد الحر الغبي وعبده الذكي الخبيث ، كما تبين الكوميديا الجديدة انهيار الأخلاق العامة وغياب شمس العظمة البيريكلية . لكن الكوميديا الجديدة يمكن فهمها في أي مكان وفي أي زمان لأنها تعتمد في اضحاكها على أنماط من النفس البشرية نحسها ونلمسها في أنفسنا وفي غيرنا ، أما الملهاة القديمة فهي كوميديا نقد اجتماعي وسياسي لعهد معين عاشه الشاعر ولايمكن لنا أن نفهمه ما لم نعرف كل كبيرة وصغيرة عن ذلك العهد ، ولذلك لايستطيع أحد أن يضحك على مسرحيات أرسطوفانيس الا اذا كان ملماً بكل شيء عن الأغريق والشخصيات البارزة والشعراء والفنون الخ (١) .

ويعتبر أرسطوفانيس (٤٤٨ — ٣٨٥ ق.م) عملاق ذلك الفن من الكوميديا . اذ تخصص في التشهير والسخرية من السياسيين وصقور

(1) C.H. Whitman, Aristophanes and the Comic hero, Cambridge, Mass 1964, p. 61.

الحرب والتحرريين سواء من الفلاسفة أو الشعراء ، ولقد وصف أحد المؤرخين الألمان أرسطوفانيس بأنه كان أوليجارخيا متطرفا قصير النظر(١) éngstirnigér Oligarch لأنه كان مثل غيره من الديموقراطيين المحافظين غير تواق لأى تجديد • وكان محافظا غيوراً كما كان أرسطوفانيس أيضا عنيما بكل شئون الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية (٢) •

ومن أعمال أرسطوفانيس أحد عشرة مسرحية أهمها « السحب » (٤٢٥ ق•م) سخر فيها من سقراط وأتبـاعه واتهمه فيها بالشعـوذة وتضليل الناس بتعليمهم كيف يقلبون الحق الى باطل والباطل الى حق بالاقناع الجدلى الشيطانى واتهمه بأن سفسطائى ملتوى المنطق ، أمـا الضفادع (٤٠٦ ق•م) فهى مسرحية نقدية أدبية تهكم فيها من اتجاهات يوريبيديس العصرية فى فن المأساة الحديثة ، وفى مسرحية « الدبابير » (٤٢٢ ق•م) سخر من سلوك الدهمـاء الجاهـلة التى سـمحت لهـا الديموقراطية بالجلوس فى مقـاعد المحلفـين فى المحـاكم وبينت كيف يتبادل المتهمون والقضاة الشتائم والاتهامات فى حـرية كامـلة • وفى مسرحية الفرسان (٤٢٤ ق•م) تناول شخصية الزعيم الديمـوقراطى الديماجوجى كليون دباغ الجلود بالنقـد والتقريع كما أظهر جنرالات أثينا الكبار على المسرح وأضحك الناس عليهم وعلى جهلهم وأنهم سوف يقودون الأمة الى كارثة بديموقراطيتهم الغوغائية ، وفى مسرحية الطيور (٤١٤ ق•م) سخر من أحلام المتطرفين الديموقراطيين لبناء الامبراطورية تلك الأحلام الجامحة التى تعكس جنون العظمة واللامبالاة الغوغائية فقادت البلاد الى كارثة فى النهاية • وفى مسرحية لوسستراتا Lysistata حيث تقرر نساء أثينا واسبرطة القيام بانقلاب لوقف الحـرب وعقـد السلام لأن هذه الحرب تأكل الرجال وبالفعـل ينجحـن فى ذلك وفى مسرحية برلمان النساء Ecclesiazousai يسخر من النساء ومن مطالبهن فى المشاركة فى الحياة العامة وهى نفس الآراء التى نادى بهـا أنصـار السوفسطائيين والكلبيين وأتباع سقراط وما جاء فى تعاليم أفلاطون فى

(1) Fr. Schacherneyer, Perikles," p. 182.
(2) cf. V. Ehrenberg," People of Aristophanes, Paperback New York 1962.

الجـزء الخامس من الجمهـورية • ومن مسرحيـاته الطريفـة رواية «الشموفوريات» أى المحتفيات بأعياد النساء اللائىكن يجتمعن فى معبد خاص دون الرجال • ويدور موضوع الكوميديا عن رغبـة الشـاعر يوريبيديس فى التجسس على النساء لمعرفة ماذا يقلن عنه ولماذا يناصبنه العداء ، فطلب من صـهره أن يرتدي زى النسـاء مثـله ويقـومان بالاندساس بين المحتفيات ليكتشف أن النساء يكرهنـه لأنه يعـرفهن جيدا وفضحهن فى رواياته وهذا دليل على اعتراف أرسطوفانيس بواقعية يوريبيديس ونجاحه فى تحليل شخصياته •

والى جانب النقـد اللاذع الساخر كان لأغانى أرسطوفانيس فى مسرحياته جمالها الساحرالذى يأخذ بألباب الناس• لقدكان أرسطوفانيس قطعة لا تتجزأ من العظمة والرقى السياسى والأدبى فى القرن الخـامس وتتاج الفكر الحر الديموقراطى الذى وضعه بيريكليس •

الفلسفة والعلوم :

تقدمت العلوم (١) تقدما كبيرا فى هذه الفترة وخاصة « الطب » فقد عرف الاغريق فى هذه الفترة أن المخ هو مركز الحس والتـذوق وهو المتحكم فى الأعضـاء كما عرفوا تدفق الدم فى الشرايين بفعـل ضربات القلب • ومن أشهر أطباء هذه الفترة هيبوقراطيس Hippocrates الذى ترجم الى العربية خطأ أبو قراط والذى لا يزال الأطباء يرددون قسمه قبل ممارسة المهنة (Hippocratic Oath) ولذا اعتبر أبو الطب ومن أشهر اكتشافاته أن المرض يتسبب من عوامل طبيعية وأن خـير عـلاج يكمن فى الوجبة الخاصة diet والراحة والهواء الطلق •

---

(١) انظر : بنيامين فارتن ـ العلم الاغريقى ترجمة أحمـد شكرى سالم مراجعة حسين كامل أبو الليف ـ الجزء الأول ـ مسلسلة الألف كتاب رقم ١٦٠ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ٤٠ وما بعدها .

(2) L. Edelstein," The Hippocratic Oath Baltimore, 1943, p. 5 ff.

أما الفلسفة فهى المرتع الطبيعى الذى نشأ فى بلاد اليونان ومن قادة الفلسفة : (١)

(ا) اناكساجوراس Anaxagoras **(٥٠٠ – ٤٢٨ ق٠م) :**

هو معلم بيريكليس الذى توصل الى فكرة العقل الأكبر الذى يحكم الأمور الدنيوية كلها ، وهو الذى توصل الى فكرة خلود المادة وأن كل شىء يتكون من المادة والمادة تتكون من مزيج من « ذرات » صغيرة من صنع العقل الأكبر ٠

كما ذكر أناكساجوراس أن الشمس مصدر الطاقة والقوة وهى جرم سماوى كبير من المعادن الملتهبة ٠ ونظراً لآرائه الفلسفية بالاضافة الى صداقته بالسياسى بيريكليس فقد طرد من أثينا عام ٤٥٠ ق٠م ٠

(ب) امبيدوكليس Empedocles **(٤٥٥ – ٤٣٠ ق٠م) :**

وهو مواطن من مدينة أكراجاس Acragas احدى المستوطنات الاغريقية فى صقلية وكان فيلسوفا وشاعراً وزعيما للحزب الديموقراطى ٠ وهو أول من عرف الوجود بعناصر أربعة هى النار والهواء والماء والتراب وأن المادة مزيج من هذه العناصر ٠ والمادة لا تتغير ولكن التغير فى تركيباتها يؤدى الى التغيير فى الظروف والأحوال ٠ وأن دراسة ظروف النبات والحيوان والانسان تؤكد نظرية التطور ونتيجة لآرائه الفلسفية والسياسية فقد طرد من بلده الى المنفى ٠

(جـ) ديموكريتوس (٤٧٠ – ٣٨٠ ق٠م) :

وهو مواطن من مدينة أبديرا فى أقليم تراقيا بشمال اليونان واليه يرجع الفضل فى تطوير نظرية « البذور » أو « الذرات » atoma اذ قال ان المادة تتكون من ذرات صغيرة لا ترى وهى دائمة الدوران حول نفسها ٠ وكان ديموكريتوس مادى التفكير والنظرية ولذا فقد دعا الناس الى نبذ الأساطير الدينية القديمة ٠

---

(١) من احسن الكتب عن تاريخ الفلسفه الاغريقيه :

W.K.C. Guthrie, History of Greek philosophy, 2 vols, Canbridge 1963, 1965.

(د) بيثاجوراس Pythagoras (٥٧٦ — ٤٩٧ ق.م) :

وهو مواطن من جزيرة ساموس Samos وأول من نادى بأن الأرض كروية الشكل وحاول حساب ذلك بالأرقام وكيف تدور حول نفسها كما آمن بخلود « الروح » وذلك بأن الروح تنتقل من جسد لآخر وتختلف فى اختيار الجسد حسب حسن سيرة صاحبها فى حياته فالأشرار تحل أرواحهم فى أجساد الحيوانات ولذا حرم على اتباعه أكل اللحوم . وهناك من يشكون عما اذا كان بيثاجوراس هو واضع نظرية فيثاغورس فى الهندسة . وعلى أى حال انتشرت فلسفته فى جنوب ايطاليا (١) وأثرت فى الفكر السياسى هناك .

سقراط الحكيم (٤٦٨ — ٣٩٩ ق.م) :

كان سقراط بلاشك أعظم معلم ظهر بين البشر ، وهو رمز للعبقرية والنبوغ الذى حققته أثينا ابان قمة ازدهارها فى القرن الخامس ق.م. ولد عام ٤٦٨ ق. م من أم قيل عنها أنها كانت تعمل « قابلة » للنساء ومن ثم وصف نفسه بمولد الأفكار الصادقة فى نفوس الناس (٢) ؛ وكان أبوه يعمل فى البناء والنحت وبالتالى ليس من المستبعد أن يكون سقراط نفسه قد بدأ حياته العملية بناء خاصة أن الاغريق نسبوا اليه نحت مجموعة من التماثيل وضعت فوق الاكروبول . لكن سقراط سرعان ما هجر هذه الحرفة ليعمل بالفلسفة وراح يعظ الناس ويعلمهم فى كل مكان دون أن يتقاضى على ذلك أجرا لأنه كان يعتبر ذلك رسالة الهية كلفته بها السماء و « الضرورة » معا وهنا لا يمكن أن يكون مثل باقى السوفسطائيين الذين كانوا يتقاضون أجورا باهظة من الناس نظير تعليمهم .

كان سقراط قصير القامة قبيح الخلقة ، بدين الجسم ، أصلع الرأس ذا أنف مفلطح وعينين جاحظتين ، يسير فى طرقات أثينا فى ثياب رثه وهو حافى القدمين لكنه كان يسير فى خيلاء وكبرياء وقد سخر منه الشاعر

(1) K. Von Fritz, Pythagorean Politics in South It aly New York 1940 passin.

(2) Apologia 30-31., cf. also A.D. Winspear and T. Silverberg, Who was Socrates ? ; Gordon and Company, U.S.A, 1939. P. 55. ff. ; O. Gigon Sokrates, Berne, 1947.



صورة توضح وجه سقراط

الكوميدى أرسطوفانيس لذلك ووصفه بأنه « ابن الماء » (١) وذلك فى روايته السحب . وكان يفاجىء الناس فى السوق العامة أو فى ملعب الرياضة gymnasium أو فى الولائم والتجمعات فيحدث فيهم دهشة وضجة وقبل أن ينطق فاه بكلمة كان يعتريه غيبوبة وصمت يتم خلالها هبوط الروح الربانية فيه (٢) ، ثم يبدأ جدله بتوجيه أسئلة فى شكل ثرثرة جدلية يهدف بها الكشف عن ماهية مجادلية واستكشاف مايعرفونه ومالا يعرفونه (٣) ثم يعلمهم عند طريق الجدل البناء الذى يبدأ من العدم الفكرى لأنه كان يرفض قبول أمر دون اثبات عقلانى أو دليل واضح . وبهذا دعى الآثينيين الى البحث عن الحقيقة دون الخوف من أحد . وكان يرى أن الفضيلة هى العلم والمعرفة والرذيلة هى الجهل وأن روح الانسان لن نستطيع رؤية الحق الكامل الا بعد كفاح ذهنى مرير . وكان سقراط يؤكد لجمهوره وتلاميذه بأن رخاء الانسان اذا تحقق دون معرفته بذاته يصبح مصدر تعاسة وشرور وأن الانسان اذ قنع عند حد معين بالمعرفة يكون كمن قبر روحه . وهكذا قضى سقراط حياته فى فقر مدقع لكنه دخل خلالها فى جدل مع كافة طبقات الشعب الاثينى : مع الاغنياء ومع الفقراء ، ومع رجال السياسة ورجال الحرب ، مع الفلاسفة ومع الشعراء ، مع العلماء ومع الحرفيين كالاسكافية والحمالين ، وكان جدله يبدأ ساخرا يثير الضحك ثم يتحول الى جدية تسحر الناس وتجعلهم يعصرون أذهانهم للرد على أسئلته . وكان يقول : اننى أعشق المعرفة ورجال المدينة هم الذين يعلموننى أما الريف أو الأشجار فلا تعلمنى شيئا (٤) .

كان سقراط مواطنا صالحا شجاعا حمل السلاح دفاعا عن بلده فى الحروب البيلوبونيزية وقيل أنه قاتل بشجاعة وأنقذ من الموت شابا ارستقراطيا جميلا اسمه الكبيادس Alkibiades صار تلميذه فيما بعد

(1) Clouds, 150.

(2) Plato : Symposium, 215, 22.

(٣) أنظر : اميرة حلمى مطر : الفلسفة عند اليونان ، دار النهضة العربية ١٩٧٤ (الطبعة الثانية ص ١٣٥ – ١٦٠) .

(٤) محاورة فايدروس ٢٣٠ .



سقراط الحكيم
المتحف البريطانى (بلندن)

وأصبح زعيما سياسيا بعد موت الزعيم بيريكليس • لكن سقراط كان ساخطا على النظام الاثينى فى الديموقراطية لأن رأيه هو أن السياسة يجب أن تقوم على أكتاف العارفين بالعلم وليس على أكتاف محترفى هذه المهنة • ولهذا قدم للمحاكمة بتهة تحريض الشباب على التمرد على سنة الآباء وتقاليد المدينة كما اتهم بالكفر والالحاد ازاء الآلهة • ولكنه كان بريئا من التهمة الثانية لسبب بسيط هـو أنه كان يعتبر نفسه صاحب رسالة ربانية وأنه أشبه بوحى يهبط ليلسع جوادا هو الشعب الاثينى فيوقظه من خموله ليسرع الخطى نحو اليقظة الفكرية • ولما سمع بنبوءة كهنة دلفى بأنه « أحكم الناس » وكان عمره وقتذاك بين الثلاثين والاربعين تساءل مستنكرا كيف يمكن أن يكون حكيما وهذا صفة موقوفة على الالهة وأنه اذا قورن بها فهو لا يعلم من الحكمة شيئا بل كان دائم القول « انى أعرف شيئا واحدا وهو أننى لا أعرف شيئا ! »

اذا فالتهمة التى وجهت اليه كان دافعها سياسيا • والذى لاشك فيه أن أنصار الحزب الديموقراطى هم الذين دبروها انتقاما لموقفه العدائى من الحزب وانتقاما من اثنين من تلاميذه هما من ألد أعداء الديموقراطيين الأول هو كيتياس الذى اشترك فى الانقلاب الذى دبره الاسبرطيون لاقصاء الحزب الديموقراطى عن الحكم واقامة دكتاتورية أوليجارخية وبالفعل تم ذلك وأصبح كريتياس من أبرز زعماء هذه الحكومة التى فتكت بالديموقراطية وشتت شملهم وبعد كفاح مرير نجح الديموقراطيون فى هدم الدكتاتورية واعادة الديموقراطية الى الحكم ومن ثم أرادوا الانتقام من كريتياس فى شخص سقراط •

أما الثانى فهو الفتى الكيباديس الذى تسبب فى نكبات كثيرة وهرب من جيش الحملة الأثينية ضد صقلية الى أسبرطة ليكشف لهم عن أسرار عسكرية هامة أدت الى هزيمة أثينا فى صقلية بل وهزيمتها الكبرى على يد أسبرطة •

اذا فالتهمة التى حكم بسببها على سقراط بالموت عام ٣٩٩ ق• م كانت سياسية وانتقامية لأن أثينا أصبحت كالهرة تأكل عجافها ولم تكن التهمة

دينية لأن سقراط اعتبر نفسه مفكرا عقلانيا وصوفيا روحانيا فى نفس الوقت . وجاء الحكم عليه بالموت قاسيا . ومن ناحية أخرى أصدر القضاة حكمهم عليه بالموت وهم على مضض بل كان يمكن لسقراط أن يبرأ نفسه لو لم يبرر فى دفاعه رسالته الربانية العلمانية بطريقة لا تقبل الجدل ، متحديا قضاته بأنه يدرك مدى العداوة التى يجنيها بسبب رسالته ولكن الضرورة وكلمة السماء يجب أن تكون فوق كل اعتبار(١) كذلك كان يمكن له أن يبقى حيا لو قبل النفى بمحض الارادة . ولكنه رد بطريقة لا تقبل المساومة بأن السماء أقامته أمينا وحارسا على رسالة ومن ثم فلن يخون الأمانة ويهجر الرسالة وبالتالى رفض أن يرجع عما نادى به ولو دفع حياته ثمنا .

ولما رشا حواريوه الحراس ونصحوه بالهرب رفض قائلا بأنه من العبث أن يخرج على قوانين المدينة التى رعته طوال حياته وولد وعاش فى كنفها كما ولد وعاش والداه من أجل أن يظفر بالحياة ، وآثر أن يموت شهيدا لرسالة الحق والعقل بل قيل انه استقبل الموت ليحرر روحه من الألم والمعاناة ، ومن ثم تجرع حتى الثمالة كأسا من السم جاء بها الحراس أصلا الى سجين آخر ثم راح يودع الحاضرين من مريديه ؛ وارتمى يحتضر متمتما عبارة خاطب بها صديقه كريتو هى « يا كريتو ان على دينا وهو « ديك » لاسكلبيوس فلا تنسى أن ترد عنى هذا الدين » ويقول البعض أن أسكلبيوس المقصود هنا هو رب الشفاء (المعادل لأمحتب عند المصريين) وبالتالى فان مقصد سقراط هو أن يقدم قربانا لرب الشفاء . لأنه شفاه بالموت من آلام الحياة .

مات سقراط الحكيم دون أن يترك من ورائه مؤلفات تسجل فلسفته ولكنه ترك عددا كبيرا من تلاميذه الذين نبغ بعضهم فى ميدان الفلسفة مثل أفلاطون الذى سجل كل فلسفة أستاذه فى شكل محاورات (dialogues) ولكن بصورة راقية ومثالية ، ومن تلاميذ سقراط الذين خلدوا حياته أيضا الأديب المؤرخ والعسكرى كسينوفون Xénophon الذى ترك لنا فصلا عن سيرة أستاذه فى كتابه المذكرات (Memorabilia) ،

(1) Apologia, 21, Y.

أما أرسطوفانيس الشاعر الكوميدى فقد ترك لنا مسرحية كاملة تتهكم على سقراط واتباعه هى مسرحية « السحب » يمكن أيضا أن يستخرج منها ما نعرفه ومالا نعرفه عن هذا المعلم العظيم .

علم التاريخ :

ظل التاريخ مادة لكتاب المقالات (١) من أهل أيونيا Logographers الذين مزجوا الأساطير بالروايات وبالحقائق ثم أعطوها تاريخا تقريبيا . ومهما تبدو أعمالهم ساذجة ومضحكة الا أنها عكست أشياء ذات قيمة بالنسبة للمؤرخ وأشهر المؤرخين الذين عاصروا الامبراطورية الأثينية اثنان هما هيرودوتوس Hérodotus وثوكوديديس Thucydides

هيرودوت ابو التاريخ (٤٨٥ - ٤٢٥ ق.م) :

ولد هيرودوت فىهاليكارناسوس Halicarnassus احدى المستوطنات الدورية القليلة على ساحل آسيا الصغرى ولكن هيرودوت كتب بلهجة أيونية وليس دورية وكانت أمه من اقليم كاريا (وهم أهل البلاد الأصليين) وقد اعتاد هيرودوت أن يسافر الى أثينا ويلتقى بقادتها وزعمائها وشعراء مسارحها وكان متعصبا ومتحيزا لأثينا وسياستها حتى أنه قبل أن يكون عضوا فى احدى المستوطنات التى أقامتها أثينا فى ايطاليا وهى مستوطنة Thurii وبقى فيها حتى مات .

اعتمد هيرودوتوس فى كتابته للتاريخ على الرحلات والزيارات أو السياحة الادبية وحول مشاهداته وتسجيلاته الى مادة لكتابة تاريخه . وقد أتم تسع مؤلفات تاريخية أعطى لكل منها اسم احدى ربات الفنون والآداب التسع Musae . وتدور كتبه الخمس الاولى حول نشأة

(١) عن علم التاريخ عند الاغريق انظر المراجع الآتية :

(1) Usher," The historians of Greece of Rome," London 1970 ; M. Grant," The Ancient historians," London 1970 ; A. Momigliano," The Development of Greek biography [4. Lectures] Cambridge Mass., Harvard University Press, 1971.

كذلك انظر :

الفكر التاريخى عند الاغريق تاليف ارنولد توينبى وترجمة لمعى المطيعى ومراجعة محمد صقر خفاجه - مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة ١٩٦٦ .

الامبراطورية الفارسية تحت حكم قورش ووصف بعض الولايات مثل مصر وتراكيا فى ظلال الحكم الفارسى ثم روى فى الكتب الثلاث الأخرى قصة الصراع بين الفرس والاغريق » أو قصة الحروب الفارسية حتى تحرير سستوس Sestus عام ٤٧٨ ق٠ م ، وجدير بالذكر أن كتابه الثانى (١) كرس لوصف مصر وعاداتها ودياناتها وتاريخها وهو الذى قال فيه عبارته الخالدة « مصر هبة النيل » ٠

أهم ما يؤخذ على هيرودوت جهله بلغات الشعوب التى كتب عنها وتحدث عن تاريخها وقيامه بعمل واسع غير محدود ٠ كما مال الى ارجاع الحوادث التاريخية الى مسببات مباشرة فقط أو الى دوافع فردية ولذا يعتبر مؤرخا سطحيا وغير منهجيا ٠ اذ أنه أغرق نفسه فى عالم الخرافات الاسطورية والغيبيات الدينية التى تكشف عن معدنه ونشأته وتربيته الدينية ٠ وبالرغم من هذه التحفظات فهو طريف ومحبب الى قلوب قرائه وهو أمير المؤرخين القدامى بلا منازع ولذا اسماه الرومان Pater historiae أى أبو التاريخ لأنه بالرغم من أخائه فهو أول من (٢) جمع المادة ثم نقحها بقدر ما يستطيع ثم صاغ منها مادته التاريخية فى شكل متحدد مترابط وهادف ٠ لقد قال هيرودوت فى أكثر من موضع « ان واجبى هو أن أسجل كل ما يقال ولكنى لست مقيدا بتصديق كل ما يقال » ٠ وهذه العبارة أيضا تكشف كيف أنه جمع قدرا كبيرا من مادته من أفواه الناس وروايات الكهنة المصريين ومن الأدب الشعبى فمزج الحقيقة بالخيال وهذا ما يأخذه عليه المؤرخون القدامى والمحدثون ٠ ويعتبر بعض الناقدين أن هيرودوت هو أبو علم الانثروبولوجيا الاجتماعية وليس أبو التاريخ لميله الى الحقل الثقافى والاجتماعى والدينى أكثر من الحقل السياسى ٠

---

(١) ترجم هذا الكتاب الى العربية الأستاذان الدكتور محمد صقر خفاجه والدكتور احمد بدوى تحت عنوان هيرودوت فى مصر ٠ دار القلم ١٩٦٦ القاهرة ٠ ويرجع اهمية هذه الترجمة ليس الى دقتها فحسب بل الى قيمة التعليق عليها ٠

(2) A Fahling," Die Quellengaben bei Herodot. Studien zur Erzaehlungs kunst, Berlin ; 971, also cf. Ch. W. Fonara," Herodotus : an intrepretative essay, Oxford 1971 (= Revue Philologigue XLVI (1972) p. 117-118.

هيرودوت فى مصر :

عندما زار هيرودوت مصر ــ ابان الحكم الفارسى ــ وجدها مليئة بالعجائب وبكل ما هو غريب وأنها تحوى آثار الأولين بكميات تفوق أى بلد آخر فى العالم القديم ، كما أدرك هيرودوت سحر شخصية مصر وعبقرية مكانتها وقوة تأثيرها النابع من ثراء ماضيها العتيد كما سجل طريقة حياة المصريين التى وجدها مخالفة لسائر الشعوب الأخرى لا فى بلاد الاغريق فحسب ، بل حتى فى بلاد شرقية مثل آشور وبابل وبلاد الفــرس .

وكان النيل بالطبع أول شىء ميز مصر فى نظــره ، فهو نهــر عظيم جبار غامض المنبع ملىء بالتماسيح التى ترتع بحرية فيه وتلقى من الناس كل احترام وتبجيل . كما دهش من حرص المصريين على جثث موتاهم وتحنيطها لتبقى تقاوم التحلل آلاف السنين .

لقد دفعت بديهية هيرودوت أن يصف حياة وسلوك المصريين بأنه على النقيض التام لسلوك شعوب العالم ، فهم يكتبون من اليمين الى اليسار بينما يكتب الاغريق من اليسار الى اليمين وهم يعجنون العجين بأقدامهم أما الطين فبأيديهم وبها أيضا يجمعون روث البهائم ، وبينما يمكث رجالهم فى المنازل ليقوموا بالغزل ، تذهب النساء الى السوق للبيع والشراء حتى طريقة غزل الصوف مخالفة ، فبينما يغزل النــاس جميعا دافعين اللحمة من أسفل الى أعلى فان المصريين يدفعونها من أعلى الى أسفل » ، وبينما يقضى المصريون حاجاتهم سرا داخل المنازل وجدهم هيرودوت يأكلون فى العلانية وعلى قارعة الطريق معتقدين أن الضرارات القبيحة هى وحدها التى يجب أن تؤتى فى الخفاء . ويقول هيرودوت أن النساء المصريات يتبولن وهن وقوف بينما يفعل الرجال ذلك وهم يجلسون القرفصاء ، وبينما يحمل الرجال الأثقال على رءوسهم تحمــل النساء الأحمال على أكتافهن ، وبينما يسكن سائر الناس فى عزلة عن الحيوانات ، يعيش لصريون جنبا الى جانب معها . وبينما تعيش الناس على القمح والشعير تعيش المصريون على الذرة ، حتى القطط فى مصر

وجدها هيرودوت غريبة عن غيرها ووجد الناس يعاملونها برقة وتبجيل يثير دهشة الاغريقى •

ان ملاحظات هيرودوت تجعلنا نعتقد أن زيارته لمصر لم تكن سياحة عابرة بل كانت رحلة استطلاع ودراسة ومسح اجتماعى وجغرافى شامل مما يجعلنا نعتقد أن بقاءه فى مصر لا يقل عن عامين بعد رحلة طويلة فى عالم كانت وسائل الانتقال فيه بدائية علما بأنه تفقد مصر حتى أسوان جنوبا كما زار الفيوم • ومن المحتمل أنه دخل مصر من البوابة الشرقية من بيلوزيوم لأنه جاء الى مصر عن طريق آسيا الصغرى •

ومهما يكن من أمر فقد بقيت المعلومات التى جمعها هيرودوت عن مصر هى الجوهر والمصدر الأول لعلم الدراسات المصرية القديمة حتى مطلع القرن التاسع عشر وقبل حل رموز الكتابة الهيروغليفية على يد فرانسواز شامبليون• أما المصدر الثانى فكان مؤلف مانيتون Manetho ذلك الكاهن السمنودى الذى كلفه بطالمة مصر بكتابة تاريخ مصر باللغة الاغريقيـــة فأنجز ذلك حوالى عام ٢٥٠ ق• م ولكن لم يصـــل الينـــا شىء منه ســـوى اشـــارات منقولة عن طريق بعض الكتـــاب الاغريق والرومان على رأسهم جوزيفوس الكاتب اليهودى السكندرى • ويقول أودرى دى سلنكور Audrey de Selincourt [1] ، حتى ولو قدر لمؤلف مانيتون أن يصل الينا كاملا فانه لن يكون بالجودة والفائدة التاريخية التى تنافس كتابة هيرودوت لأن مانيتون كتب التاريخ تحت دافع معين وهو تبرير أن مصر كانت أقدم من سوريا لأن البطالمة كانوا فى صراع مع أسرة آل سليوكوس وكانت كلتا الأسرتين تتباهى بأنهـــا أعرق حضارة من الأخرى ومن ثم شجع البطالمة مصريا وطنيا تلقى تعليما اغريقيا لكى يكتب تاريخ مصر بالاغريقية لأنها اللغة التى كانت سائدة آنذاك فى كل من مصر وسوريا وسائر العالم الهللينستى •

أما هيرودوت فكان حرا لا يدفعه الى الكتابة ســـوى الرغبـــة فى تسجيل الحوادث ودراسة الامبراطورية الفارسية وأسباب الحرب بينها

(1) Audrey de Selincourt, The World of Herodotus, Secker and Warburg (1962), p. 217-218.

وبين بلاد اليونان ، ولكنه كان يبلور النظريات لو وجد هنـاك ظاهرة جديرة بالتسجيل . كان هيرودوت يكتب التاريخ بعينيه لأنهمـا كانا لسانه فى بلد لا يعرف لغته ، ثم يحاول أن يسأل ويستفسر من الكهنة عن الظواهر التى تلفت انتباهه . وهذا منهج استقرائى سليم طبقه فى كتابه الثانى الذى سماه باسم ربه الفن يوتربى (Euterpe) فجاء أقرب الى العمل التاريخى الناضج .

لقد انتقدنا هيرودوت ولكن يجب أن نقول أن الجزء الذى اعتمد فيه على المشاهدة والتسجيل الفورى والتنقل والحركة يجعله يبدو مؤرخا موثوقا فيـه ؛ أما الجزء الذى اعتمد فيـه على نقـل ما يسمعه دون نقد أو تمحيض يجعله يكتب تاريخا غامضا ، بل ومشكوكا فيه ؛ لأنه اعتمـد على روايات الأخرين ومعظمهم من أنصاف المتعـلمين والذين يلمون بقدر ضئيل من الاغريقية ، وربما أحـدث ذلك سـوء فهم بين هيرودوت وبينهم . كما اعتمد هيرودوت على روايات وشروح التراجمة (dragomen) المصريين الذين يحترفون اصطحاب السواح الأجانب حول أثارهم ويمطرونهم بمعلومات من أجـل تسليتهم وامتاعهم على حساب الحقيقة التاريخية . ولهذا جاء مؤلف هيرودوت مزيجا متنوعا من الحواديت الشعبيـة والاسـاطير القومية المحليـة ومن الطرائف والظرائف من حكاية لص مقابر الفراعنة الذكى الذى حير ملوك عصره. وربما قصد هيرودوت من جمع هذه الطرائف أن يجعل من نفسه محبوبا وممتعا لدى قرائه الاغريق .

يجب ألا يفوت عن أذهاننا أن مصر التى رآها هيرودوت لم تكن مصر الفراعنة العظام ، لأن مجد مصر كان قد انهـار ودفن فى المقـابر وغطتها الرمال الا الأهرامات وأبى الهول وبعض المعابد التىوقفتتتحدى الزمن ، لقد سقطت مصر فريسـة لضعف ورعونة ملوكها المتأخرين منذ الأسرة العشرين ، ولعدوان شعوب طامعة فى احتلالها وفى نهب خيراتها. ولقد ألحق هذا العدوان الكثير بمصر وشعبها وحضارتها أثر على العلاقة التجارية بينها وبين بلاد الاغريق والتى كانت قائمة منذ حضارة كريت .

لقد كان للاغريق بمصر مصالح حيوية وكانت لهم جاليات وثبت وجود أحياء لهم فى منف ومقابر لهم فى سقارة . وكان من الطبيعى أن يحرص الاغريق على بسط نفوذهم على مصر ، فمثلا منذ بداية حكم الأسرة الصاوية فى منتصف القرن السابع نجد الجنود المرتزقة الاغريق يتدفقون على مصر للعمل فى جيشها ، بل واعتمد ملوك الأسرة الصاوية على خبرة الكورنثيين فى بناء السفن الكبيرة عابرة البحار سواء من أجل الهدف التجارى أو العسكرى لأن هذه الفترة تعرف بعصر اليقظة المصرية المتأخرة ، ان النقش الذى عثرنا عليه على قدم احدى تماثيل معبد أبو سنبل العملاقة حوالى عام (٥٨٠ ق.م) وكتبه الجنود المرتزقة التى قادها الملك المصرى أحموسى الثانى المعروف عند الاغريق باسم أماسيس (Amasis) فى حملته ضد جنوب الشلال الثانى لدليل على ذلك . والى جانب نفوذ الاغريق فى الجيش المصرى زاد نفوذهم فى التجارة وأصبحت لهم مدينة خاصة بهم هى نقراطيس (سيدة البحار) وقد أدى اختلاط المصالح الى تعمق الاغريق فى الشئون المصرية والاقتراب من سر حضارتها المغلق .

كانت الديانة المصرية قد ماتت أيضا مع تدهور العظمة وغياب الملوك العظام وتحول الكهنوت المصرى الى شعوذة شعبية وديانة ساذجة يلعب السحر دورا كبيرا فيها ولهذا اعترف هيرودوت بأن المصريين كانوا أكثر شعوب العالم تمسكا بالقيم الدينية وبالتراث الروحى خاصة بشعائر « الطهارة » والسحر من أجل الوقاية من الحسد ومن الأذى .

لقد سجل هيرودوت أيضا صوت الشعب المصرى الموصود بالأغلال من ظلم الحكام . وبالرغم من موت طغاتهم منذ آلاف السنين الا أن التراجمة رووا لهيرودوت فظائع الملك خوفو مثلا ورووا له عن الثلاثين عام من العبودية والسخرة من أجل بناء مقبرته الضخمة والتى

هى الهرم الأكبر (١) • ولكن الحياة فى مصر وقت زيارة هيرودوت لم تكن بهذه الصورة المقبضة بسبب العبودية واليد الفولاذية الحاكمة وبسبب الجمود التقليدى (traditionalism) فى طريقة الحياة لأن معاول الأثريين صححت هذه الصورة المقبضة التى صورتها التوراة وكتاب هيرودوت ، لأن الناس تعودوا على هذه الحياة القاسية وأصبحت واقعا نفسيا لا يمنع من المرح والرقة والابتهاج والانسياب • .

ويقول سيريل الدريد فى كتابه الموجز والشيق عن المصريين ، والذى استقى مصادره من الحفائر الأثرية — أن بلدا كمصر يقوم رخاؤه على الزراعة أساسا لابد وأن يسود مجتمعه الفكرة الريفى حيث يلعب الفلاحون الدور الأول فيه ، وفى حضارته • ويقول أيضا أن المصريين اختلفوا عن سائر الشعوب الأوروبية القديمة فى تحررهم من « عقدة الذنب » التى سيطرت على فكرة شعوب كثيرة شرقية وغربية ، فالمصريون فى نظره بسطاء ، سليمى الطوية لا يؤمنون بحقد الآلهة وحنقها وتحفزها فى الانتقام مثلما آمن الاغريق وانما آمنت الديانة المصرية القديمة بأن غضب الآلهة ينفجر فى لحظة واحدة ويذهب مع الريح • ولهذا لم يشغل المصرى نفسه كالاغريقى والرومانى فى تهدئة الآلهة وعقد سلام معها خوفا من انتقامها بل شغل باله بالبحث عن سر الكون الذى ترعاه «ماعت» ربه العدل الآلهى وتحديد مكان الانسان فيه وقبول الكون على الحالة التى خلقته به الآلهه ولهذا جاء الفكر المصرى القديم خاليا من القلق النفسى الذى انتاب شعوب كثيرة ويقول هيرودوت فى كتابه الثانى فقرة ٧٨ « وفى اجتماعاتهم عند الأثرياء منهم بعد أن ينتهوا من الطعام — يطوف بهم رجل يحمل فى تابوت جثة من الخشب تشبهه تماما بما عليها

(١) روى هيرودوت (الكتاب الخامس ، ١٢٦ ، ٦) أن احد المرشدين روى له أن تكاليف البصل والثوم والفجل التى استهلكها العمال طوال فترة بناء الهرم كانت مسجلة على هرم خفرع .

Herodotus V, 125, 6.

See. W. Spiegelberg. (translated by Blackman) The Credibility of Herodotus' account of Egypt, (Oxford 1927). p. 15—16.

من نقش وتصوير ...... ويريها الرجل لكل فرد من الحاضرين وهو يقول « أنظر الى هذه ثم اشرب وتمتع ، ذلك لأنك سوف تصير مثلها بعد الموت » ، ذلك يفعلونه فى الولائم (١) .

لقد نمت ظروف مصر المناخية فى شخصية المصري الاحساس بالهدوء والاستكانة وادراك أن كل شيء يسير فى نظام دقيق « فالشمس لا ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل بسابق للنهار » ، والفيضان موقوت ، ولا يوجد عواصف ولا زلازل ولا براكين ولا صواعق وغير ذلك من مسببات الكوارث الطبيعية ، حتى النيل يسير وديعا فى مجراه مسالما حتى فى فيضانه . ولهذا يقال أن مصر كانت من أسعد بلاد العالم لأن الأشياء فيها تبقى سنينا على حالتها وهذا ولد فى الفكر المصرى الاحساس « بالخلود » الذى لم يقدره هيرودوت عندما فشل فى أن يفهم معنى أن يستعبد ملك شعبه لمدة ثلاثين عاما من السخرة لكى يبنوا له مقبرة على شكل هرم ، لقد تبدوا الأهرامات للغربيين مقابر للطغاة العتاه الذين استعبدوا شعوبهم وسخروهم لكى يبنوها ارضاء لنزعة الكبرياء والسيطرة عندهم ولكن الأهرامات عند المصريين كانت مقابر للآلهه التى تموت لتحيا من جديد ولم يفهم هيرودوت ألوهيه الانسان وحلول الرب فى صورته ولكنه أعجب بالهندسة المعمارية الخارقة فى رفع هذه الكتل الحجرية الضخمة (يبلغ عدد أحجار الهرم حوالى مليونين و٣٠٠ ألف كتلة تتراوح وزن كل منها ما بين طنين وثلاثة أطنان ونصف الطن) الى مثل هذا الارتفاع الشاهق (كان ارتفاع الهرم لا يقل عن ١٤٦ مترا) وتعجب هيرودوت كيف حملوا هذه الكتل الضخمة من محاجرهم فى أقصى جنوب مصر عن طريق النيل .

لقد استغل هيرودوت روح المصريين الساخرة الضاحكة لكى يكتب تاريخا ممتعا وشيقا وجذابا ، ان نكات المصريين عند هيرودوت مبعثها الاحساس بالاستعلاء التاريخى على الاغريق وضئالة هذا الشعب اذا

---

(١) انظر محمد صقر خفاجه واحمد بدوى العمل السابق ص ١٨٥ .

حاول أن يقارن نفسه بالمصريين • نعم لقـد كان المصريون فى القـرن الخامس قبل الميلاد منهارين حضاريا ويرزحون فى أغـلال الاسـتعمار الفارسى لكنهم لم ينسوا ما حققه أجدادهم القدامى فى مجالات متعددة من العلوم مثل الرياضة والفلك وعلم قياس الأرض من أجل تحـديد الضرائب على الأراضى المزروعة كل عام • وعلى حد قول هيرودوت لقد كان المصريون هـم أول من اكتشف السنة الشمسيـة وقسموهـا الى اثنى عشرة شهراً والشهر الى ثلاثين يوماً • وقد أعجب هيرودوت بتقوى المصرى نحو آلهته ولهذا أبدى احترامه وتقديره لمصر وحضارتها العتيقة حتى ولو فى وقت متأخر •

ومن المفارقات الطريفة بين المصريين والاغريق ما سجله هيرودوت من دهشة المصريين عندما علموا أنه لا يوجد عند الاغريق نهر مثل نهر النيل يرتوون منه وأنهم يعيشون على المطر وتساءل المصريون ماذا لو انزلت الآلهه بهم الجفاف وقل المطر ؟

ثم يدخل هيرودوت بعد ذلك فى دراسة جيولوجية عن وادى النيل نقلهـا عن أحـد كهنـة ممفيس وكيف أن مصر كانت مستنقعا كبيراً الا المنطقة الواقعة حول طيبة وكيف أن الأرض الواقعة حول بحـيرة موريس (بركة قارون) كانت مغطاة بالمياه تماماً • ويقول هـيرودوت أن الزائر يستطيع أن يدرك أن مصر هبة النيل لأنها أرض كونها الطمى القادم مع مياه الفيضان ، وكيف أن وادى النيل نفسه لم يكن سوى ذراع للبحر (الأبيض) تماما مثل البحر الأحمر ، ثم يتحدث عن ظاهرة فيضان النيل وأسبابه وينفى القول بأن الفيضان سـببه ذوبان بعض الثلوج التى تغطى قمم الجبال العالية ويقدم رأيا بديلا وهو أن الفيضان سببه انفجارات تحدث فى الشمس من فعل العواصف ، ثم يتقصى منابع النيل ويتحدث عن جزيرة الفانتين (أنس الوجود) والتى يقول أنه قد زارها ثم يتحدث عن مجرى النيل منها الى النوبة والى المناطق الاستوائية التى لا يسكنها أحد من شدة الحرارة •

وبعد ذلك يتحدث هيرودوت عن مستوطنة قورينى (شحات من

أعمال برقة فى ليبيا) ويروى ما سمعه من بعض الحجاج القادمين من واحة سيوه بعد زيارة معبد آمون ، عن كيف روى لهم ملك الواحة اتيارخوس أن مجموعة من شباب الواحات ضلت طريقها نحو الغرب ، وبعد مسيرة أيام من القيظ والعطش والجوع وصلوا الى غابات لها أشجار ذات ثمار وبينما هم مشغولون فى قطفها هاجمهم مجموعة من الأقزام الزنوج يتحدثون لغة غير مفهومة وخطفوهم الى مدينتهم التى يشقها نهر النيل (ربما يقصد نهر النيجر) الملىء بالتماسيح ؛ ثم بعد ذلك أطلقوا سراحهم . هكذا جاء وصف هيرودوت لجغرافية مصر وجيرانها مدهشاً لو قدرنا مشقة السفر وغياب الخرائط .

ثم ينتقل هيرودوت بعد ذلك ليصف بعين الخبير الحيوانات التى تعيش فى مصر ويعددها ويذكر من بينها وصف طائر العنقاء الخرافى الذى رأى رسمه فقط فى هليوبوليس ثم يذكر لنا حكايته كما سمعها من أفواه المصريين ، ثم يتحدث عن عادات المصريين وطباعهم وملبسهم وطعامهم ولا تفوته حتى طريقة تحيتهم لبعضهم البعض وهو هنا باحث اجتماعى يرصد بعين المراقب الدقيق والتقدير . ثم يتحول للحديث عن الطب والتطبيب ويذكر تخصصات الطب المختلفة ويقول « وبلادهم كلها غاصة بالأطباء ، بعضهم متخصص فى العيون وبعضهم فى الرأس وبعضهم فى الأسنان وبعضهم فى الأمراض الخفية » (١) . وكيف أن نظامهم شبيه بنظام الطب الذى كان موجودا فى بابل . ويتعرض هيرودوت لأثر الطقس على الصحة العامة ويعالج عملية التحنيط بدقة واهتمام (٢) ، ثم يتعرض لحب المصريين الفطرى للطيور والحيوانات ويصف هذه الطيور والحيوانات من واقع الطبيعة مثل الطائر المتخصص فى تنظيف أسنان التمساح ولكننا نتشكك فى وصفه لفرس النهر « الذى له عرف كالفرس وأظافر مثله » (٣) .

---

(١) الكتاب الثانى فقرة ٨٤ ، انظر محمد صقر خفاجه واحمد بدوى المرجع السابق ص ١٩٠ - ١٩٢ .

(٢) فقرة ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ من التاب الثانى .

(٣) فقرة ٧١ .

بعد ذلك يبدأ هيرودوت فى الحديث عن ملوك مصر منذ حكم الملك مينا موحد القطرين وهنا نجده يعتمد على التاريخ الشعبى الذى رواه له التراجمة والكهنة ولذا جاء بعضه يحمل طابعا رومانسيا مدسوساً ، وهيرودوت يقبل الحواديت الشعبية لأنه يوجد لدى المصريين غريزة فطرية لتسجيل كل شىء ولهذا فهم أحسن من يكتب التاريخ فى العالم . ويستشهد هيرودوت على ذلك عندما استفسر عن صدق حرب طروادة من أحد الكهنة المصريين فأجابوه بأن لهم مصادر مباشرة عن مينالاءوس زوج هلينا نفسه (١) ، بأنها لم تذهب الى طروادة بل بقيت فى مصر فى قصر الملك بروتيوس (٢) لأنها لو كانت فى طروادة لردت الى الاغريق وكفاهم شر القتال ويقول هيرودوت أن هوميروس نفسه شاعر ملحمة الألياذة كان يعلم بهذه الحقيقة التاريخية ولكنه اختار ما يناسب البناء الدرامى لملحمته . ويذكر أن ارادة الآلهة كانت أن يرفض الاغريق تصديق الطرواديين بأن هيلينا ليست موجودة فى طروادة ؛ تبريرا للحرب التكفيرية عقاباً ربانياً للأخطاء التى ارتكبتها أهل طروادة (٣). هكذا وضح هيرودوت فلسفة النقد الأدبى عند الاغريق ، فنقدهم لشعرائهم لا يقوم علىأساس القيمة الجمالية بل على الموقف الأخلاقى والواقعى فمثلا التمثال الجميل لم يكن يعنيهم أن يكون جميلا أو غير جميل انما الذى كان يعنيهم ما مدى قرابته من الصورة الحقيقية للرب الذى يمثله وكلما كان أقرب الى الصورة الحقة كان أقرب الى الكمال والجمال .

يرسم لنا هيرودوت شجرة الأسر التى حكمت مصر منذ عصر مينا نقلا عن كهنة هليوبوليس ، ويقول أنه حكم بعد مينا ثلاثماية وثلاثين ملكا على طول فترة تبلغ عشرة آلاف عام ثم يركز على سيزوستريس

(١) فقرة ١١٨ .
(٢) والغريب أن يوربيديس ردد هذا الاعتقاد فى مسرحيته هيلينا .
(٣) فقرة ١٢٠ .

(سنوسرت الثالث حــوالى ١٩٥٠ ق٠م) أعظم ملوك الدولة الوسطى وفتوحاته العسكرية بخارج مصر ومحاولته كشف المحيط الهندى ويتحدث عن قصة العمى الغامض الذى أصاب الفرعون فيروس (ربما كان يعنى منفتاح وأن القصة من تشنيع اليهود (١)) وقصة الفرعون بروتيوس (ربما ست نخت أول ملوك الأسرة العشرين (٢)) والفرعون رامبسينتوس (ربما رمسيس الثانى (٣)) وقصته مع لص المقابر ويتحدث عن خوفو الطاغى وقصة بناء الهرم الأكبر وابنه خفرع وعن منكاورع أيضا ٠ ثم يتحدث عن الفرعون موكرينوس Mycrinus وحكمه العادل ، ثم الملك سيثوس (ربما الحاكم النوبى شباتاكا) (٤) وحكاية هزيمة الملك الأشورى سنحريب على يد جيوش من الفيران التى قرضت أوتار نباله وهو نائم ولذا لم يتمكن من غزو مصر (٥) ٠

وهنا يترك هيرودوت الاعتماد على المصادر المصرية المباشرة من كهنة هليوبوليس ويعود الى الاعتماد على المصادر الاغريقية ربما على كتابات المؤرخ الاغريقى هيكاتايوس الذى يكاد يعاصر تلك الفترة وهى حكم الملك بسماتيك الأول (حوالى منتصف القرن السابع ق٠م) ذلك الفرعون الذى أقام حكمه على الجنود من الاغريق المرتزقة بأسلحتهم المصنوعة من البرونز ، وهكذا يبرز تاريخ مصر من الغموض الأسطورى عندما أنشأ الاغريق مستوطنتهم نقراطيس وأصبح يراقبون المصريين عن قرب بل وارتبط تاريخ مصر بتاريخ بلاد اليونان وانتهت فترة العزلة بين الشعبين منذ غزو الدوريين لبلاد اليونان وغزو الأشوريين لمصر ٠ وبعد مائة عام يحكم الملك أماسيس (أحموس الثانى) صديق الاغريق وحليف بوليكراتيس (Polykrates) طاغية ساموس ٠ ويذكر هيرودوت بدهشة كيف أن هذا الملك أدهش النبلاء وعليه القوم باغراق نفسه فى المجون والمرح بعد الانتهاء من العمل اليومى الشاق « لأن أصحاب الأقواس بشدونها عندما

(١) انظر صقر خفاجه وأحمد بدوى ص ٢٢٨ ملحوظة (١) ٠
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٠ ملحوظة (١) ٠
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٩ ملحوظة (١) ٠
(٤) المرجع السابق ص ٢٧٠ ملحوظة (١) ٠
(٥) هيرودوت فقرة ١٤١ ٠

يحتاجون الى استعمالها وبعد استعمالها يرخونها ، لأنها اذا بقيت على الدوام مشدودة انقطعت ولا يمكن لهم أن يستخدمونها عند الحاجة وتلك أيضا طبيعة الانسان أيضا اذا ابتغى الجد دائما ولم يسمح لنفسه باللهو ساعة فانه — من غير أن يدرك — يصير مختلا أو معتوها (١) » .

ثم ينتقل هيرودوت للحديث عن فن البناء والمعمار ويصف بعض المبانى الهامة مثل قصر اللابيرانث (وهو معبد امنمحات الثالث ١٨٤٢ — ١٧٩٧ ق.م الجنائزى الذى أقامه قرب هوارة عند مدخل الفيوم) ويصف أروقته وحجراته البالغ عددها ثلاثة آلاف حجرة ، ثم يتحدث عن القناة التى حفرها الملك نيخو والتى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر والتى أكملها الملك دارا الفارسى ، ويتحدث عن شروع الفرعون نيخو للدوران حول القارة الافريقية وكيف أنه بالفعل دار حول طريق رأس الرجاء الصالح ودخل البحر الأبيض عن طريق مضيق جبل طارق لترسو السفن عند الشاطىء بعد ثلاث سنوات من الابحار المتواصل (٢) .

وقرب نهاية حكم أماسيس الذى بلغ أربع وأربعين عاما كان قمبيز بن قورش يستعد لاحتلال مصر ضمن خطته للسيطرة على العالم ولكن هيرودوت يفتش لنا عن سبب شخصى لهذه الحملة وهو أنه أرسل الى فرعون مصر يطلب طبيبا كبيراً متخصصاً فى علاج العيون ويرغم هذا الملك طبيباً كبيراً على ترك زوجته وأولاده ليسافر الى بلاط قمبيز وهناك ينتقم الطبيب بأن يملأ رأس الملك الفارسى بأن علاج عينيه يكمن فى زواجه من ابنة فرعون مصر (٣) . وكان الطبيب يعلم أن هذا الزواج لن يرضى الأسرة الفارسية ، كما أن فرعون مصر سيرفض أن تذهب ابنته كعشيقة فى بلاط قمبيز . ويتحايل فرعون مصر بارسال جارية جميلة على أنها ابنته ولما اكتشف قمبيز ذلك يقرر غزو مصر انتقاماً للخديعة وعقاباً لذلك الفرعون .

---

(١) هيرودوت فقرة ١٧٣ ، المرجع السابق ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٢) هيرودوت ١٥٨ .

(٣) وهنا يبدأ الكتاب الثالث الذى سماه هيرودوت باسم ثاليا Thalia ولكن الموضوع يستمر ولهذا نهمل الحدود القديمة للكتاب الثانى ونعبر الى الكتاب الثالث من أجل الفكرة الواضحة ؛ الكتاب الثالث فقرة ١ .

كل هذه القصص والحكايات الطريفة ليست سوى تبرير لفكرة تاريخية ونفسية فى عقل هيرودوت وهى أن هناك قوى مجهولة تسير بالانسان الى قدره وتحركه نحو مصيره وهو لا يعرف . ثم يتحدث عن هرب أحد كبار الضباط الاغريق المرتزقة العاملين فى الجيش المصرى وكشف أسرار الجيش المصرى للفرس وعن أحسن طريقة لاحتلال مصر . ثم يموت أماسيس ويتولى ابنه وتدور المعركة قرب بيلوزيوم (الفرما ٢٧ كيلومتر شمال شرق بور سعيد فى صحراء سيناء) ويهزم المصريون وتسقط مصر فى حوزة الفرس . ومن العجيب أن هيرودوت يروى أنه زار ميدان المعركة وذلك بعد مرور حوالى مائة عام وشاهد جماجم القتلى مبعثرة فى صحراء سيناء وادعى هيرودوت أنه تمكن من تميز جماجم المصريين من جماجم الفرس ، لأن الأخيرة هشة تكسر بسهولة بينما جماجم المصريين صلبة لأنهم تعودوا على حلق شعرهم منذ الطفولة وبالتالى فقد جعلت الشمس جماجمهم صلبة (٣) لا تكسر .

نلاحظ أن هيرودوت حرص على أن يصف غزو قمبيز لمصر بأنه اجرامى ملىء بالأفعال الدنيئة التى تقشعر لها الأبدان مما يجعلنا نشك فى أن يكون هيرودوت قد رجع الى الكهنة المصريين فى هذا الموضوع لأنه من المعروف أن الكهنة المصريين كرهوا قمبيز لاحتقاره دياناتهم . وربما بالغ هيرودوت فى بشاعة الجرائم التى ارتكبها قمبيز ليمهد لنظرية الانتقام الربانى من الفرس عندما هزموا على يد الاغريق مرة عندما كان يقود الفرس دارا ومرة عندما كان يقودهم كسيركسيس . وهذا يتفق وفكر هيرودوت التاريخى . ومن الواضح أيضا أن هيرودوت اعتمد على مصادر مصرية معادية للفرس ومتحيزة خاصة عند معالجته لحملة قمبيز ضد بلاد النوبة وفشل الحملة بسبب سوء التخطيط حتى أن الجنود الفرس أكل بعضهم البعض من الجوع .

ويتحدث هيرودوت عن الأثيوبيين (أهل النوبة (١)) ويصف حياتهم

---

(٣) الكتاب الثالث فقرة ١٢ .

(١) الكتاب الثالث ــ فقرة ١٧ ــ ٢٠ .

السعيدة ، فهم معمرين ولهم قامات ممشوقة ووجوه بهية الطلعة وسيمة ، وهم يقيدون المسجونين بأغلال من ذهب • ويعمر بعضهم ليصل الى مائة وعشرين عاما ويشربون من ينبوع له رحيق البنفسج ويستخدمون نبالا لا يقدر على ثنيها أحد سواهم • ثم يتحدث هيرودوت عن نكبة الفرس فى واحة سيوة (واحة آمون) الواقعة على بعد ٤٠٠ ميل غربا من مدينة القاهرة ، ويروى كيف ابتلعت العواصف وبحور الرمال ربع مليون جندى هو تعداد الجيش الفارسى المهاجم • ويركز هيرودوت على جرائم قمبيز وجنونه لأنه سخر (١) من عجل آبيس وأنه فعل ذلك لأنه استطاب أن يسخر من كل شىء يقدسه المصريون • ثم يعطى لنا درساً أخلاقيا عندما يروى كيف أن الملك قمبيز طلب من الاغريق ماذا يأخذون مقابل أكل موتاهم فقالوا « الذهب » ، ثم سأل قبيلة هندية كانت تمارس عادة أكل الموتى ماذا يأخذون لو طلب منهم حرق موتاهم فكان جوابهم صراخ مرعوب ولم يقدروا حتى على الجواب من هوله وهو يعنى أنه لكل شعب عقائده التى يشب عليها ، ومن ثم فمن الجنون أن نسخر من عقائد الناس لأنها غريبة علينا •

وفى النهاية كالمأساة يروى لنا هيرودوت موت قمبيز على أثر جرح أصابه فى فخذه من أثر سقوطه من فوق صهوة جواده (٢) ، ثم يروى لنا المؤمرة على العرش وكيف أن قمبيز يعترف وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بالحقيقة ويحزن الفرس وينتهى حديث هيرودوت عن مصر كما تنتهى الأليادة بمنظر حزين ولكنه عبره من عبر التاريخ والانتقام الربانى التى التى لا تغفل عن الظلم ولا تترك الظالم •

---

(١) الكتاب الثالث ٢٧ — ٢٩ •

(٢) الكتاب الثالث ٦٤ — ٦٦ اعتقد أن الحديث عن مصر ينتهى من ناحية الواقع التاريخى فى الكتاب الثالث عند آخر الفقرة ٦٦ •

ثوكوديديس Thycydides صاحب المنهج العلمى (٤٧٠ — ٣٩٦):

تخصص ثوكوديديس فى دراسة وتاريخ الحروب البيلوبونيزية الكبرى بين أثينا واسبرطة (أنظر الفصل التالى) . والتى اندلعت عام ٤٣١ ق.م وساعد على تفهمه فى الحروب وقضيتها أنه كان أحد القادة العسكريين الأثنيين الذين اشتركوا فيها ولكنه ارتكب خطأ طرد بعده من الجيش فكرس نفسه لدراستها وتحليلها وكان قد جاوز الأربعين وقتئذ . فأمضى عشرين عاما متنقلا بين مسارح المعارك المختلفة ليدرسها ويسجلها (١) . ولم يرجع الى أثينا الا بعد سقوطها واعلان الأمن العام لجميع المنفيين عام ٤٠٣ لذا فهو شاهد عيان وخبير ناقد (٢) . ويبدو أنه لم يعش طويلا بعد عودته اذ أنه مات عام ٣٩٦ ق.م فى اقليم تراقيا . وغطى عمله عن الحروب البيلوبونيزية ثمان مؤلفات سجل آخرها الانتصار الخاطف للأسطول الاثينى عام ٤١١ ق.م ونظرا لارتباط هذا المؤرخ الفذ بالحروب البيلوبونيزية فسوف نعالجه باسهاب أثناء معالجه هذه الحرب التى تعد من أخطر الحروب التى خاضتها بلاد اليونان .

هذه هى نظرة شاملة عن الازدهار الثقافى والحضارى للجمهورية الأثينية فى عصر بيريكليس الذى يمثل قمة الازدهار الديموقراطى والديناميكية السياسية الخلاقة والتفوق المادى والفكرى بفضل القيادة الرشيدة القائمة على ارادة الجماهير دون الانصياع لها كلية .

---

(١) انظر : « تأملات فى طبيعة الفكر التاريخى عند الاغريق » للدكتور سيد احمد على الناصرى ـ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ الموسم الثقافى عام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ من ص ٨٣ ـ ٩٨ .

(٢) انظر : ابراهيم نصحى : ثوكوديديس : بيروت منشورات الجامعة الليبية ـ كلية الآداب ١٩٧٠ .

الفصل الثاني عشر

الحروب البيلوبونيزية الكبرى

لا يمكن لدارسى التاريخ الانسانى عامة والحضارة الاغريقية خاصة الا أن يتوقف طويلا عند الحديث عن هذه الحرب الضروس التى شملت العالم الهللينى كله زهاء سبع وعشرين عاما (٤٣١ ـ ٤٠٤) أنها تراجيديا التاريخ الاغريقى كله اذ أن أثينا دفعت كل رأس مالها السياسى عبر قرون عديدة من العرق والعمل والدم من أجل بناء امبراطورية قوية وقادرة على فرض سلطانها برا وبحرا على كل مدن هيلاس ، ومن أجل الحفاظ على هيبة العنصر الاثينى وجعله على قمة الهرم الهللينى سياسيا وحضاريا • لقد قامرت أثينا فى هـذه الحرب بكل ما تلمك على قوس خاسر ودفعت الثمن غاليا وعزيزا •

ان موضوع الحرب أمر معروف وحدث متوقع لأنه ثمرة سياسة الاستعلاء والصلافة التى اتبعتها أثينا وهى فى قمة سلطانها• فهى لم تتورع عن التحرش بأسبرطة وحلفائها ـ خاصـة كورنثا ـ بغرض الارهاب والاذلال • لقد كان الصراع بين أثينا وحلفائها أو بمعنى أدق ـ وتوابعها ـ وبين أسبرطة وحلفائها (أعضاء الحلف البيلوبونيزى) أشـبه بصراع الديكة (١) • وقد إنتهى الصراع كما قلت آنفا عام ٤٠٤ ق•م• بفقدان

---

(١) من اعظم المؤلفات عن جذور الحروب البيلوبونيزية كتاب :
G.E.M. de Sainte Croix, The origins of the Peloponnesian war, Londen, Duck Worth 1972.

وقد قام المؤلف بمسح شامل لاوضاع بلاد اليونان قبل أن يتطرق الى موضوع الحرب ، وركز على اسبرطة ومجتمعها وحكمها ومشـاكلها الاجتماعية لكى يبين مسؤليتها فى اندلاع الحرب فليست اثينـا وحـدها المسؤلة ، كما تطرق المؤلف الى القرن الرابع واحواله ، وهو فى مؤلفه يقلد ثوكوديديس عندما يعطى العمق اهمية على حساب الحدث ذاته •

القوة الاثينية السياسية الى الأبد حيث أصبحت هذه الدويلة من الدرجة الثانية رغم أنها استمرت — باعتراف الاغريق جميعا — جامعة هيللاس الأولى للثقافة والحضارة بل جامعة العالم المسكون بأسره

ان هذه الفترة الحالكة من تاريخ بلاد اليونان تكاد أن تخلو من أى بريق سوى كتابات المؤرخ العظيم ثوكوديديس [1] الذى استطاع بتحليله للأحداث أن يرفعها الى درجة انسانية خالدة وأن يتتبع أطراف الصراع الى جذوره الأصلية وأن يتعمق بتحليلاته الى أعماق النفس البشرية فيحول الوقائع اليومية الى مواد تاريخية كما استطاع بعبقريته الفذة أن يكشف النقاب عن القوى الحقيقية التى كانت تحرك الأحداث ٠

يمثل ثوكوديديس شخصية المواطن الذى عاش فى أثينا الامبراطورية تحت زعامة بيريكليس اذ يتضح ذلك من قوة أسلوبه وعمق فكره وصرامته القاطعة فى حكمه ٠ كما كان رجل عمل وحركة بقدر ما كان رجل أدب وتأمل ٠ فهو أحد « جنرالات » أثينا الكبار الذين خططوا للحرب واشتركوا فيها فعلا ٠ فالأحداث التى يصفها رآها بعينه والظروف التى يتحدث عنها عاشها بنفسه ٠ لقد أحس هذا المؤرخ أن تلك الحرب لن تكون كأى حرب أخرى لأنها صراع حتى النهاية ٠ ولذا بدأ يجمع المواد ويسجل الوقائع وقد قيل أنه طرد من الجيش ونفى من العاصمة لأسباب تتعلق بالحرب ذاتها ٠ عندئذ كرس نفسه لدراساته الميدانية فزار المناطق التى تلاحمت فيها القوات المتحاربة وتفحص مواقع العمليات العسكرية الكبرى فهو عندما يصف الحقيقة يصفها بعين عسكرى قدير ، يحس بكل حركة ويتفهم كل عملية صادرة من الجيوش المتقاتلة ٠ وأروع مافيه أنه استطاع أن يطابق الدراسة النظرية بالدراسة الميدانية ، ولذا فان تاريخه أقرب الى الكمال [2] ٠

وبالرغم من أن ثوكوديديس أحب أثينا حبا جما كأحد أبنائها المخلصين الا أنه لم يتردد فى أن يفكر بصوت عال منتقدا سلوك الدولة الاثينية معترضا على سياستها ٠ لقد هام ثوكوديديس حبا بالعظمة واستعراض

(1) Cf. Luschat in Pauly-Wissowa, Supplement II, (1970) Coll. 1085, Sub. Thukydides der Historiker.

(2) A. Kirchhoff, Thukydides und sein Urkundenmaterial (Berlin 1895).

العضلات تماما مثل بيريكليس فهو يتبنى فكرة « الاستعمار العارى » اذ أنه يرى من الطبيعى للدول أن تتوسع ما دامت تمتلك من عناصر القوة ما يحقق لها ذلك وأن الحرب ليست الا تعبير عن هذه القوة . كما اهتم ثوكوديديس بالمسببات التاريخية للأحداث فهو يرى أن القوى التى تصنع التاريخ مصدرها السياسيون أولا لأنهم يتصرفون بدوافع ذات نتائج ثم أعضاء المجلس الشعبى بما فيه غوغاء تحركها عواطف مشبوبة ومحسومة فحينا تتصرف بجنون وحينا بتعقل ولهذا وزنه فى القرارات التى اتخذت والتى كان تمسك بمصائر الأمور من قريب أو بعيد . ويكاد تاريخه ينطق أن الدولة الفاضلة هى تلك التى يسودها نظام حكم معتدل مثل النظام الأثينى وخاصة لو كان على رأس الحكومة قائد حكيم وكفء وعظيم مثل بريكليس ولكنه يعترف فى النهاية أن القوة وحدها لا تضمن النصر لأن للحظ أو القدر (أو ما يمكن تسميته بعناية الله) دور فى الحروب والانتصارات .

ما من قارىء للآداب الاغريقيـــة يستطيع أن ينـــكر أن مؤلفـــات ثوكوديديس عن الحروب البيلوبونيزية قطعة عزيزة من روائع الأدب الراقى القديم ، غراء فى جيـــد الزمان . لقـــد تأثر ثوكوديديس بروح شعراء المسرح الأثينى فنسج تاريخه بطريقة مسرحية محبوكة فهو يفسح مجالا للشخصيات لكى تجىء وتذهب بعد أن يلقى كل منها دوره فى خطبة غراء ويتخيل المواقف التراجيدية ويحاول بقدر الامكان أن يثير فى نفس القارىء « الخوف والرثاء » وهما العنصران اللذان اشترطهما أرسطو لاكتمال التراجيـــديا . كما تأثر ثوكوديديس بجـــدل المدرسة السوفسطائية فهو يكثر من الجدل ولا سيما المناظرات بين ذوى الآراء المختلفة ، كما تلعب الخطابة العاطفية المؤثرة دورها فى تاريخه اذ يسجل لنا الآراء فى شكل خطب مؤيدة ومعارضة أشبه بما يدور فى «البرلمانات» المعاصرة وليس من شك فى أن الخطب من أسلوب ثوكوديديس نفسه صاغها من أفكار شخصياته وباختصار هضم ثوكوديديس قضية الحرب ثم صاغ تاريخها بأسلوب جذاب وحبكها بطريقة مسرحية تراجيدية ثم أخرجها للناس بطريقة ممتعة وشيقة .

لا يكاد المؤرخ الحديث يعرف مؤرخا آخر يفوق ثوكوديديس فى الطريقة التى كتب بها فقد تتبع بصبر وأناة هدفه الذى يعرفه جيدا دون أن يستهويه موضوعات جانبية تجعله ينسى هـدفه الأول . كما كان أول من استفاد من التحليل النفسانى لشخصياته من أفراد وقادة حتى الجماعات السياسية بل والدول بكاملها حللها نفسيا بدقة علمية بالغة النظير . أيضا أفسح ثوكوديديس الطريق لأعداء أثينا لكى يقولوا رأيهم أمام التاريخ دون أن يتعصب ضدهم أو يشوه حقائقهم . هكذا كان ثوكوديديس ذكيا ذكاء فطريا عميقا فى تحليلاته مجتهدا ذا بديهة حاضرة وعبقرية نادرة . كما كان متواضعا فلم يظهر نفسه ويؤكد « أناته » الا عندما كتب متفاخرا بأعماله فى المقدمة تحدث فيها عن نفسه قائلا « ان كتاباتى التاريخية كتبت لتبقى خالدة لأنها ليست عملا كتب بغرض نيل جائزة سرعان ما ينسى بعد الاستماع اليه .

تنقسم مؤلفات ثوكوديديس عن الحرب الى خمس أجزاء [1] :

(أ) المقدمة (وهى تغطى الكتاب الأول) .

(ب) أحداث العشر سنوات الأولى من الحرب (الكتاب الثانى) .

(جـ) محاولات نيكياس لعقد السلام (الكتاب الخامس) .

(د) حملة أثينا ضد صقلية (الكتاب السادس والسابع) .

(هـ) شذرات عن هجوم اسبرطة بعد هرب الكبياديس اليها واحتلالها لمنطقة دكليا فى شمال أثينا .

هذا من ناحية الشكل ؛ أما من ناحية الفعل فان تفاصيل الحرب سجلها فى الجزء الأول (أ) والرابع (د) .

(1) R.Warner (translators Thucydides History of the Pelepennesian War with introduction and notes by M.E. Finley, Penguin books, Harmonds Worth 1972 ; A.=. Gomme, A. Andrews and J.K., Dover," A. Historical Commentory on Thucy dides, Vol. IV Book Oxford 1970.

اسباب اندلاع الحروب البيلوبونيزية :

لم يقبل ثوكوديديس الأسباب المباشرة بل تحدث باسهاب عن الأسباب العميقة التي أدت الى قيام هذه الحرب الكبرى فهو يقول : « انني أعتقد أن السبب الحقيقي والذى لم يعلن عنه هو ازدياد قوة أثينا لدرجة أن أفزعت أهل اسبرطة ودفعتهم الى الدخول فى حرب معها (١) ، ثم يعرض ثوكوديديس الأسباب التى من بينها مساهمة اسبراطة المحدودة فى التاريخ وذكر أنه لا يوجد من القرائن التاريخية ما يؤيد الاتهام العام بأنها المسئولة عن اندلاع هذه الحرب الكبرى • وتحدث ثوكوديديس عن حقيقة هامة وهى أن مدينة أثينا مدينة « مجددة » و « خلاقة » اذ فتحت الأبواب على مصراعيها لكل جديد مما سبب ازعاجا لسياسى اسبرطة المحافظين وقد وضع ثوكوديديس هذه الفكرة على لسان ممثل مدينة كورنثا فى اسبرطة حين يقول : أن الأثينيين مجددون سريعو الادراك والتنفيذ لأى مشروع جديد بينما أنتم — أيها الاسبرطيون — محافظون تضعون كل همكم فى الاحتفاظ بما معكم » ويكمل ثوكوديديس الصورة برد مندوب أثينا الذى قال « لقد وضعت الظروف بين أيدينا امبراطورية أيدهشكم سلوكنا — الذى هو سلوك كل البشر دائما وأبدا — فى أن نتقبلها وأن نرفض التفريط فيها • لقد دفعنا الى ذلك ثلاثة عوامل شديدة الالزام هى الطموح والخوف والمصلحة الذاتية ••• لسنا أول من تطلع الى التوسع • وبها سنة الخلق دائما أن يخضع القوى الضعيف وهل توقف العدل يوما فى طريق انسان يريد أن ينتزع بالقوة ما يستطيع ؟

ولذا يعتقد كثير من المؤرخين أن الحروب البيلوبونيزية بدأت قبل ذلك ويطلقون على الفترة ما بين ٤٥٩ — ٤٤٦ — المرحلة الأولى من الحرب ، والمعروف أن أثينا فى تلك الفترة كانت منهمكة فى تحويل حلف ديلوس بالقوة الى امبراطورية • اذا يمكن أن نقول أن سياسة بيريكليس الاستعمارية التوسعية واجباره الدويلات الاغريقية على الخضوع لسلطانه هو السبب الأساسى لاندلاع هذه الحروب • كما كان من الصعب على

(1) Thucydides, Book I : 23.

الدويلات الاغريقيـــة التى استماتت فى الدفاع عن حريتها eleutheria وسيادتها autonomia وتكاملها الاقتصادى autarkia أن تخضـــع بسهولة ، كما أن هذه السياسة لم تعجب اسبرطة المحافظة واعتبرت هذا السلوك الأثينى تهديدا مبـــاشرا لهـــا ولسياستها التى وضعت أسسها وحافظت عليها عبر العديد من القرون .

تدخل اثينا فى الحروب الأهلية فى جزيرة كوركيرا (كورفو) :

من أهم الأسباب المباشرة التى قربت موعد الحرب وفجرت الجـــو المشحون بالكراهية والشكوك بين أثينا واسبرطة هو تدخل أثينا فى خلاف قام بين مدينة كورنثا ـــ احدى كبريات أعضاء حلف البيلوبونيـــزس وبين مستعمرة استيطانية هامة لها هى جزيرة كوركيرا (كورفو الحـــالية والمتاخمة للشاطىء الغربى لبلاد اليونان والمواجهة لايطاليا) وكان سبب الخلاف بين المدينة الأم ومستعمرتها مستعمرة جديدة فى منطقة الليريا Illyria فى شمال البلقان هى مستعمرة ابيدامنوس . وكانت كورنثا ومستعمرتها كوركيرا قد تعاونتا فى اقامة هذه المستوطنة الجـــديدة . ولكن قامت حرب أهلية اجتماعية stasis) فى هذه المستوطنة أيدت أثينا أحد أطرافها ثم أيدت كورنثا الطرف الآخر ولما تطور الأمر طلبت كوركيرا من أثينا التدخل وسرعان ماعقدت أثينا اتفاقية معها وزودتها بالسفن البحرية وكان من نتيجة ذلك هزيمة كورنثا المهينة البحرية فى معركة سيبوتا Sybota عام ٤٣٣ ق.م على يد كوركيرا .

كورنثا ترد بالتدخل لمساعدة بوتيدايا Potidaea ضد اثينا :

كانت بوتيدايا فى الأصل احدى مستعمرات كورنثا فى خليج باللينى Pallene ولكنها وقعت فى حظيرة أثينا وأجبرت على أن تكون احدى توابعها بينما كانت المدينة تتعاطف مع كورنثا . وبتشجيع من الأخـــيرة رفضت بوتيدايا أن تعلن ولاءها وتبايع أثينا علنا تنفيذا لأوامر كورنثا . ولما تأزمت الأمور ثارت ضد أثينا وطلبت الحماية من الحلف البيلوبونيزى المجاور لها . وأسرعت كورنثا فأرسلت ألفى متطوع لمســـاعدة الثوار

ولكن أثينا قطعت عليها خط الرجعة بمسارعتها محاصرة المدينة الثائرة فى خريف عام ٤٣٢ واجبارها على الاستسلام .

القرار التاديبى ضد ميجارا Megarian decree

حتى هذه اللحظة لم تنفعل اسبرطة بل آثرت أن تنتظر على مضض منها بالرغم من الالحاح المتزايد من جانب حلفائها بمسارعة التدخل ويبدو أن بيريكليس . كان يعلم بأن الحرب قادمة لا محالة فآثر أن يقرب موعدها فسارع واتخذ قرارا عدوانيا ضد مدينة ميجارا احدى توابع الحلف الاسبرطى وينص هذا القرار على تحريم الموانىء التابعة للامبراطورية الأثينية على السفن الميجارية واغلاق الأسواق فى وجه التجار من هذه المدينة التى كانت حياتها تقوم أساساً على التجارة أى أن هذا القرار كان بمثابة حكم الاعدام على أهل هذه المدينة من الناحية الاقتصادية .

مجلس حلف البيلوبونيسوس يعلن الحرب على أثينا :

كان القرار التاديبى باغلاق الموانىء والأسواق فى وجه السفن والتجار الميجاريين هو بمثابة « القشة التى قصمت ظهر البعير » اذ أحست اسبرطة وحلفائها أن « الوعاء قد فاض بما فيه » فاجتمع مجلس الحلف فى اسبرطة وألقيت الخطب النارية من ممثلى الوفود كلها تقطر حقدا وكراهية ضد أثينا وتحث اسبرطة على الحرب . وفى خريف عام ٤٣٢ ق.م اجتمع أعضاء الحلف وقرروا رسميا اعلان الحرب ضد أثينا . ولكى تكسب اسبرطة الوقت قامت بعدة مشاورات بينها وبين وفود حلفائها ثم أقرت مطالب ثلاثة على أثينا تنفيذها والا قامت الحرب والمطالب الثلاثة هى :

(أ) أن تنهى أثينا حصار مدينة بوتيدايا .

(ب) أن تعلن أثينا تحرير جزيرة أيجينا .

(جـ) أن تلغى أثينا الحظر الذى أقامته ضد ميجارا .

ولما رفضت أثينا هذه المطالب الثلاثة بشدة أرسلت اسبرطة انذارا شديد اللهجة تحرض فيه على الثورة ضد أثينا واظهارها بمظهر المعتدى . وخلاصة القرار « أن اسبرطة ترغب فى السلام بشرط أن تدع أثينا المدن

الاغريقية وشأنها » • وكان هذا يعنى حل الامبراطورية الاثينية • وأرسلت أثينا ردها المشهور « ان أثينا تقبل التحكيم وهى لا ترغب فى أن تكون البادئة بالحرب ولكنها سوف تدافع عن نفسها بشدة اذا ما هوجمت » •

كان بيريكليس وقتئذ فى الستين من عمره وكان متحمسا للحرب بل تمنى لو قامت قبل ذلك بسنين قبل أن تدهمه الشيخوخة حينما كان هو وأثينا فى عنفوان شبابهما • وعلى أى حال فقد رفض بيريكليس الغيور أى محاولة لمنع نشوب الحرب على حساب تنازل أثينا ولو عن قليل من سيادتها على أجزاء امبراطوريتها ارضاء للحلف البيلوبونيزى من ناحية وحلف مدينة طيبة من ناحية أخرى (١) •

---

(١) لا يزال هناك جدل يدور بين العلماء حول مسئولية بيريكليس عن القرار التاديبى ضد ميجارا الذى أشعل شرارة الحرب «سانت كروا» يبرىء نية بيريكليس فى العدوان بينما يلقى «فلفى» اللوم كله على بيريكليس وعلى نظريته فى سياسة فرض النفوذ ولو عن طريق الضربة القاضية ، وان هذه الفكرة هى التى جعلت بيريكليس يؤمن ان الحرب مع اسبرطة حتمية ومقدرة أنظر :

K.W. Welweic Das Problem desp Praevent Krieges in Politischen Denken des Perikles und des. Alkibiades, Gymnasium, LXXIX, 1972, p. 289—305.

أما نايت فيتهم سياسة بيريكليس بأنها قصيرة النظر وغير منطقية لانه لم يدرك تكاليف المعارك التى هى فوق طاقة اثينا ولم يقدر قوة اسبرطة العسكرية .. لكننا نتساءل هل كان بيريكليس يقرأ الغيب ويتوقع وباء كالطاعون الذى كان سببا من اسباب الهزيمة ؟ ام ظهور قائد داهية فى اسبرطة مثل براسيداس ؟ ان رأى ثوكوديديس فى الهزيمة واضح وهى أن السبب ليس استراتيجية بيريكليس بل مسلك الكبياديس ومحاولته ضرب اسبرطة باى ثمن : انظر :

D.W. Knight," Thucydides and the War Strategy of Pericles, Mnemosyne, Seyie 4, XXIII, 1970, p. 150 ff.

ورغم هذا يلقى سانت كروا مسئولية الحرب على صقور الحرب فى اسبرطة وفى كورنثا وتفشى روح الحرب فيها . اذا فالمسألة ليست مسألة اثينا وحدها .

الحرب الكبرى :

أصبح معروفا لدى الاغريقية أن الحرب على وشك من الاندلاع وبدأت المدن والجزر تعلن عن تأييدها للطرف الذى تناصره ودخلت فى ذلك الخلافات الاجتماعية والأحقاد السياسية .

ولكى تتفهم حجم الحـرب لابد وأن نعرف مدى قوة الأطراف المتحاربة .

اسبرطة :

كان يساندها كافة مدن البيلوبونيسوس (شبه جزيرة المورة) فيما عدا أرجوس واقليم آخيا فى الشمال، وعن طريق كورنثا وميجارا كانت اسبرطة تسيطر على خليج كورنثا كما تعاطفت طيبة عاصمة اقليم بيوتيا Boeotia (فى شمال شرق أتيكا) مع اسبرطة وأيدتها وكذلك اقليمى لوكريس Locris وفوكيس Phocis الواقعتين فى شمال شرق منطقة بؤتيا وبذلك قطعت اسبرطة الطريق على أثينا من ناحية الشرق . وكذلك فعلت من ناحية الغرب اذ أيد اسبرطة من الساحل الغربى جزيرة ليـوكاس Leucas ومدينة أناكتوريوم Anactorium على خليـج أمبراكيا على الساحل الغربى لبلاد اليونان .

اثينـا :

اعتمدت أثينا أساسا على ولاء حلفائها كما وجدت بعضا من المؤيدين لها خارج أراضيها مثل مدينة بلاتيا Platea (جنوب طيبة) راقليم أكارنانيا Acarnania المطل على الساحل الغربى لبلاد اليونان (جنوب خليج أمبراكيا) وكذلك جزيرة كوركيرا وجزيرة زاكينثوس Zacynthus التى تقف فى مواجهة شبه جزيرة الموره .

كانت أثينا سيدة البحار بلا منازع تكمن قوتها فى أسطولها الحربى أما من ناحية القوات الأرضية فلم يكن لها من الرجال سوى ما يقوم بالدفاع وحماية القلاع وخلاصة القول أن كان لأثينا قوتان : قوة هجومية هى الأسطول والقوات البحرية وقوة دفاعية أرضية . أما اسبرطة فكانت تملك من القوات البرية المدربة تدريبا عاليا ما جعل أثينا تتفادى الدخول

فى معركة برية معها ولكن لم يكن لاسبرطة من الأساطيل ما يجعلها قادرة على مواجهة أثينا كما كانت دولة تفتقر الى المال والابتكار وهما وقودا للحرب .

كانت خطة الحلف البيلوبونيزى تتلخص فى غزو أتيكا بريا وتخريب الحقول ونهب المدن والقرى وفرض القتال على الأثينيين ، أما سياسة بيريكليس فكانت تتلخص فى « الدفاع السلبى » وهى الانسحاب والتحصن داخل أسوار العاصمة وتجنب الدخول فى معركة فاصلة مع قوات الحلف البيلوبونيزى حتى ولو ضحت فى سبيل ذلك باقليم أتيكا كله بينما تتمسك بسيادتها على البحار ، وكان الأسطول يقوم بجلب المواد الغذائية الى جانب الدفاع عن الامبراطورية فى أعالى البحار كما تجنب بيريكليس سياسة التوسع أثناء الحرب .

الشرارة الأولى طيبة تهاجم بلاتيا :

كانت بلاتيا مدينة ذات وضع شاذ فهى تؤيد أثينا بينما هى تقع فى منطقة معادية لها وقد ساء مدينة طيبة التى تقع فى شمال هذه المدينة أن تتركها دون عقاب فدبرت مع بعض الخونة الموالين لها مؤامرة للاستيلاء على المدينة ليلا ويروى لنا ثوكوديديس كيف أن أهل المدينة هبوا عن بكرة أبيهم للدفاع عن استقلالهم وطردوا المهاجمين واستعدوا لمواجهة حصار يضرب عليهم وكان ذلك فى مارس عام ٤٣١ بينما بدأ القتال الفعلى بين أثينا وأسبرطة فى شهر مايو من العام نفسه .

وفى مواجهة هذه التحديات طلب بيريكليس من سكان المناطق الأتيكية أن يهجروا ديارهم ويتركوا حقولهم وينسحبوا بأمتعتهم الى داخل أسوار المدينة . ويبدو أن بيريكليس توقع أن القوات المهاجمة لن تصبر على البقاء طويلا فقد كان على علم بأن معظم جنود اسبرطة من صغار المزارعين الذين سوف يشعرون آجلا أو عاجلا بحنين للعودة وممارسة حياة الزراعة ولم يكن هناك ما يدعو الأثينيين للقلق فقد كانوا محصنين داخل أسوار مدينتهم يقومون بحراسة الحوائط التى كانت تربط بين العاصمة وميناء بيرايوس كما قام الأسطول الأثينى بامداد

السكان بكافة ما يحتاجونه من المواد الاستهلاكية والغذائية . وبين الفينة والفينة كانت قوات الأسطول الأثينى تقوم بهجمات على شواطىء البيلوبونيسوس وتوقع بها أقصى ما يمكن من الخسائر المادية. وخلاصة القول كانت سياسة بيريكليس فى مواجهة أعدائه هى الصمود والاستنزاف السلبى والايجابى . فمثلا طرد أهل أيجينا من جزيرتهم وهاجم الأسطول الأثينى ميجارا وشاطىء البيلوبونيسوس .

قوات البيلوبونيسوس تغزو آتيكا :

وصلت قوات البيلوبونيسوس الى أتيكا فى ربيع عام ٤٣١ تحت زعامة أرخيدامس ملك اسبرطة وراحت تقتلع أشجار الكروم وتخرب الحقول وتحرق القرى بينما تذرع الأثينيون بالصبر كابحين بقوة عواطفهم الوطنية. وقد صور لنا ثوكوديدس هذا الموقف بدقة ، فوصف جماهير الأثينيين وهى تتحرق الى الاندفاع عبر الحوائط وملاقاة الأعداء ووصف كيف كانوا يتفرون فى مجموعات فى شوارع المدينة المحاصرة يثرثرون ويتجادلون فى أمر سياسة بيريكليس وينتقدونه علنا متهمين اياه بالتخاذل أمام العدو .

هكذا مضى العام الأول من الحرب كئيبا فقد أنزلت الحرب خسائر مادية ومعنوية فادحة اذ تدهورت الروابط الاجتماعية وتفككت الأسرة . ويصور لنا الشاعر الكوميدى أرسطوفانيس ما خلفته الحرب من مشاكل اجتماعية اذ تركت الأسرة حطاما وانتشر الانحلال الخلقى نتيجة للنقص فى عدد الرجال فقد التهمت الحرب عددا كبيرا منهم وأصبحت أسرهم دون عائل يحميها ويرعاها ومن ثم فقد تزايد عدد النساء وتناقص عدد الشباب مما تسبب عنه هذا التدهور الأخلاقى الذى كان شبيها بذلك الذى مرضت له روما أثناء حربها مع هانيبال .

بيريكليس يكرم الشهداء :

بالرغم من حالة التذمر والاحساس بالضياع التى سادت الأثينيين وبالرغم من هجومهم الشديد على سياسة بيريكليس الباردة ، الا أن هذا القائد الحكيم استطاع أن يمتص غضب الجماهير ويستوعب نقدهم وبث فيهم الأمل بالنصر وكانت أخبار الأسطول الأثينى ترفع من روح

الاثينيين المعنوية بين الحين والحين . ولا شك أن دعاية بيريكليس كانت تلعب دورا فى المبالغة فى حجم الانتصارات .

وقد انتهز بيريكليس فرصة ليشرح سياسته ويبين وجهة نظره ؛ فأعلن تكريم الشهداء الذين سقطوا فى معارك الصيف وقامت الدولة باعداد جنازة شعبية ورسمية لتشييع القتلى الى مثواهم الأخير فى مقبرة كيراميكوس Cerameikos . أما هؤلاء الشهداء الذين لم يعثر على جثتهم فقد رمز لهم بسرير خال . وأقيمت المراسيم الجنائزية وسط بكاء الشعب ونحيبه .

وأمام مقبرة الشهداء الجميلة فى كيراميكوس وقف كساتبوس ابن بيريكليس على ربوة عالية ليؤبن الشهداء ويقرأ خطبة أبيه . لقد سجل ثوكوديديس (١) على لسان هذا السياسى العظيم قطعة غراء من البلاغة الاغريقية ووثيقة لها دلالتها ومفهومها فى التاريخ والحضارة .

لقد جاءت هذه الخطبة بمثابة دفاع عن بيريكليس نفسه وعن سياسته وصورة جياشة للعواطف الوطنية والشوفانية المطلقة بحب أثينا والاصرار على حمايتها والدفاع عنها لآخر قطرة دم . كما تعتبر خطبة التأبين هذه (Funerary Oration) صورة مجسمة لآراء هذا السياسى العظيم فى لحظة صفاء ذهنى كامل وان شئت قل — النظام الأثينى الديمقراطى يتحدث عن نفسه « لأن الأثينيين كانوا يدافعون عن نظامهم السياسى بقدر ما كانوا يدافعون عن ترابهم . فهى تبين مزايا حكم « الشعب للشعب » وأن حرية الكلمة وعلنية النقاش جديران بالدفاع عنهما حتى فى أحلك ساعات الحرب فمثلا بينما كانت الصدور تجيش بكراهية اسبرطة وبينما كانت هستيريا الحرب تسيطر على الأثينيين جميعاً شعبا وحكومة نجد أرسطوفانيس يتبنى « قضية السلام » ويسخر من السياسيين الأثينيين ويرميهم واحداً تلو الآخر بالنكات الساخرة . هذا مثال واضح لاحترام حرية الرأى حتى فى الأوقات العصيبة . ان القارىء لنص الخطبة — كما جاء فى تاريخ ثوكوديديس عن الحرب — ليدرك مدى ايمان بيريكليس

(1) Thucy dides, II, 37—41.

واقتناعه بأن الحق سوف ينتصر على الباطل وبأن الخير سوف يدحض الشر وأن أثينا سوف تسود رغم كل المعوقات ، واكمالا لهذا الموضوع نعرض فقرات مترجمة من نص هذه الخطبة .

يقول بيريكليس فى هذه الخطبة « ان دستورنا يعرف بالديموقراطية لأن الادارة فيه لاتقع فى أيدى الأقلية ، وبالرغم من أن القوانين تضمن المساواة بين كل المواطنين ازاء مشاكلهم الخاصة ، الا أننا أيضاً نعترف بحق النبوغ أيضاً ، فاذا ما أظهر المواطن نبوغا فى أى شــكل كان فانه يلقى تفضيلا فى الوظائف العامة ليس كنوع من التمييز بل مكافأة له على النبوغ ... ليس الفقر عائقاً لأن المواطن يستطيع أن يفيد وطنه مهمـا شمل الغموض شخصه . اننا فى حياتنا العامة لا نقتصر على فئة معينــة كما أننا فى علاقاتنا الخاصة نأبى أن نشك فى بعضنا البعض ولا نغضب من جار لنا اذا فعل ما يريد ، ولا نلقاه حتى بنظرة حانقة لأنها — وان كانت عديمة الأذى — غير مستحبة « نحن أحرار فى تصرفاتنا الشخصية الا أن احساساً بالاجلال يسود تصرفاتنا العامة ، فنحن نخاف ارتكاب الخطأ من أجل احترام النظام ومن أجل احترام القوانين خاصة تلك التى وضعت من أجل حماية الضعيف وقوانين العرف (الغير مكتوبة) التى تجلب على المعتدى عليها استنكار الشعور العام .

« رغم كل هذا لم ننس أن نعطى نفوسنا المرهقة قسطا من الراحة والترويح من شق العمل ، فعلى مر العام نحتفل بألعاب دورية ونقــدم الأضاحى وقد هذبنا طريقة حياتنا الأسرية ، أن السرور الذى نحس به كل يوم مبعثه هذه الأشياء وهو الذى يساعدنا فى التغلب على حــالة الكآبة ، ولأن مدنيتنا عظيمة فان خيرات العالم كله تتدفق علينا لدرجة أننا نستمتع بخيرات البلاد الأخرى كما لو كانت خيرات بلادنا » .

« اننا نعشق الجمال ولكن نتذوق البسيط (منه) ونهذب العقل دون أن نفقد الرجولة ونستثمر الرخاء لا حبا فى الكلام والتفــاخر بل لأن الحاجة تقتضى استثماره ليس من العيب أن نعترف بالفقر ولــكن العيب — كل العيب — ألا نفعل شيئاً من أجل تفاديه . ان الأثينى لا يهمل

شئون الدولة من أجل اهتمامه بأمور أسرته ، وحتى هؤلاء الذين يعملون بالتجارة بيننا على بينة بقدر وافر من السياسة • اننا دون غيرنا ــ نعتبر الرجل الذى لا يساهم فى المصلحة العامة ــ لا عديم الأذى فحسب ، بل عديم الفائدة • حقيقة ــ قليل منا خلاقون ولكننا جميعنا قضاة حكماء لأمورنا السياسية • وفى رأينا أن العائق الأكبر للعمل ليس هو الجدل • بل النقص فى المعرفة المكتسبة عن طريق الجدل ذلك الشرط الأساسى قبل التنفيذ اذ لدينا طاقة خارقة فى التفكير قبل التنفيذ وكذلك عند التنفيذ بينما نجد الشعوب الأخرى بالرغم من شجاعتها النابعة من جهلها ــ تتردد فى التفكير فى أنهم شجعان ــ ولاشك فى ذلك لأنهم بالرغم من ادراكهم لآلام الحياة وملذاتها لا يتهربون من المخاطر كذلك نختلف عن الآخرين فى فعل الخير اذ نكون أصدقاءنا عن طريق تبادل الرأى وليس عن طريق المجاملة وخلاصة القول فاننى أؤكد أن أثينا هى جامعة هيللاس وأن الفرد الأثينى يستطيع بغريزته الفردية أن يتحكم فى تكييف نفسه تحت وطأة ظروف العمل المتقلبة بقدرة عالية ومرونة وكياسة » •

« لقد أديت الواجب المطلوب مطيعا للقانون مستفيداً من علاقتنا المترابطة كما فعلت • ان ضريبة العمل لم تدفع كاملة بعد ، فقد ووري التراب شهداء لنا مكرمون منا وبقى علينا الآن أن ننفق على أولادهم من الخزانة العامة حتى يبلغوا رشدهم • هذه هى الهدية الفعلية التى تزين أثينا بها أبناءها سواء الأحياء منهم أو الذين سقطوا فى معارك خاضوها (وكأنها معاركهم الشخصية) ــ وكأنها تزين صدورهم بأكاليل الغار • وبالرغم من أن الشجاعة هى خير جزاء الا أن أنبل المواطنين هم الذين يعملون فى سلك وظائف الدولة • والآن فلتنصرفوا بعد أن يندب كل منكم موتاه بالقدر الواجب » •

وباء الطاعون يجتاح اثينا :

وفى مطلع العام الثانى من الحرب غزت قوات البيلوبونيسوس أراضى أثينا وردت أثينا بهجوم بحرى يائس على شواطئ البيلوبونيسوس تماما مثلما حدث فى العام الأول • ولكن لم يكد ينتهى العام الثانى حتى دهم

أثينا وباء الطاعون الذى جاء اليها من الشرق عن طريق القـادمين الى ميناء بيرايوس وقد وصف ثوكوديديس وصف خبير مقتدر أعـراض المرض لدرجة أن القارىء يكاد أن يحس به ويتخيله . ويصف كيف أن المرضى كانوا يلقون بأنفسهم فى الآبار ومستودعات المياه من شدة حرارة أجسامهم وبسبب تدفق الناس من الريف وتكدسهم فى الأكواخ مما ساعد على انتشار هـذا الوباء لدرجـة أن الأحيـاء لم يعـد يهتمون بدفن الأموات بل كان كل همهم هو التخلص من جثثهم بأى وسيلة ممكنة . ويصف لنا انهيار الروح المعنوية للاثينيين وانتشار اللامبالاة والاستهتار بالآلهة والقوانين لأن الناس — على حد تعبير ثوكوديديس رأوا بأعينهم الموت وهو يلحق بالورعين والملحـدين دون تمييـز . كذلك تحـدث ثوكوديديس عن انتشار الجرائم « اذ لم يكن هناك من يخاف العقـاب نتيجة التعدى على القانون لأن أحدا لم يكن يضمن ليعيش حتى يتم استدعاؤه التحقيق » كذلك تحدث ثوكوديديس عن انتشار البوهيمية والاتجاه نحو الانغماس فى الملذات « لأن كل فرد كان يدرك أن حكما بالموت قد صدر عليه وهذا الحكم معلق فوق رأسه . فلماذا لا ينغمس قليلا فى المتعة قبل أن ينفذ الحكم » .

بيريكليس يسقط ضحية لهذا الوباء :

لقد بلغ من شدة هذا الوباء أن أتى على ما يقرب من ثلث سكان أتيكا ، وفى خريف عام ٤٣٩ ق.م سقط بيريكليس ضحية للطاعون (١)

---

(١) يروى احد الاطباء المتخصصين فى تاريخ الاوبئة انه من المحتمل ان يكون بيريكليس قد مات بسبب وباء الملاريا وليس الطاعون . فقد كانت الملاريا من الامراض المستوطنة فى بلاد اليونان وصقلية فى العصور القديمة وقد وصف هوميروس حمى الملاريا Pyretos فى الالياذة .(Book, XXII, 3) . كذلك اشار ارسطوفانيس الى الملاريا فى روايتيه الزنابير واهل اكارنانيا واللتان قدمتا عام ٤٢٥ . ويرى انه طبقا لوصـف اعـراض المرض الذى اودى بحياة بيريكليس والذى وصفه بلوتارخوس Perikles, 38] وما اشار اليه ديودوروس الصقلى [IV, 82] فان اللفظ والوصف يرجع الاحتمال بان سبب وفاته كانت الملاريا . ولكن المؤرخ ثوكوديديس وهو مؤرخ علمى =

ذاته ففقدت أثينا أشجع أبنائها وأعظم سياسيها اذ كان بيريكليس الرجل الوحيد الذى استطاع أن يجمع شمل الأمة وأن يفرض شخصيته القوية على أصدقائه وأعدائه على السواء ، واهتزت « وحدة الأمة وبدا المستقبل مظلما وخلا المسرح السياسى لشراذم الانتهازيين وللديماجوجيين من أنصار الحرب من أمثال كليون (١) الذى عرف باسم « دباغ الجلود » ولما يئس كليون من كسب تأييد النبلاء ومساندة الطبقة المتوسطة لجأ الى السياسة الرخيصة والسوقية من أجل استمالة الغوغاء وتجنيدهم خلفه ، وكان هذا بداية صراع اجتماعى رهيب شبيه بذلك الذى خبرته روما لمدى قرن من الزمان بين العامة والاشراف ، ولقد كان هذا الصراع على حساب وحدة الأمة الأثينية التى تفككت بموت « القائد » وعلى حساب « النصر » الذى كان يبتغيه ،

ـــ موثوق به لم يستخدم فى وصف اعراض هذا الوباء كلمة الحمى Pyretos بل استخدم لفظا آخر هو Kauma أى « الغيبوبة » ، ومن ثم فهناك احتمال وجود وباء الطاعون فعلا الى جانب احتمال أن يكون لفظ Kauma لفظ مرادف للكلمة Pyretos ومهما يكن من أمر فان بلاد اليونان تعرضت للكوارث البشرية بسبب الملاريا ومن أجلها أدخلت عبادة رب الشفاء إسكليبيوس المرادف لامحتب المصرى وجعلوا له عيدا خاصا هو (Asklypeion) فى شهر ابريل من كل عام موسم الحمى والوباء ، وعيدا آخر اسمه (Epidaureia) فى شهر سبتمبر موسم تكاثر البعوض بسبب هطول الأمطار وتكوين المستنقعات ويذكر باوسانياس ان وباء الملاريا هو الذى احدث الكوارث بالاقتصاد الافريقى ودمر نفسيتهم وجعلهم يترددون فى الغيبيات والسحر والشعوذة واصبح دور الزوجة الأول هو أن تكون « ممرضة » كما يقول ميناندر فى احدى كوميدياته انظر :

W.H. Jones, Malaria and Greek History, University of Manchester, Historic Series no. VIII London 1919, p. 36 ff.

(١) وقد وصفه كاهرشتدت Kahrstedt بأنه سبب الحرب (Pauly. Wissowa," XI, 1921, 714 Sab II). وقارنه بالسياسى الفرنسى كليمنصو Clemenceau ومن حياة هذه الشخصية وتقيمها انظر :

Raymond Renaud, Le Demagogue Cleon, Etudes Classiques, Tome XLI, no, 2. April 1973, pp. 181—196.

لقد قدم لنا ثوكوديديس صورة حية للمجتمع الأثينى وقد أرهقته مصائب الحرب وخسائرها المادية والمعنوية . لقد قل الدخـل وزادت النفقات واختل نظام المدفوعات . وبالرغم من هذا فقد كان هنـاك من شجعوا استمرار الحرب وحاربوا أى فكرة للسلام – من أجل الرغبة فى تحقيق الربح والحفاظ على المكاسب . أولئك كانوا التجار والحرفيين لأنهم كانوا من أكثر طبقـات المجتمع الأثينى استفادة من الحرب لأنهم كانوا يسـيرون فى أذيال الجيوش لكى يسوقوا بضائعهم حـتى الطبقة المعدمة فقد وجدت عملا فى خدمة الأسطول وكانت مثل طبقة التجـار تؤيد استمرار الحرب وتتبنى فكرة التوسع . أما « السلام » فلم يعـد يتحدث عنه سوى المثقفون المدركون لمآسى الحرب وكذلك أصحـاب الاقطاعيات الزراعية والعاملون بالزراعة اذ هجرت المزارع نتيجة لنقص الأيدى العاملة وقل المحصول واعتمدت أثينا على ما يجلبه الأسطول من الغـلال .

وبالرغم من هذا فقد نجح الأسطول الأثينى بقيادة الجنرال المـاهر فورميون Phormion فى حصار مدينة بوتيدايا Potidaea على خليـج كورنثا واجبارها على الاستـسلام فى نفس الوقت قامت قوات الحـلف البيلوبونيزى بمحاصرة مدينة بلاتايا .

تمرد مدينة موتيلينى ورعونة كليون فى معالجة الموقف :

وفى العام الثالث من الحرب جاءت الأنباء الى أثينا تحمل خبر تمرد موتيلينى Mytilene عاصمة جزيرة لسبوس Lesbos قرب ساحل آسيا الصغرى وانتشار هـذا التمرد الى معظم أجـزاء الجـزيرة . وخشى الأثينيون من نجاح الثوار لأنه يهدد كافة أجزاء الامبراطورية الأخرى وخاصة فى بحر ايجه .وفى الحال حاصر الأسطول الأثينى المدينـة براً وبحراً الى أن استسلمت عام ٤٢٧ ق.م ، وهنا بدى التهور فقـد (١)

(١) عن مسئولية كليون من هذه المأساة انظر : المقال السابق ص ١٨٢ كذلك انظر :

D. Gills," The Revolt of Mytilene, A.J. Ph. XCII, 1971. P. 38—47 ; also J.J. Quinn," Political groups in Lesbos during the Peloponnesian war, Historia, XX, (1971) p. 405—417.

دعى كليون الى قتل جميع أبناء المدينة القادرين على حمل السلاح وبيع النساءوالأطفال فى أسواق العبيد وحتى عندما اجتمعت الأكليسيا لتخفض من هذا الحكم القاسى خطب فيهم كليون قائلا « أننى ما زلت عند رأيى فى أن تلتزموا بالقرار السابق فى هذا الشأن وألا تدعوا الشفقة أو الكلمات المعسولة والاحساس العام بالعفو يضللكم » وجاء القرار بالموافقة على اعدام زعماء التمرد وهدم التحصينات ومصادرة سفن المدينة المتمردة ٠ وياليت القرار يقف عند هذا الحد بل ذهب الى مصادرة كافة الأراضى فى الجزيرة وتقسيمها الى ثلاثماية جزء وتوزيعها على مستوطنين جاؤا بهم من أثينا بعد تخصيص عشر هذه الأراضى للمعابد الأثينية وكان هذا يمثل فقدان السياسة والكياسة فى وقت كانت فيه أثينا فى أشد الحاجة اليهما ٠

وقد ردت قوات طيبة على هذا العمل بتضييق الحصار على مدينة بلاتايا حتى سقطت فى صيف عام ٤٢٧ نفسه بعد حصار دام أربع سنوات ٠ ومهما كان الأمر فقد كان العام عام انتصار للأسطول الأثينى التى استطاع بفضل خبرة جنرالاته المحنكين من أن يحقق عدة انتصارات صغرى فى ايتوليا (على الجانب الشمالى من خليج كورنثا) ثم تمكن فى النهاية تحت قيادة الجنرال ديموستنيس Demosthenes من تحقيق انتصار حاسم على سكان خليج أمبراكيا Ambracia وتوكيد السيادة الأثينية عليهم وكان ذلك فى عام ٤٢٦ ق٠م ٠

القوات الاثينية تضرب اسبرطة فى عقر دارها :

بلغت القيادة العسكرية الأثينية روعتها عندما أبحر الأسطول الأثينى حول شبه جزيرة البيلوبونيسوس ثم انقض على مسينيا فى الجنوب الغربى منها واحتل مدينة بيلوس Pylos عام ٤٢٥ ق٠م وحاولت أسبرطة عبثا طرد الأثينيين من هذه المنطقة الحساسة ولكن الجيش الأثينى بقيادة ديموستنيس وكليون نفسه ردوها على أعقابها خاسرة بل وأسر مائتين وتسعين جنديا أسبرطيا كانوا قد تحصنوا فى جزيرة سفاكتيرا Sphacteira المواجهة لمدينة بيلوس ذات الماضى التليد أيام مجد الحضارة الموكينية

والتى تحتل مكاناً استراتيجيا هاما فهى تقع فى الطرف الشمالى من خليج نافارين Navarino الضيق وتكاد تلتحم بجزيرة سفاكتيرا الصخرية ولقد أظهرت حروب محمد على الكبير فى المورة وعمليات الحرب العالمية الثانية أهمية هذه المنطقة عسكريا .

لقد كان احتلال القوات الأثينية لهذه المنطقة انتصاراً وهزيمة محققة للأسبرطيين ولذا دعى الأسبرطيون الى عقد السلام وكانت خسارة كبيرة لأثينا أن ترفض هذه الدعوة لأنها كانت ستجنى على مائدة المفاوضات كل ما تطلبه وهى فى أروع ساعاتها .

اسبرطة تبعث بالجنرال براسيداس Brasidas فى حملة ضد المصالح الاثينية فى تراقيا :

وفى مطلع عام ٤٢٤ ق. م كان الأسطول الأثينى يضرب بعنف فى المنطقة المحصورة بين شواطىء أتيكا وشواطىء البيلوبونيسوس الشمالية الشرقية محتلا جزيرة كوثيرا Cythera ونيسايا Nisaea الميناء الشهير لمدينة ميجارا ، وكان قصد الأسطول الأثينى احتلال هذه المدينة والتى بالفعل كادت تسقط فى يد أثينا لولا مقاومة السكان .

وردا على الأعمال العسكرية الأثينية فى عمق الأراضى الأسبرطية أرسل الأسبرطيون فى العام نفسه ملكا شهيرا اسمه براسيداس (١)

(١) من الطريف ان نقارن بين شخصية كل من كليون الدباغ الزعيم الاثينى وبين الجنرال الاسبرطى براسيداس ذلك القائد الذى ظهر ليغير وجه المعارك فى صالح اسبرطة وحلفائها بعد هزيمة سفاكتيرا المريرة وكسب تهليل واعجاب اسبرطة وحلفائها خاصة فى كورنثا اذ وصف براسيداس بانه أوديب الجديد الذى جاء لينقذ بلاده من الجوع والوباء . وقد نشر جون بوردمان (J. Boardman) حديثا وعاء مرسوما عليه كليون فى صورة ابو الهول فى شكل كلب يمارس مع نفسه عملا جنسيا خليعا J.H.S., XC, 1970, p. 194—5 وقد فسر ا . ل . سراون هذا الرسم بانه يعنى كليون كنقيض فى الفكرة والدور للقائد براسيداس أوديب اسبرطة خاصة ان هذا الوباء يجىء من كورنثا وربما اكتسب كليون وصف « الكلب » الذى وصفته به الكوميديا السياسية الاثينية فى ذلك الوقت من جسارته وجرأته الوقحة تماما مثلما اكتسب الفيلسوف ديوجينيس الكلب هذه الصفة وتوارثهامن بعده اتباعه الكلبيون Dudly, History of Cynicism, London, 1937, p. 29. وفى نفس الوقت الذى اكتسب فيه براسيداس شعبيته بدا المثقفون الاثينيون يبدون تقدهم لسياسة كليون الغوغائية التوسعية =

على رأس حملة مكونة من الهيلوت لتدمير المصالح الأثينية فى منطقة تراقيا والتى منها كانت المواد التموينية تجىء من منطقة البحر الأسود الشهير بغلالها الوفيرة • وقد تمكن براسيداس من فك الحصار عن مدينة ميجارا وتحريرها وسار شمالا حيث استولى على عديد من المدن الهامة مثل مدينة أكانثوس Acanthus وحاصر أمفيبوليس Amphipolis وأرسلت أثينا نجدة لانقاذ هذه المدينة بقيادة المؤرخ ثوكوديديس نفسه ولكنها وصلت بعد سقوطها وكذلك سقطت مدينة تورونى Torone، •

حملة اثينا الفاشلة ضد طيبة واقليم بيوتيا :

كما تلاحقت الضربات فى نفس الوقت بالقوات الأثينية فى اقليم بيوتيا عندما خطط الجنرالان ديموستثيس وهيبوكراتيس Hippocrates للقيام بحملة لغزو هذا الاقليم انتهت بهزيمة القائد الأخير هزيمة ساحقةفى معركة ديليوم Delium •

= وتهكموا على كليون فوصفه ارسطو فانيس بانه دباغ جلود الكلاب [Ecc. 420 ; Av. 490] Skylodepses. كما كتب سوفوكليس مسرحية « أوديب ملكا » فى العام التالى لوفاة بريكليس أظهر فيها اوديب كبطل مناضل ومنقذ وهذا يعكس اعتراض المثقفين على سياسة كليون وتعاطفهم حتى مع براسيداس وكما تقول مدام دى رومیلی بالحرف الواحد « لقد كان براسيداس وحدة هو الذى ظهر على مسرح الاحداث كصاحب سياسة منهجية وهى « التحرير » كرد على سياسة اثينا التوسعية الامبريالية ولكى يجعل براسيداس سياسته هذه ذات مفعول استخدم كل وسائله لاقناع حلفاء اثينا بهجرها حتى تتقوض امبراطوريتها ... » ، ومن الواضح ان ثوكوديديس اجل وقدر براسيداس فى مؤلفه :

J. de Romilly : Thucydides and the Athenian Imperialism translated by p. Thody (Oxford 1963) p. 43.

وفى رأينا ان رسم كليون فى صورة ذكر أبو الهول فى شكل الكلب يمارس العادة السرية سخرية مريرة من جانب اهل كورنثا ترمز الى الفشل النفسى لكليون وتتصل بموضوع أوديب التى يعتبرها المحللون نظرة نفسية ورمزية اكثر منها روائية انظر :

Cleon Caricatured, on a Corinthian Cup. JH. S. XCIV, 1974, P. 166-170 (by E.L. Brown).

محاولات نيكياس لعقد السلام : Peace of Nikias

وتحت تأثير هذه الضربات المتلاحقة وجدت أثينا نفسها مضطرة الى الدخول فى محادثات للسلام مع أسبرطة وبالفعل تم عقد هدنة لمدة عام دون اشتراط وقف العمليات العسكرية فى تراقيا حيث قاد كليون حملة بنفسه عام ٤٢٢ ق٠م ، وبالفعل استطاع أن يعيد مدينة توروني الى أثينا ولما حاول تخليص أمفيبوليس لاقاه براسيداس بقوات ضخمة ودارت معركة حامية سقط فيها كليون وبراسيداس قتيلين وهزمت فيها أثينا هزيمة ساحقة ٠

صلح نيكياس وانتهاء الجولة الاولى من الحرب :

هكذا وضعت الظروف أمام الأطراف المتحاربة فرصة نادرة للسلام لأن صقرا الحرب كليون وبراسيداس سقطا فى المعركة السابقة ٠ خاصة أن الأثينيين والاسبرطيين كانوا يتوقون للسلام ٠ ولقد جاءت المبادرة من جانب ارستقراطي أثينى مشهور بثرائه اسمه نيكياس Nikias استطاع أن يوفق بين أثينا واسبرطة لعقد معاهدة سلام عام ٤٢١ ق٠م لمدة خمسين ابان الحرب مع بعض التغيرات البسيطة ٠

١ ــ أن يحتفظ كل من الطرفين المتحاربين بالأراضى التى احتلها ابان الحرب مع بعض الاستثناآت البسيطة ٠

٢ ــ أن يتبادل الطرفان الأسرى وكان هذا يعنى بالدرجة الأولى الجنود الأسبرطيين الذين أسرتهم القوات الأثينية فى حملتها ضد مدينة بيلوس ٠

لقد كانت الجولة الأولى من الحرب عامة فى صالح أثينا والتى صمدت كما توقع لها بيريكليس ــ لعشر سنين قاسية من الضغط الاقتصادى وللوباء الذى قضى على ما يقرب من ثلث سكانها ٠

الاحوال السياسية بعد عقد صلح نيكياس :

ان نظرة على معاهدة السلام التى عقدها نيكياس لتوضح تماما أنها ولدت ميتة (١) • فالشروط لم تكن مقبولة لحلفاء اسبرطة الذين لم يدعوا حتى للتوقيع عليها والذين كانوا ينتظرون نصيبا منها لأن السلام كان لصالح أسبرطة وأثينا وحدهما ولذا ساد التذمر بين أعضاء الحلف البيلوبونيزى الى حد التمرد على أسبرطة • فمثلا ثارت أرجوس (عدوة أسبرطة القديمة) وانضم اليها بعض من الساخطين على اسبرطة من أعضاء الحلف البيلوبونيزى مثل دويلة ايليس Elis ومانتينيا Mantinea وبلغ من عنفوان التمرد أن انضمت كورنثا اليه ولكنها انسحبت بسرعة منه خوفا من اسبرطة) وسارعت أثينا بالتحريض واذكاء نار الفتنة بل وأرسلت قوات لمساعدة الثوار وكان المحرض لذلك سياسى جديد بدأ نجمه يسطع فى السياسة الأثينية ألا هو الكيباديس •

الكيباديس Alcibiades (٤٥٢ - ٤٠٤ ق٠م) :

أصبح الشكل العام للسياسة الأثينية فى السنوات التى تلت صلح نيكياس صورة واضحة من شخصية الكيباديس • لقد كان هذا الفتى محبوبا لأنه نشأ وترعرع فى بيت بيريكليس العظيم • أى أنه ولد وفى فمه معلقة من ذهب (٢) • ولذا نشأ مختالا بنفسه ذكيا مثقفا ، جميلا يسحر الناس • وسرعان ما قامت بينه وبين سقراط صداقة وطيدة • وقد اشترك الكيباديس فى عدد من معارك الحرب البيلوبونيزية • ويقال أن سقراط أنقذ حياته فى معركة بوتيدايا عام ٤٣٢ ، وكان يبلغ وقتئذ عشرين عاما • ولا يهمنا المدى الذى بلغته هذه الصداقة ولكن الذى يهمنا أن هذا الفتى أفسده تدليل أسرته له وعبادة جمهور المدينة لسحره فكان يقضى وقته فى المتعة وفى الثرثرة مع سقراط وفى الاشتراك فى سباق العربات خاصة فى الأعياد الأولمبية وقد تلقى الفتى تعليما رفيعا على أيدى السوفسطائيين فنشأ لا يؤمن بمبدأ ولا برسالة الا طموحه الشخصى •

---

(1) H. D. Westlake," Thucydides and the uneasy Peace. A Study in incompetence, Classical Quarterly, XXI, 1971 pp. 315—325.

Jean Hatzfeld, Alcibiade, Paris 1961,, P. 8 ff.

كان انتهازيا على استعداد أن يتخطى القوانين والعرف مستهترا ماجنا ، فجمع بين الديماجوجية وسحر الشخصية حتى استطاع أن يصل الى القيادة عام ٤٣٠ ق.م وما أن عين جنرالا St.ategos حتى بدأ فى ترميم حزب الحرب القديم ، بأمل الحصول على مكاسب فى صورة انتصارات فى ميادين القتال وكانت تلك هى الطامة الكبرى .

ولعلنا لا ندهش اذا ما خلف أرستقراطى نبيل مثل الكبياديس دباغا وضيعا مثل كليون فى الحكم، اذ أن سيكلوجية الأثينى كانت تميل بطبيعتها الى الارستقراطية وتطمئن اليها ، أو على الأقل اتسمت نظرتهم باللامبالاة بالنسبة الى الوضع الاجتماعى لأن الذى كان يهمهم فى الدرجة الأولى هو عظمة الوطن ورخائه . ولقد نجح الكبياديس فى حملته الانتخابية باقناع الجماهير بأنه يعرف العلاج الأمثل لمشاكل أثينا الاقتصادية وأنه يعرف الطريق الذى سيقوده ليعيد المجد والرخاء ليصنع المجتمع العظيم . ولما كانت تلك هى أحلام الأثينيين فقد فاز فى الانتخاب دون أن يحقد عليه أحد لأنه كان فاحش الثراء . وبفوزه انتهى سلام نيكياس ولاحت الحرب فى الأفق القريب .

ولهذا يلقى المؤرخون مسئولية الهزيمة النهائية على الكبياديس لأنه هدم فرصة السلام (١) .

استشاطت اسبرطة غضبا لتدخل أثينا فى أرجوس ولارسالها قوات لمساعدة الدويلات المتمردة وكادت الحرب تندلع من جديد عام ٤١٨ ق.م عندما أرسلت أسبرطة حملة بقيادة ملكها آجيس Agis والذى حقق نصرا ساحقا على الثوار وعلى الجنود الأثينيين قرب ماتينيا.وقد أعاد هذا النصر لاسبرطة شرفها العسكرى ومستواها الرفيع فى فن القتال . والحق يقال أن هذه الهزيمة قد تمت فى غياب الكبياديس الذى هزم فى معركة الانتخابات فى هذا العام قبل هذه المعركة بوقت قليل .

(1) K.W. Welwei, op. Cit., p. 303 ff.

مذبحة ميلوس :

وفى العام التالى أعيد انتخاب الكبياديس ليرتكب حماقة كبرى دفعت أثينا ثمنا باهظا لها ألا وهى مذبحة ميلوس • وميلوس احدى جزر بحر ايجه الفقيرة الا من محاجر الصخور الأوبسيدية • ولقد كانت هذه الجزيرة غنية أيام الطلب على هذا النوع من الحجر ولكن عندما اكتشف النحاس لم يعد هناك طلبا عليه فانكمش ثراؤها وعاشت على الكفاف شبه منسية ولهذا لم تدفع قط الاتاوة السنوية التى كانت أثينا تفرضها على أتباعها منذ نشأة حلف ديلوس • وفجأة يكتشف الأثينيون هذه الحقيقة ويرسلون قوة حربية تطالب أهل الجزيرة بالاستسلام • ولما علم أهل الجزيرة بهذا الخطر أرسلوا مندوبين عنهم الى معسكر الجيش الأثينى فى الجزيرة لاجراء مفاوضات • وقد سجل لنا ثوكوديديس هذا الحوار الذى دار بينهم والذى وضح فيه منطق أثينا الاستعمارى بأن « القوة هى الحق » فالأثينيون يعلنون بصلافة واستعلاء عن حقهم فى السيطرة « لأنهم هزموا الفرس » ويعلنون أيضا أن « فرص العدل تجىء فقط اذا ما تساوت القوى المتصارعة وأن على القوى أن ينتزع ما يقدر عليه وعلى الضعيف أن يمنح ما يستطيع » لقد كان منطق أهل جزيرة ميلوس منطق الحمل الضعيف فى وجه ذئب غادر •

ولما يئس وفد ميلوس تركوا مائدة المفاوضات وأخبروا قومهم الذين ثاروا لأسلوب التكابر والغرور والصلافة التى اتصفت بها المحادثات الأثينية • وما أن عادوا حتى تحرك الجيش الأثينى وبمساعدة الخونة من سكان الجزيرة دخلت القواد الأثينية المدينة وقتلت كل رجال الجزيرة وشبابها وباعوا نساءها وأطفالها فى أسواق العبيد كل هذا بتحريض الكبياديس الذى اقتنى امرأة من نساء الجزيرة لتعمل عنده • وأخيرا صادروا أراضى الجزيرة وقسموها بين خمسمائة مستوطن أثينى [1] •

لقد ألحق هذا العمل البربرى الكثير بسمعة أثينا وجر عليها الحقد من جانب حلفائها وأعدائها على السواء كما ارتفعت أصوات المثقفين

(1) W. Fornara, «The date of the regulations for Melosa A.J. Phil, Xcll, 1971, p. 473—475.

بالاحتجاج وعبر عن ذلك صراحة ثوكوديديس وهو يسجل التاريخ كما لمح الشاعر المأسوى بوريبيديس عن أسفه لمثل هـذا السلوك البربرى فى مسرحيته « نساء طرواده » ولم يكن هذا العمل هو آخر عمل ورط فيه الكيباديس المستهتر أثينا بل ارتكب حماقة كبرى وكأن آلهة الاغريق أرادت أن تعاقب الآثينيين على جرائمهم ضد حلفائهم • وأما هذه الحماقة فهى حملة صقلية الفاشلة •

حملة صقلية المشؤومة :

سبق أن عرفنا شيئا عن استيطان الاغريق لجزيرة صقلية وكذلك عن اتحادهم عام ٤٨٠ ق•م وهزيمتهم لقوات قرطاجة • ولكن هذا الوئام بين المدن الاغريقية فى صقلية لم يدم طويلا بعد النصر اذ سرعان ما دب الشقاق والخلاف ثم نشب بينهم القتال فى عام ٤٢٧ ق•م عندما طلبت مدينـة ليونتينى Leontini من أثينا التدخل لصالحها ضد جارتها سيراكوزه مستعمرة كورنثا • ولكن أثينا تباطأت فى النظر فى هذا الطلب • وفى عام ٤١٦ ق• م طلبت مدينة سيجستا Segesta من أثينا نفس الطلب • ولكن فى هذه المرة أرسل الأثينيون وفدا اليها للبحث فى هذا الطلب • ولما كان أهل المدينة يعلمون جيـدا نفسية الأثينيين فقـد أظهروا الثراء الفاحش حتى على حساب الحقيقة • فمثلا كلما دخل الوفد الأثينى بيتـا فيه وجدوا أطباقا من الذهب والفضة ولم يدر ببالهم أنها نفس الاطباق •

وعاد الوفد مبهورا بالثراء وقص على الكيباديس مشاهداته وسـال لعابه ووجد الفرصة سانحة لمغامرة جديدة غربا اذ لم يعد هناك عقبات فى الشرق كما تخيل أن مستقبل الامبراطورية الاثينية هو فى الغرب وليس فى الشرق الذى بدأت مصادره تنضب • وبالطبع هـدف الآثينيين الى التحالف مع أهل مدينـة سيجستا حتى يثبتوا أقدامهم فى الجـزيرة ثم يحولوهم الى اتباع مثلما فعـلوا بأعضـاء الحلف الديلى • ولم ينقص الكيباديس الحجج فى اقناع الأثينيين بالموافقة على ارسال الحملة ضـد سيراكوزه • فالأخيرة مستعمرة كورنثا عدوة أثينا اللدود بحكم عضويتها فى حلف البيلوبونيسوس• ثم أن أهل سيراكوزة كانوا سيطلبون العون من

كورنثا أو فى أحسن الظروف سوف يرسلون العون لمساعدة اسبرطة وخير لأثينا أن تنتهز الفرصة وتتدخل حتى تضمن موارد جديدة تأتى بالمال الذى هو عصب الحرب . ولم يجد الكيباديس معارضة سوى من نيكياس رجل السلام وأمعانا فى توريطه وأحراجه فقد انتخب مع الكيباديس نفسه وجنرال آخر اسمه لاماخوس Lamachus لقيادة الحملة . هكذا رفض المجلس الشعبى نصائح نيكياس المسن والذىدهمته الشيخوخة والمرض ورفض منطقه الذى كان يرى عدم جدوى أو احتمال اقامة الامبراطوريةغربا أو تدخل الكورنثيين فىصقلية أو تدخل سيراكوزة ضد أثينا . واستجاب الجمهور لجدل الكيباديس الذى كان يبلغ الخامسة والثلاثين وقتئذ وكان فى عنف شبابه وحيويته .

وما أن ووفق على الحملة حتى بدأت أثينا فى تجنيد كل طاقاتها لها وأعدت أسطولا ضخما قوامه ١٣٤ سفينة حربية ذات ثلاث طوابق Triremes ومايه وثلاثين سفينة صغيرة للامداد والتموين كما أعدت من القوات خمس آلاف رجل مسلح بالعتاد الثقيل (Hoplites) وألف وثلاثماءة جندى مسلح بأسلحة خفيفة يدعمهم ثلاثين فارسا . وبلغ عدد من اشتركوا فى الحملة سبع وعشرين ألف رجلا ما بين جندى وبحار .

حادثة تحطيم تماثيل الاله هرميس :

وبينما كانت الاستعدادات للحملة قائمة على قدم وساق بل وفىصبيحة اليوم المحدد لابحار الأسطول ، حدث حادث مروع وغريب آثار الذعر من الالهة وغضبها واعتبر طالع نحس لمستقبل أثينا اذ حطم مجهولون تماثيل الاله هرميس النصفية Hermae والتى كانت مقامة أمام أبواب البيوت وفى الطرقات والميادين . ولما كان هذا الاله حارسا لحرية التجارة والنظام السياسى الاثينى فقد اعتبر ذلك اعتداء على الديموقراطية الأثينية وبالغ آخرون فى تصور مؤامرة أوليجارخية ضد الديموقراطية . فانتشر الذعر والقلق بين الناس وتجمعوا فى ساحة المدينة واتخذوا قرارا بالاجماع بتخصيص مكافأة كبيرة لمن يرشد عن « الفعلة » ولم يتقدم أحد لأن الحادث فى أغلب الظن كان من عمل فتيان سكارى قاموا به ليلا دون

قصد بالرغم من أن بعض الناس يرون أنه تم بتدبير من مدينة كورنثا أو سيراكوزه لاعاقة الحملة وبث البلبلة بين الأثينيين •

وعلى أى حال فقد وجد فريق من الانتهازيين السياسيين فرصة للتشهير بالكيباديس فاتهموه بالقيام بهذا العمل مذكرين الناس بسابقة له تعدى فيها على حرمة الشعائر السرية الزراعية والتى كانت تقام فى اليوسيس • كما طالب أنصار الحزب الديموقراطى بتقديم الكيباديس الى محاكمة عاجلة لزندقته وبالطبع نفى الكيباديس هذه التهمة عن نفسه وأعلن عن استعداده للمثول أمام المحكمة ولكنه طلب تأجيل المحاكمة لأن أنصار الحزب الديموقراطى كانوا يدركون مدى شعبيته بين الجنود وتأثير محاكمته على روحهم المعنوية وأنه ذاهب الى مغامرة قد لا يعود منها • وبالفعل ووفق على تأجيل المحاكمة •

الأرمادا الأثينى يبحر الى صقلية :

أبدع ثوكوديديس فى وصف الحملة وتحدث عن طموح القادة للحصول على مكاسب وشهرة مادية ومعنوية كما شرح سبب اقبال المتطوعين من فقراء الشعب رغبة فى التخلص من مشكلات الحياة اليومية خاصة تحت وطأة الحرب وفضلوها عن الانتظار داخل الأسوار الحصينة. ويقول ثوكوديديس : « لقد ساد الجميع بلا استثناء رغبة جامحة للابحار، فالمتقدمون فى السن من الجنود كانوا يحسون بأنهم قادرون على غزو صقلية وأما الشباب فكانوا متلهفين لأن يملأوا أعينهم بأعاجيب بلد بعيد، وأما البقية الباقية من القوات فكانت تتلهف على الأجور والمرتبات (١) وتحلم بغزو بلد ثرى خيراته لا تنضب •

---

(١) ابان هذه الحرب كان الجندى الاثينى ينفق على نفسه خلال الايام الثلاثة الاولى لالتحاقه بالجيش ثم تتولى الدولة الانفاق عليه بعد ذلك . وكان يسمح للجندى بالسلب والنهب بشرط ان يقدم للدولة عشر ماينهب . وعن دراسة الجيش الاغريقى ونظمه وتموينه وعاداته وشعائره قبل المعارك انظر :

W.K. Pritchett, Ancient Greek military Practices, I, (Univ., of California Publications' Classical Studies 7.) 1979 (Hammond, JHS, XCIII, 1972, p. 254).

كما يصور لنا ثوكوديديس يوم الابحار فى صباح أحد أيام صيف عام ٤١٥ ق. م . حيث خرجت المدينة عن بكرة أبيها لتودع أبناءها وساروا الى ميناء بيرايوس كل له فلذة كبد ، أخ أو قريب فى هذه الحملة « وكلما اقتربت ساعة الرحيل كان القلق يتزايد وتتدفق العواصف الجياشة بالدموع ويتسلل الخوف الى قلوبهم من هذه المغامرة الخطرة، ولكن قوة الأسطول وكثرة العتاد كانت تهدء من روعهم . ويصف ذلك ثوكوديديس بقوله : « لم يحدث قط أن خرجت حملة الى بلد أجنبى بمثل هذا العدد والعدة ولم يحدث قط أن قام مشروع مثل هذا بررت فيه القوة الفعلية أحلام النصر » .

وسرعان ما انطلقت السفن « كل تسارع الأخرى » وتعالت الصلوات وشقت ترانيم الجند عباب السماء يشاركهم المودعون من الشاطىء» وراح القادة يسكبون الخمور قربانا للآلهة .

استدعاء الكيباديس للمحاكمة وهروبه الى اسبرطة :

وما كاد الكيباديس يصل الى مسرح العمليات العسكرية فى سيراكوزه (١) حتى أرسل فى استدعائه وذلك لأنه أعداءه السياسيين انتهزوا فرصة غيابه وأقاموا دعوى عليه يتهمونه فيها بانتهاك قدسيةالدين وبالفعل وصلت سفينة تحمل أمرا بالقبض عليه . ولما أحس الكيباديس أن الموقف فى أيدى أعدائه السياسيين قرر الهرب وتم له ذلك فى عرض البحر . ولدهشة المتابع لسيرة هذا القائد نجده يلجأ الى أسبرطة عدوة بلاده . وهنا كشف النقاب عن أسرار البلاد العسكرية ووضع أمام الأسبرطيين كل ما يحتاجونه من معلومات ونصائح وأشار عليهم بأمرين

---

(١) يناقش ذلك ثوكوديديس فى الكتاب الثامن انظر الدراسة الحديثة عن هذا النص :

Thucydides, la guerre du Peloponnese, Livre VIII Edité traduit par R. Weil avec la Collabaration de J. de Romilly (Assan G. Gudé) Paris, les Belles Lettres, 1972. L = JHS, XCIV, 1974, p. 188—ff.

قلبا مركز أثينا العسكرى ، أولهمــا نصيحته للاسبرطيين بأن يسارعوا ويحتلوا دكيليا وهى منطقة حساسة فى الشمال من أثينا بالنسبة للانتــاج الزراعى والتموين الغذائى والصناعى وبالفعل سارع الأسبرطيونوأرسلوا حامية احتلت هذه المنطقة مما كان له أشد الأثر على الاقتصاد الأثينى الذى صمد طويلا للحصار ازاء السنوات السابقة للحرب ، اذ هجر المزارعون حقولهم وفر العبيــد الذين كانوا يعملون فيهــا الى معسكرات الجيش الأسبرطى وانهمر ســيل من اللاجئين الى داخل أســوار أثينا وانكمش حجم التجارة الأثينية وأحس الناس لأولمرة بالتقلص الاقتصادىوالنقص فى التموين لأول مرة .

أما النصيحة الثانية التى قدمها الكبياديس لأعداء وطنه فكانت صيحته فى وجه الاسبرطيين « أرسلوا قائدا أسبرطيا الى سيراكوزه فى الحال »، وعلى الفور أرسلالاسبرطيون جنرالاشهيرا اسمه جوليبوس (Gylippus) ومعه ثلاثة آلاف جندى ليذيقوا الجيش الأثينى خسائر فادحة .

ولما علم الأثينيون بخبر هروب الكبياديس لعنوه وصادروا ممتلكاته وبيع أثاث منزله فى مزاد علنى . ومن الطرائف التاريخية ذلك النقش الذى وصل الينا يحمل قائمة بهذا الأثاث كلها تدل على أشــياء بسيطة برغم ما نعلمه عن ثراء هذا الرجل مما يدل على مدى بساطة الحياة الأثينية .

نيكياس رجل السلام يتولى القيادة :

هكذا استطاع القــائد الاســبرطى جيليبوس التسلل بقــواته لى سيراكوزه فى خريف عام ٤١٤ ق. م . وكان الأثينيون وقتئــذ يقومون بمحاصرة المدينة وفى الحال انقلب ميزان المعركة وأصبحت القواتالأثينية فى موقف الدفاع ولم يكد يمر الشتاء حتى تمكن هذا القائد من تكوين أسطول بحرى سرعان ما دخل المعركةوطرد الأثينيين الذينكانوا يتحكمون فى مدخل المدينة البحرى وتيجة للعمليات الاسبرطية الناجحة وضعف القيادة الأثينية انهارت روح القتال وساد الاستهتار واللامبالاة وســاء الموقف أن الجنرال لاماخوس أكفأ قادة الحملة قتل فى احدى المعارك ، وبقى ليكياس وحده ونحن نعلم مدى معارضة هذا الرجل للحملة منــذ

بدايتها ولكنه فجأة وجد نفسه منوطا بمسئولية كبرى فد تعرضت لنبسة الخيانة العظمى لم يجد أمامه سوى طريقا واحدا وهو تحمل مسئوليـة قيادة المعركة حتى فى أحلك الظروف لأن القائد يجب أن يتصرف حسبما يجب أن يفعل بغض النظر عن النصر . وكان أول شىء فعله نيكياس هو أن أرسل فى طلب تعزيزات عسكرية واستجاب المجلس الشعبى الى طلبه وأبحر الجنرال ديموسثنيس بقوة بحرية قوامهـا خمسة عشر ألفـا من الرجال . وما أن رست سفنها حتى حاول ديموسثنيس القيام بهجـوم ليلى على سيراكوزه وعلى القوات الاسبرطية ولكنه رد على أعقابه خاسرا ويبدو أن ديموسثنيس راعه انهيـار الروح المعنـوية وتذمر الجنـود الاثينيين فأدرك استحالة النصر وأخذ فى اقناع نيكياس بالانسحاب المشرف بدلا من الهزيمة المهينة وبعد تردد ومعارضة وافق نيكياس على الانسحاب والعودة الى الوطن . وبدأ الاستعداد لذلك . وفى ليـلة الانسحـاب وذلك فى السابع والعشرين من أغسطس تصادف خسـوف القمـر . ورأى العرافون ضرورة تأجيل موعد الانسحاب تجنبا لهذا الطالع النحس وصدق نيكياس قولهم . وأجل الانسحاب الذى قدر له أن لا يتم أبدا وذلك لأن شعب سيراكوزه علم بخطة الأثينيين فحاصروا الميناء ثم قاموا بهجوم على السفن الأثينية الراسية . ويصف لنا ثوكوديديس باستفاضة ودقة تفاصيل معركة حامية الوطيس انتهت بدمار السفن الأثينية جميعـا ومقتل ما يزيد عن ٤٠٠٠٠ جندى ولما حاول نيكياس ومعه ديموسثنيس انقاذ ما يمكن انقاذه هجر الجرحى والمرضى وما تبقى من السفن وحاول التقهقر برا ، وفى هذا خطأ كبير اذ « لم يعودوا بحارة بل جنـود مشاه لا يعتمدون على أسطولهم بل على جنودهم » . وتكبد الجيش الأثينى أثناء انسحابه خسائر فادحة بسبب أعمال المقاومة من جانب سيراكوزه ، وسقط الجنرالان ديموسثنيس ونيكياس قتيلين وهلك جيشهما ما بين قتيل وأسير . اذ أسر أهل سيراكوزه عددا كبيرا من الجنود الأثينيين وساقوهم

الى العمل فى المحاجر فى ظروف لا انسانية لشدة البرد ليلا والحرارة نهارا الى جانب القذارة ولتعفن لذى كان ينبعث من جثث لموتى . هكذا رأى الأثينيون مرارة الاستعباد التى تحدث عنها الشاعر المأسوى يوريبيديس فى مأساته « نساء طرواده » والتى صور فيها أكابر الأسر الطروادية تعانى مرارة الرق . لقد كتب يوريبيديس هـذه المأساة وأسـلوبه يقطر مرارة واحتجاجا على ما فعـله الأثينيون فى ميـلوس والآن جاء دور الأثينيين ليشربوا من نفس الكأس (١) . وكأن يوريبيديس كان يتنبـأ بأحـداث المستقبل عندما وضع على لسان هيكوبا ملكة طروادة صرخة من الأعماق تقول فيها « يارب الرحمة ! ... ولما ادعو الآلهة أنهم يعرفون حالى ولم يعودوا يستمعون لصلواتى منذ وقت طويل .. » .

هكذا لحق بأثينا أكبر هزيمة عرفتها المدينة منذ قيامها (٢) . هزيمة لم تفق منها قط . وأسدل على تاريخ المدينة ستار حجب انتصارات الأمس التى استمرت أثينا تجنى ثمارها لمدة سبع وسبعين عاما هى أعظم السنوات

---

(1) cf. P.G. Maxwell-Stuart : The Dramatic Poets and The Expedition to Sicily, (Historia, Band, XXII (1973) Heft 3, PP. 397—404.

(٢) لا تزال حملة صقلية محط الجدل بين المتخصصين اهمها مقالة :

U. Laffi," la Spedazione ateniese in Sicilia del 415 A.C., Revisita Société Italiana, LXXXXII, 1970, pp. 227 — 307.

وفيها يناقش المؤلف اسباب الهزيمة فى صقلية الى هروب الكبياديس وافصاحه بالخطة العسكرية للاسبرطيين كما يرجع الهزيمة الى الخلاف بين قادة الحملة وعدم وجود خطة متفق عليها . ولكن يدافـع البعض عن هـروب الكبياديس الى يأسـه وادراكه انه قد تورط فى حمـلة لن تكسبها اثينـا ووصفوا الحملة بانها اشبه بحملة ماكسيمليان فى البرازيل ومن الدراسات الجديدة عن هذه الحملة .

S. Van De, Maele," Le recit de l'expedition athenienne de 415 en Sicile et l'opinion de Thucydides sur Le rappel d' Alcibiade, A.C., XL, 1971, p. 21—37 ; KJ. Meister," Die Siziliёn. Expedition des Athences bei Timaios, Gymnasium, LXXVII, 1970, pp. 598-517 ; H. Meier-Welcker (Athen und Sizilien. zum Problem der — Politische-militarischen Legebeurteilung nach Thucydides und Clauswitz, Hist. Zeits, CCXV, 1971, p. 1—32.

فى عمرها كله بالرغم من الحماقات التى ارتكبت . لقد كانت هزيمة أثينا فى سيراكوزه عام ٤١٣ مأساة واقعية بل أكثر فجاعة من تلك المآسى التى خلدها شعراء أثينا للعالم الحديث . ولا ينبغى علينا أن نقلل من شأن أغريق صقلية لأنهم كانوا لا يقلون تذوقا للثقافة والحضارة الاغريقيـة عن الاثينيين فقيل أن أهل سيراكوزه كانوا يعفون عن أى أسير أثينى اذا ما ردد أبياتا من أشعار يوربيديس . ومن الواضح أنها كانت أبياتا حزينة لبطلة مهزومة مثل الملكة هيكوبا العجوز وهى تندب حظها التعس وتشكو قسوة القدر وكأن الشاعر يوربيديس كان يريد أن يقول « ارحموا عزيز قوم ذل » .

وبدت ملامح الهزيمة الكبرى تلوح فى الأفق عنـدما بدأت الآثار الاقتصادية المترتبة على احتلال اسبرطة لمنطقة ديكيليا فى الظهور . لقد ألحق الكبياديس بأثينا الكثير عنـدما قال للاسبرطيين « أبدأوا الحرب ولكن لا تجعلوها قاصرة على غزو اتيكا لبضع أسابيع من العام بل احتلوا مكانا على أرض أتيكا وحصنوه جيدا » ثم اختار لهم منطقة ديكيليا على الحدود بين منطقة بيوتيا وأتيكا . وبهذه النصيحة أصبحت أسبرطة تقبض على عنق أثينا اذ توقف تدفق الغلال وقطع الطريق بين أثينا وجزيرة يوبويا Euboea حيث أرسل الأثينيون قطعان مواشيهم وأغنامهم بعيدا عن الخطر وأصبحت العاصمة معرضة لأى هجوم عليها . بل وأكثر من هذا هجر الأثينيون مناجم الفضة فى لاوريوم Laurium وانضم العبيد الذين كانوا يعملون فيها الى القوات الأسبرطية . فى هذه اللحظة التى بدأ فيها الأثينيون يحسون بهذه المشاكل الجديدة وصلت أنباء الهزيمة فى صقلية وذلك عندما وصل رجل الى ميناء بيرايوس قادما من الغرب ودخل حانوت حلاق وراح يثرثر عن الهزيمة الساحقة التى لحقت بالقوات الأثينية ولما ذعر الحلاق وأخبر الناس قبضت السلطات الأثينية على هـذا الحلاق بحجة نشر الاشاعات المغرضة . ولكن سرعان ما توافدت أنباء كثيرة عن هذه الهزيمة وذاعت بين أهل الجزر التابعة لأثينـا فى بحـر ايجه والتى كانت تتمنى فى قلوبها يوما مثل هذا ليتخلصوا من هذا الاستعمار الذى

جثم عليهم طويلا وفى هذه المرة لم يثوروا ليطالبوا بالحرية بل تلفتوا يمينا ويسارا وراحوا يبحثون عن حليف يقضى على ما تبقى من سلطان أثينـا .

الفرس يتحركون مرة ثانية ــ الثورة ضد اثينا :

لقد علمنا من الفصول السابقة كيف أن بلاد فارس لم تغمض عيونها ولو مرة واحدة عن ساحل آسيا الصغرى وعن الجزر القريبة منه ووجدت بلاد فارس عندما عرفت أن الوهن قد حل بأثينا ــ فرصة لعقد تحالف مع اسبرطة لأنها كانت تعلم أن الأسبرطيين لا يعنيهم الا ما حولهم فقط . ورحب الاسبرطيون بهـذا التحالف ووافقوا على أن يستعيـد الفرس ممتلكاتهم فى أيونيا مقابل أن يتولى أسطولها محاربة الأسطول الأثينى فى المياه الشرقية والقضاء على سـلطانها . وذلك لأن كبريات حليفـات أثينا من أمثال جزيرة خيوس ولسـبوس ويوبويا أبلغت أسبرطة باعتزامها الثورة ضد أثينا ، وبالفعل تم عقد اتفاق بين الفرس وأسبرطة فى ميليتوس عام ٤١٢ ق.م . ولما علمت أثينا بهذه الخيانة اندفعت بآخر ما لديهـا من قوة فحاصرت خيوس والتى كان يحميها الكيباديس الهـارب ومعه تيسافرنيس Tissephernes الستراب الفارسى الشهير وسرعان ما سقطت خيوس مرة أخرى فى حوزة القوات الاثينية وكذلك جـزيرة لسبوس ولكنهم فقدوا رودس التى تحالفت مع الفرس .

الكيباديس يعود للقوات الاثينية :

كانت أسبرطة تنظر لألكيباديس نظرة الشك وخاصة بعد أن تأكد لها أنه يحرك الأحداث لكى يضغط على المسئولين فى آثينا من أجل العفو عنه والسماح له بالعودة الى الوطن أما الفرس فلم يثقوا فيه لموقفه من الثورة فى خيوس. ولما أحس الأثينيون بذلك عفوا عنه وعهدوا اليه بقيادة أسطولهم فى البحر الايجى والذى كان يتخذ من جزيرة ساموس قاعدة له وكانت هذه الجزيرة هى الوحيدة التى وافقت على أن تبقى تابعـة لأثينا وقد بذل الكيباديس كل جهده لكى يجعل مواطنيه يغفـرون له ماضيه الأسود ويعفون عنه .

النظام الديمقراطى الأثينى يتلقى ضربة :

لما كان معظم الأخطاء التى حدثت أثناء الحرب ــ خاصة فى صقلية ــ من فعل أنصار النظام الديمقراطى فقد بدأ الهجوم علنا على هذا النظام كما ساعد على ذلك انتشار شائعة قوية وهى أن الفرس سوف يرفعون أيديهم عن المصالح الأثينية فى آسيا الصغرى اذا ما قام نظام أوليجارخى بدلا من النظام الديموقراطى ، وهذا النظام الذى أيده الفرس يعرف فى اليونان بالأليجارخية Oligarchia أى حكم الأقلية . وهو حكم رجعى تخلصت منه أثينا منذ أحداث القرن السادس قبل الميلاد بالرغم من أنه بقى معمولا به فى كثير من المدن الاغريقية الأخرى . وهو يعنى حكم الأرستقراطية الاقطاعية ولكن كلمة الحكم الأرستقراطى لم تستعمل كثيراً فى وصف هذا الحكم لأن معظم الأسر النبيلة قد تغير بها الحال كما أصبح كثيرون من غير النبلاء ــ أغنياء ــ ولهذا فالكلمة جامعة مانعة . وبالفعل حدث انقلاب أوليجارخى قضى على الديموقراطية وأعدم قادتها وتكون مجلس من أربعماية (٢) عضو كان من بينهم الشاعر سوفوكليس لادارة شئون البلاد عرف بمجلس الأربعماية . ولكن سرعان ما دب خلاف بين الأوليجارخيين المعتدلين بزعامة ثيرامينيس Theramenes (٢) والأوليجارخيين المتطرفين بزعامة

(1) Cf. M.H. Jameson," Sophocles and the Four Hundreds, Historia, XX, 1971, p. 541—568.

(٢) من الطريف أنه قد عثر على وثيقة بردية من مصر من بين الأوراق البردية التى عثرت عليها جامعة ميتشجان تتحدث عن ثيرامينيس فى دفاع عنه ولا نعرف المؤلف الحقيقى وربما كانت هذه الأبولوجيا موضوع انشاء كتبه تلميذ . انظر :

R. Merkelbach H.C., Youtie," Ein Michigan Papyrus uber Thermeanes, Zeitschrfit Fur Papyr. und Epigr., 11, 1968 p. 161—169, Comment by Heinrich; ibid, III 1968 p. 101—108 also A. Andrews, ibid, VI, 1970, p. 35—38.

ومهما يكن من أمر فان المؤلف تأثر جدا بأسلوب لوسياس الخطيب خاصة فى خطبته دفاعا عن ايراتوثنيس (انظر ص) ومن المعلومات الجديدة التى ذكرتها الوثيقة ان ثيرامينيس سافر الى ساموس ليلتقى بالزعيم الأسبرطى لوساندر .

فرينيخوس Phrynichus وأنتيفون Antiphon . هذا من ناحيــة أما من الناحية الأخرى فقد أعلنت قوات الأسطول الأثينى ولاءها للديمقراطية وعصيانها لهــذا الحكم الأوليجــارخى . لأن الأســطول ارتبط دائمــا بالديموقراطية الأثينية . وأكثر من هذا هدد الأســطول من قاعــدته فى ساموس بالتدخل ما لم يعاد النظام الديموقراطى .

انهيار الحكم الأوليجارخى :

من الواضح اذا أن الحكم الأوليجارخى كان ضعيفا منذ البــداية وكان معرضا للسقوط فى أية لحظة . وعندما ظهر الأسطول الأسبرطى فجأة خارج مياه ميناء بيريه ذعر الأثينيون ولما أبحر شرقا الى جــزيرة يوبويا سارع الأسطول الأثينى لملاقاته على عجل ولم يــكن مستعــدا وكانت النتيجة هزيمة الأسطول الأثينى تماما ثم اعــلان يوبويا الثورة ضد أثينا . وما أن وصلت أنباء الهزيمة حتى ارتعــدت قلوب الأثينيين ذعراً ووضح رعونة الحكم الأوليجارخى فى معالجة الأزمات وانعزاله عن الشعب وعند ما أدرك زعماؤه تلك الحقيقة فروا واحداً وراء الآخــر الى منطقة ديكيليا وعقد الأثينيون اجتماعا شعبيا أعلنوا فيه ســقوط الحــكم الأوليجــارخى وعودة النظام الديموقراطى فى شكل حكومة الـ ٥٠٠٠ وبصورة أكثر اعتدالا من المفهوم القــديم بالرغــم من بقــاء امتيازات المواطنة مغلقة على خمسة آلاف مــواطن فقــط هم تعــداد الأكليسيا (١) بحجة أنهم هم وحدهم القادرون على تسليــح أنفسهم فى الحــرب مكونــين مجتمــع المواطنــين Politeia ومن الواضــح أن الديموقراطية قد عادت تحت الحاح جنود الأسطول الذين أعلنوا منــذ اللحظة الأولى عن سخطهم على نظام حكم الأوليجــارخيين ولم يمهلوه طويلا سوى أربعة أشهر هى المدة التى حكم فيها هذا النظام (من مايو حتى سبتمبر ٤١١ ق.م) وتولت حكومة انتقالية مهدت لعودة النظام الديموقراطية بصورة أكمل .

---

cf. P.J. Rhodes," The Five Thousands in Athens I, Revolution of 411 B.C., J.H.S., XCII, 1972, pp. 115—127.

عودة الديموقراطية ترفع من روح جنود الأسطول المعنوية :

هلل جنود الأسطول بعودة مكاسبهم الديموقراطية اليهم وارتفعت روحهم المعنوية وجاءت فرصتهم فى أواخر عام ٤١١ ق.م (١) . عندما أبحر أدميرال اسبرطى جديد اسمه منداروس Mindarus الى بحر مرمره Hellespont للقيام بعدوان على هذه المنطقة الحساسة اقتصادياً بالنسبة لأثينا عندئذ تعقبه (٢) الأسطول الأثينى واستطاع أن يجهز عليه فى كونوسيما Cynossema بالقرب من سستوس Sestus عند مدخل هذا البحر ثم أعقبه بانتصار آخر عند أبيدوس Abydos (فى الشمال الغربى على ساحل آسيا الصغرى) وسارع الأسطول الاسبرطى الى مدينة كوزيكوس Cyzicus على الساحل الجنوبى لبحر مرمره وحاصرها يعاونه فى ذلك القائد ألفارسى فارنابازوس Pharnabazus ولكن الأسطول الأثينى تقدم اليه وجنوده يحدوهم الأمل بالنصر وحاصروه حصاراً محكما ، ثم انقضوا عليه بشراسة أتت عليه تماما وسقط قائده منداروس صريعا وكان ذلك فى ربيع عام ٤١٠ وكانت ضربة قاصمة لاسبرطة فطلبت السلام وعرضت مقترحات طيبة ولكن الغرور الأثينى رفض هذه المقترحات وطالب بالنصر كل النصر ولا شىء غير النصر ولم تجد أثينا مكافأة لأبنائها خيراً من اعادة النظام الديموقراطى كاملا اليهم . وكان عام ٤٠٩ ق.م عام الانتصارات بالنسبة لأثينا اذ توالت الأنباء بعودة المدن المتمردة الى حوزة الامبراطورية اذ أعاد الأسطول الأثينى جزيرة ثاسوس Thasos وسليمبريا Selymbria وخاليكدون Chalcedon وأمنت أثينا تماما منطقة بحر مرمره والبحر الأسود وطهرتها من القوات الاسبرطية والفارسية معا . وسرعان ما استسلمت مدينة بيزنطة Byzantium بعد حصار طويل وكان الفضل فى هذه الانتصارات يرجع الى براعة القيادة للأسطول

---

(١) يتوقف تاريخ ثوكوريديس عند عام ٤١١ ق.م. وهنا نبدأ فى الاعتماد على مؤرخ آخر له أهميته وهو أكسينوفون .

(2) cf. S. Van De Maele," Le livre VIII de Thucydide et la politique de Sparte, en Asie Mineure (412—411). Phoenix, XXV, 1971, pp. 32—51.

والتى كان على رأسها الكبياديس خائن الأمس الذى أضحى بطل اليوم تتردد سيرته على كل لسان . وسرعان ما عاد الى الوطـن بين الهتـاف والعناق ونودى به جنرالا أعلى له كافة السلطات العسكرية لكى يقود الأمة والأسطول الى مرفأ النصر والمجد . وبالفعل تولى الكبيـاديس القيادة فى مايو عام ٤٠٧ ق.م .

قورش يرمى بثقله فى المعركة ويتحالف مع اسبرطة :

كان لسوء حظ أثينا أن تدخل الفرس فى الحرب ورموا بثقلهم فيها . وكان هناك ثمة تحالف بين الفرس والاسبرطيين ضد أثينا خاصة وأن عيون الفرس لم تحول أبداً عن أيونيا وعن الجزر القريبة منها . ولكن هذا التحالف ظل حبرا على ورق الى أن أوكل شئون آسيا الصغرى الى الأمير الفارسى قورش الثانى يساعده تسافرنيس بدلا من دارا الثـانى وقرر الأمير الشاب أن يجعل قوة فارس حقيقة وينفذ شروط التحالف مع اسبرطة . وفى نفس الوقت اكتشف الاسبرطيون شخصية عسكرية بينهم وهو الأدميرال لوساندر Lysander وسرعان ما كسب هذا الأدميرال ثقة الأمير الشاب قورش وقررا أن يعملا معا وأن يدفعـا بقوات كبيرة إلى الحرب لهزيمة آثينا عليها .

هزيمة اثينا وعزل الكبياديس :

وبعد التهليل والتكبير أبحر الكبياديس فى خريف عام ٤٠٧ من أثينا فى اتجاه الشرق حيث رابط الأسطول عند رأس نوتيومNotium (والتى تقع فى الشمال الغـربى من أفسـوس Ephesus على سـاحل آسـيا الصغرى) وتمكن لوساندر من أن يناوش القائد المناوب لأكبيـاديس ويجره الى مصيدة بحرية ومن ثم الى هزيمة كبرى فى مطلع عام ٤٠٦ ولما وصلت الأنباء أعلنت أثينا عزل الكبياديس وذلك لأن أعـداءه أثاروا الشبهات حوله مذكرين الناس بتاريخه الأسود وهرب الكبياديس الى فريجيا فى شمال آسيا الصغرى حيث لجأ الى حاكمها الفارسى فارناباسوس وظل هناك حتى أغتيل عام ٤٠٤ ق.م بتحريض من حكومة الطغاة الثلاثين (سنعالجها فيما بعد) وبتحريض من لوساندر نفسه . وبهذا ينتهى تاريخ

الكيباديس الحافل بالمغامرات والانتصارات والخيانة وبالدسائس والمؤامرات . وكل ما نعلق به عليه أنه كان رجلا شديد الأنانية انتهازياً من الدرجة الأولى حيث ارتكب عدة حماقات جرت على وطنه سخط الأصدقاء وحقد الأعداء وكان لهذا أثره فى هزيمة أثينا فيما بعد . وعلى أى حال فان المؤرخ ثوكوديديس لم يتردد فى أن ينتقد الأثينيين لفشلهم فى استغلال مواهب هذا القائد العسكرى ويتهمهم علناً بأنهم كانوا يبعدونه عن مناصبه فى وقت كان الوطن فى حاجة ماسة اليه . وعلى أى حال أسرع الأثينيون بتعيين أميرال جديد لقيادة الأسطول وهو كونون Conon أحد القادة العشرة Strategoi الذين اختيروا فى ذلك العام .

معركة ارجينوساى Arginusae ومحاكم الاعدام :

فى نفس الوقت الذى اختير فيه كونون أميراً للبحر الأثينى اختير قائد جديد للأسطول الأسبرطى وكان اسمه كاليكراتيداس Callicratidas بدأ على الفور فى تقوية أسطوله بأن أضاف اليهماية وأربعين سفينة جديدة ثم بدأ فى مناوشة كونون واستطاع بنصف هذا الأسطول أن يحاصر كونون ويهزمه فى ميناء موتيلينى بجزيرة لسبوس نفسها وما أن وصلت أنباء الهزيمة الى أثينا حتى اشتد حماس الشعب وأصروا على الحصول على نصر بأى شكل وبالفعل أرسلوا ماية وخمسين سفينة لنجدة كونون. وعند جزيرة أرجينوساى جنوب جزيرة لسبوس دارت معركة حامية الوطيس بين الأسطولين استطاع الأسطول الأثينى فيها أن يدمر ويغرق سبعين سفينة أسبرطية كما سقط القائد الأسبرطى كاليكراتيداس فيها قتيلا وكان بالفعل انتصارا شرف أثينا ورفع رأسها ولكن بدلا من أن يقابل قادة الأسطول عند عودتهم بالهتاف وأكاليل الغار قوبلوا بالاتهامات . اذ نما الى علم الأثينيين أن القيادة لم ينقذوا الغرقى الأثينيين وتركوهم معلقين بحطام السفن يصارعون الموت ويقال أن قادة الأسطول عجزوا عن انقاذهم بسبب العواصف وهياج البحر وعلى أى حال فقد أثار هذا الحادث غضب الشعب وطالبوا بتقديم القادة الى

المحاكمة بتهمة الاستهانة بأرواح جنودهم والاهمال فى العمل وأمام الجمعية العامة أدين القادة وحكم عليهم بالاعدام ومصادرة الأموال ونفذ الحكم فى ستة منهم كانوا حاضرين وبهذا العمل الأهوج خسرت أثينا كفاءات عسكرية فى وقت كانت فى أشد الحاجة اليها ومما لاشك فيه فان الديماجوجية هى التى كانت وراء هذه الأحكام البشعة والظالمة .

ولم يستمع أحد الى احتجاجات الفيلسوف سقراط الذى كان يترأس المجلس وقتئذ وجدير بالذكر أن الأثينيين كانوا دائما أعداء أنفسهم وكانت الدولة هى الضحية لأنها كانت « كالهرة تأكل جمافها » . وبذلك خسرت كفاءات عسكرية وسياسية لو قدر لبعضها البقاء لتغير مسار تاريخ أثينا فحسب بل تاريخ بلاد اليونان .

هزيمة أثينا النهائية :

وبعد موت كاليكراتيداس قائد الأسطول الأسبرطى عادت القيادة مرة أخرى الى الأدميرال لوساندر عام ٤٠٥ ق.م . الذى أبحر على الفور الى بحر مرمره Hellespont واستولى على لامباسكوس Lampascus وسارع الأسطول الأثينى على عجل لنجدة هذه المنطقة من عدوان الاسبرطيين وعند ساحل « ايجوسبوتامى Aegospotami (نهر الماعز) تلك المنطقة الساحلية الوعرة وفى مواجهة الأسطول الأسبرطى رسا الأسطول الأثينى متحفزاً للقتال وظل لأربعة أيام يتحرش بالأسطول الأسبرطى والأسطول الأسبرطى يتمانع الى أن اعتقد الأثينيون أنه لم يعد فى وسع الأسبرطيين القتال فانخفضت درجة استعدادهم للمعركة . ولكن الأسبرطيين كانوا ينوون أخذ الأسطول الأثينى على غرة وبالفعل فى اليوم الخامس غادر الجنود الأثينيون السفن الى الشاطىء للاحتفاء ولتناول غذاء جيد بينما كان لوساندر الأميرال الأسبرطى يرصد تحركاتهم فلما اطمأن الى مغادرة الجنود للسفن أبحر بسرعة الى مكان السفن الأثينية وبسرعة خاطفة استولى عليها جميعا دون أدنى مقاومة ولم ينج من المائة والثمانين سفينة سوى

تسع سفن من بينها سفينة القيادة بارالوس Paralus التى كان عليها كونون قائد الأسطول والذى لم يجرؤ على مواجهة قومه فأرسل « البارالوس » لتحمل الأنباء التعسة وقد سجل لنا المؤرخ كسينوفون Xenophon وصفا دقيقا للساعات الرهيبة التى شهدتها أثينا عقب وصول سفينة القيادة . أنها ساعات احتضار الامبراطورية الأثينية عام ٤٠٤ ق.م لقد قوبلت الأنباء بالبكاء والعويل على الضحايا والرعب من المستقبل المظلم الذى ينتظرهم « لقد كانوا يفكرون فى جزاء رهيب شبيه بذلك الذى كانوا يوقعونه على أعدائهم مثلما فعلوا بأهل جزيرة ميلوس كما أحسوا بأن « جبروت الانتقام » الذى كان يثير شفقتهم وهم يشاهدون مآسى الشعراء على المسرح على وشك أن يلحق بهم .

اثينا تستسلم وتقبل شروط اسبرطة :

ووسط هذه الآلام والأحزان عقد المجلس الشعبى اجتماعا قرر فيه اقامة التحصينات واغلاق الموانى وقصر ستقبال السفن وابحارها على ميناء واحد كما أمروا باقامة دوريات الحراسة على الأسوار وكان الصمود والمقاومة هو حلم الأثينيين جميعا والأمل الوحيد لنجاتهم من القتل والتعذيب والبيع فى أسواق العبيد ، ولكن موقف أثينا كان ضعيفاً لا أمل فيه لأن لوساندر يستطيع محاصرتها حتى الموت جوعا وبالفعل ظهر فى نهاية العام فى مياه خليج سارونيكوس (حول جزيرة سلاميس وفى مواجهة ميناء بيريه) بأسطول كبير للغاية وتقدم فحاصر ميناء بيريه ومنع الخروج منه أو الدخول اليه .

وفى نفس الوقت أصدر الملك باوسانياس أمراً بأن يتحرك جيش كبير لاحتلال أثينا قاده بنفسه وعسكر هذا الجيش فى منطقة كانت تسمى «بالأكاديمية Academia » (١) عندئذ وجد الأثينيون أنفسهم محاصرين براً وبحراً ولم يدروا ماذا يفعلون فلا سفن ولا حلفاء ولا طعام

---

(١) وهو المكان الذى افتتح فيه افلاطون مدرسته الفلسفية فيما بعد .

ولا امدادات . ونتيجة لذلك انتشرت المجاعة وظلوا يرفضون الاستسلام الى أن نفذ مخزون الغلال تماما ، عندئذ أرسلوا سفارة الى الملك أيجيس عارضين عليه قبول معاهدة صداقة يصبحون بمقتضاها حلفاء لأسبرطة على أن تبقى تحصيناتهم العسكرية وخاصة الأسوار العالية التى كانت تربط ما بين العاصمة والميناء وفى معسكر الجيش الأسبرطى قابلهم الملك وبعد أن استمع لهم اعتذر لهم قائلا لهم أنه محدود السلطة وليس فى امكانه تحقيق ذلك بل عليهم السفر الى أسبرطة لمقابلة الايفورات ephors والاتفاق معهم . وبالفعل سافرت هذه السفارة الى أسبرطة ولكن شروطها قوبلت بالرفض وعادت السفارة الى العاصمة حيث كانت المجاعة قد عصرت المواطنين عصراً . عندئذ تقدم رجل يدعى ثيرامينيس الى الجمعية الشعبية بمشروع بعودة الاتصال باسبرطة وجس نبضها وبالفعل سافر ثيرامينيس على رأس وفد من الأثينيين والتقوا بالايفورات Ephors عند مدينة سيلاسيا ولما سئل الوفد عن القصد من مجيئه أجابوا بأنهم مفوضين لعقد معاهدة السلام . عندئذ دعاهم الايفورات الى حضور مجلس حلف البيلوبونيسوس حيث تحدث مندوبو كورنثا وطيبة محرضين أسبرطة على رفض السلام وتدمير أثينا نهائيا وشاركهم فى ذلك كثيرون من حلفاء أسبرطة ولكن الأسبرطيين أجابوا بأنهم لا ينوون تدمير قطعة عزيزة من بلاد هيللاس وأنهم لن يبيعوا سكانها فى أسواق العبيد لأنهم قاموا بدورهم فى حماية بلاد اليونان وهزموا الفرس كما أخبروا الحلفاء بأنهم راغبين فى انهاء الحرب اذا ما قبلت أثينا الشروط التالية :

(ا) أن تنكمش الامبراطورية الأثينية الى اقليم أتيكا وجزيرة سلاميس فقط .

(ب) أن تزال كل التحصينات والأسوار الدفاعية خاصة ما بين العاصمة والميناء .

(جـ) أن يسلم الأثينيون أسطولهم التجارى فيما عدا أثنتا عشر سفينة .

(د) أن يسمح الأثينيون لجميع المنفيين السياسيين بالعودة .

(هـ) أن يعلن الأثينيون اعترافهم بقيادة أسبرطة على بلاد اليونان فى السلم والحرب تاركين لها وحدها حرية تحديد الصديق والعدو وأن يتبعوا خطاها فى البر والبحر •

كانت هذه هى الشروط التى حملها ثيرامينيس الى أثينا وعند أبواب العاصمة وقفت حشود الأثينيين فى انتظاره يعلو وجوههم الخوف والتلهف وأبلغ ثيرامينيس المجلس بشروط أسبرطة وتحت ضغط المجاعة التى لم تعد تحتمل وافقت الأغلبية على هذه الشروط بينما اعترض نفر قليل من المتطرفين وعاد ثيرامينيس ليبلغ قرار الاستسلام الى أسبرطة فى أبريل عام ٤٠٤ ق• م • وعلى الفور بدأ الأثينيون فى هدم الأسوار والتحصينات بحماس بالغ حيث راحت النساء تعزف لهم على النساى لتشجيعهم وأعلن حلفاء أسبرطة عن مشرق شمس الحرية على كافة أجزاء بلاد اليونان •
هكذا انتهت الحروب البيلوبونيزية بسقوط الامبراطورية الأثينية •

تعليق على راى ثوكوديديس فى الحرب البيلوبونيزية :

ان التاريخ الذى تركه لنا ثوكوديديس وثيقة هامة تكشف لنا كيف تحولت أثينا من أخلص الدويلاتالاغريقية تمسكا بالقيم الانسانية واحترام حقوق الانسان الى أشدها قسوة وعنفا وبربرية فى التصرف ليأسها من المستقبل وخوفها منه • اذ يعتقد ثوكوديديس أن خسارة أثينا فى الحرب راجعة الى مخالفتها سياسة بيريكليس وانصياعها الى عواطف الحزب الديموقراطى المتطرف فاندفعت فى فتوحات لا معنى لها فأرهقت نفسها وفقدت بذلك طاقة كبرى كانت فى حاجة ماسة لها ابان الحرب •

كذلك يتحدث ثوكوديديس عن عامل آخر من العوامل التى سببت هزيمة أثينا وهو الصراع الدامى بين السياسيين الأثينيين وخاصة بين الحزبين التقليديين، الحزب الديموقراطى والحزب الأوليجارخى ـ لدرجة أن كل فريق كان يعتبر انصياعه للفريق الآخر أشد الحاقا بالعار من سيطرة الأجنبى عليه • كما يجب ألا ننسى ما سببه وباء الطاعون الذى حاق بالأثينيين وقضى على ما يقرب من ثلث السكان •

لقد كان حظ أثينا تعسا اذ فقدت أعظم سياسى فى تاريخها ولم يعد

هناك من يحل محله ويتصرف مثله بنفس اتزانه وحكمته . لقد غاب بيريكليس عن أثينا وترك مسرح السياسة لمجموعة من الساسة المحدودى السلطة والتأثير ، راح كل منهم يصارع الآخر ، دون أن يستطع فرض شخصيته على الجميع ويمسك بزمام الأمور ويعيد توجيه دفة الدولة الى الاتجاه الصحيح وبلغ اليأس بهؤلاء السياسيين الضعفاء مبلغا لدرجة أنهم كانوا على استعداد للمتاجرة بمصالح البلاد طمعا فى كسب تأييد الغوغاء الذين انصاعوا لجنونها وعمائها تعلقا منهم بها بالرغم من علمهم بمدى الخطر الذى يلحقه الانصياع لأحلام الغوغاء . فمثلا تمسك كليون دباغ الجلود دائما بسياسة العدوان والاستمرار فى القتال ونبذ فرص السلام لأنه على حد ـ تعبير توكوديديس ـ « كان يتصور أن ألاعيبه سوف تنكشف فلا يصدق الناس افتراءاته » .

ومن أعظم الفلسفات التاريخيـة التى يؤكـدها ثوكوديديس قوله « الحروب تولد العنف . والعنف يولد الفوضى السياسية » ثم يستشهد على ذلك بصورة دقيقة رائعة ومعبرة لسيكلوجية مواطنى جزيرة كوركيرا نتيجة للحرب الأهلية التى اجتاحتها عام ٤٢٧ ق.م [١] . كما يتحدث عن أثر الحرب على شخصية المواطن وذكر أنها ظاهرة انسانية حدثت وتحدث وستحـدث دائما . وفرق بين طبـاع الناس وقت السـلام وطبـاعهم أثناء الحروب ذلك أنه المحرك لسلوك الدول والأفراد فى عهد السلام يكون دائما الروح النبيلة العالية نظراً لأنهم بعيـدين على أن يكونوا تحت سيطرة الحاجة الملحة . ولكن الحرب معلم قاس ينتزع وسـائل الرفاهية اليومية كما تطبع شخصيات المواطنين بطـابع الظـروف » ثم يعود فيقول : « وما أن تندلع أعمال الشـغب فى المدن حتى يندفع مثيروها وهم يحملون علم الثورة قدما الى الأمام وهم مصممون على أن يفوقوا ما يروى عن الذين سبقوهم أصالة فى مشروعاتهم وبشـاعة

(1) A.F. Bruce ; The Corcyrean Civil war of 427 B.C., Phoenix, XXV 1971 p. 108—117 ; A. Fuks, Thucydides and the Stasis in Corcyra A.J. Phil. XCII, 1971; p. 48—55.

ومن الجدير بالذكر ان كولنجوود هاجم ثوكوديديس لاستخدامه منهج التحليل النفسى واتهمه بانه « الرجل الذى مزق تحت أقدامه الفكر التاريخى جريا وراء أسباب ودوافع غير تاريخية » انظر :

R.G. Collingwood, The Idea of History, New York, Galaxy book 1956 pp. 29—30 ff.

فى انتقامهم » ، ويقول « ان الروابط الحزبية أصبحت أقوى من روابط الدم » وأن السياسى كان على استعداد « أن يجرؤ على أى عمل دون أن يسأل نفسه الغرض من ذلك » .

كما يتحدث ثوكوديديس بلهجة المؤرخ الفيلسوف فيقول : « ان سبب هذه الشرور هو حب السيطرة التى تنبع من النهم والطموح ومن روح الحزبية عندما يشتبك الناس فى الصراع » ، ثم يقول « لأن زعماء الحزبين المتصارعين استخدموا شعارات براقة فحزب يعلن تمسكه بسيادة القانون بين أغلبية المواطنين بينما يتغنى الحزب الآخر بعقلانية (واتزان) حكم الارستقراطية وبذلك تتحول مصالح الجمهور التى هى فى الأصل أسمى ما يجب أن يكرسوا له أنفسهم الى جائزة يتصارعون عليها » [1].
« هكذا تمخضت الثورة عن كل أنواع النذالة فى بلاد اليونان واختفت البساطة التى هى عنصر أساسى للسلوك النبيل وأصبحت محل تهكم من قبل الناس وأصبح الميل عاما الى المنافسة القاسية وأضحت قوة الفرد تكمن فى ايمانه بأن لاشىء فى مأمن عن الأخطار وعليه أن يبحث عن سلامته وألا يثق فى الآخرين ولذا أصبح الأقل ذكاء هم فى العادة الأكثر نجاحا فى الحياة .

النظام الديموقراطى يتعرض لمؤامرة اوليجارخية :

لم يكن فقدان الأسطول الأثينى هو ضياع الاستقلال والسيادة فحسب ، بل انهيار النظام الديمقراطى من أساسه خاصة وأن شيوخ الأوليجارخية وأتباعها لم ينتهوا بعد . ومما شجع دعاة الأوليجارخية هو علمهم بأن أسبرطة تحبذ قيام مثل هذا الحكم وتؤيده . وعلى أى حال فقد وجدوا المناخ مناسبا للقيام بانقلاب وبالفعل استطاع زعيمان من زعماء الأوليجارخية هما كريتياس Critias وثيرامينيس (الذى كان عضوا فى حكومة الأربعماية السابقة) بمساعدة القائد الأسبرطى لوساندر من اقامة هيئة دكتاتورية تتكون من ثلاثين عضوا عرفت بمجلس الثلاثين تحت اسم اعادة النظر فى الدستور والقوانين وحكمت

(1) cf. C.H. Grayson :" Two Passages in Thucydides, Class. Quar. XXII, 1972—p. 62-73.

حكما مطلقا يساعدها فى ذلك حامية اسبرطية . وكان الارهاب والاعدام هو وسيلة الحكم الجديد مما أدى الى اعتراض ثيرامينيس على طريقة كريتياس فى الارهاب مما حدا بالأخير الى اداته وتقديمه للمحاكمة ثم اعدامه . وقد عانى الشعب الأثينى الكثير من هذا الحكم فهرب عـدد كبير الى خارج البلاد اتقاء من شر هذا الحكم .

عودة النظام الديموقراطى مرة اخرى (سبتمبر عام ٤٠٣ ق.م) :

ولما ازداد عدد المطرودين والمنفيين خارج أثينا تجمعوا وتحصنوا فى قلعة فولى Phyle ثم هبطوا على ميناء بيريه بقواتهم حيث دارت معركة رهيبة بينهم وبين حكومة الثلاثين الأوليجارخية وسقط كريتياس صريعاً فيها وهزم أتباعه وسقط هـذا النظام وأقيم مكانه « مجلس العشرة » الذى طلب على الفور تدخل أسبرطة لمساعدته ، ولما كان الملك باوسانياس الاسبرطى على غير وفاق مع لوساندر وسياسته فقد سارع بالتدخـل وعزل « مجلس العشرة » و « مجلس الثلاثين » وأعلن الأمان السياسى لكافة الأثينيين وفى خلال هذا الأمان . أعيدت الديموقراطية مرة أخرى الى مهدها ـ أعنى الى أثينا .

وبعد تلك هى الحرب الكبرى التى أنزلت أثينا من عليائها وسلبت منها سلطانها العسكرى ووضعت نهاية لتجبرها على شقيقاتها الدويلات الاغريقية عندئذ فقط بدأ الأثينيون يمتعضون عند سـماع الأحـلام السياسية التى كانت تثير الحمية فى نفوسهم وبدأوا فى تفضيل السلام والحضارة على الحرب والسيطرة وبدأت ملكاتهم فى العمل حتى غدت أثينا فى القرن الرابع منارة للعلم والحضارة وكعبـة الفلاسفـة فى كافة أنحاء المسكونة وظلت جامعة هيللاس بلا منـازع حتى انـتزعت مدينة الاسكندر فى مصر منها هذا الشرف .

الفصل الثالث عشر

الامبراطورية الاسبرطية (٤٠١ - ٣٧١ ق٠م)

بانتصار اسبرطة على أثينا فى الحروب البيلوبونيزية ٠ أبعدت الأخيرة الأولى عن طريقها وانفردت على مسرح السياسة الاغريقية تلعب الدور المنتظر وهو دور الامبراطور الجديد ٠ لأنها لأول مرة أتيح لها فرصة التوسع خارج قوقعتها فى البيلوبونيسوس والتعامل مع مدن اغريقية وليس مع الهيلوت أو المجاورين Peroeci.

والحق يقال كان سلوك اسبرطة مع خصمها أثينا مهذبا وذكيا ٠ فقد رفضت أسبرطة بشدة طلب ممثلى بيوتيا وكورنثا بتدمير مدينة أثينا عن آخرها وازالتها من الوجود وجادلت مبينة لحلفائها فضل أثينا على الحضارة الانسانية واكتفت بتقليم أظافرها بأن أرغمت أثينا على ازالة أسوارها وتحديد أسطولها واسقاط حكومتها الديمقراطية وأرغمتها على قبول حامية اسبرطية فوق « اكروبولها » ٠ ويرى بعض الدارسين أن اسبرطة كانت تهدف من وراء هذه الاجراءات استيعاب أثينا وجعلها رأس حربة للقوة الاسبرطية فى وسط البلاد اليونان ضد مخططات طيبة التى كانت تحلم بجعل اقليم بيوتيا وحدة جغرافية تتحكم فيه كما تتحكم أثينا فى اقليم أتيكا واسبرطة فى اقليم لا كونيا ٠ وحتى هذه الاجراءات لم تبق طويلا فقد ساعدت بيوتيا اللاجئين الأثينيين فى اسقاط دكتاتورية مجلس الثلاثين الذى أقامته اسبرطة ٠ وفشلت اسبرطة أن تفعل شيئاً بسبب العداء الشديد بين قادة اسبرطة لوساندر وباوسانياس ٠ وانتهى الأمر بعقد معاهدة بين أثينا وباوسانياس اعترف فيها بعودة الديموقراطية وبصورة أمثل ٠ كل هذا بين مدى تآكل حجم الانتصار الاسبرطى على أثينا ٠ ووجود نية المقاومة عند الأثينيين ٠

لقد حاولت اسبرطة منذ معركة نهر الماعز ولمدة ثلاثين عاما اقامة امبراطورية شاسعة تمتد فيما وراء البيلوبونيسوس . وفي غمرة الانتصارات نسيت شعارها الذي رفعته ابان الحروب البيلوبونيزية وهو « تحرير كافة المدن الاغريقية » فأخذت تقيم حاميات عسكرية في المناطق التي استولت عليها وعلى رأس كل حامية آمر اسبرطي harmost كما راحت تسقط الحكومات الديموقراطية وتقيم مكانها حكومات رجعية أوليجارخية تتمثل في مجالس العشرة decarchy ، وبهذا ضيقت قبضتها على المدن الاغريقيـة عن طريق هؤلاء الأوليجارخيين الذين كرههم الشعب،وولد الخوف من ثورة الشعب عليهم العنف الدموي فيهم فراحوا يتخلصون من أعدائهم بالاستئصال الجسدي والنفي والتشريد لأن هذه الحكومات كانت تقوم على فـ
الهارموسات الاسبرطيون أنفسهـ
والربط » بعيدين عن قيود القانون « الليدرجوسي » ولا رقيب عليهم فانطلقوا يعيشون في رفاهية وترف وكأنهم ملوك شرقيون . وكثيراً ما راحوا يوقعون بين الشعب والحكام الرجعيين بقصد ابقاء المدن الاغريقية ضعيفة ومقيدة اليدين بسبب صراعاتها الداخلية . هكذا كانت قبضة اسبرطة أعنف من قبضة أثينا على بلاد اليونان خاصة عندما راحت الامبراطورية تدر على اسبرطة ألف تالنت كل عام ، بل أن المدن الاغريقية التي انشقت على أثينا أثناء الحروب البيلوبونيزية راحت ترزح تحت وطأة الجبروت الاسبرطي وتتمنى عودة الامبراطورية الأثينية الى جانب ذلك غضبت المدن الاغريقية من اسبرطة لخيانتها لقضية حرية أشقائهم في آسيا الصغرى عندما تخلت عنهم للفرس في صفقة سلام مع الشاهنشاه . وظل هذا الأمر يؤرق بالهم غيره على الهللينية وهم يرونها تحت رحمة الاستعباد الفارسي الشرقي بسبب خيانة اسبرطة لقضية الاغريق .

والى جانب ذلك لم تتخل اسبرطة عن سياستها القديمة وهي حماية

البيلوبونيسوس والمحافظة على بقائه هادئا ولم تتوانى فى إتخاذ خطوات حاسمة إزاء ذلك مثلما فعل الملك أجيس Agis عام ٤٠١ ق.م عندما قاد حملة ضد مدينة أيليس Elis لكى يعيد ايليس الى صوابها ، على حد تعبير كسينيفون .

وكان رد الفعل لسياسة استعراض القوة والعنف شديداً عند حلفاء اسبرطة فقد ساد الخوف بينهم بل أن تجبر شخصية الزعيم لوساندر Lysander (١) ولدت الخوف داخل المجتمع الاسبرطى نفسه وسرعان ما دب الخلاف بين اسبرطة وحلفائها فقد اعترضت كورنثا وطيبة على فكرة اقامة حكومة أوليجارخية فى أثينا حتى لا تصبح أثينا مخلب القط الاسبرطى ضد طيبة ، كما رفضت طيبة وكورنثا الاشتراك فى الحملة العسكرية الاسبرطية ضد ايليس . بل أكثر من هذا أخذتا تتعاطفان مع الحكم الديموقراطى الأثينى وتحاولان التحالف مع أثينا . وهما المدينتان اللتان طالبتا بتدميرها بعد هزيمتها فى الحرب البيلوبونيزية .

كان لوساندر هو العقل المدبر وراء هذه السياسة العنيفة التى اعترض عليها الملك باوسانياس نفسه وكان يؤيده فى ذلك عدد من الايفورات وبالفعل حدثت عدة قلاقل ضد حكومات العشرة فى المدن الاغريقية والذى كان من تخطيط لوساندر . ووجدت أسبرطة نفسها وقد كسبت كراهية الجميع بعد أن فقدت عددا كبيرا من مؤيديها الذين أصبحوا يتعاطفون مع أعدائها . وساد الفزع على فقد الامبراطورية التى تدر عليها ألف تالنت سنويا فبارعت اسبرطة الى توريط الفرس فى القضية بالصداقة حينا وبالعداء حينا آخر . كانت الصداقة الفارسية الاسبرطية تقوم على رجلين صديقين هما لوساندر والأمير قورش Kyrus كان لوساندر ذا شخصية ونفوذ فى اسبرطة بالرغم من أنه لم يكن ملكا . بل كان صانع الملوك فعندما مات الملك آجيس عام ٣٩٩ ق.م اعترض على تنصيب ابنه الأكبر بحجة الشك فى بنوته واستطاع بنفوذه أن يقيم

---

(١) عن لوساندر انظر الدراسات الآتية :

C.D. Hamilton Spartan Politics and policy, 405—401 B.C. Andrews." Tow Notes on Lysander, Phoenix, XXV 1971, p. 206—226.

أجيسلاؤس Agesilaos وهو أخ غير شقيق لولى العرش ، أما قورش فكان أميراً ذا طموح يتمنى أن يجلس على عرش فارس وكان يطمح أن تساعده أسبرطة فى ذلك مستقبلا . وعندما بدأ النزاع بين الأمير قورش وأخيه الأكبر الملك ارتاكسركسيس Artaxerxes أخذ الأمير الأصغر فى اعداد حملة عسكرية من الاغريق المرتزقة للاطاحة بحكم أخيه ولم تتردد أسبرطة فى مساعدته فالمعركة بالنسبة لها هى معركة بين بربرى وبربرى وأن ضحاياها سيكونون من البرابرة أيضا وعلى أرض بعيدة عن أراضى بلاد الاغريق ، بل انها تمنت أن ينجح قورش الصديق ، فى خطته . ولكنها كانت تعرف أن هزيمة قورش يعنى فقدان صداقة بلاد الفرس وبداية الصراع معها .

قورش ورحلة العشرة آلاف مرتزق من الاغريق :

وكما قلنا ، بعد موت الملك دارا الثانى خلفه على العرش ابنه الأكبر ارتاكسيركسيس ولكن حدث أن دب العداء بين الأخ الأكبر وأخيه الأصغر قورش والذى كان «ستراباً» على آسيا الصغرى . وأخذ قورش يدبر المكائد للاطاحة بأخيه والجلوس على العرش مكانه . ومن أجل ذلك استطاع أن يجند جيشا من المرتزقة الاغريق تحت قيادة أسبرطى اسمه كليارخوس وقد بلغ تعداد جيش قورش عندما سار به الى سوسا — عاصمة بلاد الفرس — ما يقـرب من ماية ألف جندى من الشرق وثلاثة عشر ألف اغريقى مرتزق منهم عشرة آلاف وستماية جندى مشاه hoplites هـم الذين أطلق اسمهم على المغامرة .

تحرك هذا الحشد فى ربيع عام ٤٠١ق.م وأخفى قورش على الجنود هدف الحملة الا من قائدها كليارخوس . وقيل للجنود أن هدف الحملة هو منطقة بيسيديا Pisidia فى آسيا الصغرى وقد انطلت هذه الأكذوبة حتى على اكسينوفون Xenophon الأديب والمؤرخ وأحد الفرسان الأثينيين من تلامذة الحكيم سقراط . والذى بفضل اشتراكه فى الحملة استطعنا أن نتعـرف على تفاصيلهـا يوما بيوم وذلك لأن اكسينوفون سـجل

يومياتها فى كتابه الشهير الصعود Anabasis أى السير الى أعالى الشرق داخل قلب آسيا الصغرى والى قلب الامبراطورية الفارسية فيما وراء دجلة والفرات .

تحركت الجيوش من تجمعها فى سارديس Sardis فى آسيا الصغرى ولم تتجه الى بيسيديا بل اتجهت شمالا ثم شرقا عبر ولاية كيليكيا Cilicia ومنها الى ميناء طرسوس وهناك عرف الجنود أنهم متجهون الى بلاد الفرس وساروا الى داخلها لمدة ثلاثة أشهر بعد تركهم شاطىء البحر . وعند ايسوس Issos وجد قورش أسطولا مجهزاً ومعداً له وعليه سبعماية جندى أرسلتهم أسبرطة للأمير . وساروا عبر سوريا شرقا الى نهر دجلة حيث عبروا الى قلب الصحراء التى ساروا فيها لمدة اثنى عشرة يوما حتى أشرفوا على بابل .

ولما علم ارتاكسركسيس بتقدم أخيه أعد جيشاً لملاقاته قوامه أربعماية ألف رجل وأخذ يقيم التحصينات والعوائق عبر بابل ولكن جيوش قورش عبرتها . وعند مشارف قرية كوناكسا Cunaxa التقى جيشا ارتاكسركسيس وقورش . وكان الأخير يعلم طباع الشرق بأنه فى حالة قتله للملك فان جيوش أخيه سوف تعلن الولاء له ولذا طلب من كليارخوس تشديد الحراسة حوله ولكن كليارخوس المتحذلق رفض ولم يشأ قورش أن يثير الخلاف بينه وبين الاغريق الذين فاتهم أن حياة قورش تعنى لهم الكثير . ولما بدأ الالتحام أنزل الاغريق الرعب فى قلوب الفرس بينما اندفع قورش ومعه ستماية فارس لمهاجمة قلب دفاع الملك الذى كان يترصد أخاه وغريمه واندفع قورش غير مبال وهم يهاجم أخاه ولكنه أصيب بسهم قاتل وسقط صريعاً ولما أشيع نبأ مقتل قورش تفرقت القوات الشرقية أما القوة الاغريقية فقد انسحبت الى خيامها حيث وجدتها قد نهبت وأحرقت . ولكنها حافظت على نظامها وأبدت رباطة جأش منقطعة النظير فى وجه هذه المحنة القاسية وهى فى قلب قارة معادية ووسط متاهات جبلية لا يعرفون مخرجا وبالرغم من ذلك فقد

رفضوا دعوة ارتاكسيركسيس لهم بالاستسلام، عندئذ لجأ الملك الفارسي الى سلاح الخديعة فاوعز الى أحد ولاته واسمه تسافرنيس Tissaphernes أن يعرض على الجيش الاغريقي تزويده بالمؤنة وقيادته عبر الصحراء والجبال عبر طريق أقصر من ذلك الطريق الذى جاءوا منه، وساروا خلفه حيث عبروا بابل الى قلب ميديا (بلاد الفرس القديمة) ثم عبروا نهر الزاب الأصغر والزاب الأكبر فى سلام . وفجأة دعى تسافرنيس قادة الجيش الخمسة الى خيمته بحجة التشاور ولما فعلوا ذلك قبض عليهم وأرسلهم الى سوسا عاصمة الملك ليحاكموا ويعدموا . وكان تسافرنيس يعتقد أنه بفعلته هذه سيجعل باقى أفراد الجيش يستسلمون. ولكن الجنود ازدادوا عناداً وعقدوا اجتماعاً حيث وقف أكسينوفون يخطب فيهم ليرفع من روحهم المعنوية وعلى أثر ذلك اختاروه قائداً لهم ليقودهم فى عودتهم وكان أكسينوفون قد انضم الى هذه الحملة كجندى متطوع . وسار أكسينوفون بهم شمالا مخترقا صحارى وجبال ووديان وعبر بهم أنهار وهو يواجه الأخطار من القبائل المعادية ويسجل يوميات هذه المغامرة الخطرة ولهذا جاء كتابه الصعود Anabasis سجلا حافلا بالشجاعة والمغامرة والنظام والتصرف العاقل فى مواجهة الأخطار . انها ملحمة الألم والشجاعة « وأوديسا » واقعية .

وما أن حل شهر ديسمبر ببرده وثلوجه حتى كانوا على مشارف أرمينيا واستمروا فى اتجاه الشمال عبر الجبال المغطاة بالثلوج وقد نال منهم الجوع والبرد والارهاق كثيراً حتى علموا أنهم يقتربون من البحر الأسود . وأخيراً سمع أكسينوفون صياحاً من طلائع القافلة التى كانت تستكشف الطريق من فوق صخرة فظن أن خطرا يلاحقهم فلما صعد اليهم سمعهم يهللون بجنون ثالاسا ! ثالاسا ! Thalassa ! Thalassa أى البحر ! البحر ! وبعد مسيرة أيام وصلوا الى مدينة ترابيزوس Trapezus على البحر الأسود وكان ذلك فى ربيع عام ٤٠٠ ق.م . وهى مدينة اغريقية . وهناك استراحوا شهراً وقدموا الأضاحى وأقاموا مهرجانا رياضيا على شرف زيوس المنقذ ثم سافروا بحراً الى مدينة بيزنطة وهناك تفرق الجنود الذين كان عددهم قد تناقص الى ستة آلاف جندى ولكن

الغالبية العظمى منهم وجدت نفسها رفاق سلاح ولا يريدون التفرق بل البحث عن مغامرة جديدة ، فانضموا تحت قيادة قائد أسبرطى للعمل فى خدمة أحد أمراء تساليا ولكنه خدعهم فى أجورهم فتركوه . ولما قامت الحرب بين بلاد الفرس وأسبرطة قررت أسبرطة الاستفادة من خبرة هذه الفرقة . وبالفعل قبلوا العمل بعد أن قبضوا مرتباتهم مقدما وسافروا مع الجيش الأسبرطى فى حملته ضـد بلاد الفـرس عـام ٣٩٩ ومعهم آكسينوفون أيضاء وأخيراً عاد آكسينوفون الى بلدته الحبيبة أثينا بعد أن جمع مالا وفيراً ولكنه حزن كثيراً لأنه علم بموت معلمه وسيده سقراط . ولم تستقبله أثينا بالترحـاب بل بالغضب لأنهـا كانت فى ذلك الوقت متحالفة مع بلاد الفرس ضد أسبرطة ولهذا حكمت عليه بالنفى فاختار أن يذهب طواعية الى اسبرطة حيث اشترك مع الجيش الاسـبرطى فى عدة حروب ضد بيوتيا وأثينا وأخيراً اختار قرية هادئة بالقرب من أوليمبيا ليستقر بها حيث قدم له الاسبرطيون بيتا ريفيا وزوجة لخدمته . وهناك انعكف اكسينوفون على الكتابة فى الأدب والتـاريخ حتى صـودرت مزرعته بعد عام ٣٧١ ، فهاجر الى كورنثا وبقى فيها حتى مات حوالى عام ٣٥٤ ق.م .

ويعرف الدارسـون للأدب الاغـريقى مكانة آكسينوفون كأديب متنوع القدرات ، وفضلا عن ذلك فهو يكتب بأسلوب سـهل مبسط وبالرغـم من هـذا فلم ينقصه الخيـال الذى يصطنع المواقف ويجسم الشخصيات . والى جانب ذلك كان آكسينوفون فيلسوفا هاويا ، مؤرخا وخبيراً فى الاقتصـاد حيث له أبحـاث فى هـذا المجـال ، كذلك فان آكسينوفون كان فارسا مغوارا وجنديا بارعا بفنون العسكرية . ولكن كان فى كتاباته يميل الى الاتجاه الأخلاقى والتربوى وأثر ذلك على الفرد بل ويقدم حلولا وعلاجا لمشاكل الأخلاق والمجتمع والاقتصاد ولكنه يكرر أفكاره مرات ومرات حتى تكاد أن تصبح ثقيلة على النفس .

والى جانب رحلة الصعود Anabasis كتب اكسينوفون مؤلفا آخر هو هللينيكا Hellenica أو الهللينيات(١) في سبع مجلدات بدأها من حيث انتهى ثوكوديديس تاريخه عام ٤١١ حتى عودة الديموقراطية مرة أخرى على يد ثراسيبولوس ويستمر في تسجيل جوليات الأحداث حتى موقعة مانتينيا عام ٣٦٢ ق٠م حيث اشترك فيها ولداه في صفوف الجيش الأثيني ضد طيبة وسقط فيها أكبر أبنائه٠ كما روى في مؤلف آخر اسمه «تربية قورش» Kyropaedeia الذى كرسه لدراسة ونشأة وتربية مؤسس الامبراطورية الفارسية وهى ملحمة رومانسية وسياسية وفلسفية كتبها في ثمانى مجلدات ٠ ومن أعماله الكبرى أيضا مذكراته عن سقراط ودفاعه عن أفكاره وهى تعرف باسم Memorabilia أو الذكريات هذا الى جانب العديد من الأبحاث الصغيرة التى شملت عدة موضوعات متفرقة أهمها المأدبة Symposium وهى تدور حول محاورات سقراط ، والاقتصاد أو الاويكونوميكوس Oeconomicus وفيها يعرض آراء سقراط في مجال الزراعة ٠

وكما سبق القول يعتبر أسلوبه أرقى المؤلفات الاغريقية الاتيكية حيث لا يخلو من التشبيهات والألفاظ الجديدة والشاعرية المتأثرة بحكم رحلاته واقامته في بلاد مختلفة ٠ كما أنه استعار الكثير من كتابات من سبقوه خاصة فيما كتبه عن أفكار سقراط ، ولعل اعجابه بالشخصية الاسبرطية ودفاعه عنها يشرح ويبين طبيعته العملية الواقعية التى تتجلى في كتاباته خاصة في الهللينيكا ٠

وعلى أى حال فقد أثار مؤلفه « الاناباسيس » خيال المغامرين وخاق في قلوب العسكريين والسياسيين آمالا رومانسية لغزو فارس ٠ اذ لم تمض سنوات حتى كان الملك الاسبرطى اجيسلاءوس يقوم بحملة عسكرية الى قلب بلاد الفرس باءت بالفشل ، ثم أعد فيليب الخامس ملك مقدونيا حملة مشابهة من كل الاغريق ولكنه قتل قبل أن يقوم بها والتى القدر اتمام هذا الحلم الرومانسى على أكتاف الاسكندر الأكبر ٠

(1) K : Bringman," Xenophon's Hellenike und Agesilaos zzu ihren Entstehungsweise und Datierung, Gymnasion, LXXVIII (1972) pp. 224-241.

توتر العلاقات بين الفرس واسبرطة واندلاع الحرب :

كانت المدن الاغريقية فى آسيا الصغرى قد استغلت اندلاع الصراع بين أرتاكسيركسيس الثانى وأخيه قورش ، خاصة بعد أن ارتفعت روحها المعنوية وهى ترى الأمير الثائر يعتمد على أشقائهم الاغريق فى محاربة أخيه . فأعلنت الثورة ضد السلطة الفارسية ووجد والى آسيا الصغرى ، الجديد تسافرنيس صعوبة شاقة فى القضاء على ثوراتها وهو يعيدها بالقوة الى حوزة الامبراطورية الفارسية كما أن العلاقات بين الفرس وأسبرطة كانت قد ت.رمت نتيجة لتأييد أسبرطة العسكرى لقورش بارسال سبعماية جندى لمساندته ، وبعد مقتل قورش أحس الملك أكسيركسيس بمرارة شديدة ازاء الاغريق عامة والاسبرطيين خاصة .

وأدركت أسبرطة أن الحرب بينها وبين الفرس قادمة لا محالة فآثرت أن تأخذ المبادرة فتتذكر فجأة فى عام ٤٠٠ ق.م الشعار القديم وهو حق المدن الاغريقية فى التمتع بالحرية والاستقلال ، فتلبى نداء اغريق آسيا الصغرى الذين راحوا يطلبون النجدة ضد سياسة القمع الفارسية . كما أن السياسيين الاسبرطيين كانوا ينظرون بتلهف شديد الى نهب مدن آسيا الصغرى الغنية والى تحقيق حلم مغامر فى فتح بلاد الفرس نفسها . وتحركت قوة اسبرطية الى آسيا الصغرى بقيادة ديركولليديس Dercyllides ضمت اليها بقايا الجنود المرتزقة الذين حاربوا مع قورش . ولما وجد القائد الاسبرطى صعوبة فى تحقيق هذا الحلم حاول استخدام قواته فى الضغط على الملك الفارسى لقبول معاهدة سلام يعترف فيها باستقلال المدن الأيونية وبالفعل ؟سل قائد الحملة الى الملك فى عاصمته صوصا . وبناء على نصيحة ،زيره فارنابازوس Pharnabazus رفض الملك مثل هذا الاقتراح ، كما أشار الوزير على الملك باستخدام الأسطول فى الحرب ونجح الفرس فى تجنيد القائد الاثينى كونون Conon الذى كان قد فر الى فارس بعد تدمير أسطوله فى معركة نهر الماعز لأن الفرس كانوا يدركون مدى تحرق كونون لغسل الاهانة المرة التى لحقت به وتحفزه للانتقام من الأسطول الاسبرطى . وبالفعل عينه

الفرس قائدا للأسطول الفارسى الذى كان يتمركز عند شواطىء فينيقيا ولا يقل عن ٣٠٠ سفينة حربية .

فى هذه الأثناء كان الملك آجيس قد مات فى أسبرطة واستطاع لوساندر أن يدفع بالأمير أجيسلاؤس الى كرسى العرش بدلا من المستحق الشرعى « ليوتوخيداس » وربما كان لوساندر على حق لأن هذه الشخصية كانت قادرة على تحقيق الكثير لاسبرطة فقد كان الملك أجيسلاؤس ذكيا وهادئا، مفكراً ورزينا الىجانب ما اتصف به من شجاعة. ولكن اعتراض الاسبرطيين الوحيد عليه كان بسبب نبؤة قديمة تحذرهم من ملك أعرج. ولم يكن ذلك عيبا ولكن العيب هو الغرور الشديد والطموح القاتل الذى اتصف به هذا الملك والذى يظهر فى تلهفه الشديد لترأس الحملة العسكرية ضد الفرس (١) اذ كان يتخيل نفسه وهو يسير الى المعركة وكأنه أجاممنون وهو يقود الاغريق ضد طرواده . وسار الى ميدان القتال فى آسيا الصغرى ومعه قوة من الاسبرطيين الجدد neodamones تقدر بألفين من الجنود كما كان يرافقه مجلس استشارى عسكرى مكون من ثلاثين خبيراً على رأسهم لوساندر نفسه . ووصلت الحملة الى آسيا الصغرى عام ٣٩٦ ق.م ولكن حدث خلاف على اصدار الأوامر بين الملك ولوساندر مما اضطر الأخير أن ينسحب فى دبلوماسية رقيقة بأن طلب من الملك ارساله على رأس حملة اسبرطية لتأمين منطقة بحر مرمرة والبحر الأسود حيث حقق بالفعل الكثير لاسبرطة فى هذه المنطقة . أما الملك أجيسلاؤس فقد حقق عدة انتصارات ضد فريجيا وأحضر أسلابا كثيرة الى مدينة أفيسوس Ephesus كما ألحق بتسافرنيس وبقواته خسائر فادحة مما دعى الفرس الى عزل هذا الوالى وارسال والى

(١) جدير بالذكر ان هذا الملك قام بحملة الى وادى النيل عام ٣٦١ ق.م لمساعدة الملك المصرى تاخوس فى حملته ضد فينيقيا الفارسية ولكن الخلاف دب بينهما ولما برز نختانبو كمدعى لعرش مصر سارع اجيسلاءوس لتاييده وهكذا تحولت حملته عن هدفها الأساسى وهو طرد الفرس من مصر الى التدخل فى الصراع على العرش . كما أن المصريين استاءوا لكونه أعرجا .

cf. Bury, op. cit., pp. 628-629.

جديد هو تثراوستيس Tithraustes وكان هذا الأخير أكثر تعقلا فأخذ يسعى للسلام وعرض على أجيسلاؤس اقتراحا بعقد معاهدة سلام تمنح فيها المدن الأيونية استقلالها مقابل دفع الجزية المالية للفرس ومقابل انسحاب الاسبرطيين من آسيا الصغرى ولما لم يكن من حق الملك الاسبرطي عقد أي معاهدة دون أخذ رأي الايفورات فقد عقد هدنة لمدة ستة أشهر وأرسل صيغة السلام الى وطنه منتظرا جوابا . في أثناء فترة الانتظار راح يكيل الضربات ضد ولاية فريجيا Phrygia حتى أجبر ملكها على أن يجثوا على قدميه طالبا السلام .

وفي منتصف صيف عام ٣٩٤ ق.م ظهر أسطول كونون بالقرب من شواطيء آسيا الصغرى يحوم منتظرا الانقضاض على الاسبرطيين وبلغ من حقد فارنابازوس على الاسبرطيين أن انضم الى قيادة هذا الأسطول . ولما علم أجيسلاؤس أعد أسطولا كبيرا يفوق أسطول كونون ولكنه أخطأ عندما عين صهره بيساندر Pisander قائدا عليه وهو يجهل حروب البحر . واندفع بيساندر لملاقاة كونون قرب مدينة كنيدوس Cindus ولكن كونون تمكن من ايقاعه في الشرك ودمر أسطوله وقتله واستولى على ما تبقى من سفنه .

وما أن علمت المدن الأيونية بنبأ هذه الهزيمة حتى ثارت ضد الحاميات الاسبرطية وطردت الهارموستات وأعلنت ولاءها للفرس لأنها كانت تعلم أن هزيمة كنيدوس قد كسرت ظهر اسبرطة وأن التخاذل بدأ يدب في امبراطوريتها وأن تعقل الحكم الفارسي أفضل من رعونة الاسبرطيين .

اندلاع الصراع بين اسبرطة وحلفائها في البيلوبونيسوس (٣٩٥ق.م):

وبينما كان أجيسلاؤس يحلم بمعارك وانتصارات جديدة ضد بلاد الفرس اندلعت حركات التمرد ضد اسبرطة داخل عقر دارها في البيلوبونيسوس . وكانت جذور هذا التمرد تمتد الى أيام انتصار اسبرطة على أثينا في الحروب البيلوبونيزية فقد احتفظت اسبرطة لنفسها بكل ثمار النصر ، وأخذت تعامل حلفاءها باستعلاء وباحتقار وتسلك معهم سلوكا مهينا قاسيا مثلما فعل الملك آجيس مع أهل مدينة أيليس عندما

دخل مدينتهم ونهب أرضهم وفرض عليهم شروطا مهينة كما طرد أحفاد اللاجئين المسينيين من مستعمرتهم فى ناوباكتوس وكيفالينيا .

ووجد الفرس فرصة لفتح جبهة جديدة ضد الاسبرطيين بتشجيع التمرد وتأليب المدن الاغريقية ضد اسبرطة ومن أجل ذلك أرسل الفرس عميلا لهم من جزيرة رودس اسمه تيموكراتيس Timocrates راح يطوف بالمدن الاغريقية فى أرجوس وكورنثا وطيبة يحرضها على الثورة . وكانت طيبة بالذات تثير شكوك اسبرطة نظراً لاتباعها سياسة توحيد اقليم بيوتيا تحت زعامتها، وبدأ الصراع بنزاع على الحدود بين مدينتى فوكيس Phocis ولوكريس Locris وأيدت اسبرطة الأولى فما كان من لوكريس الا أنها طلبت من طيبة المعونة . ولم تتردد طيبة فى ذلك لأنها كانت تعلم مدى انشغال الجيش الاسبرطى فى بلاد الفرس . وهددت طيبة بغزو البيلوبونيسوس وعقدت معاهدة صداقة مع الحلف الآثينى . أما الاسبرطيون فقد ركبهم الغرور وظنوا أنها فرصة نادرة وهى قمع الثورة داخل البيلوبونيسوس والقضاء على خطر طيبة ووضع الاسبرطيون خطة هى أن يطبق الجيش على طيبة من الشمال بقيادة لوساندر ومن الجنوب بقيادة باوسانياس وتكون مدينة هاليارتوس Haliartus * هى نقطة الالتقاء. ولكن الملك باوسانياس تأخر فى الوصول وتقدم لوساندر وحده ومن ثم أخذت قواته على غرة وسقط صريعا . وفى فقدانه منيت اسبرطة بأكبر خسارة ، ولما وصل باوسانياس وجد أن خطته قد فشلت وحاول استرداد جثة الزعيم الاسبرطى . وفى نفس الوقت وصلت القوات الآثينية لمساعدة طيبة بقيادة ثراسيبولوس Thrasybulus وآثر باوسانياس السلام فعقد معاهدة انسحب بمقتضاها من بيوتيا ولم يذهب باوسانياس الى أسبرطة لأنه كان يعلم بالذى ينتظره هناك بل ذهب الى المنفى فى تيجيا من تلقاء نفسه .

* وهى مدينة صغيرة فى وسط اقليم بيوتيا تطل على بحيرة كوبايس Copaïs

كورنثا تثور على اسبرطة (الحروب الكورنثية) :

وفى عام ٣٩٤ ق•م • احتفل المتحالفون الاغريق بانتصارهم على أسبرطة وتجمعوا حول أثينا مركز هذا التحالف المضاد والذى اليه انضمت كثير من المدن البيلوبونيسية أهمها كورنثا وطيبة وأرجوس• وكانت كورنثا أكثر المتحالفين تحمسا لاستمرار الحرب ضد اسبرطة وتحريضا على غزوها وتدميرها عن آخرها حين طلب ممثلها القيام بحملة عسكرية مشتركة « لحرق الزنابير وهى فى عشاشها » (1) ويرجع السبب فى اشتعال الحروب الكورنثية الى مؤامرات طيبة ضد أسبرطة فى بلاد اليونان الوسطى ، يساعدها فى ذلك تحريض الفرس بالرشوة والمال لاحداث الثورة ضد اسبرطة رداً على مساعدتهم للأمير قورش ولابعاد أجيسلاؤس عن آسيا الصغرى • وراحت أسبرطة تدافع عن زعامتها لبلاد اليونان بأن مساعدتها لقورش كان دافعها مصلحة المدن الأيونية الموجودة فى آسيا الصغرى ولكن مثل هذا الادعاء كاذب لأن اسبرطة لم تكن تعنى كثيراً بقضية الحرية فى بلاد اليونان اذ لم يمر ثلاث سنوات حتى نجدها تبيع استقلال المدن الأيونية فى آسيا الصغرى مقابل صفقة مع بلاد الفرس • وهذا التذبذب بين الظهور كمدافع عن المدن الأيونية وبين بيع قضيتهم للفرس هو بمثابة الاتهام الرئيسى الذى يمكن أن يوجه الى السياسة الاسبرطية •

كذلك فان هناك من يلقى اللوم على اسبرطة فى مسئولية قيام الحروب الكورنثية ويقولون أن مدينة فوكيس حليفة اسبرطة هى التى بدأت بالعدوان• حتى اكسينوفون نفسه وهو المتعاطف مع الاسبرطين لا يخفى سرور وابتهاج الاسبرطيين بهذه الحرب أملا فى معاقبة طيبة التى كانت تثير شكوكهم بمحاولة توحيد اقليم بيوتيا تحت زعامتها • ومن ثم يمكن أن تتهم الاسبرطيين بالغرور المطلق الذى أفقدهم توازنهم فنسوا الحدود التى يجب أن يتوقفوا عندها وهى البيلوبونيسوس فقط• لأن أقصى الطاقة الاسبرطية يتوازن مع السيطرة على البيلوبونيسوس ،

(1) cf. C.H.D. Hamilton, The Politics of revolution in Corinth', 395—386, Historia, XXI, 1972, P. 21—27.

أما الانتشار الى مناطق توسعية فيما وراء البيلوبونيسوس فان فى ذلك اختلال بالتوازن بين القدرة والسيطرة . وهذا الشيء هو الذى أدى الى هزيمتها فيما بعد .

لم ينتظر الاسبرطيون حتى يهاجمهم المتحالفون الاغريق فأرسلوا جيشا فى عام ٣١٤ ق . م ، الى كورنثا التى دارت حولها المعارك حقق فيها الاسبرطيون انتصارات ء
سياسية،اذ كسرت القيود وا
ولم ينس الاسبرطيون خطر
قدومه لمحاربة بيوتيا وتركه
الجديد » أن يغادر أرض ا
الى بيوتيا مخترقا ثراكيا ومة
اجيسلاؤس بجموع الجيوش
الوطيس سجل لنا اكسي
اجيسلاؤس . وأخيراً حقق ال
بلاده لأنه أدرك عدم جدوى هزيمه اهل طيبه .

وفى هذه الأثناء كان كونون وفارنابازوس يقومان بهجمات بحرية ضد الأراضى الأسبرطية على شواطىء البيلوبونيسوس تشجيعا للثورة ضد أسبرطة . وفى النهاية أهدى فارنابازوس الأسطول الى كونون وطلب منه العودة الى أثينا للمساعدة فى بناء قوتها البحرية واعادة بناء الأسوار بين أثينا وميناء بيريه والتى كانت اسبرطة قد أمرت بهدمها بعد هزيمة أثينا فى الحروب البيلوبونيزية . هكذا كان كونون أول من أعاد بناء الأسوار منذ أن بناها سلفه القديم ثمستوكليس ، أنه من باب السخرية أن يساعد الفرس أثينا فى بناء أسوار بنيت أساساً لحماية المدينة منهم . وسرعان ما أحيا قيام الأسوار الحنين فى نفوس الاثينيين الى المجد القديم واحياء الامبراطورية ولكن هدف الفرس لم يكن مساعدة أثينا بقدر ما كان هزيمة أسبرطة واحداث فتنة تشغلهم عن آسيا الصغرى .

تركزت معارك الجولة الأخيرة بين اسبرطة من ناحية وحلفائها الثائرين عليها من ناحية أخرى حول كورنثا، وكانت كورنثا قد حصنت

مينائيها الشرقى والغربى وأقامت أسوار بين المدينة وبين هذين المينائين وأصبحت بذلك تسيطر على الخليج المعروف باسمها • أما الانبرطيون الذين جعلوا قيادتهم فى سيكيون Sicyon فقد حاولوا تدمير تحصينات كورنثة ولكنهم ردوا على أعقابهم خاسرين بفضل فرقة من المرتزقة والمسلحين بأسلحة خفيفة Pelastes والتى كان يقودها ايفيكراتيس Iphicrates الأثينى • ولقد ثبت فى هذه المعارك مدى كفاءة الجنود المسلحين بأسلحة خفيفة وتفوقهم على الجنود المسلحين بأسلحة ثقيلة Hoplites حيث تمكنوا من التسلل الى خلف خطوط الاسبرطيين والقضاء على فرقة كاملة منهم فضلا عن أعمالها الخاطفة الشبيهة بحرب العصابات التى ألحقت الكثير بالجيش الاسبرطى فاضطر الملك أجيسلاوس الى الانسحاب ليلا عائدا الى اسبرطة بينما أكملت فرقة ايفيكراتيس تحرير باقى مدن طيبة • حدث هذا فى الوقت الذى كانت فيه القوات الأثينية قد حققت نجاحا كبيرا فى منطقة البحر الأسود حيث انضم اليها حلفاؤها السابقون مثل مدينة بيزنطة وجزيرة ثاسوس ومدن شبه جزيرة القرم Chersonese وخالكيدون ولسبوس وثاموسراكى وراح أسطولها يجمع المساهمات المالية للأمبراطورية الجديدة • وكان يمكن أن تستفيد أثينا كثيرا من مساعدات بلاد الفرس لولا حدوث أزمة مفاجئة بينهما بسبب تأييد أثينا لايفاجوراس حاكم قبرص والذى انشق عن الامبراطورية الفارسية •

اسبرطة تسعى لعودة السلام مع الفرس وعقد «سلام» الملك عام ٣٨٧ ق٠م :

لجأت اسبرطة الى التحالف مع ديونيسيوس طاغية سيراكوزه بصقلية حيث أمدها بأسطول قوامه عشرين سفينة ومن ناحية أخرى أدركت اسبرطة عدم جدوى تحدى دولة الفرس ولذا لجأت الى سياستها القديمة وهو التصالح مع الفرس واقامة صداقة معهم واستخدام هذه الصداقة فى اخضاع المدن الاغريقية وان كان ذلك على حساب بيع حرية أغريق آسيا الصغرى للفرس • وما كان من السهل اقناع

ارتاكسيركسيس (١) بعودة العلاقات مع الاسبرطيين لولا مجهودات الدبلوماسى الاسبرطى البارع انتالكيداس Antalcidas . حيث توصل مع الملك الى صيغة سلام يفرض بالقوة على كافة المدن الاغريقية وتكون اسبرطة مسئولة عن تطبيق نصوصه . وقبلت أثينا مجبرة هذا الصلح حيث دعى الى ساردبس ممثلو الأطراف المتحاربة ثم قرأ تيريبازوس Tiribazus عليهم قرار الملك بعد أن أراهم خاتمه موضوعاً على هذه القرارات وجاء فى هذا القرار المعروف بسلام الملك « أن الملك ارتاكسيركسيس يرى أنه من العدل أن تؤول له مدن آسيا الصغرى وجزيرتى قبرص وكلازوميناى (٢) وفيما عدا ذلك تصبح كل المدن الاغريقية كبيرها وصغيرها حرة مستقلة باستثناء جزر لمنوس وامبروس وسكوروس التى كانت تابعة للاثينيين منذ زمن سابق ومن يرفض هذا السلام فسوف أحاربه جنباً الى جنب مع الذين لهم نفس الهدف (ويعنى الاسبرطيين) فى البر والبحر بالسفن وبالمال » .

هكذا باعلان هذا «السلام المفروض» فقدت أثينا كل مجهوداتها لاستعادة امبراطوريتها القديمة كما زاد غضب الاغريق لخيانة اسبرطة لأشقائهم فى آسيا الصغرى وأن يصبح الاغريق تحت تحكم الملك الفارسى يطبق عليهم شروطه كما يريده وسرعان ماانتشر العداء والسخط تجاه اسبرطة لأنها هى التى سعت الى عقد هذا الصلح بل أنها أقامت من نفسها وصية على مراعاة نصوصه من أجل التحكم فى المدن الاغريقية .

اسبرطة تسىء معاملة المدن الاغريقية :

استغلت أسبرطة وضعها الجديد وصداقة الملك الفارسى وراحت ترتكب حماقات ضد المدن والتحالفات الاغريقية سالكة أسلوباً استبدادياً ، فكان استقلال المدن الاغريقية عندها يعنى التفكك ومحاربة أى اتجاه للاتحاد ، وكان أول اصطدام لها مع حلف أولينثوس Olynthos الذى تكون من

(١) ويعرف فى المصادر الفارسية باسم الملك ارتاخشاشا الاول (٤٦٤ - ٤٢٤) .

(2) Merkelbach, Das attische-Dekret Fur Klazoumenai aus Jahr 287, Zeitsch. Für Papyr. und Epigr., XX, 1970, p. 32—36.

تحالف المدن الواقعة فى شبه جزيرة خالكيديكى وانضمت اليه معظم المدن الواقعة هناك فيما عدا مدينتا أبوللونيا وآكانثوس Acanthus اللتان قاومتا أولينثوس وطلبتا العون من اسبرطة . وفى نفس الوقت استغلت اسبرطة الصراع الذى نشأ بين ملك مقدونيا أمونتاس Amyntas وبين حلف أولينثوس بسبب مطالبة الأخير برد أراضى كان قد أعطاها للحلف . ولم تتوانى اسبرطة فى تلبية المعونة وأرسلت حملة بقيادة فويبيداس Phoibedas عبرت اقليم بؤتيا فى طريقها الى مقدونيا وبعد معارك طاحنة عزمت اسبرطة أولينثوس وأجبرتها على حل الحلف الذى كانت قد أقامته وأن تلتزم باتفاقية عام ٣٨٧ ق.م . كذلك اتبعت اسبرطة نفس السياسة داخل البيلوبونيسوس حيث أمرت مدينة ماتينيا Mantinea بازالة حصونها ولما رفضت حاصرتها القوات الاسبرطية حتى سقطت وحولتها الى خمسة قرى منفصلة مثلما كانت عام ٥٠٠ ق.م . ولم يتوقف الطغيان الاسبرطى عند هذا الحد بل راحت ترغم المدن على قبول العملاء الموالين لاسبرطة وتقيم الحكومات العميلة لها وتفرض على المدن حامياتها . وكانت بالطبع تستغل فى ذلك صداقتها للملك الفارسى ولديونيسيوس طاغية سيراكوزه مما زاد من حقد المدن الاغريقية عليها حتى أن اكسينوفون المتعاطف معها وصف هزيمتها فيما بعد على يد طيبة « بأنه جزاءها على ما اقترفته فى حق المدن الاغريقية » .

مؤامرة اسبرطة ضد طيبة (٣٨٢ ق.م) :

وبينما كان القائد الاسبرطى فويبيداس Phoibedas يخترق بيوتيا فى طريقه الى مقدونيا اتصل به مجموعة من المتآمرين من أنصار اسبرطة فى طيبة بقيادة رجل اسمه ليونتيداس Leontidas من أجل احداث انقلاب أوليجارخى للاستيلاء على الحكم والتخلص من الحزب الديموقراطى الحاكم. وسهل المتآمرون للقائد الاسبرطى مهمة احتلال قلعة كادميا Cadmea التى تسيطر على طيبة ، واختير يوم عيد النساء Thesmophoria حيث تخلى القلعة من الرجال تماما حسب شعائر هذا العيد الدينى ولا يبقى فيها غير النساء وبالفعل وجد أهل طيبة حامية اسبرطية تحتل فجأة القلعة دون

مقاومة أو اراقة دماء وأقام المتآمرون حكومتهم الموالية لاسبرطة وهى شبه دكتاتورية معتمدين فى ذلك على الحامية الاسبرطية التى كان قوامها ألف وخمسماية جندى وبدأت هذه الحكومة الاوليجارخية فى التخلص من معارضيها بالقتل والطرد وفرت أعداد غفيرة من اللاجئين الى أثينا التى فتحت لهم أبوابها وأخذت تساعدهم على تنظيم أنفسهم من أجل تحرير بلادهم وكان من بين اللاجئين السياسيين رجل وطنى اسمه بيلوبيداس Pelopidas كون جماعة من سبعة من الرفاق من بينهم صديقه الحميم ابامينونداس Epaminondas وقرروا القيام بمؤامرة لطرد الاسبرطيين واعادة الحكم الديموقراطى الى طيبة . وبعد اتصالات بالمتعاطفين معهم داخل طيبة والذى كان على رأسهم نائب الزعيم فى طيبة تسللوا عائدين وهم متخفون فى زى الصيادين ودخلوا بوابات المدينة مع جموع الفلاحين العائدين من حقولهم دون أن يعلم بأمرهم أحد ولما اتفق على موعد المؤامرة دعى نائب الزعيم الطيبى أعضاء الحكومة الحاكمة الى حفل كبير وعدهم فيه بتقديمهم الى نساء جميلات من علياء القوم ولم تكن هذه النساء الا بيلوبيداس ورفاقه الذين أغمدوا خناجرهم فى صدورهم ثم سارعوا باطلاق السجناء السياسيين وفتحوا الأبواب لعودة المنفيين واعلان الثورة الديموقراطية . واجتمع المجلس الشعبى فى سوق المدينة حيث حيا شجاعة أبطال طيبة السبعة (١) وانتخب ثلاثة منهم من بينهم أبامينونداس كوزراء Polemarchs فى الحكومة الديموقراطية الجديدة والتى طالبت بجلاء الحامية الاسبرطية من قلعة المدينة ولم يجد قائد الحامية فائدة فى المقاومة حتى وصول نجدة من اسبرطة لأن الثوار كانوا يحاصرون القلعة فأعلن رضوخه لمطالبهم بالجلاء عن القلعة ولما عادت الحامية الى اسبرطة قوبلت بالغضب وحوكم ثلاثة من قادتها ، أعدم اثنان ونفى الثالث خارج البلاد ، وحاول الملك كليومينيس استرجاع القلعة بقوة عسكرية ولكنه استدار عائداً قبل أن يصل الى طيبة .

---

(١) ربما كان فى ذلك اشارة الى الأسطورة القديمة المسماة بالسبعة ضد طيبة Seven Against Thebes

اسبرطة ترتكب حماقة مماثلة ضد أثينا ٣٧٨ ق.م :

كانت أثينا أيضا تشك فى نوايا طيبة بالرغم من تأييدها لها وكان يمكن لاسبرطة أن توسع من هذا الشك لتضم اليها أثينا وبالفعل جرت محاولات أسبرطة لكسب ود أثينا وردت أثينا مظهرة استجابة أكبر عندما حاكمت الضباط الأثينيين الذين اشتركوا مع ثوار طيبة وأعدمت واحدا منهم ونفت الآخر ولكن فجأة وبدون مبررات نجد أحد القادة الأسبرطيين واسمه سفودرياس Sphodrias وكان يشغل قائد حامية مدينة تسبياى Thespiae الواقعة على الحدود الشمالية لأتيكا ، نجده يسير فجأة ليلا محاولا احتلال ميناء بيريه الأثيني ردا على تعاطف أثينا مع أهل طيبة وتأييدها للثوار . ولكن هذا العدوان فشل فشلا ذريعا . وساد الغضب فى أثينا وكان يمكن لأسبرطة تصحيح هذا الخطأ بمحاكمة هذا « الهارموست » ولكنه كان صديقا للملك أجيسلاؤوس الذى تدخل لتبرئته . مما جعل الأثينيين يتهمون الملك الاسبرطى بتدبير هذا العدوان على أراضيهم . وكان ردها نبذ كل محاولات السلام مع اسبرطة وتوثيق التحالف مع طيبة وكانت أثينا وقتئذ منهمكة فى بناء امبراطوريتها الكونفدرالية الثانية .

طيبة تكون قوة عسكرية ضاربة :

بعد أن استتب الحكم الديموقراطى فى طيبة أخذت تستعد لبناء قوة عسكرية تمهيدا للدخول فى معركة فاصلة مع أسبرطة وكان بيلوبيداس هو المخطط العسكرى بينما كان صديقه ابامينونداس المخطط السياسى . وكانت القوة العسكرية فى طيبة تقوم أساسا على فرقة قوامها مائة وخمسون زوجا من الرجال الأصدقاء كل يحارب جنبا الى جنب مع أعز صديق له[1] وبالفعل ثبت كفاءة وفاعلية هذه الفرقة من الجنود المشاه hoplites بحسن التدريب والتكتيك الجديد بينما لمع نجم ابامينونداس فى مجال السياسة . فقد كان رجلا متواضعا ، قادرا ووطنيا وشجاعا . والى جانب ذلك فقد كان حكيما على قدر كبير من الثقافة الفلسفية خاصة البيثاجورية

---

(١) وهو ما يعرف بالفرقة المقدسة Sacred Band

كما كان رجلا زاهدا فى المال والجاه ورغم هدوئه فقد كان خطيبا مفوها . لقد لمع نجمه فى عام ٣٨١ عندما انتخب رئيسا لبيوتيا Boeotarch المتحدة بعد طرد كل الحاميات الاسبرطية وبعد الحاق الهزيمة بالأسبرطيين فى عدة مواقع أهمها موقعة تجورا Tegyra والتى أضرت كثيرا بسمعة الجيش الاسبرطى التقليدية .

اثينا توالى ضرباتها الانتقامية ضد اسبرطة (٣٧٦ ق.م) :

كان الأسطول الأثينى بقيادة خابرياس يقوم بحراسة الطريق بين البحر الأسود وجزر بحر ايجه حيث كانت أثينا تستورد القمح لغذاء شعبها وحدث أن حاول الأسطول الإسبرطى أن يقطع هذا الطريق على أثينا وكان قوامه ثمانين سفينة وعند منتصف الطريق بين جزيرتى ناكسوس وباروس انقض الأسطول الأثينى على الأسطول الاسبرطى ودمره تماما وهكذا شفى قادة الأسطول البحرى الأثينى غليلهم القديم وانتقم خابرياس لهزيمته البحرية القديمة فى أرجينوساى Arginusae ابان الحروب البيلوبونيزية . وفى مطلع عام ٣٧٥ ق.م ظهر أسطول أثينا وخلفائها خارج شواطىء البيلوبونيسوس وحدث أن ثارت جزيرة كوركيرا وأعلنت انضمامها الى التحالف الأثينى الجديد ولكن الأسطول الاسبرطى وصل الى شواطىء كوركيرا وحاصرها بغية اسقاط الحزب الديموقراطى الموالى لأثينا ولكن أهل الجزيرة قاوموا هذا الحصار بشراسة وصدوه وقتلوا قائد الأسطول الأسبرطى قبل وصول الأسطول الاثينى الذى تأخر وصوله بسبب فشل المجلس فى تقرير الأموال والرجال اللازمين لهذه العملية مما دعى المجلس الى تعيين قائد جديد للحملة وفر القائد القديم تيموثيوس Timotheus الى مصر ليعمل فى الخدمة فى جيش الوالى الفارسى هناك .

وازاء ذلك غضبت أسبرطة وللمرة الثانية أوقفت محاولات التقرب الى أثينا لعقد سلام معها ولكن لسوء حظ اسبرطة حدثت سلسلة من الزلازل فى البيلوبونيسوس أحدثت خسائر فادحة مما دعاها الى طلب السلام رسميا مع أثينا التى استجابت لهذا الطلب تحت ضغط الأزمة الاقتصادية

التى كانت تعانيها من ناحية ولتخوفها من مطامع طيبة من ناحية أخرى خاصة بعد أن بدأت الأخيرة فى مهاجمة فوكيس Phocis التى كانت قد أعلنت انضمامها الى التحالف الكونفدرالى الآثينى ، كما أن طيبة هاجمت مدينة بلاتيا Plataea وشردت أهلها الذين كانوا يعتزمون الانضمام الى التحالف الكونفدرالى الأثينى وتدفق عليها لاجئوها هكذا وجدت المدينتان المتحاربتان نفسيهما مرهقتين من طول القتال وتترنحان من الارهاق ونضب الموارد بينما لاح فى الأفق خطر داهم عليهما ألا وهو طيبة فلم يجدا بديلا من تكوين جبهة متحالفة لوقف هذا الخطر الجديد .

صلح كالياس Callias ٣٧١ ق.م :

وتحت الحاح الحاجة أرسلت أثينا وفدا من ثلاثة مندوبين الى العاصمة الأسبرطية يترأسه سياسى ماهر اسمه كالياس ودعت أسبرطة كافة المدن الاغريقية الى ارسال وفود اليها من أجل التوصل الى صيغة سلام عادل ومقبول يفرض بالقوة على غرار صلح الملك . وأرسلت طيبة وفدها برئاسة ابامينونداس واتفق الأثينيون والاسبرطيون على صيغة تضمن استقلال كل المدن الاغريقية وكان المقصود بها احراج طيبة ولأن هذا كان يعنى أيضا حل الامبراطورية الأثينية الثانية وحلف أسبرطة الا أن الاتفـاق سمح بقيام التعاون والاتحاد بين المدن من تلقاء نفسها وليس بالارغام والاجبار ولكن عند التوقيع على هذه الاتفاقية أصر ابامينونداس على أن يوقع باسم بيوتيا وليس باسم طيبة وجـادل فى ذلك بقوله أن بيوتيـا وحدة جغرافية اقليمية متحدة مثل أتيكا بالنسبة لأثينا وعندما سأله الملك أجيسلاؤس محتدا « هل لكم أن تتركوا كل مدينة فى بيوتيا وشأنها » رد بقوله : « هل لكم أن تتركوا كل مدينة فى لاكونيا وشأنها » . عندئذ أمر المجتمعون بشطب اسم طيبة من الاتفاق وصـوت المجلس الشعبى الأسبرطى على قرار بارسال حملة على الفور لهزيمة طيبـة ولم يتمهل الاسبرطيون ويستمعوا الى نصيحة أحد أعضاء المجلـس الذى طالب بالتريث لحين اعداد حملة مشتركة من كافة الموقعين على اتفاقية كالياس بل سخروا منه ووصفوا حجته بأنها « رأى تافه » .

هكذا جاء صلح كالياس نهاية لتاريخ طويل من الحروب بين أثينا وأسبرطة حيث استعادت أثينا قوتها وسيطرتها بعد هزيمتها فى الحروب البيلوبونيزية على حساب أخطاء أسبرطة التى أرهقتها الهزائم المتعددة فى البر والبحر وكانت هزيمة كوركيرا آخرها ، كما أن نضب مواردها أعاقها عن تحقيق أحلامها . لقد كان صلح كالياس اعترافا من جانب اسبرطة بفشل سياستها فى تحقيق مطامع سياسية على حساب صلح الملك عام ٣٨٧ ق.م ، وتخيلها عن أحلام تحقيق امبراطورية شاسعة .

تحالف طيبة مع ياسون ملك مدينة فيراى فى تساليا :

وفى وجه هذا الخطر والعزلة سارعت طيبة الى التحالف مع ياسون طاغية مدينة فيراى Pherae فى تساليا وكان هذا الطاغى يأمل فى توحيد تساليا تحت زعامته مستخدما الدبلوماسية والقوة العسكرية فى آن واحد وهو نفس الطريق الذى اتبعه فيليب المقدونى فيما بعد . واستطاع ياسون أن يكون فرقة عسكرية قوامها ستة آلاف جندى تمكن بها من فرض سيطرته على منطقة شاسعة من شمال بلاد اليونان تمتد من مقدونيا شرقا الى ابيروس Epirus غربا ووحد هذه المنطقة وعين نفسه حاكما عليها يحمل لقب تاجوس Tagus . لقد كان هدف ياسون هو اضعاف اسبرطة من أجل الاستيلاء على بعض أراضيها ومن أجل ذلك تحالف مع طيبة ضد اسبرطة ليحصل على نصيب من الأسلاب فى حالة هزيمة أسبرطة وقبلت طيبة هذا التحالف لكسر العزلة السياسية التى فرضت عليها بعد صلح كالياس .

معركة ليوكترا ونهاية اسبرطة (يوليه ٣٧١ ق.م) :

صدرت الأوامر الى كليومبروتوس بالتحرك نحو طيبة وترك الحرب مع فوكيس وفى الحال امتثل للأمر وسار الى طيبة . وهناك وجد جيوشها محصنة فى مرتفعات ليوكترا . وقد لعب التكتيك العسكرى الذى أدخله ابامينونداس وبيلوبيداس دورا كبيرا فى تحقيق النصر على الأسبرطيين الذين كان جيشهم يقارب الأحد عشرة ألف رجل بينما كان جيش طيبة لا يتعدى ستة آلاف رجل الا أن سرعة التحرك واستخدام الفرسان

لتمريق مؤخرة العدو أمكنها من ايقاع الجيش الأسبرطى فى كمين قاتل سقط فيه ما يقرب من ألف أسبرطى وكاد كليومبروتوس نفسه أن يسقط قتيلا . ولزاء هذه الهزيمة الغير متوقعة طالب قائد الجيش الاسبرطى بعقد هدنة بحجة دفن قتلاه بينما كان يطمع فى الحصول على نجدة تساعده على تغيير ميزان المعركة لصالحه . وانسحب الاسبرطيون الى خنادقهم بينما أرسل أهل طيبة الى حليفهم باسون يطلبون النجدة . وما أن وصلت الدعوة حتى انطلق باسون مخترقا المناطق التى كان يتمنى الاستيلاء عليها وبعد سبعة أيام وصل الى مكان المعركة وهناك دعاه أهل طيبة الى الهجوم والاكمال على ما تبقى من الجيش الاسبرطى ولكنه راوغ أهل طيبة حتى لا يفقد صداقة اسبرطة الى الأبد وحتى لا يحقق أهل طيبة نصرا على حسابه . وبدلا من الهجوم على الاسبرطيين توسط بين الأطراف المتحاربة واستطاع أن يقنع الاسبرطيين بترك بيوتيا كلها ويعودوا الى بلادهم . بينما عاد باسون الى مستوليا على هيراكليا فى طريقه وأخذ يستعد لاستعراض قوته عند ه الألعاب الأولمبية طمعا فى ترأس المجلس الامفكتيونى ولكنه ـيين على يد سبعة من الشباب وانهارت كل أحلام فيراى فى أن تصبح قوة اتحادية فى شمال بلاد اليونان بينما سر ذلك طيبة جيدا لأنه أزاح احدى القوى المناوئة لها فى بلاد اليونان من طريقها لتنفرد على مسرح السياسة فى بلاد اليونان وتصبح زعيمته الأولى بلا منازع أو منافس .

أما الإسبرطيون فقد حاولوا تنظيم صفوفهم تحت قيادة ارخيداموس ابن أجيسلاؤس ولكن الوقت كان متأخرا . وكان تأثير هذه الهزيمة على نفسية الأسبرطيين مدمرا لأنه كسر ظهرها وانهى قيادتها للعالم الاغريقى .

تحليل تاريخى لاسباب سقوط الامبراطورية :

لاشك أن سقوط الامبراطورية الاسبرطية جدير بالتحليل التاريخى لأنه جاء نتيجة لعدة عوامل سياسية واجتماعية ونفسية .

كان التذبذب والتخبط فى السياسة الأسبرطية من أهم العوامل التى ساعدت على سقوط الامبراطورية فحينما نجد أسبرطة تعقد الصفقات

مع بلاد الفرس من وراء ظهور الاغريق وعلى حساب أشقائهم فى آسـيا الصغرى وحينا تظهر أسبرطة كمظهر المدافع عن حرية الاغريق واستقلالهم مما أفقد الثقة بها بل ان تآمرها مع الفرس حط من قدرها بين الدويلات الاغريقية خاصة وأنها أحكمت من قبضتها على المـدن الاغريقية باقامة الحكومات الأوليجارخية العميلة لها وباقامة الحاميات وتعيين القواد أو « الهارموستات » عليها واذلال المدن الاغريقية بسياسة الاستعلاء والحاق الاهانات دون أى اعتبار أو احترام لاحساس الاغريق . هذا الجبروت والقوة ولد الرهبة من أسبرطة لدى حلفائها الاغريق وسرعان ما انفجر هذا الخوف الى الثورة عليها .

عندما أذيع نبأ انتصار أسبرطة على أثينا فى الحروب البيلوبونيزية لم يتفاءل أحد بل تذكر الناس قولا مأثورا شائعا يقول ان نهاية أسبرطة ستكون بسبب ثرائها . لقد تدفق الثراء على أسبرطة بشكل لم تعرفه من قبل فالامبراطورية ــ كمـا ادعى البعض ــ كانت تدر عليها ٤٠٠ تالنت سنويا فضلا عن الأسلاب والغنائم التى كانت تعود بها الحملات العسكرية التى شنها لوساندر ثم الأسلاب التى عاد بها الملك أجيسلاؤس من حملته ضد آسيا الصغرى فضلا عن الضرائب والاتاوات . هذا الثراء تسبب فى فساد أخلاق الأسبرطيين وانتشار الرشوة بينهم ، ان سر قوة أسبرطة كان يكمن فى تربية ونشأة المواطن عسكريا والانضباط الكامل والالتزام بقوانين ليكرجوس والبساطة والتقشف ونبذ الثراء والعيش فى مجتمع المساواة ، كل هذا قد تحطم بتدفق الثروة فلم يعودوا يلتزمون بالقواعد القديمة القاسية . واذا كنا نتهم المواطن الأسبرطى باهمـال قوانين ليكرجوس فاننا نتهم قوانين ليكرجوس بأنها هى التى شجعت المواطنين على الخروج عليها . لقد كان هذا النظام جامدا لا يتطور وغير مرن ولذا لم يعد يناسب ظروف الامبراطورية الجديدة والانطلاق الى ما بعد حدود البيلوبونيسوس .

لقد كانت الامبراطورية بداية نكبة اسبرطة فمواطنوها لم يعودوا رجالا أشداء جادين مثل الجيل الأول الذى وضع أساس المجتمع القديم بل صورة شاحبة منه ، كما أن تغير الظروف سبب تغير الأحوال ومن ثم حدث تخلخل فى بناء المجتمع الأسبرطى وأصبح على شفا ثورة اجتماعية فمثلا نسمع عن حركة تمرد يقوم بها الأسبرطيون المعتبرون من الدرجة الثانية hypomeiònes . وهم مواطنـون أسـبرطيون وليسوا من المستعبدين الذين انضموا اليهم فى جبهة واحدة ضد الطبقة الأسبرطية ذات النفوذ وقام بالتمرد الذى حدث فى عام ٣٩٨ أسبرطى من المبعدين أو المنبوذين اسمه كندانون Kindanon وبسرعة قضت أسبرطة على هـذه الحركة وأعدمت زعيمها ولم نسمع عنها شيئا ولكنها كانت دليلا على الصراعات الاجتماعية التى تغلى فى باطن المجتمع الأسبرطى . كان ثورة كندانون موجهة ضد القوة الحاكمة من طبقة الأسبرطيين ذوى النفوذ . وكانت عناصر الثورة تقـوم على جبهة عريضة من الساخطين سـواء من طبقة المواطنين أو دونهم . والساخطون من طبقة المواطنين كانوا يشملون أيضا مواطنى الدرجة الثانية hypomeiones وهم المواطنون الذين سلبت منهم بعض الحقوق والامتيازات بسبب عجزهم عن الالتزام الـكامل بواجباتهم وبالقـوانين الليكرجيـة ، وكذلك طبقة المواطنون الجـدد neodamodeis وهـم من الهيـلوت والمجـاورين الذين خـدموا فى الجيوش الأسبرطية من أجـل الحصول على الجنسية بعـد عتقهم من العبودية وقد تطوعت أعداد كبيرة من هؤلاء فى الحروب البيلوبونيزية ومع أجيسلاؤس فى حملته ضـد آسيا الصغرى . وبعـد عودتهم من الحروب والمخاطر حصلوا على جنسية اسمية لأنهم حتى فى أثناء الحروب كانوا يحاربون فى جيوب متفرقة وليس مع « الرفاق » الأسبرطيين .

ومن ظواهر التخلخل فى المجتمع الأسبرطى ضعف شخصية الملوك وظهور شخصيات من الموظفين طغت على شخصياتهم بل وأصبحت تتحكم فيهم أو بمعنى آخر ظهور مراكز قوى متعددة خلخلت ميزان القوى داخل

المجتمع ومن هذه الشخصيات براسيداس ولوساندر وكلاهما لم يكن ملكا بينما فاقا سلطة الملوك مما سبب الكثير من المشاكل . كذلك فان التوسع فى منح السلطة أو الانفتاح فى منح الجنسية لدائرة أكبر من المواطنين أفقد التوازن القديم فلم تعد المناصب مصطفاه على دائرة ضيقة من المواطنين الاسبرطين بل شملت أطراف المجتمع الاسبرطى وضمت عناصر أبعد ، ومن أمثلة هؤلاء يجىء الايفوزات الذين زادت سلطتهم وطغى سلوكهم وسلطانهم فى الداخل وعلى القادة العسكريين فى ميادين القتال وهؤلاء المواطنون الجدد لم يكونوا من نفس الجوهر الذى كان عليه أسلافهم . ويقول أرسطو أن الايفورات فى أيامه كانوا ينتمون الى دائرة اجتماعية أوسع حتى من التى ينتمى اليها مجلس الشيوخ « الجيروسيا » .

لقد كان هناك قلق يسود النظام الاسبرطى بأكمله سرعان ما تفجر الى صراع مكشوف حينما ظهر عجز النظام الليكرجوسى وفساد مواطنيه . ولم يكن الثراء وحده هو العامل المسؤل عن فساد المواطنين بل أن ظهور المطالب الجديدة فى ظل ظروف جديدة جعلت النظام الحديدى القديم عاجزا على أن يتماشى مع الأوضاع الجديدة . هذا الى جانب أخطاء كثيرة كان لها رد فعل جديد مثل غرور واستعلاء قادة الحاميات الاسبرطية harmosts ومغالاتهم فى التبذير وتقليد ملوك الشرق . ومثل جنون الملك اجيسلاؤوس بالعظمة حتى خيل له بأنه أجامنون الجديد يسير ليدمر طروادة ، والغرور والانخداع بالنفس الذى ساد المجتمع الاسبرطى خاصة بين العسكريين لدرجة الترحيب بالدخول فى حرب ضد طيبة فى نفس الوقت الذى يحاربون فيه الفرس أقوى دولة فى الشرق الأوسط وقتذاك .

لقد قدم لنا أرسطو فيما قل ودل وجهة نظره عن أسباب سقوط الامبراطورية الاسبرطية بقوله « لقد كان للاسبرطين دائما الفوز فى ميدان الحروب ولكن الامبراطورية دمرتهم وذلك لسبب بسيط : هو أنهم لم يكونوا يعرفون كيف يستفيدون من المزايا الجديدة التى اكتسبوها

كما أنهم لم يتعودوا على أى مهارة ذهنيــة أخرى تفوق مهــارتهم فى فن الحرب » •

ولا يمكن أن نغفل فى تحليلنا الصراع الخفى بين الملوك والشخصيات القوية فى اسبرطة وبين نظام ليكرجوس ولو قدر لهذه الشخصيات أن تعيش مدة أطول لقادت حركة اصلاحية ضد هذا النظام ولكن الأحداث كانت تعصف بها فمثلا لقى لوساندر مصرعه فى معــركة هاليــارتوس عام ٣٩٥ ونفى باوسانياس لفشله فى نجدته •

ومن الجدير بالذكر أن باوسانياس كان دائم الهجوم على النظــام السياسى للدولة وعلى قوانين ليكرجوس حتى لوساندر أشيع بعد موته أنه كان يخطط لجعل الملكية بالانتخاب وترشيح نفسه لهذا المنصب • وهذا دليل على أن قوانين ليكرجوس الجامدة كان تحت الهجوم المستمر • ولكن بمقدم الملك أجيسلاؤس بشخصيته الطاغيــة اختفت ارهاصات المعارضة والاصلاح •

مهما يقال عن الملك أجيسلاؤس فلقد كان أعظم ملوك اسبرطة قدرة وكفاءة وربما أجل قدومه سقوط الامبراطورية التى كانت تترنح • كان هذا الملك سياسيا ، داهية ، سريع التصرف ، حاسم القرار ، كما أنه كان جنرالا عسكريا قديراً مشهوداً له ، ولهذا كان اختيار لوساندر له سليما فما أن أعتلى العرش حتى أمسك بزمام الأمور المترنحة جيداً وقاد الأمة الاسبرطية فى طريقها التقليدى حتى موته عام ٣٦٠ ق•م • وهو فى سن متقدمة جدا • كان الخطأ الوحيد التى وقع فيه أجيسلاؤس هو سياسة المتاجرة باستقلال وحرية مدن آسيا الصغرى الاغريقية وبيعهــا للفرس مقابل رضاء الفرس عن تصرف أسبرطة فى بلاد اليونان الأم واطــلاق يدها تفعل بهم ماتشاء•مناقضا بذلك مابدأ به عهده باعلان الكفاح لاسترداد حرية الاغريق فى آسيا الصغرى من الملك الفارسي • وقد لجأ أجيسلاؤس الى التصالح مع الفرس بعد تأكده من فشل فكرة السيطــرة الكامــلة وذلك بسبب الهزائم التى لحقت به فى البحر على يد الأسطول الفارسى

بقيادة كونون فى كنيـدوس ٣٩٤ اهتزت عن أثره الامبراطـورية فيما وراء البحـار وبدأت تتفـكك وتلى ذلك الهزيمـة البرية فى نيميا فى البيلوبونيسوس عام ٣٩٤ مما دعاه الى السعى الى السلام مع الفرس فأرسل دبلوماسيا ماهرا هو أنتالكيداس للتوسط فى عقـد صلح الملك الذى فسره الاسبرطيون بطريقتهم الخاصـة وهو استمـرار سـيطرتهم على ممتلكاتهم بينما يحظر على باقى الدويلات الاغريقية خاصـة طيبـة أن تتوسع اقليميا أو خارجيا تحت شعار الحرية لكل المـدن الاغريقيـة وكان تفسير كلمة « الأوتونوميا » (أى الاستقلال) التى تردد ذكرها ـ فى نظر الفرس وأسبرطة هو حظر قيـام الاتحادات الكونفدراليـة بين الاقاليم الاغريقية المتجانسة عملا بسياسة « فرق تسد » ويذكر لنا أكسينوفون شيئا هاما يتجلى فى اقتراح مندوب اسبرطة بتعديل فقرة من صلح الملك كانت تقول « فسـأحاربه جنبا الى جنب مـع الذين يرغبـون » الى « فسأحاربه عن طـريق توكيـل لمن يرغب فى ذلك » مما يدل على نية اسبرطة فى أن تكون « الوكيل العام » لتطبيق سلام الملك .

وهناك رواية تقول أن الملك أجيسلاؤس أتهم بالتعاطف مع الفرس فرد قائلا « لا بل هم الفرس الذين يتعاطفون مع اسبرطة » .

وكان رد فعل هـذا السلام هو تكاتف الولايات الاغريقية ضـد الفرس وأسبرطة وقيام الامبراطورية الأثينية الكونفدرالية . وتكونت جبهة متحدة من طيبة وأثينا وكورنثا وأرجوس لتقف فى وجه اسبرطة ولأول مرة وصل الحزب الديموقراطى الى الحـكم فى كورنثـا التى انضمت الى أثينا ولكن هذا لم يدم طويلا بعد هزيمتها على يد اسبرطة وأعادتها الى حظـيرة الحـكومة الأوليجارخيـة والى عضـوية حلف البيلوبونيسوس بالقوة .

الى جانب بيع استقلال وحرية المدن الأيونية ارتكب أجيسلاؤس حماقة كبرى بعدم احترامه لاحساس المدن الاغريقية ومشاعرها الوطنية وغيرتها على استقلالها ونظامها السياسى فقام بعـدة تصرفات سـخيفة قصد بها اذلال هذه المدن ، فمثلا هاجم مدينـة مانتينيا الديموقراطيـة

عام ٣٨٥ ق٠م ودمرها وحولها الى خمسة قرى صغيرة وبذلك أرجع عقارب الزمن الى عام ٥٠٠ ق٠م الميلاد عندما برزت هذه المدينة بعد اتحاد قراها الخمسة ، وأكثر من هذا جعل السلطة فى يد الطبقات الأوليجارخية ٠ وفى عام ٣٨١ أمر مدينة فلايوس Phleious بالسماح للهاربين الأوليجارخيين بالعودة اليها ثم عاد فحاصرها حتى استسلمت ثم ترك فيها حامية لتحرس الحكم الأوليجارخى الجديد ٠ أضف الى ذلك حماقة الاستيلاء على قلعة كادميا Cadmea ومحاولة الاستيلاء على ميناء بيريه ٠ ولا ننسى الحملة التى أعدها هذا الملك ضد اتحاد أولينثوس الفيدرالى وارغامه هذا الاتحاد على حل نفسه عام ٣٧٩ ودخول مدنه رطة كل هـذه التصرفات تكـاد أن تكون ذات طابع لعدوان والقسوة والاحتقار وفرض التفـرقة تحت اسم يؤكد أنها صادرة من عقلية واحدة وهى عقليـة الملك اجيسلاوس ٠

أما فيما يختص بسياسة اسـبرطة مع حلفـائها القـدامى داخـل البيلوبونيسوس فقد طرأ عليها التغير أيضا ٠ نعم لقد ظل مجلس الحلف Synod يجتمع ولكن ليس بالصورة التى كان عليها مثلا عام ٤٣٢ ق٠م فلم يعد هناك نقاش أو اعتراض أو استماع الى وجهة إنظر الأعضاء وقد أعطانا كسينوفون صورة عامة لأحوال هؤلاء الحلفاء عام ٣٨٢ عنـدما يقول : « كانت الغالبية تؤيد ارسال الحملة (ضد أولينثوس) ولكن لمجرد أنهم كانوا يريدون ارضاء الاسبرطيين » ٠

كذلك ألحقت اسبرطة بحلفائها القدامى اهانة كبرى عنـدما وافق هذا المجلس فى نفس الجلسة على اقتراح اسبرطة فى جـواز مسـاهمة بعض المدن بالأموال بدلا من الرجال أثنـاء الحـروب ما دامت هـذه الأموال معادلة لدفع أجور نفس العدد ولكن من الجنود المرتزقة التى يمكن لاسبرطة استئجارهم ٠

ولقد كان هذا القرار ضربة قاسية لمشاعر حلفـاء قدامى. تسـاقط رجالهم على مر زمن طويل فى حروب اسـبرطة واسـتهانة بكـرامتهم وتشكيكا فى قدرتهم العسكرية واستنزافا لأموالهم بدفع أجور جنود مرتزقة يتقاضـون أجـورا باهظـة الثمن كان مريرا على نفوسهم أن تفضل اسبرطة عليهم هؤلاء المرتزقة .

كان هذا خلق جوا من التعاطف مع طيبة حتى داخل دول البيلوبونيسوس وجعل أثينا تهب فى أكثر من مرة لتقديم العون لطيبة . حتى أولينثوس أبدت تعاطفا مع هذه المدينة .

ويمكن لأحد أن يتساءل ألم يوجد هناك اعتراض من الملك الآخر ؟ أليس دستور اسبرطة ينص على وجود ملكين حتى لا يستبد ملك معين بسياسة معينة ؟ نعم لقد كان هناك سياسة شـبه مضادة ولكنها كانت صادرة من شخصيات ضعيفة . مثلا كان هناك شبه اعتراض من جانب الملك أجيسبوليس Agespolis الذى خلف أباه باوسانياس على العرش وقيل أنه كان مثل أبيه يتعاطف مع الديموقراطيين (تعاطف أبوه مـع الاثينيين عام ٤٠٣ ق.م) ويميل الى احـترام حـرية واستقـلال المدن الاغريقية بصـدق ، ولمـا مات هـذا الملك وتولى من بعـده أخـوه كليومبروتوس Kleombrotos أبدى هذا الأخـير اختـلافا بسيطا فى سياسته. هو أنه كان يفضل توجيه طاقة اسبرطة للمعارك البحرية ضـد أثينا وامبراطوريتها على أن تستمر اسبرطة فى حملاتها البرية ضد طيبة تخفيفا عن كواهل اسبرطة .

ومن أكبر الحماقات التى ارتكبتها اسـبرطة وتسببت فى اسقـاط امبراطوريتها استعدائها الدائم لأثينـا دون أدنى مبرر مثـل محـاولة سفودرياس الفاشلة لاحتلال ميناء بيريه وما تلاها من اشتعال الحرب بين أثينا وأسبرطة استمرت ثلاث سنوات مما أدى الى اضعاف طاقة أسبرطة ضد طيبة التى ألحقت بها عدة ضربات . ثم القيام بحملة بحـرية كبـيرة بقيـادة كليومبروتوس ضد أثينا (رداً على تدخلها الى جانب الديموقراطيين فى

جزيرة زاكينثوس Zakynthos) بمساعدة ديونيسيوس طاغية سيراكوزه عام ٣٧٣ ولم تحقق هذه الحملة شيئاً بل تزايدت الخسارة على حساب اسبرطة .

كذلك يمكن ان تتهم الاسبرطيين بالغرور القاتل والثقة بالنفس الى حد الانخداع وينجلى ذلك فى الهرولة بارسال قوتهم لمحاربة طيبة بعد طردها من مؤتمر الصلح عام ٣٧١ ولم يتأنوا أو يحاولوا استغلال باقى الدويلات الاغريقية التى كانت تعارض توسع طيبة . مما سبب الهزيمة الكبرى والمهينة فى ليوكترا .

نهاية اسبرطة :

استقبل حلفاء وأعداء اسبرطة على السوء أنباء هزيمتها فى ليوكترا براحة ورضاء حيث ظهر الحقد الدفين عليها من بين الذين استعبدتهم داخل البيلوبونيسوس وجن جنون هؤلاء عندما ظهرت جيوش طيبة على ضفاف نهر اليوروتاس حيث تقع اسبرطة وذلك فى عام ٣٧٠ ق.م واستقبل جيش طيبة على أنه جيش تحرير وتفككت الدولة الاسبرطية حتى داخل البيلوبونيسوس . فقد استقلت اركاديا Arcadia وظهرت عواطفها القومية الدفينة والتى لم يستطع الاحتلال الاسبرطى أن يمحوها بل نجد أركاديا تكون هى الأخرى حلفا من اتحاد أبنائها . أما ميسينيا Messenia مركز المقاومة القديم ضد اسبرطة فقد ذاقت أخيراً طعم الحرية والاستقلال لأول مرة منذ القرن الثامن قبل الميلاد ووجدت اسبرطة نفسها عارية تماما كما كانت قبل عام ٧٥٠ ق.م .

كان ذلك بداية النهاية اذ ازداد تدهور أسبرطة والاسبرطيين خلال المائة سنة التى تلت هزيمتها فى ليوكترا عام ٣٧١ ق.م وتضاءلت أهميتها السياسية وتناقص عدد الاسبرطيين . ولما حاول الملك آجيس الثالث Agis عام ٣٤٢ احياء قوانين ليكرجوس وزيادة عدد المواطنين الاسبرطيين بتحرير العبيد وتحويلهم الى مواطنين لاقى معارضة شديدة

من الايفورات ومن قدماء المواطنين البـاقين . وبعـد مصرع آجيس الثالث على يد كليومينيس الثالث حاول الأخير القيام بثورة اجتماعيـة ألغى فيها نظام الأيفورات وزاد عدد المواطنين الاسبرطيين الذين كان قد انقرض الى أربعة آلاف فقط ولكنه وجد اعـتراضا من الحـلف الآخى بقيادة انتيجونوس دوسون Antigonus Doson وهزمـوه فى عام ٢٢٢ ق. م. وكان الملك نابيس Nabis آخر ملوك اسبرطة الأقوياء ولكنه هزم على يد القائد الرومانى فلامينيوس Flaminius عام ١٩٥ حيث أرغمت اسبرطة على الانضمام للحلف الآخى وبعد سقوط هذا الحلف أرغمها الرومان على الاندماج فى شمال البيلوبونيسوس فى دولة متحدة Civitas Confederata اطلق عليها اسم ولاية آخايا Provincia Achaia .

حقيقة أن اسبرطة مرت بفترة من الازدهار كما شملتها حركة احياء وذلك ابان عصر الامبراطورية الرومانية خاصة ابان حكم الامبراطور هادريان فى القرن الثانى الميـلادى لأن ذلك الامبراطـور كان عاشـقا للحضارة والثقافة الاغريقية كما يشهد بذلك الآثار والنقوش التى تركها فى أسبرطة . كذلك حاول الامبراطور سبتيميوس سيفيروس احياءقوانين ليكرجوس من باب الرومانسية والخيال وبالفعل أعيدت هذه القوانين ولكن لم تكن بالصورة التى كانت عليها قديما . وظلت اسبرطة مدينة جميلة وهادئة حتى تعرضت لهجوم القبائل البربرية عام ١٦٧ ميلادية ونجت من هذا الدمار المهلك ولكنها لم تنج عام ٣٩٥ ميلادية من الدمار الشامل الذى ألحقه بها القوط تحت قيادة آلاريك Alaric حيث وضع هذا الهجوم البربرى نهاية مأسوية محزنة لمدينة عتيقة لعبت دوراً عظيما فى تاريخ الاغريق بل وفى تاريخ الانسانية .

الفصل الرابع عشر

الامبراطورية الاثينية الثانية

(٣٧٨ ق٠م - ٣٣٨ ق٠م)

لأهمية هذا الموضوع بالنسبة لتاريخ الاغريق وتاريخ الفكر السياسى عند الاغريق وجبت دراسته كموضوع مستقل ٠ ومما يجعل هذا الموضوع شيقاً أن النقوش اليونانية هى مصدره الأول ، ولأول مرة يجد المؤرخ نفسه يعتمد على النقوش بالدرجة الأولى بينما يعتمد على النصوص الأدبية بالدرجة الثانية ٠

ويكفى أن نقول أن مشروع قيام الامبراطورية الأصلى كما قدمه رجل سياسى من ماراثون اسمه أرسطوطاليس وصل الى أيدينا سليما ٠

كذلك اهتم الكتاب الاغريق فى هذه الفترة بظاهرة قيام هذا الاتحاد ومن هؤلاء الكتاب ديودوروس الصقلى Diodorus الى جانب كتابات كسينوفون الذى عاصر أحداث هذه الفترة ولكنه قلما يقطع استرساله الروائى ليجىء بسيرة هذا الاتحاد ٠ ولكنه بالرغم من هذا يعكس لنا صورة حية وصادقة للاحوال فى أثينا (١) ٠ وهناك نصوص أدبية لكتاب آخرين يمكن الاستفادة منها فى دراسة هذا الموضوع مثل ايسوقراط Isocrates وديموستنيس Demosthenes وأيسخينيس Aeschines ولكن يجب الحذر عند التعامل معها ٠ فمثلا كان أيسوقراط يعارض

---

(١) من الكتب المفيدة جدا فى هذا الموضوع كتاب :

J.K. Anderson : Military Theory and Practice in the Age of Xenophon, Berkeley-los Angelos 1970.

حيث كانت الحرب اهم مظاهر تلك الفترة .

بشدة فكرة الامبراطورية بأى شكل كان ومن أجل هذا راح يبالغ الى حد المغالطة ولكن بالرغم من هذا لا نستطيع اغفاله لأنه شاهد عيان لقيام الامبراطورية كما أن جوهر كتاباته هو موضوع الوحدة .

أما ديموسثنيس ، الخطيب السياسى المفوه ومنافسه ايسوقراطيس فيلسوف الوحدة الاغريقية الكبرى فقد تحدثا فى مناسبات متفرقة عن الامبراطورية الآثينية ولكن آراءهما متضاربة أحيانا لذا يجب الحرص والاستعانة بشارحى نصوصهما من القدماء .

ورغم أن هذا الموضوع يبدو شيقاً ومشجعا للدراسة لوفرة مصادره الا أن المعلومات تبدأ فى التضاؤل بعد مرور عدة سنوات على قيام الامبراطورية الثانية لأن الكتاب هجروا الكتابة عنه واتجهوا للكتابة عن أحوال أثينا وهنا يصبح البحث عن النقوش أمراً ملحا . وأنه لمن باب المشقة على الدارسين أن يفتشوا بين كتابات هذه الفترة من أجل استخراج النادر الذى يتعلق بهذا الموضوع . ولكن تكون دراستنا شاملة لهذا الموضوع فان تغطيته لابد وأن تشمل العناصر الموضوعية التالية .

١ ـ الأحوال السياسية التى مرت بها أثينا منذ هزيمتها فى الحروب البيلوبونيزية حتى اعلان الامبراطورية الثانية .

٢ ـ المبادىء والمؤسسات الدستورية وحقوق وواجبات المتحالفين طبقا لميثاق الوحدة .

٣ ـ تقييم تاريخى ناقد لهذا الاتحاد ومدى مساهمته فى احياء فكرة الوحدة الاغريقية الشاملة .

٤ ـ الأحداث التى مرت على الاتحاد بعد نشأته وحتى سقوطه .

هذه هى العناصر الأربعة الأساسية لدراسة هذا الموضوع دراسة لا شاملة فحسب بل مفيدة تاريخيا وفكريا .

١ — الاحداث السياسية التى مرت بها اثينا منذ الهزيمة حتى قيام الامبراطورية الثانية :

ومن المعروف أن هزيمة أثينا الفعلية فى الحروب البيلوبونيزية جاءت نتيجة لفقدان أثينا جزيرة ساموس القاعدة المثالية لاسطولها عام ٤٠٤ ق٠م على يد الملك الاسبرطى لوساندر ٠ وبعد هزيمة أثينا قدمت اسبرطة شروطا ليست بالقاضية القاسية بل اكتفت بتجريدها من حصونها وحوائطها وأسطولها ، ومن ممتلكاتها ، ومن نظامها الديموقراطى ٠

ولم يفق المواطنون الآثينيون من صدمة الهزيمة الا بعد اسقاط نظام مجلس الثلاثين دكتاتوراً الذى أقامته اسبرطة واصلاح ما أفسده ونقض كل ما فعله وعودة نظامهم الديموقراطى بمساعدة طيبة ٠ ولقد قضى الأثينيون سنوات وهم يصلحون مخلفات الهزيمة والدكتاتورية ٠ وهذا شغلهم عن التفكير فى مستقبل بلادهم من جديد لعدة سنوات ولكن بعد ذلك أخذوا يعملون بطاقة ونشاط غير معهودين من أجل استعادة قوتهم البحرية واعادة بناء الأسطول وسرعان ما أدى ذلك الى رخاء الحالة الاقتصادية لدى الدولة ولدى المواطنين ومن ثم بدأوا يفكرون فى استعادة الأمجاد الضائعة ٠ ولقد لعب القائدان الآثينيان كونون Conon وثراسيبولوس Thrasybulus دوراً عظيما من أجل احياء الامبراطورية القديمة ٠

كانت خطة كونون (٤٠٤ — ٣٩٢ ق٠م) لاعادة بناء الامبراطورية تقوم على استغلال أخطاء الامبراطورية الأسبرطية لصالح أثينا بعد تأليب المدن الاغريقية عليها هذا من ناحية ومن ناحية أخرى الاستفادة من قوة الأسطول الفارسى لتدمير قوة اسبرطة البحرية (وقد نجح كونون بالفعل فى تدمير الاسطول الأسبرطى فى معركة كنيدوس ٣٩٣) ومن ثم يصبح أحياء الامبراطورية سهلا ٠

ولتحقيق ذلك أخذ كونون يستغل الخلاف الذى نشأ بين اسبرطة وبلاد الفرس بل أخذ يتقرب الى ملكهم على حساب الاسبرطيين من أجل طرد حامياتهم من الجزر والمدن الاغريقية وحثهم على المطالبة

بالحرية والاستقلال ، بل ساعد فى تحرير بعضها دون هدف أو مقابل مما زاد من احترام أثينا بين المدن الأخرى • كما شجعت أثينا على زيادة الخلاف بين أسبرطة وكورنثا وبث الفرقة داخل البيلوبونيسوس •

هكذا بنشر سياسة السلام والمصادقة والوئام مع كافة الجزر والمدن الاغريقية أصبحت أثينا مدينة محبوبة بقدر ما أصبحت اسبرطة مدينة ممقوته ، ومن مظاهر نجاح أثينا استعادتها لنفوذها القديم فى جزيرة ديلوس Delos ذلك المركز الروحى للاغريق جميعا والكعبة التى تتجه اليها أنظارهم فى كل مكان •

كان المحرك الأول لنشاط كونون هو عقدة الذنب التى نشأت فى نفسه بأنه هو المسئول عن هزيمة أثينا البحرية فى أيجوسبوتامى Aegospotami (معركة نهر الماعز) ولذلك حرص على الانتقام من أسطول الاسبرطيين بقدر ما حرص على اعادة بناء أسطول أثينى جديد يعوضها عن أسطولها الذى تحطم فى هذه الموقعة • وبالفعل تحقق له ذلك عندما قاد الأسطول الفارسى ليلحق بالأسطول الآسبرطى هزيمة مدمرة عام ٣٩٩ ق•م قرب مدينة كنيدوس Cnidos وتلى ذلك تحريره لعدد كبير من المدن والجزر الاغريقية من الاستعمار الآسبرطى بعضها آثر الاستقلال والانزواء وبعضها أقام علاقات ود وصداقة مع أثينا فمثلا نسيت جزيرة أرتريا Eretria خلافاتها مع أثينا وأقامت معها علاقات وطيدة • وكافأ الفرس كونون باعطائه ما تبقى من أسطولهم ليعود به الى أثينا حيث يبدأ فى اعادة بناء الأسوار القديمة التى كانت تربط بين بيريه والمدينة •

وبالرغم من أن الرياح السياسية هبت فيما بين ٣٩١ — ٣٨٩ ق•م • على أثينا من حيث لا تشتهى الا أن التصميم والعزم على استعادة الأمجاد السلبية لم يقل أو يفتر•لدرجة أن أحد سياسى أثينا واسمه اندوكيداس

Andokidas عبر عن رأيه فى السلام عام ٣٩١ق.م فعارض فكرة الاستقلال لكل المدن الاغريقية وهذا دليل على وجود النية الاستعمارية . وكان من بين المضايقات لأحلام الآثينيين النفقات الباهظة التى أنفقتها أثينا فى تحرير المدن واحياء الأسطول التى أحدثت أزمة اقتصـادية . وثانيهما قيام الخلاف وقيام الشك بين كونون والفرس الذين اتهمـوه بسعيه لتحقيق مصالح ذاتية لبلده خاصة بعد مساعدة أثينـا لحـاكم قبرص يواجوراس الذى ثار ضد الفرس وطلب العون من أثينا ، بينما راحت اسبرطة تعيد بناء قوتها البحرية من جديد وتستعيد المدن التى فقدتها مثل كنيدوس وساموس وأيفيسوس عام ٣٩١ ق.م فضلا عن تأرجح رودوس بين المؤيدين لأثينا والمؤيدين لاسبرطة . وهكذا انهارت خطط كونون الذى قبض عليه الفـرس أثنـاء زيارته لسـارديس فى مهمـة دبلوماسية ، وبالرغم من أنه تمكن من الهرب الا أنه لم يعش بعد ذلك طويلا .

وبعد أن انقشعت هذه السحب التى كانت تلبد سـماء الآمـال السياسية الأثينية برز من بين صفوف الأثينيـين القـائد العسـكرى ثراسيبولوس Thrasybulus ، ولم يكن ثراسيبولوس بالنجم الجديد ، فهو فهو زعيم ديموقراطى متطرف وقف فى وجه مجلس الأربعماية الذى قام فى أثينا وفر الى طيبة حيث نظم عدداً من اللاجئين الديموقراطيين يقدر بسبعين متطوعا هاجم بهم ميناء بيريه وهزم قوات الأوليجارخيين الاثينيين . وبعد اعلان اسبرطة عودة اللاجئين بعد هزيمة أثينـا عـاد ليكافح من أجل اعادة الحكم الديموقراطى ، لقـد كان ثراسيبولوس « بيريكلى » التفكير فهو يؤمن بفكرة الاستعمار والسيادة الأثينيـة المطلقة حتى ولو كان تحقيق ذلك يفوق امكانية أثينا المادية .

برز ثراسيبولوس الى الصفوف الأولى فى الوقت المناسب ليحول

دون ضياع كل ماحققه كونون فى السنوات السابقة . بدأ هذا الجنرال المتطرف بتنفيذ تحقيق الامبراطورية وذلك بقيامه فى ربيع عام ٣٨٩ ق.م بحملة بحرية الى منطقة بحر مرمرة والبحر الأسود ليضع النواة الأولى والأساسية للامبراطورية الجديدة مستغلا الصراعات المحلية ليضم الكثير من المدن الى تحالف مع أثينا كما قام بمساعدة الأحزاب الديموقراطية المتعاطفة معها للوصول الى الحكم مثلما فعل فى مدينة بيزنطة . كذلك أعاد لأثينا اتاوتها القديمة على السفن المارة عبر البسفور والدردنيل وهى ١٠٪ من حمولة كل سفينة . وبعد أن أعاد سيطرة أثينا ونفوذها فى البحر الأسود وثراكيا والخالكيدون . اتجه جنوبا الى جزيرة لسبوس حيث كسب الى جانب أثينا موتيلنى العاصمة وانضم الى أثينا عدد آخر من المدن الأيونية مثل هاليكارناسوس وكلازوميناى وثاسوس وساموثراكى . ثم اتجه الى رودوس ليضع نهاية للتطاحن بين الديموقراطيين والأوليجارخيين معتمدا على معونة جزيرة خيوس ، وهكذا استطاع ضم رودس الى أثينا . ولكن نهاية هذا البطل البار لأثينا والمنقذ لامبراطوريتها كانت مفجعة . فعندما ذهب الى أسبندوس Aspendos ليجمع التبرعات من أجل تحقيق مشروعاته حوالى عام ٣٨٨ فاجأه سكانها وقتلوه انتقاما لنهب قواته لحقولهم عندما كان يعسكر هناك .

يتضح من دراسة النقوش التى تركها ثراسيبولوس من ورائه فى الجزر الاغريقية أنه كان يتحرك طبقا لخطة محددة قصد بها اعادة الامبراطورية القديمة على النحو التى كانت عليه فيما بين ٤١٣ - ٤١٢ ق.م كما ذكرت النقوش أنه أعاد حق أثينا فى اتاوة قدرها ٥٪ على الصادرات والواردات وهى نفس النسبة التى كانت تفرضها أثينا على توابعها أثناء الامبراطورية الأولى . وذهب ثراسيبولوس الى أكثر من هذا فأقام بعض الحاميات الأثينية فى بعض المدن لأننا نجد الأكليسيا الأثينية تناقش امكانية اقامة حامية فى كلازوميناى . ويبدو أن محاولات اعادة امبراطورية أثينا القديمة قد لاقت اعتراضا من بعض الأثينيين . وخلاصة

القول أن كونون وثراسيبولوس ضحيا بحياتهما من أجل اعادة الامبراطورية القديمة التى سقطت تحت جحافل الغزو الاسبرطى .

ويبدو أن الاسبرطيين ارتاحوا لموت ثراسيبولوس وحاولوا استعادة سيطرتهم على البحر الأسود بارسال حملة بقيادة أناكسيبوس لمساعدة أنصار اسبرطة فى مدينة ابيدوس Abydos (١) على البحر الأسود ، ولكن الأثينيين سارعوا بارسال ايفكراتيس Iphicrates وتمكن ايفكراتيس من هزيمة القائد الاسبرطى بالقرب من « أبيدوس » ... وبذلك احتفظ الأثينيون بمكاسبهم فى منطقة البحر الأسود ومدخله .

وفى عام ٣٨٨ ق.م عين الأسبرطيون قائداً جديداً للاسطول الاسبرطي (nauarchos) وهو أنتالكيداس الشهير ووصل هذا القائد الى مدينة أفيسوس ومن هناك أرسل نائبه الى بحر مرمرة بينما سعى هو لزيارة ملك الفرس . وبالفعل وصل الى سوسا حيث لاقى ترحيبا كبيراً من الملك واستطاع بدبلوماسيته أن يعيد المياه الى مجاريها بين أسبرطة وبلاد الفرس.ويبدو أن انتالكيداس قد أقنع الملك الفارسى بأن ازدياد قوة أثينا البحرية خطر على فارس بقدر ما هى خطر على اسبرطة ، وتوصل الحليفان القديمان الى وسيلة لتفكيك الامبراطورية الأثينية فيما عدا لمنوس وامبروس وسكوروس تحت اسم الحرية والاستقلال لكافة المدن الاغريقية (فيما عدا اغريق مدن آسيا الصغرى) ومن يرفض الانصياع لشروط الملك سيصبح عدو له وتتولى اسبرطة محاربته نيابة عنه .

وعاد انتالكيداس فى خريف عام ٣٨٧ ق.م من بلاد الفرس متجها الى منطقة البحر الأسود حيث تسلم العمل بأسطول اسبرطة وتمكن

---

(١) سميت هذه المدينة الاغريقية على غرار اسم المدينة المصرية ابيدوس (العرابة المدفونة) .

من مطاردة الأسطول الأثيني فى الشواطىء الشرقية لمداخل البسفور وأبعده الى شواطىء خاليكدون فى الشمال الغربى لبلاد اليونان . وهكذا تمكن الاسبرطيون بمساعدة حليفهم ديونيسوس طاغية سيراكوزه ، من استعادة السيطرة البحرية على البحر لأسود وأصبح فى مقدورهم قطع الطريق على سفن القمح الأثينية كما أخذ مساعد انتالكيداس يهدد ميناء بيريه من قاعدته فى جزيرة ايجينا Aegina . وازاء هذا التهديد لم تجد أثينا بدا غير أن تعلن موافقتها على سلام الملك وأرسلت مندوبيها ليقسموا أمامه احترامهم والتزامهم به . وكما اعترضت أثينا فى بادىء الأمر على سلام الملك اعترضت طيبة التى كانت تسعى لتوحيد اقليم بيوتيا تحت زعامتها ولكنها فى النهاية أجبرت على قبول هذا السلام كما أجبرت أرجوس أيضاً .

هكذا تغير مسار تاريخ أثينا باعلان سلام الملك . اذ تحطم حلم سياسيها القدامى وهو احياء الامبراطورية الأولى التى كانت تقوم على الاستعمار وفرض الاتاوة على الأتباع ورضى الأثينيون بجزرهم الثلاث التى منحت لهم وأصبح الموقف الجديد يحتم على الأثينيين مواجهة المستقبل الاقتصادى لبلادهم معتمدين على أنفسهم ومصادرهم الاقتصادية فقط ولعل الضائقة المالية التى كانوا فيها هى التى شجعتهم على قبول هذا الواقع وأن يعطوا لبلادهم الفرصة لالتقاط أنفاسها قبل أن تفكر فى مستقبلها الجديد .

ولكن مجهودات السنوات الماضية لم تضع كلها هباء لأنها خلقت من أثينا قوة بحرية بصرف النظر عن فقدها سيطرتها السياسية . بل على لعكس كان السلام فى صالح الأثينيين ، لأن هذه الصدمة جعلتهم لا يفكرون فى جعل مدينتهم مرة ثانية استعمارية مسيطرة تتحكم فى غيرها من المدن بل آثروا أن يجعلوا منها أختنا كبرى تدافع عنهم وتحميهم وتصون استقلالهم من الفرس والاسبرطيين على السواء وكان لزاما على الأثينيين أن يهجروا الأفكار الاستعمارية القديمة التى أودت بالامبراطورية الأولى وبأى محاولة لاسترجاعها . وبدأ الأثينيون يفكرون فى فلسفة جديدة ألا وهى

اقامة علاقات ومصالح بين مدن بلاد اليونان المختلفة خاصة البحرية منها . وأن تقوم هذه العلاقة على أساس المساواة والاحترام المتبادل . وسرعان ما أتت هذه السياسة الحكيمة أكلها اذ استمرت المدن التى كانت لها علاقة حسنة بأثينا قبل سلام الملك على نفس علاقاتها الطيبة ان لم تكن قد ازدادت فى بعض منها . وفى عام ٣٨٠ ق.م تحدث ايسوقراط عن علاقات أثينا الطيبة مع خيوس وبيزنطة وموتيلينى كما أن علماء النقوش كشفوا نصوصا من معاهدات مثل التى قامت بين أثينا وخيوس على أساس الاستقلال والحرية والالتزام بشروط الملك .

وقد ساعد على نجاح هذه السياسة استغلال الأثينيين جيدا لأخطاء اسبرطة وتخبطها فى سياستها ثم فى سلوكها العدوانى المهين ضد أولينثوس وماتينيا وطيبة مما جعل كثيرا من المدن ترتمى فى أحضان أثينا معتبرة اياها الأخت الكبرى الحامية ضد الأخت الشريرة اسبرطة .

اثينا تساعد ثوار طيبة ورد الفعل الاسبرطى :

ارتكبت اسبرطة عدة حماقات معتمدة على تفسير نصوص سلام الملك لصالحها ومعتمدة على حليفها ديونيسيوس طاغية سيراكوزه ، وتمادت فى اذلال المدن الاغريقية وحل الأحلاف وتقييد تحرك طيبة فى بيوتيا . وكانت تلك سياسة الملك أجيسلاؤس . ومن أكبر الحماقاتالتى ارتكبها هذا الملك احتلال قلعة كادميا فى طيبة بقوة تعدادها ١٥٠٠ جندى بمعاونة الحزب الأوليجارخى الاسبرطى عن طريق انقلاب مفاجىء تم أثناء عيد دينى للنساء فى هذه القلعة مما أثار امتعاض الاغريق وتدفق أنصار الديموقراطية على أثينا حيث استقبلتهم وساعدتهمردا لجميل أهل طيبة على الاثينيين فى كفاحهم لاسقاط الدكتاتورية الأوليجارخية التى أقامها لوساندر فى أثينا بعد هزيمتها فى الحروب البيلوبونيسية .

استغلت أثينا أخطاء اسبرطة الفادحة وراحت فى صمت تعقد معاهدات الصداقة بينها وبين المدن والجزر الاغريقية حيث حرصوا كما يؤكد لنا علماء النقوش على كلمة الاستقلال autonomia والحرية

eleutheria في ظل سلام الملك . كما كسبت أثينا احترام أهل طيبة بمساعدة بعض اللاجئين في القيام بانقلاب مضاد في ديسمبر عام ٣٧٩ق.م أعادوا فيه الديموقراطية وطردوا الحامية الاسبرطية . ولكن نلاحظ أن الأثينيين بالرغم من تعاطفهم ومساعدتهم لأهل طيبة الا أنهم حرصوا على ألا يتورطوا في معارك ضد أسبرطة خوفا من المضاعفات من ناحية وخوفا من أن يخلقوا « طيبة » قوية تهدد مصالحهم من ناحية أخرى ، حقيقة حدث أن أغلق القائد الأثيني خابرياس Chabrias الممر الشمالي عبر اليوثيراي Eleutherae في وجه الملك كليومبروتوس الاسبرطي وهو في طريقه الى طيبة ولكن هذا التصرف يمكن أن يعتبر تصرفا محايداً لدولة لاتريد التورط في معارك أما أن يشترك قائدان اثينيان في صفوف ثوار طيبة فقد كان أبعد مما تتحمله أسبرطة وهو مالا تريده أيضا أثينا ويبدو أن الاسبرطيين فقدوا فرصة نادرة وهي رغبة أثينا في عقد السلام مع اسبرطة وذلك بمحاكمتها لهذين القائدين واعدامها واحداً ونفي الآخر الا أن سفودرياس الاسبرطي ارتكب حماقة في ربيع عام ٣٧٨ق.م وقام بهجوم ليلي فاشل هدف به احتلال ميناء بيريه رداً على مساعدة أثينا لثوار طيبة . وتبع ذلك غضب أثينا وتأزم الموقف خاصة بعد تبرئة سفودرياس نتيجة لتدخل الملك الاسبرطي . وكسب أنصار طيبة الموقف في أثينا حيث أعلن عن قيام تحالف بين المدينتين . بل وبدأت أثينا في تحصين ميناء بيريه وبناء أسطول جديد . ولم يكن هذا رد الفعل الحقيقي لأن رد الفعل الحقيقي عند الأثينيين كان التعجيل باحياء فكرة قديمة وهي تحالف من نوع جديد بين أثينا وباقي المدن الاغريقية في وجه الخطر الاسبرطي المتعاون مع الفرس .

تكوين التحالف الكونفدرالي وقواعده (الامبراطورية الاثينية الثانية) :

ما أن أعلنت براءة سفودرياس حتى دعا الأثينيون حلفاءهم الى ارسال ممثلين الى أثينا للتشاور في أمر قيام اتحاد كونفدرالي لوقف العدوان الاسبرطي ووافق عدد من المدن الاغريقية على المشروع من ناحية المبدأ . ومن أوائل المدن والجزر التي وافقت على الفكرة خيوس ورودس وبيزنطة وموتيليني وطيبة ويقول ديودورس الصقلي أن خيوس

وبيزنطة كانتا أول من أعلن قطع علاقاتهما مع أسبرطة والدخول فى هذا الاتحاد الجديد ثم تلى ذلك رودس وموتيلينى عاصمة جزيرة لسبوس وعدد آخر من المدن • ودخلت خيوس الاتحاد بأداء القسم الخاص به كما اتفق المتحالفون على أن تكون عضوية الاتحاد مفتوحة لأى عضو يريد الانضمام •

وفى ربيع عام ٣٧٨ ق•م قدم رجل اسمه أرسطوطاليس الماراثونى Aristotles of Marathon مشروع الوحدة بطريقة جذابة وبعد ذلك بوقت قليل خرجت وفود الى المدن ذات المصالح البحرية ومعها نسخ من هذا المشروع لعرضه على حكوماتها لدخول هذا الاتحاد • وكان من حسن الحظ أن عثر علماء النقوش على شذرات من مشروع أرسطو طاليس بين آثار أثينا عام ١٨٥١ • وأصبح التاريخ متكاملا بين مطابقة نص النقش وبين ما سجله ديودورس الصقلى • ويبدأ النقش بتاريخ الموافقة على هذا المشروع وهو فبراير عام ٣٧٨ ق•م ثم بيان الغرض من تكوين الاتحاد وهو ارغام الاسبرطيين لكى يسمحوا للاغريق بممارسة حرياتهم حتى يصبح فى امكانهم ممارسة السيادة على أراضيهم والدفاع عنها • وفى النهاية يدعو القرار الاغريق وغير الاغريق الى الانضمام الى هذا التحالف بشرط ألا يكونوا من بين رعايا الملك الفارسى ويضمن للأعضاء الاستقلال autonomia وبدون أى احتلال أو فرض حاكم معين أو الزام بدفع أتاوة•ومن الجدير بالذكر أن النقش يعنى بكلمة «غير الاغريق» — أهل تراكيا ومقدونيا وابيروس فى شمال بلاد اليونان حيث كانوا يعتبرون برابرة Barbaroi أو انصاف اغريق فى أحسن الأحوال ، وأن دخول أى عضو الاتحاد يكون على نفس المساواة مثل أى عضو من الأعضاء البارزين مثل طيبة وخيوس وغيرهما • وينص الاعلان أيضاً على أنه فى حالة موافقة مدينة على الانضمام للاتحاد يشترط على شعبها (demos) أن يعلن تنازله عن أى ادعاء سابق للمطالبة بأى أراضى داخل أى من المدن المتحالفة واذ شك أى من الأعضاء فى وجود وثائق ضارة به فى أثينا منذ أيام الامبراطورية الأولى فان هذه الوثائق تدمر فورا بعد موافقة المجلس الاتحادى •

وتأكيداً لمبدأ المحافظة على الاستقلال حظر دستور الاتحاد على مواطنى المدن المتحالفة وحكوماتها امتلاك ضياع أو عقار فى مدن غير مدنهم الأصلية ابتداء من تاريخ الانضمام الى التحالف . وفى حالة الابلاغ من وجود مثل هذه الحالات يخطر المجلس الاتحادى والذى سيقوم بدوره ببيع هذه الممتلكات ويكافىء المبلغ بنصفها ويذهب النصف الآخر الى خزينة الاتحاد .

كذلك نص الاعلان على تقديم المساعدة المادية والمعنوية لأى عضو يتعرض للعدوان . كذلك نص الاعلان على معاقبة أى فرد يحاول الخروج عن هذه المبادىء السابقة باسقاط جنسيته وكافة حقوقه السياسية Capitis deminutio ومصادرة ممتلكاته وتقديمه للمحاكمة أمام الاثينيين وحلفائهم ليعاقب بالاعدام أو النفى من البلاد .

وفى نهاية النقش تمكن العلماء من قراءة أسماء المدن التى قبلت الدخول فى الاتحاد ثم ترك فراغ للمدن التى قد تنضم مستقبلا .

ومن الملاحظ أن هذا النقش يحمل الروح العاطفية الاعلامية أكثر من الهدف القانونى والتشريعى والتنظيمى للاتحاد فهو أشبه بمنشور manifesto موجه الى الهللينيين وغير الهللينيين بقصد اغرائهم للانضمام الى هذا التحالف الجديد والذى يحدد هدفه وهو « ارغام الاسبرطيين لترك الاغريق وشأنهم يتمتعون بالسلام والحرية والاستقلال ولكن يمارسوا سيادتهم على أراضيهم » ومما لاشك فيه أن الأثينيين كانوا صادقى النوايا عندما أعلنوا هذه المبادىء فقد تعلموا من الامبراطورية الأولى دروسا قيمة ، كما أن هجوم اسبرطة المباغت على ميناءبيريه وبراءة مرتكب هذا الهجوم جعل الاثينيين مقتنعين أكثر من أى وقت مضى بأن اسبرطة دولة لا تحترم المعاهدات ولا تلتزم بمواثيق لأنها خالفت نصوص سلام الملك وعلى ذلك يجب مقاومة عدوانها بالتكتل وتوحيد الصفوف . ذلك هو منطق « الغرض من الوجود » raison d'etre بالنسبة لهذا الاتحاد ولذلك تعرض هذا المنطق للجدل والاعتراض عندما ضعفت أسبرطة وأفل نجمها فى سماء

السياسة الاغريقية عندئذ تساءل بعض المتحالفين عن الغرض من تمسك أثينا بهذا الاتحاد بعد زوال السبب لقيامه . كذلك فان تمسك أثينا « بسلام الملك » فى هذا النقش وفى باقى معاهداتها يدل على ذكاء السياسة والدبلوماسية الاثينية وحرصهم على الابتعاد عن المسائل التى قد تورطهم فى حرب مع بلاد الفرس حتى لاتثير العقبات فى طريق وحدة الأغريق . ولعل من يقرأ مديح أيسوقراط Paengyricus لهذا الاتحاديدرك مدى التغير الذى طرأ على مفهوم السياسة الأثينية وحرصهم على عدم تكرار الأخطاء التى ارتكبت أثناء قيام الامبراطورية الأولى وهىسياسة الأنانية والاستعمار المكشوف والتىبها حولت حلف ديلوس الدفاعى الى امبراطورية لها . وتجنبا لأخطاء الماضى سمحت لوائح الاتحاد الجديد للمدن الأعضاء أن يقيموا العلاقات الثقافية والتجارية والسياسية فيما بينهم دون الرجوع الى أثينا بعكس ما كان فى الامبراطورية الأولى التى كانت تشترط ارتباط المدينة بأثينا فقط وأى مصالح بين مدينة وأخرى لابد أن تتم عن طريق أثينا وحدها . كما حرصت أثينا فى الاتحاد الجديد أن تتنازل عن أى حق للتدخل فى الشئونالداخلية للاعضاء واعلان رفضها ارسالحامياتعسكرية أو فرض أتاوة اجبارية Phoros أو تملك أراضى فى المدن المتحالفة . ولذا حرص الأثينيون على ذكر عبارة « الأثينيون وحلفاؤهم » Athenaioi Kai Symmachoi توضيحا لسياستهم وهى أن يتولى مصالح المدن المتحدة مجلس اتحادى خاص بهم يسمى بالمجلس العام للمتحالفين To Koinon Synedrion Symmachon والذى كان يتكون من ممثلى المدن المتحالفة وكان لكل مدينة مندوب أو أكثر ولكن صوت واحد لكلمدينة مهما اختلفت حجم هذه المدن أو أهميتها . وكان هذا المجلس الاتحادى Synedrion يتولى ادارة شئون الاتحاد الذى تقرر أن يكون مقره الدائم أثينا .

تقييم الاتحاد ومناقشة الاسس التى قام عليها :

كأى اتحاد وحدوى آخر فى أى زمان أو مكان ــ قام هذا الاتحاد على ثلاثة سلطات تنظيمية هى السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية •

فمن ناحية السلطة التنفيذية تمتعت أثينا بنصيب الأسد ؛ فهى مقر المجلس الاتحادى الذى يتولى شئون المدن المتحالفة ، وكان مجلس الشيوخ الأثينى Boule هو الوسيط بين المجلس الاتحادى Synedrion والمجلس الشعبى الأثينى ekklesia والذى كان لابد من استشارته لأن على الأثينيين كان يقع العبء الأكبر خاصة فى مجال الحرب وأمور السلام •

وفى أول عهد الاتحاد اعتبر المجلس الشعبى الأثينى ekklesia والمجلس الاتحادى مؤسستان دستوريتان متساويتان • ولكن بمضى الزمن وازدياد المسئولية على عاتق أثينا ازدادت مسئولية المجلس الشعبى الأثينى فغطت على سلطات المجلس الاتحادى خاصة ابان اندلاع الحروب بين المتحالفين وهذا أمر طبيعى فى حالة الطوارىء • ولم يؤثر ذلك البتة على مؤسسات الاتحاد ومبادئه الأساسية الأخرى •

كذلك حظيت أثينا بنصيب كبير فى المجال التنفيذى فموظفوها هم الذين كانوا يقومون بتنفيذ بنود الاتحاد فى الحرب والسلم ويقول ديودورس أن ذلك جعل من الأثينيين قوة حقيقية وأعطى لمدينتهم دور القيادة الفعلية • ففى مجال الجيش كان جنرالات أثينا يمسكون بزمام الموقف فى البر والبحر وفى مجال الاقتصاد والمال كان موظفوها يجمعون مساهمات الأعضاء •

ولكن بمضى الوقت تعدت أثينا على استقلال القضاء وتدخلت فى محاكم المدن المتحالفة فمثلا تدخلت أثينا فى السلطة القضائية لجزيرة كيوس Keos لتضمن عقوبة قاسية ضد المتمردين على الاتحاد كذلك حدث شىء مماثل فى جزيرة ناكسوس فى منتصف القرن الرابع ق•م •

ومن الأمثلة الصارخة على تدخل أثينا فى استقلال المتحالفين وتعديها على حرمة القضاء فيها اصرارها على الاحتفاظ بحق اعتبار من تراهم من

الأفراد أيا كانت مدنهم خارجين على القانون وذلك بمقتضى قانون يصدر من احدى المحاكم الأثينية ويصبح سارى المفعول فى كافة مدن الاتحاد . أيضاً كان فى تمسكها بحق حماية بعض الأفراد واعتبار من يتعرض لهم بالأذى خارجين عن القانون فى كافة مدن الاتحاد وكانذلك تعد على استقلال المتحالفين بالرغم من أن بنود الاتحاد نصت على مادة تجيز انشاء محكمة مشتركة من الأثينيين وحلفائهم للنظر فى مثل هذه القضايا .

ومن الأمثلة الأخرى الدالة على خرق أثينا تعهدها باحترام واستقلال المتحالفين تدخلها من أجل اصدار تشريعات بهدف الحد من تجارة بعض المدن المنافسة لها حماية لاقتصادها ، خاصة بالنسبة للمواد الخام التى تقوم عليها صناعاتها ، اذ احتكرت تجارة هذه المواد وحرمت على المتحالفين الاتجار فيه مما يدل على أن أثينا كانت تنتهز الفرص لتسلب حلفاءهم حقوقهم من أجل مصلحتها الذاتية وكما ، قرارات (dogmata) المجلس الاتحادى Synedrion تعتبر من الناحية النظرية معادلة لقرارات المجلس الشعبى الأثينى Ekklesia لأن القرارات التى أريد للمجلس الاتحادى مناقشتها كانت تتعلق بالمصالح المشتركة بين المدن المتحالفة مثل الحرب والسلام وعقد المعاهدات ، كذلك نصت بنود الاتحاد على انشاء محكمة فدرالية مشتركة لمحاكمة من يخرج عن نصوص الاتحاد وغير ذلك من المشاكل المختلفة ولكن ذلك لم يحدث . بل بمرور الوقت حدث شرخ بين المبادىء النظرية والواقع السياسى . نقيام الاتحاد لم يمنع حدوث صراع بين مصالح المدن المتحالفة مما أدى الى الانفجار فى الصراع فى بعض الأحيان ، وكان على أثينا أن تتصرف بسرعة دون انتظار الى قرار من مجلس الاتحاد . وعندما ازدادت نفوذ ومسئولية أثينا اضطرت الى التغاضى فى بعض الأحيان عن بعض البنود الأساسية من أجل مصالحها. كما أن قيامها بقمع حركات التمرد ضد الاتحاد اعتبرت خرقاً لمبدأ الاستقلال وحق السيادة للمدن المتحالفة . وكما رأينا ، كيف تدخلت أثينا فى استقلال وحرية القضاء فى المدن المتحالفة ، كذلك بدأت

أثينا فى جمع اشتراكات (Syntaxeis) مالية من الأعضاء لمساعدتها فى القيام بالتزاماتها ازاء الاتحاد ولكنهم آثروا أن يتفادوا كلمة اتاوة Phoros القديمة واستخدموا بدلا منها تعبيرا مهذبا هو « اشتراكات» Syntaxeis تدفع فى شكل مبالغ مالية أو سفن حربية وقوات برية .

كما احتفظت أثينا لنفسها بالقيادة العامة فى مجال الحرب والادارة العليا وفى التنفيذ والتنظيم مما أهلها لمركز القيادة السياسية (hegemonia) على الاتحاد ومن ثم يحلو لبعض المؤرخين بتسميته الامبراطورية الآثينية الثانية . أما اذا أردنا تتبع نقاط الضعف فى هذا الاتحاد فسنبدأ بنقد جوهر قيامه اذ كان الغرض من وجوده (raison d'etre) شبيها بالغرض من وجود حلف ديلوس القديم ــ وهو تكوين جبهة عسكرية ضد عدو مشترك يهدد مصالح المتحالفين فاذا انتهى هذا الخطر لم يعد هناك أى تبرير لبقاء التحالف ثم سرعان ما تحول أثينا التحالف الى امبراطورية لها . لقد كان الغرض من وجود التحالف الأخير هو حماية استقلال المدن الاغريقية من العدوان الآسبرطى ولقد فات الذين وضعوا مبادىء وأسس الاتحاد أن يجعلوا العامل العاطفى والنفسانى الموجود فى أعماق الاغريق ، وهو الوحدة الهللينية حجر الزاوية لهذا الاتحاد لأن السبب الأول كان عرضيا وربما تجنب الآثينيون ذكر كلمة الوحدة الهللينية حتى لا يتهموا بالاطماع وتهديد استقلال المتحالفين وآثروا ذكر سبب قريب ومباشر ألا وهو التهديد والخطر الذى كان لابد من وجوده لكى يجمعوا المتحالفين فى جبهة واحدة ولكى يتناسوا التعصب الوطنى لاستقلال مدنهم .

ومن نقاط الضعف الأخرى فى نصوص الاتحاد مساواة المدن المتحالفة عند التصويت بصرف النظر عن تعدادها ومصادرها وأهميتها مما جعل مصالح المدن الغنية تحت رحمة المدن الفقيرة فلم يكن من العدل مثلا أن تعطى جزيرة صغيرة فقيرة مثل سفنوس Siphnos صوتا واحدا مثلها مثل المدن الكبرى مثل طيبة أو موتيلينى أو أثينا، وقد يدافع

البعض عن ذلك بأن المساواة فى التصويت هى توكيد لمبدأ المساواة الكاملة والتامة بين المدن المتحالفة ولكن هذا ليس بعدل . ومن الغريب أن هذا الاتجاه الخاطىء ظهر فيما بعد عند قيام الحلف الآخى Achaean league مما جعله تمثيلا غير عادل لشعوبه .

كان من الخطأ أيضاً قيام مجلسين تشريعيين منفصلين بل ومتنافسين فى وقت واحد وفى مدينة واحدة وهما المجلس الاتحادى Synedrion والمجلس الشعبى الأثينى ekklesia . وكثيراً ما دب الخلاف بينهما خاصة اذا كان الأمر يتعلق بأمور الحرب والادارة مما أوجد بوادر الشقاق منذ البداية . كان المفروض قيام مجلس تشريعى واحد ومتحد يضم الأثينيين وحلفاءهم على أساس تمثيلى عادل ، وهو أمر فى الحقيقة كان من الصعب تحقيقه بسبب غيرة الأثينى الوطنية على مدينته ذات التراث والنفوذ وكان من الصعب عليه أن يقبل الغاء مجلسه الشعبى الذى كان يرى فيه ديموقراطيته العزيزة على نفسه ورمز حريته واستقلاله لكى يدمج فى مجلس اتحادى غريب عليه ينصهر فيه فيفقد فرديته واستقلاله وهذه نقطة ضعف سيكلوجية فى المواطن الاغريقى خلقتها نظام دويلات المدن مما عطل قيام الوحدة الاغريقية الشاملة لوقت طويل .

ولكن كل هذه العيوب لا تبعدنا عن ذكر أهمية هذا الاتحاد فى تقريب فكرة الوحدة السياسية الشاملة على أساس ناجح . لقد كانت الامبراطورية الثانية خطوة جريئة موفقة من أجل تحقيق وحدة فيدرالية بين الدويلات الاغريقية . حقيقة لقد قام الاتحاد الثانى على أسس متشابهة مع حلف ديلوس الا أنه فى هذه المرة ضمن حقوقا للمتحالفين وحدد مسئولياتهم بصورة تمثيلية شعبية أكثر نجاحا من الماضى .

لقد كان هذا الاتحاد النموذج الأول لاتحادات فيدرالية أخرى قامت بين المدن الاغريقية فيما بعد ونخص بالذكر الحلف الآخى (١) ونحن لا ننكر أن نظام التمثيل والتصويت داخل المجلس الاتحادى

(١) لقد عالج فريمان ظاهرة قيام الاتحادات الفدرالية عند الافريق فى بحث قيم صدر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ولم تظهر حتى الآن ابحاث اخرى تكمله او تزيد عليه :

F. A. Freeman, History of Federal Government (edit by Bury, London 1889).

لم تكن عادلة الا أن تكوين مجلس دائم ممثل لمدن مختلفة فى مدينة أثينا يعتبر عملا رائعا وتطورا كبيرا فى فكرة الوحدة الشاملة الاغريقية لأن هذا المجلس كان المنبر الذى من فوقه عبرت المدن المختلفة والبعيدة عن رأيها على لسان ممثليها كما وضح للاثينيين مدى أهمية نظام التمثيل عن طريق نواب محدودى العدد وصحح لهم خطأهم فى تصور ووجوب تمثيل كل الشعب مجتمعا كشرط لتحقيق الديموقراطية لأنه من المحال جمع شعوب كل المدن المتحدة فى مكان واحد • كذلك فان فكرة تأسيس محكمة فيدرالية (بالرغم من أنها لم تنفذ) للنظر فى الخلافات بين أثينا والمدن المتحالفة ولمحاكمة الخارجين على هذه الوحدة يعتبر خطوة رائعة فى طريق تحقيق الوحدة لأنها كانت بمثابة مزج جماهيرى حقيقى على مستوى الاتحاد كله • انها لم تنفذ ولكن مجرد التفكير فيها يعتبر نصراً كبيراً لأنصار الوحدة • كذلك فان انشاء خزانة فدرالية أمر هام للغاية لأن وجود خزانات للمدن المتحالفة مستقلة عن الخزانة الأثينية حال دون وقوع الخطأ الذى وقعت فيه أثينا فى الامبراطورية الأولى عندما اتهمها الأعضاء باستغلال أموالهم للانفاق على مشروعات خاصة وذاتية •

هكذا يمكن أن نقول أن هذا الاتحاد يمكن أن يعتبر النواة الأولى للوحدة الاغريقية الشاملة •

الظروف المختلفة التى مر بها الاتحاد منذ قيامه حتى سقوطه :

نستطيع أن نقول أن هذا الاتحاد قد مر بثلاثة مراحل مختلفة هى :

١ ــ المرحلة الأولى أو مرحلة التأسيس ٣٧٨ ــ ٣٧١ ق• م وفيها كان الحماس لفكرة الاتحاد قويا حتى ولو على حساب التضحية • ويمكن أن نسميها بمرحلة الانفعال العاطفى التى ساد فيها الاحساس المثالى لمبدأ الوحدة الهللينية دون التفكير المنطقى فى تحقيقها • تبدأ هذه المرحلة باعلان الاتحاد عام ٣٧٨ وتنتهى بانسحاب طيبة منه عام ٣٧١ ق• م أيضا تتميز هذه الفترة بوجود الحافز للوحدة وهو الخطر الذى هددت به أسبرطة استقلال ، وحرية المدن الاغريقية لقد بدا الاتحاد بخمس أو ست أعضاء مؤسسين وأخذ يتزايد حتى أعادت أثينا امبراطوريتها شرقا وغربا ووصل عدد

المتحالفين الى ما بين ٧٠ و ٧٥ عضوا . وكانت أثينا ترحب بقبول أى متحالف حتى المشكوك فى أطماعهم مثل ياسون طاغية فيراى الذى انضم الى التحالف وأصبح عضوا فيه .

ولما هزمت طيبة العدو المشترك أسبرطة فى معركة ليوكترا وانهارت الأمبراطورية الاسبرطية بدأ الأعضاء المتحالفون يتساءلون خفية عن السبب فى بقاء التحالف وبدأت الشكوك تحوم حول أثينا من جديد بأنها تسعى لفرض نفوذها البحرى الذى أصبح قويا .

وتنتهى هذه الفترة بانسحاب طيبة من الحلف والحقيقة أن انسحاب طيبة لم يؤثر على الحلف اطلاقا لأن انضمامها اليه منذ البداية كان مشكوكا فيه . فقد كان لها أطماع وأحلام سياسية تريد تحقيقها فى بيوتيا ولكن أسبرطة كانت تقف لها بالمرصاد ولذا انضمت الى الحلف الآثينى طمعا فى استخدام تسهيلاته العسكرية لصالح مشروعاتها الوحدوية وضد أسبرطة .

ويمكن أن نلاحظ أن الحلف كان يعانى ضعفا ماليا منذ بداية تكوينه لدرجة أنه لم يستطع مواجهة أى أزمة اقتصادية أو مالية فيما بعد . لقد تحملت أثينا منذ البداية العبء الأكبر من ميزانية الاتحاد واضطرت ازاء المسئوليات المتزايدة الى فرض ضريبة اضافية على مواطنيها eisphoron لأن الاشتراكات التى كانت تجمع من الأعضاء Syntaxeis لم تكن كافية للوفاء بالتزاماتها العسكرية ووصل الحال ببعض القادة العسكريين مثل تيموثيوس Timotheus وايفكراتيس Iphicrates الى الاستدانة وبيع ممتلكاتهم أو تشغيل الجنود والبحارة فى الحقول ونهب المدن والعمل كمرتزقة من أجل الانفاق على العمليات العسكرية المطلوبة . وليس بالحماس وحده يقوم الاتحاد . فتحمس الأثينيين واستعدادهم للتضحية من أجل نجاح الاتحاد لم يكن كافيا لبقائه طويلا وكان فى امكانهم مطالبة المتحالفين الأعضاء بمساهمة أكبر ولكن هزيمة أسبرطة العدو الأساسى لم يعط أثينا التبرير الكافى لطلب ذلك بل وصل الحال الى تراكم مؤخرات

الاشتراكات (١) Syntaxeis على الأعضاء دون أن تحاول أثينا الضغط عليهم لتسديدها حتى لا تظهر بمظهر الطامع أمام الحلفاء .

المرحلة الثانية : مرحلة تدهور العلاقات بين أثينا وحلفائها ٣٧١ - ٣٥٧ ق.م :

بعد هزيمة أسبرطة وانسحاب طيبة ساءت العلاقات بين أثينا والحلفاء وتتميز هذه الفترة بندرة المعلومات التاريخية عن نشاط الاتحاد حتى يصعب على المرء تتبع نشاطه حيث غطى نشاط العلاقات الخارجية لأثينا على نشاط المتحالفين .

لقد حاولت أثينا فى بداية هذه الفترة تحويل الاتحاد الى حلف لها والمتحالفين الى مناطق نفوذ لها . ومن أجل هذا توسعت أثينا فى قبول الأعضاءفقبلت عددا منمدن البيلوبونيسوس.ولم يعد انضمام هذه المدن على الحلف بفائدة اذ انسحبت منه واحدة تلو الأخرى بعد تحقيق أغراضها الخاصة . ووصل الحال أن أثينا لم تجد أحدا يعاونها عام ٣٦٦ ق. م وهى تحاول استعادة مدينة أوروبوس Oropos المنشقة عليها .

ومنأخطاءأثينا فىهذه الفترة تورطها مع مدن البيلوبونيسوس.فبعد هزيمة أسبرطة انضمت كثير من المدن الصديقة لأسبرطة الى الحلفالأثينى بغية الحصول على مساعدة ضد طيبة وتحت الحاح هذه المدن وجدت أثينا نفسها حليفة لأسبرطة ضد طيبة مما أثار احتجاج الأعضاء القدامى فى الحلف وهم الذين أقاموا الحلف أساسا لمحاربة أسبرطة . وسادت موجة من الاعتراض على قبول أصدقاء أسبرطة الجدد فىالحلف بلووصل الحال ببعض الأعضاء الى الانسحاب من الحلف احتجاجا والانضمام الى طيبة المنتصرة مثلما فعلت يوبويا وأكارنانيا . ثم تلى ذلك انسحاب أولينثوس وتوابعها بحجة واهية وهى تهديد أثينا لمدينة أمفيبوليس Amphipolis.

هكذا فقد الحلف الكثير من الانسجام الذى كان يتميز به عند تكوينه ، خاصة بعد انتصار طيبة الساحق فى ليوكترا والذى وضع نهاية

(1) C.M. Wilson," Athens military Finances 378-7 to the Peace of 375 B.C., Athen. XLVIII, 1970, p. 302—326.

لمجد أسبرطة العسكرى ولخطر تهديدها لاستقلال المدن الاغريقية مما أفقد التحالف الغرض الأساسى الذى من أجله قام • ولما تغيرت سياسة أثينا ازاء حلفائها تغيرت سياسة الحلفاء ازاءها أيضا وظهرت موجة من الاحتجاج والانسحاب فانسحبت بيزنطة وكيوس وبدأ التذمر يظهر فى رودس وخيوس • وبينما راحت المدن المؤسسة تنسلخ عن الاتحاد شهدت الفترة ما بين ٣٥٨ و ٣٥٧ ق• م موجة جديدة من الانضمام من جانب أعضاء جدد ربما دفعوا الى الانضمام تحت تهديد القوة الأثينية البحرية المتزايدة وكان أعظم حدث فى تاريخ الحلف هو عودة جزيرة يوبويا الى الاتحاد ولكن بعض المؤرخين يعزون هذه الموجة من الانضمام الى عملية تنشيط مؤقت سرعان ما اختفت •

لقد تغيرت سياسة أثينا ازاء حلفائها فى هذه الفترة من التحمس والاستعداد للتضحية الى الأنانية والبحث عن المكاسب الخاصة فكل المعارك العسكرية التى تمت فى هذه الفترة فيما عدا تأمين شبه جزيرة القرم Chersonese لم يكن بذات فائدة للأعضاء بل لصالح أثينا فقط • واذا حدث وطالب الحلفاء بعمل عسكرى لصالحهم تراخت أثينا فى تنفيذه • فمثلا عندما أخذ الاسكندر ملك فيراى يهدد جزر الكوكلاديس Cyclades بأسطوله نجد الأسطول الأثينى بقيادة خاريس لا يهتم بذلك ويفضل الابحار الى جزيرة كوركورا للتدخل لصالح الحزب الموالى لأثينا • وفى نفس الوقت نجد أثينا تتدخل بالقوة لاخضاع الأعضاء المنشقين عليها فقد أخضعت جزيرة كيوس وحددت استقلالها وسلطاتها القضائية والتجارية وأصدرت أثينا أحكاما ضد المارقين عليها وجعلتهم خارجين عن القانون وطالبت جميع المدن بتنفيذ هذه الأحكام مما جرح كبرياء المدن المتحالفة وملأ صدرها بالتذمر والتشكك فى نوايا أثينا • كذلك عانت أثينا والحلف عجزا ماليا شديدا(١)

(1) Cl Mossé." La vie economique d'Athenes au IVe Siecle : crise ou renoveu ?, Praelectiones Patavinae, Rome 1972, P. 135—144.

وازداد العجز بين الدخل من الضرائب والنفقات العسكرية لدرجة أن بعض القادة كانوا يدفعون مرتبات الجنود والبحارة من أموالهم الخاصة ودون أن يستردوا هذه المبالغ من الدولة مما دعاهم الى تعويض ذلك عن طريق السلب والنهب والحاق الأذى ببعض المدن ، وبهذا دفعت أثينا جنرالاتها الى أعمال اللصوصية مما أثار امتعاض الدويلات الاغريقية ، وربما يجد الباحث عذرا للاثينيين فى ذلك فقد زادت النفقات العسكرية بسبب التطورات السياسية المتعاقبة ، كذلك فان اعتماد الجيش الاثينى على الجنود المرتزقة زاد من بهاظة لتكاليف ،

وخلاصة القول أن بوادر التدهور بدأت فى الظهور على الاتحاد عندما بدأت المدن الكبرى المؤسسة فى الانسحاب أو الاستعداد للانسحاب من التحالف بينما استمرت أثينا فى توسيع رقعة نفوذها وسيطرتها البرية والبحرية بصرف النظر عن اتباعها منطقا سياسيا معقولا يبرر لها تصرفاتها ، كما بدأ الأعضاء الباقون يحسون بالبرود وعدم الاكتراث ازاء التحالف ولكنهم ظلوا كابتين لاحساساتهم المريرة ازاء الشقيقة الكبرى حتى تحول هذا الكبت الى صراع دموى قضى على البقية الباقية من الاتحاد ،

المرحلة الثالثة والاخيرة :

(مرحلة تفجر الصراع وانهيار التحالف ٣٥٧ ـ ٣٠٨ ق٠م) :

سبق أن رأينا كيف أن التحالف بدأ محملا بالمشاكل ولكن هذه المشاكل بالرغم من تعددها وتضاربها لم تكن كافية لاحداث انفجار سياسى يأتى على البقية الباقية من التحالف ، ولكن فى هذه الفترة ظهر عامل جديد وهو تدخل قوى أجنبية ومعادية واستعدادها لهدم التحالف ،

فمن ناحية راح الملك ماوسولوس Mausolos ملك كاريا الأسيوى يحرض المتحالفين فى أيونيا ضد أثينا ويدعوهم الى الانفصال من التحالف كما وعد المدن الاغريقية بالمساعدة فى حالة الثورة وكان هذا الملك يطمع فى مد نفوذه فى آسيا الصغرى على حساب أثينا ، ونتيجة لهذا التحريض ثارت خيوس ورودس وكوس وسرعان ما لحقت بهم بيزنطة التى كانت قد

انسحبت من الحلف وتلى ذلك عدد كبير من المدن الصغيرة . كانت الثورة يتزعمها الأوليجارخيون ضـد الديموقراطيين وسببت صراعا وحرجا مريرا لأثينا لأنها كانت الأم الكبرى للأحزاب الديموقراطية .

ومن ناحية أخرى كان فيليب ملك مقدونيا قد برز بمملكته الى ساحة الصراع الاغريقى . وكان هذا الملك طموحا يأمل فى بناء امبراطورية كبرى ومن ثم أخذ يعمل على هدم التحالف حتى يبنى امبراطوريته على أشلائها كما رأى فيليب الدبلوماسى البارع أن اندلاع الثورة بين المتحالفين سوف يشغل أثينا عن توسعاتها فى مقدونيا وتراكيا . والى جانب كاريا ومقدونيا كانت طيبة هى الأخرى تتحفز للانتقام من أثينا بعد فقدها جزيرة يوبويا التى عادت الى التحالف عام ٣٥٧ ق. م .

أما الأسباب المباشرة التى أدت الى التدهور فقد كانت نتيجة لتصرف عدوانى قام به القائد الاثينى خاريس تجاه كل من خيوس ورودوس . فقد حاول الأثينيون استعادة جزيرة خيوس فى خريف عام ٣٥٧ ق . م وقاد خاريس القوات البرية ضد الجزيرة بينما كان زميله خابرياس يرابط بالأسطول . وحاول خابرياس الهجوم بمفرده ولكن هذا الهجوم كلفه حياته فاضطر الأثينيون الى وقف العمل العسكرى مؤقتا .

وفى عام ٣٥٠ قررت المدن الثائرة تكوين أسطول مشترك فيما بينهما والقيام بعمل انتقامى مضاد ضد ممتلكات أثينا وتعرضت جزر لمنوس وأمبروس للنهب وحاصروا جزيرة ساموس الموالية لأثينا . وكان الثوار المتحالفون يهدفون الى جمع الأسلاب من أجل دعم الثورة ضد أثينا ، ولم يسكت الأثينيون على ذلك فأرسلوا حاميات عسكرية مختلفة تحت قيادة عدد من الأراخنة لحماية المدن الموالية لهم وجهزوا أسطولا يتكون من ستين سفينة تحت قيادة تيموثيوس وايفكراتيس بالاضافة الى ستين سفينة أخرى كانت تحت قيادة خاريس .

وسار الأسطول الأثينى الى بيزنطة فى صيف عام ٣٥٦ ق. م لمهاجمة مدينة بيزنطة لأنها رأس الثورة من ناحية ولاستعادة الطريق الحيوى لأثينا لتجارة القمح وتأمين منطقة البحر الأسود وبحر مرمرة من ناحية

أخرى ، وازاء هذا التصرف اضطرت المدن الثائرة على الاتحاد الى فك حصارها لجزيرة ساموس والابحار فورا لملاقاة الأسطول الأثينى والذى تحرك هو أيضا لملاقاة أسطول الثوار ، وبالقرب من خيوس تواجه الأسطولان عندئذ أمر خاريس كلا من تيموثيوس وايفكراتيس بالهجوم ولكنهما طلبا منه التريث لحين هدوء البحر الهائج فلم يستمع اليهما واندفع وحده مهاجما فرد على أعقابه خاسرا ، عندئذ ادعى أن زميليه غدرا به نظير قبول رشوة من العدو ، فاستدعى الأثينيون هذين القائدين للمثول أمام المحاكمة ، وأسفر التحقيق بتوقيع غرامة كبيرة على تيموثيوس بينما برئت ساحة ايفيكراتيس وابنه من تهمة الرشوة وانسحب تيموثيوس الى منفى اختاره بمدينة خالكيس فى جزيرة يوبويا وذلك فى خريف عام ٣٥٦ ق. م . وبذلك أصبح الميدان خاليا من أى منافس لخاريس ، ولكن نشاطه البحرى أصبح مقيدا بسبب العجز المالى مما اضطره الى العمل بجيشه كجندى مرتزق ، وارتكب خطأ فى قبوله العمل فى خدمة ملك فريجيا ضد الملك الفارسى ارتاكسركسيس أوخوس ، وبالفعل تمكن خاريس وجيشه من الحاق الخسارة الفادحة بالفرس ، نظير مكافأة صغيرة ، وازاء هذا أعلن الملك الفارسى غضبه مهددا بغزو أثينا نفسها ، وكان رد فعل هذا التهديد كبيرا لأن الملك كان يعلم مدى الضعف الذى تردت فيه أثينا ، فانسحب خاريس من الأراضى الفارسية على الفور بينما ارتفعت أصوات أنصار السلام تطالب الاثينيين بالتعقل وهجر فكرة محاربة المنشقين وكان يقود هؤلاء السياسى الأثينى يوبولوس Eupolos ، وتحت تأثير التهديد الفارسى والعجز المالى قبلت أثينا عقد سلام مع المنشقين واعترفت باستقلال خيوس وكوس ورودوس وبيزنطة وتوابعها وسرعان ما انسحبت جزيرة كوركورا وحذت موتيلينى وموثمنا حذوها وبذلك لم يتبق لأثينا من الحلف عام ٣٥٥ ق.م سوى مدن جزيرة يوبويا وبعض الجزر الصغيرة المتناثرة فى بحر ايجه وساحل تراكيا حيث كانت عيون فيليب المقدونى الطامعة مركزه .

انتهز فيليب انشغال أثينا فى الصراع مع حليفاتها وراح يتوسع شمالا فى تراكيا فقد استولى على مدينة بودنا Pydna وتحالف مع أولينثوس وطرد الأثينيين من بوتيدايا .

وفى عام ٣٥٦ وعندما حاول ملوك بايونيا والليريا وتراقيا التحالف مع أثينا سارع فيليب بسحق هؤلاء قبل أن تحرك أثينا أصبعا . وفى صيف عام ٣٥٥ قبلت أثينا أن تتحـالف مع مدينة نيابوليس Neapolis التى كان فيليب يهدد استقلالها وأرسلت خاريس اليها ولكن فيليب كان قد فتح جبهة أخرى .

ان رسالة ايسوقراطيس الشهيرة عن السلام التى أصدرها عام ٣٥٥ ق. م وبحث أكسينوفون الشهير عن الاقتصاد يقدمان لنا صورة صادقة عن وضع أثينا الحرج ولذا أيد الكاتبان دعوة يوبولوس الى السلام . ويتضح من هذين البحثين مدى تدهور الاقتصاد الأثينى نتيجة لاعتمادها على الجيوش المرتزقة ، ولم تكن مساهمة الحلف الضئيلة تكفى تكاليف العمليات العسكرية مما اضطر أثينا فى بعض الأحيان الى جمع المساهمة لعدة سنوات قادمة . كذلك فان عجز القيادة السياسية فى أثينا فى السيطرة على تحركات جنرالات الجيش خارج البلاد واهمالها لمصالح حلفائها حط من قدرها القيادى ومن ثم طالب ايسوقراط بهجر فكرة الامبراطورية مقابل السلام وتحسين الاقتصاد ولكن قدامى السياسيين رفضوا ذلك بشـدة .

تلى ذلك تقدم فيليب فى الشمال واستيلائه على ممتلكات أثينا على ساحل مقدونيا وتراقيا وأخذ يتقدم نحو شبه جزيرة القرم Chersonese بل وظهرت قواته فى عام ٣٥٦ قرب بحر مرمرة وازاء هذا أعلنت بيزنطة تحالفها مع فيليب ضد أثينا وحذى حذوها عدد آخر من المدن التابعـة لبيزنطة فى هذه المنطقة وكان أمر مريرا أن ترى أثينا حلفاءها السابقين يتحالفون مع فيليب ألد أعـدائها والذى عجزت عن الوقوف فى وجهه وآثرت التهرب من ملاقاته .

وفى عام ٣٤٩ ثارت مدن يوبويا على أثينا وانسحبت من التحالف وكانت ضربة قاسية ، ولما حاولت أثينا ارسال أسطولها لقمع هذه الثورة وتأييد أنصارها هناك حدث أمر خطير ، فقد ثارت أولينثوس ضد فيليب وطلبت العودة الى التحالف الاثينى وهنا تمزقت المسئولية الأثينية بين يوبويا وأولينثوس وكان النتيجة الفشل فى كلتيهما ، وسقطت أولينثوس فى يد فيليب عام ٣٤٨ (١) بالرغم من أن لاجئيها ظلوا يعترفون بوجود التحالف الأثينى لأنهم طالبوا السلطات الأثينية باعفائهم من ضريبة الحرفيين الأجانب metoikion وفى عام ٣٤١ ق.م استولى فيليب على مدينة أينوس Aenos آخر حلفاء أثينا فى تراكيا التى أصبحت كلية تحت سيطرة فيليب ، وكانت جزيرة تينيدوس Tenedos العضو الأوحد المستوفى لالتزاماته تجاه التحالف حتى عام ٣٢٩ ق.م ولكن نهاية التحالف الاسمية والفعلية جاءت بعد معركة خايرونيا Chaeronia ضد فيليب فى أغسطس عام ٣٣٨ ق.م وهزيمة أثينا وحلفائها (٢) . وكما يقول باوسانياس : « أن فيليب قد عقد اتفاقا مع الأثينيين من الناحية الاسمية أما من الناحية الفعلية فقد ألحق بهم خسارة بالغة ، لأنه انتزع منهم الجزر ، وعزلهم عن امبراطورية البحر » (٣) .

حقيقة لقد احتفظت أثينا بممتلكاتها القديمة وهى جزر سلاميس ، وديلوس وساموس ولمنوس وامبروس ولكن ذلك لم يكن عن طريق التحالف لأن الأثينيين اعترفوا رسميا بانتهائه .

هكذا مات التحالف لأنه فقد الغرض الذى من أجله قام ولم يعد هناك سببا لبقائه ووجوده .

---

(١) للمزيد انظر :

J.M. Carter : "Athens, Euboea, and Olynthus, Historia, XX, 1971., p 41 8-429.

وقد عارض ديموسثنيس فى خطبته Peri Eirenes «عن السلام» فكرة التدخل لقمع الثورة فى يوبويا بينما لم يشر الى الثورة فى خطبته الاولنثية ولهذا يتهم المؤلف ديموسثنيس باخفاء الحقيقة عن الأثينيين .

(2) O.W. Rheinmuth," The Spirit of Athens after Chaeronea., Acta of the 5 th epig. Congress, 1967, Oxford 1970, p. 47—51.

(3) Pausanias, I, 25, 3.

الفصل الخامس عشر

محاولة طيبة الفاشلة لبناء امبراطورية

وفرض الزعامة على الدويلات الاغريقية (٣٧١ - ٣٦٤ ق.م)

جدير بنا - قبل أن نسترسل فى الحديث عن الدور القصير والمذهل حقا - الذى قامت به طيبة على مسرح الأحداث الاغريقيــة ، أن نعطى نبذة توضيحية عنها وأن نلقى نظرة على خلفيتها التاريخية قبل أن تصبح امبراطورية وذلك غداة هزيمتها القاضية لاسبرطة هزيمة سلبت الأخيرة ديناميكيتها العسكرية والسياسية وأرغمتها على تغيير مسارها التاريخى ووضعتها على أول طريق الانهيار والغروب .

تقع طيبة Thebes (وهو نفس الاسم الذى أطلقه الاغريق على الأقصر) (١) على الحافة الجنوبية للسهل الشرقى لاقليم بيوتيا الجبلى الوعر . وقد أرادت الطبيعة والتاريخ لهذه المدينة أن تكون القلب النابض لهذا الاقليم - كما كانت أثينا بالنسبة لأتيكا - فهى مدينة قديمة واحدى منارات الحضارة الموكينية فى بلاد الاغريق الوسطى ولهذا لم يكن اسمها غريبا على الاغريق اذ خرجت منها أساطير وروايات نالت اعجاب الاغريق واستولت على غريزتهم الدرامية وشغلت فكر شعرائهم المسرحيــين وفلاسفتهم الأخلاقيين . فأساطيرها تلى فى الأهمية حـروب طروادة خاصــة فيما

---

(١) ذكرت الأساطير الاغريقية أن مؤسس طيبة هو قدموس Cadmus ابن ملك صور الذى حط رحاله فى بيوتيا وبنى قلعة كادميا (التى سميت على اسمه) وجلب حروف الكتابة من فينيقيا (انظر ص ١٢٨) ومن المؤكد أن لفظ Thebai اسم اغريقى الأصل وليس مصريا ، اما عن تسمية العاصمة الفرعونية (الأقصر) بهذا الاسم فانه ليس الا من قبيل محاولات الاغريق الدائمة لمساواة الأسماء المصرية للاشخاص او المدن او الآلهة بالفاظ معادلة او مشابهة لها من الواقع الحضارى الاغريقى ، والدليل على ذلك ان الاقصر كانت تعرف لدى المصريين باسم واحد هو واسط اى الصولجان رمز الحكم ولم تعرف ابدا باسم طيبة الا فى النصوص الاغريقية والرومانية . اما العرب فقد اطلقوا عليها اسم الاقصر - جمع قصور - لانهم ظنوا معابدها قصورا .

يتعلق باللعنة التى تلاحق البطل أينما كان كما نرى فى أسطورة أوديب الملك (١) .

لقد أدركت طيبة أن دورها يحتم عليها فرض زعامتها على منطقة بيوتيا ولهذا حاولت جاهدة توحيد ذلك الاقليم منذ أيام الحروب الطروادية وتعرضت من أجل ذلك الى غزو عدوانى من مدينة أرجوس ولكن طيبة فشلت فى ما نجحت فيه أثينا وهو توحيد الاقليم فكريا وسياسيا وقوميا ، وصهر العوائق القبلية والمحلية فى بوتقة الوطن المتحد . والحق يقال أن الاثينيين لم يتمنوا لجارتهم فى الشمال النجاح فى هذا ، بل وقفوا منها موقف المعارضة حتى لا يرون جارة قوية تهدد طموحهم ومصالحهم ، أضف الى ذلك فقد كان هناك سببا دائما للصراع بينهما وهو مدينة بلاتيا Plataea الواقعة على الحدود بينهما لأن سكان هذه المدينة كانوا من المستوطنين الأثينيين الذين كانوا دائمى التعرض للعدوان من جانب طيبة ، ولأن هذه المدينة كانت بمثابة رأس حربة لأثينا لضرب طيبة وقد بدأ الشقاق بين طيبة وأثينا يتخذ شكلا فعالا منذ عام ٥١٩ ق.م وبالفعل لم يسترح فؤاد طيبة الا بعد تدمير بلاتيا تدميراً شاملا عام ٣٧٣ ق.م خرجت بعدها هذه المدينة الصغيرة نهائيا من التاريخ الاغريقى بالرغم من المحاولات التى جاءت فيما بعد على يد فيليب المقدونى عام ٣٣٨ ق.م لاعادة استيطانها ومحاولات الاسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق.م لاعادة بناء حوائطها ومبانيها .

ولقد دفع هذا الخلاف طيبة الى اتخاذ موقف غريب من أثينا ابان الحروب الفارسية اذ تعاونت طيبة مع الفرس ابان حملتهم الثانية ٤٨٠/٤٧٩ ق.م مما جر عليها استنكار المدن الاغريقية عامة ومدن اقليم بيوتيا خاصة، ونتيجة لذلك فقد فقدت زعامتها الا أنها تمكنت من استعادتها مرة أخرى عام ٤٤٦ ق.م .

وابان الحروب البيلوبونيسية انتهزت طيبة انشغال القوى العظمى فى بلاد اليونان وراحت تتوسع على حساب جيرانها حتى أصبحت تسيطر سيطرة تامة على نصف اقليم بيوتيا وأصبحت بذلك تنتخب أربعة

(1) Cf. W. R. Roberts, The Ancient Boeotians London 1895, passim.

من أعضاء مجلس الأحد عشر رئيسا Boeotarchoi وهو المجلس الأعلى الذى كان يحكم هذا الاقليم • بل أنها انضمت الى جانب اسبرطة ضد أثينا فى الحروب البيلوبونيسية وكانت من بين الأعضاء المتشـــددين فى شروط النصر وبلغ بها التشدد بأن طالبت بازالة أثينـــا من الوجـــود ، ولكن أسبرطة بالرغم من تحالفها مع طيبة — لم تكن تستريح لنواياهـــا فحرمتها من ثمار النصر ، فما كان من طيبة الا أنها هجـــرت اســـبرطة وأبدت تعاطفها مع أثينا وذلك بمساعدة الديموقراطيين الاثينيـــين فى استعادة حكمهم بعد سقوطه • وتلى ذلك تحالفها مع أثينا واشتركت معها فى اثارة حلفاء اسبرطة وذلك بالتعاون مع عدوة اسبرطة القديمة أرجوس ونجحوا فى إشعال الحـــرب بين اســـبرطة وحلفـــائها داخـــل البيلوبونيسوس فيما يعرف بالحروب الكورنثية •

ولما نجحت الدبلوماسية الاسبرطية فى الحصول على شروط صلح

سنى عام ٣٨٢ ق•م كان ذلك يعنى سلب طيبة مكاسبها التى قضت أربعين عاما فى تحقيقها مما دعى طيبة الى اعلان استياءها من هذا الصلح كما أدى الى استيلاء اسبرطة الخاطف على قلعة كادميـــا عـــام ٣٨٢ ق•م وتعاون أثينا مع طيبة لطرد الحامية الاسبرطيـــة من القلعـــة بقيادة ابامينونداس وبيلوبيداس عام ٣٧٨ ق•م ، هـــذان الزعيمـــان اللذان أوجدا نواة مدرسة عسكرية فعالة فى طيبة اســـتطاعت أن تضم جزءاً كبيراً من بيوتيا وأرهقت الجيش الاسبرطى ثم أجهـــزت عليه فى ليوكترا عام ٣٧٢ ق•م •

وعادة يلى الصراع الاجتماعى الصراع السياسى • فقد كانت الفلسفة التى قام عليها الاتحاد البيوتى تحت قيـــادة طيبـــة تعتمد على الفـــكرة الأوليجارخية • ولهذا فحلف بيوتيا حلف أوليجارخى من أساسه ، حيث كان حق الجنسية فيه يقوم على شرط الامتلاك قبل شرط الخـــدمة فى الجيش كجندى مشاه hoplites • وعلى رأس المدن التى كانت أعضاء فى حلف بيوتيا ، تأتى أورخومينوس Orchomenos وثسبياى Thespeiae وتاناجرا Tanagra وكانت الأخيرة مركزاً هاما للفنون خاصة صناعـــة التماثيل الصغيرة من الطين المحروق Terra-Cotta مثل التى نراها

فى المتحف اليونانى الرومانى بالاسكندرية والتى أصبحت تعرف باسم تماثيل تاناجرا Tanagra Figurines .

وكان لكل مدينة مجلس شورى Boule يضم ربع المواطنين تقريبا ومجلس شعبى ekklesia يضم باقى المواطنين . أما الحلف البيوتى فكان ينقسم الى أحد عشر جزءاً تحكمت طيبة مباشرة فى أربع منها ، وكان كل جزء ينتخب رئيساً Boeotarchos يمثله فى مجلس الاتحاد المكون من أحد عشر عضواً . كما كان كل جزء يرشح عدداً من قضاته للعمل فى المحاكم الاتحادية ويساهم بقدر معين فى خزانة الاتحاد وكذلك بما لا يقل عن ألف جندى مشاة hoplites ومائة فارس فى القوات الاتحادية . هذا بالاضافة الى حق الاتحاد فى تجنيد كل من بلغ سن الجندية فى حالة الضرورة وكان قرار مجلس الاتحاد نهائيا وحاسما لأنه كان يمثل السلطة الأعلى فى البلاد ولهذا نجحت طيبة فى تكوين حكومة اتحادية على أساس تمثيلى ودستورى عادل . ويرجع تاريخ قيام هذا الاتحاد الى عام ٤٤٧ ق.م (١) ولهذا كان من الطبيعى أن تقاوم طيبة قرار سلام الملك الفارسى لأنه كان يعنى فقدانها رأس مالها السياسى أعنى هذا الاتحاد .

ولما عاد ابامينونداس الى طيبة وأسقط الحكومة الأوليجارخية العميلة التى تآمرت مع اسبرطة لاحتلال قلعة كادميا استبدل الأساس الأوليجارخى الذى كان يقوم عليه الاتحاد بالأساس الديموقراطى ممثلا فى مجلس اتحادى يعقد فى طيبة على أساس تمثيلى ودستورى ولكنه زاد من دور طيبة فيه .

هذه هى طيبة التى أصبحت بعد معركة ليوكترا أقوى دويلة على مسرح الأحداث ولنتساءل الآن ما هو الدور الذى لعبته طيبة بعد معركة ليوكترا .

---

(1) cf. E. A. Freeman, History of Federal Goverment, vol. 2, (History of Fedral Government in Greece and Italy (Edited by J. B. Bury) London 1893 p.

تفكيك الدولة الإسبرطية داخل البيلوبونيسوس :

كانت هزيمة اسبرطة فى ليوكترا مريرة ، اذ فقد الجيش الاسبرطى سمعته التقليدية بهزيمته على يد جيش أقل منه عدداً فضلا عن سقوط الملك كليومبروتوس فى المعركة وهو أول ملك اسبرطى يسقط فى حرب منذ أن سقط الملك ليونيداس أثناء الحروب الفارسيـة ولم تتوقف خسارة اسبرطة عند هذا الحـد بل أن ما تلى ذلك كان أعـظم ، لقد كانت هزيمة ليوكترا بمثابة اشـارة بدء الثورة على اسـبرطة داخـل البيلوبونيسوس اذ انتشرت حركات التمرد والحروب الاجتماعية (Stasis) بسرعة مذهلة وقاد الثورة الأحزاب الديموقراطية وأخذ المنفيون يتدفقون على مدنهم وسالت الدماء غزيرة فى شوارع مدن البيلوبونيسوس ، وانتزعت الحكومات الأوليجارخية من جذورها من كل المدن فيما عدا كورنثـا فلايوس Phlius وسيكيون Sicyon حيث كانت جـذور ـرخية أعمق من أن تقتلع ،وكان عنف الثورة الاجتماعية (Stasis) ـرج حلف اسبرطة أقوى بكثير من داخـله فمثـلا أدت الثورة فى أرجوس الى مذبحة رهيبة كان ضحاياها ألفاً من أغنياء المواطنين .

استقلال اقليم اركاديا :

أما الضربة الكبرى فقد كانت استقلال جـزء حيـوى من الدولة الاسبرطية وهو اقليم أركاديا Arcadia ، ذلك الاقليم الجبـلى الذى يتوسط البيلوبونيسوس والذى تتخلله الأنهار الجميلة مثل نهر الفايوس الشهير Alphaeus وروافده المتعددة . ولكن هذا الاقليم لا يخلو من المناطق الغنية ذات الوديان التى ترويها الأنهار مثل المنطقة الشرقيـة من سهل أركاديا حيث قامت المدن الجميلة التى تطل على السهل من ارتفاع قدره ألفين قدم ومن هذه المدن أورخومينوس الشهيرة Orchomenos (غير المدينة التى تحمل نفس الاسم فى بيوتيا) وماتيينيـا Mantinea وتيجيا Tegea ، واذا تقدمنا غربا الى وسط السهل نجد مدينة هيرايا Heraea التى عرفت بأنها أول من سك النقود فى هذه المنطقـة . أما فيما عدا ذلك فهى مناطق جبلية وعرة تحصر بينها سهول ضيقة لاتسمح بقيام المدن الكبرى بل قامت فيها قرى الرعاة المتناثرة والمنعزلة ، وهكذا

جعلت الجغرافيا اقليم أركاديا اقليما ذا قيمة ضئيلة من الناحية السياسية والاجتماعية والحضارية وأشبه بمنطقة منسية . وبالرغم من هذا كانت أركاديا منطقة هامة وغنية بالقوى البشرية العاملة خاصة لتجنيد الجيوش المرتزقة اذ نسمع عن الجنود المرتزقة الأركاديين منذ وقت مبكر .

ولما بدأت اسبرطة تتوسع من مدينة صغيرة الى دويلة لها اطار زراعي وذلك منذ منتصف القرن السادس ق.م ضمت اليها هذا الاقليم الكثيف السكان والوعر التضاريس وقد كلف ذلك اسبرطة كثيراً لأنه كان دائم الثورة عليها .

ويعتقد علماء الحضارة أن أصل الأركاديين يرجع الى سكان بلاد الاغريق ما قبل الغزو الدوري خاصة وأن لهجتهم اليونانية قريبة الشبه من لهجة أهل قبرص حيث تخلفت الحضارة الموكينية زدحا من الزمن بعد انهيارها . أما فيما عدا ذلك فالاقليم رعوى وقد ظهر ذلك فى تراثه الفكرى البسيط خاصة فى الدين الذى أولى عناية فائقة للاله الغريب « بان » Pan رب الرعاة . ومعظم أساطيرهم وأغانيهم تدور حول الرعاة حتى فنونهم البسيطة لا تمثل سوى الرعاة وحياتهم ؛ ولم تخلو هذه البساطة والسذاجة من البربرية البدائية اذ مارسوا تقديم الأضاحى من البشر (human Sacrifice) واستمروا فى ذلك حتى أيام أفلاطون ؛ بل اعتبروا مذاق لحم البشر ضربا من ضروب الشجاعة والاقدام تمثلا بالذئاب ومن الأقوال المأثورة الطريفة أن أهل أركاديا وجدوا فى بلادهم منذ أن وجد القمر .

استغل ابامينونداس وجود احساس قومى فى أهل اقليم أركاديا وراح يشجعهم على الاستقلال وتكوين دويلة معادية لاسبرطة بمثابة الحربة التى تحدد تحركها ، وقد ظهر هذا الاتجاه بعد اعادة أهل ماتتينيا توحيد قراهم فى مدينة محصنة وظهور قائدها لوكوميديس Lycomedes ذو الأحلام السياسية التى لم تقف عند هذا الحد بل تمدتها الى رؤية

دولة أركادية تجمع شتات مدن الاقليم فى اتحاد فيدرالى قوى • وسرعان ما وجدت فكرته أنصاراً لها داخل مدن وقرى الاقليم فيما عدا أورخومينوس وتيجيا وهيرايا التى آثرت أن تبتعد عن هذه الزوابع السياسية وأن تظل موالية لزعيمتهم القديمة اسبرطة •

أدرك السياسى الذكى ابامينونداس أن هذا الحلف سوف يكون مهدداً بالتفكك نظراً للصراعات القبلية والاقليمية شأنه شأن أى مجتمع بدائى التفكير ورأى أنه من الخير اقامة مدينة جديدة لاتقع فى حوزة أى من الأعضاء وتكون عاصمة لهذا الإتحاد ووقع اختياره على منطقة فى سهل أركاديا الغربى قرب جبل لوكايون Lycaeon وعلى الحدود الشمالية الغربية لسهل لاكونيا وأقام فى عام ٣٧٠ ق•م أسوار مدينة كبيرة أسماها بالمدينة الكبيرة Megalopolis (١) ثم أغرى سكان القرى القريبة بالهجرة اليها • ويقول باوسانياس أن أربعين قرية هاجرت اليها وسكنتها وأصبحت المدينة عام ٣٦٢ ق•م مركزا حيويا لأركاديا يطل على نهرى يوروتاس وألفايوس وحصنا متقدما لمدينة تيجيا • ومركز أعصاب بالنسبة لطرق البيلوبونيسوس وممراته، بل كما يتضح من اسمها أنها إنشأت من أجل أن تصبح عاصمة البيلوبونيسوس كله وكان المسئول عن تأسيسها هم الأركاديون المتطرفون وليس ابامينونداس ولهذا عارضت كثير من مدن البيلوبونيسوس الانصياع لرغبة هذه المدينة فى فرض نفوذها عليهم •

ولكن هذه المدينة الجميلة لم تعمر طويلا فقد كتب باوسانياس الذى زارها فى القرن الثانى الميلادى يقول « أن مدينة ميجالوبوليس التى بناها الأركاديون بحماس شديد (٢) وكانت محط الآمال الكبرى للاغريق ، تبدو لى وكأنها أطلال مهجورة » •

---

(١) عن تأسيس هذه المدينة انظر :

H. Braunent and J. Peterson : Mègalopōlis : Anspruch und wirkilichkeit, Chiron, II, 1972, p. 57-90.

2. J. Roy, Arcadian nationality as seen in Xenophon's Anabasis, Menemosyne, Serie 4, 1972, p. 129—136.

وقد كشف علماء الآثار حديثا جانباً من أهم منشآت هذه المدينة وهو مسرح كبير وقاعة الاجتماعات الفيدرالية Thersilion المغلقة والمقامة على أعمدة جميلة . وهى تتسع لعشرة آلاف شخص . اذ كان من حق أى مواطن فى اقليم الاتحاد أن يحضر اجتماعات هذا المجلس الشعبى الاتحادى والذى كان بمثابة السلطة العليا لتصريف شئون الاتحاد . وكان هذا المجلس يقوم بانتخاب قائد الجيش الاتحادى Strategos بالاضافة الى خمسين مسئول demiourgoi يصرفون النواحى المختلفة للاتحاد . وليس هناك أى دليل على وجود مجلس شيوخ Boule . كما كان للاتحاد الأركادى قوات مشاه eparitai أو eparitoi موضوعة تحت تصرف الحكومة الفيدرالية وينفق عليها من الخزانة الفيدرالية أيضاً . وقد ظهرت فاعلية هذه القوات عام ٣٨٦ ق.م . عندما أجبرت هيرايا وأورخومينوس على الانضمام الى التحالف الأركادى والذى أصبح بعد هذا التاريخ فعلا اتحادا أركاديا شاملا بالرغم من عزوف تيجيا عن الانضمام اليه .

اركاديا تتحرش باسبرطة وطيبة تتدخل :

لقد صدقت توقعات ابامينونداس . فقد قام الصراع بين أركاديا المتحدة واسبرطة وذلك بعد أن أثارت الأولى الفتن ضد أنصار الثانية فى مدينة تيجيا وأجبرتهم على الفرار الى لاكونيا . عندئذ أدركت اسبرطة أن الوعاء قد فاض بما فيه فتحركت للتدخل لصالح أتباعها ، فسار الملك أجيسلاؤس على رأس جيش ضد الحلف الأركادى ، ووجد الحلف مساعدة من أرجوس وايليس عدوتا اسبرطة ثم طلبوا المساعدة من أثينا ولكنها آثرت ألا تتدخل فى هذه المشكلة . عندئذ أرسل أهل أركاديا فى طلب العون العسكرى من طيبة ولم تتوانى طيبة اذ تحرك جيش منها بقيادة أبامينونداس فى شتاء عام ٣٧٠ ق.م الى أركاديا ولما وصل وجد الملك الاسبرطى قد رحل دون أن يحقق أى شىء من حملته . ولما هم ابامينونداس بالعودة تمسك به أهل أركاديا وأرجوس وايليس ورجوه ألا يعود دون أن يؤدب هؤلاء الاسبرطيين . ودار فى خيال ابامينونداس حلم تاريخى وهو غزو المدينة التى لم تعرف غازيا وطأ

أرضها ، ولذا كانت من المدن النادرة فى بلاد اليـونان التى لم تقـم الأسوار حولها . وتذكر ابامينونداس أن جيوش اسبرطة قد غزت بلاده أكثر من مرة فلما لا يغزوها ؟

وتحرك جيش طيبة وحلفائها فى تشكيل رباعى ، انقسم كل ربع منه ليهاجم المدينة من اتجاه مختلف ، ولم يجد الجيش فى تقدمه أى مقاومة تذكر . وحرقت مدينة سيلاسيا الجميلة Sellasia ، ثم تجمع الجيش مرة أخـرى استعـداداً للهبوط على وادى نهر يوروتاس حيث قوات اسبرطة تقف على الجانب الآخر للنهر الذى كان ممتلئاً بمياه أمطـار الشتاء مما أعاق عبور جيش طيبة ــ خاصة أن الجسر الوحيـد الذى كان يربط بين ضفتى النهر كان تحت حراسة شديدة فسار أبامينونداس جنوبا حتى مدينة أموكلاى Amyclae حيث يمكن العبور بسبب غور النهر البسيط فى هذه المنطقة ، ولما طيرت أنباء هذا الغزو الغريب ارتعدت اسبرطة خوفا وطلب الملك أجيسلاؤس النجدة ممن بقوا ولائهم من توابع اسبرطة مثل كورنثا وفلايوس وسيكيون من مدن خليج كورنثا ومثـل مدن أورخومينوس وهيرايا فى أركاديا ومدن سهل أرجوليس ، وبدت اسبرطة مدججة بالسلاح وبالرجال المصممين على الموت قبـل أن يروا مدينتهم تسقط . وكان نهـر يوروتاس ازداد فيضـاناً عنـدئذ أدرك أبامينونداس أن احتلال اسبرطة أمر صعب فآثر أن يخرب سهل لاكونيا واكتفى بأن أشبع خياله بالمرور بجيوشه أمام المدينة المرتعـدة . وهو أمر لم يفعله أحد من قبل .

حقيقة أن اسبرطة لم تسقط ولكن ظهورها فى مثل هذا الخوف كان بداية لضربة سياسية أخرى . فقد ثار الهيلوت والمجاورون Perioeci من أهل مسينيا وأدرك أبامينونداس أنه يستطيع أن يكيل ضربة بفصل مسينيا عن اسبرطة وذلك بعد أن كافأ الأركاديين بمنحهم جـزاء من شمال لاكونيا اقتطعه من اسبرطة .

استقلال ميسينيا :

وأخيراً بعد أربعة قرون من العبودية ، تحرر أهل ميسينيا على يد ابامينونداس ، ذلك الاقليم الحزين الذى يقع فى الجنوب الغربى من شبه جزيرة البيلوبونيسوس حيث يحده شمالا منطقة ايليس وشرقا سهل لاكونيا ، وهى منطقة جبلية وعرة مثل جارتها أركاديا يتخللها بعض الأنهار خاصة نهر نيدا Neda ، ولكنها كانت أكثر عراقة وحضارة من أركاديا ، فقد أثبتت الحفائر الأثرية أنها كانت مركزاً حيوياً من مراكز الحضارة الموكينية، بل أنها لعبت دوراً فى حروب طروادة ومنها كان نستور الوقور (Nestor) خطيب الحروب الطروادية ، كان مصير ميسينيا مثل مصير باقى مدن الحضارة الموكينية اذ غزتها جحافل الدوريين فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، ولما بدأت المدينة الدورية اسبرطة تنمو وتتسع ضمت اقليم ميسينيا لها واعتبرت أهلها مستعبدين وأنصاف مستعبدين Peroeci ، وقاوم أهل ميسينيا اسبرطة فى حربين مريرتين ابان القرن الثامن والسابع قبل الميلاد ، فقدوا بعدها أرضهم وحريتهم وأصبحوا عبيداً للسادة الاسبرطيين ، ولكنهم لم يستسلموا أبدا بل ظلت الثورة حية وان كانت تحت الرماد ، وكانت قلعتهم فى الثورة هو جبل ايثومى Ithome التى منها أعلنوا ثورتهم الكبرى عام ٤٦٤ ق٠م حيث قاوموا اسبرطة طويلا حتى استسلموا ، وفر الثوار طالبين الحماية من أثينا فوطنتهم فى مدينة ناوباكتوس عام ٤٥٥ ، وقد ساعد أهل ميسينيا أثينا عندما احتلت قوة من رجالها مدينة بيلوس فى البيلوبونيسوس بعد انتصارهم على الاسبرطيين فى سفاكتيرا Sphacteira عام ٤٢٥ ق٠م وحاولت أثينا تأليبهم على اسبرطة آنذاك ولكنها لم تفكر فى منحهم استقلالهم ، وخلاصة القول أن ميسينيا كانت دائما « كعب أخيليس » [1] بالنسبة لاسبرطة ،

---

(١) اى نقطة الضعف ،

استقبل أهل ميسينيا أبامينونداس بالتهليل فقد كان جيش تحرير بالنسبة لهم . ووضع القائد الاسبرطى بنفسه حجر الأساس لعاصمتهم المستقلة التى أسموها مسيينى Messene ما بين عام ٣٧٠ و٣٦٩ ق٠م وخرج نداء الى اللاجئين من أبناء الأقاليم يطالبهم بالعودة الى الوطن المستقل بعد غربة التشريد وعلى نغمات الزمامير راحوا يبنون أسوار مدينتهم . وأصبحت قلعة جبل Ithome قلب المدينة تحيط بها الأسوار هبوطاً من الجبل الى الوديان . وبذلك تلقت اسبرطة ضربة قاضية أخرى فقد أصبح الهيلوت والمجاورين أحراراً فى بلادهم وفقدت اسبرطة غرب لاكونيا كله . ولا تزال أطلال هذه المدينة بتحصيناتها وأبراجها وقلاعها قائمة حتى اليوم تشهد بقدرة الهندسة العسكرية الاغريقية .

اثينا تتدخل دون جدوى :

أثرت هذه الأحداث كثيراً فى المواطنين الاثينيين ، ولما طلبت اسبرطة منهم العون فى شتاء عام ٣٦٩ صوت المجلس الشعبى بالموافقة على ارسال حملة بقيادة ايفكراتيس ولكنه عندما وصل وجد « أن السيف قد سبق العزل » فلم يفعل شيئاً . خاصة أن جيش ابامينونداس كان قد غادر ميسينيا وبالتالى فلا خطر يهدد اسبرطة ، فأرضاها بالقيام ببعض الالتحامات الموجودة مع جيش طيبة عندما لحق به قرب خليج كورنثا . ولكنه لم يطارد ابامينونداس ليجبره على العودة الى طيبة ، وبعد ذلك بشهرين عقد تحالفا مع اسبرطة وبهذا التحالف تعقد الموقف السياسى فى البيلوبونيسوس . فقد أصبح الأثينيون فى حالة حرب مع طيبة وحلفاء فى نفس الوقت لأعداء دويلة أركاديا أى حلفاء لمدينة اسبرطة .

ابامينونداس يغزو البيلوبونيسوس للمرة الثانية :

ولم يكد يمض وقت قصير حتى دب الصراع بين المدن الموالية لاسبرطة وبين الحلف الأركادى مما دعى ابامينونداس الى الظهور بجيشه مرة أخرى فى هذه المنطقة من البيلوبونيز فى صيف عام ٣٦٩ ق٠م وكان عليه فى هذه المرة أن يواجه قوات أثينا واسبرطة مجتمعة واستطاع بالفعل أن يخترق صفوف هذين الجيشين عندما حاولا اعتراضه عند

خليج كورنثا وتمكن من أن يحتل سيكيون وبللينى ولكنه فشل فى احتلال فلايوس • وفى هذه الأثناء وصلت عشرين سفينة تحمل ألفين من الجنود المرتزقة بعث بهم ديونيسيوس طاغية سيراكوزة لمساعدة اسبرطة مما اضطر ابامينونداس الى العودة الى طيبة قبل أن ينهى الغرض الأساسى لحملته •

ولما عاد الى طيبة هاجمه أعداؤه السياسيون وقدم للمحاكمة ولولا تدخل أصدقائه لصدر حكم ضده ولذا حرم من الترشيح لمنصب الزعيم Boeotarch لعام ٣٦٨ وفى هذا العام شغلت اسبرطة اهتمامها بأحداث تساليا ومقدونيا وتركت البيلوبونيسوس الذى ظل على حالة الفوضى والصراع السياسى • ففى صيف عام ٣٦٨ ق•م ألحقت اسبرطة بمساعدة قوات ديونيسيوس الأول هزيمة ساحقة بأركاديا وهبت الثورة الاجتماعية فى سيكيون وظلت مشتعلة لسنوات عديدة والمدينة تتأرجح بين الأوليجارخية والدكتاتورية والديموقراطية •

اثينا واسبرطة واعداء طيبة يطالبون بفرض سلام الملك (٣٦٧ ق•م) :

ازدادت صلات التعاون بين سيراكوزه واسبرطة وتمكنت الأخيرة من تحقيق بعض الانتصارات البسيطة على الحلف الأركادى بفضل المساعدات العسكرية من جانب الأولى خاصة فيما بين ٣٦٩ ق•م « وبدأ اسم ديونيسيوس الأول طاغية سيراكوزه يتردد فى العالم الاغريقى (١) ففى عام ٣٦٨ ق•م عقد هذا الطاغية معاهدة تحالف مع الاثينيين بصفتهم حلفاء لاسبرطة حليفته القديمة • وكان الاثينيون قد مهدوا لهذه المعاهدة بقرار تكريم للعاهل السيراكوزى منحوه فيه وأولاده حقوق المواطنة فى مدينتهم • بل أنه دعى الى مؤتمر عام للمدن الاغريقية عقد فى دلفى وكان

(1) G. Woodhead ; The «Adriatic Empire» of Dionysius I of Syracuse, Klio LII, 1970, P. 503—513.

ويتحدث المقال عن نشاط هذا الملك فى بناء امبراطورية فى بحر الادرياتيك تحل محل القوة الاغريقية فى بلاد الاغريق التى نضبت سياسيا واقتصاديا بسبب الحروب الطويلة •

الداعى الحقيقى لعقد هذا المؤتمر هو أريوبارزانيس Ariobarzanes ، ساتراب ولاية فريجيا وربما تم ذلك بوحى من الاثينيين بقصد تصفية الخلافات بين الدويلات الاغريقية والتى كانت تهدد باندلاع حروب فى كل مكان .

ولم تمانع الدويلات الاغريقية من الاشتراك فى هذا المؤتمر ولكنهم فى النهاية انفضوا دون أن يتفقوا ، فقد رفض طلب أثينا فى ضم امفيبوليس اليها Amphipolis ورفضت اسبرطة أن تعترف باستقلال ميسينيا بينما عارضت طيبة مطالب كل من اسبرطة وأثينا وطالبت بالاعتراف بالتغييرات التى أحدثتها فى العالم الاغريقى . وفى الشتاء التالى خرجت أصوات من أثينا واسبرطة تطالب بالعودة الى سلام الملك الفارسى ، وسارعت طيبة فأيدت هذا الاعلان وتبعها أرجوس وايليس والأركاديون،وسافرت وفود هذه الدويلات الى بلاط الشاهنشاه فى سوسا وأرسلت طيبة بيلوبيداس الذى سحر الملك الفارسى بمنطقه وحصل على الكثير مقابل تنازلات قليلة . وعاد يحمل صكا مكتوبا عليه خاتم ملك الملوك ويعترف بسيادة طيبة على الدولة البيوتية وبدولة ميسينيا المستقلة مقابل اهمال مطالبة الأركاديين بمدينة ايليس بل ضم اليها مدن تروفيليا التى كانت أركاديا قد استولت عليها مما أغضب الاركاديين وشعروا بأن حليفتهم طيبة قد غدرت بهم وباعتهم من أجل مصالحها الذاتية ، كذلك عاد المندوب الأثينى غاضبا فقد رفض الملك طلب أثينا فى ضم مدينة أمفيبوليس اليها . أما طيبة فقد عادت تلعب الدور الذى سبق لاسبرطة أن لعبته وهو رجل البوليس الذى يراقب تطبيق شروط الملك الفارسى ، عندئذ دعا ابامينونداس الى عقد مؤتمر كبير فى طيبة لتأكيد احترام شروط الملك على ضوء التغيرات الأخيرة ولكن هذه الدعوة لقيت الصمت من جانب الولايات الاغريقية لأن شروط الملك لم تعد تجلب السلام بل بذور الشقاق والخلاف وهددت باندلاع حروب جديدة بين الدويلات الاغريقية .

ابامينونداس يغزو البيلوبرنيسوس للمرة الثالثة :

عادت المسألة البيلوبونيزية الى الظهور بعد عودة ابامينونداس الى مسرح السياسة فى طيبة . فقد أعيد انتخابه لمنصب الزعيم عام ٣٦٧ ق.م وما أن تم ذلك حتى سار بجيشه الى البيلوبونيسوس بهدف ردع الحلف الاركادى الذى أعلن استياءه من التعديلات الأخيرة على اتفاق سلام الملك أرتاكسيركسيس . وعبر جيش طيبة مضيق خليج كورنثا بمساعدة حلفائه أهل أرجوس الذين أمنوا له الممرات الجنوبية لكورنثا . لقد فعلت أرجوس هذا بدافع حقدها على لوكوميديس رجل أركاديا الأول وبسرعة استولى ابامينونداس على منطقة آخايا وتحالف مع مدنها عن طريق اقامة حكومات أوليجارخية فيها . ولكن أعداء ابامينونداس أدانوا فكرة الاعتماد على الحكومات الأوليجارخية وعملوا على اصدار قرار يأمره باسقاط هذه الحكومات واحلال الديموقراطيين محلهم (١) . ونفذ أبامينونداس ذلك القرار على كره وكان بالفعل قراراً أرعنا لأنه أشعل نار الصراع الاجتماعى من جديد Stasis (٢) وكانت الأوليجارخية متأصلة فى هذه المناطق بفعل استعمار اسبرطة الطويل لها . ولهذا قاد الأوليجارخيون معارك عنيفة حتى استردوا الحكم فى آخيا وأعلنوا انهاء معاهدات الصداقة مع طيبة والعودة الى التحالف مع اسبرطة وكان ذلك ضربة خاسرة لطيبة خاصة بعد أن أعلنت بللينى Pellene انسحابها من حلف بيوتيا وكان الخطأ الثانى الذى ارتكبه ابامينونداس اثارته أثينا ضده وذلك عندما اقتطع مدينة أوروبوس Oropus منها وضمها الى طيبة وذلك فى ربيع عام ٣٦٦ ق.م .

اعداء طيبة يتحالفون فى جبهة واحدة :

ونتيجة لهذه التصرفات الخاطئة سافر لوكوميديس زعيم الحلف الاركادى الى أثينا وسعى لعقد تحالف مع الأثينيين ضد طيبة وقبل الأثينيون ذلك التحالف بقصد الرد على احتلال طيبة لمدينة أوروبوس .

(1) J. Wiseman" Epaminondas and Theban invasions, Klio, LI, 1969, p. 177-199.

(2) J. Roy, Arcadia and Boeotia in Peloponese affairs 370-362 B.C. XX, 1971, p. 569-599.

وبينما كان الزعيم الأركادى فى طريق عودته تربص به بعض من أعدائه وقتلوه وبذلك فقد الحلف الأركادى عقلا ذكيا وقيادة بارزة فى وقت كان أحوج فيه اليها . وبمقتضى هذا التحالف الاثينى الاركادى تعقد الموقف السياسى فى بلاد اليونان اذ أصبحت أثينا حليفة لعدوين متخاصمين فى نفس الوقت هما اسبرطة وأرجوس ولقد لام بعض المؤرخين الزعيم الاثينى كالستراتوس Callistratos لقبوله التحالف مع الحلف الاركادى ولكنه لم يكن يدرى أن زعيم الحلف الاركادى لوكوميديس سوف يلقى مصرعه غدراً وسوف ينهار الحلف بعد موته .

انسحاب كورنثا وتوابعها على ساحل ارجوليس واعلان حيادها :

ازدادت علاقة الحرب والسلام بين الدويلات الاغريقية تعقداً بعد استرداد أثينا لمدينة أوروبوس وادراكها لمدى خطورة ترك عنق الزجاجة الذى يربط مداخل البيلوبونيسوس مفتوحا للجيوش الطيبية تعبره متى تشاء لتدخل البيلوبونيسوس فحاولت القيام بمؤامرة تهدف الى احتلال كورنثا بقصد احكام السيطرة على مداخل البيلوبونيسوس ولكن المؤامرة اكتشفت وغضبت كورنثا وأعلنت تصالحها مع طيبة وحذى حذوها تابعتها مدينة فلايوس ومدن ساحل أرجوليس وأعلنوا اعترافهم باستقلال ميسينيا ولكنهم أعلنوا فى نفس الوقت حيادهم فى أى صراع يقوم مستقبلا بين طيبة وأعدائها وكان فى ذلك خسارة كبيرة لأثينا .

هكذا بدأ الجو السياسى مشحوناً فى الولايات الاغريقية وباتت الأمور معقدة والخلافات حبالى بحروب مختلفة فى كل مكان .

وعاد ابامينونداس الى بلده وهناك وجد مشاكل سياسية تبرز فى تساليا ومقدونيا شغلته وأصدقائه لأكثر من عامين مما ساعد على هدوء الأحوال فى البيلوبونيسوس أكثر من أى وقت مضى ، بالرغم من انفجار الصراع بين الحلف الأركادى ومدينة ايليس Elis فى الشمال الغربى من البيلوبونيسوس .

طيبة تتدخل فى مشاكل مع تراكيا ومقدونيا :

سبق لنا أن ذكرنا كيف أن ياسون طاغية فيراى لقى مصرعه ٣٧٠ ق٠م أثناء استعراض عسكرى وأن موته أثلج صدر طيبة التى كان تتطلع الى التوسع شمالا وضم دويلته لحلفها ، وكانت تنتظر الفرصة التى تتيح لها ذلك ٠ وجاءت الفرصة بعد أن انتهى الصراع على عرش فيراى وتولى ابن شقيق ياسون واسمه الاسكندر ، ولكن مدن تساليا الأخرى رفضت الاعتراف به حاكما شرعيا لاغتياله عمه ، وساعد فى ذلك الرفض اللاجئون من مدينة لاريســا الذى أعلنوا التمرد ودعوا ملك مقدونيا المجــاورة للتدخل لنصرتهم ٠ وكان يحكم مقدونيا آنذاك الملك الاسكندر الثانى وكان يطمع فى التوسع على حساب فيراى ٠ فــارع الى احتلال مدينة لاريسا وكرانون ودخلها دخول الغازى فاستاء أهلها وأدركوا أن ظنهم فى الاسكندر الثانى قد خاب فاتجهوا الى طيبة لانقاذهم من الدويلتين معا ٠ وكان فرصة لطيبة فسارع بيلوبيداس فى عام ٣٦٦ ق٠م وطــرد المقدونيين من لاريسا وحرر عدة مدن فى تساليا وجعلها تحت حمــاية طيبة اسما ومستقلة فعلا ٠

ولما عاد الاسكندر الثانى الى مقدونيا وجد مؤامرة فى القصر ٠ فقد تآمرت أمه يوروديكى تلك الملكة الشاذة عليه فى غيابه مع عشيق لهــا من النبلاء ويدعى بطليموس الألورى Ptolemy of Alorus وأعلنت أن بطليموس العشيق هو المستحق للعرش ٠ ونشب صراع مرير بين أنصار الاسكندر الثانى وبين العشيق المدعى للعرش وطالبا طيبة عام ٣٦٨ ق٠م٠ بالتدخل والتحكيم بينهما ٠ وأيدت طيبة الاسكندر وعقد بيلوبيداس معه معاهدة صداقة وغادر مقدونيا عائداً ولكن لم تمض بضع شهور حتى اغتيل الاسكندر الثانى ونشب الصراع حول أنصار الملك القتيل والعشيق المطالب بالعرش وحــاولت الملكة الأم يوريديكى أن تضمن العــرش لولديها فيليب الخامس وبرديكاس أبناءها من زوجها الملك أمونتاس٠ ولكن الأميرين كانا قاصرين ولذا سارعت بالزواج من العشيق وعينته وصياً على الأميرين ٠ ولكن سرعــان ماظهر مطــالب جــديد بالعرش اسمه

باوسانياس أدعى أن له صلة قرابة بالملك القتيل . ولكن الملكة الأم حاولت القضاء عليه بكل وسيلة . فاتجهت الى أثينا تطلب المساعدة من أجل تحقيق ذلك . ووجد الأثينيون فى ذلك فرصة لتدعيم مركزهم فى شمال بلاد اليونان خاصة منطقة خالكيديكي وبالفعل قامت حملة بزعامة ايفكراتيس حققت للملكة غرضها . وأثار هذا التصرف من جانب الملكة غضب طيبة لأنها لم تكن تود أن ترى الأسطول الاثينى يظهر فى مناطق نفوذها فسارع بيلوبيداس الى مقدونيا فى حملة ثانية على ٣٦٨ حيث أرغم الملكة وعشيقها بطليموس على الدخول فى تحالف مع طيبة ولضمان سياسة الملكة مستقبلا حمل معه عدداً من الرهائن من علية القوم فى مقدونيا ومن بين هؤلاء الرهائن كان فيليب الخامس نجل الملكة من الملك أمونتاس ، وفى طيبة زاح الأمير الذى أراد له القدر أن يكون صانع مقدونيا الجديدة ، يتلقى تعليمه فى الأكاديمية العسكرية تحت رعاية واشراف ابامينونداس نفسه .

وفى أثناء عودة بيلوبيداس من مقدونيا عرج الى تساليا حيث حل مشاكل مدينة لاريسا وغيرها من مدن تساليا ومنحها الاستقلال الذاتى وأقام بينها شبه حلف اتحادى تحت حماية طيبة ، ثم حاول فى عام ٣٦٨ أن يضم مدينة فارسالوس Pharsalus ولكن الاسكندر ملك فيراى خرج عليه بجيش رهيب جعله يسرع اليه طالباً السلام . وكان الاسكندر ملك فيراى قد عقد معاهدة دفاعية مع الاثينيين ردا على معاهدة الصداقة بين طيبة ومقدونيا . وفى أثناء مأدبة أقامها الاسكندر للقائد بيلوبيداس ومساعده الثانى ابسيميناس قبض عليهما وأسرهما ولم تستطيع طيبة أن تنقذ جنرالها الشهير الا فى الخريف التالى بفضل بفضل أبامينونداس الذى أنقذ الجيش من ورطة كاد أن يقع فيها وأمن انسحابهم الى مناطق آمنة . وعقد معاهدة مع ملك فيراى اعترف فيها بسيطرة الملك على أجزاء كبيرة فى جنوب وشرق تساليا مقابل اطلاق سراح بيلوبيداس واسميناس .

هكذا يبدو أن نجاح سياسة بيوتيا فى شمال بلاد اليونان كان محدوداً . بسبب بهاظة تكاليف الحملات العسكرية التى بدأت تثقل ظهر طيبة فلم تكن بيوتيا بالمنطقة الغنية بمصادرها الطبيعية ولاكان لها حلفاء أثرياء ولذا آثرت طيبة أن تترك حلفاءها فى الشمال متصارعين مفككين حتى لا تصبح تساليا متحدة فى دولة واحدة تهددها يوما ما .

ثم شغلت طيبة نفسها بالمفاوضات مع الفرس وبالتدخل فى البيلوبونيسوس لسنوات عديدة قادمة مما شجع الاسكندر ملك فيراى « ذلك اللص الظالم للبر والبحر » أن يتوسع لكى يصبح سيد الشمال معتمداً على جيش مدرب خير تدريب جنده من أبناء القبائل الجبلية الشرسة . وبدأ يهدد مدن تساليا فاستغاثت هذه المدن بطيبة عام ٣٩٤ ق.م فسارع بيلوبيداس بقوة قدرها ثلاثمائة فارس واقتحم تساليا بالقوة فى صيف ذلك العام . ودار صراع حربى عنيف بين الطرفين للاستيلاء على مرتفعات رءوس الكلاب المعروفة باسم «كونوس كيفالاى» وهى مجموعة من المرتفعات على الطريق ما بين لاريسا وفارسالوس . وبعد معركة عنيفة هزم الاسكندر . ولكن بيلوبيداس ارتكب خطأ كبيرا عندما اندفع ليطارد الاسكندر لكى يقتله فتكاثر عليه حراس الملك وقتلوه . ولما ذاع هذا النبأ انتشر الذعر بين صفوف جيش طيبة لفقدان أحد اثنين تقوم عليهما الامبراطورية البيوتيه .

وفى الخريف التالى أرسلت طيبة الغاضبة جيشا قوامه ثمانية آلاف جندى لتأديب الاسكندر الذى آثر أن يستسلم ويقبل انتزاع كل ممتلكاته فيما عدا فيراى وأن يقبل الدخول تحت حماية طيبة .

طيبة تتدخل ضد مصالح الامبراطورية الاثينية فى شرق بحر ايجه:

كما سبق أن ذكرنا أن الدولة الأثينية هبت فيما بين ٣٦٨ - ٣٦٦ ق.م لاستعادة قوتها وتوكيد سيطرتها وقد ساعدها على ذلك تواطؤ حاكم فريجيا معها وضد مصالح ارتاكسيركسيس ملك الفرس . وبمقتضى معاهدة سلام الملك اعيدت ساموس الى حوزة الفرس . وبعدأن

استعادت أثينا هذه الجزيرة لم تعتبرها عضواً فى الامبراطورية بعد امتلاكها لها بقوة الحراب ، وعلى ذلك فقد عاملتها معاملة المقهورين فأرسلت مستوطنين أثينيين لاحتلال أراضيها الغنية ، وهو اجراء فاشل قديم أعاد الى الأذهان سياسة الاستعمار العارى البيركلية التى حاولت الامبراطورية الثانية تفاديه • وعرفانا بجميل أثينا منحها حاكم فريجيا مدينة استوس Sestus قرب مدخل البسفور والدردنيل واستغلت أثينا هذا الموقع لتدعيم مركزها فى شبه جزيرة القرم Chersonese بل أن قائد الأسطول الأثيني تيموثيوس Timotheus أخذ يجبر المدن الهامة هناك مثل بودناوميثومنى وغيرها من مدن خالكيديكى على الدخول فى حوزة الامبراطورية الأثينية •

ولم يكن هذا أمراً تسكت عليه طيبة لأنها كانت تخشى أن تستعيد أثينا سيطرتها على جزيرة يوبويا الهامة بالنسبة لها • وأمر ابامينونداس ببناء أسطول ، وفى عام ٣٦١ ظهر بأسطوله الذى كان يتكون من مائة سفينة حربية فى بحر مرمرة • وكان ظهور سفن طيبة اعلاناً بتفجير الثورة الاجتماعية فى مستعمرات أثينا • وسرعان ما انتشرت الثورة على الامبراطورية الأثينية فى مدن بيزنطة ورودس وخيوس • ولم تستطع أثينا إستعادتها باستثناء جزيرة كيوس الصغيرة التى أعادها القائد الأثينى خابرياس الى الامبراطورية •

معركة مانتينيا ونهاية الامبراطورية فى طيبة :

بينما كان الحلف الأركادى يترنح وينهار حاولت مدينة ايليس انتهاز الفرصة لاستعادة سيطرتها على منطقة تريفوليا Triphylia ومن أجل ذلك تحالفت ايليس مع اسبرطة العدو الأول للاركاذيين • ولم تجد أركاديا فى دفاعها عن نفسها الا أن تفتح جبهة جديدة لتشغل أهل ايليس • فلجأت الى تجديد الصراع بينها وبين مدينة بيسا Pisa وهو صراع قديم من أجل الاشراف على الألعاب الأولمبية • وأيدت اركاديا حق بيسا فى الاشراف على الألعاب الأولمبية بل وبمساعدة أثينا تمكنت مدينة بيسا من اقامة المهرجان الأولمبى الثامن والسبعين تحت ادارتها • وبينما

كانت مسابقات ألعاب القوى الخمسة Pentathlon (وهى الجرى والمصارعة ورمى الرمح الجلة والقفز العالى) قائمة على أشدها هاجمت ايليس مكان الألعاب الرياضية عام ٣٦٤ ق.م وهو تعد صارخ على حرمتها ، كان كافيا لادانتها ، وثارت ثائرة بلاد اليونان وأدانت ايليس بالرغم من أن التعاطف الحقيقى كان مع مطلبها فى أحقيتها فى ادارة هذه الألعاب ، وتدخلت أركاديا الى جانب بيسا ولما كان الحلف الأركادى يعانى من أزمة اقتصادية كبيرة لا تساعد على الانفاق على العمليات الحربية فقد أقدمت أركاديا بالتعاون مع بيسا على الاقتراض من خزائن معبد زيوس فى أولمبيا ، من أجل دفع رواتب الجنود المرتزقة وكانت الخلافات السياسية بين مدن حلف أركاديا قائمة على أشدها فانتهزت مدينة ماتينيا الفرصة وأعلنت انسحابها من الحلف الاركادى واستنكارها لما فعله الحلف فى استغلال الأموال المقدسة من أجل حرب واهية والحقيقة أن الاقتراض من خزائن المعابد لم يكن شيئا غريبا عند الاغريق لأن سلطات المعابد اعتادت اقراض الحكومات التى يتبعها موقع المعابد الأموال مقابل نسبة من الأرباح فمثلا اقترضت أثينا من خزائن معبد البارثينون مبالغ كبيرة أثناء الحروب البيلوبونيزية • ومن المعروف أن فكرة البنوك نبعت من المعابد القديمة ولكن الذى أثار ثائرة الدويلات الاغريقية على أركاديا وبيسا احساسها بأن أموال معبد زيوس فى أولمبيا ملكا مشاعا لهم ولايجوز أن يكون استخدامها قاصرا على مدينة معينة وازاء هذا الاحتجاج فرقت أركاديا الجيش المأجور وأنشأت صندوقا لمساعدة بيسا عن طريق التبرعات التى جمعتها من أثرياء مدن الحلف •

ورأت ايليس أن تقبل هدنة مؤقتة مع الحلف الاركادى الذى كان يعانى من شتى أنواع الشقاق فقد كان هناك عددا من الأعداء يطالبون بانهاء التحالف مع طيبة واستبداله بالتحالف مع اسبرطة وازاء هذا تقدم أصدقاء طيبة بطلب عاجل يطلبون فيه التدخل وأرسلت طيبة أحد قوادها الذى أساء التصرف فى معاملته للاركاديين — مما ترك مرارة فى نفوسهم ازاء طيبة وشجع على العداء ازاءها والمناداة بالغاء أى تحالف معها مما أدى الى تدهور نفوذ طيبة فى جنوب البيلوبونيسوس •

وازدادت الأمور تدهوراً فى الحلف الاركادى فقد تحالفت مانتينيا وشمال اركاديا مع اسبرطة وانضمت ايليس وأثينا الى هذا التحالف الذى كان المقصود به أساسا طيبة حامية البقية الباقية من الحلف الاركادي . وتجمعت جبهة مضادة للتحالف الأول المناصر لطيبة من تيجيا (التى كانت تنظر بمرارة الى تاريخها السيء مع اسبرطة والاستعمار الاسبرطى) ، ومن ميجالوبوليس وبعض المدن الموالية لطيبة فى جنوب اركاديا بالاضافة الى ارجوس العدوة التقليدية لاسبرطة وميسينى التى كانت تدين لطيبة بحريتها واستقلالها . بينما بقيت كل من كورنثا وتوابعها وميجارا على الحياد على الرغم من أن كورنثا لم تعترض اختراق جيش طيبة لأراضيها وهو فى طريقه الى المعركة وسار ابامينونداس بجيشه الى تيجيا حيث انضم الى الجيوش المتحالفة معه والتى كانت فى انتظاره .

اتخذ المتحالفون ضد طيبة موقعهم قرب مدينة مانتينيا وفى بادىء الأمر فكر ابامينونداس فى مهاجمة هذه المدينة واحتلالها قبل تجمع أعدائه وقبل وصول جيش اسبرطة الذى كان فى طريقه الى ميدان القتال .

ولما فشل فى تنفيذ ذلك حاول أن يقوم بعمل مفاجىء وسريع وهو الهجوم على لاكونيا واحتلال اسبرطة مستغلا غياب رجالها فى المعركة . ولكن ما أن تلقى الملك أجيسلاؤس أنباء هذه النية من أحد الفارين حتى استدار بسرعة عائدا الى اسبرطة ولما وصل ابامينونداس الى مشارف اسبرطة وجد المدينة محصنة ومدججة بالسلاح من أخمص قدمها الى قمة رأسها وتبدو كقلعة عسكرية . وكانت فكرة ابامينونداس الأساسية هى شغل اهتمام المتحالفين ضده عن خططهم فى مانتينيا ومحاولة جرهم الى الذهاب الى اسبرطة لحمايتها ومن ثم يسرع ويضرب ضربته فى مانتينيا قبل عودتهم اليها . ولكن لم يصل أحد من المتحالفين ضده سوى فرقة من الفرسان الأثينيين أرسلتهم أثينا للدفاع عن اسبرطة وتمكنت هذه الفرقة من مطاردة ابامينونداس حتى غادر اسبرطة . وفى

هذه الأثناء عادت القوة الأثينية التى كانت تحرس الألعاب الأوليمية وانضمت الى باقى المتحالفين فى مانتينيا •

كان المتحالفون يتحصنون بسفوح المرتفعات الموجودة جنوب مانتينيا لأنهم ظنوا أن ايامينونداس سوف ينقض عليهم بهجوم رأسى ولكن ايامينونداس ظل هادئا حتى بدأت المؤن فى التناقص • وزاد قلق الجنود من طيلة الانتظار فاستعد للهجوم وسار فى تشكيل مماثل لتشكيله فى معركة ليوكترا فعلى يساره سار الجنود المشاه المسلحون بالأسلحة الثقيلة فى صف طويل وتحت اشرافه المباشر وكانت مهمتهم هى اختراق ميمنة العدو بسرعة خاطفة • ثم لجأ ايامينونداس الى سياسة خداع الأعداء بأن أوهمهم أنه لا ينوى الهجوم وذلك بأن سار فى تشكيل استعراضى متجه نحو الشمال الغربى ولكنه استدار حول الجبال ثم فاجأ الجيوش المهاجمة من اليمين مما أفزعهم وسبب حالة من الاضطراب بين صفوفهم واندفع فرسانه محدثين الرعب فى قلب فرسان الحلفاء بينما قاد هو بنفسه رأس الهجوم بمساعدة جنوده من الشامالى قلب جيوش العدو فانهارت ميمنة الاسبرطيين ولم يستفيدوا من دروس معركة ليوكترا •

ولما رأت باقى الجيوش هذا الانهيار الذى حاق بجيش اسبرطة انهارت روحهم المعنوية والقتالية وكان نصراً محققا لطيبة ولكن يا للأسف كان بداية لنهايتها • فبينما كان ايامينونداس يندفع مع ميسرة جيشه ليتعقب العدو الهارب سدد أحد الجنود الى صدره حربة فأصابته اصابة قاتلة ولما شاع الخبر بين قواته سادها الذعر لأنها كانت تعتمد كلية على ارشاداته ولا يستطيع أحد من الضباط أن يقوم مقامه فتوقف جيش طيبة عن مطاردة العدو ، وبدأ ينحسر وهو حزين وكأنه جيش مهزوم • وتجمع الجنود حول قائدهم الأعلى وهو يحتضر بعد أن انتزعت الحربة وبدأ مكان الجرح مخيفا • وسأل ايامينونداس عن رجل يسمى ايولايدوس Iolaidos وآخر يدعى دايفانتوس Daiphantos ولما قيل له انهما قد قتلا فى المعركة أجاب وهو يخرج الكلمات بصعوبة « عليكم

اذ أن تعقدوا السلام مع العدو » وتفذ جيشه الوصية وعقـد مجلـس للسلام على أساس الشروط القديمة استقلال مدن اليونان على أساس الأمر القائم Status quo فقـد بقى الحلف الإركادى منقسما الى شطرين متحالفين واعترف باستقلال ميسينيا وكان اعـتراف اسـبرطة بذلك اعلانا لها أمام الجميع انهـا لم تعد تتحـكم فى شـئون دويلات البيلوبونيسوس واعترف المتصالحون بحلف بيوتيا وامبراطورية أثينا كأمر واقع . وبالرغم من أن الامبراطورية البيوتية بدأت فى التفكك بعد ضياع سر قوتها الوحدوية والخلاقة ممثلة فى شخص ابامينونداس وبيلوبيداس والتى أمسكت بالامبراطورية جيداً ودفعتها الى الأمـام أكثر من عشر سنوات هى قمة مجدها وعظمتها . وبهـذا بدأت طيبـة تتـوارى عن مسرح السياسة الاغريقية .

لا يمكن لنا أن نغفل تناول هـذه الشخصيـة العظيمـة بالتعليق والتحليل . فقد اجمع المؤرخـون على قدرته الفائقـة وذكائه الحـاد وشجاعته النادرة . فهو واحد من أعظم ثلاثة عرفهم التاريخ العسكرى القديم لما أحدثوه من ثورة فى النظم والتكتيك العسكرى ؛ بالاضافة الى ياسون ملك مدينـة فيراى ، وديونيسيوس الأول ملك سـيراكوزه فى صقلية . بل أن انتصارات فيليب المقدونى والاسكندر الأكبر المذهلة لم تكن سوى نتائج هذه الثورة الفنية العسكرية فى طيبة .

تقييم تاريخى لشخصية ابامينونداس :

والحق يقال كان ابامينونداس عبقرية عسكرية أكثر منها سياسية . بل أن قدراته السياسية كانت متواضعة لا تتناسب مع مهمة تخطيط وبناء الامبراطورية ، ولذا لم يخلق بيوتيا كما ينبغى أن تكون،دولة ذات مركز قيادى فى مجال علاقاتها الخارجية مع الدويلات الاغريقية . ونظراً لعدم وجود الجهاز المدرك والمخطط راحت بيوتيا تتخبط فى علاقاتها الخارجية ، كذلك أخذ على ايبامينونداس اهماله فى انشاء واعداد الأسطول القوى الذى يحرس الامبراطورية وممتلكاتها فى الخـارج ويضمن وصـول

الخيرات اليها من البلاد كما كان يفعل الأسطول الأثينى • كذلك لم يحاول ابامينونداس تدعيم بناء امبراطوريته لتتماسك فى بنيان واحد ولم يحاول أن يصهر القوميات الاقليمية فى قومية واحدة بهدف خلق الاحساس بالانتماء السياسى الواحد •

حتى ولو وضعنا فى الاعتبار الأسباب الخارجة على ارادته مثل عدم قدرة الاستعمار البيوتى على الصمود نظراً لضعف الامكانيات الاقتصادية وندرة مصادر الثروة والطاقة ولكن ذلك قد يدفع البعض الى توجيه اللوم اليه بأنه قد أساء فى حساباته ولم يتصرف فى ضوء طاقاته • كذلك أخطأ ابامينونداس بأن جعل نفسه الامبراطورية والامبراطورية هى نفسه فلم يحاول خلق قيادة تتولى من بعده لا فى الجيش أو السياسة • لقد كان همه هو التوسع وليس تدعيم هذا التوسع حتى داخل الامبراطورية الأصلية نفسها ، ولذا فقد بقيت الامبراطورية مركبة من عناصر قبلية متنافرة ومتباينة ومتناقضة ترفض أن تتحد فى قومية واحدة • فقد فاته أن يخلق الأمة ولم يقم بالدور الذى قام به ثيسيوس الأثينى وليكرجوس الاسبرطى • ومهما قيل عن شخصيته القوية والجذابة فقد كان ينقصه من الطاقة السياسية الديناميكية التى كان يتمتع بها بيريكليس العظيم والتى أرغمت الآثينيين على احترامه وأخرست ألسنة أعدائه وجعلت منه دكتاتورا مستنيرا حكم أثينا لمدة خمس عشرة عاما باسم الديموقراطية •

أن الطموح والوطنية قد يحققان للزعيم السلطة وفرض السيادة ولكنهما ليسا كافيين لبناء الامبراطورية ، لأن الطموح والوطنية هما سلاحا السياسى القصير النظر ، فقد دفعت الوطنية ابامينونداس الى الاندفاع فى مشروعات ومغامرات نجح فيها كفرد ولم تنجح فيها بيوتيا كامبراطورية (١) •

(1) G.L. Caw Kwell," Epaminondas and Thebes, Classical Quarterly, XXII, 1972, P. 254-278.

ولكن بالرغم من هذا لانستطيع أن تنكر عليه مجهوداته فى تنظيم المجمع الامفكتيونى الدينى بصورة جديدة جعلت منه ساحة وبوقا ووسيلة لأهداف الامبراطورية البيوتية . ولقد قام بأعماله العظيمة دون أن يجد مواطنين مخلصين لامبراطوريتهم يشاركونه الحماس والعقيدة بل كانوا مواطنين متراخين لا مبالين غير مدركين لما يقوم به زعيمهم ، دولة مفلسة اقتصاديا ومواطنون مفلسون سياسياً ووطنيا فكيف تبقى الامبراطورية ؟ أن السلاح قد يصنع الامبراطورية ولكن لا يستطيع الحفاظ عليها ومن ثم تصبح عبئا عليه وسببا فى انهيار المعتدى ونفعه .

ومهما يقال فسيبقى اسم ابامينونداس علما من أعلام التاريخ فهو الذى وضع نهاية للتفوق العسكرى الاسبرطى الذى كان أعتقادا سائدا شبه أسطورى ، وفتت أحشاء الدولة الاسبرطية الى الأبد بخلق دويلة ميسينيا وأركاديا وهما الأطار الحيوى الذى كانت تعيش عليه اسبرطة وتتوسع هكذا عندما مات الزعيم ماتت الامبراطورية معه ودفنت أحلامها معه فى القبر .

تلك هى أحوال العالم الاغريقى عام ٣٦٠ ق.م فقد خرجت الدويلات مرهقة من طوال المعارك والحروب ، مفلسة لبهاظة النفقات على الجيوش ورواتب الجند المرتزقة وأصبح السلام أمراً ملحا بل وحيويا أكثر من أى وقت مضى . فقد تركت اسبرطة مخضبة الجناح بعد فقدها حلفها القديم فى البيلوبونيسوس . وبدأت الولايات والمدن التى وحدها ابامينونداس عام ٣٧٠ فى امبراطورية واحدة تتفكك وتنهار بعد موته عام ٣٦٠ ق.م حتى الامبراطورية الأثينية البحرية كانت فى ذلك الوقت فى انهيار مضطرد ، ولم تكن لتبقى أكثر من خمس سنوات حتى حدث بعدها انهيارها التام . ولكن بغياب طيبة وبنهاية أسبرطة كان يمكن لأثينا أن تنهض من جديد اذ لم يبق على المسرح السياسى سواها ، وكان فى استطاعتها أن تحقق

بسهولة مطالبها السياسية فى امفيبوليس ولكن ظهر فى سماء الأحداث دولتان نصف اغريقيتان أعاقتاها عن تنفيذ أحلامها هما دولة كاريا الأسيوية بزعامة حاكمها ماوصولوس ودولة أخرى أكثر اهتماما بشئون بلاد اليونان، هى مقدونيا . وكان من الطبيعى أن يؤدى صراع المصالح الى التصادم بين مقدونيا وأثينا وما تبقى من ولايات اليونان . وكان هـذا الصراع بداية صفحة جديدة وآفاقا جديدة للتاريخ والحضارة الاغريقية .

الفصل السادس عشر

مقدونيا تفرض سيادتها

على بلاد اليونان

مقدونيا ـ الجغرافيا والسكان :

ظلت مقدونيا خلال عصور التطور الحضارى والسياسى لبلاد اليونان معلقة يحيطها الغموض ، فهى بالرغم من أنها اقليم شاسع وغنى بالوديان ، والأنهار ، وبالأراضى الخصبة والمراعى الواسعة ، وبالغابات الكثيفة والجبال الوعرة ، الا أنها كانت الى درجة كبيرة منطقة نائية بعيدة عن المنافذ البحرية والتيارات الحضارية ، خاصة القادمة عبر الجنوب أى من بلاد اليونان .

كانت مقدونيا تحتل المساحة الشاسعة الواقعة بين منطقة البلقان شمالا وبلاد اليونان جنوبا ، ويربط بينها وبين تساليا ممر جبلى شهير اسمه ممر تمبى Tempe ذلك الممر الذى تغنى بجماله وسحره الشعراء . وفى العصر الحديث نجد مقدونيا القديمة تشغل الحيز الذى تتقاسمه كل من ألبانيا وبلغاريا ويوغسلافيا وبلاد اليونان . وكانت عاصمة مقدونيا القديمة مدينة أيجاى Aegae وهى عاصمة المملكة المقدونية الأصلية ، لأنهامن ناحية تتوسط الاقليم فضلا على أنها تطل من ربوة

---

(١) من أحسن المراجع التى عالجت تاريخ وحضارة مقدونيا المكتبة العالمية

O. Hoffmann . Die Macedonen, ihrè Sprache und ihr, Volkstum (1966) : S. Casson, Macedenia, Thrace, and illyia (1926).

وهو شيق لأنه من عمل مؤرخ اعتمد على الحفائر الأثرية . ايضا أود ان اشير الى الكتاب .

A.P. Dascalacis, The Helenism of the Ancient Macedonians Institute of Balkon Studies, Thessalonilce 1965.

عالية على وادى فسيح تتخلله الأنهار والعديد من البحيرات والغابات الكثيفة ومن أهم أنهار مقدونيا القديمة نهر آكسيوس الشهير Axios (والذى يعرف اليوم باسم فاردار - Vardar) وهو ينبع من المنطقة الجبلية الشمالية مخترقا أيجاى نحو الشرق ليصب بعد رحلة طويلة فى بحر ايجه •

وفيما بعد نقلت العاصمة من قلعة أيجاى الى أديسا Edessa (ومكانها الآن مدينة فودينا التى تقع على بعد ٤٥ ميلا من شمال غرب مدينة سالونيكا اليونانية وعلى بعد ٢٥٠ ميلا من جنوب شرق بلجراد اليوغوسلافية وعلى بعد ٢٠٠ ميل شمال غرب العاصمة اليونانية أثينا) •

حقيقة لقد ظلت مقدونيا لغزاً وسراً مغلقا بالنسبة لغالبية الاغريق ، الا أنهم اقتربوا منها فى عصر الانتشار والاستيطان عندما أقاموا بعضاً من مستوطناتهم بالقرب من شاطىء بحر ايجه وحول خليج سالونيكى ومنطقة خالكيديكى بشعابها الثلاث الغائرة فى البحر وباقامة هذه المستوطنات يمكن القول بأن الاغريق وضعوا أيديهم على المداخل المؤدية لمقدونيا بل وعلى عنق الزجاجة لأنهم — أى الاغريق — أغلقوا الأبواب على المقدونيين وحالوا بينهم وبين الانطلاق عبر آفاق العالم الخارجى والتفاعل بتيارات حضاراته ، وأبقوهم سجناء معزولين يحيون حياتهم البدائية المتخلفة بين الرعى والصيد والقتال ولا يعرف الاغريق عنهم سوى أنهم قبائل بدائية شرسة تسكن الغابات الغامضة ويحسن الابتعاد عنهم • بينما بدأ المقدونيون القريبون من المناطق الساحلية فى تقبل الحضارة الاغريقية (١) •

كانت ايجاى فى الأصل عاصمة لأكبر أقاليم مقدونيا وأغناها ويعرف باسم اقليم اماثيا Emathia وكان الاغريق يعرفون المنطقة الواقعة

---

(١) يقول داسكالاكيس . كلما اقترب المقدونيون من السواحل كلما زادت نقاوة عنصرهم الافريقى وكلما تعمقوا فى الداخل كلما ازداد اختلاطهم عنصريا بالبرابرة غير الاغريق

Dascalakis, op. at. P. 29 f.

جنوب هذا الاقليم باسم اقليم بيريا Pieria وهى منطقة جبلية وعرة وسبب معرفة الاغريق لهذه المنطقة هو أنها تقع شمال جبل مقدس عند كل الاغريق ويقع فى أقصى شمال تساليا الا وهو جبل الأولمبوس الأسطورى Olympus ، والذى يفصل جغرافيا بين تساليا ومقدونيا . وكان الاغريق يعتقدون بأن آلهة الأولمبوس تسكن فوق قمة هذا الجبل الشاهق والذى يبلغ ارتفاعه نحو عشرة آلاف قدم ، حيث تغطى قمته الثلوج البيضاء والتى كانت تتراءى لأهل ايجاى المقدونية أنفسهم من بعيد ، مع نيف الأفق الجنوبى .

ويشق منطقة بيريا نهر هاليكامون Halikamon (حاليا نهر فسترتزا) (Vistritza) متجها نحو الشرق ليصب فى خليج سالونيكا . ولقد كان لهذا الوادى مكانته فى الأساطير والخيال الاغريقى الخصب فقيل أن ربات الفنون والآداب السع (Musae) كانت تعيش عند سفح الأولمبوس. كما روى التراث الأسطورى أيضاً أنها تحوى قبر أورفيوس (Orpheus) نبى الموسيقى والانطلاقية الأسطورى [1] ، فضلا على أن هذه المنطقة كانت كجنة على الأرض لجمالها وغناها . ولكن بالرغم من هذا تردد الأغريق كثيراً فى دخول هذه المنطقة واحتلالها خوفا من شراسة المقدونيين بسبب ما عرف عنهم من بربرية ونفور عدوانى من أى أجنبى غير مقدونى يقدم الى بلادهم [2] .

وفى الغرب من اقليم بيريا واماثيا تمتد منطقة أخرى تعرف باقليم لينكستيس (Lyncestis) وكانت عاصمة هذا الاقليم مدينة هيراكليا

---

(١) تروى الأساطير أن ربات الفنون والآداب المقيمة فى اقليم بيريا ظلت الى الأبد تنوح فوق قبر اورفيوس Orpheus ويقول داسكا لاكيس أن العبادات والشعائر ذات الرقص الانطلاقى جاءت الى مقدونيا من تأثير القبائل التراكية التى يعتقد انها جاءت الى مقدونيا من آسيا الصغرى عبر مضيق البسفور والدردنيل . لكن اهل تراكيا كانوا يتكلمون لغة تختلف عن الاغريقية لأن الاغريق استعانوا بترجمان اثناء التفاوض معهم انظر :

Xenophon, Anabasis, VII, 3, 25.

(2) cf. Daskalakis, op. cit, p. 7.

Heraklea (وهى مدينة موناستير الحالية فى أقصى جنوب يوغوسلافيا)
ويقال أن أسرة اغريقية يربطها صلة قرابة بأسرة آل باخياس الكورنثية
جاءت من الجنوب وظلت تحكم هذا الاقليم على مدى قرنين من الزمان ،
وينتمى شعب هـذا الاقليم الى الألليريين (Ilyrians) أجداد الألبـانيين
المعاصرين ، وقد تغنى الشاعر العاطفى الرومانى أوفيـديوس فى مؤلفه
« مسخ الكائنات » (Metamorphoses) بنهر اقليم لينكستيس وشبه
مياهه العذبة بالنبيذ المعتق (١) وعلى أى حـال كان اقليم لينكستيس
جزءاً لا يتجزأ من مقـدونيا الكبرى ولكنه كان أكثر بعـداً من اقليم
اماثيا وأكثر انعزالاً عن تيارات الحضارة الاغريقية وعلى العكس من
ذلك كان اقليم اماثيا حيث بدأت الحضارة والثقافة الاغريقية فى التسلل
سواء عن طريق القادمين أو بفضل القصر الملكى وبلاطه فى أيجاى .

ومناخ مقدونيا عموماً شديد البرودة شتاءاً وغزير المطـر ربيعـاً
وشديد الحرارة صيفاً ، ولكن ذلك الطقس القارى لم يؤثر على الاطلاق
فى المحاصيل الزراعية خاصة فى البقاع الجنوبية الغربية من ساحل بحر
ايجه لقد كانت مقدونيا القديمة غنية بمصادرها الطبيعيـة وذلك لأن
هذه المصادر لم تكن قد استهلكت ، كما هو الحال فى باقى بلاد اليونان ،
كما أن قلة عدد السكان ساعدها على الاحتفاظ بمصادرها غنية .

لقد اشتهرت مقدونيا بأشجار التين والزيتـون وبحقـول القمـح
والشعير والكروم والحدائق . فضلا عن المراعى الشاسعة الممتدة فوق
الروابى والسهول والتلال حيث كان ترعى قطعان المواشى والأغنام . كما
ساعدتها الغابات الكثيفة على تصدير الأخشاب اللازمة لبلاد ليونان (٢).
ولقد عرف عن مقدونيا شهرتها بتربية الخيول وبصناعة النبيذ كما أنها
كانت تمتلك مناجم غنية بالذهب والفضـة . وخلاصـة القـول كانت

(1) Metamorphoses, XV, 329.
(2) Xenophon, Hellenicas VI. 2.

مقدونيا بخيراتها وأراضيها البكر واقتصادها القوى مؤهلة لكى تلعب دوراً سياسياً وعسكرياً ناجحا فى تاريخ شبه القارة اليونانية (١) .

كان المقدونيون شعبا أشقر البشرة ، طوال القامة ، زرق العيون ، تجرى فى عروقهم دماء أهل شمال أوروبا ، وقد قيل أن سكان مقدونيا الأصليين جاءوا اليها من حوض نهر الدانوب ، أى أنهم يرتبطون بقرابة مع الاغريق « ولكن الاغريق رفضوا الاعتراف بهذه القرابة لأنهم لم يستسيغوا لغة المقدونيين الغريبة ذات الرطانة البربرية بالرغم من أنها كانت تنبثق من نفس الجذور التى انبعثت منها اللغة اليونانيـة كما أن اللغة المقدونية لم تكن مدعمة بخلفية أدبية وفكرية خلاقة مثـل اللغـة اليونانية مما أضعف من موقفها ولهذا فضل أمراء القصر والأرستقراطيون المقدونيون تعلم اللغة اليونانية بلهجتها الأتيكية الراقية كجزء من تعليمهم وكانوا يفضلون الحديث بها فيما بينهم . لأنهم وجدوا فى ذلك أرقى وأسهل من الرطانة بلغتهم القومية الجافة .

لقد تمكن الأثريون من تتبع تاريخ مقدونيا منذ العصر الحجـرى المتأخر وخلال عصر النحاس حيث سـاد فيها نوع من الاستقـرار تأثر بدرجة معينة بطريقة الحياة الموكينية بالرغم من احتفاظ مقدونيا بجوهر مستقل عن حضـارة جنوب اليونان ، كما ثبت من الحفـائر الأثرية أن مقدونيا لاقت نفس مصير الحضارة الموكينية عندما غزاهـا الدوريون فى بداية القرن الثانى عشر قبل الميلاد واستوطنوها ولهذا يرى المؤرخون أن سكان جنوب مقدونيا ليسوا الا أحفاد الدوريين ، أما سكان شمال مقدونيا أو مقدونيا العليا فقد كانوا خليطا من الاغريق وأهل اللـيريا وقبائل منطقة تراكيا (٢) .

يقع اقليم تراكيا (٣) فى أقصى الشرق من مقدونيا ، ويقف هذا الاقليم كمنطقة عازلة بين مقدونيا ومضيق البسفور والدردنيل (Propontis) .

(1) Daskalakis, op. cit., p. 7.

(2) F. Geyer," Macedonien bis zur Thronbesteigung Philipps (Historische Zeits chrift, Beiheft 19, 1930, Daskalakis, op. cit. p. 25 ff.

(3) Daskalakis, op. cit pp. 23-24.

ذلك المخرج الحيوى الهام . وكان أهل تراكيا قبائل بربرية صعبة المراس ، شرسة تعيش فى المناطق الجبلية الوعرة . وبالرغم من هذا فلم يكن هناك أى علاقات سواء سياسية أو حضارية بين أهل تراكيا والمقدونيين باستثناء الروابط الفردية والمحدودة التى تنشأ من المصاهرات بينهم . كذلك لم يكن هناك أى روابط بين مقدونيا وأهل منطقة ميسيا (Moesia) الواقعة بين أطراف مقدونيا الشمالية وجنوب حوض نهر الدانوب .

ومهما بلغت الشعوب والقبائل فى أطراف العالم الهللينى رقيا الا أنها كانت جميعا فى نظر الاغريقى الجنوبى المتحضر : شعوبا بربرية ، شرسة متخلفة عن ركب الحضارة ، تعيش حياتها البدائية الغامضة وسط الأحراش والغابات وعلى الجبال . ولم يفرق الاغريقى فى الحقيقة بين المقدونى والأليرى والميسى والتراكى ولم يضع تعريفا جوهريا ، يحدد عنصر كل منهم ، بل اعتبرهم جميعا برابرة (Barbaroi) وهذا بالرغم من اقبال الأمراء والارستقراطيين المقدونيين على الأخذ بشغف من منهل الحضارة الاغريقية وعلى تقليد طريقة الحياة الاثينية وايجاد نوع من الصفات المشتركة بينهم وبين الاغريق فى الجنوب ولكن ذلك لم يغير أبداً من نظرة الاغريق الاستعلائية التى نظرت اليهم على أنهم قبائل بدائية متخلفة تغطى أجسامها بجلود الحيوانات وتقض حياتها بين الرعى والتقاتل (١) . بل أن أرسطو نفسه ضرب مثلا بالمقدونيين فى الشراسة والبربرية عندما روى كيف أنهم لا يعترفون ببلوغ الفتى مبلغ الرجال ما لم يقتل عدداً من الناس (٢) . أما أثينايوس Athenaeus فقد وصف المقدونيين بأنهم شعب مجنون بالصيد ، لا يعرفون حداً عند الشراب ، يعبون الخمر قبل الطعام لكى لا يفيقون (٣) .

(١) Athenaeus III, 91 ; cf. Daskalakis, op. cit. 29.

(٢) Aristotle, Politics, VII, 2, 6.

(٣) Arrian, Anabasis, VII, 9.

الأسطورة القومية :

كما عودنا التاريخ ، هناك فترة غامضة فى حياة الشعوب تحاول فيها عند كتابة تاريخها سبر أغوارها بالخيال الشعبى أو بالأساطير لكى تخلق لنفسها أو لملوكها أصولا مقدسة ، ولكى يرسموا لأنفسهم بداية أسطورية ولا يجد المؤرخ بدا من التعامل مع مثل هذه الأساطير القومية ولكن عليه أن يعالجها بحذر ، ويحللها منطقيا لكى يستخرج منها قدراً معينا من الحقيقة .

تقول الأسطورة القومية المقدونية (١) أن ثلاثة أخوة هم جاوانيس (Gauanes) وأيروبوس (Aeropos) وبرديكاس (Perdikaas) هاجروا من أرجوس فى البيلوبونيسوس متجهين شمالا الى الليريا تلك البرارى الشاسعة المهجورة فى الشمال عند ملتقى حدود يوغوسلافيا والبانيا واليونان ، وذلك أبان القرن الثامن قبل الميلاد ، وتقول الأسطورة أيضا أن هؤلاء كانوا ينحدرون من نسل هرقل جد الدوريين الأسطورى ، وسار الأخوة شمالا حتى وصلوا الى مقدونيا العليا حيث عملوا رعاة عند أحد ملوكها . ولكن هذا الملك لاحظ أن الأخ الأصغر برديكاس (Perdikas) يأتى بأشياء غريبة فاتهم الأخوة بالشعوذة والسحر . وأمر بطردهم من خدمته ولكنهم طالبوا بأجورهم المتأخرة لديه وأراد الملك أن يسخر من هذا الطلب فنظر الى بقعة من ضوء الشمس نفذت عبر سقف القصر الى أرضيته وصاح قائلا : « ها هوذا أجركم الذى تستحقونه فخذوه لأنى أعطيه لكم » (٢) ، وهنا قفز برديكاس بسرعة معلنا قبوله تلك الصفقة ورسم دائرة حول البقعة ، ولما فطن الملك الى خبث برديكاس طارده هو وأخوته حتى خارج مملكته . وسار الأخوة الثلاث حتى وصلوا الى

(١) يقترح داسكا لاكيس أن كلمة مقدونى مشتقة من اللفظ الدورى مقدونوس Makedonus الذى ورد فى الأوديسا (VII, 107) بمعنى الشاهق أو العظيم ومنه اشتق لفظ Magnus اللاتينى وان اللفظ اشتق من طبيعة جبال الاقليم الشاهقة . لذلك انظر :

N. Androitis, History of the Name of Macedonia, Balkan studies, I (1960) p. 143 and P. 148. ; Daskalkis, op., p. 2.

(٢) Herodotus, VIII, 137.

حدائق الملك ميداس عند جبل برميون (Bermion) • ورحب أهل هذه المنطقة بالأخوة القادمين بل انتخبوا برديكاس ملكا عليهم بعد أن تزوج من ابنه الملك السابق لهذه المنطقة واسمه كارانوس (Karanos) والذى وصفته الأساطير الشعبية بأنه شقيق فيدون ملك أرجوس ومؤسس العرش المقدونى الأول (١) •

وما نفهمه من الأسطورة القومية أن الأسرة المقدونية المالكة ادعت أنها تنتسب الى سلالة هرقل مثل الدوريين تماما وأن فى عروقها تجرى دماء مقدسة مثل الآلهة الأبطال • وأنهم هاجروا أصـلا من أرجوس • وربما يؤيد ذلك ملاحظة وجود مدينة تسمى أرجوس أيضا وتقع فى سهل الليريا ويقول استرابون الجغرافى أن لفظ أرجوس يعنى فى اللغة المقدونية « النهر » (٢) •

ملوك مقدونيا :

وبعد موت برديكاس ـ الجد الأول لملوك مقدونيا ـ تولى عدد من الملوك منهم الملك أمونتاس Amyntas والذى جلس على عرش البلاد من الفترة ما بين ٥٤٠ الى ٤٩٨ ق٠م ثم مات بعد أن ترك لولده ولخليفته الاسكندر الأول مملكة أكثر اتساعا من أى وقت مضى (٣) •

الاسكندر الأول :

فاجأ الاسكندر الأول الاغريق عنـدما هبط عليهم زائرا عام ٤٩٦ ق٠ م ، وزاد من دهشتهم أنهم وجدوه يتحدث الأغريقية بلهجتها الأتيكية الراقية • كما وجدوه مثقفا واسع المعرفة مثيما بملاعب الرياضة • وزاد أيضا من دهشتهم عندما طلب منهم أن يسمحوا له بالاشتراك فى الألعاب الأولمبية ، فسارعوه واعتذروا له مذكرين اياه أن عضوية الاشتراك فى الألعاب الأولمبية ترتبط بنقاء الدم الهللينى وهذا شرط لا يتوفر فيه •

---

(١) وذلك حوالى ٨٠٣ ق٠م ان صحت الاساطير وحسابات المؤرخين القدامى خاصة يوسيبيوس •
Daskalakis op. cit, p. 121.

(٢) Strabo, 272.

(3) Herodotus VIII, 139 ; Thucydides, II, 100. cf, Dascalalcis, op. cit, P. 119. ff

ولكن الملك المقدونى أصر على تسجيل اسمه فى قائمة الرياضيين المشتركين ولما رفض المجلس المشرف على الألعاب الأولمبية الموافقة على اشتراكه فى المباريات لأنه « بربرى » - أى غير أغريقى - ثار الاسكندر ، وراح يحاول ليثبت نسبة الى الأجداد الاغريق الأول مشيرا الى أن جده الأكبر هو البطل الأسطورى هرقل الذى هو أول من وضع فكرة الألعاب الرياضية (١) وبالفعل انتزع الاسكندر الأول الاعتراف بحقه فى الاشتراك فى الألعاب الأولمبية .

وفى حلبة الجرى انتزع المقدونى دهشة الاغريق وأعجاب النظارة والحكام لدرجة أن الشاعر الاغريقى بندار Pindar الذى تخصص فى التغنى بأبطال هذه الألعاب تغنى بانتصاره فى احدى مقطوعاته .

وربما كانت فكرة الاعتراف بهللينية الاسكندر الأول سياسية لأن الأحوال السياسية التى كانت تمر بها بلاد اليونان آنذا كانت تحتم عليهم أن يكسبوه الى جانبهم خاصة وأنه يتحمس ويتحرق شوقا من أجل الاعتراف به اغريقيا .

لقد كانت بلاد الفرس فى ذلك الوقت فى أوج نشاطها السياسى والتوسع وأصبح مؤكدا أنها لابد وأن تشتبك مع الدويلات الاغريقية فى عقر دارها وكان طريق الخطر بالنسبة للاغريق هو مقدونيا وتراكيا . فهما المنطقتان اللتان تحميان بلاد اليونان من ناحية آسيا الصغرى التى قد يعبرها الفرس عن طريق مضيق البسفور والدردنيل (Propontis) ومما دفع الاغريق الى كسب رضاء الاسكندر الأول المقدونى وقوع تراكيا تحت النفوذ والتأثير الفارسى ، ومن هنا وجد الاغريق أن من الأفضل ارضاء الملك المقدونى لوضع مقدونيا تحت تصرفهم بحيث يمكن جعلها منطقة مانعة مغلقة فى وجه الجيش الفارسى اذا ما حاول التعرض لجنوب بلاد اليونان ، خاصة أن الاسكندر الأول لم يكن معروفا بميله نحو الفرس بل سبق اتهامه فى تدبير اغتيال بعض الشخصيات الفارسية التى نزلت بقصر أبيه الملك أمونتاس لتطالب بالمزيد من النفوذ فى المنطقة ولكن

---

(١) (Herodotus, V. 22).

الأمر سوى وألقى اللوم على سوء سلوك الوفد الفارسى ورد الفعل من جانب الأمير المتهور .

كانت الامبراطورية الفارسية فى توسع مطرد ، اذ لم يكد يمر نصف قرن على تأسيسها على يد قورش الأكبر حتى كان خليفته دارا الأول قد نجح فى عام ٥٠٠ ق. م فى البلوغ بالامبراطورية الى أقصى اتساعها ، وأصبحت تضم الى نفوذها ، ثراكيا وأرمينيا وبلاد ما بين النهرين (Mesopotamia) ومنطقة شمال غرب شبه القارة الهندية وأفغانستان والتركستان ، بل شملت الشرق الأوسط كله عندما وقعت سوريا وفلسطين وشمال شبه الجزيرة العربية ومصر وقبرص وبعض جزر بحر ايجه فى حوزة الامبراطورية الفارسية . ولم يعرف التاريخ امبراطورية بمثل هذا الاتساع والشمول ، حتى أن الدويلات الاغريقية فى الجنوب أصبحت تتوقع سقوطها فى حوزة الامبراطورية الفارسية التى وصلت حدودها الى قرب حدود مقدونيا ذاتها .

كانت الدويلات الاغريقية على النقيض تماما من الامبراطورية الفارسية الفتية ، لأن دويلات المدن الاغريقية كانت فى قتال دائم وحالة الحرب لا تتوقف بينها . وذلك لعدم وجود وحدة سياسية بينها أو بين بعضها لكى تفرض السلام وتضع نهاية حاسمة لعوامل الصراع . بينما كانت الامبراطورية الفارسية اتحادا متنوعا لأجناس مختلفة ومتناقضة . لقد اختلفت هذه الشعوب فى العنصر العرقى والثقافة والبيئة ولكنها كلها توحدت فى التزامها بقبول النظام الملكى الفارسى فى الولاء لشخص ملك الملوك . وعلى أى حال لم تكن الدعاية الأثينية ضد « التسلط الفارسى الشرقى » ذات تأثير فعال سوى أن هؤلاء البرابرة الشرقيين يبغون اذلال العنصر الهيللنى والتحكم فيه والقضاء على نظامه « الديموقراطى » ، لأنهم يرغبون فى الانتقام من حملة الاغريق القديمة ضد طراودة . وذلك لأن الديموقراطية الأثينية نفسها لم تكن نظاما فريدا فى حد ذاته ، فقد فشلت فى نشر التآخى والسلام والقضاء على الحروب والصراعات بين الدويلات الاغريقية ، بينما كانت الامبراطورية الفارسية تكون اتحادا

فريدا من نوعه لدويلات العالم القديم ، وكان ذلك فى حد ذاته شكلا من أشكال السلام العالمى الذى حاول الاسكندر الأكبر فيما بعد تحقيقه ، ولكن القدر ترك ذلك للامبراطورية الرومانية وللسلام الرومانى (١) ، كما كان هناك الكثيرون من الاغريق ممن أكبروا حكمة الفرس فى فن الحكم ، وأعجبوا بالنظام الفارسى الذى نجح فى أن يوحد بين هـذه الشعوب المتنوعة تحت لواء عرش الملك ، بل ان المدن الاغريقية الواقعة على ساحل آسيا الصغرى وجدت السـلام المنشود تحت حكم الفرس الذى لولاه لشغلوا أنفسهم بالقتال والصراع مثلما فعل أخوتهم فى بلاد اليونان ، ولهذا السبب ازدهرت أيونيا فى ظل هـذا السلام وأخرجت جيـلا خالدا من الفلاسفة والمؤرخين والشعراء ، بل اذ هناك بعض الكتاب من الاغريق أنفسهم من شهدوا « بعقلانية » النظام الفارسى ، فقد كتب المؤرخ الكبير اكسينوفون انطباعاته عن تربية الملك قورش الأكبر،مؤسس الامبراطورية الفارسية ، وأشاد به وجعله النموذج الذى يجب أن يكون عليه الحاكم فى اى مكان وفى أى عصر .

وعندما اندلعت الثورة الايونية ضد الامبراطورية الفارسية بتحريض من أثينا ، وما تلى ذلك من رد الفعل الفارسى بالاستعداد لغزو أثينـا ذاتها – مصدر الثورة وبؤرتها – من أجل القضاء على نظامها السياسي الذى أزكى لهيب هذه الثورة ويثير القلاقل ضد السـلام الفـارسى ، وجدت مقدونيا التى بقيت ردحا من الزمن نسيا منسيا – نفسها وسط صراع فرض عليها ... صراع يحدد مصير الحضارة الاغريقية ومستقبلها وساد الفزع والخوف بين الاغريق خشية أن تنضم مقدونيا الى الفرس مثلما فعلت جارتها تراكيا فتسمح للجيوش الفارسية بالعبور الى أراضيها وهى متجهة لغزو اليونان ، ولهذا السبب تنازل الاغريق عن نظرتهم نحو مقدونيا واعترفوا بالاسكندر الأول أغريقيا .

---

(١) انظر كتابى « الحرب والمجتمع القديم » المكتبة الثقافية العدد ٢٨٧ (١٩٧٢) ص ٥٢ وما بعدها .

ولكن بالرغم من هذا كان الاسكندر الأول حذرا ومتريثا فى اتخاذ قراره وقارن بين أحوال الامبراطورية الفارسية المستتبة والطيبة وأحوال دويلات المدن الاغريقية المتقاتلة والتى لايحركها شىء سوى دافع الغيرة العمياء على نظامها واستقلالها واكتفائها الذاتى ، فضلا عن روابط القرابة التى كانت تربط البيت الحاكم المقدونى بالقصر الفارسى ، فقد كان هناك ثمة مصاهرة فشقيقة الاسكندر الأول كوجايا (Cygaea) كانت متزوجة من أحد كبار رجال البلاط فى القصر الفارسى . وانتهى الملك الاسكندر الأول باتخاذ قرار بقبول دعوة الملك دارا عام ٤٩٢ ق.م فى الدخول فى تحالف معه . وفتحت حدود مقدونيا أمام الجيش الفارسى الغازى فى الحملة الفارسية الأولى ضد بلاد اليونان والتى انتهت بهزيمة الفرس فى موقعة الماراثون عام ٤٩٠ ق.م ، كما اشترك الاسكندر الأول نفسه مع الحملة الفارسية الثانية والتى نجحت فى احتلال أثينا وأحراقها عام ٤٨٠ ق. م ولكن يقال أن ضمير الملك المقدونى أنبه على خيانة القضية الاغريقية كما يدعى هيرودوت . وذلك قبل المعركة الفاصلة فى بلاتيا فباح بأسرار عسكرية هامة للاغريق مما نتج عن ذلك هزيمة الحملة الفارسية الثانية واندحارها . واكتسب الملك المقدونى شعبية كبيرة بين الاغريق وسموه بمحب الهللينية (Phil-hellen) وبهذا دخلت العلاقات الاغريقية المقدونية مرحلة جديدة .

الملك برديكاس :

وفى عام ٤٥٤ ق. م مات الاسكندر الأول وخلفه من بعده ابنه الأكبر برديكاس (Perdikaas) الثانى والذى سار على نهج سياسة أبيه فى نشر الثقافة الهللينية والتى كان مولعا بها ، ومن ثم فتح أبواب القصر الملكى للشعراء والأدباء والمفكرين والعلماء الاغريق القادمين من الجنوب ومن الشعراء الذين استضافهم برديكاس لثانى فى قصره شاعر جزيرة ميلوس الأول وشاعر فن الديثورامب الغنائى ، الشاعر ميلانيبيديس Melanippides والذى ظل يعيش فى بلاط الملك حتى آخر أيامه ، ومن العلماء الذين نزلوا بالقصر الطبيب الشهير هيبوقراطيس Hippocrates.

وفى أواخر عصر الملك برديكاس الثانى اندلعت الحروب البيلوبونيزية بين أثينا وأسبرطة عام ٤٣١ ق.م وغرقت بلاد اليونان فى فوضى هذه الحرب المريرة التى لم تكن بذات جدوى والتى قامت على حساب الحضارة والاقتصاد الاغريقى . وقد كان موقف مقدونيا بزعامة الملك برديكاس الثانى مذبذبا ، لأنه كان حيناً يقف مع أثينا ويؤيدها وحينا آخر يناصر أسبرطة عليها . الا أن هذه الحرب زادت من ارتباط مصير مقدونيا بالدويلات الاغريقية ، وبددت من الفكرة القديمة فى نفوس الاغريق بأنها براري غامضة تسكنها قبائل بربرية شرسة غير هللينية الأصل والحضارة أو أنها تقع فيما وراء حدود العالم الهلليني . فضلا على أن الحروب البيلوبونيسية استنزفت طاقات الدويلات الاغريقية سياسياً واقتصادياً ، وأصبح المستقبل لمقدونيا ذات الاقتصاد البكر والنظام السياسي الملكى الراسخ المستقر ، بل أن الحظ ساعد مقدونيا عندما أخذ التدهور يحيق بالعرش الفارسى وحل الضعف بهذه الامبراطورية الشرقية التى كانت مقدونيا واقعة تحت نفوذها ، ومن ثم بدأت مقدونيا تستقل عنها وتسقط عنها تبيعيتها وتكون لنفسها نفوذا وشخصية هللينية مستقلة سياسيا وحضاريا وفكريا . وكعادة ملوك مقدونيا عندما يحيق بهم الهرم والارهاق تنازل برديكاس الثانى عن العرش لابنه الشاب أرخيلاءوس Archelaos الذى أعلن ملكا على مقدونيا عام ٤١٣ ق. م

الملك ارخيلاءوس :

يقول المؤرخ الكبير ثوكوديديس (Thucydides) (١) أن الملك أرخيلاءوس فاق كل من سبقوه نشاطا ونجاحا فى نشر التمدين وطريقة الحياة الاغريقية بين القبائل المقدونية وجعلهم متحضرين ولم يعودوا فى ظله برابرة كما كان ينظر اليهم من قبل — باستثناء قبائل الجبل التى نفرت بحكم نفسيتها وطبيعتها من كل ما هو غريب وجديد وبقيت على عاداتها وتقاليدها ، وآثرت أن تنعزل وتعيش على سجيتها الأولى البدائية . ..

(١) Thucydides, II, 100 ; cf. Daskalakis op. cit. p. 66-ff.

وأول عمل قام به أرخيلاءوس هو نقل عاصمة البلاد من قلعة ايجاى القديمة (Aegae) الى الجنوب عند مدينة بيلا (Pella) • وهى مركز حيوى تجارى يقع على مسافة عشرين ميلا من البحر (على مقربة من شمال غرب مدينة سالونيكى الحالية) • وكانت العاصمة الجديدة بيلا تطل على ربوة عالية وتشرف على بحيرة بوربوروس Borboros (ينيجا الحالية) والتى يربط بينها وبين بحر ايجه نهر لودياس Lydias • وكانت تلك البحيرةفى العصر القديم بؤرة نشاط للسفن التجارية الغادية والرائحة • لقد أدرك أرخيلاءوس أهمية الطرق فى توحيد الأمة ونشر حضارتها الهيللينية فى شتى ربوعها ومن ثم فقد أنشأ شبكة متشعبة من الطرق تخرج من بيلا الى كل أجزاء المملكة • كما أدرك أرخيلاءوس أن الاستقرار السياسى لا يقوم الا على وجود قوة عسكرية تضمن هذا الاستقرار وتضع حـدا لشاغبات القبائل الجبلية ومن ثم استفاد من مراقبة سير المعارك الطاحنة بين أثينا وأسبرطة ابان الحروب البيلوبونيزية وانشأ قوة عسكرية عين لها ضباطا أغريقا من الجنوب للاشراف عليها وتدريبها • هكذا بينما كانت أثينا وأسبرطة تقبض كل منها على عنق الأخرى وتنزفها حتى الموت ، كان الملك أرخيلاءوس يبنى دولة فتية صاعدة بالتخطيط السليم وبالحضارة الاغريقية والتمدين الراقى ، وكأنه أدرك أن قدر الحضارة الاغريقية لم يعد فى الجنوب بل فى الشمال فى مقدونيا الفتية الناهضة •

كان أرخيلاءوس متيما بطريقة الحياة الاغريقية ، متعطشا لفنونهـا وأدابها ، ففتـح أبواب قصره على مصراعيها لمشاهـير الرجال الاغريق القادمين من كل أطراف العالم الاغريقى والنابغين فى مختلف فروع المعرفة الاغريقية • مثلا دعى الى القصر يوريبيديس ثالث عظماء شعراء المسرح الراجيدى الأثينى فحل بقصره عام ٤٠٨ ق•م (١) حيث كتب عن مقدونيا

---

(1) Daskalakis, op. cit. pp. 36-37 ; p. 105 ; P. 107, note 31 (p. 141).

ويقول ديوميديس ان ارخيلاؤس طلب منه كتابة مسرحية عن حياته ولكن يوربيديس رفض ذلك بحجة ان المأساة هى قمة الحزن ولا يريد ذلك للملك الحالى ، بينما كتب عن الجد الاسطورى للأسرة المالكة مظهرا اياه كبطل شهيد ويستشهد ديوميديس بذلك فى تحديده لفن المأساة •

مسرحيته الخالدة « الباخيات » Bacchae . وقد ظل يوربيديس ينشد الهدوء والسكينة وراحة النفس والبال حتى وافته منيته عام ٤٠٩ ق. م ومن بين عبقريات الفكر الاغريقى التى دعاها أرخيلاءوس الى قصره شاعر جزيرة ساموس الأول خيريلوس (Choerilos) الذى كتب مديحه الشهير فى تكريم المليك العظيم . كذلك نزل بالقصر الملكى فى بيللا موسيقار أثينا الأول تيموثيوس (Timotheus) وأجاثون (Agathon) الشاعر التراجيدى المعروف وصديق سقراط وأفلاطون بعد أن ضاق ذرعا بسبب الهجوم عليه فى أثينا بأن سلوكه ومسرحياته تنشر التخنث وتقضى على الرجولة .

كذلك دعى أرخيلاءوس الى قصره بعض مشاهير المهندسين والفنانين والرسامين للقيام بحركة عمرانية كبرى ، مثلا دعى الرسام الذائع الصيت زيوكسيس Zeuxis ليخلد روائع أعماله على جدران مقر القصر الملكى فى بيللا وقد رويت الأساطير عن عبقرية تجسيم هذا الفنان لرسوماته ، ويقال أنه رسم عنقودا من العنب جعل الطير تحوم حوله معتقدة أنه حقيقى .

وكان يمكن للملك أرخيلاءوس أن يفعل الكثير من أجل « أغرقة » مقدونيا ونقل كرسى الحضارة الاغريقية الى بيللا لولا أنه سقط غدرا عام ٣٩٩ ق. م . فى نفس العام الذى لاقى فيه سقراط حتفه منتحرا بالسم .

٤ ـ الملك امونتاس الثانى .Amyntas II :

اهتز العرش المقدونى بموت أرخيلاءوس ، وسادت الفوضى وأعمال الشغب حتى تمكن أحد الأمراء وهو أمونتاس الثانى من اعتلاء العرش . وكان أمونتاس بن فيليب أحد أشقاء الملك برديكاس . وكان أمونتاس يميل الى استعراض القوة العسكرية أكثر من البناء الحضارى . فبنى سياسته على تأديب القبائل اللنكستية الخارجة على ولائه حتى أخضعهم

وعقد مع زعيمهم ايرراس Irras اتفاقا دعمه بالمصاهرة ، اذ تزوج من ابنه هذا الزعيم الأميرة يوريديكى Eurydike التى عرفت بشراستها وميلها للسلوك البربرى الغادر وقد أنجبت هذه الأميرة اللنكستية من الملك أمونتاس الثانى ثلاثة أبناءهم على التوالى الاسكندر الثانى وبرديكاس الثانى وفيليب الثانى .

ولكن حكم أمونتاس الثانى واجه عدة مصاعب وقلاقل بسبب مضايقات الفرس وثورة القبائل ومضايقات مدينة أولينثوس Olynthus تلك المستوطنة الاغريقية والتى كانت تقع فى شمال غرب شبه باللينى Pallene احدى الشعب الثلاث التى منها تتكون منطقة خالكيديكى الشهيرة ، ذات الثلاث شعاب الغائرة فى خليج تراكيا وكانت مدينة أولنثوس تشهد آنذاك أوج نشاطها السياسى وتعمل جاهدة من أجل أنشاء اتحاد كونفدرالى (١) يجمع بين دويلات مدن هذه المنطقة ويقتطع جزءا من سواحل مقدونيا . وبلغ الخطر بالملك قدرا جعل الكاتب والأديب الأثينى أكسينوفون يقول عنه : « أنه كاد أن يهوى من عرشه (٢) . ولكنه تمكن فى النهاية بمساعدة أسبرطة التى كانت تتزعم أنذاك سياسة تفتيت اتحادات بلاد اليونان بوحى من الفرس تحت اسم الحرية لسائر المدن الاغريقية . تمكن الملك من تأديب أولينثوس وتأمين مقدونيا من أطماعها وذلك عام ٣٧٩ ق.م .

ولكن صراعات القصر كانت من المشاكل الاخرى التى هوت بالملك . فقد زوج ابنته من أمير يدعى بطليموس بن أولوروس ، وكان هذا الرجل انتهازيا اذ حاول أن يوقع زوجة أمونتاس فى غرامه لكى يصبح هو ملكا بدوره ، مما دعى الناس الى الاعتقاد بأن الملكة الأم كانت السبب وراء مصرع أمونتاس الثانى زوجها وذلك عام ٣٦٩ ق. م (٣) . وكانت تلك المؤامرة بداية لصراع رهيب عصف بالقصر المقدونى الحاكم أدى الى تدخل أثينا وطيبة فيه .

---

(١) J.A.O. Larsen ; Greek Federal States, Oxford 1968, p. 24.

(٢) Xenephon, Hellenica V, 2, 18.

(٣) Justinius, VII, 4.

٥ ــ الصراع على العرش وتدخل اثينا وطيبة فيه :

بعد مصرع أمونتاس الثانى غدرا ، سارع أكبر أبنائه وهو الاسكندر الثانى الى اعلان نفسه ملكا على مقدونيا ، رغما عن أنف بطليموس العشيق والملكة الأم ولكن سرعان ماخر الاسكندر الثانى صريعا أثناء اشتراكه مع عشيق أمه فى رقصة حرب ويروى لنا أثينايوس (١) كيف دبرت أم الاسكندر الثانى مقتل ابنها حتى يبدو وكأنه قضاء وقدرا . أثناء هذه الرقصة بين عشيقها وولدها .

وعلى أثر شيوع نبأ اغتيال الملك الشاب ، انتشر السخط والغضب على الملكة الغادرة وعلى عشيقها الخائن ، وساعد على ذلك السخط ظهور مطالب جديد بعرش مقدونيا يدعى باوسانياس ، ووجد هذا الأخير من يلتفون حوله ويؤيدونه كما أنه كاد أن ينتزع العرش فعلا من الملكة وعشيقها بمساعدة قوة من الاغريق المرتزقة لولا استنجاد الملكة بأثينا والتى كان يتزعم شئونها آنذاك الجنرال ايفكراتيس Iphicrates ، وكان هذا الأخير رجلا عصاميا ، اذ يروى أن أباه كان اسكافيا فقيرا من رعاع مدينة أثينا . وكان يربط ايفكراتيس والملك الراحل أمونتاس الثانى صداقة حميمة كما يقول أيسخينيس Aeschines الخطيب ، ولهذا أبدى تعاطفا مع أبنائه فقاد حملة ضد باوسانياس المطالب بالعرش ، بل يقال أن الملكة الخائنة يوريديكى أوحت الى ولديها برديكاس وفيليب أن يركعا تحت قدمى القائد الأثينى طلبا لحماه ومساعدته (٢) .

وبالفعل قام ايفكراتيس بمطاردة باوسانياس وقبول تبرير الملكة يوريديكى بأن مقتل ابنها الاسكندر الثانى كان قضاء وقدرا ، ولكى تثبت ذلك وافقت على تعيين ابنها الثانى برديكاس الثالث ملكا على مقدونيا خلفا لأخيه . وارضاء للملكة الأم عين بطليموس العشيق وصيا على الملك القاصر وانسحب ايفكراتيس عائدا الى أثينا .

---

(١) Athenaeus, XIV, 27.

(٢) Aeschines, (Fisher) 26.

(٣) Ibid. 27.

ولما أعلنت قبائل اقليم لنكستيس Lyncestis أنها لا تثق فى هذه الملكة سارعت فأرسلت اليهم ولدها الأصغر فيليب ليكون رهينة عندهم ٠

كانت مدينة طيبة فى ذلك الوقت فى أوج قوتهـا وعنفـوانها تحت زعامة بيلوبيداس ، ولما رأى هذا الجنرال أثينا وهى تتدخل فى شئون مقدونيا الداخلية استبد به القلق خشية قيام تحالف بين أثينا ومقدونيا مستقبلا لضرب امبراطورية طيبة ٠ لأن بيلوبيداس كان يعتقد أن مناطق الشمال مناطق نفوذ لطيبة وحدها ولا يريد لأثينا أن تتدخل بنفوذها فى هذه المناطق ، ولهذا سارع بالقيام بحملة عسكرية كبرى بالقـرب من حدود مقدونيا عام ٣٦٧ ق٠م وطالب الملكة الأم بتقديم ضمانات تؤكد نواياها الحسنة ازاء طيبة مستقبلا ولم تجد الأم وسيلة خيراً من استدعاء ابنها فيليب من عند القبائل اللنكستية ليحمله معه بيلوبيداس رهينـة لديه فى طيبة وبقى فيليب ثلاث سنوات فى طيبة يتدرب هناك على أشهر وأحدث فنون القتال فى أكاديميتها العسـكرية التى أنشـأها الجنرال العظيم بيلوبيداس وحقق بها السيادة والتفوق على سائر دويلات المدن الاغريقية بما فى ذلك اسبرطة صاحبة الأسطورة التى لا تقهر ٠

وفى عام ٣٦٥ ق٠م ، وربما بتحريض من طيبة ، قام الملك برديكاس بالتخلص من بطليموس العشيق وطرد أمه الملكة الخائنة ، وسارع أهل طيبة بارسال فيليب بعد أن تدرب على خير فنون القتال وأحـدثها الى مقدونيا ليساعد أخاه فى حركته والانتقـام من قتلة أبيهما وأخيهما ٠ وتمكن برديكاس الثالث من اعادة السلام الى مقدونيا وازالة عوامل القلاقل والفتن ٠ وفى ظلال السلام عادت مقدونيا الى سياستها القديمـة وهى استقطاب رجال الفكر والمعرفة من كافة الولايات الاغريقيـة لينشروا الثقافة وطريقة الحياة الاغريقية فى اتحاد البلاد ٠

ولكن يبدوا أن هذا الاستقرار لم يدم طـويلا ، اذ ظهـرت الملكة المطرودة مرة ثانية عام ٣٥٩ ق٠م ٠ بعد أن حرضت القبائل اللنكستية على ابنها الملك برديكاس الثالث ٠ وسقط هذا الملك صريعا أثناء احدى

الاشتباكات مع القبائل المتمردة ، تاركا ابنا رضيعاً هو أمونتاس الثالث وسارع فيليب شقيق الملك القتيل فأعلن نفسه وصيا على ابن أخيه الرضيع .

٦ ـ فيليب الثانى ملكا :

ما أن أعلن موت برديكاس الثالث وانتقال الحكم الى ابنه الرضيع أمونتاس الثالث تحت وصاية عمه فيليب الثانى حتى بدأت القلاقل تعود مرة أخرى حول العرش المقدونى ، اذ عاود باوسانياس مطالبته بعرش البلاد مهدداً باثارة الشغب والفتنة ، ومن ناحية أخرى ، طالب ثلاثة من أشقاء الملك القتيل (وأشقاء فيليب أيضاً) من أم أخرى بأحقيتهم فى وراثة العرش وازاء هذا الانقسام طالب فريق من المقدونيين من فيليب الثانى أن يعلن نفسه ملكا على مقدونيا وليس وصيا على العرش ويضع حداً لهذه القلاقل ، ولم يتردد فيليب فى ذلك . فأعلن نفسه ملكا على مقدونيا . وسرعان ما راح يتخلص من المطالبين بالعرش واحد تلو الآخر ويعيد الرسوخ والاستقرار لعرشه ، لكى يتفرغ للدور الكبير الذى قام به على مسرح الأحداث السياسية .

مقدونيا تحت زعامة فيليب الثانى :

كان فيليب فى الثالثة والعشرين من عمره ، عندما وجد نفسه ملكا على مقدونيا بمشاكلها المعقدة ، وكما سبق أن ذكرنا أنه كان قد قضى ثلاث سنوات يتدرب على أعنف وسائل الحرب فى اكاديمية طيبة ، حيث التقى وتعلم عن قرب من أعظم شخصيتين فى تاريخ طيبة بل والعالم الاغريقى ألا وهما ابامينونداس ، وبيلوبيداس وحيث قضى الفترة ما بين الخامسة عشرة الى السابعة عشرة من عمره (من ٣٦٧ ـ ٣٦٥ ق.م) يتعلم تحت اشراف ابامينونداس شخصياً والذى غرس فيه الروح الاغريقية وصاغ منه فتى مثقفا متحضراً . وكان هدف زعيم طيبة الأول من ذلك هو أن يخلق من فيليب الثانى صديقا لطيبة وموالياً لها ثم يبعث به ملكا على مقدونيا وبذلك يحقق انتصاراً صامتا بثمن زهيد ولكننا لا نستطيع أن نجزم عما اذا كانت طيبة قد نجحت فى الاستيلاء على تفكير فيليب

ووجدانه ، لأن عواطف أمراء البيت المالك المقدونى كانت تتجه عادة الى أثينا كعبة الفكر والفلسفة والفن ، كما أن تاريخ أثينا الطويل وتراثها العريق جعلها تبدو بحق ـ كما قال زعيمها يوما ما ـ جامعة هيللاس . ولم تستطع طيبة بأى حال من الأحوال أن تحجب عن أثينا شمسها المشرقة ، لأن طيبة ذاتها كانت جديدة على السيادة الهللينية . ووسيلة سيادتها لم يكن الفكر بل القوة المنظمة ... نعم لقد أخرجت طيبة عبقريات ساهمت فى التراث الحضارى الاغريقى ، مثل الشاعر الغنائى العظيم بندار ولكن ذلك يبدو نادرة لأن شعب طيبة كان شعبا عمليا فى المقام الأول يتيم حبا بالتجارة والتعامل المادى كما كانوا ذوى خيال محدود ويتسمون بالحرص الشديد والأنانية المطلقة وتفادى المغامرة بأى وسيلة ، وقد دفعتهم أنانيتهم الى التعاون مع الفرس ضد الاغريق . كما تعكس أساطيرهم القسوة والعنف والتلذذ « السادى » فى التعذيب ، فأوديب مثلا يقتل أباه لايوس Laios ويتزوج من أمه يوكاستى (Iocaste) دون أن يدرى ، ولما اكتشف الاثم الذى ارتكبه فقأ عينيه بأصبعه تكفيرا عن هذا الاثم . انها مأساة شاذة لاتصدر الا عن خيال معتل وعقيم . ومن أساطير طيبة السقيمة البربرية أسطورة أبى الهول أكل لحوم البشر . ومأساة الراعى أكتايون Actaeon الذى أغضب ربه الصيد أرتميس وهى تستحم فى بركة مياه وسط الأدغال فأوحت الى كلابه أن تمزقه اربا . كما روى لنا بلوتارخوس نفسه أن أهل طيبة كانوا يمارسون تقديم القرابين البشرية .

كان فيليب فتى وسيما ، مهذبا ، خفيف الظل ، لبقا محبا للرياضة وعاشقا للثقافة وطريقة الحياة الأثينية ، ولكنه بالرغم من ذلك لم يستطع أن يتخلص من الجفوة وخشونة الطباع والأنفة وغيرها من صفات البداوة التى آلت اليه من القبائل المقدونية الجبلية . ولهذا فقد كان سلوكه

متأرجحا بين رقة الحضارة والتهذيب وغلاظة الطباع القبلية وجفوتها .
كان فيليب طموحا ، يجيد فن الدبلوماسية لدرجة أن الاغريق اتهموه بأنه رجل لا يمكن أن يثق المرء فيه ، كما كان قائدا عسكريا حقيقيا يدير ويسيطر بمهارة على المعارك . ولكنه كان يؤمن بأن القتال ليس غاية فى حد ذاته ولكنه وسيلة لتحقيق النفوذ السياسى .

كان فيليب شديد الولع بالعمل ينكب عليه ولا يسأمه ، وفى أوقات فراغه ـ ق نفسه فى المتعة والشراب لدرجة أن الخطيب الاثينى ديموسثنيس Demosthenes شبهه « بقطعة من الاسفنج » عند الشراب (١) . كما كان متطرفا مسرفا لا يعرف الاعتدال (٢) متهورا فى القتال لا يهاب الموت أبدا بل يعشق المخاطر مما أدهش أعداءه فقال ديموسثنيس عنه « يا له من رجل ! من أجل النفوذ والسيطرة فقئت عينه وكسر كتفه وشلت ذراعه وساقه (٣) » . ومن صفات فيليب أيضا أنه كان حاد الطباع ، سريع الغضب ، عنيفا اذا انفعل ولهذا كان مرهوب الجانب . كما كان مولعا بمطاردة النساء الجميلات ، دائم التزاوج بهن (٤) .

فيليب يحقق لمقدونيا السطوة والسيادة العسكرية :

كان فيليب جنديا وقائدا بمعنى الكلمة ، فقد كان حازما ، صبورا جلدا مقداما ، يتقدم الجيوش ناكرا لذاته عند القتال ، كما كان مدربا رائعا تمكن من تدريب رجاله بعنف فخلق منهم نواة الجيش المقدونى الذى لا يقهر ، والذى لا يعرف سوى الخشونة والبساطة كما ضرب فيليب لجنوده المثل الأعلى فى سلوكه المتواضع ، فكان يحيا حياتهم ويشاركهم أفراحهم وأغانيهم ورقصاتهم ، ولا يغضب من مصارحة جنوده

---

(١) Plutarchus, Demosthenes, XVI.

(٢) Athenaeus, IV, 62.

(٣) Demosthenes., On the Crown, 67.

(٤) Athenaeus, XIII, 5.

البدو التي لا تعرف التملق (١) ، ولكنه كان قاسيا عند العقاب اذ كان ينفذه على مشهد من الجنود بلا رحمة أو شفقة (٢) .

بدأ فيليب تنظيم قوته العسكرية بأن جمع حوله أشراف القبائل المقدونية الذين تأغرقوا وسماهم « بالرفاق » (hetairoi) . وقد جعل فيليب من هؤلاء الرفاق نواة قوة الفرسان فى الجيش المقدونى التى أصبحت تلعب دورا حيويا « فى التكتيك » العسكرى الجديد . وقد بدأت هذه القوة بعدد محدود هو ستمائة فرد (٣) . ويقاتلون جماعة ويضربون المثل فى التعاون والتنافس مع باقى فرق الجيش عند القتال .

أما مشاة الجيش المقدونى . فكانوا من عامة الرعاة والفلاحين المقدونيين حيث استغل فيليب طباعهم الشرسة وغرائزهم العدوانية ليجعل منهم أعظم جنود عرفهم التاريخ .

كان تشكيل الجيش المقدونى يقوم على « الفيلق » Phalanx الذى جمله وحدة التنظيم . والفيلق هو جمع كثيف من المشاة يتكون من ما بين عشرة الى ستة عشرة صفا من الجنود . وكان جنود الفيلق مجهزين بالحراب الطويلة والسيوف القصيرة والدروع الكبيرة ويضعون فوق رءوسهم خوذات نحاسية ويغطون قصبة أرجلهم بالجلد السميك (greaves) ومن الملاحظ أن الفيلق المقدونى كان على غرار الفيلق الطيبى ، باستثناء أن

(١) Polybious, V, 27.

(٢) Arrian III, 26.

(٣) (3) Diodorus, XVI, 4.

ويقترح داسكالاكيس ان هذا النظام كان موجودا بين الاغريق فى العصور القديمة حيث ذكر هوميروس رفاق الملك من كان يوزع عليهم الاقطاعيات والهدايا بل أن رفاق أخيليس بطل الاغريق الذين اصطحبوه الى طروادة لقبوا بهذا الاسم ، كما اعطى هوميروس نفس اللقب لرفاق اوديسيوس الذين ضلوا فى البحر معه وبانهيار سلطة الملك اختفى هذا النظام من بلاد اليونان وبقى فى مقدونيا . وبعد تحضر مقدونيا تغير المعنى لياخذ معنا طبقيا يميز طبقة الاقطاعيين المرافقين للملك والذى يحاربون معه ويكونون مجلس اركان حربه .

Daskalakis p. 82 Kings-Comprodes-in arms

هذا الأخير كان يتكون من خمسة وعشرين صفا • كذلك قلد فيليب النظام العسكرى الطيبى عندما جعل فى مؤخرة فيلقه فصيلة من الرماة بالنبال لحمايتها •

كذلك قسم فرقة الفرسان الى ميمنة وميسرة تحف بفيالق المشاة لتحميها من كل جانب • وقد استخدم فيليب كل خبرته التى تعلمها أثناء اقامته فى طيبة ليخلق جيشا مقدونيا يزيد على عشرة آلاف مقاتل محترف، يتحرقون شوقا للقتال ويتسابقون على الموت — فداءا للوطن وللملك•

كان من الطبيعى أن يعتمد فيليب فى البداية على الجنود المرتزقة من الاغريق (١) ولكنه استغنى عن خدماتهم تدريجيا لكى يفسح المجال أمام القبائل المقدونية لكى تتطوع فى الجيش من أجل جعل الجيش مقدونيا وطنيا خالصا • خاصة عندما يحين الوقت لكى يتعامل مع الاغريق فى الجنوب • كان مفهوم فيليب للجيش هو الزعامة الشعبية والقيادة العسكرية فى نفس الوقت • فالشعب هو الجيش والقيادة هى الحكومة•

وكان أول فرصة أتيحت للجيش المقدونى الجديد لكى يجرب نفسه ونظامه ، عندما اندلعت الفتنة بين قبائل اقليم لنكستيس • وهبطت القوات المقدونية لتسحق المتمردين سحقا ، دون هوادة وبسرعة خاطفة• وهكذا أصبحت مقدونيا فى عهد فيليب الثانى وريثة لأسبرطة وطيبة فى تحقيق أكبر قوة ضارية عرفها الاغريق •

فيليب ومناجم الذهب :

كانت الخطوة الثانية لفيليب هو توفير المال الكافى لتدعيم القوة العسكرية • ومن ثم بدأ فى استغلال مناجم الذهب فى جبال بنجايوس Pangaios على الحدود بين تراكيا ومقدونيا • وكانت مدينة أمفيبوليس تقع بالقرب من هذه المناجم • وهى مستوطنة آثينية وكانت أمفيبوليس Amphiopolis تستغل مناجم الذهب وتصدره عن طريق مينائها• فاستغل فيليب تورط أثينا فى مشاكل سياسية مع حلفائها واستولى على أمفيبوليس بالقوة معلنا أن احتلاله لهذه المدينة أمرا ضروريا وليس عملا مقصودا به

(1) Demosthenes, Olynthias, II, 17 ; Diodorus, XVI, 8.

الدخول فى صراع مع أثينا • وبعد ذلك بنى فيليب مدينة جديدة محصنة سماها فيليبيا Philippeia (١) • وجعلها مركز انتساج الذهب • ومن الثروة الجديدة سك فيليب عملة مقدونية ذهبية أخذت طريقها كوسيلة لاغراءالسياسيين وشراء ضمائرهم • وجعل هذا الذهب مقدونيا أغنى ولاية فى بلاد الاغريق •

زواج فيليب وانجابه الاسكندر :

يروى المؤرخون أن فيليب عندما كان فى الرابعة والعشرين من عمره ، سافر الى جزيرة ساموثراكى القريبة من شواطىء تراكيا للمشاركة فى احتفالات دينية أقيمت عام ٣٥٨ ق•م احتفاء بشياطين البراكين (Cabiri) والذين نسبت الأساطير الاغريقية أبوتهم الى هيفايستوس رب النار والحدادة • وكانت لهؤلاء المردة عبادة ذات طقوس سرية تتسم بالعنف والجنون والسحر حيث تطلق فيها زمام العواطف والشهوات الماجنة وتصادف أن التقى فيليب هناك بأميرة مملكة ابيروس Epirus التى تقع فى شمال غرب اليونان (جنوب ألبانيا حاليا) وكانت هذه الأميرة قد جاءت أيضا للمشاركة فى تلك الشعائر السحرية وشاء القدر لفيليب أن يطلب الزواج منها وأن يتم له ذلك •

كانت أولمبياس Olympias شأنها شأن غيرها من نساء قومها وعصرها من مريدات الشعائر الصاخبة المجنونة ، والماجنة ، اذ كانت تشترك فى الرقصات العنيفة وهى تلف حول جسدها حية كبيرة أملا فى التسامى عن المادية والارتقاء الى عالم الروح اللا محدود وجعل الجسم لائقا لوظيفته الأساسية وهى أن يكون محرابا طاهرا للروح ، وكان ذلك فى الحقيقة هو المفهوم الصوفى عند الوثنيين • ويحدثنا بلوتارخوس فى اسهاب عن طبيعة هذه المرأة الجامحة وغيرتها القاتلة وانتقامها البشع

---

(١) شهدت هذه المدينة وبالتحديد فى السهل الذى يفصل بينها وبين مدينة امفيبوليس ـ أعظم معارك التاريخ الرومانى ، عندما هزم انطونيوس واكتافيوس قتله يوليوس قيصر وعلى رأسهم بروتوس وكاسيوس عام ٤٣ ق•م •

وألفتها الشديدة وايمانها المطلق بالشعوذة ، وخاصة بالعرافة المقيمة فى معبد زيوس فى دودونا حيث مركز عبادته • كما كانت تذهب الى سريرها محتضنة الثعبان الضخم أملا فى الالتقاء والتزاوج بزيوس فى شكل الثعبان • على أى حال جذبت هذه الصفات البربرية فيليب وجعل منها زوجة له وملكة على مقدونيا •

ولم يمض وقت طويل حتى حملت أولمبياس ، وزادت هواجسها الدينية حتى فاقت كل تصور ، مدعية أن « زيوس — آمون » أنزل عليها صاعقة أشعلت النيران فى كل جسدها ، ومن ثم راح الكهنة والمنجمون يجتهدون فى تفسيرهذا الحلم ويتنبأون بقدسية المولود القادم وشجاعته • وكما نفهم من نصوص بلوتارخوس ضاق فيليب ذرعا بسلوك زوجته وادعائها أن زيوس — آمون هو الوالد الحقيقى للجنين الذى يقبع فى أحشائها •

وفى شهر سبتمبر عام ٣٥٦ ق•م بينما كان فيليب منصرفا لخدمة قواته بل ويقيم مع جيشه فى الثكنات ، جاءه البشير أنه قد وهب ذكرا ، وفى نفس الوقت جاءته الأنباء أن قائده بارمينيون (Parmenion) قد كسب نصرا ساحقا على الأليريين فاعتبر فيليب ذلك طالع السعد للمولود الجديد الذى سماه الاسكندر (الكسندروس) (Alexandros) تيمنا بأجداده ممن حملوا ذلك الاسم ، كذلك جاءته الأنباء أن مستوطنة بوتيدايا Potidaea الواقعة عند عنق الشعبة الغربية المسماة بالينى Pallene ثالث شعب منطقة خالكيديكى Chalcidice الاغريقية قد استسلمت لقوات فيليب ، وأن حصان فيليب الشهير قد فاز فى المباريات الأولمبية فى ذلك العام • ويقول بلوتارخوس أن الأنباء قد جاءت أيضا من أيونيا بأن حريقا قد شب فى معبد الربة ديمتر الشهير فى مدينة افسوس وكان أحد عجائب الدنيا السبع • وأن النيران قد أتت على المعبد تماما وأن ذلك الحريق قد شب فى نفس اللحظة التى ولد فيها الاسكندر • وسارع الكهنة الى ايجاد تفسير لهذه الظاهرة بأن ذلك ليس الا نذيرا لأمبراطوريات الشرق بأن شعلة من نار مقدسة قد خرجت الى الحياة ،

وأنها سوف تأتي في يوم من الأيام على الشرق كله . وعلى أي حال فان مثل هذه الأقاصيص التي سجلها بلوتارخوس ليست الا تفسيرات جانبية جمعت ونسبت لمولد الاسكندر بقصد تبيان قداسته وقدره مستقبلا .

الصراع بين فيليب والاغريق :

يرجع أصول الصراع بين فيليب والاغريق عندما أيدت أثينا أحـد المطالبين بعرش مقدونيا واسمه أرجايوس ضـد الملك فيليب ، ولجأ أرجايوس الى أثينا حيث وعد سياسيها بالتنازل لهم عن مدينة أمفيبوليس اذا ما ساعدوه في العودة الى عرش مقدونيا . ووجد الأثينيون أن في ذلك فرصة ذهبية لنشر سلطانهم وتشديد قبضتهم على منطقة تساليا واقليم الخرسونيس . فارسلوا أرجايوس بصحبة قوة بحرية الى مدينة ميثوني (Methone) ولكن فيليب تصرف بدهاء ، اذ أمر بسحب كل المقدونيين من هذه المستوطنة ثم قبض على أرجايوس وأرسله مع باقي المرتزقة الى أثينا ، محتجا على تدخل أثينا في شئون مقدونيا الداخلية .

كانت بداية المواجهة عام ٣٥٧ ق.م عندما أعلن فيليب الحرب على مستوطنة أمفيبوليس واستولى عليها بعد قتال عنيف ، وقد ساعده على ذلك تعاطف سكان المستوطنة مع مقدونيا . ولما طالب أرجايوس أثينا بالتدخل لم تستجب . وقد قيل أن أثينا أعرضت عن هذا الطلب لوجود اتفاق مبرم بينها وبين فيليب بأن يسلمهم أمفيبوليس مقابل أن يسلموه مدينة بودنا . ولكن فيليب بعد استيلائه على أمفيبوليس Amphipolis احتفظ بها لنفسه ولم تستطع أثينا أن تفعل شيئا بسبب تورطها في الصراع ضد حلفائها عندما بدأ الانهيار يحيق بامبراطوريتها الثانية .

بدأ فيليب يسلك سلوكا عدوانيا ضد المستوطنات الاغريقية على ساحل تراكيا ، وركز بالذات على مدينة أولينثوس Olynthus ، التي طلبت النجدة من أثينا بل وأعلنت التحالف معها . ولكن ذلك لم يأت

بفائدة • اذ تمكن فيليب عام ٣٥٦ ق٠م (١) عن طريق التعاون مع أنصاره من الاستيلاء على مدينة بودنا Pydna ، ثم عقد معاهــدة مؤقتة مع أولينثوس Olynthus لكى يتمكن من الهجوم على مدينة بوتيدايا • ويستولى عليها • وعلى أثر ذلك أرسل القوات الأثينية التى أسرها الى بلدها وسلم بوتيدايا الى أولينثوس ثمنا للسلام معها •

وحاولت أثينا الرد على ذلك بالتحالف مع بعض زعماء القبائل الثائرة على فيليب فى تراكيا وباونيا والليريا ، ولكن بارمينيون تمكن من سحق المتآمرين بسرعة وهكذا وجد الأثينيون أنفسهم فى حرب مع مقدونيا ؛ ففى عام ٣٥٥ ق٠م عادت أثينا الى مضايقة مقدونيا باحياء تحالف قديم مع مدينة نيابوليس بقصد اثارة القلاقل ضد فيليب •

وبعد الاستيلاء على أمفيوليس ، بدأ فيليب فى اسـتغلال مناجم الذهب وكما سبق أن أشرنا أنشأ مستوطنة مقدونية سماها فيليبيا جعل منها مركزا لصناعة الذهب واستغلال مناجمه، وبفضل ذلك وضع فيليب يداه على ثروة طائلة راحت تدر على مقدونيا دخلا سنويا يزيد على الألف تالنت • ومن ثم بدأ فيليب فى سك عملات ذهبية تحمل صورته • كما وضع وحدة ثابتة للتعامل على أساس الأستاتير الذهبى (Stater) ، وكان الأستاتير المقدونى يقل فى وزنه قليلا عن « الداريك » (Darik) الفارسى وبهذا أخذ نظام التعامل المقدوني الجديد فى الانتشار وحل محل نظام التعامل النقدى الفارسى •

وكان الأستاتير المقدونى يعادل ست قطع فضية من العملة الأثينية من فئة التترادرخمات والتى كانت تسك على أساس التعامل النقدى الفينيقى (٢) •

---

(١) عن تاريخ التدخل المقدونى فى تساليا انظر المقال الطريف والذى يرجع أوله الى عام ٣٥٨ ق٠م

G.T. Griffith," Philip of Macedon early interventions in Thessaly, Classical Quertily, XX, 1970, P. 67 ff. L = R.H. CCXLVI, 1971, pp. 126).

(٢) C.A.H., pl. II — 6.

فى ذلك الوقت كانت الامبراطورية الأثينية تعـانى تفككا وانهيارا بسبب ثورات حلفائها عليها وبسبب تدخل الملك الفارسى أرتاكسيركسيس الثالث والمعروف باسم الملك أوخوس (Ochus) الى جانب تدخل ملك كاريا الآسيوى الشهير ، ماوصولوس Mausolos مستخدما ثراءه فى رشوة حلفاء أثينا للاستيلاء على بعض ممتلكات أمبراطوريتها فى آسيا الصغرى وبعض الجزر خاصة رودوس .

وكما سبق أن تعرضنا لهذا ، ظهرت دعوة سلام فى أثينا . من جانب بعض سياسيها الذين طالبوا بالبعد عن الصراعات والسياسة العدوانية بسبب الضعف الاقتصادى . وتطبيقا لهذه الدعوة الجديدة رفضت أثينا الاستجابة الى طلب المساعدة الذى تقدم به الديموقراطيون فى رودوس من أجل اسقاط حكم الأوليجارخيين والعميل لأرملة ماوصولوس القادرة والتى كانت تعرف باسم أرتيميسيا . Artemisia بالرغم من تحذيرات ديموستنيس فى خطبته الأولى .

فوكيس تسبب ازمة تؤدى الى حرب مقدسة :

وفى نفس العام الذى ولد فيه الاسكندر الأكبر ، حدثت أزمة كبرى سببها دويلة فوكيس (Phocis) تلك الدويلة الواقعة فى جنوب تساليا حيث يحدها من الشرق دويلة طيبة ومن الغرب مدينة دلفى مقر المجمع المقدس .

بالرغم من الطابع الفوضوى الذى ساد العلاقات بين الدويلات الاغريقية ردحا من الزمن حيث انتهكت خلالها الشرعية والقانون ، الا أن مؤسسة واحدة بقيت بعيدة عن هذه الصراعات والفوضى الا وهو المجمع الأمفكتيونى المقدس .

يرجع نشأة هـذا المجمع الى فجر التاريخ الاغريقى عندما أخذت مؤسسات وتحالفات على مستوى يفوق تنظيم دويلات المدن تبدأ فى الظهور ، وكانت هذه التحالفات يجمعها عادة ديانة معينة . وكان أكبر هذه التجمعات الدينية اتساعا الحلف الأمفكتيونى وذلك لأن أعضـاءه

المؤسسين كانوا اثنتا عشرة قبيلة قومية هللينية وليس مدنا محدودة سياسيا .
وكان مكان التجمع الأساسي هو حول معبد الربة ديميتر Demeter
في مدينة أنثيلا Anthela بالقرب من ممر الترموبيلاى Thermopylae
ثم أصبح يعقد مرة في دلفي ومرة في أنثيلا أي مرتين كل عام .

وبمرور الوقت أصبح المجمع الأمفكتيوني المقدس هو الهيئة الوحيدة والمشرفة على معبد الاله أبوللون . وقد سبق الحديث (١) عن أهمية دلفي الدينية والقومية وكيف أنها كانت مصدرا للحصول على رأى الاله في مشاكل الاغريق الشخصية والسياسية . وبسبب الصراع الناشيء بين الدويلات الاغريقية وجد هذا المجمع نفسه في موقف حرج بالرغم من أنه لم يكن يعترف بالتقسيم السياسي للاغريق في شكل دويلات مدن ، بل كان يعترف بتقسيم القبائل الأصلية التي انخرط منها الاغريق . اذ قسم الاغريق الى اثنى عشر قبيلة ، وجعل لكل قبيلة ممثلين في المجلس ، ولكل ممثل صوت مستقل عند التصويت .

وكان الأثينيون مثلا يدرجون تحت اسم القبيلة الأيونية وأسبرطة تحت اسم القبيلة الدورية ، وبالرغم من هذا فقد كانت الدولة هي التي تحرك أصوات القبيلة في المجلس وليس العكس خاصة فيما يتعلق بأثينا وأسبرطة ، أما طيبة فقد لعبت دورها أيضا عندما كانت في موضع القيادة اذ حرصت على تجنيد أصوات قبائل وسط اليونان وتساليا لصالحها ومن ثم فقد مارست تأثيرا قويا على سير العمل في المجمع الأمفكتيوني (٢) .

بدأت الأزمة عام ٣٥٧ ق.م عندما أصدر المجمع الأمفكتيوني قرارا يدين عددا من أثرياء دويلة فوكيس ويفرض عليهم غرامة كبيرة لتعديهم على الأرض المقدسة والموقوفة لصالح معبد الاله أبوللون (٣) . ولم يكن ذلك شيئا جديدا اذ سبق للمجمع أن أصدر قرارا مماثلا ضد الأسبرطين

---

(١) انظر ص ١١١ وما بعدها .
(٢) انظر ص ٤٣٨ وما بعدها .
(٣) Diodorus, XVI, 23.

بعد هزيمتهم فى معركة ليوكترا عقابا لهم على احتلالهم قلعة كادميا فى طيبة . وامتثل الأسبرطيون للقرار . ولكن أهل فوكيس عاندوا ورفضوا . ولما كانت طيبة تلعب دور الحامية للمجمع المقدس فضلا عن تحفزها لضرب أهل فوكيس بسبب انسلاخهم عنها بعد تدهور أمبراطوريتها عام ٣٦١ ق.م فقد استغلت هذه الأزمة لضرب فوكيس مستعينة بقبائل تساليا المعادية لفوكيس ولكن طيبة قد فشلت بسبب ظهور عدد من الطغاة العسكريين الأقوياء فى فوكيس والذين كرسوا كل طاقاتهم الى تدعيم القوة العسكرية لفوكيس مما سبب تخلخلا فى الميزان السياسى والعسكرى فى بلاد اليونان .

عندما أعلن المجمع الأمفكتونى الحرب على فوكيس وسارت قوات طيبة على الفور الى المدينة المتمردة والتى رفض قائدها فيلوميلوس الانصياع الى قرار المجمع المقدس عام ٣٥٦ ق.م بل سارع وطلب النجدة من أسبرطة المعادية لطيبة وتمكن فيلوميلوس بمساعدة القوات المرتزقة بالاضافة الى جيش فوكيس الصغير والذى كان يتكون من ألف من الجنود المسلحين بالأسلحة الخفيفة (pelastes) من الاستيلاء على دلفى والحرم المقدس . ولما حاول مواطنو مدينة أمفيسا تحرير معبد أبوللون من قوات فوكيس سحقهم فيلوميلوس بلا رحمة .

ولكى يحافظ فيلوميلوس على بطشه العسكرى اضطر الى فرض ضرائب باهظة على كهنة وسكان دلفى . وفى العام التالى أرسل فيلوميلوس رسالة الى كل دويلات اليونان ، يعرض فيها حق فوكيس فى ادارة المدينة المقدسة معتمدا على نص جاء فى سفر السفن فى الياذة هوميروس يصف أهل فوكيس بأنهم «سادة دلفى» . وكان نداء فيلوميلوس مؤثرا لدرجة جعلت كل من أثينا وأسبرطة تعلنان تأييدهما لحق فوكيس فى ادارة دلفى . ولكنهما أحجمتا عن ارسال أى قوات عسكرية أما اقليم أخيا (Achaea) فقد أرسل قوات عسكرية للدفاع عن حق فوكيس وقد عبرت هذه القوات خليج كورنثا عام ٣٥٤ ق. م .

وفى العام التالى سارعت قوات فوكيس بمهاجمة مقاطعة لوكريس العليا Locris بغرض فتح ثغرة تفصل بين طيبة وبين حلفائها فى تساليا • ودارت عدة معارك انتهت بسحق قوات فوكيس وقتل فيلوميلون •

ولم ينته الأمر عند هذا الحد • اذ تولى قيادة جيش فوكيس المندحر شقيق فيلوميلون وكان اسمه أونومارخوس Onomarchus • والذى جمع فلول الجيش المندحر ليعاود القتال • وكان أونومارخوس خطيبا مفوها شديد التأثير فى مستمعيه • وبدأ احياء جيش فوكيس بالاستيلاء على كنوز دلفى وصهرها وسكها عملات ذهبية وصهر الأدوات والتماثيل البرونزية لكى يصنع منها أسلحة • وعن طريق ثروة دلفى المصادرة أمكنه من تجنيد عدد كبير من المرتزقة • ثم هاجم شرق لوكريس وغرب بيوتيا واستولى على مدينة أورخومينوس • ثم استطاع عن طريق الهدايا أن يشترى تأييد لوكوفرون طاغية مدينة فيراى ليقف الى جانبه • ولكن هذا الأخير نجح فى أن يورط أونومارخوس فى مشاكله لأنه كان يطمع فى اخضاع كل مدن تساليا وجعلها تحت رئاسته واقامة نفســه رئيسا (Tagos) عليها • ولما اعترضت مدينة لاريسا Larissa التى كانت تقع بين مقدونيا ومدينة فيراى على ذلك حاول اقتحامها ولم تجد المدينــة الشجاعة خيارا فى طلب النجدة من فيليب المقدونى للتدخل لحمايتها من لوكوفرون وأونومارخوس طاغيتا فيراى وفوكيس • وأيدت تساليا طلب لاريسا Larissa وارتمت فى أحضان فيليب المقدونى الذى وجد فى ذلك فرصة قيمة للتدخل واظهار نفسه كبطل تقى وخادم للمجمع المقدس فى دلفى وجعل مقدونيا تلعب دور القوة الجديدة على مسرح الأحداث فى بلاد اليونان • وسارع أونومارخوس لنجدة حليفه لوكوفرون طاغيــة فيراى ولدهشــة التاريخ ألحق أونومارخوس طاغية فوكيس الهزيمة بقوات فيليب الثانى مرتين متتاليتين فى عام ٣٥٣ ق•م واستولى على عدة مناطق من بيوتيا • واضطر فيليب الى الانسحاب بسرعة نحو الشمال • واعتبر هذه الهزيمة تجربة مفيدة فى أول التحام عسكرى له مع الاغريق •

ولكن سرعان ما عاد فيليب كالثور الهائج على رأس قوات كبيرة وبمساعدة تساليا كلها بعد أن أقنع جنوده بأنهم يخوضون حربا مقدسة من أجل الاله أبوللون وانتقاما لشرفه الذى أهانه أهل فوكيس وحلفائهم ودارت معركة فاصلة وذلك عند خليج بيجاساى Pegasae سحق فيها فيليب أونومارخوس وقواته وأراد فيليب أن ينزل عقابا بشعا لمن يخالف المجمع الأمفكتيونى مستقبلا اذا أمر باغراق ثلاثة آلاف جندى من الأعداء فى البحر والاتيان بجثة أونومارخوس الذى كان قد مات غريقا فى الخليج وصلبها جزءا وفاقا .

أما لوكوفرون طاغية فيراى فقد ولى الأدبار عائدا الى بلاد اليونان الوسطى ولم يعد الى مدينته لأن قوات فيليب استولت عليها وعلى مينائها وعلى منطقة تساليا الشرقية كلها وأعلنت لاريسا قبولها لفيليب رئيسا لها وعلى كل تساليا . وهكذا وجد فيليب فرصة نادرة لفرض سلطانه على تساليا وكسب نفوذ واحترام كهنة دلفى .

ولما أراد فيليب أن يحول نصره الى أسهم سياسية فى بلاد اليونان وذلك عندما أراد أن يعبر ممر الثرموبيلاى جنوبا ليدخل دلفى فى احتفال كبير حيث يستقبل استقبال الفاتحين . سارعت أثينا بارسال قوات لاحتلال ممر الثرموبيلاى اشارة الى اعلانها أن فيليب ضيف غير مرغوب فيه حتى ولو جاء متخفيا تحت ستار حماية العقيدة ، ولما أدرك فيليب ذلك صرف النظر عن الذهاب الى دلفى وآثر أن يقضى بعض الوقت فى تساليا يفرض نفوذه بالدبلوماسية والذهب [١] ثم عاد أدراجه الى مقدونيا عام ٣٥٣ ق.م ومن تساليا قرر فيليب تطهير المنطقة من المستوطنات الاغريقية ولم يكد يمر عام حتى كان فيليب على مسافة أربعين ميلا فقط من منطقة البسفور والدردنيل وعلى مقربة من أى وقت مضى من حدود بلاد الفرس .

---

(١) Polynaeus, IV, 2, 19.

الاستيلاء على اولينثوس :

وفى عام ٣٤٩ قاد فيليب جيوشه شرقا الى منطقة خالكيديكى ذات الشعاب الثلاث للاستيلاء على المستوطنات الاغريقية هناك والتى كانت أولينثوس تتزعمها (١) • وكانت سلطات هذه المدينة قد أغضبت فيليب الثانى عندما آوت اليها أحد أشقائه من أبيه والذين كانوا يطالبون بعرش مقدونيا عندئذ وجه فيليب انذارا الى أولينثوس بالاستسلام له فورا ولكن سلطات المدينة تحت تأثير وايعاز من أثينا رفضت هذا الانذار وأغلقت بواباتها وحصنت نفسها وعزمت على مقاومة فيليب وظلت تقاومه حتى عام ٣٤٧ق•م

ولكن فيليب أدرك أنه ليس بالقتال وحده يستطيع المرء الاستيلاء على كل شىء وقرر استخدام سلاح الرشوة بالذهب وبالفعل فتحت الخيانة له أبواب المدينة ليدخل بقواته ويزيل البوابات ويهدم التحصينات ، ويأمر بقتل شقيقيه المطالبين بالعرش ويبيع سكان أولينثوس فى أسواق العبيد • وعند مدينة ديون على مسافة أميال قليلة من مدينة جبل الألمبوس • احتفل فيليب بانتصاره الكبير فى مهرجان زيوس رب أرباب الاغريق • وجعل من احتفاله مناسبة لاظهار الترف والبذخ المقدونى اذ دعى كبار الفنانين الاغريق للترفيه عن جنود مقدونيا المتأغرقين • وكان هدفه هو توجيه رسالة عاطفية الاى الاغريق بأن المقدونيين أشقاء لهم فى الحضارة والعنصر •

وقد نزل نبأ سقوط أولينثوس (١) نزول الصاعقة على الأثينيين فحاولوا ارسال نجدة الى المستوطنات الاغريقية الأخرى • ولكن فيليب بعث للأثينيين رسالة يعلن فيها أنه لا يريد الدخول معهم فى حرب وأنه يبغى السلام والمصلحة معهم وأن ما فعله ليس الا حقا من حقوقه فهو يطرد مستوطنين دخلاء من سواحل بلاده الجنوبية وأنه قد انتهى من ذلك وليس له مطلب آخر • ثم طالب أن يكون صديقا لأثينا لا عدوا لها •

(١) عن محاولات أولينثوس المبكرة لانشاء حلف اتحادى مع خالكيديكى انظر :

M. Zahmdit," Olynth und die Chalkidier. Untersuchungen zur Staatenbildung auf der chalkisdischen Halbinsel in 5 und 4 Jth V. Chr., Vestigia, 14, Muncih 1971.

(٢) حدث ذلك فى أثناء ثورة يوبويا على اثينا وانسحابها من الامبراطورية الاثينية .

وأدرك الأثينيون أن السيف قد سبق العزل ولم يجدوا بدا من ارسال وفد الى بيلا لبحث امكانية التصالح مع فيليب . وكان الوفد يتكون من عشرة أعضاء ويرأسهم خطيب وسياسى مفوه ألا وهو ديموسثنيس والذى كان أصغر أعضاء الوفد سنا .

ديموسثنيس (١) الخطيب المتطرف :

كان ديموسثينس يبلغ من العمر آنذاك ثمان وثلاثين عاما . وكان يتزعم الحزب الوطنى المتطرف فى أثينا والذى كان يتمسك بتعصب شديد بالتقاليد القديمة ويرفض التجديد . وكان هذا الحزب يعتبر ظهور مقدونيا خطرا فادحا يهدد الوجود والديموقراطية الأثينية ولكى يشعر الناس بذلك فقد ألقى ديموسثنيس عددا من الخطب النارية ضد الملك فيليب . ولما كانت خطب ديموسثنيس نموذجا راقيا لنقاء اللغة اليونانية بلهجتها الاتيكية ، فقد جمعت بل وأصبحت أساسية فى كتب المطالعة لطلاب الأدب اليونانى القديم . ولما كانت هذه الخطب قد بلغت ذروتها فى الضراوة والتشهير السياسى بما فى ذلك الأفتراء والاثارة . فقد لقبت هذه المجموعة من الخطب بالفيليبيات (Philippics) .

فبالرغم من روعة الانشاء ونقاء اللغة وقوة التعبير الا أن ديموسثينس كان يعوذه اجادة الالقاء . فقد كان عصبيا فى حركاته ، ذا صوت غير جهورى فضلا على أنه كان يلتغ ويتلعثم خاصة عندما ينفعل مما يثير فى المستمع نوعا من الملل والنفور . ولقد حاول ديموسثنبس أن يتخلص من هذا العيب فقد قيل أنه اعتاد الذهاب الى شاطىء البحر وحيدا ، ثم يملأ فمه بالحصى ويرفع عقيرته مرددا أبياتا من الشعر فى مواجهة عصف الريح وهدير الأمواج وقد قيل أنه لكى يمرن نفسه على طول النفس فى الالقاء اعتاد التمرن على القاء خطبته وهو يصعد تلا عاليا .

ولما لاحظ أصدقاؤه أنه يهز أحد كتفيه عند الالقاء وضع ثقلا على هذا الكتف حتى لا يحركه كثيرا ، وروى أنه لم يكن يتردد أن يحلق

---

(١) يؤثر البعض تسميته بـ « ديموستين » ولكنى آثرت ان اتمسك بالاسم الأصلى حرفيا .

نصف شعر رأسه ويترك النصف الآخر حتى يجبر نفسه على البقاء فى منزله ليتم عملا يريد أن ينجزه .

كان ديموستنيس رجلا وسيما ، مهذبا ولهذا فقد كان «رجل السيدات» المفضل لأنه كان ضعيفا أمامهن ، ولقد وجه اليه أحد مساعديه نقدا مريرا بسبب ذلك اذا قال : « ماذا يفعل الواحد مع ديموستنيس ؟ ان كل ما يفكر فيه على مدى عام كامل يذهب هباء فى ليلة واحدة فى صحبة امرأة (١) » .

وعندما مثل الوفد الأثينى أمام فيليب المقدونى طلب هذا الأخير أن يكون دور كل منهم فى الحديث حسب العمر وكان هذا يعنى أن دور ديموستنيس سوف يكون الأخير . ولما جاء دوره تلعثم ولم تسعفه ذاكرته وتصبب منه العرق وأحمر وجهه ثم اعتذر عن عدم قدرته على القاء خطابه . وربما بهر ديموستينس بوقار فيليب وعظمة عرشه ، وعلى أى حال قابل فيليب ذلك اللقاء ببرود تام وطلب من ديموستينس ألا يتعجل فى القاء خطابه ونصحه بالاستراحة لكى يسترجع ذاكرته وانتهى اللقاء ، وعلى مأدبة تكريم الوفد الأثينى اقترح فيليب أن يقوم بين أثينا ومقدونيا تحالفا وليس سلاما فقط .

وعاد الوفد مسحورا بشخصية فيليب ونقلوا هـذا الانطباع الى المجلس الشعبى (الاكليسيا) فى أثينا . ولكن فجأة انبرى ديموستنيس لرفاقه وهو يقرعهم واحدا تلو الآخر متهما اياهم بالسذاجة ، لأن فيليب قد خدعهم بمظهره وأثر فيهم بسحر حديثه وقوة شخصيته .

عاد الوفد الأثينى مرة ثانية الى بيلا ، وظل ينتظر عدة شهور عودة فيليب من ميدان القتال ، وقد أتاحت هذه الفرصة لديموستنيس أن يلتقى لأول مرة بالأمير الصغير الاسكندر والذى كان فى العاشرة من عمره آنذاك وأعجب بتربيته وبالقسط الوافر من الأدب والشعر الاغريقى الذى كان يتعلمه .

---

(١) Athenaeus, XIII, 63.

فيليب فى دلفى :

وفى عام ٣٤٦ ق٠م بعد أن هدأ أثينا بالوعود ، عزم فيليب على اختراق تساليا وزيارة المدينة المقدسة ولكنه وجد أن ممر الثرموبيلاى محتلا بفرقة من جنود فوكيس وبعض قوات الجنود المرتزقة ، فقرر أن يرشو هؤلاء الجنود بالذهب ويوفر على نفسه قتالهم وبالفعل تم له ذلك ٠ وعن طريق تحالفه مع طيبة ، هاجم فيليب فوكيس واستولى على ثلاث وعشرين مدينة تابعة لها ٠ وحول هذه المدن الى قرى بعد تفتيتها سياسيا بحيث لا تزيد كل قرية على خمسين منزلا ٠

وفجأة وجد فيليب نفسه يدق أبواب دلفى ويستقبل استقبال الفاتحين بالحفاوة والتكريم كنصير للاله أبوللون وكهنته واجتمع المجمع الأمفكتيونى واتخذ قرارا بطرد فوكيس من المجلس واعطاء مكانها لمقدونيا وتكريما لفيليب فقد دعاه المجلس المقدس الى رئاسة الألعاب البيثية التى تصادف عقدها فى دلفى فى خريف ذلك العام وقد رحبت غالبية الوفود بذلك فيما عدا ممثلو أثينا واسبرطة ٠

وهكذا حقق فيليب الأفكار التى رسمها ، اذ جعل مقدونيا تحظى باعتراف الجميع بأنها لم تعد ولاية بربرية تقبع فيما وراء العالم الهللينى بل جعلها اغريقية خالصة ، بل وزعيمة لكل هيللاس ٠

ايسوقراط يدعو لوحدة الاغريق ويبارك مشروعات فيليب :

وفى الوقت الذى كانت فيه زعامة فيليب تتزايد ، برز خطر جديد هدد مستقبل الاغريق جميعا ، وذلك أن الامبراطورية الفارسية نهضت من كبوتها بعد تولى عرش البلاد أمير قوى هو أرتاكسيركسيس الثالث وذلك فى عام ٣٥٩ ق٠م ومنذ ذلك الوقت راح أرتاكسيركسيس يعمل بطاقة وعزم لاستعادة النفوذ الفارسى فى بحر ايجه ٠ وقد قاوم اغريق هذه المنطقة وقوعهم تحت نفوذ حكم دولة شرقية بالرغم من أن الامبراطورية الفارسية كانت مؤلفة من عدد كبير من القوميات والعناصر المختلفة والتى تتحد فقط فى شكل الولاء لملك الملوك والعرش الفارسى ٠ ومن المعروف أن الفرس أنفسهم استفادوا من الحضارة الاغريقية ومن خبرات أبنائها

سواء فى الفن أو المعرفة ، أو فى التجارة وجغرافية البحار والمحيطات ، أو فى الجيش واعداد الأساطيل . وعن طريق هؤلاء الاغريق الذين تعاونوا مع الفرس ، تسللت الحضارة الاغريقية الى قلب آسيا الصغرى . وقد صاحب عودة نفوذ الامبراطورية الفارسية انتشار شائعة تقول أن الملك أرتاكسيركسيس يعد حملة عسكرية جديدة ضد بلاد اليونان مثل حملة الفرس فى أوائل القرن الخامس ق.م .

وكان البوق الذى قاد الدعوة للوحدة الاغريقية ضد الخطر الفارسى الجديد ، هو خطيب أثينا العجوز والذى كان وقتئذ قد جاوز عامه التسعين ، وهو ايسوقراط (Isocrates) ، كان ايسوقراط تلميذا لفيلسوف مدينة ليونتينى Leontini (فى جزيرة صقلية) الشهير جورجياس Georgias وكان هذا الأخير أول من دعا فى عام ٤٠٨ ق.م الى شن حرب مقدسة ضد الفرس ، الخطر الحقيقى الذى يهدد الاغريق .

كانت الرسالة التى بثها ايسوقراط الى العالم الهللينى هى الوحدة الاغريقية وتكوين جبهة عسكرية دفاعية (Symmachia) من جيوش أثينا وأسبرطة وطيبة وباقى الدويلات الاغريقية والقيام بحملة غزو ضد الفرس فى عقر دارهم . كما كان ايسوقراط يتابع باعجاب شديد نشاط فيليب وفتوحاته ويعتبره قوة للاغريق جميعا بل وأملهم وموحدهم ومن ثم وجد ايسوقراط نفسه فى خلاف شديد مع ديموسثنيس العدو الأكبر لفيليب والمعارض لأى وحدة تقوم بزعامة مقدونيا . ولقد تشجع الخطيب العجوز وبعث برسالة مطولة الى الملك فيليب المقدونى سماها باسمه Philippus (١)، حثه فيها على توحيد الاغريق تحت زعامته . وأن الوحدة الاغريقية تحتاج لزعيم قوى مثله . وشرح ايسوقراط فى رسالته للملك فيليب كيف أن تزايد فئة الجنود المرتزقة هو الذى يدفع الى تزايد الحروب لأن هذه الفئة تجد فى الحرب والقتال مرتزقا واقترح ايسوقراط على فيليب حلا وعلاجا لمشكلة هؤلاء الجنود وهو التخطيط لحملة عسكرية كبرى ضد آسيا

---

(١) وذلك فى عام ٣٤٦ ق.م .

الصغرى تمتص كل الجنود المرتزقة وتفتح مجالا وأفاقا جديدة للاغريق وتعطى بلادهم السيطرة على مناطق النفوذ التجارى فى العالم .

بيد أن الملك فيليب كان رجلا واقعيا لأنه كان يعرف منذ البداية ، أن الاغريق لن ينسوا خلافاتهم الا اذا أجبروا على ذلك بالقوة وبحد السيف ، أو برشوة زعمائهم ببريق الذهب وخداع شعوبهم بالوعود الجوفاء مثل تحقيق المساواة بينهم ونشر السلام فى ربوع البلاد . كما كان فيليب يدرك جيدا أنه لا يستطيع التورط فى حملة كبرى ضد الفرس وهو يعتمد على الاغريق وحدهم ، لأنه يبدو قد قرأ وسمع عن الحملة الفارسية ضد بلاد اليونان فى القرن الخامس ق.م حيث ظهر الاغريق متفرقين أمام الخطر الشرقى ، بل وخان بعضهم البعض بسبب الأحقاد والخلافات .

ولكن دعوة ايسوقراط لاقت فى نفس فيليب ارتياحا ، واعتبرها « ضغطا مستحبا » لأنه بدأ فى قرارة نفسه يفكر فى احياء أنصار الوحدة الاغريقية لكى يجعل من نفسه بطلهم والقائد الأعلى لقوات الاغريق المتحدة تماما مثلما كان أجاممنون فى الياذه هوميروس وقرر أن يخضع لسلطانه دويلات الاغريق واحدة تلو الأخرى .

سياسة فيليب تجاه الدويلات الاغريقية بعد سقوط اولينثوس :

عاد فيليب بعد أن ترأس الألعاب البيثية الى مقدونيا بعد أن ترك حاميات مقدونية فى فوكيس ، وممر ثرموبيلاى وفى عدد من أجزاء تساليا ولأول مرة جرب فيليب سلاح رشوة الزعماء وذلك فى يوبويا التى استولى عليها فى هدوء وتحت ظلال السلام . واستطاع أن يخرس ديموسثنيس ويبطل مفعول خطبه بحركة ذكية وهو العفو عن كل الأسرى الأثينين الذين تم أسرهم فى أولينثوس . ثم بعث فيليب بعملائه لشراء ذوى النفوذ فى أسبرطة وباقى أجزاء البيلوبونيسوس .

سلام فيلوكراتيس Peace of Philokrates :

شهدت الفترة الزمنية التى تلت الاستيلاء على أوليثوس أروع ساعات فيليب . ونظرا لتناقض المصادر التاريخية لهذه الفترة ، فان الموقف قد يبدو متضاربا بعض الشيء . فمثلا ديودوروس الصقلى أحد

مصادرنا الأساسية لهذه الفترة يروى لنا الحوادث فى تخبط غير معهود منه كما أن تقواه وتعصبه الأخلاقى للمجمع الامفكتيونى ضيع قضية أهل فوكيس وحقهم التاريخى فى المطالبة بادارة دلفى .

وليس أمامنا سوى الالتجاء الى الخطب الأثينية . ولكنها فىالحقيقة ليست سوى قطع من البلاغة العاطفية ، الحبالى بالأحقاد الشخصية والتشهير السياسى ، حيث غرقت الحقيقة فى خضم تجنياتها ومبالغاتها .

على أى حال سبب سقوط أولينثوس « عقدة قلق » وتأزم الموقف السياسى فى أثينا ، ولم يجد الحزبان السياسيان التقليديان فى أثينا بدا من الاتحاد ازاء هذا الخطر الجديد وتوحدت كلمة الشعب على وجوب اتخاذ عمل حاسم . وبسرعة خرجت وفود مبعوثى أثينا الى البيلوبونيسوس تدعو لموقف موحد من جانب الاغريق ازاء مقدونيا . وكان من بين قادة الوفود الخطيب أيسخينيس Aeschines الذى لا نعرف كثيرا عن تاريخه المبكر . ولكننا نعرف أنه عمل حينا من الوقت معلما باحدى المدارس . ثم ترك هذا العمل ليتفرغ للتمثيل . ثم هجر المسرح الى ميدان السياسة وانضم الى جماعة يوبولوس Eubolos المنادية بالسلام ، بل وأصبح محل ثقة يوبولوس نفسه والذى كان واحدا من أشهر رجالات الأكليسيا الأثينية .

بالرغم من قدرة أيسخينيس على الجدل والاقناع الا أنه فشل فى اقناع الدويلات الاغريقية فى الدخول اتحاد قومى عسكري ضد مقدونيا وقد ادعى بعض السياسيين أن يوبولوس هدف من ارسال هذه الوفود امتصاص موجة الغضب ضد فيليب ولكن هذا الزعيم كان مخلصا فى توحيد الدويلات الاغريقية وايصال الاحساس بالخطر القومى الى وجدان الاغريق قبل الاندفاع فى حرب خاسرة مع عدو ذى بطش وقوة ولما فشلت هذه الخطة لم يكن هناك بديلا سوى التوصل الى اتفاق مشرف مع فيليب . وقد بدى السلام هو الطريق الوحيد خاصة أن فيليب بات هو الآخر يتحدث عن السلام مع الاغريق من أجل كسب الوقت خاصة فى الفترة ما بين ٣٤٧ و ٣٤٦ ق. م وزاد من فرص السلام سقوط



الخطيب والسياسي أيسخينيس

فالابكوس ملك فوكيس الذى كان يلعب لعبـة الصراع والوقيعـة بين مقدونيا من ناحية وبين أثينا وأسبرطة من ناحية أخرى . واجتمع مجلس الأكليسيا وقرر الدخول فى مفاوضات سلام مع فيليب . وأوكل المجلس هذه المهمة الى زعيم يدعى فيلوكراتيس(Philokrates) . وقد طالب هذا الزعيم بضم كل من أيسخينيس وديموستنيس الى الوفد . وسافرت البعثة الثلاثية الى بيلا حيث استقبلها فيليب بالحفاوة والتكريم . واتفق معهم على السلام على أساس الأمر الواقع Status quo الا أن فيليب أصر بشدة على عدم اعتبار فوكيس جزءا من هذه الصفقة لأنه ينوى عقابها . وعاد الوفد بهذا المشروع ومعه ممثلين عن فيليب لعرضه على مجلس الأكليسيا . ولمـا حاول ديموسثنيس اثارة العقبـات مصرا على حذف النص الخاص باستثناء فوكيس ومينائها هالوس من نص المشروع اعترض مندوبو فيليب وأيدهم يوبولوس وجماعة السلام وأقنع المجلس بالموافقة على المشروع بحذافيره . وعاد الوفد مرة أخرى لكى يحصل على يمين الشرف باحترام الاتفاق من الملك فيليب . وانتظر الوفد قليلا فى العاصمة لحين حضور الملك فيليب من حملة عسكرية كان يقوم بها فى تراكيا . ولكن ديموسثنيس عاد الى اثارة ضمان مستقبل فوكيس وحلف بيوتيا ، وأصر أيسخينيس على تبنى قضية شعب فوكيس ولكن فيليب وعد بالتساهل فى تعامله مع هـذه المدينة . واقتنع كل من فيلوكراتيس وأيسخينيس بذلك ولكن ديموسثنيس أصر على رأيه ، وفى أثناء التكريم اساء أيسخينيس التصرف بقبوله هدية ثمينة من فيليب . وفى فيراى شهد الوفد فيليب يقسم يمين الالتزام للمعاهدة فى حفل صغير . ثم عاد الوفد الى أثينا بعد غيبة قاربت على ثلاثة أشـهر (من أبريل الى يونيـو عام ٣٤٦ ق. م) .

وما أن عاد الوفد حتى اندلع حوار عنيف ومناظرات حادة فى ساحة الأكليسيا حول نصوص الاتفاق مع فيليب . خاصة أن ديموسثنيس الذى لم يقتنع بالمعاهدة أقام دعوى ضد رفيقيه متهما اياهما بقبول رشـوة من فيليب من أجـل التساهل فى الشروط . وقد ألقى أيسخينيس دفاعا مطولا بأنه تأكـد بنفسه من نوايا فيليب ازاء مستقبل فوكيس ، وقـد

ساعده فى ذلك وصول رسالة من فيليب تؤكد نواياه ازاء هذه الدويلة، فأصدر المجلس قرارا باسقاط الدعوة وأعقبه بقرار شكر للملك فيليب .

عودة الخلاف بين اثينا وفيليب :

لم يمض وقت طويل على هذه المعاهدة ؛ حتى حـدث تطور خطير عندما وجه الأثينيون نداء الى فوكيس بتسليم دلفى الى المجمع الأمفكتيونى وانهاء الأزمة . وسارع فيليب بعد هذا النداء ووجه نداء الى الأثينيين بارسال قوة عسكرية تشترك مع الجيش المقدونى لنصرة المجمع المقدس ضد فوكيس وبيوتيا . وانبرى ديموستنيس بالمرصاد لهذا الاقتراح وطالب الاثينيين برفضه مذكرا اياهم بنصوص معاهدة السلام التى لم يجف حبرها بعد . ورد يوبولوس على ذلك بأن على أثينا أن تقبل عرض فيليب لأن عليها مسئولية كمدينة كبرى فى نشر السلام . وفى أثناء الجدل تصرف فيليب ولم ينتظر قرار الأثينيين . اذ سـار بقواته الى ممر الثرموبيلاى واستسلم فالايكوس ملك فوكيس وسمح له فيليب بالرحيل الى حيث يريد فاختار كريت حيث سافر اليها وبقى فيها يلعب دورة فى مشاكلهـا حتى لاقى حتفه هناك . ووضع فيليب مصير فوكيس بين يدى المجمع المقدس الذى قرر تفتيت هذه الدويلة سياسيا وتحويلها الى قوى منزوعة السلاح . وأن يفرض على سكانها غرامة باهظة مقابل المبالغ التى نهبوها من دلفى : وقسطت هذه الغرامة على سنوات ظلوا يسددونها لخزانة دلفى حتى عام ٣٢٢ ق. م . وحظيت مقدونيا بالحصول على مكان مندوبى فوكيس فى المجمع المقدس (١) وكما سبق أن ذكرنا ترأس فيليب الألعاب البيثية فى ذلك العام .

وقد أثار ذلك أثينا وأعلنت أنها سوف تستدعى مندوبيها فى المجمع الأمفكتيونى ورد فيليب على ذلك بمطالبتها بالاعتراف به عضوا فى المجمع الامفكتيونى وراوغ المجلس فى اعلان رأيه . ولـكن لدهشة الجميع انبرى ديموستنيس موضحا للمجلس عدم جدوى رفض الاعتراف بفيليب عضوا فى المجمع الأمفكتيونى لأن السلام أثمن من هـذا الاعتراف .

(١) Diodorus, XVI, 56, 6.

وكانت الفكرة القابعة فى رأس هذا الخطيب السياسى هو تهدئة فيليب ثم قلب المائدة عليه فى الوقت المناسب ، بعد أن يضفى على الصراع بين الاغريق وفيليب طابعا قوميا . وقد أدهش هذا القرار الحكيم أعضاء مجلس الأكليسيا وارتفعت شعبية ديموسثنيس لدرجة لم يسبق لها مثيل . وأصبح اسمه يتردد على كل لسان فى العالم الاغريقى .

وانحسرت شعبية ايسوقراط العجوز خاصة بعد بعثه برسالته الشهيرة « فيليبوس » (Philippus) الى الملك فيليب بعد توقيع صلح فيلوكراتيس والتى طالب فيها بتكوين جبهة متحدة من أثينا وأسبرطة وطيبة وأرجوس ضد الفرس على أن يكون فيليب على رأس هذا التحالف (Symmachia).

ومهما يقال عن ايسوقراط فقد كان الأثينى الوحيد الذى أدرك رسالة فيليب التاريخية وحاول أن يوصلها الى عقول ووجدان الأثنيين وجدير بالذكر أن ايسوقراط اشترط فى مشروعه أن يضمن فيليب استقلال الدويلات الاغريقية وعدم المساس بحقوقها الاقليمية ، ولم يكن هذا المشروع يرضى فيليب لأنه كان يريد فرض سيادته على كل دويلات اليونان ثم يوسع من نفوذه فى منطقة البلقان العليا وأخيرا يقوم بحملته التاريخية ضد الفرس فى آسيا الصغرى للاستيلاء على ممتلكاتها الاغريقية ولكن بالرغم من هذا كله فقد قدر فيليب دعوة ايسوقراط لما نشرته مقالته المفتوحة من تأثير فى نفوس الاغريق . ولهذا يعتبر المؤرخون السياسيون « الفيليبوس » مجموعة من الآراء الناضجة سياسيا والتى لمست واقع المشاكل السياسية للاغريق ، واقترحت حلا معقولا لها . لقد رأى ايسوقراط المستقبل السياسى البعيد للأمة الاغريقية بينما لم يكن معاصروه يرون الا ما هو تحت أقدامهم . ومن ثم يقال أن ايسوقراط قد سبق عصره بكثير .

ديموسثنيس يزكى نار العداء ضد فيليب :

منذ أن وقع صلح فيلوكراتيس وحمى الجدل والنقاش فى الأكليسيا لم تهدأ خاصة بعد أن برز عدد من المؤيدين لأراء ديموستنيس من الشباب المتطرف من أمثال هيبريديس ولوكرجوس •

وهدرت خطب ديموسثنيس مهاجمة فيليب خاصة بعد اسقاط دعوى الرشوة التى أقامها ضد أيسخينيس • وطالب باتخاذ عمل حاسم ضـد فيليب لتدخله فى شئون البيلوبونيسوس لصالح ميسينيا وأركاديا وغيرها من المـدن التى انسلخت عن أسبرطة • وبسبب هـذا التدخل تحالفت أسبرطة مع أثينا • وتحت الحـاح ديموسثنيس سـافر وفد أثينى الى البيلوبونيسوس لاستعادة أركاديا وأرجوس الى الساحة الهللينية وطرد النفوذ المقدونى• وزار ديموسثنيس البيلوبونيسوس بنفسه وألقى هناك خطبة نارية صب فيها عليه جام غضبه من البلاغة المحرقة لدرجة جعلت الملك المقدونى يرسل وفدا الى أثينا للاحتجاج • وعندما وصل الوفـد المقدونى كان ديموسثنيس قد نجح فى مهمته اذ توالت وفود دويلات البيلوبونيسوس على العاصمة الأثينية لتعلن تأيـيـدها المطلق وتعلن قطع علاقاتها بمقدونيا •

وأمام الوفود المجتمعة ألقى ديموسثنيس أعنف هجوم على فيليب • وهو الخطبة الفيليبية الثانية ، وذلك فى خريف عام ٣٤٤ ق• م • تبـدأ الخطبة بديباجة تهاجم الاثينيين وعشقهم للجدل دون العمل ، ثم يفنـد مزاعم فيليب فى ادعائه السلام والصداقة مع أثينا •ويبين أنه ينوى الغدر بأثينا وبالولايات الاغريقية •

ثم يحذر الجميع من الوقوع فى شباكه التى ينصبها « ما من ملك أو طاغية الا وهو عـدوا للحرية وخصما للقانون ، فحـذارى ـ وأنتم تسعون لتفادى الحرب أن تقعوا فريسة فيقودكم طاغى جديد » [1] ؛ بعد ذلك يستطرد ديموسثنيس فيهاجم أصدقاء فيليب من الأثينيين ويلقى عليهم مسئولية ما يحدث فى البيلوبونيسوس من تدخل مقدونى •

---

(1) Demosthenes, Philippics, 25.



ديموستنيس الخطيب والسياسي الوطني الأثيني

وقد زادت هوة الخلاف بين أثينا وفيليب عندما استولى الأخير على جزيرة هالونيسوس وهى جزيرة كانت فى الأصل تابعة لأثينا ثم استولى عليها القراصنة ولكن فيليب طردهم منها وضمها اليه ، ليفاجىء بمطالبة أثينا باعادتها اليها .

وبالرغم من هذا كله ، أرسل فيليب مندوبا عنه هو بيثون البيزنطى Python of Byzantium وهو أحد تلاميذ ايسوقراط من أجل احياء سلام فيلوكراتيس . ولكن مهمة الرجل باءت صعبة ومحالة بسبب تزايد العداء ضد فيليب وركوب ديموستنيس الموجة المعادية لمقدونيا . بل ووجد الخطيب السياسى الأثينى الفرصة مواتية ليشن هجوما عنيفا على ايسخينيس وجماعته المتعاطفين مع مقدونيا . وبدأت الحملة بقضية رفعها هيبريديس مساعد ديموستنيس ، ضد فيلوكراتيس نفسه ، متهما اياه بالتهاون فى حقوق أثينا لصالح مقدونيا . ولما وجد فيلوكراتيس أن الخناق قد بدأ يضيق عليه غادر البلاد الى المنفى مختارا وبعد مغادرته للأرض الأثينية حكم عليه بالاعدام غيابيا . بعد ذلك تقدم ديموستنيس نفسه بدعوى ضد أيسخينيس . ولكن يوبولوس القوي التأثير فى المجلس انبرى مدافعا عن أيسخينيس . ولحسن الحظ وصل الينا ادعاء ديموستينيس ودفاع يوبولوس المضاد مما يعتبر مصدرا رائعا عن الظروف التى عقد فيها صلح فيلوكراتيس . على أى حال كان من الصعب على ديموستنيس أن يهاجم معاهدة اشترك فيها بنفسه ووقع على نصوصها بخط يده .

ولكنه نجح فى تلطيخ سمعة أيسخينيس بالرغم من فشله فى ادانته لعدم وجود الدليل الكافى ولعدم وجود قانون يحرم قبول الهدايا أثناء المهام الرسمية . ويبدو أن الأمر انتهى بسبب تدخل الجنرال فوكيون الذى كان يلقى احتراما كبيرا فى المجلس والذى عرف بنزاهته وتعاليه حتى أنه لقب بارستيديس الجديد .

وبينما كانت هذه الصراعات على أشدها راح فيليب يلوح بالصداقة والسلام ونجح فى استمالة يوبويا وميجارا الى صفه ولكن فيليب راح

يسقط الحكومات الديموقراطية ويقيم مكانها حكومات أوليجارخية موالية لمقدونيا وهكذا أعطى فيليب لأثينا فرصة التدخل والتعاون مع الأحزاب الديموقراطية لاسقاط الحكومات الأوليجارخية العميلة واعادة النظم الديموقراطية الى لحكم مما أدى لى تضاؤل النفوذ المقدونى فى البيلوبونيسوس فيما بين ٣٤٣ ـ ٣٤٢ ق٠ م ٠ بل وأرسلت أثينا عام ٣٤٣ قوات عسكرية لمناصرة أهل أمبراكيا ضد فيليب ٠

فتوحات فيليب فى تساليا وتراكيا : ـ

قرر فيليب أن يفرض سلطانه فى الشمال فانشغل فى فتوحات استمرت ما بين ٣٤٦ ـ ٣٤٢ ، تمكن فيها من جعل تساليا منطقة مقدونية قسمها الى أربعة مقاطعات كبرى جعل على رأس كل منها حاكما مقدونيا ، بل وفرض على كل منها مساهمة من الرجال والأموال لمساعدة الجيش المقدونى ، ثم عزل ملك ابيروس لتعاطفه مع الأثينيين وعين شقيق زوجته أولمبياس مكانه ٠

وبعد ذلك اتجه فيليب الى تراكيا حيث بقى فيها من عام ٣٤٣ الى ٣٤٢ ق٠م ثم توغل فى منطقة البحر الأسود وبحر مرمرة قلب الامبراطورية الأثينية الثانية ، منتهكا سلام فيلوكراتيس ، بل وادعى فيليب ملكية مقدونيا لمنطقة الخرسونيسوس ٠ وجاءت خطبة ديموسثنيس الشهيرة « عن الخرسونيسوس » التى تدعو الى حرب طويلة ومريرة ضد الملك المقدونى ٠ وفى عام ٣٤١ ألقى ديموسثنيس خطبته الفيلبية الثالثة والتى دعى فيها لحرب شاملة ضد مقدونيا يتحدد على أثرها قدر الحضارة الهللينية ٠ وطالب مواطنيه بأن الوقت قد حان للعمل ٠ ولقد كانت الخطبة الفيلبية الثالثة أعظم ما كتب ديموستنيس حيث ألهبت قلوب الاغريق غيرة ووطنية وأشعلت نفوسهم بالحنق على مقدونيا بالرغم أن آراءه كانت تكرارا لخطبته السابقة ٠

الخرسونيسوس بين اثينا ومقدونيا : ـ

زار ديموسثنيس بيزنطيوم وكسبها الى جانب أثينا ، وسافر مساعدة هيبريديس الى رودوس وخيوس ونجح فى كسبهما ، وأبحر خاريس الى

شمال بحر ايجه والجنرال فوكيون الى جزيرة ارتيريا وكسبها الى جانبه. ولم يقبل شتاء عام ٣٤٠ يوم حتى كان ديموستنيس يعقد اجتماعا لممثلى كل الاغريق فى أثينا حضرته وفود كل من يوبويا وحلفائها وكورنثا وميجارا وأخيا ، ومن شمال غرب اليونان حضرت وفود عن اكارنانيا وأمبراكيا وكوركورا . وراح ديموستنيس يبث الحمية فى نفوس المؤتمرين ويوغر صدورهم ضد فيليب ومشروعاته السياسية .

ولما علم فيليب بذلك قرر التدخل وأرسل انذارا الى كل من بيرنثوس Perinthus (ايركلى الحالية فى تركيا) وبيزنطيوم (Byzantium) يدعوهما فيه الى الاشتراك معه فى حملة ضد الخرسوليسوس وزفضت المدينتان طلب فيليب ، وتحصنتا وغلقتا أبوابها وبدأ فيليب بحصار بيرنثوس التى كانت تقع على مرتفع منحدر ولا يربط بينها وبين البحر سوى لسان ضيق من الأرض . وقد جرب فيليب ضد هذه المدينة كل أسلحته من أبراج متحركة ومزاريق ولكن المدينة صمدت واستمر الحصار حتى خريف عام ٣٤٠ ق.م وقد ساعد الفرس فى توصيل السلاح والمؤن الى المدينة المحاصرة عن طريق آسيا الصغرى وبدأ فيليب كما لو كان عاجزا بل أنه تلقى جرحا كبيرا فى كتفه أثناء الحصار .

ولأول مرة دعا فيليب ابنه الاسكندر ليشترك فى أول معركة حربية وكان حينئذ يبلغ السادسة عشره من عمره .

وبعد أن اعتكف فيليب قليلا ، سار الى بيزنطة ليجد الأثينيين وقد تدفقوا على المدينة ، كما سارع لنجدتها من تبقوا من حلفاء الامبراطورية الأثينية الثانية مثل رودس وخيوس . ولكن فيليب نجح فى الاستيلاء على مائتين وثلاثين سفينة محملة بالبضائع وحاول فى أحد ليالى شتاء عام ٣٤٠/٣٣٩ ق. م أن يقوم بهجوم خاطف على المدينة ولكنه رد على أعقابه خاسرا . فترك الأمر معلقا وانسحب الى الشمال ليؤمن مصب الدانوب وساحل البحر الأسود الغربى . ويرى بعض المؤرخين أن هذا الغزو كان جزءا من مشروع كبير قصد به فيليب التمهيد للقيام بحملة ضد الفرس ومن ثم راح يؤمن الطريق الى آسيا .

العالم الاغريقي يتحالف ضد مقدونيا :

كان فشل فيليب فى احتلال بيرنثوس وبيزنطة أكبر نكسة أثرت فى نفسية هذا القائد العظيم ولكنه كان يعلم أنه سوف ينجح يوما فى اخضاع الاغريق لسلطانه لأنه أدرك أن خطب ديموسثنيس لم تحقق الجبهة المتحدة المعادية لمقدونيا وراح يتربص ويتحين الفرصة لتحقيق هدفه .

ولحسن الحظ حدثت أزمة جديدة أتاحت هذه الفرصة أمام فيليب وذلك عندما أثار أيسخينس ممثل أثينا فى المجمع الأمفكتيونى قضيـة ضد أمفيسا وهى مدينة صغيرة تقع على بعد أميال قليلة شمال غرب دلفى لأن شعبها كان يزرع أراضى موقوفه لمعبد أبوللون ولكن أهل أمفيسا جادلوا فى اعادة تخطيط حدود بلدهم مع حدود دلفى ولم يؤيدهم أحد سوى طيبة التى أعلنت عزمها على مساعدة أهل أمفيسا لاسترجاع حقوقهم المشروعة من كهنة دلفى . ولما رفضت أثينا مساعدة دلفى فى تنفيذ قرار يعاقب أهل أمفيسا ، عندئذ طلب المجمع الأمفكتيونى من فيليب القيـام بمعاقبة أهل أمفيسا ورأى فيليب الفرصة مواتية للتدخل فى شئون الاغريق لكى يعوض هزائمه أمام بيزنطة وبيرنثوس من ناحية ولكى يقوم بمظاهرة عسكرية ترهب الاغريق اذا ما فكروا فى التحالف مع الفرس ضـده من ناحية أخرى كما كان هدفه من وراء التدخل هو كسب المزيد من الوقار الدينى من أعضاء المجمع الأمفكتيونى .

وسار فيليب بجيشه يعاونه ابنه الاسكندر الذى كان يبلغ وقتذاك السابعة عشر ربيعا واخترق الجيش المقدونى تساليا وعند قلعة الاتيا Elateia التى تتوسط المسافة بين بيوتيا وفوكيس أسس فيليب قاعدة متقدمة لجيوشه يتحرك منها الى الجنوب والشمال . كما قصد باحتلال الاتيا انذار أهل طيبة بعدم التدخل فى أى معارك قد تقوم مستقبلا لصالح أمفيسا وضد مقدونيـا .

الذعر يسود اثينا بسبب احتلال الاتيا :

ويسترجع ديموسثنيس ذكريات ذلك اليوم الأسود بعد تسع سنوات فى خطبتـه المسماة « بخصوص العـرش » (١) . حيث يصـف مجلس

---

(١) Demosthenes, On the Crown, 196 ff.

الاكليسيا وقد خيم عليه الصمت لم يجرؤ أحد على أن يفتح فاه ، وفجأة يكسر ديموسثنيس الصمت فيطالب بعقد تحالف عسكرى سريع معطية للوقوف فى وجه فيليب ومخططاته . وأرسل ديموسثنيس وفداً الى طيبة يدعوها لذلك وفى الوقت الذى كان أهل طيبة يناقشون فكرة التحالف مع أثينا وصل اليهم مندبون عن فيليب وأمام المجلس الشعبى عرض كل وفد وجهة نظره وبعد مداولات ومحاولات قرر المجلس الشعبى لطيبة قبول عرض أثينا ورفض التحالف مع مقدونيا .

تعهد الأثينيون بتحمل ثلثى نفقات الحرب وأن تكون القيادة للجيوش المتحدة فى أيدى قادة طيبة واعترفت أثينا بسيادة طيبة على كل بيوتيا وتنازلت عن حقها فى المطالبة بمدينة أوروبوس . وحاولت الحليفتان ضم باقى الولايات الهللينية اليهما ولكن كثير من هذه الولايات آثرت الحياد.ولما كان لوكورجوس ـ وهو واحد من أشد أنصار ديموسثنيس ـ يشرف على الخزانة العامة ، لم يجد الزعيم الأثينى صعوبة فى تحويل ميزانية الترفيه والألعاب الى الحرب .

لم يكن فيليب يريد محاربة أثينا لأنه تغاضى عن أخطائها وابتلع خطب ديموسثنيس وسبابه ، وذلك لأنه كان متيما بالثقافة الأثينية ولا يريد أن يتهم بتدمير القلب النابض بالحضارة الاغريقية ، كذلك لم يقصد فيليب تهديد بيوتيا ولكن طيبة هى التى تحالفت مع أمفيسا ضد فيليب ومن ثم كان مسلك فيليب فى احتلال الاتا مسلكا دفاعيا .

ولكن ديموسثنيس دفع الأمور بخطبه النارية الى أسوأ . كانت عليه ، لأنه راح يبث الكراهية ضد مقدونيا وضد فيليب ويدعو الأغريق آن يهبوا دفاعا عن استقلالهم وحريتهم ولكن الخطيب الأثينى بالغ فى تخيلاته ولم يفهم الحقيقة فضلل الأثينيين معه وشوه صورة الزعيم المقدونى .

فيليب يسحق التحالف الاغريقى فى خايرونيا :

وبعد قيام الجبهة الجديدة وجهت كل من أثينا وطيبة نداء الى الولايات الاغريقية للانضمام اليها ، ولبى الدعوة عدد كبير من هذه المدن

ابتداء من يوبويا شرقاً الى أكارنانيا وجزيرة ليوكاس فى أقصى الغرب ، كذلك انضم الى الجبهة المعادية لفيليب جزيرة كوركيرا المتاخمة لساحل ابيروس وكذلك أخيا وكورنثا وميجارا المواجهة لدلفى كذلك انضم الى التحالف ميسينيا وأيليس فى غرب البيلوبونيسوس وبالطبع مدينة بيزنطة . ولم يقف مع دلفى سوى ولاية أيتوليا الواقعة الى الغرب من دلفى وبعض المدن الصغيرة ذات الأهمية المعدومة . أما اسبرطة وأركاديا فقد اعلنتا الحياد ازاء المعركة الدائرة بين مقدونيا والأغريق .

وقد بدأ المتحالفون هجومهم بادانة كهنة دلفى لاعطائهم الفرص لفيليب ذلك الملك البربرى للتدخل فى شئون تخص الاغريق وحدهم ، فعرضوا بذلك حرية بلاد اليونان الوسطى والجنوبية للخطر . أما فيليب فقد اعتبر قيام مثل هذا التحالف عائقا فى سبيل أحلامه وعليه أن يقضى عليه بأى وسيلة . ومن ثم راح يحصن قلعته فى الاتيا وأقام خطا متقدما عند جبل برناسوس الذى تقع عند سفحه مدينة دلفى وأمفيسا ، ثم دعى قوات من مقدونيا وتساليا وانطلق ليؤدب أمفيسا طبقا لمخططه الأصلى لكى يظهر عدم اكتراثه بما يفعله الأغريق من ناحية ولكى يبدى لهم أنه مكلف برسالة دينية عليه أن ينجزها من ناحية أخرى .

أما قوات المتحالفين فقد احتلت المنطقة والممرات الجبلية من بيوتيا الى فوكيس وقام الجنرال الاثينى خاريس Charis بقيادة قوة مكونة من عشرة آلاف جندى لاحتلال الطريق الذى يربط بين خليج كورنثا وأمفيسا ليقطع على فيليب أى دعم يطلبه من مقدونيا عبر خليج كورنثا .

عندما وصل فيليب الى أمفيسا وجد أن أثينا قد دفعت بعشرة آلاف من الجنود المرتزقة لحماية المدينة من الجنوب كما أنها أقامت عددا من الكمائن فى الجبال فأدرك فيليب أنه لا أمل فى المصالحة وتفادى الحرب مع الاغريق . وفى صيف عام ٣٣٨ ق.م لجأ فيليب الى خديعة وهو أنه كتب خطابا الى جنراله أنتيباتر يخطره فيه بقراره بالعودة الى مقدونيا لمواجهة بعض القلاقل هناك ، ثم عمل على أن يقع هذا الخطاب فى أيدى

الاغريق (١) ونجحت الخطة وتنفس الاغريق الصعداء واسترخت القوات. وكان فيليب يرقبها من فوق الجبال . وفى ظلام الليل هبط عليهم واستولى على امفيسا استيلاء خاطفاً وهلل كهنة دلفى للبطل متنبئين بالدمار لمن يقف فى طريقه وقد علق ديموستنيس ساخرا على هذه النبؤه قائلا « انها ليست من وحى أبوللون بل من وحى فيليب » .

بعد هذه الهزيمة وسقوط أمفيسا قرر الاغريق التراجع الى خايرونيا ذلك السهل الواقع عند سفوح جبال بتراخوس والذى تقع فيه مدينة طيبة أيضاً ، وعلى الناحية الأخرى للسهل يتدفق نهر كيفيسوس Kephissos من مرتفعاته فى الشمال . فالمنطقة اذا تجمع ما بين السهل والجبل والعائق المائى مما جعلها أرضاً مثالية لمركة متعددة التكتيك والعمليات .

وفى اليوم المشهود فى شهر أغسطس عام ٣٣٨ ق.م تحرك فيليب من الاتيا الى سهل خايرونيا حيث وجد جبهة عريضة مكونة من الجنود تمتد عبر السهل من سفوح خايرونيا الى حافة كيفيسوس . وكانت قوات طيبة تقود الميمنة وقوات أثينا الميسرة أما الوسط فكان يشغله الجنود المرتزقة والمتطوعون من باقى الدويلات الاغريقية . أما قوات فيليب فكان يقود ميسرتها الاسكندر بينما قاد فيليب الميمنة .

بدأت المعركة عند الفجر عندما انقض الفرسان الأثينيون على الجناح الذى يقوده فيليب ولكن الاسكندر اندفع نحو قوات طيبة وراح يحصد جنود الفرقة المقدسة Sacred band حصداً ، أما فيليب فقد تظاهر بالانسحاب لكى يجر القوات الأثينية الى فخه ولجأت القوات الأثينية الى مرتفعات خايرونيا للاستراحة من العناء تاركين وراءهم ألف قتيل وفجأة انقض عليهم فيليب وأطبق معه ابنه الاسكندر وقضى على البقية الباقية من القوات الأثينية وأسر ألفين من جنودها من بينهم ديموستنيس نفسه. وما أن غابت شمس ذلك اليوم المشهود حتى كان فيليب قد فرغ من القتال وراح يجمع أسراه فى مدينة ليباديا Libadeia حيث راح يحتفى بالنصر الكبير ويغرق نفسه فى الشراب فقد أصبح جنوب

(١) Polyaenus, V, 11, 6.

اليونان بعد خايرونيا تحت رحمة مقدونيا ، واستعدت أثينا للدفاع عن نفسها ودعت فلاحيها لهجرة حقولهم وقراهم والاحتماء داخل أسوارها وجندت كل رجالها حتى سن الستين .

أما تصرف فيليب فقد اتسم بالتناقض اذ كان قاسيا مع طيبة لأنه اعتبرها قد خانت عهدا للسلام معه وانضمت ضده في حرب لا مبرر لها ولهذا فتك بها وقضى على قيادتها الديموقراطية وأحل محلها حكومة أوليجارخية مكونة من ثلاثمائة عضو عميل لمقدونيا ، ثم حل حلف بيوتيا الى الأبد وترك حامية في قلعة كادميا وأخرى في خالكيس بجزيرة يوبويا ، ولكي يقضي على أي انتفاضة مستقبلة لطيبة أعاد فيليب احياء أورخوميتوس وثسبياي وبلاتيا وهم أعداء طيبة التقليديين .

أما بالنسبة لأثينا فقد كان فيليب كريما متسامحا ، فقد أرسل لهم أحد الأسرى الأثينيين وكان اسمه ديماديس ليخبرهم بحسن نواياه تجاههم ويبدو أن فيليب كان في حاجة الى مساعدة الأساطيل الأثينية من أجل حملته العسكرية مستقبلا ضد الفرس . وبسرعان ما أرسل الأثينيون أيسخينيس ليضع شروط المصالحة . واثباتاً لحسن نواياه باع فيليب كل الأسرى فيما عدا الأثينيين الذين أعادهم مكرمين .

وكان من شروط المصالحة اصرار فيليب أن تعترف أثينا بسقوط الامبراطورية الثانية وتتنازل عن كل ممتلكاتها فيما عدا لمنوس وامبروس وسكوروس وديلوس وساموس ، وأن تطلق أثينا لمقدونيا السراح في البيلوبونيسوس . وبالفعل اعترفت جميع دويلات البيلوبونيسوس بالزعامة المقدونية (١) فيما عدا أسبرطة التي آثرت سياسة العزلة والكبرياء . فقد كانت اسبرطة تحس بالحسرة على ماضيها المنهار وتشعر بالعجز لعدم قدرتها على استعادة أركاديا وميسينيا وأرجوليس الي حوزتها . كما

(1) Ow, Rheinmuth The Spirit of Athens oxford 1970, p. 47 - 51.

قبلت كورنثا تواجد حامية مقدونية قرب خليجها لتؤمن تحرك الجيش المقدونى .

هكذا استيقظ فيليب فى عشية اليوم التالى للمعركة على حقيقة واقعة وهو أنه أضحى بطل اليونان الأوحد وكان فى استطاعته أن يصدر أوامره للسير نحو أثينا ولكنه آثر التريث والاجتهاد فى كسبها الى جانبه لأنها رمز المجد وجامعة هيللاس . كذلك فقد أظهرت خايرونيا بطولة الاسكندر الشاب وأصبح له معجبون كثيرون من رجال الجيش المقدونى الذين أحسوا بمقدرته العسكرية وتنبؤا بأنه معجزة العصر والقائد الذى لا يقهر .

وبمعاهدة السلام اعترفت أثينا رسميا بسقوط الامبراطورية الأثينية الثانية مقابل تعهد فيليب بألا يسمح باقامة أى حامية مقدونية داخل الأرض الأتيكية أو أن يرابط الاسطول المقدونى فى مياهها الاقليمية . كما تنازلت أثينا لمقدونيا عن منطقة الخرسونيسوس وأقسمت يمين الولاء والصداقة لفيليب الثانى .

ولما كانت الامبراطورية الاثينية فى حالة تدهور بل كانت اسما على ورق فلم يحزن الاثينيون على الاعتراف بسقوطها بالرغم من أن خطبة التأبين التى ألقاها ديموسثنيس على رفات شهداء خايرونيا كانت تقطر أسى وحزنا . بل أن الاثينيين « أصدروا قراراً بالانعام على فيليب بحق المواطنة ! » .

بعد ذلك قام فيليب بتصفية حسابه مع يوبويا وفوكيس ثم الى ميجارا ومنها الى كورنثا حيث أستقبل استقبال الفاتحين وحيث ترك حامية مقدونية لحماية خط الاتصال بين مقدونيا وجنوب اليونان . ثم رحل بعد ذلك الى أوليبيا حيث قدم الأضاحى وأقام معبداً فى واحة زيوس المقدسة عرف بمعبد فيليب Philippeion ومن أوليمبيا سار فيليب الى

اسبرطة المتوارية فى أنف وعجز وكبرياء ، ورفضت هذه المدينة فى أنفة أن تعترف به زعيما على الاغريق ، ولم يشأ فيليب أن يضيق خناقه عليها ربما من باب الرثاء على حالهـا أو لأنه لم يرى فى سياستها الانعـزالية خطورة على استراتيجيته الكبرى ضد الفرس •

مؤتمر كورنثا الكبير وتعيين فيليب قائـدا عاما على قـوات الاغريق المتحدة :

بعد أن تأكد لبطل خايرونيا أنه الجنرال الأوحد الذى لا ينافس فى مجال القتال ، تحول فيليب الى ميدان السياسة ليحرز أكبر نصر سياسى عرفه التاريخ • فقبل أن ينصرم عام ٣٣٨ ق٠م٠دعى فيليب الى عقد مؤتمر كبير تحضره كافة المدن الاغريقية وقد استجابت جميعها لهذه الدعـوة باستثناء اسـبرطة التى آثرت الانطـواء على نفسها • ثم عـرض فيليب على المجتمعين مشروع عقـد معاهدات دفاعيـة مشتركة بينهم (١) وبين مقدونيا بعد أن تتناسى النزاعات الداخلية فيما بينها •

ثم كلف المجتمعون فيليب ليتولى القيادة العامـة لهـذا التحـالف الاغريقى المقدونى • كما اتفق على تكوين مجلس دائم لهذا الاتحـاد (Syedrion) يكون مقره كورنثا • كما اتفق على أن يكون تمثيل المدن الاغريقية فى هذا المجلس حسب قوتها العسكرية • وأن يجـوز عقـد اجتماعات المجلس سواء فى كورنثا أو أى مكان آخر له أهمية قوميـة مثل أولمبيا ودلفى • وأن تتولى لجنة من خمسة أعضاء (Predroi) مهمة الاشراف الدائم على الحلف • ولكى يظهر فيليب للاغريق حسن نيته طلب أن تكون مقدونيا عضوا دائما فى هذه اللجنة الخماسية • كذلك اتفق المجتمعون على توقيع عقوبات صارمة ضد كل من يخالف لوائـح الاتحاد وأن يتولى تنفيذ هذه المهمة قوات مشتركة من فيليب والحلفاء • وتعهدت كل مدينة اغريقية بتقديم مساعدة عسكرية مثل تجهيز عدد من السفن والرجال فى حالة دخول مقدونيا أى حرب مع عدو أجنبى • وقد ضمن فيليب ألا يتعرض لاستقلال المدن الاغريقيـة وأن يتركهـا على

---

(١) M. Cary, History of the Greek World, vol. III, p. 38.

حالها الذى كانت عليه عند توقيعها على هذه المعاهدة . وباستثناء كورنثا وقلعة كادميا فى طيبة وخالكيس فى يوبويا وخليج أمبراكيا تعهد فيليب بعدم اقامة أى حاميـات مقدونيـة فى بلاد اليونان . وأخـيراً انتزع فيليب . موافقة الاغريق على قبول معاقبة أى اغريقى يحاول التعدى على دستور مدينته أو يعمل لصالح قوى معادية للاغريق وكان فيليب يقصد بذلك دولة فارس حيث كان يعمل فى جيشها وأسطولها عدد كبير من الاغريق كجنود مرتزقة .

بهده المعاهدة قضى فيليب لأول مـرة على الصراعات المحليـة بين الدويلات الاغريقية كما أوقف تسرب الجنود المرتزقة الاغريق للعمل فى صفوف الجيش الفارسى ، بل ونصب نفسه باختيار الاغريق قائداً عاما عليهم والموجه لسياستهم الخارجية وحقق الوئام الدائم بينهم (homonoia) لأول مرة . وذلك لأنه كلف اللجنة الدائمة للحلف للتوسط لحل أى خلاف قد يقع بين المدن الاغريقية . وبذلك خلق لأول مرة جبهة متحدة من الاغريق والمقدونيين وحقق أحلام أيسـوقراط العجـوز الذى كان يدعو اليها منذ ثمانية سنوات مضت ولكنه قضى نحبه بعد بضعة أسابيع قليلة من معركة خايرونيا وهو فى عامه الثانى والتسعين وبذلك لم يشهد تحقيق حلمه الكبير الذى كرس من أجله حياته .

وفى ربيع عام ٣٣٧ ق.م . دعى فيليب المجلس للاجتماع لمناقشـة مشروع القيام بحملة عسكرية ضد الشرق وكما يقول ديودورس أضفى فيليب على الحملة طابعا هللينيا عندما وصفها بأنها حملة من أجل الانتقام والرد على حملة الفرس ضد بلاد اليونان فى القرن الخـامس ق.م (١) والتى دنسوا أثناءها شرف المعـابد المقدسـة فوقه الأكروبول الأثينى وقد وصف العالم الكبير فلكن Wilcken ذلك بأنها فكرة عبقرية idealer gedanke (٢) . ولكن الاغريق قبلوا فكرة الحمـلة ضد الامبراطورية

(١) Diodorus XVI. 89, 2.

(٢) V. Wilcken, Alexander der grosse, p. 44.

الفارسية كارهين وذلك خوفا من غضب فيليب الثانى وتفاديا لشره •

وفى عام ٣٣٧ ق•م بدأ فيليب الاستعداد والتدريب ، بل سار جنراله بارمينيون فى ربيع عام ٣٣٦ ق•م بصحبة جيش عبر به بحر مرمرة لتمهيد الطريق للجيش المقدونى بل ولكى يحرض المدن الاغريقية فى أيونيا على الثورة ضد الحكم الفارسى وبالفعل استجاب لذلك خيوس وايفيسوس وكوزيكوس وعدد آخر من المدن الأيونية الواقعة تحت نفوذ الفرس •

اغتيال فيليب :

وبينما كان الاستعداد للحملة الكبرى قائما على أشده ، جاءت الأنباء بخبر مصرع فيليب غدراً وازاء ذلك سارع بارمينيون للعودة بينما آثر أتاللوس مساعده الانتظار قرب بحر مرمرة • لقد سقط فيليب صريعاً تحت ضربات خنجر أحد ضباطه الغاضبين عليه وقد اختلفت المصادر فى تحديد شخصية القاتل ودوافع الجريمة • فقد قيل أن ذلك تم بتدبير من أولمبياس والدة الاسكندر انتقاما لكرامتها التى أهدرها زوجها بسبب علاقاته وزيجاته الكثيرة وخوفا من أن يحرم ذلك ابنها الاسكندر الأكبر من تولى العرش خاصة اذا أنجب ذكراً • كما قيل أن الفرس هم الذين دبروا هذه المؤامرة لاعاقة مشروع الحملة ضد بلادهم • وقيل أن القاتل انتقم من فيليب بسبب الخلاف معه • وربما كان هذا أقرب التفسيرات جميعاً •

والحق يقال أن الخلاف كان محتداً بين فيليب وابنه الاسكندر الذى احتج على زواج أبيه من ابنة شقيقه الجنرال أتاللوس ، وشربه فى نخب وريث صالح من هذا الزواج فضلا على أن فيليب كان قد سبق له الزواج من سيدة فى لاريسا وأنجب منها ابناً أبله عرف باسم فيليب أرهيدايوس • ويقال أن الاسكندر كان يعانى نفسيا ويتألم لمعاملة فيليب القاسية لأمه ووصل به الاحتداد مع أبيه لدرجة رفع فيها السلاح عليه (١) • وقد انسحب الاسكندر فى صحبة أمه الى ابيروس ولم يعد

---

(1) Arrian III, 6.

الى مقدونيا الا بعد أن أرسل أبوه اليه رسولا يؤكد خلافة الاسكندر على عرش مقدونيا . ولكن القلق عاد مرة أخرى عندما وضعت عروس فيليب الجديدة ابناً ذكراً سمته كارانوس (Karanos) تيمنا بالجد الأكبر للأسرة المقدونية .

هكذا سقط فيليب صريعاً أثناء حفل زواج ابنته كليوباترا شقيقة الاسكندر فى العاصمة القديمة ايجاى (Aegae) وذلك فى صيف عام ٣٣٦ ق.م وعلى أثر ذلك قامت أولمبياس بتدبير مقتل هذه العروس الجديد ووليدها الرضيع لتؤمن العرش لابنها الاسكندر (١) .

تقييم تاريخى لفيليب الثالث :

يمكننا أن نوجز مهمة فيليب فى عملين عظيمين يرتبط كل منهما بالآخر أشد الارتباط ، أولهما خلق دولة مقدونية متحدة لأول مرة فى التاريخ ، وهذا وحده يعطيه الحق فى أن يعد من أعظم رجالات السياسة فى العصر القديم . وثانيهما توحيد المدن الاغريقية فى جبهة متحدة وهو أيضا عمل تحقق لأول مرة فى تاريخ الاغريق .

لقد ظلم المؤرخون فيليب ، عند الحكم عليه تاريخيا ، فمن ناحية غطت شخصية ابنه الاسكندر الأكبر عليه فجعلته لا يأخذ حقه فى التقدير والتبجيل مع أنه واضع حجر الأساس الأول للامبراطورية المقدونية ولولا الوالد ما جاء الابن ليصبح بطل العالم والتاريخ ، كذلك فقد ظلم النقاد القدامى فيليب عندما وصفوه بأنه من الطغاة القساة الذين حرموا المدن الاغريقية من حريتها واستقلالها ، ولكن فيليب حقق للاغريق ما فشل فيه الاغريق أنفسهم . اذ جعل لهم لأول مرة تحالفاً قويا كما نما فيهم روح الانتماء الواحد والوحدة وأوقف التقاتل والحروب فيما بينهم . ولو قدر لفيليب أن يعيش لفترة أطول لشاهد نتائج أكثر ايجابية لهذا التحالف الاغريقى ولكنه مات قبل أن يؤتى

---

(١) ناقش بوزورث قضية اغتيال فيليب والقى اللوم على زواج الملك من عروس جديد

A.B., Bosworth, Philip II, and Upper Macedonia, Class. Quartely, XXI, 1971. P. 93—125.

ثمره . وجدير بالذكر أن فيليب لم ينتوى بالمرة أن يحكم المدن الاغريقية بنفس الأسس المستبدة التى حكم بها مقدونيا بل ترك لتلك المدن حرية الحكم الذاتى لنفسها ولم يأخذ منها شيئا سوى ادارة سياستها الخارجية والعسكرية .

لقد كانت العبقرية الاغريقية فى القرن الرابع ق.م فى أوج نضوجها فى الفكر والفن ، فى الفلسفة والعلوم والأدب ، بدرجة لاتقل عن نبوغ هذه العبقرية فى القرن الخامس ق.م ولكن نقطة الضعف فى الحضارة الاغريقية هو الفشل فى المجال السياسى ، فقد ظلت نظمهم السياسية جامدة لاتناسب التطورات والتغيرات الجديدة ، حقاً ، لقد خرجت عدة أصوات مختلفة تنادى بوجوب قيام وحدة اغريقية تقوم على أساس التحالف التعاهدى بين الدويلات الاغريقية وبالفعل قام بعض من هذه الأحلاف ولكنها سرعان ما انهارت نتيجة للأحقاد الاقليمية وانتشار روح الأنانية والشوفانية الضيقة ، فضلا على أن هذه الأحلاف كانت بمثابة اتحاد شركاء سرعان ما ينهار عند أول بادرة خلاف . ولقد عبر ايسوقراط عن ذلك صراحة عندما ذكر أنه ليس هناك من أمل فى قيام وحدة كاملة بين الاغريق بدافع ذاتى من أنفسهم وبدون تدخل من قوى خارجية . وخلاصة القول لقد نجح فيليب فيما فشلت فيه أثينا واسبرطة وطيبة خلال فترات سيادتها السياسية والعسكرية .

وقد يقال أن فيليب ــ ازاء تعامله مع بعض المدن الاغريقية ــ كان قاسيا بلا مبرر ، فقد كان شديد القسوة ازاء مواطنى مدينة أولينثوس وأسرى فوكيس وطيبة ، ولكن ما ارتكبه فيليب من قسوة لا يفوق بأى حال من الأحوال قسوة أثينا ازاء حلفائها ابان قيام حلف ديلوس وفى قضائها على الثائرين عليها والمطالبين بحريتهم ، كما أن قسوته لاتعدو شيئا اذا ما قورنت بقسوة اسبرطة ازاء الهيلوت أو حتى سلوك طيبة المتعنت أثناء فترة سيادتها .

وقد يتهم المؤرخون فيليب بالخبث السياسى ولكن ليس ذلك عيبا ، فقد عرف الاغريق ساسة فاقوا فيليب دهاء ومكراً من أمثال ثمستوكليس وألكيبياديس وكليون من أثينا ولوساندر الاسبرطى ٠

لقد سقط فيليب بعد كفاح طويل ومعارك ضارية خرج منها وقد فقد احدى عينيه وشلت احدى ذراعيه وأصيبت احدى ساقيه بجرح جعله أعرجاً وأصبح مرهقاً يغرق نفسه فى الخمر ولهذا يقال أن دور فيليب انتهى لأنه لم يعد مؤهلا لقيادة حملة أسطورية ضد امبراطورية الفرس ولكنه أدى دوره كاملا وحقق رسالته فى بناء الأمة المقدونية (1) وتوحيد الدويلات الاغريقية المتنافرة وفرض عليها التعايش فيما بينها ، وقبل كل شيء كسب للمقدونيين اعترافاً بأنهم اغريق وليسوا برابرة كما كانوا يعرفون قديماً ٠ وخلاصة القول أن الذين كتبوا عن فيليب لم ينصفوه حقه ، فمن ناحية ظلموه عند الحكم عليه ومن ناحية أخرى شغل المؤرخون بتاريخ حياة ابنه العظيم الاسكندر الذى طغت شخصيته على شخصية أبيه فحجبتها ، فضلا على أن أعداء فيليب كانوا كثيرين ومنهم من كان سيد البلاغة والخطابة فبقيت خطب ديموسثنيس أثراً خالدا للأجيال فى كل مكان ولكنها كانت فى نفس الوقت تلطخ شخصية فيليب تجنيا عليه وتشهيرا به ٠ فتركت انطباعا مشوها عنه ٠

الاسكندر الاكبر :

سبق أن لمحنا الى الهالة المقدسة التى نسجتها أولمبياس حول ابنها الصغير الاسكندر وحول نسبة أبوته الى زيوس آمون وغير ذلك من النبوءات التى اختلقت من أجل تعظيم مستقبل الصغير ٠ كان الاسكندر يتمتع بحب أمه الجارف نحوه بل أنه نفسه بادلها نفس الحب بقدر يفوق حبه نحو أبيه لدرجة أن بعض الكتاب باتوا يشكون عما اذا كان الاسكندر مصابا بعقدة أوديب ٠

---

(1) J.R. Ellis," The Securtiv of Macedonian throne under Philip II, Ancient Macedonia Paper read at the First international Symposium held in Thessaloniki, 1968. Thessaloniki 1970., p. 68-75. also cf. by the same author.," Amyntas. Perdicaas, Philip, and Alexander, the Creat, J.H.S., XCI, 1971, p. 15-24.

على أى حال ما أن بلغ الاسكندر الثانية عشرة من عمره حتى بدأ أبوه فى اعداده للفروسية ، اذا اشترى له جواده الشهير بوكيفالوس (Boucephalus) أو رأس الثور ، والذى أصبح جزءاً لا يتجزأ من أسطورة الاسكندر فيما بعد . كما تلقى الاسكندر قسطا كبيرا من الثقافة الاغريقية خاصة عند ما دعى فيليب الفيلسوف الكبير أرسطوطاليس (Aristotles) الى القصر الملكى المقدونى ليشرف على تربية الاسكندر . وكان أرسطوطاليس ـــ أو أرسطو كما اشتهر ـــ ابنا لطبيب القصر المقدونى . وقد ولد فى عام ٣٨٤ ق.م فى مستوطنة ستاجيرا (Stagira) فى منطقة خالكيديكى والتى لا تبعد عن بيللا العاصمة المقدونية سوى ستين ميلا وقد قيل أن أرسطو تربى مع فيليب نفسه فى القصر الملكى المقدونى الا أنهما افترقا عام ٣٦٧ ق.م عندما حمل فيليب الى طيبة كرهينة ، عندئذ غادر أرسطو مقدونيا متجها الى أثينا كعبة الثقافة وهناك انضم الى مدرسة الفيلسوف الكبير أفلاطون . وبعد موت أستاذه أفلاطون لم يطق أرسطو البقاء فى أثينا فآثر التجول والترحال حتى دعاه فيليب ليشرف على تربية الاسكندر ولينشأ مدرسة فلسفية فى مقدونيا وقد قبل أرسطو دعوة فيليب صديق طفولته دون تردد لاعتقاده أن مقدونيا هى أمل الاغريق فى الانتصار على البربرية الشرقية . كما أنه وجد فى مقدونيا الهدوء لكى يتأمل ويفكر بعيداً عن الاثارات والثرثرات السياسية التى كان تشغل بال المدن الاغريقية ، وعند حضوره الى مقدونيا رحب به فيليب وتكريما له أعاد بناء مستوطنة ستاجيرا الاغريقية مسقط رأسه بعد أن كانت قد هدمت مع باقى المستوطنات الاغريقية التى دمرها فيليب ، كما عفى عن سكانها ليعودوا اليها .

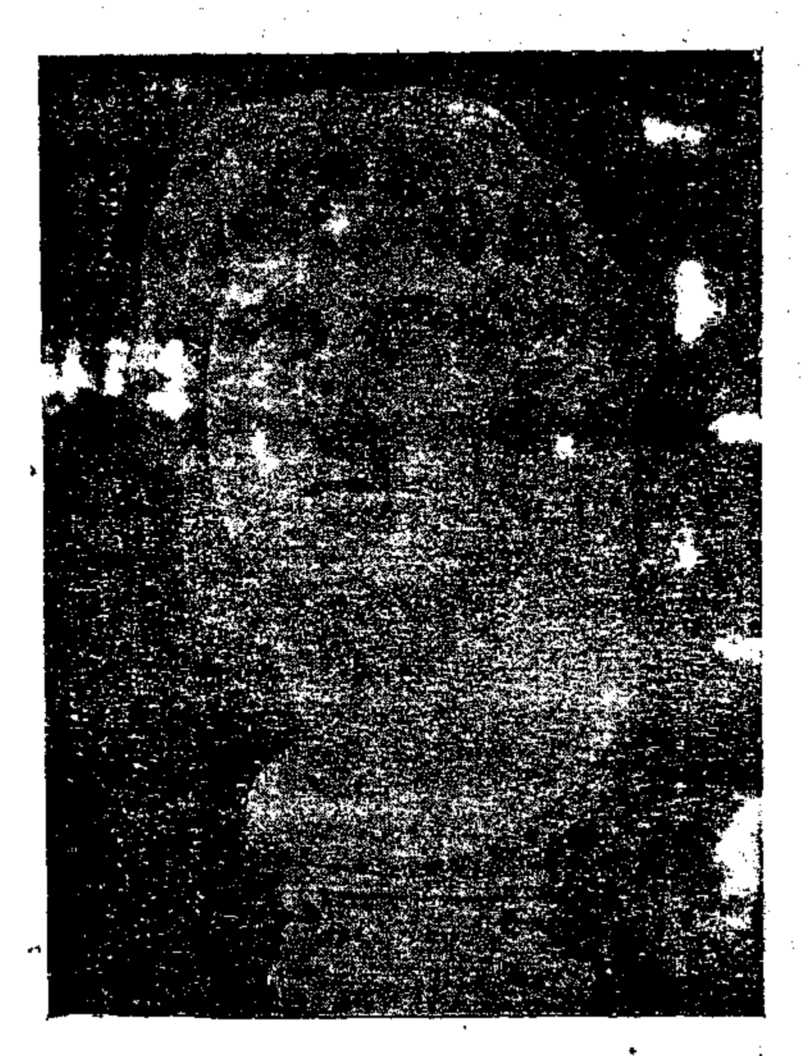
كان أرسطو آنذاك فى الخامسة والأربعين من عمره وكان لا يزال مغمورا ، عندما حط رحاله فى بيللا . وفى أحد ضواحى العاصمة المقدونية أنشأ مدرسته الخالدة فى قلب أحد الكهوف حيث تعود أن يلقى دروسه على تلاميذه وهو يتمشى ولذا سميت مدرسته باسم مدرسة

المشائين peripatetics . ولقد ظل الاسكندر يذكر فضل أرسطو عليه ، اذ علمه أصول التفكير الواقعي والعقلاني والنظرة الموضوعية الى الأمور ، كما قام أرسطو بتدريس عدد من العلوم للأمير الصغير مثل البلاغة والريطوريقا وأصول النحو والفلسفة والموسيقى والطبيعة والمساحة . والى أرسطو يرجع الفضل فى تهذيب وصقل شخصية الأمير الصغير ، لأنه كان ملازما له بينما كان أبوه فيليب مشغولا عنه فى معاركه .

لم يكن الاسكندر قد جاوز العشرين ربيعا عندما لقى أبوه مصرعه فى خريف ٣٣٦ ق. م . حيث وجد نفسه ملكا على مقدونيا ، ولكنه لم يتهيب المخاطر وتولى ذلك العرش العظيم بمسئولياته الجسام فى هذه السن المبكرة ، وذلك لأن الاسكندر كان يعتقد أنه خراف الارادة مؤله النسب ، بطل لا يقهر مثل أخيليس بطل الياذة هوميروس التى كان يحتفظ بنسخة مذهبة منها ويحملها معه فى كل مكان يذهب اليه . كذلك كان الاسكندر يعتقد فى قراره نفسه أنه جاء ليكمل رسالة مقدسة وهى تحرير آسيا الصغرى وسوريا وقبل كل شىء مصر مقر أبيه آمون من جبروت ملك الفرس وطغيانه .

الاسكندر يقضى على المصاعب وحركات التمرد :

كانت أولى المشاكل التى برزت أمام الاسكندر غداة مصرع أبيه هى ظهور بعض المطالبين بالعرش اذ بايعه الجيش المقدونى الذى كان يقوده أنتيباتر Antipater صديق فيليب المخلص . والذى كان يعسكر قرب بحر مرمرة فى انتظار العبور الى آسيا الصغرى . أما الجيش الآخر والذى كان قد عبر الدردنيل فعلا الى آسيا الصغرى بقيادة أتاللوس خال عروس فيليب الجديدة فقد أعلن معارضته لتولى الاسكندر وأعلن مبايعته لأمونتاس الثالث ابن برديكاس شقيق فيليب . وقد أثار ذلك حنق الاسكندر النارى فأرسل مبعوثا ألقى القبض على أتاللوس وعلى باقى أفراد أسرته وأعدمهم جميعا وفر أمونتاس الى أن قبض عليه فيما بعد ونفذ فيه الاعدام أيضا .



الاسكندر الاكبر
قاهر العالم المسكون

(المتحف البريطاني بلندن)

استقبل الاغريق بالسرور البالغ نبأ مصرع فيليب وساد بينهم اعتقاد خاطىء أن الاسكندر الشاب لن يملأ حتى حذاء أبيه ومن ثم ساد اعتقاد أن الدويلات الاغريقية تستطيع أن تطالب بحريتها وتنبذ المعاهدات التى عقدتها مع فيليب . وبالفعل انتشرت بوادر التمرد فى تساليا وأمبراكيا حيث طردت الحاميات المقدونية ، ثم تلى ذلك اعلان أيتوليا وأكارنانيا الاستقلال ، وسرعان ما بدأت بوادر القوة تدب من جديد فى فوكيس . وفى بلاد اليونان الوسطى استيقظت طيبة وبدأت تتحرك لطرد الحامية المقدونية من قلعتها ، ثم أعلنت ايليس وأرجوليس فى البيلوبونيسوس استقلالهما وساد احساس بالراحة فى مدينة اسبرطة .

كانت أثينا أول من رفعت لواء الثورة ضد الاسكندر ، فعندما وصلت الأنباء اليها خرج ديموستنيس الى مجلس الأكليسيا ليروى حلما أوحى به اليه زيوس ليلا ووجده يتحقق صباحا . ثم أعلن موت فيليب وهو يرتدى رداءا شبيها بأردية الآلهة ويضع على رأسه تاجا من الزهور وأخيرا طالب المجلس بتقديم اكليل من الزهور للقاتل باوسانياس ونقش اسمه فى لوحة الشرف .

ولم تمض أسابيع قليلة على اندلاع التمرد والثورة حتى كان الاسكندر قد جمع حوله « الرفاق » المعجبين به خاصة كبار جنرالات الجيش المقدونى من أمثال بارمينيون وأنتباتر ، وسار على رأس جيش يبلغ تعداده ثلاثين ألفا ليؤدب الولايات الاغريقية المنشقة . وبدأ مسيرته الى تساليا حيث زار مدينة فثيوتيس Phthiotis مسقط رأس أخيليس بطل الألياذة .

وتكريما لهذا البطل أعلن اعفاء سكان هذه المدينة من الضرائب ثم سار الى ممر الترموبيلاى . ومنه الى طيبة حيث كانت الحامية المقدونية فى ضائقة وهى محاصرة فى قلعة كادميا . واستيقظ سكان طيبة ليجدوا قوات الاسكندر تعسكر خارج أسوار طيبة ، وسارع الأثينيون بارسال سفارة الى الملك الشاب بقيادة ديموستنيس نفسه ليعلنوا أسفهم للاسكندر لسوء سلوكهم نحوه وآثر الاسكندر أنه يسير على نهج أبيه فى اغراق

الأثينيين فى بحر العفو المقدونى وبالفعل استقبل الاسكندر الوفدالمقدونى هاشا باشا وبعد أن ألقى عليهم درسا بطولا فى معنى الاخلاص والوفاء قبل اعتذارهم وأعلن حسن نواياه ازاء مدينتهم . وما ان عاد الوفـد بهذه الأنباء حتى تنفست أثينا المذعورة الصعداء وأصـدرت الأكليسيا قرارا بمبايعة الاسكندر واختياره بطلا حاميا للمدينة .

بعد ذلك سار الاسكندر الى مدينته المفضلة كورنثا . ومن هناك دعى وفود المدن الاغريقيـة للالتقاء به . وعقب الاجتماع الكبير الذى حضرته كافة المدن الاغريقية فيما عدا أسبرطة ، صدر قرار بالاجماع باختيار الاسـكندر قائدا عاما لقوات تحالف الاغريق والمقدونيين . وعندما وجهت دعوة للاسبرطيين للاشتراك فى هـذا المؤتمر أجاب شيوخهم فى كبرياء « ان من عادة الأسبرطيين أن يقودوا وليس أن يقادوا » .

كما أيد ممثلو الاغريق المجتمعون فى كورنثا مشروع غزو دولةفارس ووعدوا بتقديم المساعدات العسكرية للاسكندر والتى كانوا قد وعدوا فيليب بها . كما وعد هو من جانبـه باحترام اسـتقلال وسيادة المـدن الاغريقية ويروى أن الاسكندر أصر وهو فى كورنثا أنيزور الفيلسوف الشهير ديوجينيس (Diogenes) والذى كان يبلغ الثمانين من عمره والذى جاء أصلا من مدينة سينوب (Sinope) على البحر الأسود حيث أقام فى كورنثا فى أحد بيوت الأغنياء وقد عرف عن ديوجينيس زهده الشـديد فى الدنيا وارتدائه الأطمار البالية وتركه لشعره يتهدل . وكانديوجينيس لا يأبه بشىء على الاطلاق لأنه كان يؤمن « باللاشيئية » ، ولكنه كان حاد الذكاء ، دائم التعليق على المواقف بعبارات لاذعة تهكمية . كذلك عرف عن ديوجينيس احتقاره الشديد للاغنياء والمرفهين ومنالشباب المتخنث وقد سجل لنا الكاتب الفيلسوف لاارتيوس عدة مواقف لديوجينيس الفيلسوف تشرح ذلك . سأله مثلا مرة أحد الشباب المتخنثين سـؤالا فرد ديوجينيس قائلا « دعنى أولا أتبين أأنت ذكر أم أنثى ؟ » .

على أى حال بحث الاسكندر عن هذا الفيلسوف الصعلوك حـتى وجده نائما يستجم بالشمس الهادئة فى احدى الحدائق وتقدم الاسكندر

منه محييا ومعرفا بنفسه قائلا أنا الاسكندر الملك فلم يحرك ديوجينيس ساكنا بل قال متمتما وأنا ديوجينيس الكلب (١) . عندئذ عاود الاسكندر يسأل فى أدب جم : « هل هناك من شىء أقدمه لك ! » فأجاب ديوجينيس وهو يرفع رأسه قليلا « نعم ، لا تقف بينى وبين الشمس ! » فاستدار الاسكندر عائدا فى صمت من حيث أتى . ولسخرية القدر أن الفيلسوف الكهل مات فى نفس العام الذى مات فيه الاسكندر فى ريعان شبابه وهو لم يتجاوز الثالثة والثلاثين ربيعا بينما رحل ديوجينيس عن العالم وهو فى التسعين من عمره .

ومن كورنثا سار الاسكندر الى دلفى ليستشير كاهنة أبوللون فى حملته ضد الشرق ولكنه لم يجد العرافة بيثيا Pythia لأنها كانت تعطى العرافة فى أيام محددة ، وقد طلبت منه أن ينتظر . ولكن كيف له وهو الذى يعتقد بأنه ابن زيوس ـ آمون أن يتساوى مع غيره من البشر وينتظر الكاهنة ! فدفع الكاهنة من ذراعها الى المعبد لتجيب على أسئلته ويقال أنها صاحت من الألم والمضايقة « أنت يا بنى لا يقدر عليك أحد » فاعتبر الاسكندر هذه الصيحة نبوءة !

قضى الاسكندر الشهور التالية فى تأمين حدود مقدونيا فى الشمال فى منطقة الدانوب والبحر والأسود ، كما اشتبك فى قتال مرير ضد الالليريين (٢) ونظرا لفظاعة المعارك فقد أشيع أن الاسكندر قد لاقى حتفه ولما وصلت هذه الشائعة الى أثينا خرج ديموسثنيس على الناس يحرضهم على الثورة ضد مقدونيا وينادى بتحالف مع الفرس فكسر بذلك نصوص مؤتمر كورنثا والقواعد المعنوية التى قام عليها التحالف بين المقدونيين والاغريق . وقد بلغ من تجسيم ديموسثنيس للموقف أن علق ديماديس على هذا الأمر فيما بعد قائلا : « لقد خيل لنا أن ديموسثنيس قد أرانا جثة

---

(١) سميت هذه الفلسفة بالكلبية لان مؤسسها الاول ديوجينيس كان يتخذ من ملعب سباق الكلاب مكانا للتعليم ومن ثم لقب بالكلب . وكان ديوجينيس أحد تلاميذ سقراط الحكيم انظر : اميرة مطر ـ الفلسفة عند اليونان ص ٣٨٧ وما بعدها .

(2) cf. N.G.L. Hammond." Alexanders Compaigns in Illyria J. H.S., 1974, P. 66—87.

وهى مقاله مطوله تصلح فصلا من كتاب عن حياة الاسكندر .

الاسكندر مسجاة على منصــة الخطابة » ولــكن الاثينيين تريثوا ولم ينفعلوا .

تمرد طيبة وتدميرها على يد الاسكندر :

أما مدينة طيبة فقد أعلنت الثورة على مقدونيا واغتالت كبار ضباط الحامية المقدونية فى قلعة كادميا . وقد أيد الأثينيون مدينة طيبة فى موقفها وناشدوا كافة المدن الاغريقية للوقوف بجوارها ، وبلغ التطرف حدا أن طابت بعض العناصر بسرعة الدخول فى مفاوضات مع الفرس لاقامةتحالف ضد مقدونيا .

ولما توالى الى أسماع الاسكندر أنباء ما حدث فى طيبة وأثينا اعتلاه الغضب الشديد وأدرك أن الوعاء قد فاض بما فيه واتهم الاغريق بخيانة القضية الاغريقية ذاتها وذلك بعد قتل كبار ضباط الحامية المقدونيةوحنث يمين الولاء والصداقة مع مقدونيا ومحاولة الاتصال بالفرس . وكالبرق هبط الاسكندر على طيبة ولكن أهل طيبة لم يفطنوا الى حقيقة الموقف واستخفوا بتهديد الاسكندر بل ولم يعبأوا بعروضه لتفادى كارثةكبرى . عندئذ أعلن الاسكندر أن من يريد النجاة بحياته فليهرب من طيبة الى معسكره . ولكن أهل طيبة ردوا على ذلك بعناد ووقاحة أنهم بدورهم يرحبون بأى أغريقى أو فارسى يأتى للدفاع عن أسوار مدينتهم .

أحس الاسكندر بأن السيل قد بلغ الزبى فهجم على طيبة من الناحية الجنوبية القريبة من القلعة حيث الحامية المقدونية المحاصرة ودار صراع عنيف فى شوارع المدينة وفى السوق وفى كل مكان . وأخــيرا وهنت مقاومة أهل المدينة فسقطت فى يد الاســكندر الغاضب الذى أمر بذبح السكان نساءا أطفالا وشيوخا وشبابا كما وقــع فى الأسر ما يقرب من ثلاثين ألفا ولم ينج من الموت أو الأسر الا عدد قليل .

بعد ذلك دعى الاسكندر حلفاءه لتقرير مصير طيبة،فصوتوا بالاجماع على ازالتها وتسوية مبانيها بالأرض وكانت مدينــة فوكيس من أشــد المتحمسين لهذا القرار ولم يستثنى من الدمار سوى معابد الآلهة وبيت

الشاعر القديم بندار . وعلى نغمات المزامير انهالت المعاول بلا رحمة تزيل طيبة من الوجود وتمحوها من التاريخ .

أما فيما يختص بالأسرى فقد أصدر الاسكندر عفوه عن الكهنة ، وأقاربهم وكذلك عن آل الشاعر بندار وكذلك كل من أعلن ولاءه لمقدونيا أما الباقون فقد بيعوا فى أسواق النخاسة . ثم قسمت أراضى المدينة على المدن المجاورة واحتفظ الاسكندر لنفسه فقط بقلعة كادميا .

عودة المدن الاغريقية الى حوزة مقدونيا :

كان المصير الذى حاق بطيبة ضربة قاضية لروح الاغريق المعنوية ، لقد جاءت سريعة وقاسية وقاضية ، وكان من الطبيعى أن ترتعد أثينا خوفا على مصيرها خاصة وأنها كانت المحرضة الأولى لثورة طيبة .

كان أول رد فعل لسقوط طيبة هو تغيير أركاديا لسياستها بسرعة اذ استدعت قواتها التى كانت فى طريقها لنجدة طيبة وحاكمت السياسيين الذين دبروا ارسال هذه المساعدة ، أما ايليس فقد أسقطت الحزب المعادى لمقدونيا وأحلت محله جماعة أصدقاء مقدونيا أما أيتوليا فقد أرسلت تستعطف الاسكندر لموقفها السابق وحزت حذوها كافة المدن الاغريقية فيما عدا أسبرطة المنطوية على نفسها .

وقد بلغ الخوف مداه فى أثينا لدرجة أنهم ألغوا الاحتفالات الدينيةفى اليوسيس ثم كسروا الرعب بارسال سفارة لتهنئة الاسكندر على قمع الثورة (١) ولكن الاسكندر رد بضرورة تسليم زعماء التمرد ورءوس الفتنة خاصة ديموسثنيس . ولم يصدق الأثينيون هذا الطلب المعتدل فأرسلوا سفارة مكونة من السياسيين أصدقاء مقدونيا من أمثالديماديس والجنرال فوكيون، ورحب الاسكندر بهذه السفارة واستمع بشغف الى الجنرال العجوز الذى كان يعجب به أشد الاعجاب .

ولم يشأ الاسكندر أن يكرر مأساة طيبة التى كان ضميره يؤرقه بسببها ، لأن الاسكندر كان دائما يعانى من تأنيب الضمير بعد الغضب

(1) A-rian, I, X ; Plutarchus, Phocion IX.

والانتقام البشع . خاصة أن طيبة التى كان بالأمس سيدة هيللاس أضحت أطلالا وهى التى كان لها الفضل على العرش المقدونى . كما أنها كانت موطن ديونيسوس رب الخمر الآله المفضل لدى الاسكندر . فوافق الاسكندر على مسامحة أثينا والعودة الى السلام معها بشرط نفى زعماء الحزب المعادى لمقدونيا من أمثال خاريديموس Charidemos الذى كان قد دعى الى القتال ضد الاسكندر حتى الموت كما اشترط الاسكندر أن يعتزل ديموسثنيس السياسة وأن يحال للتحقيق فيما نسب اليه بأنه قد تلقى أموالا من الفرس وأخيرا أرسل الاسكندر رسالة مطولة للاثينيين يطالبهم فيها بالتخلى عن مثل هذه الأعمال مستقبلا وينذرهم بالبطش بهم لو فكروا فى القيام بمثل هذا العمل أثناء غيابه فى حملته المستقبلة ضد الامبراطورية الفارسية .

هكذا ما كاد خريف عام ٣٣٥ ق. م يقدم حتى كان الاسكندر ابن الواحد والعشرين ربيعا قد أخضع الاغريق بضربة واحدة وانتزع لنفسه قيادة القوات الاغريقية والمقدونية ، وأصبح زعيما لا ينافس يفرض سلطانه على منطقة شاسعة تمتد من البيلوبونيسوس جنوبا الى حوض الدانوب شمالا ومن جزيرة كوركيرا غربا الى البسفور والدردنيل شرقا . وعاد الى مقدونيا كبطل جدير بالاعجاب وبدأ الاغريق يغيرون من نظرتهم له ويحسون بأن نجما جديدا قد بزغ فى سماء المجد ومن الخير لهم أن يكونوا معه لا عليه .

حملة الاسكندر الكبرى نحو الشرق :

وفى ربيع عام ٣٣٤ ق. م [1] عبر الاسكندر مضيق الدردنيل من مدينة سستوس الى مدينة أبيدوس (Abydos) على الجانب الآخر ، فى صحبة جيش يربو على اثنى عشرة ألفا من المقدونيين واثنى عشرة ألفا من الاغريق

---

(1) cf. G. Wirth," Darieos und Alexander, Chiron, I, 1971, p. 133-152.

وفيها يرسم لنا مقارنه نفسيه بين الاسكندر الشاب القوى وبين دارا الثالث الضعيف الفاشل ويدافع عن حملة الاسكندر ضد الفرس بأنها كانت هامة لمنع الفرس من تدبير خطة للهجوم على بلاد الاغريق ويدلل على ذلك بأن الاسكندر سار الى الشرق فى ظروف صعبة بالنسبة للحكم المقدونى فى بلاد اليونان الوسطى ولكه ضحى بذلك من أجل منع الخطر الخارجى .

والمرتزقة . وكانت قيـادة الحملة كلها فى أيدى المقدونيين . اذ كان الاسكندر بمثابة القائد العام ، يليه الجنرال بارمينيون وولداه فيلوتاس الذى كان يقود فرقة الفرسان « الرفاق » - ونيكاندر - الذى كان يقود حملة الدروع . ومن أسماء القادة المقدونيين الذين لمعت أسماءهم برديكاس وأمونتاس وملياجر ، وكليتوس الذى كان يتولى حراسة الاسكندر مع الحرس الملكى وأنتيجونوس الذى كان يقود قوات الحلفاء الاغريق والمرتزقة كذلك كان للاسكندر مجموعة من الرفاق يكونون أركان حرب الجيش نعرف منهم ثلاثة عشر من بينهم بطليموس بن لاجوس وسليوكوس ولوسيماخوس وهم الذين لمعت أسماؤهم بعد موت الاسكندر .

كذلك اصطحب الاسكندر معه مجموعة من العلماء والباحثين ليرصدوا مصادر الطبيعة فى البلاد المفتوحة ، ومؤرخه كاليتنيس Callisthenes الذى كلفه بتدوين يوميات الحملة وقد وعد حلفاؤه الاغريق أن يزودوه بأسطول كبير قوامه مائة وستين سفينة .

معركة نهر جرانيكوس :

بعد أن عبر الاسكندر مضيق بحر مرمرة سار جنوبا الى مكان طروادة القديمة حيث توقف لتقديم الاضاحى والشعائر فى ذكرى أجاممنون قائد الحملة الاغريقية . ثم عبر بعد ذلك نهر جرانيكوس Granicus وهناك دارت رحى أكبر معركة مع الفرس كاد الاسكندر أن يقتل فيها لولا شجاعة قائد حرسه كليتوس . وانتهت المعركة بهزيمة الفرس وأسر ألفين من المرتزقة الاغريق أرسلوا للعمل فى حقول مقدونيا مدى الحياة عقابا لهم لاشتراكهم فى جيوش معادية للاغريق والمقدونيين طبقا لقرارات مؤتمر كورنثا .

ونتيجة لهذه المعركة استسلمت ساردیس دون قتال و تلى ذلك مبايعة المدن الأيونية للاسكندر واعتباره محررا ونصيرا للديموقراطية ضد الأوليجارخية العميلة للفرس . ولم يقف فى وجه الاسكندر سوى مدينتان

هما ميليتوس Miletus وهاليكارناسوس ولكن وصول الأسطول المقدونى ودخوله المعركة أسقط هاتين المدينتين وطرد الأسطول الفارسى من مياههما ثم أجبرتا على الدخول فى الحلف الاغريقى ـ المقدونى بالقوة . كما طالب أهل خيوس باعلان الولاء له (١) .

بعد ذلك عين الاسكندر أرملة الملك ادريوس idrieus حاكمه على ملك زوجها وهى مملكة كاريا ، كما أبقى ستربابات الفرس فى وظائفهم بعد أن بايعوه . ولم يغادر الاسكندر ساحل آسيا الصغرى الا بعد أن اطمأن الى أن الأسطول الفارسى لن يقوى على العودة اليه (٢) عندئذ أمر أسطوله بالتحرك لأنه كان يدرك أن المعركة الفاصلة بينه وبين الملك دارا هى معركة تقررها الجيوش البرية فى المقام الأول .

وفى شتاء عام ٣٣٢ ق. م أرسل الاسكندر بعض جنوده المقدونيين حديثى الزواج لقضاء أجازة قصيرة فى مقدونيا ، ثم أوكل الى قائده بارمينيون أمر قيادة الفرسان على أن يلتقى به فى فريجيا بينما قاد الاسكندر باقى القوات بنفسه الى ليكياوبامفيليا وبسيديا وأصبح أسلوبه هو مهاجمة القبائل المتحصنة بسفوح التلال وتضييق الخناق عليها ثم سحقها . وبعد تأمين ليكيا وبامفيليا ، عين نيارخوس حاكما عليها .

وبعد الاستيلاء على فريجيا عين أنتيجونوس واليا عليها . وقضى الاسكندر عدة أيام فى فريجيا شاهد أثناءها عربة جوردياس المؤسس الأسطورى لهذه المملكة القديمة .

وفى جورديون تلقى الاسكندر امدادات عسكرية من مقدونيا والحلفاء وتقدم صوب أنكورا Ancyra (أنقره) ومنها جنوبا الى

---

(1) G. Wirth," Die Syntaxeis von Kleinasien in 334 v. Chr. Chiron, 11, 1972, P. 91-98.

كذلك ارجع الى النقش المعروف باسم خطاب الاسكندر الى اهل خيوس والذى اعيد نشره والتعليق عليه حديثا . (Tod, 11, 1970, p. 266-267).

A. W.G. Forrest, Alexander's letter to the Chian. Klio, LI, 1969 p. 201-206.

(2) cf. H. Hauben," The Command Structure in Alexanders Mediterranean Fleet Ancara Society. III, 1972, PP. 55-56.

كابادوكيا وكيليكيا حيث وضع يده على بوابات كيليكيا الشهيرة ثم استولى بعد ذلك على ميناء طرسوس Tarsus.

موقعة اسوس ودخول الاسكندر الشرق الاوسط :

ومن طرسوس سار الاسكندر جنوبا فى اتجاه سهل اسوس الضيق المؤدى صوب سوريا ولما سمع بوجود دارا فى مدينة سوخى بسوريا (وهى احدى أعمال لواء الاسكندرونة فى سهل بحيرة انطاكية) اتجه اليه ولكن دارا سبق الاسكندر بالهجوم على اسوس وقتل الجرحى المقدونيين . عندئذ سارع الإسكندر لملاقاة الجيش الفارسى الذى كان قد تحصن قرب نهر بيناروس بين التلال والبحر . وكان يبلغ تعداده ٣٥٠٠٠٠ من الفرس والاغريق المرتزقة (١) أما جيش الاسكندر فكان أقل من ذلك بكثير .

وفى شهر أكتوبر عام ٣٣٣ التحم الجيشان واستخدم الاسكندر نفس التكنيك الذى استخدمه فى جرانيكوس حيث أبلى الجنرال بارمينيون بلاء حسنا ونتيجة لذلك لم يصمد الفرس طويلا فانسحب دارا وتبعته قواته وسقطت سوريا كلها فى يد الاسكندر الذى إستولى على عربة دارا الملكية وخيمته وقوسه ولأول مرة شاهد الاسكندر بذخ الشرق الخرافى . ولما أدرك الاسكندر أن أسرة دارا موجودة فى الخيمة أبدى نحوها عطفا ورعاية .

لقد كان لانتصار موقعة اسوس Issos صدى واسع . ففى كل مكان ذهب الاسكندر اليه وجد انتصاراته قد سبقته . ومن ثم انهارت الأحزاب المعادية لمقدونيا وحلت محلها الأحزاب المتعاطفة مع الاسكندر . وأعلنت بيلوس Byblos (جبيل فى لبنان) وصيدون (صيدا) وجزيرة رودس المبايعة للاسكندر أما مدينة صور فقد قاومت بعناد وشراسة جيوش الاسكندر وظلت سبعة أشهر تقاوم الحصار وترد الهجوم بالرغم من أن الاسكندر جرب ضدها أحدث وسائله العسكرية وكاد الاسكندر أن ييئس من الاستيلاء عليها . ولكنه تمكن فى النهاية من تدمير أسطول

(1) G.L. Maurison," Dareios III, and the battle of Issos, Historia, XXI, 1972, P. 3 99-423.

صور وهدم جزءا من حائط المدينة وردا على قتـل أهل صور للأسرى المقدونيين أعمل الاسكندر قتلا وفتكا فى أهلها وبيعت النساء والأطفال فى أسواق الرقيق •

وفى خريف عام ٣٣٢ ق•م• سقطت غزة آخر قلعة فى الطريق الى مصر، بعد مقاومة عنيفة • وأرسل الملك دارا يعرض على الاسكندر شروطا مجزية للصلح، منها التنازل عن كل ممتلكاته الواقعة غرب دجلة والفرات وأن يدفع غرامة حرب كبيرة وأن يزوج الاسكندر من يريد من بناته مقابل أن يرد اليه زوجته وباقى أسرته ولكن الاسكندر رفض بشدة هذا العرض السخى وأعلن أنه يبغى مملـكة فارس ذاتها وليس ممتلكاتها • ولم يعد أمام الطرفين سوى القتال حتى الموت •

الاسكندر الاكبر فى مصر :

كما قلنا، بعد سقوط صور سار الاسكندر بقواته بحذاء الساحل السورى والفلسطينى حتى وصل غزة فى خريف عام ٣٣٢ ق•م• حيث وجـد الحامية الفارسية بقيادة باتيس قد قامت بتحصين المدينة جيـدا ونظرا للموقع الاستراتيجى الهام للمدينة فقد وقف الاسكندر أمامها حائرا • فغزة تقع على حافة الصحراء السورية وفى نفس الوقت تطل على البحر المتوسط • والمدينة القديمة كانت تطل من ربوة عالية على منحدر كبير ويحيط من حولها الخنادق والتحصينات مما جعلها قلعة لايمكن أن تسقط •

وقد اعتمـد قائد الحامية الفارسية فى غزة على الجيوش العربيـة والفارسية وعلى مخازن الغلال الممتلئة فى الصمود أمام الحصار، ويبدو أن الفكرة التى كانت فى مخيلة القائد الفارسى هى المقاومة والصمود لحين أن يسترد الملك دارا قوته ويتمكن من توجيه ضربة قاضية للاسكندر، كما أمل القائد الفارسى لغزة أن يجد بعض العون من قبل حاكم مصر الفارسية •

وكان الاسكندر قد بعث بخبرائه ومهندسيه لتفحص القلعة وانتظر هو مع جيشه فى الخيام حتى صمم مهندسوه وسيلة لمهاجمة المدينة والاستيلاء عليها • وبعد اشتباك شرس وعنيف سقطت غزة فى يد الاسكندر بعد أن

تلقى جرحا كاد أن يقضى عليه • وسحب الملك المقدونى جثة باتيس خلف عربته وكأنه أخيليس (١) بطل الالياذة يسحب جسد غريمه هكتور الطروادى أمام حائط طروادة ، بينما تدفق جنوده ينهبون المدينة ويفتكون بأهلها ويقول كورتيوس أن ما لايقل عن عشرة آلاف من الفرس والعرب لاقوا حتفهم وبيعت النساء والأطفال • واستولى الملك وجنوده على كميات كبيرة من البخور والعطور العربية التى اشتهرت بها المدينة ويقال أن الاسكندر أمر بارسال كميات منها لمعلمه ليوتيداس كما أرسل الهدايا الى أمه أولمبياس وأخته كليوباترا • واحتفظ لنفسه بصندوق مطعم بالعاج وضع فيه نسخته من الالياذة التى كان يحملها معه دائما أينما ذهب •

وفى حوالى منتصف شهر نوفمبر عام ٣٣٢ ق٠م٠ وجد الاسكندر نفسه يدق باب مصر عند مشارف بيلوزيوم Pelusium (الفرما) بوابة مصر الشرقية ، وهناك وجد اسطوله فى انتظاره بقيادة أميراله هيفايستون • ولا تزال حتى الآن أطلال الفرما القديمة قائمة فى الصحراء الشرقية على مسافة ثمانية عشرة ميلا شمال شرقى مدينة بور سعيد •

ولم يجد الاسكندر عند حدود مصر مقاومة مضادة ، لأن سـ تراب مصر الفارسى ، والذى كان يدعى مازاكيس آثر أن يستسلم ويوفر على نفسه عار الهزيمة • فسلم القلعة بذهبها وخيراتها الى القاهر المقدونى وأصبحت مصر تحت قدمى الاسكندر (٢) •

كانت الأحوال فى مصر غير التى كانت أيام الفراعنة • فقد مات ملوكها العظام وماتت معهم الأمبراطورية المصرية منذ ألف سنة تقريبا قبل مجىء الاسكندر •

ولكنها كانت وطنا مفتوحا أمام التجار الاغريق الذين تدفقوا عليها منذ القرن السابع ق٠م٠ خاصة بعد أن أسسوا مستعمراتهم التجارية نقراطيس (سيدة البحار) Naukratis على الفرع الكانوبى للنيل (الفرع

---

(١) Gurtius, IV, 6, 69.

(٢) انظر ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمه — الطبعة الرابعة — الجزء الاول — القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٧ — ١٨ •

الغربى) وموزعة الآن بين قرى نقرش ونبيرة وكوم جعيف التابعة لمركز ايتاى البارود محافظة البحيرة .

كذلك وجد الجنود المرتزقة الاغريق عملا فى الجيوش المصرية كما يشهد بذلك نقش أبو سنبل الشهير الذى سبق الحديث عنه . وكانت السفن الاغريقية تأتى وتروح محملة بالبضائع والحضارة . والحقيقة أن علاقة مصر بالاغريق ترجع الى أيام كريت وموكيناى. ولكن ملوك الأسرة الصاوية فى مصر شجعوا العلاقة مع الاغريق ووثقوا من الارتباط بمدنهم فى أيونيا وبلاد اليونان خاصة أن ملوك هـذه الأسرة قد عرفوا بحبهم للحضارة الاغريقية لدرجة أنهم أقروا تدريس اللغة الاغريقية للتلاميذ فى المدارس المصرية .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الجنـود المصريين حاربوا الى جوار اغريق آسيا وليديا عندما اجتاحها قورش الأكبر فى النصف الثانى من القرن السادس . وعندما هاجم قمبيز مصر عام ٥٢٥ قاوم الجنود الاغريق المرتزقة مع المصريين لصد هذا الاحتلال الفارسى . ولما ثار ايناروس سارعت أثينا بتأييد هذه الثورة وأرسلت جزءا من أسطولها دمر عام ٤٥٤ ق.م. حيث هزمت القوات الأثينية قرب ممفيس بعد أن تكبدت خسائر فادحة فى ذلك العام الحاسم . وقد أدت هذه الهزيمة الى رد فعل قوى هو تحول حلف ديلوس الى أمبراطورية لأثينا .

ومن ناحية أخرى كانت مصر دائما كعبة العلم والنور بالنسبـة للاغريق ، قصدها طلاب العلم والمعرفة خاصة فلاسفتها للاستزادة من الحضارة المصرية . فنحن نعلم أن المشرع الأثينى سولون زار مصر،كما زارها أيضا فيلسوف جزيرة لندوس الشهير كليوبولوس Kleobolos وطاليس فيلسوف ميلتوس وبيثاجوراس (فيثاغورس) الساموسى وغيرهم من طلاب المعرفة ورواد العلوم .

لقد اعتقد هؤلاء الفلاسفة والحكماء أن مصر هي المهد الأول للأسرار الكهنوتية ومهبط وحي الفنون والعلوم ، كما سحرتهم آثارها الخالدة التي حرصوا على زيارتها والتفرج عليها . وفي خلال القرنين الخامس والرابع زاد تدفق طلاب المعرفة على مصر فزارها هيرودوت الذي جاء ليشاهد وليسمع ويسجل بنفسه أعاجيب وطبيعة هذا البلد الغريب كما زارها أفلاطون باحثا عن نماذج عملية لنظريته الشهيرة في التذكر من خلال الفكر الديني المصري الغامض وعن طريق الكتابة الهيروغليفية .

ولم تكن أثينا وحدها الحريصة على مساعدة مصر بل حاول ملك اسبرطة الأعرج أجسيلاءوس Agislaos تحريرها عام ٣٦٠ ق.م. ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل .

لقد كان التبادل الحضاري بين مصر والاغريق قائما منذ وقت مبكر، ولقد نقل الاغريق الكثير عن الديانة المصرية ، بل أنهم قبلوا الهة مصرية دون تغيير أو تبديل مثل آمون الذي غزت عبادته أوروبا وشيدت من أجله العديد من المعابد آخرها المعبد الكبير الذي شيد في أثينا عام ٣٣٣ ق.م أي قبل عامين فقط من غزو الإسكندر لمصر ، ولقد استاء الاغريق عندما سمعوا بتدنيس الفرس للمعابد المصرية وقتلهم عجل آبيس لأنهم كانوا يشعرون باجلال ورهبة ازاء هذه الديانة . وقبل كل شيء كانت مصر جوهرة التجارة الاغريقية التي يجب الحفاظ عليها مستقلة أو على الأقل محايدة ولكن ليس في أيدي الفرس بأي حال من الأحوال .

وازاء ذلك أشاع الاسكندر مقدما أنه جاء ليحرر مصر من عبودية الفرس ورحب المصريون بالبطل الذي يدعي أنه من نسل ربهم آمون .

ولما كان المصريون شعبا متدينا فقد رحبوا بالاسكندر وقبلوه فرعونا وبطلا محررا من ظلم الفرس وتعنتهم .

وسار جيش الاسكندر بخطوات الأوز وكأنه في نزهة طوال الطريق من بيلوزيوم الى ممفيس (ميت رهينة) وهو طريق يبلغ طوله حوالي المائة والعشرين ميلا ، عن طريق الصحراء الشرقية عبر هليوبوليس (المطرية) مقر معبد

الشمس الكبير وجامعة أوون القديمة ، والتى تكاد تواجه ممفيس على الجانب الشرقى لنهر النيل •

عبر الاسكندر النيل من الشرق الى الغرب فى صحبة أسطوله الذى كان قد لحق به ودخل ممفيس وسط حفاوة كهنتها وشعبها البالغة• لقد كانت ممفيس مقر معبد بتاح ومقر عجل أبيس المقدس وقد أسعد المصريين الفارق العظيم بين سلوك الاسكندر المهذب وسلوك قمبيز عندما ذبح عجل أبيس المقدس منذ مائتين عام تقريبا ، ثم تقدم الاسكندر الى معبد بتاح وحيث حظيرة عجل أبيس المقدس وقدم الأضاحى والقرابين فى خشوع لرب ممفيس بتاح العظيم وزوجته سخمت وابنهما نفرتوم • وليس من المستبعد أن يكون الاسكندر قد طاف بمنطقة سقارة وآثارها وتفرج على السيرابيوم ــ مقبرة العجول المقدسة ــ ومدافن الفراعنة والأشراف العظام وسواء كان الاسكندر صادقا أم ممثلا رائعا فقد انتزع اعجاب المصريين وحبهم فقبلوه ابنا لآمون وفرعونا عليهم ، ويقال انه توج فى معبد بتاح وأعطى الألقاب المقدسة الخاصة بالفراعنة مثل « ابن الشمس » و «صفى رب الشمس» و «حبيب آمون» الخ • ولا تزال هذه الألقاب المنقوشة باقية حتى الآن على بعض المعابد المصرية ، بل ظهر رسمه على الحوائط وهو يضع على رأسه تاج الوجهين الذى تزينه الكوبرا المقدسة •

ويروى لنا أريانوس أن الاسكندر أعلن الاندماج الحضارى بين مصر وبلاد الاغريق عندما أقام مهرجانه الكبير حيث عرضت فيه المباريات الرياضية ومباريات الموسيقى والشعر والالقاء والانشاد • وقد اشترك فى ذلك المهرجان فريق من المغنين والموسيقيين والممثلين والراقصين والرياضيين الاغريق الذين كانوا يصحبون الجيوش كفرقة ترفيه عن الجنود • وعلى أى حال لم تكن الحضارة الاغريقية غريبة على المصريين ، فقد تعودوا عليها ولمسوها من احتكاكهم بالتجار والزوار والاغريق بالرغم من أنهم عافوا أن يقلدوها الا فيما ندر •

تاسيس مدينة الاسكندرية :

وبعد أن أقام الاسكندر بضع أسابيع فى ممفيس سار غربا متتبعا الفرع الكانوبى للنيل حتى وصل الى مدينة كانوب القديمة (كوم سمعدى) عنـد حافة الدلتا الشمالية الغربية . وشاهد الاسكندر بحـيرة مريوط Mareotis تلك البحيرة التى يفصلها عن البحر المتوسط شريط رفيع من الصخور والرمال لا يتعدى عرضه ميلا واحدا ، وعاين الاسكندر هـذا الشريط الضيق من الأرض الواقع بين البحر والبحيرة والذى لا يبعد سوى عشرين ميلا غربا من كانوب القديمة واختاره ليبنى عليه مدينته الجديدة فى مصر، وقد لاحظ الاسكندر أن هذا المكان يكاد أن يكون جزيرة مستقلة . وفى نفس الوقت يرتبط بالدلتا عن طريق أحد فروع النيل مما يجعله (١) مرتبطا بنقراطيس التى تقع على مسافة ليست بالبعيدة، وبممفيس العاصمة الفرعونية وبذلك يمكن ربط الاسكندرية بالبحر الأحمر عن طريق القناة القديمة التى تربط النيل بالبحر الأحمر مما يؤهلها لأن تكون ميناءا عالميا بين الشرق والغرب ، وفى مواجهة هذا الشريط الرملى كانت تقع جزيرة صغيرة اسمها فاروس Pharos (مكانها الآن قلعة قايتباى) ولا يفصلها عن الساحل سوى مسافة ألف ياردة ، ومن العجيب أن هذه الجزيرة قد أشارت اليها الاوديسا (٢) . وقد روى التراث الشعبى أن الاسكندر سمع فى نومه هذه الأبيات من الأوديسا تتردد على أسماعه فقرر بناء مدينة تحمل اسمه .

درس الاسكندر كل هذه المزايا الاستراتيجية للموقع ووجد أنه من الممكن اقامة مدينة تفوق مدينة صور (٣) التى وقف ازاءها حائرا وعاجزا لحين من الزمن كما وجد الاسكندر مثلا أن جزيرة فاروس تمثل حاجزا لموج البحر المتهدر وتقيم خلفها ميناء هادئا لرسو السفن . كذلك وجد

---

(١) وهى ترعة سخديا القديمة ويقوم مقامها ترعة المحمودية الآن او التى كانت تعرف بالرياح الناصرى فى العصور الوسطى .

(٢) Odessey, IV, 355.

(٣) يرى الاستاذ بل ان الاسكندر لم يكن يريد محو صور من الوجود لانه كان سيدرك لو عاش مدى اهميتها بعد فتح فارس ولكنه مات قبل أن يعيد بناءها وهذا أعطى الاسكندرية الفرصة لـلازدهار والتوسـع لتصبح المدينة التى لا تنافس فى حوض البحر المتوسط انظر :
HI, Bell," Alexandreia, J.E.A. XIII,1927, P. 171-184.

الاسكندر أنه في الامكان اقامة ميناء غربي للمدينة بربطها بالدلتا عن طريق القنوات والطرق (مكانها محطة الركاب الحالية) والسفن الصغيرة .

وعندما هم الاسكندر بترجمة هذه الدراسات الى الواقع ، وجد في هذا المكان المزمع اقامة مدينته فيه، قرية مصرية يسكنها صائدو الأسماك وتسمى راقوده Rhacotis [1] وربما لهذا السبب اتخذت الربه ايزيس الربه الحامية لمدينة الاسكندرية بل وأقيم لها العديد من التماثيل ، كما تضمنت خطة البناء اقامة معبد كبير لهذه الربه فوق جزيرة فاروس حيث بنى الفنار الشهير عند طرفها ليهدي السفن والذى كان احدى عجائب الدنيا السبع . وفى مواجهة طرف الجزيرة الشرقى كان يبرز لسان ضيق من الأرض الى قلعة في البحر (رأس لوخياس القديمة السلسلة الآن) واختار الاسكندر المساحة بين اللسان وطريق كانوب لتكون مقرا للحى الملكى Regia ، وكان هذا الحى يشغل أكثر من مساحة ربع المدينة القديمة . واختط المهندسون شارعا عريضا يقطع المدينة من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب (شارع السوما ــ النبى دانيال) ليتقاطع مع شارع عريض آخر يقطع المدينة من أقصى الشرق الى أقصى الغرب (طريق الحرية) ويزيد طوله على ميلين وعرضه على مائة قدم تقريبا ويحده من الشرق بوابة الشمس ومن الغرب بوابة القمر ، وقد عرف هذا الشارع بطريق كانوب ، وعلى جانبى هذا الطريق الكبير كانت تقام الأروقة المسقوفة Stoa (البواكى) لتمنح المارة الظل والالتجاء من المطر . وفى نفس اوقت كانت مكانا للخطباء والمعلمين والمبشرين بالنظريات الفلسفية ، وفى قلب المدينة فى المنطقة الواقعة ما بين شارع كانوب والبحر اختطت ساحة المدينة الرئيسية حيث أقيم فيها معبد لرب بوسيدون رب البحار وهو من أهم ملامح المدينة القديمة وبجوار المعبد أقيم المسرح الكبير والمكتبة العامة ودار الحكمة (Museion) كما شملت مرافق المدينة الجديدة والأرصفة ومستودعات المياه وعلى الجانب الآخر من طريق كانوب أقيمت ملاعب الرياضة والتربية gymnasion وملعب السباق ودار حفظ الوثائق ... الخ [2] .

---

(1) Strabo XVIII, 1, 6.

كذلك شملت مدينة الاسكندرية القديمة حديقة كبرى للحيوانات زينت بالنافورات . ويقول فيلون أن المدينة قسمت الى خمسة أحياء أعطى لكل منها حرفا من الحروف الأبجدية اليونانية مثل حى الألفا والبيتا والجاما والدلتا والابسيلون وأن اليهود كانوا يسكنون الحى الرابع (حى الدلتا) .

كذلك شمل تخطيط المدينة عدة شوارع ضيقة فرعية تتقاطع مع الشارعين الرئيسيين فتبدو المدينة وكأنها لوح شطرنج ومن حولها أقيمت الأسوار التى يتخللها الأبراج والحصون . (٢)

وبالرغم من أن المدينة قصد بها فى الأصل أن تكون مستعمرة مقدونية فى الدرجة الأولى الا أنها أصبحت عالمية . بفعل الهجرة اليها من كافة أنحاء بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، ومع هذا فقد ظل الحى الغربى المقام فوق راقودة (ومكانه كوم الشقافة ـ كرموز حاليا) حيا مصريا حيث أقيم فيه معبد سيرابيس الشهير .

ولا نعرف بالضبط التاريخ الذى وضع فيه أساس المدينة الا أنه احتفل فيما بعد بتاريخ انشائها فى اليوم الخامس والعشرين من الشهر الخامس من السنة المصرية أى فى شهر طوبة (يناير ـ فبراير) وقد قام المهندس دينوكراتيس Deinocrates بتكليف من الاسكندر بوضع التخطيط العام للمدينة . وكان هذا المهندس قد فرغ لتوه من الاشراف على بناء معبد الربة أرتميس فى افيسوس والذى اعتبر أحد عجائب الدنيا الى فى العالم القديم ، وقد امتزجت عبقرية اختيار المكان بعبقرية التخطيط العمرانى حتى أضحت أثرا خالدا للأجيال المستقبلة وأصبحت الاسكندرية يوما ما وريثة لعرش الحضارة الأغريقية حتى حجبت آثينا

(٢) كشف الفلكي باشا عن سبعة شوارع صغيرة كانت تقطع المدينة من الشرق الى الغرب وأحد عشر شارعا عرضيا كانت تقطع المدينة من الشمال الى الجنوب ، وذكر انها كانت تحمل أسماء افراد الاسرة الحاكمة وكانت مرصوفه بالبازلت الاسود او الاصفر .

ذاتها . وبلغ من جمالها واتساعها أن أصبحت حديث العالم وملتقى عدة أجناس مختلفة (١) .

- زيارة الاسكندر لمعبد آمون فى واحة سيوة :

غادر الاسكندر مكان الاسكندرية بعد أن أشرف على وضع التخطيط العمرانى لها وترك العمال والمهندسين يعملون ، وسار هو غربا بقصد فتح مدينة قورينه المستوطنة الاغريقية الشهيرة فى ليبيا (مكانها قرية شحات قرب برقة) وتحريرها من سيطرة الفرس ، واتخذ الاسكندر الطريق المعتاد على طول الساحل الشمالى لافريقيا بجوار البحر حتى وصل الى باراتونيوم (مرسى مطروح) ، ولكنه فوجىء هناك بوجود وفد من قورينة جاء ليعلن البيعة ويحمل الهدايا الثمينة للفاتح العظيم . وقبل الاسكندر مسرورا الهدايا والمبايعة التى جعلته يسيطر على مساحة شاسعة من شاطىء افريقيا الشمالى حتى حدود قرطاجة فى تونس فأصبح بذلك سيدا على البحر المتوسط كله والبلاد المطلة عليه .

أحس الاسكندر أن الوفد القورينى قد وفر عليه مشقة السفر الى ليبيا ، ومن ثم وجد أن لديه وقتا لزيارة معبد آمون فى واحة سيوة . والقيام بتلك الرحلة الرومانسية من أجل اشباع الاحساس الدفين فى نفسه بأنه ابن آمون رع . لقد دفع هذا الاحساس الاسكندر لأن يتجه جنوبا من باراتونيوم (مرسى مطروح) الى قلب الصحراء الغربية القاتلة ليقطع مسافة ١٨٠ ميلا فى ثمان أو تسعة أيام فى زمهرير الشتاء القارس لعام ٣٣١ ق.م. وفى مواجهة الرياح المحملة بالرمال . انها مخاطرة مميتة حتى فى عصرنا الحاضر رغم تقدم وسائل الاتصال والامداد . فلا زالت

---

(١) عن مدينة الاسكندرية القديمة وآثارها ومظاهر الحياة فيها ظهرت عدة ابحاث باللغة العربية منها : زكي على : الاسكندرية تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة - مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية العدد الثانى (١٩٤٤) والعدد الرابع (١٩٤٨) ايضا انظر محمد عواد حسين لطفى عبد الوهاب ومصطفى العبادى : الاسكندرية منذ أقدم العصور - منشورات محافظة الاسكندرية ١٩٦٣ ، اما الاستاذ الدكتور ابراهيم نصحى فقد أورد فى الجزء الثانى من كتابه مصر فى عصر البطالمه وصفا دقيقا للمدينة ومبانيها وسكانها من ص ٢٧٢ - ٣١٠ .

هناك القوافل التى تضل وتهلك بسبب العطش ، مما شجع على انتشار الأقاويل والشائعات حول المساعدات الربانية والشواهد السماوية التى قادت الاسكندر سالما عبر هذه الصحراء الميتة الى الواحة المقدسة حيث تظللها أشجار النخيل والتين والزيتون والتى ترويها عدة آبار وعيون مائية (١) .

ويروى لنا أريانوس كيف أن الاسكندر راح يملأ عيونه بالرهبة المقدسة فى كل مكان تفقده فى الواحة . وعندما اقترب من معبد آمون الشهير وجد الكهنة فى انتظاره . ودخل الاسكندر الى قدس الأقداس حيث تم التقاء بين الاله فى صورة التمثال وبين الابن فى صورته البشرية . ولما سأل الاسكندر عما اذا كان قد اقتص من كل الذين دبروا مقتل أبيه رد عليه الكاهن « وضح عبارتك فلا أحد من البشر يقدر على قتل أبيك ، أما قتلة فيليب فقد نالوا جزاءهم » . ولقد تضمنت هذه العبارة — ان صحت — اعترافا صريحا من جانب الكهنة ببنوة آمون . وقد سبب هذا ارتياحا كبيرا فى نفس الاسكندر . ويروى لنا بلوتارخوس أن الاسكندر كتب الى أمه فيما بعد خطابا ذكر لها فيه أنه عرف أسرارا أخرى من كهنة المعبد ووعد بأنه سوف يرويها لها عند عودته الى بيللا . ولكن القدر لم يمهله ليفعل ذلك .

وبعد أن استراح الاسكندر بضعة أيام فى الواحة استدار راجعا الى منفيس وقد كان هناك تغير واضح فى سلوك الاسكندر بعد زيارته لمعبد آمون فى سيوة اذ راح يتصرف باستعلاء وكبرياء تجاه الاغريق فيما عدا المقدونيون الذين استاءوا لهذا التصرف ويقال أنه ذكر فى خطاب الى الآثينيين عبارة تدل على جدية اقتناعه بأنه ابنا لآمون وذلك عندما أشار الى أبيه فيليب « الذى كان يدعى فى الماضى بوالدى » (٢) بل وضع الاسكندر منذ ذلك الوقت على رأسه قرنى كبش آمون ومن ثم أشار اليه التراث بأنه ذو القرنين

---

(١) عن رحله الاسكندر الى واحه سيوة انظر :
C.B. Welles, Historia, XI (1962) P. 271 ff.
كذلك ابراهيم نصحى المرجع السابق المجلد الاول ص ٢٢ .

(٢) Plutarchos, Alexander ; Arrian, III, 3.

الاسكندر ينظم مصر قبل ان يغادرها :

وصل الاسكندر الى ممفيس فى أوائل شهر ابريل تقريبا ، واحتراما لمشاعر المصريين أصدر قرارا بتعيين نائبين مصريين له واحد لشئون مصر العليا اسمه بيتيسيس Petesis والآخر لشئون مصر السفلى اسمه دولواسبيس Doloaspis • وفى نفس الوقت وكل الاسكندر شئون الخزانة المصرية لاغريقى من مستعمرة نقراطيس اسمه كليومينيس Cleomenes (١)

وربما قصد الاسكندر بهذه الحركة تأسيس حكومة مصرية اغريقية لحكم البلاد . وتأمينا لمصر ترك الاسكندر حاميات عسكرية فى بيلوزيوم وممفيس كما وضع قوات عسكرية قرب الشلال الأول عند أسوان لحماية البلاد من الجنوب وجعل قيادتها موزعة بين قائدين هما بيوكستاس (٢) وآمونتاس •

---

(١) عن كليومينيس النقراطيسى انظر الابحاث الاتية : —

J. Vogt, "Kleomenes Von Naukratis, Her Von Aegypten," Chiron, I (1971) P. 153-157 ; also J. Siebert : Nochmals Kleomenes Von Naukratis, Chiron II, (1972) pp. 99-102.

ولكن الاستاذ الدكتور مصطفى العبادى دافع عن سياسة كليومينيس المالية ووصفها بانها تضحيه من جانبه من أجل ان يورث البطالمة خزانة غنية وتجارة خارجية ثابتة ومنظمة (انظر مصطفى العبادى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد ١٧ ص ٦٥ — ٨٥ — ١٩٦٣) وقد رد الاستاذ الدكتور ابراهيم نصحي بشدة على هذا الدفاع وادان سياسة كليومينيس ووصفها بانها خرقاء متغاضية عن القيم الاخلاقية اساءت الى الشعب والى اقتصاد مصر الخارجي انظر ابراهيم نصحى المجلد الاول ص ٣٥ هامش ٢ .

(٢) نشر الاستاذ تيرنر حديثا قصاصه بردية عثرت عليها البعثة البريطانية فى سقارة ، والقصاصة عبارة عن تحذير صادر من قائد عسكرى اسمه بيوكستاس Peucestas بعدم الاقتراب من بيت أحد الكهنة ، وقد اقترح الأستاذ تيرنر ان يكون هذا القائد هو بيوكستاس الذى عينه الاسكندر قائدا على الحامية التى تركها فى ممفيس (Arrian iii, 5.5) لأنها من ناحية الخط ترجع الى الربع الأخير من القرن الرابع ق.م ،فان صدق هذا الاقتراح فانه يبين مدى رقه الاسكندر ومحافظته على شعور المصريين انظر : —

E. G. Turner, A Commander in·Chief's order from Saqqara, *J.E.A.*, Vol 60 (1974) pp. 239—242.

ويبدو أن فتح الشرق الأوسط ووضع السلطة لأول مرة فى أيدى الاغريق واطلاق الاشارة الأولى نحو أغرقة مصر والشرق الأوسط كان الحل المثالى لمشكلة تزايد عدد السكان وقلة الموارد التى أرهقتها الحروب الكثيرة • بل اننا نعرف أن أرسطو معلم الاسكندر عالج فى مقال مشكلة الهجرة والاستيطان ودور الاسكندر فى حل هذه المشكلة •

على أى حال ما أن فتح الاسكندر مصر حتى تدفقت جموع الاغريق فى أثر الجيش المقدونى فلطالما سمعوا عن سحرها وعراقة شعبها وقدم حضارتها وجمال الحياة فيها • ولكن من الواضح أن المهاجرين قصدوا العواصم المصرية فى أول الأمر مثل ممفيس وطيبة وسايس أو قصدوا نقراطيس حيث يقيم الاغريق لأن الاسكندرية كانت لا تزال فى دور التكوين ولم تكن قد اكتملت بعد لاستقبال المهاجرين والدليل على ذلك أن ممفيس ظلت عاصمة مصر حتى السنوات الأخيرة فى القرن الرابع ق•م• ولم تصبح الاسكندرية مدينة بمعنى الكلمة الا فى عصر بطليموس الثانى الملقب بفيلادلفوس (٢٨٥ — ٢٤٦ ق•م) حيث تدفق الزوار للتفرج على مبانيها ومعابدها المذهلة •

وقبل أن يغادر الاسكندر مصر عائدا الى ميدان القتال فى الشرق الأوسط استعرض قواته بكاملها فى ممفيس ثم أقام مهرجانات ثقافية ورياضية أنهاها بتقديم القرابين مرة أخرى الى زيوس آمون • ويقال أن أحد أبناء الجنرال بارمينيون غرق فى النيل أثناء استحمامه فيه فأقام الاسكندر له جنازة مقدسة على نحو اعتقاد الأغريق والمصريين بقداسة الغرقى[1] • ثم أمر ببناء جسر يربط بين ضفتى النيل• ويقال أن الاسكندر أعد حملة من علماء الاغريق لاكتشاف منابع النيل وأسباب ظاهرة الفيضان

---

(١) انظر مقالتى « نظرة على الاغريق وعبادة الغرقى فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى — مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — المجلد الثامن عشر (١٩٧١) •

النيلى • كما وافق الاسكندر على عدة مشروعات منها تجديد معبد آمون بالاقصر وقد صور الاسكندر على احدى حوائط هذا المعبد فى زى الفراعنة ولا يزال هناك نقش يوضح أن الاسكندر أقام محرابا فى هـذا المعبد الكبير (٢) تخليدا لأبيه آمون رع •

وليس من المستبعد أن تكون الأنباء قد وصلت الى أسماع الاسكندر عن تحرك جديد للملك دارا لأنه غادر مصر فجأة متجها الى بلاد مابين النهرين لأن الخطاب الذى أرسله الى أمه أولمبياس بعد زيارة معبد سيوه ذكر أنه كان ينوى العودة الى مقدونيا ويبحث وضع اسبرطة الشـاذ ولكن الاسكندر لم يكن ليترك امبراطورية شاسعة تمتد من الدانوب شمالا الى النيل جنوبا ومن البحر الأدرياتيكى غربا الى دجلة والفرات شرقا تقع تحت تهديد الملك دارا وجيوشه ، كما أنه كان يعلم أن المعركة الفاصلة بينه وبين الفرس لم تدر رحاها بعد • ومن المرجح أن الاسكندر غادر ممفيس فى أوائل مايو عام ٣٣١ ق•م عائدا الى الشام التى اتخذ منها قاعدة متقـدمة لمهاجمة الفرس لغـزو بلادهم وضمها الى امبراطوريته الشاسعة •

لقد كان الاسكندر يحلم بسحر الشرق الفارسى وبثرائه وبأسراره وبأرض بابل وآشور • ويبدو أن الاسكندر قد وعد بزيارة مصر مرة أخرى ولكن القدر أراد له أن يعود الى أرض النيل جثمانا يستقر فيها الى الأبد •

تعليق تاريخى على غزو الاسكندر لمصر : ـ

من الملاحظ أن الفترة التى قضاها الاسكندر فى مصر من خريف عام ٣٣٢ الى ربيع عام ٣٣١ لا تتعد بضعة شهور ولكنه شغل فيها نفسه بأعمال

---

(٢) cf. Weigal, A Guide to the Antiquities of Upper Egypt, p. 76.

وانجازات كثيرة ولم يجد الوقت الكافى ليطفىء اظى العطش الرومانسى التاريخى والدينى الذى كان يتوق اليه .

ولكن فتح الاسكندر لمصر غير وجه التاريخ عامة وتاريخ وادى النيل خاصة . اذ قامت على ضفاف النيل لأول مرة مملكة هللينية ـ أو مملكة مقدونية اغريقية قدر لها أن تكون أكثر الممالك الهللينية ثباتا ورسوخا بل ان الحضارة الاغريقية ظلت تترعرع على ضفاف النيل ما يقرب من ألف عام تقريبا (ثلاثة قرون للأسرة البطلمية وتسعة قرون للحكم الرومانى والبيزنطى) .

وأهم من هذا وذلك تأسيسه لمدينة الاسكندرية[1] التى سرعان ما أصبحت المدينة الأولى فى حوض البحر المتوسط ولا تزال من أهم موانيه حتى العصر

(١) واخيرا وبعد طول انتظار نشر العلامة فريزر مؤلفة الكبير :
Alexandreia Ptolemaica, 3 vols, Oxford 1972.
والجزء الاول يشمل النص اما الجزء الثانى فهو خاص بالهوامش والمصادر. والجزء الثالث عبارة عن كشاف Index للجزئين الاولين وترجع اهمية هذا العمل العظيم الى اهتمامات المؤلف بالنقوش والمصادر الخاصة بالاسكندرية وحضارتها وبعض هذه النقوش لم ينشر بعد ، كذلك شمل الجزء الثانى كافة الرسائل والابحاث التى تمت عن الاسكندرية واثارها وحضارتها فى العصر البطلمى ومطلع العصر الرومانى ، اما الجزء الاول فقد وجه اليه العلماء نقدا شديدا لاسهاب المؤلف فى شكوكه ازاء المصادر القديمة مثل شكه فى ان يكون سوستراتوس الكنيدى هو المعمارى الذى بنى الفنار الشهير ويفسر مقطوعة بوسيديبوس بطريقة غير مقنعة ليخرج براى غريب وجديد وهو ان سوستراتوس لم يكن سوى الممول لمشروع الفنار ولم يكن المعمارى الذى بناه (vol. I, p. 18-20) ، لكن شكوك فريزر لاتكفى لتكذيب الادلة القديمة (ابراهيم نصحى العمل السابق ـ الجزء الثانى ـ ص ٢٩ ملحوظة ٢ ،
E.G. Turner, J.E.A. 1974 (Review)
كذلك فند الاستاذ الدكتور ابراهيم نصحى فى جدل عنيف مزاعم فريزد حول تاريخ نقل العاصمة من منف الى الاسكندرية فى عام ٣٢٠ ق.م لان لدكتور نصحى يرى ان ذلك لم يتم ابدا قبل عام ٣١٢ ق.م انظر ابراهيم نصحى ـ الجزء الثانى ـ ص ٣٠٨ لكن الفصل الثالث الذى خصصه لتراث المدينة الادبى والفكرى يعتبر اكمل المؤلفات الحديثة فى هذا المجال .

الحديث كما أن تأسيس الاسكندرية أحدث ثورة فى طرق التجارة القديمة وخلق طريقا جديدا يجمع بين القارات الثلاث التى تلتقى فى مصر . كذلك وسع الاسكندر لأول مرة فى تاريخ مصر حدودها غربا عندما ضم اليها جزءا من أراضى ليبيا الشرقية حتى سرت الكبرى Syrtis .

وكما يتضح من تتبع تحركات الاسكندر ، لم يكن غزو مصر مدرجا فى خططه الأساسية عندما غادر مقدونيا، لأنه دخل آسيا عن طريق البسفور والدردنيل وهو نفس الطريق الذى غزى منه الفرس بلاد اليونان فى القرن الخامس ق.م. ولكن قد يتساءل الدارس ما الذى جعل الاسكندر يقطع رحلته نحو الشرق فى أحرج أوقات الصراع ليتجه نحو سوريا ومصر . لابد أن لذلك سببا ، لأن قائدا مثل الاسكندر لم يكن يحرك جيوشه اعتباطا أو عفوا أو حسبما توحى اليه الظروف ، بل يظهر من سيرته أنه كان عسكريا ذكيا ضليعا فى تفهم الاستراتيجية . من الواضح أن الاسكندر كان يخطط لغزو آسيا كلها وليس الامبراطورية الفارسية وحدها ولكى يحقق هذا الحلم فان عليه أن يجند القوات اللازمة لتحقيق هذا المشروع . فقواته التى تبلغ أربعين ألف مقاتل لم تكن كافية لتحقيق مشروع خرافى مثل هذا ؛ بل تعتبر قوة محدودة فضلا عن أنه كان ينقصها الأسطول القوى ، حتى الأسطول الذى كان يرافقه كان يتكون أساسا من سفن المدن الاغريقية والأسطول الأثينى وكان الاسكندر لا يثق فى اخلاص الاغريق ويعلم أن هذا الأسطول على استعداد لخيانته والغدر به والتعاون مع الفرس ضده . كما أن الاسكندر كان يعلم أن القوات المرتزقة والاغريقية من المشاة كانت تسير معه على مضض ، بل ووقعت فى يده مراسلات سرية متبادلة بين الفرس والاغريق بشأن تدبير مؤامرة ضده . وقد يأخذ بعض المؤرخين على الاسكندر أنه صدق وعود الاغريق ببساطة بأنهم سوف يرسلون اليه المدد والعتاد عندما يقرر معركته الفاصلة ضد الامبراطورية الفارسية فى عقر دارها .

لقد سار الاسكندر لفتح الشرق معتمدا على قرارات معاهدة كورنثا التى جعلته القائد العام لقوات مقدونيا وسائر الاغريق . لكن كان هناك ظواهر تدل على أن الاغريق سوف ينكثون باتفاق كورنثا ولابد أن الاسكندر قد لمح فى عيون الوفود الاغريقية التى وقعت عليه علامات الخبث والمكر ولكن الجنرال الحالم والمتدفق حيوية كان متلهفا على القتال بأى ثمن وفى سبيل ذلك لم يدقق فى الشروط . ويتضح من تصرفات الاسكندر أنه كان متعجلا متسرعا فى المعارك التى خاضها . لقد انتظر الاسكندر عندما عسكر فى جورديون بآسيا الصغرى وصول تعزيزات عسكرية من المدن الاغريقية حسب اتفاق كورنثا ، وظل ينتظر بالقرب من بحر مرمرة حتى جاء الربيع ولم يصل سوى تعزيزات مقدونية فقط عندئذ يبدو أن الاسكندر قد أحس بأنها معركة مقدونيا [1] وحدها ضد العالم كله Macedonia Contra Mondum وبناء على ذلك كان عليه أن يغير خططه العسكرية ومن ثم سارع الى تأمين الشرق الأوسط وشرق البحر المتوسط لكى يطمئن على وصول الامدادات ويضمن خطا للانسحاب فى حالة الانهزام ولكى يقطع على المدن الاغريقية الواقعة فى شرق البحر المتوسط أى محاولة لضربه من الخلف عن طريق البحر ، وضمانا للاستيلاء على المنافذ البحرية خارج البسفور والدردنيل قرر الاسكندر تأجيل غزو فارس وآثر أن يستولى على الساحل السورى وساحل شمال أفريقيا بطوله حتى قورينة ، تلك القلعة الهللينية التى كانت تقف بالمرصاد لقرطاجة المستعمرة الفينيقية فى تونس . لقد استولى الاسكندر على الساحل السورى بأكمله لأنه كان قاعدة ومحط الأسطول الفارسى ونحن نعلم الشراسة التى قاتل بها الفينيقيون فى صور دفاعا عن الفرس ولم تسقط هذه المدينة الا بعد حصار دموى ولمدى طويل . ولهذا قرر الاسكندر وضع استراتيجية تضمن ألا يقوم لهذه المدينة قائمة بعد ذلك وهـذه الاستراتيجية هو بناء مدينة الاسكندرية لتنتزع من صور كل امتيازاتها .

---

(1) Cf. E.N. Borza, J.C.P., LXVI, 1971, P. 230 ff.

حيث كان عام ٣٣١ عاما حاسما فى تاريخ الاسكندر ففى اسبرطه كانت ثورة الملك اجيس على أشدها والاغريق على استعداد للتامر حتى مع الفرس لطرد الوجود المقدونى من بلادهم ولولا كفاءة نائبه انتيباتر فى بلاد اليونان لتغير وجه التاريخ .

هكذا يتضح أن الاسكندر الأكبر فتح مصر لأسباب سياسية فى الدرجة الأولى وهى وضع شرق البحر المتوسط تحت سيطرته حتى ولو كان ذلك يعنى تعطيل معركته النهائية مع الفرس لمدة عام آخر . وكان الاسكندر يعرف جيدا أن هذا التأخير سوف يعطى الملك دارا فرصة لتجميع شتات جيوشه المندحرة وقد ظهر ذلك فى المعركة الفاصلة التى خاضها فى أرابيللا فيما بعد . ولكن الاسكندر صمم على بناء « صور » مقدونية فى الأراضى المصرية تنتزع طرق التجـارة من الفينيقيين حلفاء الفرس الى أيدى المصريين الأصدقاء .

ومن ثم جاء اختياره لقرية راقودة المجهولة لكى تتحول الى أعظم مدينة عرفها التاريخ (١) . فقد كان الفرع الكانوبى للنيل قليل الأهميـة خاصة من ناحية التجارة الخارجية بالرغم من وقوع نقراطيس بالقرب منه ، لأن الفرع الكانوبى كان غير صالح فى معظمه للملاحة واستقبال السفن الكبيرة الآتية عبر البحار خاصة السفن الحربية . لقد وجد الاسكندر فى راقودة مكانا جيريا صلبا يرتفع عن سطح الدلتا وقريب من المياه العذبة ومن النيل خاصة اذا شقت قناة تربط المدينة بالنيل . وفى موجهة القرية تقف جزيرة فاروس وعن طريق بناء لسان ضيق يربط بينهما وبين الشاطىء أمكن حماية السفن من هياج البحر والرياح وبهذا أمكن انشاء ميناء مناسب لاستقبال السفن المقدونية الضخمة . وجدير بالذكر أنه لم يكن فى مصر كلها وقتذاك ميناء واحد يناسب التطور الكبير الذى طرأ على صناعة السفن فى هذه الفترة من تاريخ البحر المتوسط .

ان على الذين يدرسون آثار الاسكندرية أن يتفكروا فى عبقرية الاسكندر فى التخطيط قبل التفكير فى براعة تنفيذ بطليموس وخلفاؤه الذين أكملوا المدينة حتى جعلوها حديث العالم . لقد اختار الاسكندر لمدينته خطة هللينيستية لحما ودما تجعل المدينة ذات شوارع متقاطعة

---

(١) انظر : لويس ممفورد : المدينة على مر العصور ـ اصلهـا وتطورها ومستقبلها ـ اشراف ومراجعة د. نصحى القاهرة ١٩٦٤ ص ٣٣٢ وما بعدها .

كلوحة الشطرنج وكان هذا هو الأسلوب المتبع فى بناء المدن الاغريقية فى النصف الثانى من القرن الرابع .

وقد كشفت الحفائر الأثرية فى مدن برينى Priene وبرجامون Pergamon عن معالم مدن مشابهة (١) . فمثلا نظام الصرف المائى فى المدينة عن طريق أنابيب مدفونة تحت الطرق المعبدة يدل على تقدم كبير فى نظام العمران . ومن الواضح أنه خطط له قبل تخطيط شوارع المدينة مما يدل على الجدية والكمال المنشود . فضلا عن التقدم فى العمران وانشاء المرافق الصحية والخدمات العامة وباختصار بنيت مدينة الاسكندرية لكى تكون نموذجا لفن بناء المدن الاغريقية لكافة دول العالم فى الشرق والغرب . بالرغم من أن الاكتشافات الأثرية فى مدينة الاسكندرية تعانى صعوبة بسبب قيام المدينة الحديثة فوق مبان المدينة القديمة كما أن جزءا كبيرا من المدينة القديمة ما زال قابعا تحت البحر .

لقد كان للاسكندرية تأثير كبير على الحضارة الانسانية ، اذا لم يكد يمر نصف قرن على تأسيسها حتى انتزعت كرسى الحضارة الهللينية فانتقل لأول مرة من أوروبا الى أفريقيا كذلك أحدث بناء الاسكندرية ثورة كبرى فى طريق التجارة ، فقد انتقل مركز التجارة اليها من صور الفينيقية . وبذلك أعطى الطريق الجديدة لتجار الاغريق فرصة لفتح طريق بحرى جديد يربط بين المحيط الهندى والبحر الأبيض عن طريق البحر الأحمر وهو نفس الدور الذى تلعبه قناة السويس فى العصر الحديث ، وبهذا تحول البحر الأحمر لأول مرة فى التاريخ الى قناة للحضارة الاغريقومصرية ، وهى حضارة أصبحت ذات شخصية متميزة بطابعها الخاص ، بل وفرض تيار الحضارة الاغريقومصرية نفسه خارج مصر ممثلا فى الآلهة المصرية فى قالبها الاغريقى مثل ايزيس وهربوكراتيس (حورس) ، بل ووصل هذا التيار الحضارى شرقا حتى أفغانستان ، لقد كانت الاسكندرية عاصمة لكل الاغريق (٢) حيث

(1) D. Van Berchem," Alexandre et la restoration de Priene : Mus, Helvit. XXVII, 1970, p. 198-205.

(2) cf. A. Bernard, Alexandrie, la Grande (Signes des temps, 19) Paris 1972
P.M. Frazer, Alexandreia Ptolemaica Oxford, 1970, Chapter III.

كان يسمع فى طرقاتها كافة لهجات اللغة اليونانية بل وعديد من اللغات المختلفة ، ومن المعروف أن الاسكندرية أصبحت فى هذه الفترة المركز الروحي لليهود حيث ترجمت لأول مرة التوراة من العبرانية الى اليونانية Septuagintae • بل أن الاسكندرية ساهمت فى تطوير الفكر الوثنى وتعزيزه لدرجة جعلته يصبح القاعدة الأساس التى قام عليها الفكر المسيحي فيما بعد •

معركة جاوجاميلا (Gaugamela) الفاصلة :

عاد الاسكندر مرة أخرى الى صور ، وهناك أعد العدة للمعركة الفاصلة التي حشد لها أربعين ألفا من المشاة وسبعة آلاف من الفرسان ثم سار شرقا الى قلب الامبراطورية الفارسية فوصل مدينة ثابساكوس Thapsacus على نهر الفرات فى أغسطس عام ٣٣١ ق•م وكانت بابل القديمة هي هدف الاسكندر • فغير طريقه شمالا ثم هبط على شاطىء دجلة الشرقى وهناك عرف من بعض الجنود الفرس الذين قبض عليهم أن دارا يستعد لملاقاة الاسكندر بجيشه الذى حشده له عند ابسوس • على أى حال لم يقصد الاسكندر العاصمة البابلية القديمة نينوى Nineveh بل صعد شمالا ثم هبط جنوبا حيث رصد معسكر دارا فى سهل جاوجاميلا • وقد بولغ فى ذكر عدد قوات الفرس فقيل أنها بلغت مليونا من المشاة وأربعين ألفا من الفرسان• ولما نصح الجنرال بارمينيون الاسكندر بشن هجوم ليلى اعترض الاسكندر فى كبرياء « أنا لا أسرق النصر ! » والحقيقة أن الاسكندر كان يريد نصرا فى وضح النهار يمجد عبقريته العسكرية • ومن ثم آثر الاسكندر أن يريح جنوده ويوفر لهم عشاء طيبا ونوما هادئا بينما قضى الجنود الفرس ليلتهم فى تحصين معسكرهم خوفا من هجوم ليلى قد يشنه الاسكندر عليهم •

ودارت المعركة الفاصلة (١) فى أول أكتوبر عام ٣٣١ وازاء هجوم فرسان الاسكندر وهن خط القتال الفارسي وانهار تماما مثلما حدث فى

(١) لوصف تفاصيل المعركة انظر : و . تارن : الاسكندر الاكبر . ترجمة زكي على ومراجعة محمد سليم سالم سلسلة الالف كتاب رقم ٤١١ ، ص ٨٩ — ٩٣ .

اسوس وولى دارا هاربا تاركا حرسه يقاومون الاسكندر حتى يتمكن مليكهم من الفرار . وقد شاع فرار دارا وأدى الى تفشى الاضطراب فى صفوف الفرس فارتدوا خاسرين أما الاسكندر فقد تابع سيره مقتفيا أثر العدو الى أن وصل الى أربيلا Arbela وقد أبلى بارمينيون فى هذه المعركة بلاء حسنا . وأبدى شجاعة منقطعة النظير .

فتح بابل :

وبعد أن أراح الاسكندر جيشه تقدم نحو بابل Babylon وكان الاسكندر يتوقع صمودا من جانب البابليين ازاء الحوائط والقلاع التى تحيط بعاصمتهم ولكن لدهشته ما أن اقترب حتى وجد البوابات تفتح على مصراعيها بل وخرج الستراب الفارسى مازايوس بنفسه يستقبل الاسكندر مرحبا ، ويبدو أن هذا الحاكم الفارسى الذى حارب بشجاعة فى جاوجاميلا استاء من هروب دارا وازاء ذلك أبقى الاسكندر مازايوس مكانه كوال على بابل . وقد اتبع الاسكندر مع البابليين نفس السياسة التى اتبعها مع المصريين ، فأظهر نفسه كحام للديانة البابلية وألغى القرارات المجحفة التى كان آكسيركسيس قد أصدرها ضد العادات القومية البابلية، وأمر باصلاح المعابد البابلية خاصة معبد بعل Ba'al الكبير الذى دمره آكسيركسيس عند عودته مهزوما من بلاد اليونان .

كان تعيين الاسكندر لمازايوس سترابا على بابل أول عمل من نوعه يقوم به الاسكندر فهو أول فارسى يعين من قبل ملك مقدونى ، ولكنه لم يخول له أى سلطة عسكرية بل جعل ذلك فى يد قائد مقدونى ، كذلك جعل الشئون المالية . وهكذا كان الاسكندر يقصى الفرس عن السلطة العسكرية والمالية ولايمانع فى توليهم السلطة الاسمية والادارية .

فتح سوسا وبرسيبس :

وبعد أن استراح الجيش المقدونى سار به الاسكندر تجاه الجنوب الشرقى الى سوسا مقر القصر الصيفى للملك الفارسى . واستولى على

قلعتها حيث وضع يده على كنوز هائلة من الذهب والفضة، وكذلك على مجموعة تماثيل قتلة الطغاة (Tyrannicides) التي كان الأثينيون قد أقاموها تكريما لهارموديوس وأرستوجيتون قتلة الطاغي هيبارخوس ابن الطاغي بيسستراتوس وكان اكسيركسيس قد حمل هذه المجموعة من التماثيل معه الى بلاد الفرس عند قيامه بحملته ضد بلاد اليونان فى القرن الخامس • ووجد الاسكندر فى اعادة هذه المجموعة العزيزة على نفوس الاغريق كسبا معنويا كبيرا •

ومن أجل غزو اقليم برسوبوليس غادر الاسكندر سوسا قاصدا عاصمة الامبراطورية الفارسية طمعا فى ذهب قصور قورش ودارا وغيرهم من ملوك الفرس وكانت هذه العاصمة تقف فى قلب الأرض الفارسية يحيط بها التلال من كل جانب فتحصنها ضد أى هجوم • ولما وصل الاسكندر الى الممر المرعب المؤدى الى برسيس وهو المعروف بالبوابات الفارسية Persian Gates وجد الوالى الفارسى أريو بارزانيس قد حصنها واستبسل فى الدفاع عنها بل وصد طلائع هجوم الاسكندر ولكن الاسكندر قاد قوة خفيفة وتوغل وسط التلال فى قلب الشتاء الى أن باغت العدو من الخلف ووجد الوالى الفارسى نفسه محاصرا بين شطرى الجيش المقدونى فاستسلم وكان هذا لنصر أصعب نصر حققه الاسكندر فى ظروف صعبة وهى وعورة المكان وثلوج الشتاء واستبسال العدو •

ثم تابع الاسكندر بعد ذلك مسيرته نحو برسوبوليس Persepolis (1) « أغنى مدينة تحت الشمس وأقدم مدينة على وجه الأرض » ، واستولى على قصورها العظيمة المشيدة فوق التلال قبل أن يسرع الفرس بنقل كنوزها • ويقال أنه استولى على كنوز خيالية حتى أن نقلها كان يحتاج عدد كبير من الدواب وتلك ثروة لم يصدقها أحد فى العالم الاغريقى • ويروى لنا المؤرخون أن أهم حدث قام به الاسكندر فى برسوبوليس ، هو حريق قصر اكسركسيس عندما أشرف الاسكندر على حرقه عامدا متعمدا

---

(1) ذلك هو الاسم الأغريقى أما الاسم الفارسى فهو استخر .

ويروى أن الاسكندر كان ثملا من فرط الشراب هو وأصدقاؤه ، وفجأة اقترحت وصيفة أثينية اسمها ثانيس اشعال النيران فى قصر اكسركسيس ردا على حرقه للمعابد الأثينية فى حملته ضد بلاد اليونان وبسرعة اندفع الاسكندر ورفاقه يحرقون القصر ولم يدرك بشاعة فعله الا بعد أن ذهب تأثير الشراب عندئذ أمر باطفاء النيران . ولكن تارن يرى أن تلك القصة ليست الا حديث خرافة ابتدعت بقصد التأثير الروائى (١) .

موت الملك دارا الثالث :

انحسر الملك دارا وما تبقى له من قوات وقادة فى أكباتانا عاصمة اقليم ميديا Media أقدم أقاليم فارس القديمة وسارع الاسكندر لملاقاته فى هذه المدينة ، ولكن عند وصوله وجد دارا قد فر شرقا الى باكتريا واستولى الاسكندر على المدينة والاقليم . « وجلس فى قصر الذهب والفضة يحصى ما تم فى عالم تغيرت أوضاعه » ومن هذه الثروة الطائلة دفع مرتبات الجنود الاغريق الذين فضلوا السير معه الى حيث يذهب .

وصمم الاسكندر على مطاردة دارا والقبض عليه بأى وسيلة ولكن القدر خيب آماله ، فقد راح الأمراء الفرس يضيقون ذرعا بحظ مولاهم النحس فرفضوا الاستمرار معه فى تعبئة جيوش جديدة ومقاتلة الاسكندر ، ولم تجد قوات الاغريق المرتزقة نفعا للعاهل الفارسى ، وفى لحظة الضعف والحيرة برز أحد أقرباء الملك دارا وهو بيسوس Bessus وكان يشغل منصب ستراب باكتريا ، فقبض على دارا ليلا وزج به فى سجن يقع على الطريق الى باكتريا . وبالقبض على دارا تشتت جيشه ، وغادر المرتزقة الاغريق المكان فى اتجاه الشرق الى جبال قزوين وطلب كثير من الجنود الفرس صفح الاسكندر وعفوه . وبعد أن تزود الاسكندر وجيشه بالطعام بما يكفيه يومين سار الى معسكر بيسوس وقضى ستة وثلاثين ساعة فى سير متواصل وعندما وصل الى المكان وجد أن بيسوس قد غادره ، فقرر اختصار الطريق عبر الصحراء ليلحق به معرضا نفسه وجيشه

---

(١) و . تارن المرجع السابق ص ٩٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٩٧ .

للعطش وأهوال الصحراء الى أن وصل الى شاهرود حيث كان دارا سجينا ومن الواضح أن الأمير بيسوس ورفاقه كانوا ينوون تسليم دارا للاسكندر اذا ما صمم على مطاردتهم وذلك ثمنا للسلام ولما أبصر بيسوس ورفاقه أن الاسكندر على وشك أن يلحق بهم فى شاهرود أمروا الملك دارا السجين أن يركب أحد الجياد ليهرب معهم ولكنه رفض أن يقضى حياته هاربا فقرروا التخلص منه وطعنوه بالخناجر وتركوه يعانى سكرات الموت ولاذوا بالهرب . ولما عثر أحد الجنود المقدونيين على الملك وهو يحتضر تقدم اليه الجندى بكوب من الماء فارتشفه دارا بصعوبة وهو يهز رأسه علامة للامتنان وعندما وصل الاسكندر الى مكان الملك الفارسى كان هذا الأخير قد فارق الحياة . وتفحص الاسكندر متأثرا جثمان الملك ويقال أن خلع عليه عباءته الملكية الأرجوانية احتراما وتبجيلا ويرى البعض أن العثور على دارا قتيلا بيد رفاقه وفر على الاسكندر حرجا شديدا ، لأنه اذا كان قد قتل بيد الاسكندر فان ذلك كان سيترك فى نفوس الفرس ذكرى محزنة وحقدا دفينا تجاه الاسكندر . ثم أمر الاسكندر أن يرسل الجثمان بكل آيات التعظيم والتبجيل الى برسوبوليس حيث تقيم أمه العجوزة ولكى يدفن فى مقابر أسلافه من ملوك الفرس .

لقد كان دارا صورة هزيلة للطاغى الشرقى (١) بكل ما يتميز به فى فترات ضعفها ، من رعونة وضعف وقنوط ولكنه كان انسانا طيب القلب حسن المعاشرة أوقع به القدر مع بطل عظيم حجب عنه كل صفاته الطيبة . وبموت دارا أسدل الستار على الأسرة الأخميدية الفارسية .

الاسكندر بطل آسيا :

هكذا أصبح الاسكندر سيد آسيا وملكها ، وقد كان حكيما بما أظهره من سياسة العفو والصدر الرحب تجاه المناطق التى فتحها ، وكانت حكمته تنبع فى الحقيقة من الذكاء السياسى . اذ لم يتعرض للقوميات الاقليمية أو العادات أو القوانين الوطنية فى هذه البلدان ، وكل ما كان

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٢ . كذلك انظر :
G. Writh, Dareios und Alexander, *Chiron* I, 1971, P. 133-152.

يضع يده عليه هو السلطــة التى قسمها ولم يتركها مركزة فى شخص الساتراب كما كان الحال أيام ملوك الفرس •

وأصبح الساتراب علك السلطة الادارية ، أما السلطة العســكرية والادارة المــالية فقد فصلهما الاسكندر عنه وجعلهما فى أيدى رجال مقدونيين تأمينا ضد حركات التمرد وتقليما لأظافر الأمراء الشرقيين •

كان لفتح الشرق تأثير كبير على مركز الاسكندر بين الاغريق (١) ، فقد اعتبروه زعيما للاغريق ضد الفرس البرابرة ، ووجدوا فى فتح الشرق الغامض مسرة وبسحره وبكنوزه فرصة للنهب والاستغلال لأنهم كانوا ينظرون الى الفرس نظرة الاحتقار ويعتبرونهم فى درجة العبيد • ولكن الاسكندر بعقليته الجديدة حاول أن يملأ الهوة بين الهللينى والبربرى الشرقى • لأنه كان يهدف الى انشاء امبراطورية تزاوج بين الشرق والغرب على أساس الوئام والسلام • وعلى أساس أن يحكم العنصرين بالمساواة ضاربا عرض الحائط بعقــدة الاغريق العنصرية واستنكار المقــدونيين المتطرف لتعاطفه مع الشرقيين •

وقد وضحت سياسة الاسكندر الجديدة بعد معركة جاوجاميلا • عندما راح الاسكندر يعين أمراء فرس كساترابات على المقاطعات التى كان يفتحها ، بل فتح القصر والبلاط أمام الفرس ولم يعد القصر المقدونى مقدونيا خالصا كما كان ، بل أخذت الروح الشرقية تطغى عليه • فمثلا أعجب الاسكندر بطريقة الشرقيين بالسجود أمامه عند مخاطبته كملك ورب على آسيا Proskynesis ، وأخذ يظهر مرتديا الزى الملكى الفارسى فى المناسبات العامة ربما بهدف ألا يبدو غريبا كلية عن الفرس وهو ملهم •

---

(١) يرى البعض ان موقف الاسكندر من الاغريق تغير بعد حريق سوسا وانه كان نقطة التحول من المحايلة الى التحدى الصارخ والعلنى خاصة بعد ان وضع اسسا للتفاهم مع الفرس والشرقيين وبعد ان ضاق ذرعا بحركات التمرد التى قام بها الاغريق والتى كان اخرها تمرد الملك الاسبرطى آجيس عام ٣٣١ – ٣٣٠ وان هذا العام كان عاما حاسما بعد ان نجح انتيباتر فى قمع هذه الثورة انظر :

E.N. Borza" The End of Agis' revolt, J. Class. Phil. LXVI, 1971, pp. 230-235,

غزو الشرق الاقصى :

ولكى يؤكد الاسكندر سيادته على آسيا قرر مطاردة فلول الثوار وتصفية جيوب المقاومة الفارسية فسار الى بحر قزوين ومن هناك اتجه الى زادراكارتا المقر الملكى لاقليم هوركانيا Hyrcania حيث نجح فى أن يرغم جيوب المقاومة على الاستسلام وتقديم فروض الطاعة والولاء . أما بالنسبة للأسرى الاغريق الذين كانوا يحاربون مع الجيش الفارسى ، فقد عفا عن هؤلاء الذين دخلوا خدمة الجيش الفارسى قبل قيام ميثاق مؤتمر كورنثا ، أما غيرهم من المرتزقة فقد أجبرهم على دخول خدمة الجيش المقدونى .

ودخل الاسكندر منطقة ايران الشرقية البعيدة عن التيارات الاغريقية والتى تظهر فيها الروح الآسيوية الشرقية الخالصة لأن هذه المنطقة كانت تنتمى الى حضارات أقدم وأعرق من الحضارة الفارسية بل وترجع الى عصر سابق عليها . واستراح الاسكندر أسبوعين أقام خلالها المهرجانات الرياضية والثقافية ثم سار شرقا الى سوسيا Susia احدى المدن الواقعة شمال آريا Areia وهناك سمع أن بيسوس قد نصب نفسه ملسكا على الفرس وأنه يجمع شتات الجيوش فى باكتريا Bacteria فقرر الاسكندر السير اليه على الفور ولكن قيام حركة تمرد ضده فى أراخوسيا اضطرته الى العودة الى أرتوكوانا Artocoana عاصمة آريا Areia ، واجتاح الاسكندر هذا الاقليم كله وعلى مقربة من أرتاكوانا أسس مدينة تسمى بالاسكندرية أغلب الظن هى هيرات (١) وعندئذ دخل درانجيانا دون مقاومة تذكر .

وفى بروفثاسيا (٢) عاصمة اقليم درانجيا ترامى الى أسماع الاسكندر أن فيلوتاس ابن قائده المخلص بارمينيون يتآمر على حياته . وقدم فيلوتاس الى مجلس محاكمة من المقدونيين الذى أدانه بأنه كان يعلم بوجود مؤامرة ضد حياة الاسكندر ولم يبلغ عنها ، ومن ثم أعدم رميا بالسهام ، ولم يطمئن الاسكندر بعد قتل فيلوتاس الى والده بارمينون

(١) المرجع نفسه ص ١٠٦ .
(٢) وتعنى المرتقبه .

فأرسل رسولا على عجل الى ميديا Media حيث كان يعسكر الجنرال العجوز وطلب من بعض القادة التالين له فى المرتبة أن يعدموه . وكانت العلاقة بين الملك الشاب وجنراله العجوز قد فترت فى الفترة الأخيرة خاصة بعد فشل بارمينيون فى جوجاميلا بالاضافة الى ظهور خصوم لبارمينيون من أمثال كاليستنيس Callisthenes راحوا يحرضون الاسكندر عليه . وقد أجرى الاسكندر عدة تعديلات فى قيادته ومنها ادخال بطلميوس بن لاجوس فى قيادة الأركان .

واذ كان اعدام فيلوتاس له مبرراته القانونية وأن الأدلة على خيانته كانت — على حد قول بطلميوس — دامغة ، فان قتل بارمينيون يعتبر اغتيالا صريحا لا مبرر له وعملا قصد به تخويف باقى القادة الذين قد يفكرون فى خيانته ، لأن بارمينيون لم يلق محاكمة بل اغتيل ظلما وعدوانا

وبدلا من أن يعود الاسكندر ليعاود طريقه الى باكتريا دار حول نفسه وسار فى قلب أفغانستان وعبر جبال كوش ونزل الى جيحون (أوكسوس) Oxus ، وما أن حل الشتاء حتى كان الاسكندر قد بلغ شرقا الى سهل هالماند Halmand وفى جندهار أسس مدينة أخرى سماها الاسكندرية لتكون عاصمة لاقليم أراخوسيا Arachosia . واندفع الاسكندر الى نهر كابول والى سلسلة جبال الهندوكوش التى تقف كفواصل تقسم العالم شمالا وجنوباً وشرقا وغربا . وقد سمى الاغريق هذه المنطقة كاوكازوس Caucasus أى القوقاز وقضى الاسكندر الشتاء عند سفح الهندوكوش حيث أنشأ اسكندرية جديدة ثم اتجه الاسكندر نحو الشمال ليعبر فى ممر خاواك الذى كان يبلغ ارتفاعه أحد عشر ألفاً وستمائة قدم ، وكانت مغامرة لا تقل عن مغامرة هانيبال فى عبور الألب اذ قاسى الجيش أهوالا كثيرة بسبب حاجته الى الطعام وقلة الوقود وكان هدف الاسكندر هو الهبوط على بيسوس من الشمال

وبالفعل ولى بيسوس الادبار عبر نهر جيحون (أوكسوس) واستولى الإسكندر على باكتريا دون مقاومة . ثم زحف الاسكندر نحو سهل جيحون تجاه كيليف Kilif وعبر النهر الى ميراقندا Miracanda المعروفة باسم سمرقند .

وقد حاول حلفاء بيسوس من أهل اقليم سوجديانا تسليم هذا الزعيم مقابل انقاذ بلدهم فأرسلوا الى الاسكندر يعرضون عليه ذلك . فرد الاسكندر بارسال بطليموس بن لاجوس ليتم التسليم على يديه ويأتى به مقيد اليدين والقدمين عارى الجسم لينفذ فيه حكم الموت فى باكتريا .

بعد ذلك تابع الاسكندر مسيره جنوب نهر جيحون حيث أنشأ على ضفافه آخر اسكندرية على حدود العالم Alexandria Eschate (ومحلها الآن خود شند) والاسم يعنى اسكندرية القصوى . وقد تزوج الاسكندر عروساً من احدى بنات هذه المناطق وهى روكسانا الشهيرة Roxana.

وفى ماراكاندا Samarcanda أقيمت وليمة كبرى تكريما لشقيقه فى الرضاعة كليتوس Kleitus وانتهت هذه الوليمة بمأساة محزنة عندما احتدم النزاع بين الأخوين بفعل تأثير الخمر انتهت بطعن كليتو بحربة قاتلة على يد الاسكندر . ولما أفاق من خمره أحس بندم قاتل لفعلته الشنعاء وقضى ثلاثة أيام يعانى من وخز الضمير دون أن يتناول شيئاً من الطعام ، وأخيراً أقنعه أصدقاؤه بضرورة تناسى ما حدث وتناول شيء من الطعام وأعلنوا أن موت كليتوس سببه غضب ديونيسوس بسبب اغفال تقديم قرابين له وقد شجع الفيلسوف اناكسارخوس الاسكندر على تناسى هذه الجريمة باقناعه بأنه فوق القوانين ولا يمكن للملوك أن يخطئوا أبداً ، ولكن لم يندم أحد من الملوك على شر ارتكبه مثلما ندم الاسكندر على قتله كليتوس (١) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٥ (انظر Arrian, IV, 9, 6 ; VII, 29, 1.

ولم يمضى وقت طويل حتى اكتشف الاسكندر مؤامرة جديدة على حياته خطط لها بلاط القصر وقد سحقها الاسكندر باعدام جميع من كانوا يخططون لها سواء من قريب أو بعيد .

وفى باكتريا طرح كالسثنيس قضية ألوهية الاسكندر للنقاش طمعا فى ارضائه والسماح له باعادة بناء أولينثوس Olynthus مسقط رأس هذا الفيلسوف — المؤرخ للحملة والذى كان يدون تاريخ الاسكندر بقصد الاعلان والدعاية له . وقد شجعه على ذلك وجود لفيف من المنافقين الذين راحوا ينادون الاسكندر بأنه ابن زيوس وأنه ليس بشرا بل الاها على الأرض . ومما لاشك فيه أن ذلك لاقى استحسانا من جانب الاسكندر ، خاصة أن الاسكندر أعلن اقتباسه لعادة السجود أمامه Proskynesis على نحو ما يفعل الفرس وربما كان قصده هو أن يصبح الاها على الامبراطورية الجديدة التى تمزج الشرق بالغرب . وكان فلاسفة الاغريق وسياسيوهم من أمثال أرسطو وايسوقراط قد تحدثوا عن فكرة التألية ، أرسطو بالنسبة للاسكندر وايسوقراط بالنسبة لفيليب [1] وقد وجد الاسكندر أن الوقت قد حان للخروج على الناس بهذه الفكرة .

ولكن بدعة السجود الشرقية أدت الى استياء المقدونيين وغضبهم لأنها عادة مقتبسة من الفرس ويجب أن تبقى وقفا على الأسيويين ، وكان أول المعترضين هو كاليسثنيس المتطرف فى نظرته الى البرابرة الشرقيين مما جر عليه غضب الأله الذى صنعه بيديه . وجاءت الفرصة عند اكتشاف مؤامرة دبرها بعض الشباب الذين كانوا يعملون مع الاسكندر بسبب ضغينة شخصية بين الاسكندر وبين أحد الفتيان واسمه هرمولاوس Hermolaus ولكن لسوء الحظ جاء ذكر كاليسثنيس باعتباره كان مربيا لهذا الفتى وربما تورط كاليسثنيس بالكلام مع بعض هؤلاء الفتيان ووجد الاسكندر فرصته فى الانتقام من كاليسثنيس فأمر بقتله على الفور بينما أشيع أنه مات ميتة طبيعية فى السجن .

---

(١) المرجع السابق ص ١٣١ .

الاسكندر فى الهند :

كانت الهند معروفة عند الفرس لأنها كانت جزءاً من امبراطورية دارا الأول أما بالنسبة للاغريق فكانت فكرتهم عنها مشوشة يكتنفها الغموض (١) . أما الدافع الذى دفع الاسكندر لغزوها فلم يكن غير أنها جزء من الامبراطورية الفارسية التى يريد الاستيلاء عليها بكاملها ولم يكن هناك قصد أو علاقة بين غزو الهند وفتح العالم . لأنه من الواضح لم يكن يعرف كثيراً عن الهند . وربما أراد الاسكندر ايجاد حل لمشكلة المحيط ومدى علاقة الهند بمصر ولتحقيق ذلك الغرض اصطحب معه فى حملته مجدفين وبنائين للسفن من فينيقيا وقبرص وكاريا ومصر (٢) .

وفى مستهل صيف عام ٣٢٧ ق.م عبر الاسكندر سلسلة جبال الهندكوش للمرة الثانية عن طريق مسر كوشان ثم عبر سهل كابول (سهل كوفن Cophen) فنهر الهندوس قرب تاكسيلا Taxila (أتوك Attock) .

وقد أعلن أمير هذه المنطقة ولاءه للاسكندر وضم قواته الى قوات الفاتح المقدونى وتقدم الاسكندر بجيوشه دون مقاومة تذكر الى الهايداسبيس Hydaspes (جهيلم Jhelum وهى جيناب غرب باكستان) حيث هزم الملك بوروس Porus أحد ملوك المنطقة فى معركة تكبد فيها الاسكندر خسائر فادحة بسبب مواجهة الأمير الهندى للاسكندر بقوات الفيلة وهى تجربة لم يقابلها الاسكندر فى أى من معاركه السابقة . وهناك أدلة واضحة على روح الاستبسال المقدونى فى مواجهة الفيلة . وقد كان لاستخدام هذا السلاح الجديد أثرا كبيرا على تفسية قواد الاسكندر فيما بعد وتنافسوا فى الحصول على أكبر عدد منها لأنها أصبحت السلاح النفاذ فى الحرب خلال العصر الهللينستى .

(١) انظر الهند القديمة ـ حضارتها وديانتها تأليف الدكتور محمد اسماعيل الندوى القاهرة ١٩٧٠ ص ١٦٥ وما بعد .

(٢) قارن : المرجع السابق ص ١٤٢ .

وبعد النصر أسس الاسكندر مدينتين هما الاسكندرية نيكايا أى الاسكندرية مدينة النصر Alexandria Nicaea والاسكندرية بوكيفالا Alexandria Bucephala تخليداً لجواده الشهير بوكيفالوس Bucephalus الذى قيل أنه نفق هناك . وقد سكت عملة فيما بعد لتخليد ذكرى هذه المعركة وقد ظهر عليها الاسكنـــدر وهو يقتفى أثر الفيـــل الذى يركبه الملك الهندى بوروس Porus (١) الذى تصالح مع الاسكندر وأصبح حليفا له .

بعد ذلك تابع الاسكندر الســير شرقا الى الهيفاسيس Hyphasis (وهو نهر بياس Beas) وليس من المؤكد أن يكون هذا النهر فرعاً من فروع ستلج (Sutelj) فى الغرب من باكستان الحالية (٢) بل ربما كان نهر البياس المذكور هو الحد النهائى لامبراطورية الملك دارا الأول . وعلى أى حال كان يعتبر آخر الأنهار الخمسة .

وعند نهر البياس انتهت مغامرة الاسكنـــدر فى الهنـــد وذلك لأن القوات المقدونية كانت قد أنهكت من القتال والترحال فى ظروف مناخية غريبة عليها . بل أن قوى الرجال أنهكت من الناحية النفسية . ولهذا رفضوا التوغل شرقا وظهرت رغبتهم الشديدة فى العودة الى أوطانهم . وكما فعل أخيليس بطل الالياذة عندما غضب ، اعتكف الاسكنـــدر فى خيمته ثلاثة أيام أملا فى أن يعدل الجيش عن رأيه ويتابع المسير معه . ولكن الجيش كان عنيدا فى اصراره . وأخيرا استسلم الاسكندر لارادة الآلهة والجيش . ويقال أنه بنى اثنى عشر مذبحـــا لكل اله من آلهـــة الأولمبوس ووسط تهليل الجند وهتافهم عاد الاسكندر ادراجه سالكا الطريق الذى كان ينوى أن يقطعه . وبذلك وضع أمامهم أعنف مراحل القتال وأسوأ مراحل الزحف فى حياتهم وعند نهر جهيلم وجد الاسكندر أسطولا قد أعد لنقل الجيش بقيادة نيارخوس ذلك الجنرال الكريتى

(١) المرجع السابق ص ١٥٥ .
(٢) المراجع السابق ص ١٥٧ .

الذى وثق فيه الاسكندر جيدا ، أما باقى الجيش فقد سار بحذاء الضفتين الشرقية والغربية للنهر • وفى الجنوب عند ملتقى جهيلم بالجيناب تأهب الاسكندر لخوض آخر معركة هامة فى حياته وهى معركته ضد شعب آراتا أو شعب الماليين Mali وهو اقليم بوسط الهند • وقد قاومه هذا الشعب بعنف في قلعتهم مولتان Mooltan • وبلغ من عنف المقاومة أن المقدونيين كادوا أن يفقدوا الأمل فى الاستيلاء على القلعة ولكن الاسكندر ضرب مثلا نادرا فى الشجاعة والتهور اذ خطف سلما مخصصا لاقتحام المعاقل وتسلق بنفسه حائط القلعة حيث تلقى جرحا كاد أن يقض عليه وأشيع أنه قد مات • وقد يفسر البعض ذلك بأن الجيش المقدونى قد سئم الحرب وراح يتراخى فى القتال ازاء المقاومة التى انتشرت فى كل مكان يذهب اليه • ووصل الاسكندر الى المحيط الهندى فى منتصف عام ٣٢٦ ق•م حيث أنشأ مدينة فى منطقة باتالا Pattala فى دلتا النهر • وكذلك بنى مرفأ عظيم وأحواضا للسفن لضمان الاتصال البحرى مع الغرب ثم كلف نيارخوس بالقيام برحلة استكشاف بحرية حول الخليج الفارسى •

وفى سبتمبر عام ٣٢٥ ركب الاسكندر الفرع الشرقى للسند حتى وصل الى مصبه ، ثم اخترق الكثبان الرملية عند المصب وقضى « يوما فى مرفأ الاسكندر » (وهو كراتشى) الى أن هبت الرياح الموسمية فأسعفته فى الابحار وفى نهاية سبتمبر كان الاسكندر يخترق صحراء جدروسيا (Gedrosia) (بالوخستان Baluchistan — أو المقران) وبعد عبوره نهر آرابيس Arabis (وهو هاب) تلقى نبأ خضوع الأوريتيين (Oritae) وهم شعب ايرانى متأثر بالهند ثقافة وعنصرا وقد أسس عند عاصمتهم أورا اسكندرية جديدة (الاسكندرية فى المقران) وبعد رحلة شاقة عانى فيها الجيش من الحر والجوع والأمراض وصل الاسكندر وجيشه الى سهل كارمانيا Carmania (كرمانة) أما نيارخوس والأسطول فقد قام برحلة سجلت أحداثها بتفاصيل رومانسية وكأنها رحلة أوديسيوس وكان نيارخوس قد غادر ميناء كراتشى (ميناء

الاسكندر) متجها غرباً الى الخليج الفارسى حتى رسا عند رأس مصندم فى بلاد العرب ومر فى بوغاز هرمز وبعد رحلة استغرقت ثمانين يوما حط مرساه عند نهر أمانيس Amanis حيث تم لقاء الجيش والأسطول ، وقد أقيمت بهذه المناسبة الاحتفالات والألعاب الرياضية . وقد أسست اسكندرية أخرى فى جولاشكرد Gulashkird ثم تابع كل من الجيش والأسطول المسير نحو سوسا فوصلاها فى ربيع عام ٣٢٤ ق.م .

افكار الاسكندر الجديدة لتوحيد الشرق والغرب :

جاءت عودة الاسكندر فى وقتها ، اذ تكشف له الوضع عن وجود فوضى واضطراب ، فمن ناحية راح الولاة الذين عينهم الاسكندر يتصرفون كحكام مستقلين وانضم الى لواء خدمتهم كثير من الجنود المرتزقة . كما أساء فريق من الولاة الفرس (الستراپات) معاملة رعاياهم وظهر مدعون للعرش فى ميديا وكرمان ونهب قبر قورش وعدد من المعابد والاسطبلات الملكية فى ايران . وارتكب كليومينيس فى مصر كثيرا من المساوىء وراح هارپالوس يبعثر الأموال مقلدا بذخ ملوك الشرق. كل هذا تم فى غياب الاسكندر الذى كان حريصاً على أن يمنع أى عمل من أعمال الظلم تلحق برعاياه ومن ثم قابل ذلك بالعنف والبطش من أجل اعادة العدل والنظام .

وفى سوسا أقيمت وليمة كبرى احتفاء باتمام غزو الامبراطورية الفارسية حيث تم زفاف الاسكندر وثمانين من ضباطه على سيدات ايرانيات من الطبقة الارستقراطية . وكان ذلك الزواج المختلط اعلانا لأفكار الاسكندر الأيديولوجية فى مزج الشرق بالغرب عنصراً وثقافة . ولكن هذه التجربة لم تنجح بل فشلت بعد موت صاحبها .

بل أنها أثارت رد فعل غاضب من جانب الجنود المقدونيين خاصة بعد تجنيد الاسكندر للفرسان الاسيويين فى صفوف كتائب الفرسان المقدونيين وقبول بعض الشبان النبلاء الفرس فى قوات الحرس الملكى . ومما أثار الحقد فى نفوس المقدونيين وأشعل السخط قيام الاسكندر

بارتداء الزى الفارسى وتقليده العادات الفارسية مما جعلهم يشعرون بأنه لم يعد ملكهم وحدهم بل ملكا شرقيا أسيويا .

ولكن الاسكندر فاجأ الاغريق باصدار عفوه عن جميع المنفيين السياسيين والسماح لهم بالعودة الى أوطانهم باستثناء أهل طيبة . وذلك أثناء الألعاب الأولمبية التى عقدت عام ٣٢٤ ق.م . وكان هدف الاسكندر من ذلك هو كسب هؤلاء المنفيين الى جانبه والاستفادة منهم كجنود مرتزقة هذا من ناحية ومن ناحية أخرى قصد الاسكندر أن يوفر لبلاد اليونان مناخاً من الوحدة والسلام ونبذ صراعات الأحزاب وما ينتج عنها من نفى وتشريد ومصادرات وهو اجراء ينم على حكمة وبعد نظر سياسى ولكنه فى نفس الوقت تعدى على الشئون الداخلية للدويلات اليونانية مما يعتبر مخالفاً لميثاق مؤتمر كورنثا (١) .

كذلك فان ابتداعه لنظام السجود وفرض هذا السلوك على المقدونيين والاغريق كان مخالفا لميثاق مؤتمر كورنثا الذى اعترف به ملكا على مقدونيا وليس الاهاً على الاغريق . وعندما رأى الاسكندر أن خير السبل لفرض طاعته على الاغريق هو تألية نفسه ، وقد سبق أن ذكرنا كيف أن بعض الفلاسفة مهدوا لهذا التأليه الذى كان معروفاً عند الشرقيين وفى وادى النيل . وبالفعل أرفق مرسومه الخاص باستدعاء المنفيين بطلب الى مدن حلف كورنثا بقبوله الاها عليهم ، ولم تجد المدن الاغريقية ـــ بما فى ذلك اسبرطة ـــ بدا من قبول هذا الطلب . وقد عارضت أثينا ذلك فى أول الأمر ولكنها عندما أدركت أن الملك المقدونى جاد فيما يزمع ، قبلته الاهاً بدافع من الرهبة وتفادياً لغضب ذلك الملك النارى المزاج ، أما المقدونيون فلم يعبأوا بالتأليه .

كذلك خرق الاسكندر ميثاق كورنثا عندما بدأ يتدخل فى الشئون الداخلية للمدن الاغريقية عندما أرغم الأثينيين على الجلاء من ساموس ورد الجزيرة الى أصحابها . ولو كان العمر قد طال بالاسكندر لرأينا الكثير من مثل هذا الاقحام فى شئون المدن الداخلية .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٨ .

ولكن الشكوك تسربت الى قلوب الجنود المقدونيين ازاء سياسة « التفريس » التى يتبعها الاسكندر وخشوا أن تتخذ هذه السياسة نظاما أوسع فى عالم الاسكندر الجديد وقد زاد الموقف اشتعالا اصدار الاسكندر أمراً الى كراتيروس أن يعيد الى الوطن الجنود القدامى والذين تقدم به العمر ولم يعودوا لائقين لحمل السلاح وقد فسر المقدونيون ذلك الأمر بأنه بداية لنقل السلطة والسيادة من مقدونيا الى بلاد الفرس ومن ثم اندلع العصيان من جانب الجيش كله الا الحرس الملكى Agema وبدأوا اعتصامهم فى أوبيس Opis وطالبوا جميعاً بالعودة الى أوطانهم فاشتد غضب الاسكندر وألقى القبض على زعماء التمرد وفى حركة تمثيلية درامية ألقى الاسكندر خطابا عاطفيا سرح فيه الجيش كله ما داموا يريدون التخلى عن القائد الذى قادهم من نصر الى نصر ثم اعتكف فى خيمته يومين وبعد ذلك دعى زعماء الفرس اليه وراح يفكر فى تأليف جيش آسيوى على النظام العسكرى المقدونى . ولم يطق المقدونيون هذا فاستسلموا صاغرين وطالبوه بالعفو عنهم . وفى حركة درامية أخرى خرج الاسكندر ليقف فى وسطهم والدموع منهمرة على خديه [1] . وبعد العتاب بين الجندى والقائد بخصوص مصاهرته للفرس ورد الاسكندر ، بأنه اتخذ الجميع أصهاراً له ، علت أصوات الاستحسان وانهالوا عليه جميعا بالتقبيل وتم الصلح واللقاء وسمح لكل من يريد العودة من الجنود القدامى بالرحيل الى وطنه محملين بالهدايا .

صلاة الاسكندر من اجل الوفاق العالمى :

ولكى يعلن الاسكندر آراءه الجديدة فى عالمه الجديد أعد وليمة كبرى فى غداة التصالح مع الجيش ، حضرها تسعة آلاف ضيف . وكانت الوليمة بمناسبة تحقيق السلام فى الأرض . وقد جلس الفرس الى جانب المقدونيين كشعبين ممثلين للامبراطورية الجديدة بشقيها الأوروبى والآسيوى . بل حضر تلك المأدبة ممثلون عن كافة أجناس الامبراطورية

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٢ .

وقومياتها . وفى نهاية الوليمة راح الجميع يسكبون النبيذ على سبيل القربان فى آن واحد على صوت الأبواق طبقا للعادة المقدونية . وكان العرافون الاغريق والمجوس يشرفون على هذه القرابين .

وفى خاتمة الحفل أقام الاسكندر صلاة من أجل الوئام بين الشعوب التى تكون امبراطوريته ومن أجل أن يتعاونوا على قدم المساواة لافرق بين مقدونى أو اغريقى أو فارسى ، بل كلهم سواء فى امبراطوريته الجديدة المتزجة والمتعددة العناصر والأجناس ، وكان الاسكندر يأمل من كل قلبه أن يسود هذه الامبراطورية التوافق والانسجام الفكرى والعاطفى والعنصرى وهو ما سماه بالوئام ، (homonoia) . ومن الأقوال المأثورة عن الاسكندر أن الناس وأن اختلفت عناصرهم وقومياتهم الا أنهم جميعاً أبناء لأب واحد وهكذا توج الاسكندر حياته العظيمة بدور النبى الموحد أو المصلح الانسانى على مستوى أمم الأرض . ولكن فى ذلك الخريف خسر الاسكندر صديقا حميما وهو هيفايستيون Hephaestion الذى كان يعتبره خليفته والشخص الثانى من بعده . وكان موت هيفايستيون بسبب الحمى التى أصيب بها فى اكباتانا Ecbatana خسارة كبيرة للاسكندر الأكبر ولجيش المقدونى على السواء .

وقد حزن عليه الاسكندر بشدة وكرمه باعتباره بطلا قوميا ، بل ترك منصب القيادة التى كان يتولاها شاغرا واستمرت كتيبة هيفايستيون تحمل اسمه الى الأبد . ووورى هذا البطل التراب فى جنازة رهيبة وذلك فى بابل .

الاسكندر فى بابل :

وفى ربيع عام ٣٢٣ دخل الاسكندر مدينة بابل التى كان يزمع جعلها عاصمة للامبراطورية ولم يعبأ ببعض النبوءات المتشائمة التى تنبأ بها كهنة الرب بل (أوبيلوس Belus) البابلى اذا ما دخل بابل (١) .

لقد اهتم الاسكندر بالخليج الفارسى وعمل على تحسين سبل الاتصال بين بابل والبحر وازالة كل العراقيل والعقبات التى كان الفرس

(١) لفظ بابل اسم اطلقه الساميون بمعنى « باب ـ بل » اى باب « الرب بل » .

يقيمونها فى وجه الملاحة بين دجلة والبحر وعند مصب نهر دجلة أنشـأ الاسكندر اسكندرية جديدة أصبحت فيما بعد مركزاً هامـاً للتجـارة (خاصة بعد أن أعيد بناؤها باسم خاراكس مسينى Carax-Messene كما أنشأ الاسكندر حوضا كبيرا لخدمة السفن التجارية الكبيرة وكانت نية الاسكندر فى ذلك هى احتلال الساحل الشرقى للخليج الفارسى .

وهكذا حول الاسكندر بابل الى مركز تجارى وبحرى هـام وقام بدراسة الطرق المائية فى الفرات وروافده ومدى استغـلالها فى تنشيط الملاحة وتوطيد طريق الملاحة الجديد بين الهند وبابل .

الاسكندر وبلاد العرب :

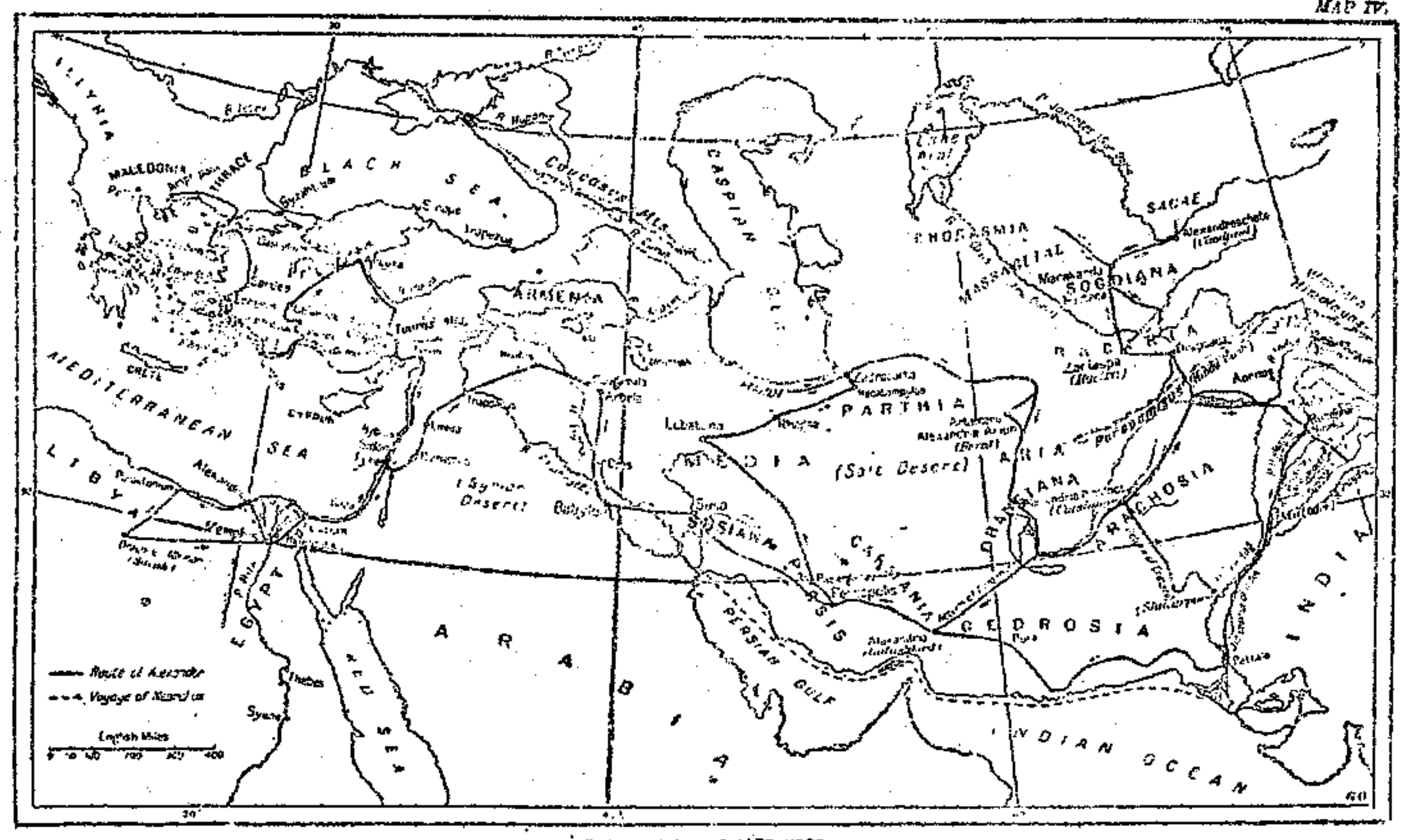
ومن أجل ربط الطريق البحرى من الخليج الفارسى الى مصر ، عزم الاسكندر على اكتشاف امكانية الطواف حول جزيرة العرب ، وأعـد لذلك عدداً من السفن الحربية التى بنيت فى فينيقيا ونقلت الى الفرات . ويقال أن الاسكندر كان ينوى مرافقة الأسطول فى تلك الحملة ذات الطابع الكشفى . ومن الجدير بالذكر أن الاسكندر لم يكن يعلم كثيراً عن بلاد العرب سوى أنها تابعة الى حد ما لفارس .

وقد حاول نيارخوس قائد الأسطول الطواف حول جزيرة العرب من الجانبين من الخليج الفارسى ومن خليج السويس فى نفس الوقت ، فأبحرت سفينة من السويس جنوبا حتى وصلت الى اليمن ثم وصلت الى حضرموت (١) ، ومن ناحية أخرى أبحرت ثلاث سفن جنوباً من الخليج الفارسى وقد اكتشفت احدى هذه السفن جزيرة البحـرين ثم تابعت السير حول شواطىء الجزيرة العربية حتى رأس مصندام Mussendam وكانت الأوامر الصادرة الى قائد هذه الرحلة هو الطواف حول شـبه الجزيرة العربية الى أن يصل الى السويس وماكانت تلك الرحلة البحرية الا تمهيداً لحملة الاسكندر المزمعة لضم بلاد العرب وفك طلاسمها . وتبديد غموضها وعزلتها عن العالم المسكون .

---

(١) المرجع نفســه ص ١٨٦ ملحوظة رقم ٢ .

MAP IV.



THE CONQUESTS OF ALEXANDER

الطريق الذى اتبعه الاسكندر فى غزوته الشرق الأوسط والاقصى

الحمى القاتلة تدهم الاسكندر :

وبينما كان الأسطول على أهبة الاستعداد لبدء الحملة البحرية المزمعة على بلاد العرب ، أصيب الاسكندر بحمى (١) ودهم الوهن جسده المرهق من الحروب وكثرة الجروح والاجهاد الذى يفوق الطاقة ولكنه ظل يقاوم الحمى ويعمل على تجهيز الحملة ومناقشة الضباط المشرفين عليها الى أن أقعدته الحمى تماماً عن العمل ولم يقو حتى على الحراك . عندئذ نقلوه الى قصر الملك البابلى نبيختنصر Nebchtnessar وهو فاقد النطق عاجزا عن الكلام وفى مشهد مؤثر راحت القوات تمر منكسة الرأس من أمام مليكهم المسجى على فراش الموت وهو يرمز مشيراً بالتقدير والامتنان .

وفى اليوم الثالث عشر من شهر يونيو عام ٣٢٣ ق.م فاضت روح الاسكندر الى بارئها وهو لم يكن قد أتم بعد عامه الثالث والثلاثين .

تحليل لشخصية الاسكندر وانجازاته :

مات الاسكندر بعد أن فاقت شهرته الآفاق وحقق انتصارات لم تتح لأحد من قبله ، وفتح للعالم آفاقا جديدة للوفاق والسلام . لقد كانت غزواته تهدف الى توحيد شعوب الأرض فى اطار من الوفاق والوئام وهو ما عناه بلفظ الهومونويا (أو الكونكورديا باللاتينية Concordia وليس الى غزو شعوب الأرض واستغلال خيراتها لصالحه . لأنه كان يسلم الأقطار بعد فتحها الى حكام محليين ولم يحاول الاحتفاظ بها لنفسه : وهذا يلقى ظلالا من الشك على الزعم القائل بأنه كان يهدف الى غزو العالم ورميه تحت قدميه كما أن كثير من فتوحاته كانت تتخذ شكل الاستكشاف البحرى لطرق الاتصال بين أجزاء العالم .

---

(١) بالرغم من هذا لم يسلم الامر من الشائعات التى انتشرت تقول حينا انه مات غدرا وحينا انه مات بالسم ولكن من المؤكد انه مات ميتة طبيعية انظر : —

A.B. Boswerth The death of Alexander, the Great : rumours and propaganda Class Quarterly, XXI, 1971, p. 113-136.

لقد كان الاسكندر انسانا نبيل الخلق ، كريم المعشر ، ذا ارادة صلبة كالحديد ولكنه كان عاطفيا شديد الانفعال ذا نفس جياشة بالمشاعر (١) ؛ لا يستطيع كبح جماح غضبه ، وكثيراً ما راح أعز المقربين اليه ضحية لثورة الغضب ، ومن ثم كان يعانى دائما من نوبات نفسية عنيفة بسبب وخزات تأنيب ضميره بالندم على ما فعل عند ما تنحسر عنه موجة الغضب المجنون . ويثوب الى رشده . ويتمثل ذلك فى حادثة مقتل صديقه الحميم كليتوس واعتكافه حزينا فى خيمته لا يأكل ولا يشرب ولا يتحدث الى أحد .

ولكن بقدر ما ارتكب الاسكندر من أعمال مفجعة لا تقرها العدالة الانسانية بقدر ما قام بأعمال تنم عن عدالة مطلقة وشهامة خالصة ، فهو الذى حارب الظلم الواقع على الشعوب الشرقية من جانب المقدونيين وطالب بارمينيوس بمحاكمتهم واعدامهم اذا ما أدينوا .

لقد كان للاسكندر الأكبر شخصية مؤثرة وقوية طغت على كافة قواده وسحرتهم وجعلتهم يشعرون بأن مستقبلهم متعلق بمستقبله ، وهو بالرغم من هذا كان حلو المعشر فى علاقاته بقواده ، دافعاً لهم على العمل وتحقيق النصر .

---

(١) من الكتب الحديثة التى اثارت جدلا بين العلماء كتاب كرافت K. Kraft, Der rationale, Alexander Edit H Gesche (Frankfurter Althistorische Studien 5) Kallmuenz uber Repenburg : Verlag M Lesleben (1971).

وقد ظهر الكتاب بعد موت مؤلفه الذى فجر رايا غريبا هو ان الاسكندر كان رجلا واقعيا تحكم تصرفاته العقلانية . ولكى يثبت ذلك كذب كرافت كل المصادر القديمة التى تتحدث عن الانفعال (Pathos) الذى كان يحكم تصرفات الاسكندر . وقد اتهم الاستاذ بوزورث Bosworth الذى عرض الكتاب (JHS, XCIII, 1973, p. 256-8) كرافت بأنه لوى الحقائق وداس على الادلة وناقض كافة البحاثة المعاصرين لكى يبرر رايه القائل بان الذى كان يحكم افعال الاسكندر لم تكن العاطفة الجياشة والانفعال (Pathos) بل السياسة الواقعية (realpolitik) وبالرغم من غرابة جدله واقحام افكاره الى ان الكتاب فى مضمونه شيق وطريف ومحاولة لفرض الشخصية الالمانية على ذلك القاهر المقدونى .

كذلك يتميز الاسكندر بشخصية أبطال الأساطير فى أعمالهم الخارقة والتى هى فى الحقيقة أشبه بالمعجزات • وكان أخيليس هو نموذجه المفضل الذى حاول دائماً أن يتشبه به فى السراء والضراء كذلك أبدى اعجابا بأبطال أسطوريين وبآخرين مثل هرقل ورب الخمر ديونيسوس (١) •

ولا يخفى على الدارس أن روح الاسكندر كانت تتسم بنزعة رومانسية خيالية الى جانب احساس قوى بالروحانية باعتباره ابن آمون ورسوله الى الانسانية لينشر فيها المحبة والوئام وليجنبها شرور الفرقة والآثام • ولقد دفعه هذا الميل الى الأحلام الى التشرب بروح الشرق وبسحره ورومانسيته فقصده غازياً ، ثم سرعان ما راح ينتقى الكثير من عادات الشرق وأفكاره لدرجة جعلته يدعو الى المزج الفكرى والعنصرى بين الشرق والغرب بل شرب فى نخب وئام جميع شعوب امبراطوريته الجديدة ، ولكن بالرغم من سيطرة الأفكار الحالمة وتعمق الايمان بالأسرار الخفية فى نفس هذا القائد العظيم الا أنه لم يستسلم للغيبيات ، بل كان عملياً الى أقصى حد فى تصرفاته ، اذا فهو مزيج من الخيال والواقعية ، من الغيبية والعملية والتأمل والتنفيذ ، وهذه ميزة لا تتحقق للكثير من البشر • بل ميزته عن غيره من أبطال التاريخ • ذلك هو الأسكندر الانسان (٢) •

أما اذا تناولنا الاسكندر كقائد عسكرى (٣) فيتوجب علينا أن

(١) Victor Ehrenbreg, Alexander and the Greeks, (translated by Ruth Von Velsen) Oxford, 1938, p. 104, p. 105.

(٢) هناك من يرى ان تغير سلوك الاسكندر كان نتيجة للوازع الدينى الشديد انظر :—

L. Edmunds," The religiosity of Alexander, G.R.B.S., XII, 1971, p. 363-391.

وهذا حقيقى الى حد كبير •

(٣) من اوفى المراجع التى عالجت عبقرية الاسكندر العسكرية كتاب

Peter Greene," Alexander, the Great Weidenfeld & Nicholson, 1970 = R.H. CC XLIX, 1973, p. 164).

والمؤلف كما عرفناه من قبل فى كتابه عن معركه سلاميس (انظر ص هامش) متخصص فى الاستراتيجية العسكرية • وفى كتابه عن الاسكندر جمع كل ما يمكن أن يجمع عن الاسكندر ولكنه لم يستخدم الهوامش بطريقة علمية ، =

نعترف بعبقريته الفذة التى تغنت بها الروايات والأقاصيص ، فقد كان على الرغم من شبابه أستاذاً فى فن الاستراتيجية العسكرية . وقد ظهر ذلك فى تصرفاته أثناء المعارك وفى الانتصارات الكبيرة التى حققها ، فمثلا كان يبدى ثقة مطلقة بنفسه أثناء القتال : وكان يحرص على أن يتقدم قواته ويشرف على المعركة بنفسه وفى ذلك قلده القادة العظام من أمثال هانيبال ويوليوس قيصر وأغسطس ونابليون وروميل ومونتجومرى . وكان وجوده بين قواته دافعا لروح قتالية ومعنوية عالية ،

ومن براعة الاسكندر فى فن القتال والاستراتيجية استخدامه للقوات الاحتياطية فى الوقت المناسب ، ولم يكن ذلك معروفا فى الحروب القديمة من قبله ، كما برع الاسكندر فى التنسيق بين أسلحة الجيش المختلفة فى القتال وفى اختيار اللحظة المناسبة لبدء الهجوم وهو الذى علم العالم مزايا خوض المعارك فى الشتاء ومطاردة العدو بأقصى حد ، وكشف عن القول العسكرى المأثور « ازحف متفرقا أو قاتل متحدا » (١) . وبراعته القتالية كانت خفة الحركة وسرعة الانقضاض فهو لا يؤخر توقيت المعركة بل يقوم بها فى حينها » .

كان الاسكندر من القادة القلائل فى العالم القديم ممن أبدوا تفهماً

= والكتاب رغم اهميته عسكرى اكثر منه تاريخى لانه افرد لمعارك الاسكندر الكبرى جرانيكوس وايسوس وجيلوم دراسة مستفيضة. لكنه لم يفوته أن يحلل نفسية هذا القائد فوصفه بانه عسكرى عبقرى ، ذو طاقه وطموح خواض وانه طموح وسياسى غامض وجندى عنيد وهزلى فى بعض المواقف ومحب للتسلط الشرقى قاس لايرحم ، يميل الى الانطواء على نفسه وتتحكم فيه عقده العظمه Megalomania والغرور المطلق Paranoic شديد الاعتقاد بالخرافات والشعوذة ، وجنون العظمة هو الذى قاده الى ادعاء الالوهية والكتاب دراسة نفسيه دقيقة وحسابات عسكرية لا يقدر عليها سوى المتخصص ، كما ان الصور الجميلة التى ضمنها فيه تكمل الصورة النضرية عن حياة هذا القائد العظيم .

(٣) انظر تارن المرجع السابق ص ١٩٥ .

لنفسية الجندى ، وأن الجيوش الكبيرة تقوم على الجندى الصغير ومن ثم حرص على رفع روحه المعنـوية وتسليته والتسرية عن نفسه ؛ فكان يقيم المباريات الرياضية والترفيهية من آن لآخر ويشارك الجند — كما كان يفعل فيليب أبوه — مسراتهم وتسليتهم محافظة على العلاقة والمحبة التى تربطه بأفراد قواته ، وبالتالى أبدى رجاله نحوه شعورا من الطاعة يكاد يكون مثاليا فقد ســاروا وراءه فى بلاد غامضة وقاتلوا معـه فى ظروف صعبة لمدى عشر سنين ، وقد يظهر مقدار نجـاح الاسكنـدر وجيشه فى فتح الامبراطورية الفارسية وغزو الصحراء اذا ما أدركنـا مدى فشل القادة الرومان من أمثال كراسوس وأنطونيوس فى اختراق بلاد الفرس واخضاع البارثيين فيما بعد ،

ومن ناحية ثالثة تبرز كفاءة الاسكندر فى التنظيم والادارة المدنيـة وان كان انشغاله بالأمـور العسـكرية يأخـذ معظم وقته ولم يدع له الفرصة الكاملة لاعادة تخطيط ولاياته وتطهيرها من الفساد والفوضى ؛ فعندما عـاد من الهنـد وشـاهد الفـوضى الادارية تسـود ولايات امبراطوريته ، اكتفى بالتخلص من بعض الحكام بالقـاء القبض عليهم ومحاكمتهم وتعيين آخرين مكانهم ، لأن الاسكندر كان فى ذلك الوقت مشغولا فى مشروع الكشف البحرى بين الهند ومصر ،

والحق يقال لم يكن الاسكندر مجددا فى مجال التنظيم والادارة لأنه احتفظ بالتراث الادارى الفارسى فى الولايات فأبقى على نظـام الساترابات (الولاة) ، وربما أدرك الاسكنـدر أن تراث الحضـارة الفارسية فى مجال الادارة والتنظيم هو تراث قديم ونتاج عبقرية وتجارب عصور طويلة فأبقى عليه لأنه لا يوجد خير منه ، ويبدو أن الاسكندر أدرك مدى نجاح الفرس فى التخطيط والتنظيم عندما استخدم شبكات الطرق التى أقامتها هذه الامبراطورية لتربط بين ولاياتهـا وأقاليمهـا المختلفة ، ومن هنا يمكن أن نقول لقد سبق الاسكندر الرومان فى تقدير ما خلدته العبقرية الفارسية وأضافته الى تراث المكاسـب الانسانيـة

والحضارية . فمثلا لم يغير الاسكندر فى جوهر الولايات الفارسيــة باستثناء مصر التى أزاح عنها النظام الفارسى كلية ووضع لها نظاما أكثر استنارة وقدرة لحكم شعبها وهو النظام الذى قامت عليه دولة البطالمة فيما بعد واستمرت ثلاثماية عام تقريبا .

أما فى الهند فقد أولى الاسكندر الادارة شيئاً من الاهتمام ، ذلك أنه فصل الولايات الكبرى الهندية الواقعة غرب السند وكون ادارات صغرى يسهل ادارتها والاشراف عليها فى اطار وحدة مركزية كبرى ، كما سلب الاسكندر الستراباات الفرس الكثير من الامتيازات اذ حرمهم من حق جباية الضرائب وسك العملة وجعل خيمته مفتوحة أمام أى فرد من أفراد الشعب لتقديم شكواه مثلما كان الحال فى مقدونيا .

أما بالنسبة لحلفائه الاغريق سواء فى أيونيا أو حول البحر الأسود أو فى بلاد اليونان ، فقد حاول الاسكندر توحيد الاغريق بمقتضى حلف كورنثا ، وفى وجه مصاعب نفسية وتاريخية لأن هذه المدن قضت معظم تاريخها مفككة الأوصال متقاتلة . وحاول أن يمنــح المدن الصغــيرة حقوقاً مماثلة للمدن الكبيرة باسم الحرية لكل الاغريق بل ان الاسكندر كان فى كثير من الحالات همزة الوصل بين هذه المدن فوحدتها كانت تقوم على شخصيته (١) ولكنه يبدو أنه عامل مدن آسيا الصغرى بطريقة تختلف عن معاملته للمدن الاغريقية أعضاء حلف كورنثا . لأنه حررها وتركها لشأنها ، ويرى البروفيسور أهرنبرج أن الاسكندر راح يتحرر من الأفكار الاغريقية التقليدية مما أدى الى ظهور التوتر بينه وبين حلفائه الاغريق لأن مشاعره النهائية لم تكن اغريقية ولامقدونية ولافارسية بل من خلق الاسكندر نفسه أى اسكندرية (٢) فمعظم رفاقه من الاغريق جاءوا من المستوطنات ومن الجزر المختلفة ، ولهذا كانوا أكثر تحررا من قيود و «عقد» عباد نظام دويلة المدينة Polis (٣) ، ولكن قلةمنالاغريق

---

(١) المرجع السابق ص١٩٨ سنة ١٩٩ كذلك .

Victor Ehrenberg. Alexander and the Greeks, op. cit. p. 103 ff.

(٢) op. cit. p. 104.

(٣) op. cit p. 108 f.

كانت تبغى بقاء هذا الاتحاد وتحن الى الماضى القديم وتأسف على الحرية المسلوبة وفقدان حق السيادة الخارجية .

أما بالنسبة للادارة المالية فقد كانت نقطة الضعف فى نظام الاسكندر . اذ أنه خلق نظاما ماليا وعين مشرفين ماليين . ونشأت طبقة من الموظفين الماليين للاشراف على جباية الأموال من عامة الناس الى خزانة الاسكندر وكان هاربالوس يترأس هذا الجهاز المالى . ولكن وجود الاسكندر بعيدا شجع هؤلاء الموظفين على الفساد والابتزاز وانتشرت الرشوة بين هؤلاء الموظفين ونسمع كثيرا عن سلسلة الجرائم والآثام التى قام بها هاربالوس أثناء غياب الاسكندر فى الهند . وقد ارتكب كليومينيس النقراطيسى جرائم مالية أبشع فى مصر فقد احتكر بيع القمح وحرم تصدير المحاصيل الا ما هو خاص به مما أدى الى افلاس التجار المصريين كما قام ببيع القمح لعامة الناس بأثمان باهظة على طريقة النهب التى كانت سائدة فى بلاد اليونان . فضلا على الأموال التى نهبها وابتزها من المعابد والمظالم الأخرى التى ارتكبها ، ويقال أن كليومينيس أمكن أن يجمع ثمانية آلاف من التالنتات فى حين أن أغنى رجل فى ذلك الوقت لم تتجاوز ثروته مائة وستين تالنتا كل هذا تم والاسكندر بعيد غارق فى مشروعاته العسكرية والايديولوجية لا يعلم شيئا عما يدور من خراب فى مصر (١) .

ومن الاجراءات المالية التى قام بها الاسكندر توحيد العملة الفضية واتخاذ المعيار الأتيكى أساسا مع تغيير بسيط وهو جعل الأستاتير الأتيكى (وحدة التعامل) مساويا لعشرين دراخمة فقط بدلا من أربعة وعشرين فى الماضى . وبهذا تبنى الاسكندر النظام العشرى الفارسى (وهو أن الدارك Darek الذهبى يساوى عشرين شكلة فضية Sigloi) ، وكان الهدف هو أن تكون العملة الموحدة دافعا لنهضة تجارية قوية .

وقد يؤخذ على الاسكندر سخاءه الذى بلغ حد الاسراف والتبذير

(١) انظر دفاع العبادى عن كليومينيس ورد ابراهيم نصحى على ذلك الدفاع ابراهيم نصحى المرجع السابق الجزء الاول ص ٣٥ .

فى منحه للمكافآت وانفاقه على حفلات الزواج والترفيه وفى تقديم الهدايا الى الأمراء والعلماء والفنانين ، وعلى بناء المدن والمنشآت ، فضلا عن نفقات الحرب وتبديد الموظفين الجشعين ، وبالرغم من توافر الايرادات خاصة من أموال دارا المصادرة الا أن معدل النفقات كان يزيد بكثير عن الايرادات ولو كان العمر قد طال بالاسكندر لواجه مشاكل مالية كبرى.

كذلك يشهد التاريخ بأن الاسكندر هو أحد البناة العظام ومؤسس المدن عبر التاريخ . وقد بالغ التراث فى رواياته عندما نسب اليه بناء سبعين مدينة . ولكن المؤكد أنه أسس مالا يقل عن ست عشرة اسكندرية معظمها أقيم فى الأراضى الواقعة شرق نهر دجلة وفى شمال الهند . وكانت الاسكندرية فى مصر هى المدينة الوحيدة التى أنشأت على الساحل الافريقى . ويبدو أن الاسكندر وضع خططا ووعد ببناء الكثير من الاسكندريات الأخرى . وقد ورث عنه خلفاؤه حمى البناء والتعمير .

كان الاسكندر هو صاحب نظرية التعمير والاستيطان فى العالم خاصة فى آسيا من أجل الاغريق ولكن الاستعمار المقدونى الجديد كان يختلف كلية عن فكرة الاغريق القديمة عن الاستعمار الاستيطانى الذى مر به التاريخ الاغريقى ابان القرنين السابع والسادس ق.م فالمستوطنات المقدونية كانت عالمية لكل الأجناس ولم يكن سكانها مجلوبين من مدينة اغريقية معينة. ولم يكن هدف هذه المدن تجاريا استغلاليا كما كان فى الماضى لأن كثير من الاسكندريات كانت بعيدة عن البحار والمخارج المائية . بل كان هدف الاسكندريات هى أن تكون منارات لنشر الثقافة الاغريقية فى آسيا وأفريقيا وأن تكون فى نفس الوقت بوتقة لمزج شعوب الشرق مع شعوب الغرب .

والدليل على ذلك لم تكن مدن الاسكندرية نموذجا من المدينة الاغريقية القديمة بحريتها واستقلالها واكتفائها الذاتى بل كانت مؤسسات مدنية حضارية ذات رسالة انسانية ولكنها مقامة أساسا على الطراز الاغريقى .

كانت المدينة السكندرية تقوم أساسا على مساحة من الأرض

تابعة للملك كما كانت نواة مجتمعها اغريقيــة يجيء على قمتها أقليــة مقدونية متمتعة بحقوق وامتيازات خاصة ، وبعد ذلك تجيء الجاليات العنصرية المختلفة والتي كانت تتمتع بحقوق ذاتية ، وأخيراً يأتي أقليــة من الأهالي الوطنيين ، المقدونيين والاغريق يجيئون على قمة المجتمــع ومتمتعون بكافة الحقوق المدنية . وكان من الطبيعي أن تكون القوانين والأجهزة الادارية والقضائية اغريقية . ويبــدو أن مــدن الاسكنــدر الحضارية لم تكن لتشتمل على مجالس شورى ولا مجالس شعبية على النحو الذي كانت عليه المدن الاغريقية في العصرالكلاسيكي . ولكن كان أهالي المدن خاضعين وملزمين لمجموعة من القوانين والتقاليد العرفيــة الاغريقية وكان اليهود وحدهم مستثنون من ذلك التقيد . وربما كانت فكرة الاسكندر في اغفــال الحقوق السياسية للمدن الاغريقية الجديدة هدفا لتوحيد العناصرالخليطة من السكان في القالب الاغريقي الموحد وابعاد شبح العنصرية الهللينية التي كانت تتمثل في الأجهزة السياسية القديمة للمدن . والتي وجدها الاسكندر بلا شك عائقا لأفكاره العالمية . أيضا كانت مــدن الاسكندر خاضــعة لحــكام أشبــه بالملوك يعينهم بنفسه وليس كما كانت في الماضي تقوم على مبدأ انتخــاب الحــكام ، وعلى أجهزة شعبية سياسية خلفت التعصب والتطرف ، والنزعــة الى عــدم الاندماج في اتحاد سياسي شامل . وقد عاني الاسكندر ومن قبله أبوه فيليب من تلك النزعــات العمياء . ولهذا جــاءت مــدن الاسكنــدر كمؤسسات مسلوبة الارادة السياسية وأشبه بحواضر مدنية خاضعة له كلية .

واذا تركنا الحديث عن شخصية الاسكندر وانجازاته لنحاول تحليل أيديولوجيته وآراءه الخاصة بوحدة ومزج شعوب الشرق والغــرب . مزجا عنصريا وحضاريا في اطار هلليني ، فان هــذه الايديولوجية برغم ماتبدو عليه من عظمة وجرأة الا أنها كانت في حقيقتها طوباوية بعيــدة التحقيق . بدليل أنه فشل في النهاية في تحقيقها ودفنت معه في القبر وقد سبق أن أشرنا الى الطابع الحالم المتأصل في آراء الاسكندر السياسية .

وترجع أسباب فشل هذه الايديولوجية الى رفض فـريق كبير من السكان الاغريق والشرقيين على السواء التخلى عن كيانهم ووجـودهم العنصرى والقومى ، والتغلب على الدافع النفسى الطبيعى فى الحفـاظ على عنصرهم مميزا فى سبيل الاندماج مع شعوب غريبة . حقيقة أن الاغريق اختلطوا مع كثيراً من العناصر السكانية فى الماضى خاصـة فى أيونيا والأناضول وفى غيرها من المناطق التى استوطنوها . بل وأثمر الزواج عن ظهور شخصيات هامة فى المجال الثقافى والسياسى من أمثال هيرودوت وثمستوكليس وثوكوديديس . ولكن كان ذلك اختلاطا طبيعيا نشأ من نفسه دون تخطيط أيديولوجى .

كان الاسكندر يحلم بحكومة مركزية واحدة لأمبراطورية متعددة القوميات على نحو أوسع مما كانت عليه الامبراطـورية الفارسية (١) . ومن أجل ذلك عين حكاماً من الفرس . ولكن هذه الفكرة انهارت بعد موته بل انه اصطدم فى حياته بقوميات رفضت الانصيـاع تحت لوائه مثلما حدث مع الصغديين وفى كابادوكيا وأرمينيا وغيرها .

ولكن ليس من العدل أن نحكم على هذه الأيديولوجية بالفشـل التام لأن السيليوكيين (Seleucids) خلفاء الاسكندر فى سوريا وآسيا الصغرى ساروا قدما بسياسة تأسيس المدن التى بدأها ذلك الفاتح العظيم فانتشرت الحواضر الاغريقية فى آسيا الصغرى وراحت تشع حضـارة وثقافة فى مناطق نائية فى آسيا بلغت حتى أطراف الهند . ولهذا يقال أن الاسكندر فشل فى توحيد العناصر السكانية ولكنه نجح فى توحيد الثقافة والحضارة العالمية على أسس ومعايير اغريقية أكثر منها مقدونية .

وجد الاسكندر نفسه حاكما على امبراطورية شاسعة وسيداً على شعوب مختلفة وقوميات متناقضة العقليات والأمزجة ، وكان من باب المحال أن يقيم الاسكندر نظاماً منسقاً مقبولا يفرضـه على كل هـذه الشعوب والقوميات الغير متجانسة ، ومن ثم لجأ الى نفسه وشخصيته

---

(١) عن احلام الاسكندر وخططة انظر :

Harvard Studies in Classical Phiology LXXXII (1968) p. 183 ff. (Badian).

المقدسة كقاسم مشترك بين جميع هذه الشعوب والقوميات . وأدرك أن فكرة تأليه نفسه سوف تجعل منه الها واحداً يحكم بمقتضى سلطته المقدسة فى كل مكان سواء فى الشرق أو فى الغرب . وبهذا تقمص الاسكندر شخصية الاله الأوحد بصوره المتعددة ، ففى مصر كان ابن آمون رع بينما كان عند الاغريق ابن زيوس - آمون ، وقد واته الفرصة عندما راح الفلاسفة والسياسيون يتحدثون عن الاله فى صورة البشر ، مشيرين بذلك الى فيليب ومن بعده الاسكندر . وفى عام ٣٢٤ ق . م اعترفت به مدن حلف كورنثا الاها اسمى فوق كل البشر يحكم بالسلطة المقدسة وتصرفاته الهام من السماء وأنه على حق دائماً لأنه الاله الذى لا يخطىء . ولكن يبدو أن هذا الادعاء لم يكن سوى وسيلة لحكم شعوب الامبراطورية لأنه لا يوجد دليل على قيام عبادة ذات طقوس وهياكل كهنوتية لعبادته اللهم الا بعد موته حيث نسمع عن كهنة الاسكندر وذلك تعبير عن عبادة الملك والدولة والسلطة . وهى انعكاس لعبادة الشخص الحاكم Cult of Personality التى سادت فى العصر الهللينستى والتى تذكرنا بسلوك الاباطرة الرومان فيما بعد وهى بكل تأكيد من تأثير فتح الشرق .

على أي حال فان موت الاسكندر مبكراً حرمنا من معرفة المشروعات الأيديولوجية الكبرى التى كان يزمع القيام بها لتوطيد دعائم الامبراطوية العالمية سكانيا وسياسيا وحضاريا واقتصاديا ، وتوثيق الروابط بين ربوعها وخلق الشعور الانتمائى المشترك بين شعوبها وهذا يجعل الحكم على نجاحه أو فشله فى تحقيقه لامبراطورية عالمية قابلا للجدل. كذلك أهمل الاسكندر مشكلة من يخلفه ويكمل رسالته اذ أنه لم يمتد به العمر لينجب أو يتبنى ابنا يعلمه ويدربه لاكمال رسالته مثلما فعل أبوه فيليب ومثلما حرص الامبراطور الرومانى أغسطس على أن يفعل. ولكن بالرغم من كل هذه النقائص والعيوب الا أننا لا يمكن أن تنتقص من شخصية الاسكندر الخارقة والمبدعة والمتنوعة بل أنه نجح الى حد كبير فى خلق تراث عالمى وبدأ آفاقا لعالم جديد سطعت فيه شمس الحضارة الاغريقية فى سماء الشرق الخالد .

ومن ناحية أخرى أحس الشرق بفطرته الروحانية أنه أمـام أعظم شخصيات التاريخ والانسانية . ففتح صدره لهذا القائد النادر المثال ومن ثم راحت صـورته تنطبع فى خيال ووجدان كثير من شعوب الشرقين الأدنى والأوسط . وبدأ خيال هذه الشعوب ينسج أسطورة الاسكندر الاله المخلص ، رائد المحبـة والوئام والمسـاواة ، دافـع الظـلم عن المقهورين ومحقق السلام على الارض والمسرة فى الناس .

وبقيت سيرته طويلا تتداول بين هذه الشعوب ، وحيكت من حوله القصص وأضيفت عليه القداسة والرسالة الالهية وهــذا فى حـد ذاته نجاح للاسكندر فى محاولة خلق فكر مشترك بين جميع شعوب العالم اذ نسج عنه أكثر من ثمانين رواية (١) صيغت بأكثر من أربع وعشرين لغة سادت من بريطانيا حتى الملايو .

لقد حاول الاسكندر فى الحقيقة أن يحـل محـل الامبراطـورية الفارسية فى خلق وحدة سياسية بين قوميات مختلفة عن طريق التنسيق بينها بوسيلتين : الأولى شخصية الملك التى يلتزم ازاءهـا كل فرد فى الامبراطورية بالولاء المقدس ، والثانية عن طريق تشجيع التجارةووسائل الاتصال الحضارى بين هذه الشعوب والقوميـات بحيث لا تحس بأن هنالك فواصل بينها . وهى نفس الأســس التى أقـام الرومـان عليها امبراطوريتهم العالمية على يد أغسطس وخلفاؤه .

والشيء الذى لا نستطيع انكاره بتاتا هو أن الاسكندر فجر عهدا جديداً للحضارة الاغريقية وفتح أمامها أفاقا بعيدة بصورة لم تتحقق لها من قبل . اذ أصبح العالم لأول مرة بيتا مسـكونا لـكل النـاس (Oikoumene) وأصبح المثقفون يعتبرون أنفسهم مواطنين لا فى مدن صغيرة كما كان فى الماضى بل مواطنين فى العالم بأسره Kosmopolites وهكذا أتاحت أفكار الاسكندر للحضارة الاغريقية أفاقا جديدة وفتحت أمامها عالما واسعا ومجالا جديداً لتجرب فيه علومها وفنونها وأفكارها حيث بذرت حبوبها فى تربة الشرق الخصبة لتعطى نباتا حسنا . ولم تعد

(١) قارن المرجع السابق ص ٢٢٢ .

الثقافة الاغريقية وقفا على الاغريق والمقدونيين وحدهم بل تعدتهم الى شعوب ليست اغريقية أصلا • وأصبح لفظ هلليني يحمل معنى حضاريا وثقافيا أكثر منه عنصريا • واختفت اللهجات الاقليمية فى اللغة الاغريقية وحل محلها لهجة مبسطة وسهلة وعامة (Koine) لكل الناس فى كل مكان فى جميع أطراف الأرض •

هكذا أيقظ الاسكندر فى وجدان الانسانية حنينا للوحدة الفكرية والروحية وخلق تساميا عن الأفكار الضيقة والصراعات البغيضة ، وأوجد عشقا للسلام والأخاء والمحبة وتلك كانت مقدمة للحضارة الاغريقية فى ثوب جديد مستشرق يعرف بالهلليستى Hellenistic.

بلاد اليونان تحت السيطرة المقدونية :

عندما غادر الاسكندر بلاد اليونان فى طريقه لغزو بلاد الفرس ، عين أنتيباتر Antipater نائبا عنه لحكم مقدونيا وبلاد اليونان وربما فكر الاغريق كثيراً فى القيام بحركة تمرد ضد مقدونيا أثناء غياب الاسكندر فى الشرق ولكن عندما جاءت أنباء انتصاراته الساحقة خاصة بعد معركة ايسوس ادرك الاغريق أنه من الخير لهم أن يتوخوا الحذر والحرص قبل القيام بأى حركة تمرد خوفا من انتقام نائب الاسكندر فى بيللا ولهذا تظاهر الاغريق من أعضاء مؤتمر كورنثا بمباركة انتصارات الاسكندر وبعثوا اليه بتاج من ذهب ليكلل جبينه المنتصر • وعندما تزعم ملك اسبرطة (١) آجيس الدعوة لشن حركة تمرد للقضاء على النفوذ المقدونى فى البيلوبونيسوس بعد عام من انتصار ايسوس وانضم لهذه الحركة كل أركاديا ـ باستثناء ميجالوبوليس التى رفضت الاشتراك فى هذا التمرد ، نجد أن لا أحد من دويلات حلف كورنثا يتدخل بل آثروا الترقب والانتظار • وكان ذلك خيراً لهم لأن انتيباتر اندفع بقوة هائلة لمساعدة ميجالوبوليس ملحقاً بالثوار هزيمة ساحقة • كما سقط الملك أجيس ملك اسبرطة قتيلا وبذلك سحقت ثورة البيلوبونيسوس فى مهدها •

(1) Cf. E.N. horza," The End of Agis' revolt, Class Review LXVII, 1971, P, 230-235.

لقد تمنى الحلفاء الاغريق فى قرارة أنفسهم بشدة أن يلحق الفرس هزيمة بالاسكندر ومن ثم يجدون فرصة فى التحرر من الاستعمار المقدونى ، ولكن هذا الأمل تضاءل تماما بعد موت دارا وانهيار الامبراطورية الفارسية . ويمكن أن نقول أن السلام ساد بلاد الاغريق أثناء غياب الاسكندر فى الهند ولم يحدث شيء عكر صفو هذا السلام . حقيقة ، لقد ساد الهدوء بلاد الأغريق منذ سقوط وتدمير طيبة واستمر هذا الهدوء والسلام الى أن أعلن نبأ موت الاسكندر . وقد يرجع هذا الهدوء والسلام العاقل الى القيادة الحكيمة التى تزعمها كل من فوكيون ولوكرجوس فضلا عن اتسام أراء ديموسثنيس حينئذ بالاعتدال والتعقل تجاه السلام المقدونى .

احتدام الازمة بين ايسوقراط وديموسثنيس :

بدأت ملامح الأزمة بين أنصار السلام المقدونى ودعاة الوطنية الأثينية المتطرفة عندما تقدم أحد الزعماء واسمه كتيسيفون باقتراح بتكريم الخطيب ديموسثنيس لما أداه من خدمات خاصة بعد تبرعه من أمواله الخاصة لاصلاح وترميم أسوار أثينا . وطالب كتيسيفون أن يكلل ديموسثنيس بتاج من ذهب فى حفل علنى يقام على مسرح المدينة . ووافق مجلس الشورى على هذا الاقتراح ولكن هذا الاقتراح أثار حقد وغضب أيسخينيس Aeschines العدو الشخصى والسياسى منذ وقت طويل لديموسثنيس فشن هجوما عنيفاً فى خطبة شديدة اللهجة ألقيت عام ٣٣٠ ق.م اتهم فيها كتيسيفون بالتعدى على القوانين بتقديمه مثل هذا الاقتراح . وفى الحقيقة لم تكن خطبة أيسخينيس سوى استعراضات لتاريخ ديموسثنيس السياسى منذ عام ٣٥٧ الى عام ٣٣٠ ق.م مبينا ماجره من نكبات ، متهما اياه بالخيانة والتفريط فى حقوق الأمة كما اتهمه باللامسئولية . ورد ديموسثنيس على هجوم أيسخينيس بخطبة تعتبر قطعة غراء من البلاغة السياسية سحرت ألباب الحاضرين جميعا وعند التصويت لم يحظ اقتراح أيسخينيس المضاد بموافقة أحد سوى عدد قليل بينما اكتسح ديموسثنيس خصمه فى المجلس مما دعى أيسخينيس الى هجران السياسة تماما والانسحاب من

المجتمع الأثينى بل غادر المدينة ليحيا حياة هادئة فى الريف وهكذا توارى أيسخينيس عن الأضواء الى طى النسيان .

اثينا تستغل السلام المقدونى في بناء نفسها :

وبالرغم من عظمة العمل المقدونى الذى غير الموازين السياسية فى حوض البحر المتوسط وفى الشرق الأوسط الا أن بلاد اليونان ـ خاصة أثينا ـ ظلت على مجدها الحضارى والتجارى . اذا احتفظت أثينا بمركزها السياسى والحضارى والتجارى كعاصمة لكل بلاد اليونان ، ومما ساعد فى عملية البناء الاقتصادى والعمرانى اتجاه السياسة الأثينية فى هذه الفترة الى الدعوة الى السلام ، ونبذ الحرب ، مما وفر لها النفقات الطائلة التى كانت تنفقها على الحروب وتستغلها فى بناء نفسها ذاتيا وعسكرياً وسياسياً من أجل استعادة نفوذها المفقود فيما وراء البحار . ومن أجل هذا راحت تنفق الأموال الطائلة على بناء الأسطول من جديد حتى جاوز الأربعماية سفينة ؛ ولحسن حظ أثينا كان المشرف على حسابات المدينة ونفقاتها رجل عاقل حكيم اسمه لوكرجوس (Lucyrgos) وقد قام لوكرجوس بعدة مشروعات عمرانية كبرى فى أثينا منها بناء الاستاد الكبير على ضفاف نهر الليسوس بمناسبة أعياد الباناثينيا ، ومنها أيضا الجمنازيوم الشهير فى ضاحية لوكايوس Lyceius (١) حيث تقع الأجمة المقدسة لدى الاله أبوللون وربات الشعر والفنون والمعرفة (Musae) وحيث كان أرسطو يعشق التجول فيها مع مريديه ليحاضرهم أثناء المسير (٢) . ومن أعظم الأعمال التى تركها لنا لوكرجوس الأثينى مسرح ديونيسوس الكبير ذا المدرجات الرخامية والمقام فى رحاب الأكروبول الذى لا تزال أطلاله من أهم ملامح أثار هذا المرتفع العظيم .

وعلى أى حال لم تظهر أى بادرة من أثينا توحى بتغيير سياسة الانصياع للاسكندر الا عندما أعلن الاسكندر قراره الشهير بوجوب قبول

---

(١) من هذا الاسم اشتق لفظ الليسية Lycée فى اللغة الفرنسية كمكان للتعليم والدراسة .

(٢) ولذا عرفت مدرسته باسم المشائين Peripatotic School .

المنفيين السياسيين ومنح جزيرة ساموس الاستقلال والتحرر من السيطرة الأثينية عندئذ اعترضت أثينا على ذلك القرار وأيدها فى ذلك أيتوليا والتى كانت تخشى على نفوذها فى أكارنانياء ولكن لم تجرؤ أثينا على اعلان هذا الاعتراض عندما أرسل الاسكندر رسوله نيكانور Nikanor ليعلن ذلك على الملا ابان المهرجانات الأولمبية بل كتمت غيظها فى نفسها منتظرة فرصة مواتية لاعلان هذا التمرد .

هاربالوس وثروته يسببان أزمة بين الاغريق ومقدونيا :

سبق أن أشرنا كيف أن هاربالوس أمين خزانة الاسكندر اختلس أموالا كثيرة بطرق غير شرعية لنفسه ، ويقال أنه جمع مالا يقل عن خمسة آلاف تالنت ثم فر هاربا ، وفى عام ٣٢٤ ق. م وصل هاربالوس الى شواطىء بلاد اليونان فى صحبة جيش صغير من المرتزقة ويحمل ثروته الطائلة وطلب الدخول الى أثينا فسمح له ذلك بشرط أن يسرح جيشه الصغير ، وبالفعل دخل هاربالوس ومعه سبعمائة تالنت ، وأعلن الاثينيون أنهم سوف يتحفظون على هذه الثروة لحين أن يبعث الاسكندر فى طلبها . وبناء على اقتراح ديموسثنيس ألقى القبض على هاربالوس ووضعت ثروته تحت حماية الدولة فى خزانة الأكروبول . وكلفت لجنة بحراستها كان ديموسثنيس نفسه عضوا فيها ، وسرعان ما وصل فيلوكسينوس أمين خزانة الاسكندر فى غرب آسيا الصغرى مطالبا بتسليم هاربالوس اليه باعتباره عامل أموال سابق فى بابل كما وصل رسول آخر جاء من بيللا مبعوثا من طرف أنتيباتر نائب الملك فى مقدونيا ليطالب أيضا بتسليم هذا المختلس ومصادرة ثروته . ولكن الأثينيين أعلنوا أنهم لن يسلموا هاربالوس الا لمندوب الاسكندر شخصيا ، أما هاربالوس فقد تمكن من الهرب خارج أثينا وظل مطاردا الا أن اغتاله أحد شركائه فى الاختلاس .

أما الثروة المصادرة فقد ظلت فى حراسة اللجنة المعينة ، ولكن عند جردها لم يعثر الا على ٣٥٠ تالنتا فقط . وسرعان ما وجه اتهام الى مجموعة من السياسيين باختلاس ٣٥٠ تالنتا من الثروة وأشيع أنهم

اقتسموا هذا المبلغ فيما بينهم ، وجاء ذكر اسم ديموسثنيس بأنه تقاضى عشرين تالنتا • وقد اعترف ديموسثنيس بذلك وكان تبريره أنه كان فى ضائقة مالية بعد تبرعه بعشرين تالنتا لصالح خزانة صندوق التسلية Theoric Fund وأنه عوض هذا المبلغ من مال الاسكندر وهو لا يرى فى ذلك عيبا ، وبالفعل أدين ديموسثنيس بتهمة التبديد والاختلاس وحكم عليه بغرامة قدرها خمسين تالنتا • ووضع فى السجن لحين دفع الغرامة « ولكنه تمكن من الهرب ، وظل يتنقل ما بين جزيرة ايجينيا Aegina ومدينة تريزن Troezen متحينا فرصة للعودة الى أثينا •

اعلان موت الاسكندر ورد الفعل على الاغريق :

جاءت الأنباء تحمل خبر موت الاسكندر العظيم ، ولكن بناء على تجربة سابقة لم يصدق الاغريق أو بمعنى آخر آثروا التريث ، وقال ديموسثنيس معلقا على هذا النبأ « لو كان الاسكندر قد مات حقا ، لملأت رائحة جسده أنوف العالم بأسره » (1) •

ولما أصبح النبأ حقيقة أعلنت أثينا وأيتوليا الثورة ضد السيطرة المقدونية وانضمت اليهما عدد كبير من دويلات مدن شمال بلاد اليونان وجندت أثينا ثمانية آلاف مرتزق من جنود الاسكندر السابقين لحمل السلاح وكلفت قائدا اسمه ليوسثنيس Leosthenes بقيادة الحرب واستدعت ديموسثنيس ليعود الى خطابته القديمة وليعبىء جهد مشاعر الاغريق القومية ضد مقدونيا وتمكن ليوسثنيس من احتلال قلعة لاميا Lamia المواجهة لممر الترموبيلاى فى شمال بلاد اليونان ، واندفع أنتيباتر الى لاميا ليسحق المتمردين ولكن فرسانه التساليين تمردوا عليه مما جعله يتحصن بالقلعة ، ومن ثم وجد نفسه محاصرا داخلها بواسطة ليوسثنيس وقواته وظل محاصرا طوال شتاء عام ٣٢٢ ق•م وأخيرا

(1) Cf. A.B. Bosworth," The death of Alexander, the Creat rumours and propaganda Class. Quarterly, XXI, 1971, p. 112-136,

جاءت النجدة لأنتيباتر من فريجيا Phrygia فى آسيا الصغرى اذ وصل حاكمها ليوناتوس Leonnatus الموالى لمقدونيا ومعه قوة كبيرة تمكن أنتيباتر بمساعدتها من تحطيم الحصار والاتصال بفلول القوات المقدونية، وقد تحسن وضع المقدونيين كثيرا عندما وصلتهم نجدة ثانية من آسيا الصغرى بقيادة كراتيروس وبعد معركة عنيفة فى سهل كرانون Cranon بتساليا سحق أنتيباتر قوات الاغريق ولكن نصره كان هزيلا ، وكان يمكن للاغريق كسب المعركة لولا تشتت صفوفهم وتفككهم سياسيا مما أدى الى انخفاض روحهم المعنوية خاصة عندما تقدم أنتيباتر عبر تساليا مهددا باحتلال أثينا ، وانهارت روح الاغريق المعنوية وأذعنوا لشروط انتيباتر القاسية ، اذ أرغم أثينا على قبول حامية مقدونية دائمة فوق الأكروبول ، وفى قلعة مونخيا Mynchia لمنع ولقمع أى حركة تمرد قد تقوم بها أثينا ضد مقدونيا مستقبلا سواء بمفردها أو بمساندة الاغريق الآخرين ، كما اشترط على أثينا تسليم زعماء الثورة ضد مقدونيا وهما ديموستثنيس وهيبريديس .

كذلك اشترط أنتيباتر [١] على الوفد الأثينى الذى جاء للاستسلام والذى كان يتكون من الجنرال العجوز فوكيون وديماديس صديق المقدونيين أن تغير أثينا من فلسفتها الديموقراطية باعطاء الملكية عين الاعتبار عند الممارسة حتى لا يسيطر على الحزب الديموقراطى الغوغاء والمعدمون وغيرهم ممن يستوى لديهم السلام والحرب ان لم يؤثروا الحرب على السلام .

وبناء على شروط التسليم بعثت أثينا الى ديموستثنيس الذى كان يزور مدن البيلوبونيسوس ليحرضها على الثورة ــ بعثت اليه تطلب منه

(١) كان أنتيباتر قد اوكل له حكم مقدونيا نيابة عن ابن الاسكندر الذى لم يكن قد ولد بعد ونيابه عن شقيقه فيليب الابله Philip Arrhidaios عند توزيع الامبراطورية على الورثة انظر :

Fr. Schachermeyer, " Alexxander in Babylon und die Reichordnung nach Seinen Tode : Sitzungsber des Osterr,

Akad des wissens, Philose. Hist. Klass) 2n8/3 (1970) = J.H.S., XC, 1970, P. 49-77.

العودة فأدرك معنى ذلك فهرب هو وصديقه هيبريديس وقد التجأ الأخير الى معبد الاله أياكوس Aeacus فى جزيرة ايجينا بينما التجأ ديموسثنيس الى معبد بوسيدون فى جزيرة كالاوريا Calauria •
وبناء عليه فقدحكم عليهما بالموت غيابياء ووصل رسل أنتيباتر الى ايجينا وكالاوريا حيث استسلم هيبريديس وأعدم ، أما ديموسثنيس فقيل أنه ابتلع سما كان يخفيه بداخل أحد أقلامه مفضلا الموت بيده على أن يموت بسيوف المقدونيين •

وبهزيمة الأثينيين فى كرانون انتهت الى غير رجعة عهد الوطنية والكبرياء والصراع الذى كان يشكل الروح العامة لتاريخ مدينة أثينا، ونضبت السياسة القديمة وغاب العصر الكلاسيكى وبدأ عالم جديد فى الفكر والحضارة، اذ لم يعد الاغريق يهتمون بالسياسة والامبراطورية بل التفتوا الى التراث الخالد يعبون منه ويجددون فيه حتى أصبحت أثينا منارة العلم والمعرفة ومدرسة الفلاسفة والجامعة التى يحج اليها طلاب العلم من كافة جهات العالم المسكون للتزود والنهل من ينابيع المعرفة فيها • وظلت بلاد اليونان على هذا الحال طوال الحكم المقدونى وعبر الحكم الرومانى • حتى قضت المسيحية على مدارس الفكر الوثنى •

الفصل السابع عشر

الحضـــارة الاغريقية

ابان القرن الرابع قبل الميلاد

لقد تحولت عبارة بريكليس الحالمة التى جاءت بين فقرات خطبته الشهيرةالى حقيقة واقعة فى القرن الرابع ق٠ م وهي العبارة الذى ذكر فيها أن أثينا هى « جامعة هيللاس » ٠ لقد تحولت أثينا بالفعل بعـد سقوط أمبراطوريتها وهجرها أتون الحروب الى منارة للعلوم والمعرفة وتدفقت عليها تيارات الفن والفكر ٠ وانتزعت أثينا لنفسها اعترافا من سائر الاغريق وسـكان العالم المسكون بأنها الجامعة والمدرسـة ومحراب الالهام والحضارة ٠

وعمت الآفاق شهرة مدرسة ايسوقراط ومدرسة أفلاطون الفكرية وتدفق الناس عليهما من كل حدب وصوب ٠

ومن أهم مظاهر التغير التى حدثت فى أثينا فى القرن الرابع ق٠ م هو تحطيم أسوار العزلة والتقوقع والانطواء على النفس الذى كان دافعه الأول التطرف والاسـتعلاء الوطنى الأعمى الذى يؤثر أن ينغلق على نفسه على أن يفتح ذراعيه لوحدة أشمل وأعم ٠ لقد انهار جدار العزلة النفسية لتصبح أثينا أغريقية وليست أثينية فقط بل راحت ملامح العالمية الانسانية وروح الانتماء الى العالم المتحضر دون تحيز Cosmopolitanism تبدو فى الأفق الجديد ٠ وهذا فى حد ذاته تطور كبير وخروج على الخط الشوفانى الضيق الأفق القصير النظر الذى ساد ابان القرن الخامس قبل الميلاد والذى كان ينفر من أى شىء ليس أثينيا ٠

يرجع الفضل في توسيع آفاق العقلية الأثينية الى مدارس الفكر والفلسفة الجديدة التى بنت تأملاتها على تفكير رياضى منطقى منظم . ولعل خطب ايسوقراط التى التزمت بروح الوحدة الشاملة لكل الاغريق ومهاجمة التقوقع والوطنية المتعصبة لخير دليل على روح التفكير الجديدة كذلك فان أفكار أفلاطون العالمية الحالمة وآراء اكسينيفون السياسية المتحررة ضد التزمت الأثينى ومحاباة هذا الأخير للنظم الاسبرطية فى شجاعة منقطعة النظير كل هذا يعطى صورة رائعة لانهيار معاقل الفكر القديم وهبوب نسمات عصر جديد ، عصر فتحت فيه أثينا ذراعيها للتيارات الدينية الشرقية والأجنبية ، وبدأت تبنى معابد لهذه الآلهة فى ميناء بيريه بل و فى داخل العاصمة الأثينية ذاتها .

لقد تحول المسرح الأثينى الى مدرسة ومؤسسة تعليمية ثقافية ولم يعد مجرد أداة للتسلية واشباع الغرور الوطنى والسياسى ولهذا قدره السياسيون كأداة لنشر الأفكار وكجهاز اعلامى يبث المعرفة بين الاغريق ولهذا تغير جوهر التأليف المسرحى . فمثلا نجد الكوميديا القديمة التى عرفناها أيام أرسطوفانيس والتى كانت تكرس نفسها للسياسة المحلية والسخرية من السياسيين الأثينيين وغير ذلك من الأمور المحلية البحتة التى لا يفهمها القارىء العادى الا اذا كان ملما بكل تفاصيل السياسة والحياة الأثينية وبكل دقائقها وتفاصيلها . لقد أسدل الستار على هذا النوع من الكوميديا القديمة وبرز مكانها نوع جديد من الكوميديا يتزعمها ميناندر Menander تتناول موضوعات ذات طابع انسانى عالمى لا يختص بمكان أو زمان معين بل يمكن أن نقول عنه أنه انسانى عالمى ، حتى التراجيديا تغيرت هى الأخرى لتسير على نهج النقد والواقعية والأسس الانسانية الخالدة تلك المبادىء التى كان يوريبيديس الثائر قد بشر بها فى النصف الأخير من القرن الخامس ق. م .

لقد صاحب ذلك كله ان لم يكن سبق ذلك كله تطور كبير فى سيكلوجية الفرد الأثينى اذ بدأ الفرد يحس بنفسه بصورة لم يعهدها من قبل اذ لم يعد المواطن يرى نفسه من خلال المجتمع والدولة بل يرى

الدولة والمجتمع من خلال ذاته وأن الدولة يجب أن تكون فى خدمته وترعى مصالحه ولم تعد روح الوطنية المتطرفة تسيطر عليه لدرجة أنه كان يعتبر « جسده ليس ملكا له وحده » كما كان يقول بيريكليس ، بل برزت روح الفرد Individualism وراح الفرد يطالب بحقوقه ويتحرر من القيود القديمة التى كانت تربطه بعجلة الدولة ، هذا الاستقلال الفكرى من السيطرة التى فرضتها دويلة المدينة دفع الكثير من الجنود والضباط الى العمل فى صفوف أى جيش يطلبهم لخدمته ، وقد شرح أفلاطون أحقية الفرد فى العمل بحرية فى أى مكان وضرب مثلا فى جمهوريته بالدواب التى تسير فى طريقها للعمل فى أى مكان واذا حاول أحد أن يعترض طريقها داسته تحت أرجلها ، وهكذا يجب أن يكون المواطن الحر ، كما ذكر أفلاطون أن كل شىء فى الحياة يكاد أن يصرخ مطالبا بالحرية ، وربما كان تطور روح الفرد نتيجة للاتجاه نحو الديموقراطية الدستورية وليس نتيجة للتشريع الأكمل ، لقد ساهم فى فكرة احياء روح الفرد مفكرون عديدون منهم يوربيديس والفيلسوف سقراط ، ثم تلميذه أفلاطون ولقد سبق الحديث عن سقراط الذى كانت أفكاره نقطة التحول الكبير من شخصية الدولة الى شخصية الفرد .

كان أفلاطون تلميذا خليقا بأستاذه سقراط ولكنه أدار عينيه بعيدا عن أثينا ليعلن اعجابه بدستور أسبرطة مثلما فعل اكسينوفون من قبل ، وقد أعلن أفلاطون بصراحة تامة أن الدستور الاسبرطى أقرب الى تصوره المثالى عن الدستور الحق من الدستور الأثينى وكان هذا مما لا شك فيه انتصارا لاسبرطة وتكذيبا للدعاية الأثينية القديمة ضد أسبرطة واتهامها بالرجعية والاستبداد ، هذا بالرغم من أن أفلاطون كان يعلم علم اليقين أن دستور أسبرطة يمحو شخصية الفرد تماما من أجل الدولة والجماعة ولكن أفلاطون وجد ذلك أقرب النظم الى تصوره الاشتراكى الجماعى .

لقد كان هناك ثورة حقيقية على الفكر القديم كله فلأول مرة جادل الفلاسفة بشجاعة تامة فى شرعية نظام الرق الذى كان جوهر المجتمع القديم وربما كان يوربيديس أول من رمى هذا النظام بالحجر ، ومن

الأفكار الجديدة التى تناولها المفكرون بالجدل والنقاش حقوق المرأة ومساواتها بالرجل . فبينما كان أرسطوفانيس يسخر فى الماضى من الشيء الذى يسمى بحقوق المرأة ويتناوله بالتقريع فى مسرحيته اكليسيا النساء (أو برلمان النساء) نجد أفلاطون فى الجمهورية يضع النساء على قدم المساواة مع الرجال ويتحدث عن الاشتراكية الجماعية ويضع تخيلا لها من أجل رخاء الناس ، كل الناس وحمايتهم من الفقر ومن أنفسهم وجشعهم وهو الشيء الذى سخر منه أرسطوفانيس أيضا بالرغم من أن أفلاطون انتهى الى حقيقة مرة أن الاشتراكية المطلقة لا يمكن تحقيقها واضطر الى الاعتراف بحق الملكية الخاصة ولكن للاسرة وليس للفرد .

لقد كان للبلاغة وفن الكتابة دور عظيم فى نشر الأفكار الجديدة وتنوير العقلية الأثينية ومن أساطين البلاغة السوفسطائى جورجياس . ولعل ازدهار فن النثر بعد التحرر من الشعر وقيوده أثره الكبير لأن النثر بأسلوبه السهل شجع على روح النقد والجدل دون تعقيد . لقد كانت الخطابة وطلاقة اللسان شرطا أساسيا للوصول الى المناصب القيادية خاصة السياسية ونظرا لسلاسة النثر وسهولة عرض الأفكار الجديدة فيه ودون عائق ودون تعقيدات الشعر وتفعيلاته فقد توارى الشعر كما اختفت التراجيديا القديمة برطانة لغتها وأوزانها وأفكارها الدينية المسيطرة على جوهرها ومفهومها وحلت محلها تراجيديا أكثر بساطة وتحررا تظهر فيها روح سقراط ويوربيديس الجدلية الانسانية .

لقد تحرر الانسان الاغريقى فى القرن الرابع من الغموض الدينى ومن كل الأفكار والقيود القديمة ومن تسلط الشعر بأوزانه على فن الأدب حيث وجدت روح الفرد الجديد منطلقا لها خلال النثر البسيط السهل . ذلك النثر فتح الباب أمام الفكر للنقد والتجديد والاجتهاد وتحققت فعلا عبارة بريكليس القديمة والتى قال فيها « انى أقول لكم أن أثينا هى مدرسة هيللاس وأن الفرد الأثينى بذاته يبدو قادرا على أن يكيف نفسه مع أكثر أشكال العمل تعقيدا بأقصى قدر من المرونة والكياسة » (١) .

(1) Thuajdides, II, 37-41.

ولايفوتنا أن نشير الى دوافع ازدهار النثر التى كان أهمها ظهور الخطابة القانونية أمام المحاكم فى ظلال الديموقراطية الدستورية. اذ ظهرت طبقة من المحترفين الذين كانوا يكتبون هذه « الدفاعات » ليلقيها المدافعون عن أنفسهم ومن أشهر هؤلاء الأدباء القانونيين الخطيب « لوسياس » Lysias . ومن كتاب المقالات المشهورين الخطيب ايسوقراط صاحب المدرسة الشهيرة التى نافست مدرسة أفلاطون الفلسفية . الا أن مدرسة اينوقراط كانت تختلف عن مدرسة أفلاطون اذ أنها كانت مدرسة فكرية ثقافية هدفها المعرفة ، واعداد المواطن للحياة العامة . وليس فقط تعليمه جمال الصياغة وقوة الدراما البلاغية وكيفية تحسين الأفكار . ولهذا وجدت هذه المدرسة نفسها مضطرة الى تدريس العلوم السياسية وقد وصف ايسوقراط مدرسته بأنها تدرس « الفلسفة » كما يراها هو .

أما الفلسفة الحقيقية فى ذلك النقد فكانت تتجلى فى مدرسة أفلاطون والتى أوجدها فى أجمة مقدسة تسمى بالأكاديموس Akademos (١) . وكان الشباب يذهب اليها لتلقى دروسا فى الفلسفة . ولقد بلغ التنافس بينها درجة تذكرنا بالتنافس الذى قام بين بعض كليات الجامعات البريطانية فى العصر الحديث .

كانت مدرسة اينوقراط تختلف فى شكلها عن مدرسة أفلاطون لأن ايسوقراط كان باحثا أكاديميا وفى نفس الوقت رجل دعاية واعلام ولما كان لا يجيد فن الالقاء بسبب انفعاله الزائد وقيامه بحركات تشنجية فضلا على أنه كان ينقصه الصوت الجهورى الأجش مثل صوت منافسه ديموسثنيس ، فقد فضل أن يكتب خطبه وينشرها فى شكل مقالات يقرأوها الناس ولم يتلق الأثينيين ذلك بالارتياح والتقدير . ولكن مقالات أو رسائل ايسوقراط كانت تتسم بروح الانتماء لمواطنه العالم ككل Cosmopolitan فمثلا يقول فى خطبته الشهيرة «الثناء» Panegyric التى كتبها عام ٣٨١ ق. م : « لقد فاقت أثينا سائر العالم فى قوة الفكر والخطابة حتى أن تلاميذها أصبحوا المعلمين لسائر الشعوب

(١) ومن هذا اللفظ اشتق اللفظ « اكاديمى » .

لقد جعلت (أثينا) لفظ هلليني يتخذ مفهوما فكريا لا عنصريا • ومن ثم وجب منحه لكل من شارك فى ثقافتنا قبل هؤلاء الذين يشتركون معنا فى الأصل الواحد » • ان الفكرة التى تتضمنها هذه العبارة شجاعة وجديدة ، ولم يكن أحد يجرؤ على قولها باستثناء يوريبيديس •

ولم يفت ايسوقراط أن يسجل ملاحظاته عن ظاهرة انهيار المجتمع العظيم والالتزام بسنة السلف الصالح ولهذا عبر عن حنينه لأيام المشرع سولون وتمنى أن تستعيد محكمة الأريوباجوس مجدها المسلوب وحقوقها فى مراقبة السلوك والأخلاق بين الناس • ولم يجد ايسوقراط فى ذلك أى تعارض مع فكرته الخاصة بالسلام والوئام ووحدة العالم المسكون •

ولو نظرنا الى الفن الاغريقى فى القرن الرابع ق.م لوجدنا ملامح العصر تظهر فيه • فمثلا لوقارنا أعمال النحات براكستيليس فى القرن الرابع Praxiteles. بأعمال فيدياس فى القرن الخامس ق.م لوجدنا الفرق ملحوظا • اذ نجد فنان القرن الرابع يتحرر من السيطرة الدينية التى كانت تفرض عليه قيودا قاسية • وبدأ الفنان يبلور شخصيته الفنية بعيدة عن المعبد وعمارته فمثلا بينما كان فيدياس ينشد فى أعماله المثالية والكمال الصارم وتصوير الاله كما يراه الانسان العابد الورع والذى تتملكه عقدة الكبرياء والتعالى على غيره من شعوب العالم • كما يظهر ذلك فى افريز معبد البارثينون ، أما فى القرن الرابع فقد أصبحت الآلهة فى نظر الفنان بشرا عاديين صورهم كما يصور الناس فى حياتهم اليومية • لقد سجل براكسيتيليس لأول مرة فى تاريخ الفن الاغريقى صورة الربة أفروديت وهى متجردة تماما من ثيابها فى طريقها الى الحمام وعلى وجهها حياء الأنثى وخجلها وهذا التمثال يعرف « بأفروديت مدينة كنيدوس » Aphrodite of Cindus حيث كان يقام التمثال • حتى الحيوانات الأسطورية الشرسة تحولت الى مخلوقات مهذبة متحضرة وشاعرية مثلما الحال فى تمثال براكسيتليس الذى يصور

الساتوروس Satyros السعيد وهو مخلوق أسطورى يجمع بين روح الحيوان . كما بدأ الاهتمام بتصوير الانسان كفرد مستقل بذاته وانفعالاته وطباعه .

وفى مجال السياسة تغيرت نظرة المواطن الى دويلة المدينة اذ راحوا يدركون أنها ليست سوى حكومة تصرف شئونهم وترعى مصالحهم كما أخذوا ينظرون الى المجتمع نظرة يمكن أن نسميها بمفهوم العصر الحديث نظرة « تعاونية » . كل يعمل من أجل الرخاء العام واختفت روح التكالب على رأس المال . وأصبحت السياسة الخارجية للمدينة أكثر تعقلا وأقل طموحا من القرن الخامس ولهذا كان يفوق كل العصور السابقة سعادة ورخاء وحرية .

واذا كانت أثينا قد فقدت امبراطوريتها السياسية فى القرن الرابع الا أنها لم تفقد امبراطوريتها لتجارية ، ولم تتحقق أحقاد كورنثا فى أن تزول أثينا عن عرش التجارة . ولم تعد أثينا تخشى منافسا آخر سوى جزيرة رودس التى أضحت مركزاً تجاريا هاما فى الجنوب الشرقى من البحر المتوسط . ولكن رودس لم تكن فى مركز يهدد التجارة الأثينية .

ولقد شهدت هذه الفترة انخفاضاً ملحوظا فى تعداد سكان أتيكا بسبب الحروب والأوبئة . فبعد أن كان تعداد الرجال يقرب من ٤٠٫٠٠٠ انخفض عددهم الى ٢٢٫٠٠٠ تقريباً . وقد ساعد هذا الانخفاض على توازن قدرات البلاد الانتاجية بعدد السكان خاصة بعد انتهاء عصر الاستيطان والهجرة وضياع الممتلكات الخارجية .

أما الزيادة السكانية الطفيفة فقد كانت تجد لنفسها عملا كمرتزقة فى الجيوش الأجنبية ، وفى الهجرة الى البلدان الشرقية .

ومن مظاهرة الازدهار التجارى والاقتصادى اتساع ميناء بيريه بشكل راح يجاوز مدينة أثينا ذاتها . بل ظهر فن جديد فى التعامل المالى وهو ما يمكن أن نسميه بنظام البنوك .

ان فكرة البنوك فى العصر الحديث ليست سوى وليدة فكرة قديمة مارستها شعوب الشرق الأوسط الا وهى حفظ الأموال فى المعابد فى حراسة الكهنة ، ثم راح الكهنة بما لديهم من ثروات متجمعة من القرابين والهبات يقرضون الدولة نظير نسبة معينة من الربح . وقد لعب معبد الآله أبوللون فى دلفى دوراً كبيراً فى هذا المجال . أما فى القرن الرابع فقد شجع الازدهار التجارى الأغنياء من الناس على فتح دار للاقراض المالى . اذ أنشأ باسيون Pasion فى آثينا أول دار للاقراض المالى بضمان من جميع مراكز التجارة وكان رأس ماله ٥٠٠ تالنت . كما قدم تسهيلات جديدة للتعامل بالوثائق المالية بدلا من النقود مما أعطى دفعة قوية للتجارة . وبالرغم من ازدهار الحالة النقدية بسبب استخدام الذهب المخزون فى المعابد والقادم من البلاد الأخرى فى سك عملات ذهبية فضلا عن نجاح البنوك فى اغراء أصحاب الأموال المدخرة فى اخراجها وتشغيلها فى أسواق المعاملات الا أن نسبة الفائدة على القروض كانت عالية اذ وصلت الى ١٢٪ مما يدل على شدة الطلب على الأموال بسبب الازدهار التجارى والصناعى .

ولكن تضخم رأس المال واستقلال روح الفرد أديا الى نتائج وخيمة ، اذ ظهرت بوادر الصراع الاجتماعى (١) عندما لفت المفكرون والفلاسفة الأنظار الى التناقض بين المساواة الاسمية فى الحقوق السياسية وبين الفارق الشاسع فى الثروة بين الأغنياء والفقراء ووضحوا عدم جدوى المساواة فى الحقوق السياسية ما دام العدل الاجتماعى غير قائم ولهذا طالبوا بوجوب ربط المساواة السياسية بالعدل الاجتماعى كى لا يستغل الأغنياء ثراءهم فى التسلط السياسى . ومن ثم ظهرت طبقة ديمقراطية تنادى بحتمية اعادة توزيع الثروة عن طريق الدولة . لقد كان مثل هذه الأفكار قبل القرن الرابع محل سخرية أرسطوفانيس فى روايتيه « برلمان النساء » و « الثروة » ولكنها فى القرن الرابع وضعت

(1) P. Mac Kendrick," The Athenian aristocracy, 399-31 B.C., Cambridge, Mass, 1968.

موضع الجدية وتناولها أفلاطون بالدراسة وجعلهـا نظـاما أمثـل فى جمهوريته الفاضلة .

ولهذا لجأت الدولة الى اتخاذ اجراءات سريعة لارضاء المعـدمين فرفعت أجر حضور جلسات المجلس الشعبى من نصف دراخما للجلسة (وهو الحد الذى وضعه بيريكليس) الى دراخما ونصف دراخما . وربما اضطرت الدولة ازاء ذلك لاحرصا على تعميق المفهوم الديمقراطى عند الناس بل نتيجة لارتفاع الأسعار عما كانت عليه أيام بيريكليس ونظرا للازدهار وارتفاع مستوى المعيشة .

ومن الخطوات الأخرى التى اتخذتها الدولة لارضاء الفقراء زيادة الاعتمادات الخاصة بصندوق الألعاب والمهرجانات Theoric Fund وقد نشأت فكرة هذا الصندوق أساسا من عرف قديم كان موجودا منذ أيام بيريكليس يقضى بضرورة منح الدولة للمواطن المعدم ثمن تذكرة حضور عروض المسرح . ولكن فى القرن الرابع زادت اعتمادات البند المخصص للترفيه وللانفاق على المهرجانات الدينية والترفيهية لدرجة اقتضت تعيين مشرف مسئول عن توزيع هذه الأموال . ولارضاء المعـدمين فرضـت الدولة ضرائب باهظة على أصحاب الرساميل من أجل دعم هذا الصندوق تعبيراً من الدولة للمواطنين بأنها تضع رعايتهم ورفاهيتهم أمراً أساسيا .

لقد شمل التغيير أيضاً الجيش اذ لم تعد دويلة المدينة أتونا للحرب كما كانت فى الماضى ومن ثم لم تعد الظروف قادرة على اخراج جنرالات عباقرة من أمثال تمستوكليس وبيريكليس ونتيجة لذلك حدث انفصام بين العسكرية والسياسة وأصبح فن الحرب مهنـة مستقلة يقـوم بها عسكريون محترفون بعيدون عن السياسة . ومن الجنرالات العسكريين الذين برزوا ابان القرن الرابع تيموثيوس وخـابرياس وايفكراتيس . ولقد كان تيموثيوس موسراً وقادراً على تحمل نفقات خدمة وطنه لذات الخدمة . ولكن ايفكراتيس وخابرياس كانا فقيرين مما اضطرهما الى العمل فى الجيوش الأجنبية من أجل الحصول على ثروة تساعدهما على تحمل نفقات منصبهما العسكرى . وبلغ الحـال بأن رفع ايفـكراتيس

السلاح فى وجه أثينا عندما كلفه بذلك ملك تراكيا والذى تزوج ايفكراتيس من ابنته . لقد تغيرت نظرة الجنرالات الجدد الى الدولة خاصة بعد أن عزف المواطنون عن العمل فى صفوف الجيش مما اضطر الدولة الى الاعتماد على الجنود المرتزقة وتوفير رواتبهم الباهظة كما أن الدولة عاملت الجنرالات باجحاف ، اذا كانت تكلفهم بعمليات عسكرية دون أن تمنحهم نفقات هذه العمليات ، وفى بعض الأحيان كان المجلس الشعبى يوافق فى جلسة على تكليف جنرال معين بمهمة عسكرية ويرفض فى نفس الجلسة اعتماد تكاليف هذه المهمة . وفى بعض الأحيان ، كان المجلس الشعبى يقطع الاعتماد أثناء القتال مما دفع الجنرالات الى الارتزاق . وقد ساعد على ذلك أن الجنرالات الجدد لم يكونوا ذوى تأثير على المجلس الشعبى كما كان أسلافهم فى القرن الخامس بل كانوا مجرد عسكريين محترفين بلا سلطة سياسية . وقد ظهرت نتائج ذلك فى تدهور الأطماع العسكرية وتوقف أتون الحرب . وتلاشت الحروب اللهم الا ما كان منها ضروريا لحماية المصالح التجارية .

وبعد أن استعرضنا النظرة العامة لفلسفة الفكر فى القرن الرابع وجب علينا أن نلخص الملامح العامة للحضارة الاغريقية فى تلك الفترة الجديدة .

١ ـ العمارة والفنون :

تميز القرن الرابع بأنه كان عصر الانشاء والتعمير، اذ أقيم ابانه مبان ضخمة وعديدة فى كل من آسيا الصغرى وصقلية وجنوب ايطاليا (اليونان العظمى) ومن أشهر تلك المبانى والتى اعتبرت من عجائب الدنيا فى العصر القديم معبد الربة أرتيميس فى مدينة افيسوس بآسيا الصغرى . وقد أشرف على بنائه المهندس خرسيفرون Chersiphron وقد تم تشييده بعد عام ٣٥٦ ق.م أما المبنى الآخر فهو ضريح الأمير ماوصولوس ملك كاريا والذى عرف باسم الموصوليوم Mausoleum . وقد أشرف على تشييده وتزيينه عدد كبير من المهندسين والنحاتين الاغريق من بينهم المثال

سكوباس Scopas الشهير . وقد بدأ فى انشاء هذا الضريح الذى أشرفت أرملة الملك ارتيميسيا بنفسها على بنائه حوالى عام ٣٥٣ ق.م ولا يزال هناك جزء من عمود رخامى مزين بالنحت موجوداً بالمتحف البريطانى بلندن .

أما فن النحت فقد وصل كما سبق أن أشرنا الى ذروة القدرة والمهارة ولم يعد الفنان يرى الاله الا فى صورة انسان، بل لجأ بعضهم الى اتخاذ نماذج من البشر عند تنفيذ تماثيل الآلهة . مثلما فعل براكستيليس عند انجازه تمثال أفروديت كنيدوس . وكان هذا النحات أول من بدأ الثورة فى عالم النحت . ويتميز أسلوبه بالانسياب الرقيق والاسترخاء فى الوقفة واضفاء مسحة حالمة على الوجه .

ويلى هذا النحات نحات آخر شهير اسمه سكوباس Scopas . ولكنه كان مرتبطا بالعمارة . ويتميز أسلوبه بحب تسجيل الانفعالات العاطفية خاصة الدهشة والخوف — على الوجوه بتعميق فجوة العينين وجعلهما غائرتين . أما العملاق الثالث فى فن النحت فهو لوسيبوس Lysippos الذى كان مواطنا لمدينة سيكيون فى شمال البيلوبونيسوس . وقيل أن لوسيبوس كان يجسم الناس ليس كما هم بل كما كانوا يبدون لعينيه . وبهذا قلل من حجم الرأس وجعل الجسم أطول قامة وانسيابا وأقل بدانة . وقد عرف لوسيبوس بأنه النحات الذى تخصص فى نحت تماثيل الاسكندر الأكبر النصفية ، فهو الذى سجل عادة الاسكندر فى امالة عنقه على جانب من كتفه وعنه نقل الفنانون هذه الملحوظة ابان العصر الهلليستى والرومانى .

وكما برع الفنانون فى فن النحت برعوا فى فن الرسم ونجحوا فى انجاز أعمال خالدة من الفن المنظور وتحكموا فى الظلال والجلاء Chiaroscuro وفى الحركة ودقة الألوان لدرجة عالية لم يحققها الانسان الا فى عصر النهضة الأوربية الحديثة (١). ومن أشهر رسامى هذا العصر بارهاسيوس Parrhasius وزيوكسيس Zeuxis .ولكن للأسف لم يبق

---

(١) انظر السيد رجب حراز : تاريخ اوروبا فى عصر النهضة : مكتبة دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٣ .

لنا من أعمالهما شيئا اللهم الا الوصف النظرى الذى سجله مؤرخو الفن والآثار من الاغريق لأن هذه الرسومات الكبرى على الحوائط تهدمت بفعل عوامل التعرية وبفعل عبث الانسان . لكن انعكاس نهضة فن الرسم يمكن أن نشاهدها فى فن الرسومات الرائعة على الأوانى الفخارية Vase Painting مصدرنا الأساسى عن الكثير من أسرار الحياة اليومية والفكرية عند الاغريق .

٢ — التاريخ :

كان اكسينوفون (٤٣٠ — ٣٥٤) من أعظم مؤرخى القرن الرابع ، وقد كان الى جانب قدرته التاريخية عليما بفنون كثيرة من المعرفة مثل الاقتصاد والتدبير والشئون العسكرية كما كان فى علم السياسة والاجتماع، ولكنه لم يكن باحثا عميقا بقدر ما كان يميل الى العرض العام . وقد سبق الحديث عنه وعن أعماله الخالدة التى سجلها لنا .

والى جانب كسينوفون تردد اسم مؤرخين آخرين هما ايفوروس Ephoros ومعاصره ثيوبومبوس Theopompos (1) .

كان ايفوروس (٤٠٥ — ٣٣٠ ق.م) تلميذاً لأيسوقراط وقد خلد لنا تاريخ العالم (historiae) فى ثلاثين كتاب وبدأ بعودة أبناء هيراكليس (الغزو الدورى لبلاد اليونان) حتى حصار بيرنثوس الشهير على يد فيليب عام ٣٤٣ ق.م . ولقد كان ايفوروس المصدر الأول للمؤرخ ديودوروس الصقلى فيما بعد . كما تأثر بدوره بالمؤرخين الذين سبقوه خاصة ثوكوديديس بالاضافة الى كتاب مقالات القرن الرابع . ولكن تاثيره ظل قويا على المؤرخين الرومان ابان عصر الامبراطورية .

أما معاصره ثيوبومبوس (حوالى ٣٧٨ ق.م) فقد كان مواطنا من جزيرة خيوس ولكنه فر مع أبيه هارباً حوالى عام ٣١٤ ق.م . بسبب ميولهما الاسبرطية وظل الأب والابن فى المنفى حتى أعادهما الاسكندر الأكبر مقابل تأييدهما لمقدونيا ضد أنصار الأوليجارخية الموالية للفرس ، وبعد موت الاسكندر فر ثيوبومبوس هربا الى مصر .

(1) A.E. Bruce : Theopompus and Classical Greek Historiography, *History & Theory*, IX (1970), P. 86-109.

ولكن لم يتبق لنا من أعمال هذا المؤرخ سوى شذرات من مؤلفه الضخم الهلينيكا Hellenica أو تاريخ بلاد اليونان ، والذى هو استمرار للتاريخ الذى بدأه ثوكوديديس ولكن يبدأ بعام ٤١١ ق٠م ، ويستمر حتى معركة كنيدوس عام ٣٩٤ ق٠م ويلاحظ أن جوهر هذا المؤلف هو تسجيل التفوق الاسبرطى ابان الحروب البيلوبونيسية ، ولم نكن نعرف شيئا عن هذا المؤلف حتى عثر حديثا على نصوص منه من بين أوراق البردى التى استخرجت من مدينة أوكسير ينخوس (البهنسا محافظة المنيا) الاغريقية فى مصر ، ودار جدل عنيف بين علماء الأدب انتهى بأن مؤلف بردية أوكسير ينخوس ما هو الا ثيوبومبوس (١) ٠

أما مؤلفه الثانى فهو الذى يعرف باسم الفيليبيات Philippica والذى روى فيه تاريخ فيليب منذ توليه ومدى انعكاسات ذلك على أحداث العالم ويتميز ثيوبومبوس ببعد النظر والبحث الناقد البناء واصداره الحكم الصادق بصرف النظر عن النتائج ٠

٣ — البلاغة والخطابة القانونية :

سبق أن أشرنا فى معرض حديثنا فى هذا الفصل عن تطور فن النثر وانتزاعه اهتمام الشباب والراغبين فى العمل السياسى ، ولهذا ازدهرت عدة مدارس لتعليم لشباب أصول لخطابة حتى يتمكنوا من المشاركة فى الحياة العامة ٠

الى جانب ذلك اردهر فن جديد وهو فن كتابة الخطب الدفاعية لتلقى أمام المحاكم (٢) ٠ وظهر متخصصون جمعوا ما بين البلاغة والخبرة القانونية من أشهرهم لوسياس (٤٥٩ — ٣٨٠ ق٠م) ، وكان أصلا من سيراكوزة فى صقلية ٠ ولكن بيريكليس أغرى أباه بالهجرة والاقامة فى أثينا ، ولكن لوسياس عاد فهاجر مع أخويه الى مستوطنة ثوريى

(1) cf. Pauly-Wissowa, Sub Theopompos (by Laqueur).

(٢) محمد سليم سالم — البدائع — لوسياس بقلم عبد اللطيف احمد على ، ص ٧٩ — ١٠١ ، دار النهضة العربية — القاهرة ١٩٤٥

Thurii ولم يرجع منها الا فى عام ٤١٣ ق٠م حيث أقام أيضا مع أخويه تجارة فى ميناء بيريه تختص بالدروع الحربية ٠

ولكن الاخوة الثلاثة اندمجوا فى الحياة السياسية ولما سقطت الديموقراطية الأثينية ، وأقيمت حكومة الثلاثين هاجم الأوليجارخيون هؤلاء الاخوة بسبب نزعاتهم الديموقراطية وربما طمعا فى مصادرة أموالهم ، ففر لوسياس الى ميجارا وظل هناك حتى عادت الديموقراطية فعاد الى أثينا عام ٤٠٣ ق٠م حيث أنعم عليه بحق المواطنة وذلك لأنه كان قبل ذلك فى عداد الصناع الأجانب Metikoi المحرومين من حق المواطنة ٠

ومنذ ذلك الوقت وحتى موته ألف لوسياس ما يقرب من مائتى خطبة قانونية ليلقيها المحامون فى المحاكم لأنه كأجنبى لم يكن يحق له الظهور أمام المحاكم الأثينية ولكنه خاطب الجماهير فى المهرجان الأولمبى لعام ٣٨٨ ق٠م محذراً من وخيم عاقبة الصراعات الداخلية وأثرهـا على السلام ، كما يقال أنه ألقى خطبة بنفسه ضد رجل يدعى اراتوسثنيس اتهمه بقتل أخيه وذلك فى عام ٤٠٣ ق٠م وهى الخطبة التى رفعته الى مصاف أعظم خطباء أثينا اذ لقب بثالث خطباء أثينا العشرة الخالدين (١) ٠

ولقد نسب الى لوسياس خطب كثيرة بلغت ٤٢٥ خطبة يعتقد العلماء أن ما يقرب ٣٣٣ منها مدسوسة عليه ٠ وبين أيدينا الآن واحد وثلاثين خطبة كاملة يشتبه العلماء فى أصالة تسع منها أما الخطبة التى لا يجادل أحد فى أصالتها فهى خطبة الادعاء ضد اراتوسثنيس والتى ألقاها بنفسه ٠

لقد كان لوسياس من أكبر خطباء الاغريق الكلاسيكيين وهو مثل حى للأسلوب الذى يعرف بالسهل الممتنع البعيد عن الألفاظ الدخيلة والعتيقة والذى يجسم القضية ببساطة ويسر ووضوح ٠ وقد مدحه النقاد كثيراً لصفاء أسلوبه وبساطة لغته والتوفيق بين الألفاظ والموضوع فهو أول من جعل لكل مقام مقال وشبهوه بالرسام البارع الذى

(1) D.M. Mac Dowell, "The Chronology of the Athenian Speeches and legal innovations in 401-398 B.C., R.I.O.A., XVIII (1971) PP, 267-273,

يستخدم الكلمة بدلا من الفرشاه والتنوع الخيالى بدلا من الألوان .

لقد تحاشى لوسياس كل نقائض الخطابة القديمة من الانغماس فى الشاعرية والمبالغة والتهويل واختلاق المواقف الدرامية على حساب الحقيقة والتلاعب بالألفاظ . لقد كان معتدلا فى غواطفه حتى مع اعدائه لأنه كان يبغى الحقيقة الصادقة . وكان يقسم خطبه الى تقسيم بسيط قريب من أسلوب أستاذه ايسوقراط وهو الديباجة ثم الموضوع ، ثم الدليل ثم الخاتمة .

ولقد عمر لوسياس حتى بلغ الثالثة والثمانين ومات بعد أن نال تقديراً واحتراما من الجميع .

ومن الخطباء المشهورين فى القرن الرابع ديموسثنيس وايسوقراط اللذان لعبا دوراً كبيراً فى الحياة السياسية ابان هذا العصر : ولكن يجب أن ننوه بمكانه ديموسثنيس الأدبية فى حقل البلاغة ، ولهذا نسبت اليه خمس وستين خطبة تعرف العلماء على ستين منها . ومن هذا العدد يشك العلماء فى أن سبع وعشرين خطبة ليست من تأليف ديموسثنيس بل بل ربما من تأليف معاصريه من الخطباء المغمورين أما خطب ديموسثنيس التى لا يمكن أن يتطرق الشك اليها فهى مجموعة الخطب الأولنثية « والفيليبات » « وخطبته عن السلام » « وبخصوص التاج » وخطبته ضد ايسخينيس وقد سبق الاشارة فى الفصول السابقة الى المناسبة التى ألقيت فيها كل منها .

ويرى بعض النقاد أن روعة ديموسثنيس تتجلى فى الجمع بين الاخلاص فى القصد وعبقرية الموهبة والدقة فى الصياغة وحرارة الالقاء واختيار اللحظة المناسبة لالقاء الخطبة ومع هذا كله فقد تميز أسلوبه بالبساطة والبعد عن التكلف .

فلا عجب أن أصبحت خطبة محل دراسة طلاب البلاغة من الاغريق والرومان فى العصور المتأخرة (١) .

(١) البدائع (المرجع السابق) ص ١٠٢ - ١٥٩ « ديموسثنيس » بقلم محمد صقر خفاجة .

أما ايسوقراط (٤٣٦ ــ ٣٣٨ ق٠م) فقد كان يعتبر الخطيب الرابع من بين خطباء أثينا العشرة الخالدين وقد نشأ ايسوقراط فى أسرة ثرية قادرة حرصت على أن يتلقى تعليما راقيا على أيدى كبار الأساتذة من أمثال بروتاجوراس وجورجياس كما تأثر كثيرا بسقراط بالرغم من أنه لم يكن من تلاميذه .

ولما فقد أبوه ثروته بسبب الأحداث التى عصفت بأثينا فى نهاية الحروب البيلوبونيسية اضطر ايسوقراط أن يتعيش من كتابة الخطب القانونية كما قام بتدريس البلاغة فى جزيرة خيوس ثم عاد الى أثينا عام ٤٠٣ ق٠م حيث افتتح مدرسته الشهيرة فى حوالى عام ٣٩٢ ق٠م والتى قصدها أثينيون وغير أثينيين على السواء وحققت له ثروة وشهرة كبيرة . وقيل أن عدد تلاميذ مدرسته جاوز المائة منهم الخطباء ايسايوس Isaeus وهيبريديس ولوكرجوس الأثيني والمؤرخان أيفوروس وثيوبومبوس . كما كان على علاقة وثيقة بأيفاجوراس Evagoras ملك قبرص وابنه نيكوكليس .

وقد سبق أن أشرنا الى فلسفته العامة (١) وآرائه السياسية ومميزات أسلوبه الأدبى ، وقد مات ايسوقراط بعد أيام قليلة من موقعة خايرونيا الكبرى عام ٣٣٨ ق٠ م .

ونسبت الى ايسوقراط ستون خطبة ويعتقد النقاد أن نصف هذا الرقم مدسوس عليه وعلى أى حال لم يصلنا سوى واحد وعشرون خطبة له منها ست خطب قانونية كتبت لكى يلقيها آخرون أمام المحاكم والباقى عبارة عن مقالات سياسية .

ويتميز أسلوبه بدقة اختيار الكلمات وموسيقية النغم ومهارة التشبيه ويقال ان شيشرون أعظم خطباء الرومان سار على نهج هذا الخطيب العظيم .

---

(١) عن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التى اثارها ايسوقراط انظر :

Fucks, "Isokrates and the Social - economic Situation in Greece". Ancy. Soc. III (1972) PP. 17-44.

٤ — الفلسفة :

منـــذ فجر تاريخهم ، سـيطر على الاغريق حب البحث والمعرفة عن طبيعة الأشياء ومسبباتها كما أن حب الاستطلاع كان غريزة قوية عندهم ، ومن ثم درسوا العلم ابتغاء المعرفة لذاتها وليس من أجـل أى غرض نفعى • وقد بدأوا بالتحرى عن الأشياء الغريبة ثم تقدموا شيئا فشيئا الى البحث عن المشاكل الأكثر غموضا مثل الظواهر الطبيعية والشمس والقمر وأصل الكون • ولهـذا لم يفرق الفلاسـفة الأول بين العـلم والفلـسفة •

وفى عصر التوسع التجارى انتعشت نزعة التفكير بعـد أن تكشف أمام أنظارهم عالم أوسـع كشف لهم عن معرفة جـديدة عرت معتقداتهم القـديمة وبدأ لأول مرة فى تاريخهم الاتجاه الى التخلص من المعتقدات الدينية والشعبية من أجل ممارسـة البحث العلمى • وكانت مدينـة ميليتوس وهى مركز تجارى هام مسقط رأس الفلـسفة الأيونيـة • وبرزت أسماء لامعة مثل طاليس Thales وأنا كسيماندر وأناكسيمينيس وكان أسلوبهم علميا وملاحظاتهم تقوم على التجربة بعد الفرض • وكان هدفهم الكشف عن مبادىء لها ارتباط بالضرورة وسط مظاهر متغيرة « فلا شىء ينبعث من لا شىء » ولا شىء يحدث بغير شىء ولكن كل شىء يحدث عن سبب وضرورة (١) • ومن ثم راحوا يبحثون فى كل مكان فى الطبيعة وفى شجاعة تكاد تصل الى الخطيئة ، من أجل العثـور على قانون يحكم الكون » وقد نجحوا فى الكشف عن النظرية الحقيقية للكسوف والخسوف وكروية الأرض ودورانها كغيرها من الكواكب السيارة ، وحول مركز نظامها •

كل هذا تم عن طريق ملاحظة الظواهر واقامة الدليل ثم استخراج القانون كما بحثوا عن مادة تكون أصل الكون (Physis) • واعتقد طاليس أنها الماء وقال غيره أنها الهواء أو النار أو البخار أو فى توافق أصول متضادة ومتعارضة مثلما يقول هيراقليطس الأفسوسى •

(1) Burnet Early, Greek Philosophy, P. 340 f.

وفى نفس الوقت الذى كان فيه الفلاسفة الأيونيون يلاحظون الظواهر الطبيعية ويبحثون عن أصول الكون كان فيثاغورس واتباعه فى جنوب ايطاليا يضعون أسس دراسة الرياضيات والهندسة البحتة وتطبيق الرياضة على فروع العلم المختلفة خاصة فى الموسيقى والفلسفة بوجه عام ، وأن « الرقم » هو أصل الشىء ثم ظهر فلاسفة القرن الخامس الذين سبق أن أشرنا اليهم .

ولكن كل هؤلاء الفلاسفة السابقين ، كانوا باحثين طبيعيين (Physisicsts) يتجاهلون وقائع وحياة الانسان العقلية والخلقية ولا يعرفون التمييز بين العالم المادى والروحى ولكنهم أوجدوا التشكيك فى كل شىء قبل البحث العلمى والوصول الى الحقيقة .

وفى ابان عصر بيريكليس بدأت نزعة الفلاسفة تتجه نحو المسائل النظرية الخاصة بالخلق والسلوك نتيجة للاصطدام بالواقع والتحول الى السعى نحو معرفة لها اتصال مباشر بالحياة العملية ، ولأول مرة سلط نور العقل الصافى على مسألة سلوك الانسان ، وقال بعضهم مثل بروتاجوراس أن الانسان مقياس كل الأشياء .

وان النجاح هو المعرفة التى تقوم على الاستدلال العقلى وأن الفضيلة هى نظريات مكتسبة وهى الفنون المهنية المختلفة . وقد قاد السوفسطائيون هذه الحركة الجديدة .

ويعتبر سقراط الأثينى (٤٦٩ — ٣٩٩ ق.م) نقطة تحول فى هجرة البحث العلمى التجريدى . لأنه بنى أبحاثه على أساس التأمل الواقعى الأخلاقى للناس فيقول أفلاطون على لسانه « أننى أعشق المعرفة فالناس الذين يقطنون المدينة هى معلمى وليس الأشجار أو الريف (١) . وبالرغم من أن سقراط لم يترك وراءه مؤلفات توضح وتشرح فلسفته الا أنه ترك تلاميذا له من أمثال أفلاطون الفيلسوف والذى كرس حياته بعد موت أستاذه فى تسجيل أفكار سقراط فى شكل محاورات .

(1) Plato, Phaedros, 23.

وفى القرن الرابع بلغت الفلسفة ذروتها عندما ظهر فيلسوفان عظيمان هما أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ق٠م) وأرسطو (٣٨٤-٣٢٢ق٠م) ولد أفلاطون فى أثينا (أو فى جزيرة أيجينا) وعندما بلغ سن العشرين انضم الى تلاميذ سقراط وظل مرافقا له حتى موته عام ٣٩٩ ق٠ م ومن ثم لم يطق أفلاطون البقاء فى أثينا فانطلق فى رحلات متتالية زار فيها قورينة (Cryene) ومصر واليونان العظمى Magna Gaecia ٠ كما سافر الى صقلية ليزور ديونيسيوس الأكبر طاغية سيراكوزه ولم يعجب الطاغية هذا الفيلسوف بل أثار غضبه بنظرياته وألقى القبض عليه وعرضه للبيع فى سوق الرقيق حتى افتداه أحد أصدقائه وعاد به الى أثينا حوالى عام ٣٨٧ ق٠ م حيث افتتح مدرسة فى أجمة مقدسة لبطل يدعى أكاديموس Academos ولهذا سميت مدرسته بالأكاديميا ٠ ولكن أفلاطون عاد لزيارة صقلية مرتين مرة فى عام ٣٦٧ ومرة فى عام ٣٦١ ق٠ م بهدف أغراء ديونيسيوس الأصغر ليجرب حقل الفلسفة ويعطيه الفرصة ليطبق نظرية المدينة الفاضلة فى سيراكوزه ولكن أفلاطون فشل فى ذلك وانتهى أمره الى الشجار مع ديونيسيوس الأصغر فعاد الى أثينا وعاش فيها حتى مات عام ٣٤٧ ق٠م حيث خلفه ابن شقيقه فى ادارة المدرسة ٠

وأهم ما خلف لنا أفلاطون المحاورات dialogues ، وقد نسب اليه اثنين وأربعون ديالوجا لم يعترف العلماء بسوى خمسة وعشرين منهم كمحاورات أصلية كلها تدور حول سقراط وشخصيته وأفكاره ٠ وهى غاية فى الاستدلال العقلى والبحث العلمى بالاضافة الى مهارة الحكمة الروائية والتصويرية ، ويقسم الفلاسفة هذه المحاورات الى محاورات روائية وتسجيلية لحياة أستاذه سقراط وهى التى ألفها فى الفترة المبكرة من انتاجه ، أما الأخرى فهى الديالوجات الميتافيزيقية وهى التى كتبها فى فترة متأخرة من حياته ٠

ومن أعظم ما ترك لنا أفلاطون مؤلفه الخالد « الجمهورية » ؛ وهي يوتوبيا سياسية بدأها بسؤال عن ماهية العدل ثم تطرق الى تخيل عام عن جمهوريته الفاضلة التي يتحقق فيها الخير الاسمى لكل الناس . دولة تقسم فيها الوظائف الاجتماعية على أساس نفسية المواطنين وخصالهم فأولئك الذين تغلب فى نفوسهم الشهوة يؤدون العمل البدنى كالصناعة والزراعة أما ذوى النفوس النشطة فتتولى الحرب والشئون العسكرية . بينما يتولى الفلاسفة مهمة الحكم وينتهي الى رأيه الشهير « الى أن يصبح الفلاسفة ملوكا والملوك فلاسفة فلن يكون هناك خلاص للدول أو لأرواح النـاس » (١) .

وقد حاول أفلاطون تحقيق هذه الجمهورية المثالية فى سيراكوزه ، ولكنه فشل واصطدم بأرض الواقع المرير ، ولهذا حاول تعديل آرائه فألف من أجل ذلك « القوانين » .

ومن تعاليم أفلاطون أن السلوك الجاد يجب أن يسود الحياة العامة والخاصة بحيث يسـود الوفاق والجمال والنظام وهى من الصـفات الأساسية للعالم الاسمى ، وهو عالم الخير المطلق ذلك العـالم الذى كانت تعيش فيه الروح قبل أن تحل بالبدن كما حدد خلاص الانسان بالمران على فضائل أربع هى : الشجاعة والعفة والحكمة والعدل .

وكما يعتبر أفلاطون من أعظم مفكرى الاغريق يعتبر أيضا من أعظم كتاب النثر عندهم فأسلوبه مزيج من الشعر والنثر ، أو شعر منثور . كما أنه متنوع الأساليب حسب تنوع المزاج فحينا هو سـاخر وحينا متصوف وحينا آخر غاضب منتقد متوقد ، وقد قسم الفلاسفة كتاباته الى ثلاثة مصنفات روائية وجدلية وافتراضية .

ارسطو طاليس :

ولد أرسطو طاليس أو أرسطو فى مدينة ستاجيرا Stagira فى اقليم تراكيا عام ٣٨٤ ق. م ، وكان أبوه يعمل طبيبا فى البلاط المقدونى وبعد

(١) الجمهورية الكتاب الخامس ص ٤٧٣ .

موت أبيه سافر الى أثينا لينضم الى مدرسة أفلاطون ، وظل بهذه المدرسة حتى موت أفلاطون فى عام ٣٤٧ ق٠م ٠

وبعد عام ٣٤٢ ق٠م دعاه فيليب المقدونى ليشرف على تعليم الاسكندر فى القصر وباشر أرسطو مهمته بنجاح حتى غادر الاسكندر مقدونيا فى غزوته الكبرى للشرق فى عام ٣٣٥ ق٠م عندئذ عاد أرسطو الى أثينا ليفتتح مدرسة فى أجمة مقدسة لأبولون ليكايوس Appollo Lycaeus ، ونظرا لعادته فى التمشى أثناء الحديث ، فقد أطلق على مدرسته اسم المشائية Peripatetic.

ولما اندلع شعور العداء ضد المقدونيين وأنصارهم بعد موت الاسكندر الأكبر أصبح أرسطو طاليس موضع هجوم فتاك ووجه اليه اتهام بعدم التقوى والاخلاص ومن ثم فر الى مدينة خالكيس فى جزيرة يوبويا وظل بها حتى مات فى عام ٣٢٢ ق٠ م ، فى نفس العام الذى مات فيه ديموسثنيس Demosthenes.

ان ادراك أرسطو القوى والواقعى بالطبيعة وبالحياة الانسانية واهتمامه بظواهر العالم الهللينى الاجتماعية والطبيعية هما اللذان جعلا من فلسفته شرحا شاملا لجوهر الثقافة الهللينية ، ولهذا يقال اذا كان أفلاطون أكثر عمقا فى البحث عن نوازع البشر فان أرسطو أكثر اقترابا من الواقع الهللينى ٠ كما أنه كان باحثا علميا منطقيا الى أقصى درجة ٠

وقد غطت أبحاثه كل جوانب الفكر والمعرفة الانسانية ابتداء من المنطق والديالكتيك الى الميتافيزيقا وعلم الحياة والطبيعة والى التطبيق العملى للفلسفة أى السياسة ، ثم الأدب والفنون الجميلة ٠

ومن أعظم مؤلفاته العلمية فن الريطوريقا أو البلاغة ، وفن الشعر ، وفى الكتاب الأول يعرف لنا البلاغة بأنها القدرة على تحقيق الاقناع المناسب فى الموقف المناسب عن طريق الأدلة وصياغة الأسلوب ٠ أما فن الشعر فهو يردد نظرية أفلاطون فى أن الشعر ليس الا تقليدا mimesis

ومن هذا المنطلق يذهب الى مناقشة التراجيديا الاغريقية ووظيفتها التى حددها بقوله أنها تحدث عن طريق الرثاء والخوف تطهيرا للنفس Katharsis.

أما فى بحثه عن الأخلاق Ethics فقد سار على طريق أستاذه أفلاطون حيث استهل كتابته بالبحث عما هو أعظم خير للانسان وعن الغاية القصوى له وغرضه من ذلك ، وكان من بين تعاليمه أن الانسان من دون سائر الموجودات يجمع ما بين قوة الشعور والشهوة وقوة العقل • فهو بالشهوة الجسيمة يشبه الحيوان وبعقله يشبه الاله ، وباتخاذ هاتين القوتين يصير كائنا أو أخلاقيا ، والأخلاقية فى مفهومه هى التوفيق بين عناصر الحيوان والعقل وهذا التوفيق بين ارادة الانسان وعقله يولد الفضائل الأخلاقية أو لسعادة العظمى Summum bonum التى هى هدف الانسان الأول فى الحياة ، وبينما كان سقراط يرى الفضيلة كنتيجة للعقل وحده وليست نتيجة للتربية ولا العادة ، اذ بأرسطو يرى أن التربية والمران والعادة ضروريات لتكوين الفضيلة ويحدد الفضيلة بأنها عادة ثابتة ومتقررة يكونها المران وتغليب العقل وهدايته •

أما أعظم أعمال أرسطو فهو مؤلفه الخالد السياسة Politics وفيه قام كأستاذ للعلوم السياسية بدراسة ناقدة للدساتير الاغريقية جميعا مبينا لها وما عليها •

أما أسلوبه الأدبى فهو على النقيض تماما من أسلوب أفلاطون ، فهو أسلوب علمى جاف لا يغرى قارئه بقدر ما يرهقه ، ولهذا يدافع البعض عنه بقولهم أنها ليست مؤلفات بل مذكرات لمحاضراته كان يلقيها على طلابه على عجل وهم ينهثون خلفه ، أما ما يذكره شيشرون عن مؤلفاته كينبوع ذهبى فهو صفة لمؤلفات أرسطو الأصلية التى فقدت (١) •

(١) تشر بيلافسكى حديثا مخطوطا عربيا هو عبارة عن خطاب من ارسطو موجه الى الاسكندر بشأن السياسه الواجب اتباعها ازاء المدن الاغريقية

Lettre d' Aristote a Alexandre sur la politique envers les cities, texte arabe etablié et traduit par J. Bielawski, Archivun Filologiczne XXV, Worclaw karkow, 1970 C = Mnemosyne, Series 4, XXV (1972) p. 261-295.

الديانة :

فى القرن الرابع ماتت الآلهــة القديمة وفقــدت تأثيرها ورهبتها لعجزها عن وقف الحروب وحماية الانسان من الوباء • ولهذا حــدث ما يشبه الانفصــام ما بين المثقفين الذين أولوا ظهورهم الى المعابد واتجهوا الى الفلسفة المجردة لاشباع دوافعهم الداخلية وأصبحوا ملحدين بديانة آبائهم وأصبح الالحاد ظاهرة عامة بين المثقفين أما عامة النــاس فقد فتحت صدورها لديانات الشرق الوافدة مثل آمون وايزيس وميثراس وغيرها وأغرقت الديانة نفسها فى بخور الشعائر الغامضــة وفى التنجيم والسحر والنبوءات والشعوذة والدجل • وانهارت التقوى الاغريقيــة التى كانت ســائدة فى عصر الامبراطورية أو عصر بيريكليس العظيم وهجرت المعابد الكبرى ولهذا لم تعد الدولة تهتم ببناء المعابد العظيمة كما كان الحال فى العصر الكلاسيكى •

« والله أعلم »

فهرس لموضوعات الكتاب

رقم الصفحة

اولا :

رقم الصفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

ثانيا ـ قائمة الخرائط :

ثالثا ـ الصور :

تم بحمد الله وتوفيقه فى يوم الأحد الموافق الثانى والعشرين من جمادى الآخره عام ١٣٩٦ هجرية الموافق العشرين من يونيو عام ١٩٧٦ ميلاديه والموافق الثالث عشر من شهر بؤونه عام ١٦٩٢ من السنة القبطية .



رقم الايداع بدار الكتب ٢٢٨٧ سنة ١٩٧٦